الفكر السياسي

عند الأنصار



تأليف

الدكتور/ ياسين غضبان

دار الوفاء
للطباعة والنشر والتوزيع

الفكر السياسي عند الأنصار

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

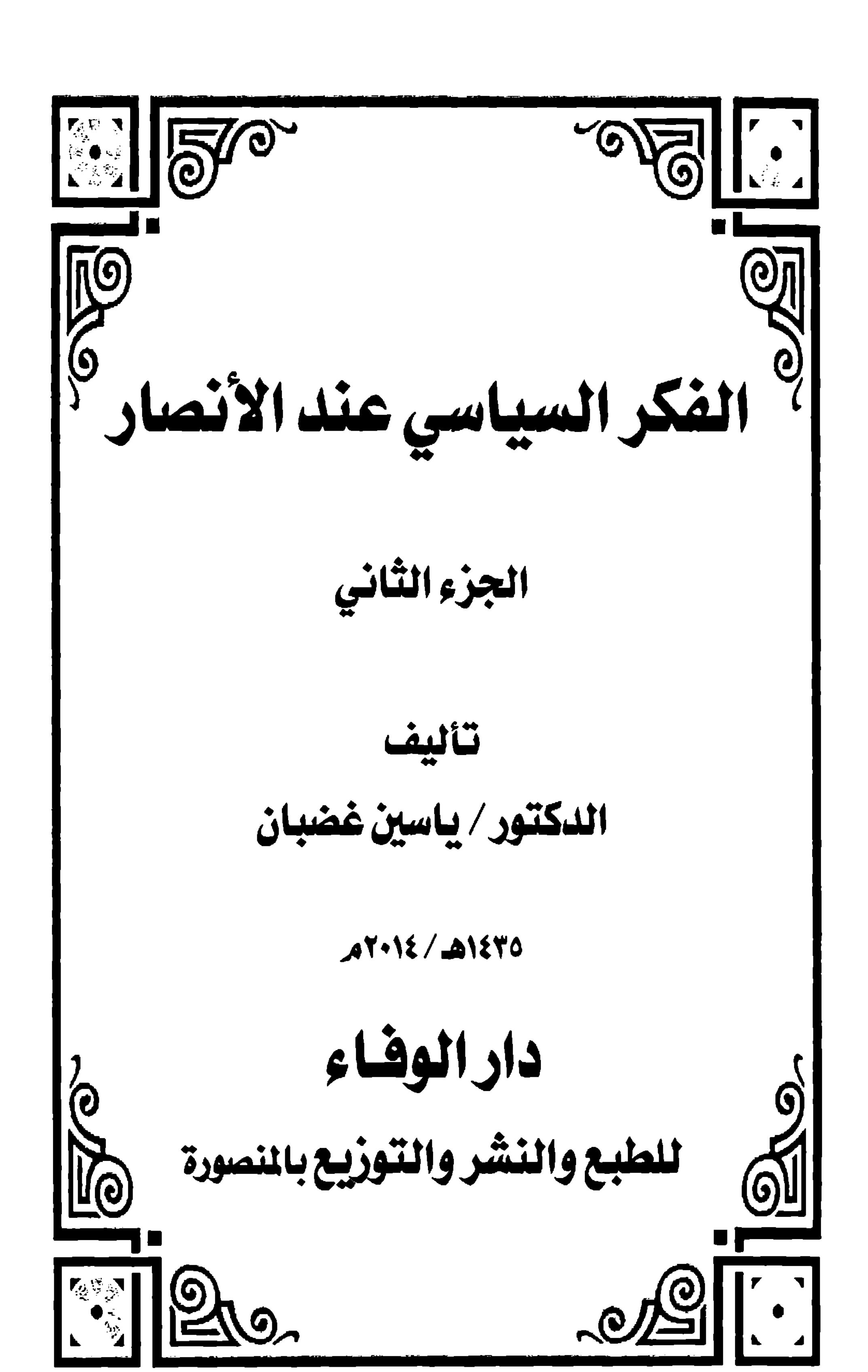
الوفاء للطباعة والنشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - جمهورية مصر العربية

الإدارة والمكتبة: 5 شارع هجرس - أمام كلية الطب - المنصورة

تليفون وفاكس: 20502370863+ ص.ب: 230

E-mail: darelwafa2005@yahoo.com www.darelwafaa.com



الفكر السياسي عند الأنصار

الجزء الثاني

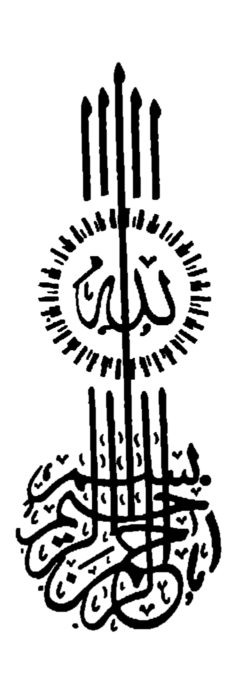
تأليف

الدكتور / ياسين غضبان

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

دار الوفاء

للطبع والنشر والتوزيع بالمنصورة



الفصل الثالث

يثرب قبل الإسلام

تحول الفكر السياسي عند أهل يثرب .

القسم الأول : ظهور الدعوة الإسلامية فى مكة .

القسم الثاني : دخول الإسلام إلى يثرب .

القسم الثالث : هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب .

الفصل الثالث

يثرب بعد الإسلام

تحول الفكر السياسي عند أهل يثرب

مدخل :

القرن السادس للميلاد فترة من الفترات المهمة في تاريخ البشرية ، فيه ظهرت أمارات الشيخوخة على الإمبراطورية الساسانية التي شيدها (أرد شير الأول) على أثر الثورة التي اندلعت عام ٢٢٤م أو ٢٢٦م ، ثم لم تلبث أن انهارت في القرن السابع للميلاد وبسرعة عجيبة ، وبأيد لم يحسب وجودها حساب ، ومن مكان لم يكن له قبل ظهور الإسلام أثر فعال في السياسة العالمية .

وفي هذا القرن أيضا برزت الأمراض العديدة التي ألمت بالقيصرية ، والأملاك التي كانت خاضعة لها، وهي أمراض لم تنج منها إلا ببتر بعض أطرافها في القرن التالى له، فخرجت من ردهة العمليات تئن من فاجعة الألم الذي حل بها ، ومن هول ما أصيبت به بذلك البتر[(١)]

هذا مجمل سريع يفسر حال القوى العظمى التي تقاسمت العالم قرونًا عديدة ، وكان العرب أحد أتباع لكليهما ـ أو للأقوى منهما ـ ولم يكن فعلا يحسب للذين جاؤوا من جزيرة العرب أي حساب، ولم يكن لهم في ميزان السياسة العالمية أي وزن ، إلا استخدامهم رؤوس حراب ومقدمات جيوش ، وسدودًا مانعة أمام الأعداء

والمدينة المنورة التي خرج منها الفتح الإسلامي في منتصف القرن السابع كانت

---

(١) جواد علي : تاريخ ٤ / ١٥٨

قد تحولت بفعل الإسلام العظيم إلى قوة غيرت التاريخ كله ليس لسنوات أو قرون ، ولكن ـ بمشيئة الله ـ إلى يوم الدين .

في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ولد الرسول ﷺ ٢٤ / ٤ / ٥٧١م ، وبميلاد الرسول ظهر حدث تاريخي خطير للبشرية في النصف الأول بين القرن السابع للميلاد يكفي أن أثره قائم حتى الآن،وأنه سيقوم إلى ما شاء الله ـ وأنه أوجد مفاهيم خلقية جديدة للبشرية، وأنه بشر برسالة قائمة على أن الدين لله ، وأن الناس أمامه سواء لا فرق بين فرد وآخر ، وجنس وجنس ، ولا تمييز للون على آخر

ثم لم يلبث أن انتشر بسرعة عجيبة لم ينتشر بمثلها دين من الأديان ، فقضى على إحدى الإمبراطوريتين في عالم ذلك العهد ، واستأصل الأعضاء الثمينة من الإمبراطورية الأخرى ، وأوجد من أشتات سكان الجزيرة العربية أمة ، ومن قبائلها المتنازعة حكومة ذات سلطان ، وفاض على سداد الجزيرة ، وسقى ما وراءها من أرضين ، ثم وحدَّ بين أقوام عديدين وجمعهم في صعيد دين الله[1]

هذا الانقلاب العظيم في تاريخ البشرية لم يأت مصادفة أو من فراغ ، ولم يأت من موت أحد وحياة أحد ، ولكنه جاء والقوى العظمى ـ آنذاك ـ تستطيع أن تجند مئات الآلاف من الجنود؛ لتكتسح المدن والقرى والأقاليم ، وتقطع البحار وتمخر عبابها ، وتجتاز الجبال والأنهار ، وتنتصر وتنهزم، والخوف من غلوائها منتشر في أقاصي الأرض ودانيها ، وجبروتها إن طال أمدا أفناه ، ومجدها إن طال أحدًا أعزه ، وهي دائمة الحركة والنمو والتوسع والانكماش فهي قادرة على كل حال اقتصاديا وعسكريا وسياسيا على أن تؤدب الثوار،وتمنع الغزاة وتبني الأمجاد، وتثبت في الأرض حضارة الأقوياء،وجبروتهم،وتضع في مجرى التاريخ قوانينها وأحداثها ورخاءها، ويستطيع القادة السياسيون أن يعملوا أعمالا جبارة يحكى عنها التاريخ أنها كانت من الخوارق .

(١) جواد علي : تاريخ ٤ / ١٥٨ ، ١٥٩

هذه القوى التي يقابلها المستضعفون والمقهورون والمنهزمون في الداخل قبل الخارج ، والذين لا يحلمون إلا أن يعيشوا في سلام مع نسمات الحرية ، حتى لا يتحولوا فجأة إلى عبيد وأقنان أوجثث تلتهمها الوحوش والطيور .

تلك القوى كان يفتك بها المرض الجسدي والنفسي معا ، وكانت الفرقة ديدنها وسداد رأيها والحروب ـ تقليدا للكبار ـ كلعبة الأطفال تفنيهم زيادة في فنائهم وتخلفهم وضعفهم ، وتبلغ الحالة بهم حدًّا لا يمكن أن يطاق أو يحتمل ، وتتحول الشعوب المتمدينة إلى شعوب بدوية ، ويتغير الوضع السكانى بين الحين والآخر ، وتنتقل شعوب ، وتهاجر شعوب وقبائل ، وتبنى مدن ، وتشاد مساكن، وكل هذا ربما يكون في وقت نموذجي .

وفي هذه الحالة نستطيع أن نتصور أمرًا لم يخطر بال العالمين ، ولا حتى الموغلين في التفاؤل، كيف يخطر بالبال أن يتغير هذا الوضع في أقل من خمسين عاما على بدء الرسالة؛ وإذا بما تقدم تصوره يتحقق ، وإذا المفاهيم والقيم والعظمة والضعف والقوة والبأس والتخلف والفرقة ، كل هذه التي سادت قرونا قد تغيرت رأسا على عقب عندما حول رجل ـ طرده قومه ولاحقوه يريدون قتله بأية حال،وأي موقف، ولم ينج من القتل إلا بأعجوبة ـ مسار الدنيا وأعرافها ، وقيمها الفاسدة التي تجثم على أرضها بثبات عجيب وفخامة مخيفة .

وهذه المدينة ـ يثرب ـ وسكانها الذين استفضنا بالحديث عنهم – قد أصبحت هي وهم محور حركة الدنيا السابقة ومسارها إلى تحرك العالم اللاحق ودفعه في الطريق الذي اختاره الله تعالى للبشرية في الرسالة الخاتمة .

وقد ابتُلي هذا القرن السادس الميلادي والنصف الأول من القرن التالي له بأوبئة وآفات وبمجاعات زادت في مشكلاته الكبيرة التي ورثها من القرون السابقة له ، ففيه انتشرت أوبئة ابتلعت بضع مئات من البشر في كل يوم من أيام انتشارها ، وكانت العواصف تنتقل من مكان إلى آخر مكتسحة من تجده أمامها من مساكين ،

وتعود بين الحين والحين لتبتلع ما يسد حاجتها من البشر والحيوانات ، وفيه منى العالم بزلزال ، وبنقص كبير في الغلات أوجد قحطا ومجاعة وفقرا في كثير من الأقطار، حتى اضطر كثير من الناس إلى هجرة الأماكن المنكوبة، والارتحال عنها إلى أماكن أخرى فيها النجاة والسلامة .

هذا بالإضافة إلى ما كانت الحكومات المتسلطة تمارسه نحو الشعوب المغلوبة ، وحتى ضد شعوبها نفسها من الجندية والضرائب ، والقهر والتحكم والتبعية ، أما الشعوب الأخرى فقد كان الكثيرون يتمنون عيشة العبيد ، فقد أوصلتهم حكومتا الساسانيين والقياصرة إلى مرحلة متطورة من البذل والقهر والإذلال ؛ حتى إن الكثير من السكان قد هاجروا من بلادهم وعاشوا في بلاد ساداتهم ومنهم من كبر وبرز وحكم في بلاد العزة والشأن .

ولا ريب أن ظروفا هذه حالتها لابد أن تتولد منها مشكلات اجتماعية ، وسياسية واقتصادية للحكومات والرعية ، فاختل الأمن خاصة في المواضع الواقعة تحت أقدام الجيوش ، فيوما تكتسحها جيوش الفرس فتهدم كل ما تجده أمامها من قرى ومدن ويومًا تغزوها جيوش الروم فتتولى على ما تجده أمامها من حاصلات زراعية ومن أموال .

وفي ظروف هذه شأنها لا بد أن يجد الخارجون على النظام ، والطامعون في الربح السهل الحرام فرصا مواتية لا يفرط فيها للمكسب والظفر بما يرغبون فيه ، فتأثرت بذلك حالة سكان هذه الأرضين كما تعرضت التجارة للأخطار ، واضطر التجار إلى سلوك طرق نائية، ليكونوا بمأمن من شر قطاع الطرق وفسادهم ، ترك أكثر الناس مزارعهم وتراهم فرارا من هذا الوضع إلى المدن الكبيرة البعيدة عن مواطن الغزو والأخطار ، فتحولت خيرة الأرضين الخصبة إلى أرضين مجدبة نتيجة لهذه الهجرة ولتراكم الأتربة في شعاب الري[١]

---

(١) جواد علي : تاريخ ٤ / ١٥٩

ونتج عن ذلك تخلف كل النواحي الاقتصادية والتجارية وحتى الفكرية ، لأن الحرب إذا انتشرت لا يرتبط بها إلا فنونها وأسلحتها وحصونها ومعاركها ، وتدمر بعد ذلك كل القيم الإنسانية الأخرى من العدل والحب والعلم والفكر والفلسفة والفن والجمال والأدب .

القسم الأول

ظهور الدعوة الإسلامية في مكة

مدخل :

كان العالم عند ظهور الدعوة الإسلامية يصطرع بأيدي الطغاة ونظمهم وقوانينهم ، وكانت كل الأصوات خاضعة بالدرجة الأولى إلى تمكن الجبابرة من بعضهم البعض ، أو من الضعفاء في الأرض ، ومع أن الروم قد ثبتوا بعض ملامح النصرانية،لكنهم جعلوا منها نصرانيات كثيرة متصارعة متقاتلة يكفر بعضها بعضا، وينكر بعضها على البعض الآخر المعتقد والمنقول والمكتوب .

وكان لدى الفرس بعض خيوط من مثنوية زرادشت التي نقض.غزلها وهدم أركانها مزدك بنظريته الإباحية التي فرضت من قبل السلطان على الناس، وحار الكثيرون بين الاعتناق وبين العودة بحيث عادت الزرادشتية لتصنع حياة الفرس بطابعها ، وعرفت عند العرب بـ المجوسية

هذا العالم المتصارع الذي يتحرك به الآخرون بإرادة الأقوياء ، أو يتحركون لأتفه الأسباب ، كان هناك بعض المؤمنين القلة الذين تركوا هذه الحياة ، وبدؤوا يتلمسون بعض القيم في الديانات السابقة .

فاليهود على انكماشهم وانغلاقهم لم يعطوا الآخرين إلا بعض التباشير التي عندهم في الكتاب ، والبعض الآخر تأثر بالنصرانية ولم يسلم من اضطهاد اليهود إن استطاعوا من رقابهم ، وقليلون جدا بدؤوا يتلمسون بعض القيم ، ويبحثون عما بقى من تعاليم إبراهيم متفائلين بأن الحق يمكث هناك في تلك التعاليم حتى يخلصوا نفوسهم ونفوس الآخرين مما وصلت إليه الإنسانية من طغيان وكفر ، ولقد سدت المنافذ على هذه الأصوات الضعيفة، فلم يكن لها مجال إلا أن تطوف بالكعبة التي بناها إبراهيم لعلها تجد شيئا وعسى أن تهتدي إلى شيء !!

أما الأقوياء فقد سدوا المنافذ على كل الأصوات الأخرى، وأحكمت رتاجاتهم فلم تدع لأحد وقتا ليستمع إلى أصوات الإصلاح تدخل من أي باب، أو تدق أي نافذة ، إلا أن كل الأفكار أخذت تتجه إلى أن زمان نبي يغير حال الدنيا قد قارب .

هكذا يجد هؤلاء المتدينون نصارى ، ويهود ، ومجوس ، وآخرون ، بما في أيديهم من خبر ، ولقد أوردت كتب السيره الكثير من هذه الأحداث نقف على بعضها :

قال محمد بن إسحاق رحمه الله وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل بعثته لما تقارب زمانه،أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فما وجدوا في كتبهم من صفته ، وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ، ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف] .

وقال الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الصف]. وقال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] .

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بُعث محمدُ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وليتبعنه .

نعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه ، وأمروا أتباعهم بالإيمان به ، وقد قال إبراهيم عليه السلام فيما دعا به الأهل مكة ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة] .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج بن فضالة ، حدثنا لقمان بن عامر سمعت أن أبا أمامة قال : قلت: يا رسول الله ما كان بدء من أمرك ؟

قال ﷺ :«أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام» .

وقد روى محمد بن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ عنه مثله[1]

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكان أهل الكتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا أنلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فباعدناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به وفيهم نزلت هذه الآيات من سورة البقرة ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ١ / ٢٨٦ ، ٢٨٧

﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾ [البقرة][1]

وقال ورقاء ، عن أبي نجيح، عن علي الأزدي: كانت اليهود تقول :«اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس يستفتحون به ، أي يستنصرون به »، رواه البيهقي .

ثم روى عن طريق عبد الملك بن هارون بن غبرة عن أبيه عن جده ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت اليهود بخيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هزمت يهود خيبر ، فعادت اليهود بهذا الدعاء ، فقالوا اللهم نسألك بحق محمد النبي الامى الذي دعوتنا أن تخرجه في آخر الزمان أن تنصرنا عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان ، فلما بُعث النبي ﷺ كفروا به فأنزل الله جل وعلا : ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة:٨٩] .

وروى عطية عن ابن عباس نحوه ، وروى عن عكرمة من قوله نحو ذلك[2]

ولقد وردت الكثير من النبوءات سواء في كتب السيرة أو الدراسات عن السيرة في العصر الحديث، وقد تحرى الكثيرون عن هذه النبؤات حتى التي لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم والأثر كالنبوءات لدى (بوذا وبراهما وزرادشت) ، وغيرهم من مشاهير العالم القديم ، ومدار البحث فيها على البعثة النبوية بعثة محمد ﷺ ، وما تقدمها من أحوال العالم وأحوال الجزيرة العربية ، وأحوال الأسرة الهاشمية وأحوال أبويه الشريفين .

ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات ، مقدمات تمهد لنتائجها وتفضي إليها ، ومقدمات تأتي النتائج بعدها كأنها رد فعل لها، وعلاج لسبابها، وعواقبها، مقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الموت فهو نتيجته وعقباه على الشرعة المعمودة في طبائع الأشياء، ومقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الدواء ، فليس هو نتيجة له إلا على معنى واحد وهو لحاق الداء بالدواء ، وظهور الشفاء بعد الحاجة إليه .

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ١/ ٢٢٥ . السيرة النبوية: ابن كثير ١/ ٢٩١.
(٢) السيرة النبوية: ابن كثير ١/ ٢٩٢.

مقدمات تتحقق بها عناية الله .. ومقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة ... إلخ[(١)]

وكثيرة هي الأمثلة من الطوالع والنبوءات التي وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبي ﷺ ، مكتوبة قبل وقت ظهوره بعشرات القرون، ويلاحظ أن هؤلاء المؤرخين من فضلاء الهند وفارس والأمم الشرقية التي تتكلم غير العربية ، وسر ذلك أنهم ورثوا في بلادهم طوالع الديانات السابقة ، ولم يشاؤوا أن تكون هذه الطوالع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الإتيان بنظائرها التي تقابلها في كفة الديانة الإسلامية ، فهم يتوخون إلزام الحجة بالدليل المماثل ، ولا يعييهم فعلا أن يجدوا ذلك الدليل مساويا أو راجحا في الدلالة على أدلة المتقدمين من أبناء الملل الغابرين[(٢)]

قال ابن إسحاق فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا .

قال ابن إسحاق : فذكر الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنهما أنها حدثته ، أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته ورحمته لعباده ، الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في قومه إلا جاءت كفلق الصبح ، قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء ابن جارية الثقفي ، وكان واعيه عن أهل العلم أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته، وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ، ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها ، فلا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله[(٣)] قال : فيلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله

---

(١) مطلع النور: عباس العقاد ص٥ وما بعدها.

(٢) مطلع النور ص١١، ويورد المؤلف الكثير مما ورد في كتب فضائل علماء المسلمين من غير العرب أيضًا، والسيرة النبوية : ابن هشام ٢٤٨ صفة الرسول بالإنجيل ، السيرة النبوية : ابن كثير ١/ ٣٢٠، وما بعدها الطبري تاريخ ٢/ ٢٩٥.

(٣) يورد شرح السيرة النبوية للسميلي (الروض الأنف) حاشية حول هذا الموضوع ١/ ٢٥٠.

وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة ، فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاء من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان[١]

فلما كمل له أربعون ، أشرق عليه نور النبوة ، وأكرمه الله تعالى برسالته ، وبعثه إلى خلقه واختصه بكرامته ، وجعله أمينة بينه وبين عباده ، ولا خلاف في أن مبعثه ﷺ كان يوم الإثنين ، واختلف في شهر المبعث فقيل لثمان مضين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل ، هذا قول الأكثرية.

وقيل: بل كان ذلك في رمضان ، واحتج هؤلاء بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥] .

قالوا : أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته أنزل عليه القرآن ، هذا مذهب جماعة منهم يحيى الصرصري حيث يقول في نونيته[٢]:

وأتـــت عليـــه أربعـــون فأشرقـــت شـــمس النبـــوة منـــه في رمـــضان

والأولون قالوا إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزه ثم أنزل منجما بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة ، وكمل الله مراتب الوحي عديدة ، وقد عدها المؤلف ثمانية[٣]

وقد أورد الطبري عدة روايات عن بدء الوحي ، اتفقت كلها أن بدء الوحي كان يوم الاثنين، لكنها لم تتفق على أي اثنين هذه فمنهم من قال : لثمان عشرة خلت من

---

(١) السيرة النبوية: ابن هشام ١/ ٢٥٠،السيرة النبوية: ابن كثير ١/ ٢٨٥، السير النبوية: دروس وعبر ص٤٣، والطبري: تاريخ ٢/ ٢٩٨.

(٢) هو الشيخ جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف بن يحيى الصرصري نسبة إلى صرصر قرية على فرسخين من بغداد العلامة الحافظ اللغوي الأنصاري ، كان إليه المنتهي في معرفة اللغة وحسن الشعر وديوانه، ومدائحه سائرة يشبه بعصر حسان ، قتله التتار يوم دخلوا بغداد ٦٥٦ هـ. [شذور الذهب ٥/ ٢٨٥ ، ٢٨٦].

(٣) زاد المعاد : ابن القيم ١/ ٧٨ وما بعدها .

رمضان ، ومنهم من قال : لأربع وعشرين خلت منه ، ومنهم من قال: لسبع عشرة خلت من رمضان ... إلخ[(١)]

قال أبو جعفر : وكان رسول الله ﷺ من قبل أن يظهر له جبريل عليه السلام برسالة الله ﷻ إليه ـ فيما ذكر عنه ـ يرى ويعاين آثارا وأسبابا من آثار من يريد الله كرامته، إكرامه ، واختصاصه بفضله، فكان من ذلك ما قد ذكرت فيما مضى من خبرة عن الملكين اللذين أتيا فشقا بطنه، واستخرجا ما فيه من الغل والدنس ، وهو عند أمه من الرضاعة حليمة السعدية ، ومن ذلك أنه كان إذا مر في الطريق لا يمر ـ فيما ذكر عنه ـ بشجر وبحجر إلا سلم عليه[(٢)]

وتجمع الروايات بعد ذلك أن الرسول ﷺ قد تلقى الوحي، وهو في غار حراء يتحنث ، فرواية ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبدالله بن الزبير عن عبيد ابن عمير بن قتادة الليثي، قال : وحدثني وهب بن كيسان مولى آل الزبير قال سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد، كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ حين جاءه جبريل عليه السلام قال فقال عبيد: وأنا حاضر يحدث عن عبد الله بن الزبير ومن عنده الناس كان رسول الله ﷺ يجاور في غار حراء من كل سنة شهرا

وكان ذلك مما تتحنث به قريش في الجاهلية ، يطعم من جاء من المساكين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى غار حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله بها برسالته، ورحم العباد بها جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى[(٣)]

(١، ٢) الطبري : تاريخ ٢/ ٢٩٣،٢٩٥

(٣) تاريخ العرب القديم : عافل ص ٣٧٢ ، ٣٧٣.

وبعد أن أكرم الله تعالى به نبيه باختياره لهداية الناس كافة ، لم يكن ﷺ يستشرف للنبوة ، ولا يحلم بها ، وإنما كان يلهمه الله الخلوة للعبادة تطهيرا، وإعدادًا روحيا ليتحمل أعباء الرسالة ، ولو كان عليه الصلاة والسلام يستشرف للنبوة لما فزع من نزول الوحي عليه ، ولما نزل إلى خديجة يستفسرها عن سر تلك الظاهرة التي رآها في غار حراء ، ولم يتأكد من أنه رسول إلا بعد رؤية جبريل يقول له : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، وإلا بعد أن أكد له ولخديجة ورقة بن نوفل أن ما رآه في الغار هو الوحى الذي كان ينزل على موسى عليه السلام[١] ، ثم جاءه الحق وهو بغار حراء يوم الاثنين لثمان عشرة خلت من رمضان ، وقيل: لأربع وعشرين ليلة مضت منه ، وله من العمر أربعين سنة وهذا مروى عن عبد الله بن عباس ، وجبير بن مطعم ، وثبات بن أشيم ، وعطاء وسعيد بن المسيب ، وأنس بن مالك ، وهو صحيح عند أهل السير والعلم بالأثر .

وقيل: بعث وله من العمر ثلاث وأربعون سنةً ، وقيل وأربعون يومًا ، وقيل: وعشرة أيام ، وقيل: وشهران ، وقال ابن شهاب : بعث على رأس خمس عشرة من بنيان الكعبة ، فكان بين مبعثه سبعون سنة ، قال إبراهيم بن المنذر : هذا وهم لا يشك فيه أحد من علمائنا ، وذلك أن رسول الله ولد عام الفيل لا يختلفون في ذلك ، ونبئ على رأس أربعين من الفيل ، وذلك على رأس مائة وخمسين سنة من عام حجة الغدر[٢] ولست عشرة من ملك أبرويز ، ويقال: بل لعشرين سنة مضت من ملك كسرى أبرويز بن هرمر بن أنوشروان ، وكان على الحيرة إياس بن قبيطة الطائي عاملا للفرس على العرب، ومعه النخير جان الفارسي على رأس سنتين وأربعة أشهر من ملكهما ، وعلى اليمن يومئذ باذان أبو مهران[٣]

ومبعثه ﷺ عام ٦١٠م حيث كان في ٢٤/ ٤/ ٥٧١ م حسب التقويم الشمسي

---

(١) السيرة النبوية : السباعي ، ص ٤٨

(٢) يقول المحقق« لم أدر ما هي » ، وقد بحثت فلم أرها ذكرا فيما وقع لي من الكتب .

(٣) إمتاع الأسماع : المقريزي ١/ ١٢ ، ١٣

فيكون عمره عند مبعثه تسعًا وثلاثين سنة شمسية تقابل أربعين قمرية تقريبا ، قال تعالى : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الكهف] . وغالب المفسرين يقولون:إن الرقم الأول للتقويم الشمسيي والتسع الزيادة للتقويم القمري والله أعلم .

التباشير بالنبوة المحمدية ، وبدء نزول الوحي على محمد ﷺ أمران متلازمان ، أما الأولى كانت مقدمات للثانية ، والمقدمات كان لا بد منها حتى يستطيع الناس الذين فقدوا الأمل بكل شيء أن يبقى في أذهانهم خيط يربطهم إلى أمل في الدنيا يعيد الحق إلى نصابه ، ويحارب الطغاة وينشر العدل ويرفع الضيم ويزيل الظلم ، ولولا هذا البريق من الأمل لخبت حركة الإنسان وتحول القوى مع الضعيف إلى علاقة كعلاقة الوحوش في الغابات ، أو كبحر متلاطم القوى فيه هو السيد والضعيف يعتبر طعامًا سائغا له ليس إلا تباشير النبوة التي بشر بها الأقدمون ، ويحث على ارتباطها المحدثون كانت تعيد الأمل الميت إلى نفوس الناس بأن العدل لابد آت ، والظلم لا بد مقهور .

ظهرت الدعوة الإسلامية في مكة ، واختيار مكة أمر أراده الله تعالى لعباده ، فهي دعوة إبراهيم وبشرى عيسى عليه السلام كما قال، ومحمد خاتم الأنبياء المصطفى من بين خلق الله تعالى ، قد أهله الله تعالى ، وأدبه فأحسن تأديبه وحمل رسالته الخاتمة للناس كافة حتى يعيد العدل ، ويقهر الظلم ويحقق الآمال الطوال التي تمناها الأقدمون قبل مبعثه ، ورأوا تباشيرها في كثير من المواقف التي قد سجلوها لوقتها بعد ذلك في أحيان التاريخ المتلاحقة ، والتي وصلنا بعض منها وعفا على الأخريات الكثير من الأحداث الجسام التي هزت العالم باستمرار .

ظهور الدعوة الإسلامية في مكة في مطلع القرن السابع للميلاد كان رحمة من الله تعالى بعباده بعد أن تفاقمت المظالم، وكثر عدد الظالمين ، وعدد المظلومين إلى أعداد يعجز الإنسان عن حصرها وتحول الناس إلى ظالم أو مظلوم فقط، وخبا العدل وقتل السلام ، وأجهض الحق ، لماذا اختار الله تعالى مكة ومحمدًا ﷺ والعرب ، المكان

والقوم والرسول في هذا الزمان ؟ هذا أمر أكثر الباحثون أيضا من استدلالاته والحديث عنه ، لم يرسله في قوى كبيرة في إحدى القوتين آنذاك ، لم يختره الله تعالى من علية القوم حتى من عند العرب فتساءل القوم وتعجبوا وقالوا وتقولوا العظيمين قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزُّخرُف]. بمقياس أهل الدنيا رجل عظيم في قومه من قرية عظيمة ، محمد ﷺ كان أمينا في قومه ولكن صفاتهم المنطبقة على العظمة هي القوة والمال والجاه والأتباع وحتى الظلم فمحمد ﷺ بهذا المقياس لم يكن واردا منهم .

هذه قضايا خارجة على خط بحثنا ، ولكننا لا بد لنا أن نشير إليها على الأقل ، فإرادة الله تعالى ومشيئته أعطت الرسالة لمحمد ﷺ الذي بشر به الأقدمون، وفي مكان وسط بين القوتين المتصارعتين بعيدا عنهما وعن مناطق نفوذهما ، وفي مكان هفت إليه قلوب المتأملين .

ظهور الدعوة الإسلامية في مكة لم يكن حدثا عابرا من جهة، كما أنه لم يكن انقلابا هائلا أذهل الذين عايشوه ، بل إنه كان أمرا عاديا في بداياته وفي تعارف البشر آنذاك ، كان بداية الانقلاب العظيم الذي غير الدنيا ـ وما زال ـ رغم هزائم وتخلف وتقهقر المسلمين بفرض نفسه على كل الأحداث ، فكل ما يجرى في الهند والصين وروسيا وأوربا وأمريكا وأستراليا وكندا، وكل المساحات الهائلة في العالم الآن ، فالإسلام يشغل بال هذا العالم بين مؤيد ومعارض بين متبع ومبتدع بين عدو وصديق ، فهو المحرك الآن لكل الأحداث الجارية في العالم تقريبا ، وظهور الدعوة الإسلامية في البدايات الأولى للقرن السابع الميلادى ما هي إلا تغيير مسار العالم وبسنوات قليلة جدا ، تمكن أن يهز العالم بعنف ، ويغير اتجاهه .

الذين عايشوه وتعودوا على أحداثه العظيمة والضعفاء في العالم ـ آنذاك ـ لم يتعد الحدث العظيم نفس محمد إلا إلى زوجته ، ولقد أوردت كتب السيرة العديد من الروايات عن نزول الوحي وعودة الرسول ﷺ إلى زوجته خديجة ليخبرها بما رأي ،

من هذه الروايات رواية محمد بن إسحاق عن وهب بن كيسان، ورواية الطبرى عن عبد الله بن شداد ، ورواية ابن سعد عن ابن عباس .

وتبين من هذه الروايات جميعا والتي تتطابق جميعا أن الرسول ﷺ ارتاع من نزول الوحى إليه ، وخاف أن يكون به مس من جنون ، وهرع إلى خديجة رضي الله عنها الزوج الأمين والزوجة الوفية يقص عليها خبره ويشكو إليها مخاوفه ، فطمأنته وهدأت من روعه ، وثبتته ، ورأت في قريبها ورقة بن نوفل خير ملجأ ، لتفسير ما أصاب زوجها وسمع ورقة من خديجة على ما تؤكد جميع الروايات ، حديث محمد ﷺ ، وما ينتابه من أمر فعرف أن ذلك وحى الله الذي كان ينزل على سابقيه من الأنبياء ، وطلب منها أن تثبت أقدامه وأن تعرف الحال التي هوى بها[١]

وصدق الرسول ﷺ ما أتاه به الوحي ، وصدقت به زوجته ، والحدث جليل جدا ، فقد عاد الاتصال بين السماء والأرض بعد أن انقطع ستة قرون ومنذ أن صعد عيسى إلى ربه ، طلع محمد بن عبد الله على العالم وهو صاحب الرسالة السماوية ، والدعوة الإسلامية، وأطل من غياهب الجاهليه فأطلت معه دنيا أظلها بلواء مجيد كتب عليه بأحرف من نور:« لا إله إلا الله الله أكبر » فأعلن بين العرب بادئ ذي بدء بدعوة الإسلام فكانت ـ على الناس في بداياتها ـ أثقل عليهم من الجبال ، ودعاهم جهارا إلى رفض ما يعبدون من أوثان ، وترك عاداتهم الوحشية ، والخضوع لعدل الإسلام والتجمل بالأخلاق الفاضلة والآداب الراقية .

واستمر على هذه الدعوة في مكة ثلاث عشرة سنة، وفي السنة الثالثة من دعواه الرسالة أعلن بدعوته لعامة الناس إعلانا تاما ، وصار ينادي في جميع أيامه في المحافل والمواسم بجميل الموعظة وقاطع الحجة ، والإنذار بالعقاب والبشرى بالثواب ، وحسن الترغيب والترهيب وتلاوة القرآن ، والإعذار بالنصيحة ، لم يهب في دعوته طاغوتا ، ولم يتحقر صعلوكا يدعو الشريف والحقير والمرأة والعبد ، وقد

---

(١) تاريخ العرب القديم : عاقل ٣٧٦ ، ٣٧٧

آمن من خلال هذه الدعوة بدعوته الثقيلة على الأهواء من كل وجهة ، خلق كثير من أهل مكة وضواحيها من قريش وغيرهم،واحتملوا في ذلك الاضطهاد والهوان، والجلاء عن الأوطان إلى الحبشة وغيرها ، فكم من شريف في قبيلته عزيز في أهله وقومه صار بإسلامه مهانا مضطهدا ، وكل هذا لم يصد الناس عن الإسلام ، لا يصد الضعيف ما يقاسيه من العذاب ولا يصد الشريف العزيز ما يلاقيه من الهوان ، يرون الإسلام هو العز والشرف ، والحياة والسعادة(١)

انتشرت الدعوة الإسلامية في مكة، وبدأت معالم الانقلاب تظهر بقوة الإيمان وعظمة القرآن وثبات النبي وازدياد المؤمنين ، وصبرهم على المحن والآلام ودام حوالى ثلاث عشرة سنة ، لقى بها الرسول والمؤمنون الأذى والصد والعداوة ، ولكن في الجانب الآخر كانت هذه الفترة فترة اختبار الرجال الذين سيغيرون بأيديهم مسار العالم .

---

(١) محمد عند علماء الغرب : خليل ياسين ٢٨ ، ٢٩

١- انتشار الدعوة الإسلامية خارج مكة

هذا وقد أقبل على الإيمان بدعوة محمد ﷺ وهو بمكة قبائل الأوس والخزرج وغفار ومزينة ، وجهينة وأسلم ، وخزاعة ، ولا يخفي أن محمدًا كان عزيز قريش ، كيف لا وهو من بيت سيادتها وعزتها ، تسميه قريش الصادق الأمين يودع عنده مشركوا قريش ودائعهم ومدخراتهم إلى حين هجرته ، ومع ذلك كان يقاسي الأذى الشديد من المشركين والاستهزاء والتكذيب لدعوته ، والحبس مع بني هاشم في الشعب ، وهو مع هذا دائب ساهر مدرع بالصبر الجميل، لا يثنى عزمه شيء مهما بلغ وتعاظم، لا يفتر عن دعوته ونشرها وبث تعاليمه الفاضلة ، وحماية التوحيد وإبطال الوثنية .

لقد سارت دعوة الإسلام في أيامها الأولى في مسارين متوازيين ، ففي الوقت الذي انضم إليها العديد من المؤمنين في مكة ، بدأت أيضا خيوط النور تخرج خارج مكة لتدخل قلوب رجال آخرين آمنوا بها ، ولم يكن المطلوب في ذلك الوقت من الأتباع أكثر من استشعار معنى«لا إله إلا الله محمد رسول الله » والإيمان والتصديق بما يأتى به الرسول من عند ربه ، ولم يكن التكليف قد بدأ على المؤمنين إلا ركعات قليلة جدا قبل فرض الصلاة بحادث الإسراء والمعراج ، فقد استهوت هذه الدعوة الكثيرين من خارج مكة ، ولعل الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة كان لهما تأثيرا كبيرا حتى على النجاشي حاكمها عندما سمع القرآن الكريم من المسلمين ، ولو أن ردة الفعل كانت كبيرة عند كهانه ورهبانه إلا أن ذلك كان بردا وسلاما على قلبه .

وأحداث انتقال الدعوة خارج مكة كثيرة ، وهي ـ كما قلت ـ سارت في طريق مواز لسيطرة الدعوة على الكثير من جبابرة قريش الذين كان لهم الدور الكبير في تعذيب المسليمن وإهانتهم، وحتى قتلهم ، فقد تمكن الإسلام من قلوب البعض

الذين تحولوا إلى الصف الإيماني الصادق، وأخذوا يتحملون مع المسلمين الكثير من الأذى الذي تفنن به أهل مكة .

لقد كانت ردة الفعل عند أهل مكة قوية ، والأسباب كثيرة منها: أنهم هم سدنة البيت ، والأكثر انتفاعا من وثنية العرب ، إليهم يحج الناس ، وهم وحدهم لهم الحق برعاية البيت والقيام بالطقوس المشوشة المشوهة عن الحج الذي أذن له إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج] .

ولذلك فقد وجدوا في دعوة الإسلام تقويضا لكل أركانهم السياسية والدينية والاقتصادية وحتى القبلية ، وأعلنوا صراحة عن كل هذه القضايا بالمحادثات والمجادلات التي كانت تجرى بين مفكريهم وقادتهم وبين محمد ﷺ ، ومن حماه من أهله ومن أتباعه، وهذه الردة القوية جعلت الرسول ﷺ يؤكد حقيقة التوحيد ، وتثبيت الفكر الصافي في عقول أصحابه .

ومع ازدياد المسلمين في مكة يوما بعد يوم ومع قلة المشركين ودحض أفكارهم ومعتقداتهم وسقوط الكثير من الرموز الدينية التي كانوا يتمسكون بها ، وانهزام العقيدة التي كانوا يحملونها ، إلا أنهم شدوا قبضتهم على ما تحت أيديهم واشتد أذاهم بشكل كبير جدا ، واستجمعوا قواهم وأزالوا ما بينهم من تناقضات وقرروا في نهاية المطاف التخلص من محمد ﷺ ومن أصحابه جملة وتفصيلا

كان الإسلام في هذه الأثناء يخرج من مكة ، فقد كانت مكة ملتقى الحجيج في كل عام ، ومجمع العرب كل سنة ، فكما كانوا يتناقلون في موسمهم هذا أشعارهم وأخبارهم من وغلى مكة، قد تناقلوا أيضا خبر دعوة الإسلام وقصة محمد ﷺ الذي ظهر في مكة منها إلى البوادي والحواضر والمدن، فمنهم من أعارها اهتمامه الكبير ، ومنهم من لم يلتفت إليها، لأن أخبار العظماء في العالم قد طغت على أفكاره .

ومنهم من لم يكن ليهتم بهذا الحدث؛لأنه لا يرى فيه شيئا يلفت النظر في بدايات ظهوره ، لكن الكثيرين قطعا قد علموا به ، وبدأت تدور في أذهانهم قضايا المقارنة بين ما يدعوا إليه وبين ما هو واقع في هذا العالم الآسن ، بين ما نادى به وما هو سائد على رقاب الناس،بين ما يبشر به وبين ما فرض على الناس في حواضرهم وبواديهم، بين ما يبطل وما يثبت ، بين ما يرضاه وما يرفضه ، بين ما يحله وبين ما يحرمه ، وقف الكثيرون كما تحدثت روايات أهل السير وكتابها من هذا الحدث الكبير، وأعطوه الاهتمام اللازم ، وبذلك قد بدأت الدعوة الإسلامية تخطو بثبات إلى خارج مكة كما يزداد أنصارها يوما بعد يوم .

لقد ظهر انتشار الدعوة الإسلامية خارج مكة في الأحداث التالية :

أ ـ الهجرة إلى الحبشة :

لقد كان لأذى قريش وتعنتها وصدها عن ذكر الله الأثر الكبير في انتشار الدعوة خارج مكة ، ولو علم القرشيون المستقبل لما اتخذوا هذه القسوة للصد عن دين الله ، ولعاملوا أتباعه بأحسن ما يمكن أن يتعاملوا ، لكن قسوتهم ، ودفعهم الحق ، وتعذيب الدعاة جعل الرسول ﷺ ينظر خارج مكة حتى يجد من يقبل دعوته ومن يقبل دعاته ، بحث عن المأمن ، وعمن ينضم لهذه الدعوة ويكون لها حاميا ومعينا؛ فقد توجهت الأنظار أولا إلى الحبشة .

وروى الواقدي أن خروجهم إليها : أي الحبشة في رجب سنة خمس من البعثة ، وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، وأنهم انتهوا إلى البحر ما بين

ماش وراكب، فاستأجروا سفينة بنصف دينار إلى الحبشة[١]

حدثنا علي بن نصر بن علي الجهضمي ، وعبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث ، وقال على ابن نصر: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، وقال عبد الوارث : حدثني أبي قال : حدثنا بن العطار قال : حدثنا هشام بن عروة عن عروة أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان : أما بعد: فإنه ـ يعني الرسول ﷺ ـ لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي أنزل عليه لم يبعدوا منه أول مادعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال لهم ، وأغروا به من أطاعهم فانصفق انصرف عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظه الله منهم وهو قليل ، فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث ، ثم تأمروا على رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام، فافتتن من افتتن ، وعصم الله منهم من شاء ، فلما فعل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح، يقال له النجاشي ، وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها سعة من الرزق ، وأمنا ومتجرا حسنا ، فأمرهم بها رسول الله ﷺ فذهب إليهم عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم ، ثم إنه فشا الإسلام فيها . ودخل فيه رجال من أشرافهم[٢]

قال ابن جرير فاختلف في عدد من خرج إلى أرض الحبشة وهاجر إليها هذه الهجرة ـ وهي الهجرة الأولى ـ فقال بعضهم: كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة وقال آخرون : بل كانوا اثنين وثمانين رجلا سوى نسائهم وأبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا أو ولدوا بها ، إن كان عمار بن ياسر فيهم وهو يشك فيه[٣]

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٣ ، الطبرى : تاريخ ٢ / ٣٢٩ ، السيرة النبوية : ابن هشام

(٢) الطبرى : تاريخ ٢ / ٣٢٨ ، ٣٢٩

(٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٤ ، ٥ ، ٦

وقد اعتبر كثيرون من المؤرخين أن الهجرة إلى الحبشة كانت هجرتين الأولى والتي كان عددها أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، والهجرة الثانية كانت اثنين وثمانين رجلا سوى نسائهم ، ومنهم من قال إن العدد ازداد بتتابع المهاجرين إلى الحبشة[(١)]

وقد زعم موسى بن عقبة أن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت حين دخل أبو طالب ومن حالفه مع رسول الله إلى الشعب ، وفي هذا ـ نظر والله أعلم ـ وزعم خروج جعفر بن أبي طالب إنما كان في الهجرة الثانية إليها ، وذلك بعد عودة بعض من خرج أولا حين بلغهم أن المشركين أسلموا، فلما قدموا مكة ، وكان فيمن قدم عثمان بن مظعون ، فلم يجدوا ما أخبروا به من إسلام المشركين صحيحا فرجع منهم من رجع ومكث آخرون في مكة ، وخرج آخرون من المسلمين إلى أرض الحبشة وهي الهجرة الثانية [(٢)]

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى:سمعت خديجا أخا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن من ثمانين رجلا فيهم عبد الله بن مسعود ، وجعفر وعبد الله بن عرفطة ، وعثمان بن مظعون ، وأبو موسى فأتينا النجاشي[(٣)]

وهذه الهجرة هي أول خيط من نور الإسلام حمله الدعاة إلى أرض الحبشة ، وهي أول هجرة في سبيل الله في الإسلام ، قد يكون كثيرون قد حملوا الإسلام فرادى إلى أقوامهم، لكنهم لم يكن لهم أثر يذكر كدعاة إلى دين الله تعالى ، كما اعتبر ذلك أمرا سياسيا عندما لم تدع قريش هؤلاء الناس آمنين مطمئنين حيث ذهبوا وحلوا في مملكة ملك صالح ، ولحقت بهم وأرسلت وفدا إلى النجاشى بقيادة عمرو ابن العاص وعمارة بن الوليد بهدية من قريش إليه .

فلما دخلا على النجاشي سجدا ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له : إن

(١، ٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٤، ٥، ٦

(٣) ابن الأثير : الكامل ٢ / ٥٤ – ٥٦ ، السيرة النبوية: ابن كثير ٢ / ٩

نفرا من بني عمنا نزلوا أرضك ، ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال : فأين هم ؟

قالا : في أرضك فابعث إليهم ، فبعث إليهم .

فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم فاتبعوني فسلم ولم يسجد .

قالوا له : ما لك لا تسجد للملك ؟

قال : إنا لا نسجد إلا لله ﷻ .

قالوا : وما ذاك ؟

قال إن الله بعث إلينا رسولا، ثم أمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله ﷻ وأمرنا بالصلاة والزكاة .

قال عمرو : فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم .

قال النجاشي : فما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه ؟

قال جعفر : نقول كما قال الله تعالى : هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول لم يمسها بشر ، ولم يفرضها ولد .

قال فرفع النجاشي عودا من الأرض ثم قال يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه سوى هذا ، مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ﷺ ، وأنه الذي نجد في الإنجيل وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم ، وانزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من ملك لآتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعله زاد في المسند وأوضئه ، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما .

ثم تعجل عبد الله بن مسعود بالعودة حتى أدرك بدرا وروى أن النبي ﷺ استغفر له ربه حين بلغه موته .

وهذا إسناد جيد وقوى وسياق حسن ، وفيه ما يقتضي أن أبا موسى كان فيمن هاجر من مكة إلى أرض الحبشة ، إن لم يكن مدرجا من بعض الرواة والله أعلم(١)

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ١/ ١٠ ، ١١

هذه الهجرة كانت فتحا وانتشارًا لدعوة الإسلام في غير منبته ، وقد أعان المسلمون النجاشي عندما ثار عليه قومه ، ومن الثابت أن الرسول ﷺ قد صلى عليه واستغفر له ، وكان من نتائج هذه الهجرة أيضا إسلام وفد نصارى نجران .

ب ـ نصارى نجران :

قال البيهقي : حدثنا الحاكم ، أخبرنا الأصم: أخبرنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يونس عن ابن إسحاق قال : قدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلا وهو بمكة ، أو قريب من ذلك من النصارى حين ظهر خبره من أرض الحبشة، فوجدوه في المجلس فكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسائلتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله ﷻ وأتى عليهم القرآن ، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره .

فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقال : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتون بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، أما نعلم ركبًا أحمق منكم ؟

قالوا لهم لا نجاهلكم سلام عليكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا تألون أنفسكم خيرا، فيقال: إن النفر من نصارى نجران ، والله أعلم أي ذلك كان .

ويقال والله أعلم ، إن فيهم نزلت هذه الآيات: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص] [1]

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٤٠ .السيرة النبوية: ابن هشام ٢ / ٣٢ . في ظلال القرآن ـ سيد قطب ٥ / ٢٧٠٠ ، في تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ٣ / ٤٠٤ ، ٤٠٥

جـ ـ قصة الطفيل بن عمرو الدوسي :

خطوة جديدة في انتشار الإسلام خارج مكة ، واجتيازًا للحصار الهائل الذي فرضته قريش على المسلمين وتتبعت أخبار من يسمع عن الإسلام ، وعملت بكل الوسائل لصد الناس عنه .

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي سيدًا مطاعا في«دوس» وكان قد قدم مكة ، فاجتمع به أشراف قريش ، وحذروه من رسول الله ﷺ ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه ، قال ، فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشوت أذني حين غدوت المسجد كرسفا (قطنا) خوفًا من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه .

قال : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة .

قال فقمت قريبًا منه ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاما حقا ، فقلت في نفسي واثكل أمي ؟ والله إني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفي على الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ..؟ فإن كان هذا الذي يأتي به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت يا محمد ، إن قومك قالوا كذا وكذا . الذي قالوا، فوالله ما برحوا بي يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف ، لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك ، فسمعت قولا حسنا فاعرض على أمرك .

فعرض رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا أحسن منه ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونا عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال الرسول ﷺ :«اللهم اجعل لي آية» .

فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلني على الحاضر ، وقع بين عيني نور مثل الصباح، فقلت اللهم في غير وجهي ، فإني أحشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في

وجهي لفراق دينهم ، قال : فتحول فوقع في رأس سوطي[١]. ثم قام الطفيل داعيا فأسلم أبوه وأسلمت زوجته وأولاده ، وحطم أصنام قومه ، ولقد دعا قومه فأبطؤوا عليه لانتشار عادة الزنا بينهم ، فطلب بلقاء ثان من رسول الله دعوة تذهب عنهم هذه الآفة فدعا لهم ، ثم قام الطفيل داعيا في قومه مدة طويلة حتى هاجر الرسول ﷺ ، وقضيت أكثر الغزوات ، فعاد الطفيل على رأس ثمانين بيتا من دوس وفدًا لرسول الله حين أسلموا ، واستشهد الطفيل في اليمامة ، واستشهد ابنه عمرو ابن الطفيل في اليرموك[٢]

قال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن حجاج الصواف ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة ؟ قال : حصن كان لدوس في الجاهلية ، فأبي ذلك رسول الله ﷺ ، للذى ذخر ، الله للأنصار[٣]

وتنبئ هذه الحادثة أن الله تعالى أراد أن تكون نصرة محمد ﷺ على يد الأوس والخزرج دون سواهم من القبائل ، أو أن العرض الذي عرضه الطفيل بن عمرو جاء متأخرا ورسول الله قد ارتبط مع الأنصار بكلام وبيعة ، ومع كل هذا فإن إكرام الله تعالى الأوس والخزرج بالنصرة كانت إرادته ليكونوا هم حماة هذا الدين وحاملي لواءه .

وقصة الأعشى بن قيس فقد صنفها ابن كثير ورجح حصولها بعد الهجرة ، وموت الرجل قبل أن يسلم أمر يبعده عن الموضوع ، مع إيراد قصيدة كبيرة يمدح بها رسول الله ﷺ[٤]

(١-٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٧٣ (بتصرف) ، ٧٤ ، ٧٥ - ٧٧

(٤ السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٧٨ - ٨١ ،والبداية والنهاية : ابن كثير٣ / ١٠١

د ـ سعي الرسول ﷺ إلى الطائف[1] :

لما ضيق المشركون على المسلمين المنافذ وخسر الرسول ﷺ أقوى نصير قبلي له وهو عمه أبو طالب الذي حمل راية الدفاع عنه وحمايته من قومه وممن لم يؤمن به من عشيرته أمثال أخيه أبي لهب ، وكذلك وفاة السيدة خديجة ﵂ والتي حملت على كاهلها همومًا كثيرة عن صاحب الرسالة ، وكان يجد عندها الفسحة والرجاء واتساع الأمل ، وقوة الشكيمة والصبر .

نظر رسول الله ﷺ فلم يجد بالعرف القبلي من يحمل عبء حمايته من أهله ، ولم يعد يرى تلك المرأة التي كانت جبلا صلبا قويا تحمل كل الأرزاء والآلام،وإنما وجد بنات صغيرات خائفات على مستقبل الدعوة وصاحب الدعوة. حتى إن أبا لهب قد خطب ابنتي رسول الله ﷺ لابنيه، فطلقهما ليزيد في مشكلاته ﷺ في بيته، وأصحابه قسم منهم هاجر إلى الحبشة ولم يعد، وقسم تحمل ماتحمل، واستشهد من استشهد ، ولم يأذن له ربه بالقتال ليجمع أصحابه ويقاتل بهم .

كل هذه القضايا تراكمت على الرسول ﷺ فوأي أن يتوجه إلى الطائف يلتمس من أهلها النصرة والحمايه وما بين الطائف ومكة من وشائج القربى والصلة وتبادل المصالح الاقتصادية والتجارية وحتى السياسية الشيء الكثير، وهو أقرب الحواضر إلى أهل مكة وأهلها أعرف بأهل مكة، عن سواها من الحواضر ، وكانت بها قبيلة ثقيف ذات شكيمة وقوة ونصرة، وطمع رسول الله ﷺ بأن يجد عندهم سندا وردءا وحماية ليبلغ رسالة ربه إلى الناس[2]

---

(١) الطائف : سميت بذلك، لأن رجلا من حضرموت نزلها فقال لأهلها :« ألا أبني لكم حائطا يطيف ببلدكم ». فبناه فسمي الطائف .

(٢) قال فى الامتاع : إن أهل الطائف كانوا أخوال رسول الله ﷺ: قال بعضهم : ومن ثم أي من أجل أنه ﷺ خرج إلى الطائف عند ضيق صدره ، وتعب خاطره ، وجعل الله الطائف مستأنسا على من ضاق صدره من أهل مكة ، كذا قال : وفي كلام غيره: ولا جرم جعل الله الطائف مستأنسا لأهل الإسلام ممن بمكة على يوم القيامة فهي راحة الأمة ومتنفس كل ذي ضيق وغمة ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ١ / ٣٨٤

خرج رسول الله إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ﷻ وحده[١]

قال ابن إسحاق ولما هلك أبو طالب خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة له من قومه، وذكر أنه خرج إليهم وحده[٢]

فلما اشتد عليهم الأمر بعد موت أبي طالب خرج ومعه زيد بن حارثة إلى ثقيف يلتمس منهم النصرة[٣]،وكما جرى الخلاف على أنه قد ذهب وحده ﷺ إلى الطائف أو مع آخرين قالوا: إن بصحبته زيد بن حارثه، فقد حصل بعض الخلاف في المدة التي مكث فيها الرسول في الطائف ، فأكثر الأصول تشير إلى أنه مكث في الطائف أياما يدعو الناس .

قال آخرون : وفي هذه السنة وهي العاشرة خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف إلى ثقيف فأقام فيهم شهرا يدعوهم إلى الله ، وسألهم أن يمنعوه فردوا عليه قوله واستهزؤوا به [٤] ، أخبرنا محمد بن عمر قال حدثنى عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبي الحويرث ابن محمد بن جبير بن مطعم، قال: لما توفي أبو طالب تناولت قريش من رسول الله ﷺ واجترؤوا عليه ، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة ، وذلك في ليالٍ بقين من شوال سنة عشر من حين نبئ رسول الله ، قال محمد بن عمر بغير هذا الإسناد .

فأقام في الطائف عشرة أيام لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه، وكلمه فلم

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٦٠

(٢) الطبري تاريخ ٢ / ٣٤٤ ، البداية والنهاية : ابن كثير ٣ / ١٣٥ ، والسيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٤٩ ، وهذه كلها مع سيرة ابن هشام اعتمدت كلها رواية ابن إسحاق بأن رسول الله ﷺ خرج إلى الطائف وحده .

ولم يشر الأستاذ الندوي السيرة النبوية ص ١٢٣ ، وكذلك حياة الصحابة الكاندهلوي ١ / ٢٥٥ على أن الرسول كان وحده أو مع غيره .

(٣) الكامل فى التاريخ : ابن الأثير ، ٢ / ٦٢، وزاد المعاد : ابن القيم ١ / ٩٨ ، وفقه السيرة : الغزالي ص ١٨٨ ، وإمتاع الأسماع : المقريزى ١ / ٣٨٤

(٤) حدائق الأنوار : الشيبانى ١ / ٣٤٣

يجيبوه ، وخافوا على أحداثهم ، فقالوا : يا محمد اخرج من بلدنا ،الأرض وأغروا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة ، حتى إن رجلى رسول الله ﷺ لتدميان وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ... إلخ(١)

وتتوسع المراجع في ذكر هذه الهجرة ، وما يهمنا في هذا المقام هو أن الإسلام قد خطا خارج مكة خطوات واسعه أجاب قوم ، وصد قوم ، وأجل آخرون وقد أفاض ابن القيم(٢) بالقول فخرج إلى الطائف هو وزيد بن حارثة يدعو إلى الله تعالى فقام أياما فلم يجيبوه وآذوه وأخرجوه ، وقاموا له سماطين ، فرجموه بالحجارة حتى أدموا من كعبيه فانصرف عنهم رسول الله ﷺ راجعا إلى مكة وفي طريقه لاقى عداسا النصراني فآمن به وصدقه وفي طريقه أيضا بنخلة صرف إليه نفر من الجن سبعة من أهل نصيبين فاستمعوا القرآن وأسلموا(٣)، وفي طريقه تلك أرسل الله إليه ملك الجبال يأمره بطاعته ، وأن يطبق على قومه أخشبى مكة وهما جبلاها إن أراد ، فقال : «لا بل أستأني بهم ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئا» (٤)

وفي طريقه دعا بذلك الدعاء المشهور:« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي» الحديث وقد سماه بعضهم : دعاء الطائف ثم دخل مكة بجوار المطهم بن عدي(٥)

هـ ـ عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل :

بعد أن عاد الرسول من الطائف ، ولم يلق عند أهلها النصرة والمؤازرة ، وأغروا

---

(١) الطبقات : ابن سعد ١ / ٢١١ ،٢١٢

(٢) زاد المعاد : ابن القيم ١/ ٩٨

(٣) أخرج ابن جرير فى تفسيره ٢٦ / ٣٠ عن ابن عباس ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف:٢٩] .

قال كانوا سبعة من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله إلى قومهم، تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٧٥ ، وقد أورد العديد من الروايات حول هذا الموضوع .

(٤) هو قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري فى بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة والتوحيد، فى الجهاد، باب: ما لقي النبي من أذى المشركين ، صحيح مسلم ١٢ / ١٥٥ ، المجلد السادس .

(٥) زاد المعاد : ابن القيم ١ / ٩٨ ، ٩٩ ، والحاشية [١ ، ٢] .

به غلمانهم وسفهاءهم ويلغ حلمه ﷺ مداه بدعوته أن يخرج الله من ذراريهم من يوحد الله ، ودخل مكة بجوار المطعم بن عدى ، وحتى يخرج الاثنان من الحصار الذي فرضته قريش أخذ يعرض نفسه في المواسم على العرب ، ومواسم العرب كلها تقريبا مرتبطة بالحج فهو الموسم الأكبر عندهم ، وبهامشه يقيمون أسواقهم ، وفي منى وعكاظ وذى الحليفة ، وغيرها وغيرها، وطالما أن مكة هي ملتقى العرب في الأشهر الحرم، فقد أخذ النبي ﷺ يعرض نفسه ودعوته على قبائل العرب .

وقد أوردت كتب السيرة الكثير من التفاصيل عن المواقف الصعبة التي لاقاها رسول الله ﷺ سواء من العرب أو من أهله وعشيرته ، وأهل مكة بعامة ، الذين كانوا يلاحقونه من مكان إلى مكان يفسدون بناءه ، ويسفهون رأيه ، ويرمونه بشتى الأقاويل والصفات ، لكن هذا الحصار لم ينجح وتسرب الإسلام إلى قلوب بعض القبائل العربية .

قال ابن إسحاق ثم قدم رسول الله ﷺ مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه ، وفراق دينه إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به، فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم إذا كانت على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبى الله المرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به(١)

وفي السنة الحادية عشرة من الموسم منها اجتهد ﷺ في عرض نفسه على القبائل في تجمعهم بالموسم بمنى وعرفات أيهم يمنعه ويوفيه(٢)

قال ابن إسحاق فحدثنا من أصحابنا من لا أتهم عن زيد بن أسلم عن ربيعة ابن عباد الدؤلي ومن حدثه أبو الزناد عنه ، عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة ابن عباد يحدثه أبي، قال : إني لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله يقف على منازل القبائل من العرب فيقول :«يا بني فلان، إني رسول الله إليكم ،

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٦٣ ، ٦٤ . السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٥٥ وما بعد .
(٢) حدائق الأنوار : الشيباني ١ / ٣٤٧

آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي ، وتمنعوني حتى أُبيِّن عن الله ما بعثني به» .

قال: وخلفه رجل أحول له وضيء ، له غديرتان علية حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بني مالك بن أشيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

قال : فقلت لأبي : يا أبت من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال : هذا عمه عبد العزي بن عبد المطلب أبو لهب

وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث بسند آخر(١)

واجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة ليأمرهم بما يرمون به النبي ﷺ في الموسم لتكون كلمتهم واحدة ، وعرضوا عليه أن يقولوا: شاعر ، أو كاهن أو ساحر ، أو مجنون، فقال : والله ما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون ، ولقد قال قولا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن .

قالوا : كيف نقول فيه ؟

ففكر في نفسه ثم قال : أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، وجعلوا يلقونه إلى من قدم من أهل الموسم(٢)

قال ابن إسحاق حدثنا ابن شهاب الزهري قال إنه أتى «كندة» في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له «مليح»،فدعاهم إلى الله ﷻ وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه، قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين أنه أتى كلبا

---

(١) السيرة النبوية ابن كثير ٢ / ١٥٦، السيرة النبوية: ابن هشام ٢ / ٦٤ ، ٦٥ ، الطبري تاريخ ٢ / ٣٥٠

(٢) حدائق الأنوار ١ / ٣٤٨

في منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم : بنو عبد الله . ودعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول لهم :« يا بني عبد الله، إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم» ، فلم يقبلوا ما عرض عليهم .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك : أن رسول الله ﷺ أتى بني حنيفة في منازلهم ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم[(١)]

هذه مواقف وجد فيها الرسول صدا من العرب ، وبعضهم قابل اللين بفظاظة وبعضهم لم يعر سمعه لما سمع ، والرسول ﷺ كان جاهدا يدعو هذه القبائل علَّ الله يجعل في بعضها خيرا ، إلا أنها حتى تلك التي كان منها طيبا ، لم تتجاوز أن آمن بعض أفرادها ، أو أنهم حملوا الخير في أنفسهم لهذه الدعوة .

وفي حديث طويل أورده ابن كثير في السيرة النبوية[(٢)] يتحدث عن عرض الرسول ﷺ نفسه ودعوته على القبائل ومعه أبو بكر وعلي رضي الله عنهما

قال علي : ثم انتهينا على مجلس عليه السكينة والوقار ، وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات فتقدم أبو بكر فسلم ، قال علي : وكان أبو بكر مقدما في كل خير .

فقال لهم أبو بكر ممن القوم ؟ قالوا من بني شيبان بن ثعلبة ، فالتفت إلى رسول الله فقال: بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم ،وفي رواية: ليس وراء هؤلاء عذر من قومهم هؤلاء غرز في قومهم ، وهؤلاء غرز الناس ، وكان في القوم مفروق بن عمرو ، وهانيء بن قبيصة والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان أقرب الناس إلى أبي بكر مفروق بن عمرو،وكان قد غلب عليهم بيانا ولسانا، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره ، فكان أدنى القوم مجلسا من أبي بكر

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٦٥ ، ٦٦ ، الطبري : تاريخ ٢ / ٣٥٠ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٥٧

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٦٣ ، ١٦٤ ، وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٢٠

فقال له أبو بكر : كيف العدد عندكم ؟ فقال : علينا الجهد وبكل قوم جد ، فقال أبو بكر فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ قال مفروق : إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ، ويديل علينا مرة ، لعلك أخو قريش ، فقال أبو بكر : إن كان بلغكم إنه رسول الله منها هو هذا [١]

وجرى حديث طويل بين رسول الله ومفروق الذي كان يسأل ويجيبه رسول الله ﷺ ويسلم إلى أن قال : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك[٢] ثم إن مفروقا لم يستأثر بالحديث وحده ، بل تحول إلى هانيء بن قبيصة ، إلى المثنى بن حارثة إلى أن يرسل الرأي إلى ما قاله المثنى قد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخا قريش وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانيء بن مسعود ، وتركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا ، وإنا إنما نزلنا بين صريين[٣] أحدهما اليمامة والآخر السماوة فقال رسول الله ﷺ : «ما هذان الصريان ؟».

فقال له أما أحدهما فطفوف البر وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثا ، ولا نؤوي محدثا ولعل هذا الأمر الذي تدعو إليه مما تكرهه الملوك ، فإما ما كان مما يلى بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول وأما ما كان يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره مقبول ، فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلى العرب فعلنا ، فقال رسول الله ﷺ :« ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق ، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه »، ثم قال :« أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيرا حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ، ويفرشكم بناتهم أتسبحون الله وتقدسونه ؟».

(١، ٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ١٦٦،١٦٣.

(٣) الصري : مكان يجتمع فيه الماء

فقال له النعمان بن شريك : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش . فتلا رسول الله قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب] ، ثم نهض رسول الله ﷺ قابضا على يدي أبي بكر

قال علي : ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال : يا علي أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية ـ وما أشرفها ـ بها يتحاجزون في الدنيا[1]

وهؤلاء لم أقف على إسلام أحد منهم إلا أن في الصحابة شخصا يقال له: المثنى ابن حارثة الشيباني ، وكان فارس قومه وسيدهم المطاع فيهم ولعله هو هذا القول هانئ بن قبيصة : فإنه صاحب حربنا ، ورأيت بعضهم ذكر أن النعمان بن شريك له وفادة فيكون من الصحابة وفي أسد الغابة أن مفروق بن عمرو من الصحابة ، ونقل عن ابن نعيم أنه قال : لا أعرف له إسلاما[2] ، فلم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرا حتى خرج إلى أصحابة فقال لهم : « احمدوا الله كثيرا فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس ، قتلوا ملوكهم ، واستباحوا عسكرهم ، وبي نصروا» قال وكانت الوقعة بقراقر إلى جنب ذي قار . وفيها يقول الأعشى :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... وراكبها عند اللقاء وقلت

هم حزبوا بالحنو حفو قراقر ... مقدمة الهارمز حتى تولت

فلله عينا من رأي من فوارس ... كذهل بن شيبان بها حين ولت

فثاروا وثرنا والمودة بيننا ... وكانت علينا غمرة فتجلت

وهذا حديث غريب جدا كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ، ومكارم القيم وفصاحة العرب .

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ١٦٨، ١٦٩

(٢) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢/ ٥، الإصابة : العسقلاني ٣/ ٣٦١، ٥٦٢ .

وقد ورد هذا الحديث من طريق أخرى : وفيه أنهم لما تحاربوا هم وفارس والتقوا معخم بقراقر مكان قريب من الفرات ـ جعلوا في شعرهم اسم محمد ﷺ فنصروا على فارس بذلك ، وقد دخلوا بعد ذلك في الإسلام[(١)]

وقد استقصى الإمام محمد بن عمر الواقدي فقص خبر القبائل واحدة واحدة فذكر عرضه ﷺ على بني عامر وغسان ، وبني فزارة ، وبني مرة ، وبني حنيفة ، وبني سليم ، وبني عبس وبني نضر بن هوازن ، وبني ثعلبة بن عكاية ، وكندة وكلب وبني الحارث بن كعب ، وبني عذرة ، وقيس بن الخطيم وغيرهم . وسياق أخبارها مطولة وقد ذكرنا من ذلك طرفا صالحا ولله الحمد والمنة ، وقال الإمام أحمد

حدثنا أسود بن عامر أخبرنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة، عن يا سالم بن أبي الجعد ، عن جابر بن عبد الله قال : كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف (موقف بالناس بعرفة) فيقول « هل من رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي ﷻ ؟»[(٢)]

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ١٦٩، وعن ذي قار ، جواد علي : تاريخ ٣/ ٢٩٣وما بعدها الطبري: تاريخ ٢/ ١٩٣ وما بعدها، والعرب على حدود بيزنطة ص١٤٧ وما بعدها، وتاريخ الجاهلية: فروخ ص ١٣٨ وما بعدها.

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٧١ .

(٢) وفود يثرب إلى مكة للحلف بدء دخول الإسلام

لم تفتر يثرب تفد مكة للموسم ، والتجارة ، وللحلف ، ولقد ذكرنا في الفصل السابق تفصيلا لهذه الوفود ، أو بعضا منها ، ولقد سمع اليثربيون في بداية الجهر بالدعوة كما سمع غيرهم من العرب ، ولقد وقفنا على بعض أخبار العرب وموقفهم من الدعوة الإسلامية ، وبعضا منهم بخاصة أولئك الذين كان ردهم قبيحا ، وكان صدهم عن الذكر قاسيا .

ولقد أوردت كتب السيرة والتاريخ أحداثا كان أبطالها سكان يثرب فرادى أو جماعات، لكن لقاءهم برسول الله ﷺ لم يكن فيه ما ينفر أو يجافي ، إن بعضا من هذه الكتب قد أكدت إسلام بعضهم بعد أن سمعوا ما سمعوا من رسول الله .

هذه البدايات لابد منها لتوصيل كلام الله إلى تلك القلوب التي اختارها الله تعالى لحمل هذه الرسالة ، واختارها من دون كل العرب لتكون أمة الأنصار ، واختارها من دون كل سكان جزيرة العرب لينالوا شرف النصرة والبيعة ، واختار الله هؤلاء القوم وهذه المدينة ليكونوا عماد الدولة وجنود الأمة ، وتكون المينة عاصمة الإسلام وتحوي جسد رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري ، ثم الظفري عن أشياخ من قومه قالوا قدم سويد بن الصامت[1] أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجا أو معتمرا وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشعره وشرفه[2]

---

(١) سويد بن الصامت بن حوط بن حبيب بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، وأمه ليلى بنت عمرو النجارية أخت سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب بن هشام فهو بهذا ابن خالة عبد المطلب جد رسول الله وبنت سويد هي أم عاتكة أخت سعيد بن زيد إمرأة عمر بن الخطاب ، فهو جدها لأمها واسم أمها زينب: [الروض الأنف]

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٦٧ ،السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ١٧٣

فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الإسلام. فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ؟ فقال رسول الله :« وما الذي معك ؟» قال : مجلة لقمان يعني حكمة لقمان. فقال رسول الله ﷺ :«اعرضها علي». فعرضها عليه ... فقال له: « إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا قرآنا أنزله الله تعالى هو هدى ونور» . فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد عنه وقال : إن هذا قول حسن ، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج فإن كان رجال من قومه يقولون إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله قبل يوم بُعاث[١]

وقد رواه البيهقي عن الحاكم ، عن الأصم ، عن أحمد بن عبد الجبار ، عن ابن إسحاق بأخصر من هذا[٢] وفي قول بعضهم إن قومه شعروا بإيمانه فقتله الخزرج بغته ، وقيل: القاتل المجذر ولد زياد الذي قتله سويد كان قد شرب الخمر وجلس يبول ، وهو ممتلئ سكرا ، فضربه إنسان من الخزرج حتى أتى المجذر بن زياد . فقال له : هل لك في الغنيمة الباردة ؟ قال : وما هي ؟ قال سويد أعزل من لا سلاح معه ، فخرج المجذر بالسيف مصلتا ، فلما أبصر سويدا قال له : قد أمكن الله منك ، قال : ما تريد مني ؟ قال : قتلك ، فقتله فكان ذلك سبب الحرب بين الأوس والخزرج ببعاث[٣]

وعلى شاكلة قصة سويد بن الصامت جاءت قصة إياس بن معاذ ، قال ابن إسحاق: وحدثني الحصين عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن محمد بن لبيد قال لما قدم أبو اليسر أنس بن رافع مكة ، ومعه فتية من نبى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله فأتاهم فجلس إليهم ، وقال لهم :« هل لكم في خير مما جئتم له ؟» فقالوا له

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٦٨ ،٦٩ وفاء الوفا: السمهودي ١/ ٢٢١

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٧٤

(٣) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢/ ٧

وما ذاك ؟ قال :« أنا رسول الله بعثنى الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

قال : فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاما حدثا : أي قوم، والله هذا خير مما جئتم له . قال : فأخذ أبو اليسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب وجه إياس ابن معاذ وقال : دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا ، قال فصمت إياس ابن معاذ وقام رسول الله ﷺ عنهم،فانصرفوا وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج.

قال : لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد : فأخبرني من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل لله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما لقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع رسول الله ﷺ ما سمع[١] ولقد كان رهط الأوس ومنهم إياس ابن معاذ وقد جاؤوا لأمر غير ما أرادهم له إياس . وكان حدثا صغيرا لمكن الرسول التقى بآخرين من الخزرج ، فقد كانت الأوس والخزرج كل في جماعته متباعدين متنافرين .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٦٩،٧٠ ، وفاء الوفا ١/ ٢٢١

(٢) المسلمون الأوائل من يثرب

قال ابن إسحاق : التقى رسول الله ﷺ بستة نفر من الخزرج منهم من بني النجار وهو تيم الله ، ثم من بني مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر

١ـ أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك ابن النجار وهو أبو أمامة .

٢ـ وعوف بن الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن النجار وهو ابن عفراء، قال ابن هشام وعفراء بنت عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار قال ابن إسحاق : ومن بني زريق .

٣ ـ عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج ، رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق ، فال ابن هشام : ويقال له عامر بن الأزرق ، و قال ابن إسحاق : ومن بني سلمة بن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج، ثم من سواد بن غنم بن كعب بن سلمة .

٤ ـ قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم بن سواد ومن بني حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة.

٥ ـ جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان بن عبيد .

٦ـ عقبة بن عامر بن نأبي وهؤلاء الثلاثة من بني سلمة[١] وقال موسى بن عقبة عن الزهري وأبي الأسود عن عروة هم :

١ـ أسعد بن زرارة .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٧١

٢ـ معاذ ابن عفراء وهي أمة وهو ابن عمرو بن الجموح من بني غنم بن مالك ابن النجار أيضا .

٣ ـ رافع بن مالك .

٤ ـ يزيد بن ثعلبة البلوي ثم من بني غصيته حليفتهم .

٥ ـ أبو الهيثم مالك بن التيهان الأوسي، ثم من بني جشم أخى عبد الأسهل ابن جشم .

٦ـ عويم بن ساعدة الأوسي ، ثم من بني أمية بن يزيد . ويقال: كان فيهم .

٧ ـ عبادة بن الصامت الخزرجي ، ثم من بني غنم أخي سالم بن عوف .

٨ ـ وذكوان الزرقي ، فيكونون ثمانية ، ومنهم من عدهم سبعة فأسقط جابر ابن عبد الله أو عبد الله بن زيد ، وقيل : إنما أسلم في العام الأول اثنان فقط : أسعد ابن زرارة ، وذكوان(١) ثم انصرف أولئك الرهط من الخزرج راجعين إلى بلادهم .

قال : وفي رواية أنهم لما آمنوا به عليه السلام وصدقوا مقاله لهم : قالوا له : إنا نشير عليك أن تمكث على رسلك أي على حالك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنذكر لهم شأنك . وندعوهم إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ لعل الله عز وجل يصلح ذات بينهم ونواعدك الموسم من العام المقبل فرضي بذلك رسول الله .

أي: فلم يقع لهؤلاء الستة أو الثمانية مبايعة، ويسمى هذا ابتداء الإسلام للأنصار(٢)، فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا بينهم،فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ . إذًا فهؤلاء الرهط من الخزرج، أو من الخزرج والأوس لم يكتفوا بأن آمنوا وصدقوا بل حملوا الإسلام إلى المدينة، وتحولوا إلى دعاة له، فإن لم يستعجب لهم الكثيرون،لكن

---

(١) وفاء الوفا: السمهودي ١/ ٢٢٢ ، ٢٢٣

(٢) السيرة الحلبية: علي الحلبي ٢/ ٢٢٢، ٢٢٣

ذكر رسول الله قد اخذ يتردد على الألسنة في يثرب، ويتناقل بعض أخباره الناس، والكثيرون حاولوا الربط بين ما يسمعون الآن عن الرسول ﷺ، وما سمعوا عنه من يهود. حيث استقر في أذهانهم قبل ذلك حديث اليهود الذى قالوا فيه: إن نبيا قد أظل زمانه سيظهر مهاجره مدينة يثرب.

وقد روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن إسماعيل عن أبي أمامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت:كان يوم بُعاث يومًا قدمه الله لرسوله، قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد افترق ملؤهم وقُتل سراتهم[١]

كانت هذه الحالة مدخل صدق إلى قلوب بعض الناس، وكان هؤلاء طليعة من حمل الإسلام إلى المدينة،لم يكونوا دعاة له في أول الأمر لكنهم حملوا شعاعه ونوره إلى مدينة يثرب، جاء يوم بُعاث ليحصد أكثر هؤلاء الناس أوجلهم، لم يكن الإسلام الذي استشعره الرجلان أو الرهط الستة أو الثمانية الذين سبق ذكرهم قد استقر في قلوبهم إيمانا خالصا،فالكثير من الناس الذين سمعوا من رسول الله قد حفقت قلوبهم ولانت أنفسهم، ووجدوا في حديثه ﷺ الأمن والسلام واليقين، وعرفوا أن كلامه غير ما عرف البشر من حديث أسلموا وآمنوا ولم يظهروا إسلامهم ولكنهم تمثلوه ووجدوا فيه الأمل والملاذ ورالراحة لنفوسهم.

لم يكن إياس بن معاذ وحيدًا في معارضته التى لم تلق أذنا صاغية للحروب بين الأوس والخزرج، وأن سماع رسو ل الله واتباعه خير مما جاؤوا إليه من طلب الحلف من قريش وغيره أيضا كان على هذا الاتجاه وهذا الطريق.

قال رزين في ذكر هذه القصة ـ قصة إياس بن معاذ وأبو اليسر أنس بن رافع: ثم جاءت الأوس تطلب أن تحالف قريشا فجاءهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم، وقال : « اسمعوا مني لعل لكم في خير مما جئتم له» ، وتلا عليهم القرآن ، ثم قال : بايعوني واتبعوني فإنكم ستجمعون بي». فقال: عمرو بن الجموح: هذا أي قوم والله

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٧٥.

خير لكم مما جئتم له فانتهوه وقالوا ما جئنا لهذا، ولم يقبلوا عليه، ثم انصرفوا فكانت وقعةُ بعاث[١]

تلك الخطوة الأولى إلى يثرب،حديث اليهود عن النبي المبعوث في آخر الزمان، والتقاء الرهط الأول من أهل يثرب بهذا النبي والسماع منه، والتشاور بأن يتبعوه فهو الذي حدثتهم عنه اليهود وانتشار خبره في سائر أنحاء الجزيرة العربية، ولم يعد هذا الخبر وهذه البعثة خافية على أحد وتردد البعض، ورفض الآخرون وقبول فريق وصد فريق، كل هذا اختبارا وتمحيصا لمن تكون الخيرة بعد ذلك في خيار الله تعالى لنصرة ها الدين.

لم تحك لنا كتب السيرة عن قوم سمعوا من رسول الله وأعادوا الاتصال معه ثانية إلا ما كان من الأوس والخزرج، وعلى الرغم من أن قبائل كانت أقرب إلى مكة وأكثر صلة كثقيف وهوازن وغيرها سمعوا منه مرات ومرات لكن مشيئة الله تعالى حطت عند هؤلاء فقط، تقدم الخطوة الأولى من استشعروا هذا الدين فرادى وجماعات صغيرة وانتقلوا بعد ذلك ليكونوا هم أنصار الإسلام وليكونوا حماته والمدافعين عنه.

---

(١) وفاء الوفا:السمهودي ١/ ٢٢٢.

لقاء الرسول ﷺ مع أهل يثرب

لم تكن الأحداث السابقة التي ثبتناها إلى بعض الإرهاصات الأولى لليثربيين ومدى صلتهم بهذا الدين، والتي كانت عبارة عن قناعات شخصية لدى البعض، وقبول مبدئي من آخرين، إن القناعات الأولى لم تكن إلا محاولات لتحويل اليثربيين إلى طريق آخر غير طريق الحرب، وتوجيه أنظارهم وجهة غير وجهة الثأر والقتل، لم تجد هذه الأصوات قبولًا من أحد، فلا صوت إياس بن معاذ ولا صوت غيره تمكن أن يثنى أهل يثرب عن الدخول في الحرب.

ويوم بعاث كان خيرًا كبيرًا للإسلام والمسلمين، وقد بدا واضحا ذلك بحديث عائشة ﵂ فإن دعاة الحرب والثأر لم يستجيبوا لأصوات المناوئين لهذه الحرب المجنونة،لكنهم جربوا في آخر حروبهم وقتل أولئك المكابرون وتساقطت رؤوسهم الواحد تلو الاخر، ووجد من بقى على قيد الحياة أنه يجب التحول إلى مسار وهدف آخر، ونحو سياسة أخرى غير التي تبناها الآباء والأجداد وقادتهم إلى حتفهم.

يجب أن تتغير سياسة الحرب والثأر، وسفك الدماء بلا هدف أو غاية إلى طريق يعطى أهل يثرب بعض الاستقرار والطمأنينة، وكانت إرادة الله تعالى إن أراد خيرًا بأهل يثرب أنفسهم حيث إن دخولهم في الإسلام قد بدل سياستهم، وغير معتقداتهم،وأرادهم ليكونوا أساس الدعوة خارج مكة وبناة الدولة، وجند الدعوة، وأنصار الله .

قال ابن إسحاق:فلما أراد الله ﷻ إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ وإنجاز موعده له، خرج رسول الله في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم،فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا.

قال ابن إسحاق:فحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم:«من أنتم؟» قالوا:نفر من الخزرج. قال:«أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم، فقال:«أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن،قال:وكان مما صنع الله بهم الإسلام أن يهودًا كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن، قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله أولئك النفر، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوا وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا: إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فستقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا[(١)]

لقد اعترف هؤلاء الرهط من أهل يثرب أن بين قومهم من العداوة ما بينهم، وأنهم لن يتمكنوا أن يعطوا عهدًا للرسول ﷺ ، قالوا: إنا نشير عليك أن تمكث على (أي على حالك) باسم الله نرجع إلى قومنا فنذكر لهم شأنك وندعوهم إلى الله ﷻ - كما سبق الحديث عن الرهط القليل الذين التقى بهم الرسول ﵇[(٢)]

وأضاف اليثربيون بأن قومهم لو نبذوا ما بينهم من الخلاف وجمهم الله على محمد ﷺ فسيكون له ولهم شأن عظيم؛لأنهم أحسوا تماما بأن ضعف قومهم نتيجة طبيعة لتفرقهم وحروبهم الدائمة التي أرهقتهم وأضعفتهم وقتلت أبطالهم ورجالهم، ولم

---

(١) السيرة النبوية: ابن هشام ٢/ ٧٠، ٧١ ، السيرة النبوية:ابن كثير ٢/ ٢٧٧، الطبري: تاريخ ٢/ ٣٥٢، وفاء الوفا:السمهودي ١/ ٢٢٢

(٢) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢/ ٨، والروض الأنف: السهيلي ١/ ١٧٦ وما بعدها.

يعط هؤلاء وعدًا قاطعًا للرسول ﷺ ، ولكنهم أملوا أن يكون طريق الإسلام هم، وأن يعطوه ما عندهم من قوة وعزيمة، وبذلك فقد بدأ الفتح الكبير لهذا الدين يخطو باتجاه يثرب،وباتجاه الأوس والخزرج وباتجاه الذين سيكون لهم شرف النصرة ، وليصبحوا هم الأنصار.

لقد أدى هذا اللقاء الخير الكثير بعد ذلك، ولكن الأمور لم تكن بهذه العجالة، فقد بدأ الإسلام بالقناعات الشخصية، ثم انتقل إلى مجموعات بسيطة لم تتعد والمقصود أن هؤلاء الإثنى عشر رجلا شهدوا الموسم عامئذ ، وعزموا على الاجتماع برسول الله ﷺ فلقوة بالعقبة فبايعوه عندها ببيعة النساء وهي العقبة الأولى .الكثرة وهؤلاء كانوا رسلًا إلى قومهم حملوا بعد ذلك هذا الدين إلى يثرب قومًا عزيزًا مهابًا.

تعتبر هذه الفترة فترة تحول كبير في تفكير أهل يثرب، وليس التحول بهذه البساطة، ولكنه مع كل ما رافقه من أحداث فقد كان تحولا جذريا كما تحدثت كتب السيرة، لقد كان تحولا هائلا في النفوس، فقد تمكن المسلمون الأوائل في يثرب أن يحققوا النصرة للإسلام في الوقت الذي لم يتمكن المسلمون الأوائل في مكة أن يحققوا مثل هذه المعجزة، لكن مع هذا فلم يكن دور أهل مكة بهذه البساطة، فهم الذين حملوا وتحملوا وصبروا وصابروا وصابروا حتى قيض الله لهذا الدين من يحمله.

وفي رواية أخرى: أن الوفد الذي لقى رسول الله أول مرة من الأوس، قال ابن زبالة: إنه ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل فيأبونه حتى سمع بنفر من الأوس قدموا في المنافرة التي كانت بينهم فأتاهم في رحالهم فقالوا: من أنت؟ فانتسب لهم وأخبرهم خبره، وقرأ عليهم القرآن ،وذكر أنهم أخواله،وسألهم أن يؤوه ويمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: والله هذا صادق،وإنه للنبي الذي يذكره أهل الكتاب ويستفتحون به عليكم،فاغتنموه وآمنوا به.

فقالوا:أنت رسول الله،قد عرفناك وآمنا بك وصدقناك فمرنا بأمرك فإنا لن نعصيك ، فسُر بذلك رسول الله ﷺ وجعل يختلف إليهم، ويزدادون منه بصيرة ، ثم أمرهم ﷺ أن يدعو إلى دينهم، ثم شخصوا إليه في الموسم فكان من أمر العقبة ما كان، وهو مخالف لما تقدم من ان النفر من الأوس لم يقبلوا[(١)]

والمرجع أن هؤلاء النفر الستة أو الثمانية ـ كما مر ذكرهم ـ هم من الخزرج ومنهم الأوس ولقد سبق القول بأن كلمة الخزرج تطلق على الحيين معا الأوس والخزرج، وكذلك كلمة الأوس تعني معًا نتيجة التداخل في النسب والمصاهرة والحروب وقول رسول الله ﷺ بأنهم أخواله يعنى أنهم من الخزرج باعتبار أن أم جده عبد المطلب من بني النجار من الخزرج، وهذا ما كان يُقال عن أخواله ﷺ .

ومع اختلاف الروايات عن عدد هؤلاء اليثربيين حيث جعلوهم ستة من الخزرج ، وجعلوهم ستة من الأوس، وجعلوهم سبعة وثمانية..إلخ، يعود رأي آخر لينقض كل هذه الآراء، ويقول: إنما أسلم في العام الأول اثنان فقط هما : أسعد بن زرارة، وذكوان الزرقي[(٢)]

ونحب أن نلخص إلى ترتيب بعض الأفكار حتى نستطيع أن نقارب الحقيقة بأخذ تواريخ لقاء رسول الله ﷺ مع أهل يثرب، وعلى الغالب أن هناك لقاء في سنة مفقودة هو الذي أحدث مثل هذا الاختلاف، وباعتقادي ـ والله أعلم ـ أن لقاء الرسول مع أهل يثرب الذي ابتدأ بلقائه مع أبي اليسر، إياس بن معاذ،وسويد بن الصامت وحتى بيعة العقبة الثانية يمكن أن نحصره باللقاءات التالية :

١ـ يوم بُعاث حصل بالتأكيد قبل الهجرة بخمس سنوات أي سنة ثمان، ومعنى هذا أن لقاء الرسول ﷺ مع أبي اليسر، وكذلك بسويد الصامت إنما حصل في العام السابع للبعثة أو الثامن وتاكيدًا قبل يوم بُعاث باعتبار أن إياس بن معاذ قتل بعاث،وقتل قبله سويد بن الصامت ومقتله كان سببًا لحرب بعاث. هذه واحدة.

---

(١) وفاء الوفا:السمهودي ١/ ٢٢٢ـ٢٢٣.

٢ـ بيعة العقبة الثانية كانت في السنة الثالثة عشرة للبعثة أو الثانية عشرة للبعثة على أبعد تقدير.

٣ ـ بيعة العقبة الأولى كانت في السنة الثانية عشرة للبعثة أو الحادية عشرة للبعثة على أبعد تقدير.

٤ ـ التقى رسول الله بالرهط الستة أو الثمانية في السنة الحادية عشرة، أو العاشرة للبعثة على أبعد تقدير.

٥ ـ ما بين اللقاء الأول والرابع من السنة السابعة إلى الحادية عشرة أو الثامنة إلى العاشرة للبعثة أربع سنوات أو سنتان وما بين هذه اللقاءات حلقة مفقودة.

عقد ابن كثير فصلا [١] بعنوان :قدوم وفد الأنصار عام بعد عاما حتى بايعوا رسول الله ﷺ بيعة بعد بيعة ثم بعد ذلك تحول إليهم رسول الله ﷺ إلى المدينة .

من هذا العنوان نصل إلى الحلقة التي نريد وهي : أن رسول الله ﷺ قد التقى في السنة الثامنة والتاسعة بوفد من الأنصار ،ربما يكون قد التقى بأسعد بن زرارة وذكوان فقط ،ثم التقى في السنة التالية بوفد من الأوس وحدهم، وكذلك بوفد من الخزرج وحدهم .

وربما يكون لقاء رابع، والذي جمع الخزرج والأوس معا كان حصيلة لقاءات سابقة، وهو الذي مهد في السنة التالية إلى بيعة العقبة الأولى والله أعلم.

إذا فإن اللقاء الرابع والذي تم بالعقبة وجمع ستة من الخزرج واثنين من الأوس وعرف باسم العقبة الأولى في بعض المراجع، والواقع أنه هو الذي مهد لبيعة النساء التي تمت بالعقبة، وعرفت في جميع المصادر باسم بيعة العقبة الأولى .

إن المجموعة الأولى هذه قد حملت الإسلام إلى يثرب إيمانا صادقا وإسلاما ودعوة وأملا بأن يصبح الإسلام بعدها أمرا كبيرا ،وبدأ هؤلاء الرهط بالعمل

---

(١) السيرة االبداية والنهاية ـ ابن كثير ٣/ ١٤٧

الدؤوب الصابر ، لم تحدثنا الأخبار عن الجهود التي بذلها هؤلاء لتثبيت الإيمان في قلوبهم على الأقل، ولكسب الأنصار والمؤيدين، لكان من الملاحظ أن الأمر لم يكن - كما تصور المراجع - سهلا حيث تقاطر أهل يثرب على الإسلام ، إنهم في الواقع قد صبروا كثيرا حتى كسبوا التأييد، ومن خلال تتبع الأرقام والأسماء نجد أنهم في كل عام لم يزدادوا إلا قليلا إلا ما كان بين بيعتي العقبة وخروج الدعاة من مكة إلى المدينة .

ومع هذا فإن الدعوة الإسلامية قد دخلت قلوب اليثربيين مقاومة تذكر على الأقل ، هذه الدعوة التي رفضها القرشيون وسواهم لم تأت في مراحلها الأولى مرة واحدة بل أيضا بعث وراءها أسعد بن زرارة الذي تردد اسمه من أول لقاء حتى آخر لقاء، ولعله الوحيد الذي لم ينقطع عن واحدة من هذه اللقاءات ، لكن عمله الدؤوب والقلة معه استطاعوا أن يدخلوا في قلوب العامة والخاصة بفترة قصيرة، حتى طالوا زعماء يثرب الذين بقوا على قيد الحياة بعد حرب بُعاث.

القسم الثاني

دخول الإسلام إلى يثرب

تمهيد :

إذا كان الرهط الذين دخلوا في الإسلام في مراحله الأولى من يثرب قليلين ، فإن أمرهم أصبح أشد تأثيرا وأبعد تغيرا ، هؤلاء الذين التقوا بالرسول ، وربطوا بين دعوته وحديث اليهود وأهل الكتاب عنه فقد كانوا رواد خير وبركة لهم أولا ولأهل يثرب جميعا ثانيا:وإذا كانت هذه الدعوة التي تملأ الدنيا الآن ـ رغم كل التحديات ـ التي تجابهها من أتباعها أولا ومن معتنقيها والمنتسبين إليها ،ثم من أعدائها الكثر المختلفين ثانيا ، فإن هذه الدعوة قد بدأت في أولها بخمسة فقط: رسول الله وزوجته خديجة، وابن عمه على ومولاه زيد بن حارثة من داخل بيته وصديقه أبو بكر من خارج داره .

هؤلاء الخمسة الذين بدأت الدعوة بهم في مكة كانوا بعد عشر سنين يطرقون آذان الناس جميعا سواء منهم من آمن أو من رد بالحسنى ، أو صد بعداوة .فإن هذه الدعوة ـ حتى تلك اللحظة ـ قد خطت خطوات هائلة ووصلت إلى أماكن مختلفة من جزيرة العرب وخارجها .وصلت إلى الحبشة ،وحملها بنو شيبان وبكر ،واتخذوا اسم محمد شعارا في حربهم فنُصِروا به ، وحملها آخرون وآخرون ، وسمع بها الكثيرون ، لكن الترتيبات التي أرادها الله تعالى والمستقبل.والفضل والمنة له وحده وبيده وحده قد خصها أهل يثرب من الأوس والخزرج .

وجدت الدعوة قبولا عند رهط قليل لم يكن في حسبان صاحب الدعوة ؛ لأنه ﷺ كان ينشد النصرة والمنعة في أي قوم حتى يبلغ رسالة ربه التي حجرت عليها قريش ، وصدت الناس عنها ، وهؤلاء القلة من اليثربيين قد طمأنوا رسول الله

بأنهم لو اتحدوا لا يدانيهم في المنعة والشدة أحد فهم متفرقون ـ متناحرون مختلفون ـ وإن نبذوا ما بينهم من ثأر فلا يجاريهم أحد ،لأنهم أبناء الحرب التي ضرستهم ، والمعارك التي طحنتهم ،وأبناء القتال الطويل والصدام المستمر.

لقد رضي الرسول ﷺ من هؤلاء القلة ، وتأكدت لديه قضية أساسية وهي أن الدعوة قد وجدت مرتكزا آخر في يثرب وأفلتت ـ رغم الحصار الشديد المحكم ووسائله البشعة ـ من قبضة قريش التي أحكمتها حول الرسول وأتباعه .وجندوا لذلك القريب والبعيد ،والحاقد والغاضب والمنتفع والمضلل.

أفلتت الدعوة الآن من حصار مكة وحملها أهل يثرب بجدية وقوة متناهيتين وبإيمان صادق ،وبعزيمة متينة ، كانت أساسا ثابتا لما تلاها من أحداث كان مقدارا لها أن تغير مجرى التاريخ .

(١) قبول أهل يثرب الإسلام

جاء قبول أهل يثرب للإسلام في وقت وصل اليأس بالمسلمين أشده ، ففي مكة استمر الملأ من قريش في استخدام كل أدوات التعذيب ووسائل الردع ضد المسلمين ، إلى درجة لم يسبق لها مثيل في بلاد العرب لأي أمر كان ،وتجاوز الحال حد العذاب والتنكيل والحبس إلى دور القتل والتشريد ، ورفع الحماية والحصانة التي كانت تلازم الأحرار والموالى بعيدا عن معاملة العبيد ، وضاقت مكة على المسلمين بشكل كبير جدا ،ولم يشفع قيام بعض المسلمين بالهجرة إلى الحبشة أن يعاود الملأ من قريش حساباتهم ويحاولوا أن يجدوا مدخلا لهذه الدعوة في نفوسهم .

كما أن الصد الكبير الذي كان يلقاه الرسول ﷺ وهو يتجول بين القبائل والحجيج في مواسم العرب كان كافيا لأن يملأ النفوس باليأس والقنوط، نفوس هؤلاء الضعفاء من المسلمين الذين يزداد عليهم العنت يوما بعد يوم ،ولم يعط لقاء الرسول مع القبائل آمالا جسامًا يمكن معها أن يُبنى عليه مستقبلا أو تحقق به غاية، فمنتهى اللطف أن يرد أحدهم بالحسنى .

والقرى الظاهرة حول مكة قد علمت عن الدعوة واتخذت مواقف واضحة منها ، مواقف معادية بالكلية أو غير ذات اهتمام والذين تستهويهم الدعوة كانت لا تخرج معلنة في نفوسهم؛ لأنهم يرون ما حل بمن سبقهم وهم على غير استعداد لمواجهة قوة أقوام وقفت كلها مجتمعة في وجه هذه الدعوة وحال الدعوة في السنة العاشرة وما بعدها يمكن تصويرها:

١ـ ازدياد عدد المسلمين في مكة وازدياد المقاومة القرشية لهذه الزيادة ،واتخاذ أساليب جديدة لمواجهة المسلمين والتضييق الكبير عليهم .

٢ـ وصول الدعوة إلى مناطق كثيرة من أنحاء الجزيرة أعطت ثمارها بعد الهجرة وقيام دولة الإسلام ، فبعد أن كان العرب لا يعيرون اهتماما لمثل هذا الأمر ، وكان

عندهم في تفكيرهم وحياتهم ما يشغلهم عن الأمور الأخرى ، أخذت الدعوة تصبح الشغل الشاغل لهذه القبائل والتي أصبح الإسلام يغزوها واحدة بعد الأخرى، ويدخل الناس في دين الله أفواجا.

٣ ـ انحسار المد الإسلامي في مكة تقريبا،وهذا أدى إلى أن يتردد الكثيرون بقبول الإسلام والدخول فيه .

٤ـ تأكيد الرسول ﷺ وعمله الدؤوب للخروج من هذه الضائقة العجيبة التي أحاطت بالمسلمين ،وكانت رغبة الرسول ﷺ أن يكون الفرج على يد قوم غير قريش ـ بعد أن استيأس منها ـ وبعد أن استخدم معهم كل وسائل الإقناع والبرهان فما زادهم إلا تعصبا وهجرا.

٥ ـ في هذا الجو كانت المفاوضات تسير ببطء ـ فردية أو جماعية ـ ولكنها كانت تؤتي ثمارها مع أهل يثرب وبدا التوجه نحو هذه المدينة ، ولعل المؤرخين جميعا قد أجمعوا على أن السبب المباشر لقبول أهل يثرب الإسلام هو ما سمعوه من اليهود عن نبي قد أظل زمانه وتكون يثرب مهاجره ،وتهديد اليهود لأهل يثرب بأنهم مع هذا النبي سيشتد عضدهم وتتوحد كلمتهم وينزل الله تعالى عليهم نصره ويقتلون عرب يثرب قتل عاد، وإرم ويتخلصون ـ أي اليهود ـ من استعلاء الأوس والخزرج عليهم الذين أشبعوهم قهرا رغم كل ما يملك اليهود من القوة والكيد المستمر.

هذا السبب باعتقادي ـ والله أعلم ـ غير كاف لأن يتسارع اليثربيون للدخول في الإسلام ، ولكن السبب الأقوى وإن كان الأول مقدمة للآخر هو أن اليثربين قد وصلوا إلى مرحلة من الوعي السياسي والفكري متطورة نتيجة لحروبهم المتواصلة ، وتوصلوا إلى نتيجة قيمة بأن أية تجمعات لا يمكن لها أن تستمر إذا كانت خاوية من العقيدة أو المبدأ ، ولو كان الأمر مقتصرا على السماع من اليهود لما دخل اليثربيون بهذه السرعة ولتريثوا قليلا انتظارا للنتائج التي قد تحدث مستقبلا ، لكنهم في كل خطوة نحو الإسلام كانوا يجدون به خيرا وطمأنينة وراحة وترفعا وتساميا عن كل الأعمال التي انتدبوا للقيام بها في حياتهم، وهذا الوعي جعل أهل يثرب من الأوس

والخزرج يتسارعون للدخول في الإسلام ، وقد وجدوا في هذا الدين السبيل الأمثل الذي يمكن أن يخرجهم من محنتهم مع أنهم كانوا يعقدون الحرز لتتويج عبد الله بن أبي ملكا عليهم وباتفاق الطرفين ـ ولم يعد هذا الأمر مقبولا لديهم؛ لأنه حل مؤقت ولا يتعدى أن يكون هدنة بين الطرفين المتحاربين ، ولم يقتصر الدخول في الإسلام على حزب المعارضة الأوس ـ إن صحت هذه التسمية ـ وباعتبار أن الملك من الخزرج لكن الخزرج كانوا هم الأكثر عددا بالدخول في الإسلام والدعوة له وكانوا في ذروة الحماس والقبول لهذا الدين.

إن قبول اليثربيين لهذا الدين كان له مقدمات ـ كما ذكرنا ـ وكان له نتائجه الخطيرة أيضا كما سنتحدث ، لقد عاشت فكرة الملكية فترة قصيرة جدا بدأت باختيار الملك ، وانتهت بدخول الناس الإسلام ، ولم تكن هذه الفترة كافية حتى للقيام بمراسم التتويج التي كان القوم يعدون لها، وتحول التفكير والسلوك من الملكية التي أصبحت هاجس الناس للتخلص من آثار الحروب إلى دخول الناس في الإسلام قلب هذا التحول المفاهيم رأسا على عقب وكان ذلك بفترة وجيزة لا تتعدى سنة أو سنتين على الأكثر ، وهذه المدة كانت كافية لإعلان يثرب مملكة خزرجية ، ولما تأخر الناس كل هذه المدة عن إعلان الملكية التي أصبحت هاجس الملك وحده أكثر من غيره بدا أن في الأفق مستقبلا غير ما أعد له الناس.

لم تقم في تلك الفترة من الاتفاق على الملك إلى سقوطه قوة معارضة لهذه الملكية ، ولكن نجد أن التحول كان إهمال الأولى دون الإعلان عن ذلك ، ونجد أن أقرب المقربين من الملك بل ولي عهده قد دخل في الإسلام .

والقول بأن مفهوم الدولة والأمة لم يكن واردا عند أهل يثرب ، وعند ابتداء دخول الإسلام إليها فيه شيء من الصواب ، ولكن بيعة العقبة الثانية ـ كما سترد تفصيلاتها ـ قد وضعت أسسا لمفهوم الدولة ومفهوم الأمة، بايع الناس الرسول على أكثر بكثير مما كانوا مزمعين بيعة ابن أبي عليه ليكون ملكا عليهم ،وقد ظهرت نتيجة هذه البيعة وثبات مبادئها في أول لقاء مسلح للدولة الإسلامية مع أعدائها في غزوة

بدر،ودخول الإسلام إلى يثرب كان تحولا خطيرا في حياة الناس على كل الأصعدة ، في حياة يثرب نفسها ، في قوة مكة التي كانت حتى تلك اللحظات القوة الغير متوازنة مع الآخرين ، أو على الأقل كانت مكة قد كسبت قدسية خاصة بها لقدوم الناس إليها للحج والعمرة وللتجارة للتبرك بتراث العرب القديم من زمن إبراهيم وإسماعيل.

وخروج المسلمين منها في الهجرة إلى المدينة قد أوقعها في الكثير من الإشكالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، وانهيار الملكية السريع في يثرب ،وتحول عدد لا بأس به من عرب يثرب إلى معارضة المسلمين التي تبناها المنافقون ،إلى تفجر عداوة اليهود على رسولهم المنتظر كل هذه كانت أسبابا قوية في اختلال موازين القوى وحركة التاريخ.

إن انفراج الأزمة على كل المسلمين من أهم نتائج دخول الإسلام إلى يثرب فقد تحول المسلمون إلى قوة نامية سيكون لها شأن وأي شأن في سنوات قليلة لا تتعدى أصابع اليد ولتصبح هي صاحبة الكلمة العليا في جزيرة العرب وقبل أن ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

تقول الأخبار بأن الذين بايعوه ﷺ في أول مرة ـ ولم تكن بيعة بالمعنى المعروف وما هي عليه البيعات التالية ـ قد عادوا إلى يثرب ونقلوا الإسلام لأول مرة إلى هناك وبشكل جماعي تراوح بـ(٢ـ ٨) على أغلب الروايات وربما بأكثر من سنة ، وتكاثر هؤلاء خلال عام وبقدر الضعف تقريبا ـ ربما يكون أكثر ولكن الذين عادوا في العام التالي كانوا بهذه النسبة وكان هذا التجمع البسيط النواة الأولى للإسلام في هذه المدينة ، فلما قدموا (الرهط القليل من أهل يثرب) المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم للإسلام حتى فشا بينهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر من رسول الله ﷺ [(١)]

(١) الروض الأنف : السهيلي ١/ ١٧٧، السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٧٣ ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢/ ٨ ، السيرة النبوية: ابن كثير ٢/ ١٧٨

جهر هؤلاء بالإسلام لأول مرة في يثرب ونقلوه إلى معارفهم وأهليهم ، وخلال عام كامل من عمل هؤلاء ، فقد فشا ذكر الإسلام في يثرب وعلم به الناس وتناقلته الألسن ورردده المتحدثون ، وتداولته المجالس ، ولكن الراغبين فيه قلة؛ لأن هذا الرهط لم ينل الثقافة الإسلامية الكافية للاتساع فقد كان لقاؤهم بالرسول لم يتعد جلسة أو جلستين ، ومعنى هذا أن الأرضية الصلبة التي ستحمل هذا الدين قد أصبحت جاهزة لاستقبال أول هجمة من الإسلام لغزو هذه القلوب والعقول.

وفعلا فقد كانت هذه الأرضية راسخة صلبة كافية تماما؛ لأن يقف عليها حملة الدين الجديد ودعاته ، ولم تذكر لنا كتب التاريخ عن عمل هؤلاء الرهط القلة من المسلمين في يثرب كما توسعت بالحديث عن أوائل من أسلم في مكة وخلال عام كامل ، ولكن الملاحظ حتى من السكوت عنهم أن هؤلاء لم يلاقوا المقاومة الشديدة التي لاقاها أوائل المسلمين في مكة ، ولذلك كان تفشى خبر الإسلام في المدينة كان أمرا ميسورا ، وفعلا فقد دخل فيه الكثيرون دون معارضة أو مقاومة بل وصلوا إلى تصور العلاقة المستقبلية التي ستكون بينهم وبين رسول الإسلام ، وما هي البنود التي يمكن أن يكونوا قادرين على تنفيذها والحديث بها عند لقائهم معه ، والتحدث عن قضايا مصيرية قد تغير مستقبل العالم كله ـ مع أن هذه القلة غير قادرة حتى تلك اللحظة على الحفاظ على ما تحت أيديها فقط .

يعتبر تفشي الخبر في المدينة بين عربها ويهودها مؤشرا واضحا على أن مستقبل هذا الدين سيرتبط بهذه المدينة ، وبأن الثقل الفكرى للإسلام سيتحول من مكة إليها ، وأن الجنود الجدد من الأنصار سيكون لهم النصيب الأوفى في تثبيت أركان هذه الدعوة والدفاع عنها .

تحولت القضية الآن إلى أعمال بناءة ومدروسة ومتفق عليها بكافة الاعتبارات السياسية والإدارية والفكرية والاجتماعية ، وكل هذه القضايا سيلامسها مستقبل الدعوة الإسلامية في يثرب.

لكن يبقى السؤال المطروح في هذه الحقبة بالذات هل سيغير الإسلام حال يثرب عربهم ويهودهم ويوحدهم ويجعل منهم قوة واحدة يستطيع بها أن يعيد التوحيد في العقيدة والقوة في الوحدة وتخطى الصعاب التي قد تنجم عن مثل هذا العمل ؟

الواقع أن اليهود لم يجدوا في قيام الإسلام بمكة أمرا غريبا فقد كانت كل التباشير لديهم تشير إلى أن هذا الأمر كائن ، لكن الشيء الذي حيرهم وجعلهم يقفون محايدين على الأقل في أول الأمر هو كيف يستطيعون أن يوفقوا بين معتقداتهم والواقع الذي دفعهم دفعا إلى إعادة كل حساباتهم ، النبي ليس من بني إسرائيل والذي يتحدث عنه الناس من بني إسماعيل ومن الأميين ، والدعوة صحيحة وهي أمور يعرفونها حق المعرفة ، ويقرون بها مع الاختلاف في التصورات والتحولات الدينية التي ابتدعوها ، ولذلك لم يقدم اليهود على الدخول في الدين وأيضا لم يشعروا حتى ذلك الوقت بأي خطر يتهددهم من انتشاره ، بل ربما يساعدهم على محو آثار الوثنية التي اعتقدوها بأسلوب توحيدي وأشركوا مع الله ما ليس لهم بحق.

أما بالنسبة للوثنيين فقد وجدوا في الإسلام أمرا آخر وجدوا فيه نورا أضاء ظلمة قلوبهم وراحة محت قهر نفوسهم ، ودينا نبذ فكرهم ووثنيتهم ، ونظاما ضرب فرقتهم في مقتل، كل هذا لم يكن هينا على نفوس أولئك الناس ، فقد وصلوا إلى شاطئ الأمان بعد الإجهاد الكبير من معترك الحياة التي عصرتهم وقهرتهم وأفنتهم وجعلتهم شراذم ومجموعات تنتظر الموت بلا سبب في كل لحظة ، وتسعى وراء الثأر القاتل في كل حين ، وبذلك فقد رضوا أن يكون ابن أبي ملكا في أول الأمر يوحد كلمتهم ويبعد شر الحروب عنهم ، لكن أين هذا مما جاء من عند الله يخاطب العقول والقلوب والأفئدة ويهز الجوارح والأحاسيس والمشاعر ، ويطفئ الظمأ والقهر ، ويعيد للنفس الإنسانية كل معاني إنسانيتها وكرامتها.

إن هذا هو الطالع في بداية الحال ، فكيف والوحي ما زال يتنزل على قلب محمد ، والأمر في بداياته الأولى وبالنسبة لهم ـ على الأقل ـ ونداء الله تعالى على لسان نبيهم يدفعهم لأن يكونوا غير ما هم عليه في كل الجوانب مهما كانت جزئياتها ، ومهما كانت أحوالها.

لقد تقبل بعض أهل يثرب ممن كتب له أن يسمع عن الإسلام هذا الدين ، ولم يكتف أن يأخذوه لأنفسهم فالحقيقة أنهم دعوة للآخرين ، دعوة لكل الناس في أي اتجاه إلى هذا الخير العميم الذي لا يستأثر به قوم دون قوم ، لقد عرفوا اليهودية وعرفوا أنها دين خاص ببني إسرائيل ومن وهبوا من أبنائهم له ، فما تكلف أحبار يهود أنفسهم ولا رجال الدين فيهم أن يخرجوا بهذا الدين عن الدائرة التي تقوقعوا فيها وضمنها ، أما الشئ الجديد في دين الإسلام فهو الدعوة للتساوي بين العباد مهما صغر أو كبر هؤلاء الناس ، ومن هذا المنطق الواضح في هذا الدين قبل أهل يثرب الإسلام وهم يعلمون قطعا أن هذا الدين شيء جديد لا قبل لهم ولغيرهم بمثل مبادئه.

إن طليعة الأنصار قد تخطو ـ وبسرعة فائقة ـ خطوات عملية كبيرة اختصرت الزمن ، وطوت المسافات وراحوا وبكل ما أوتوا من قوة إلى الأخذ بكل الأسباب التي تدفع هذا الدين لأن يحكم النفوس والقلوب والأرواح.

(٢) بيعة العقبة الأولى

تشوقت القلوب إلى لقاء محمد ﷺ في العام التالى لأول لقاء موسع معه ، وموسم الحج هو الوقت الأمثل لمثل هذا اللقاء ، ففي هذا الموسم لا يسأل الناس عما يفعلون وفيه الأشهر الحرم ويوافي العرب بالموسم ، وقد حملوا كل ما في جعبتهم الدنيوية وجاؤوا إلى مكة حاجين متاجرين متلاقين ، متوحدين ، وفي الموسم لا يسأل الناس عن لقاءاتهم أو حديثهم أو اتصالاتهم، فهو في الأصل تحقيق لهذا الهدف ولهذه الغايات ، ومع أن العام بطوله ـ والزمن له حساب عند المسلمين ـ لم يكن عدد المؤمنين قوة يحسب حسابها ، بل كان نتاج عملهم أن أوصلوا هذا الدين إلى الناس الذين أخذوا يتحدثون ويرددون عنه ما عرفوه عنه.

حتى إذا كان العام المقبل وافي الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوه بالعقبة قال: وهي الأولى فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب[1] وقد ذكر الله تعالى بيعة النساء في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة]. فأراد ببيعة النساء أنهم لم يبايعوه على القتال، وكانت مبايعته للنساء أن يأخذ عليهن العهد والميثاق ، فإذا أقررن بألسنتهن قال قد بايعتكن، وما مست يده يد امرأة في مبايعة.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٧٣، الروض الأنف: السهيلي ٢/ ١٨٤، السيرة الحلبية: علي الحلبي ٢/ ٨، والسيرة النبوية: ابن كثير ٢/ ١٧٩، وفاء الوفا: السمهودي:١/ ١١٣، عيون الأثر: ابن سيد الناس ١/ ١٩٢

كذلك قالت عائشة ، وقد روى أنهن كن يأخذن بيده في البيعة من فوق ثوب وهو قول علي والشعبي ذكره عنه ابن سلام في تفسيره ، والأصح الأول . وقد ذكر أبو بكر محمد بن المقري النقاش في صفة بيعة النساء وجها ثالث أورد فيه آثارًا وهو أن رسول الله ﷺ كان يغمس يده في إناء ، وتغمس المرأة يدها فيه عند المبايعة فيكون ذلك عقد البيعة ، وليس هذا بالمشهور ولا عند أهل الحديث بالثبت[1]

فعن عبادة بن الصامت .. بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء ، أي كبيعة النساء أي كمبايعته للنساء التي كانت يوم فتح مكة ، وهي على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق، ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ، أي لأن قتل الأولاد كان سابقا فيهم ، وهو وأد البنات ، قيل والبنين خوف الإملاق وفي النهر كان جمهور العرب لا يئدون البنات (بناتهم) وكان بعض ربيعة ومضر يئدونهن أحياء.

فبعضهم يئد خوف العار والافتقار ، وبعضهم خوف السبى ،قال ولا نأتى ببهتان أي الكذب الذي يبهت صاحبه سامعه نفتريه بين أيدينا وأرجلنا. أي في الحال والاستقبال قيل وغير ذلك، ولا نعصيه في معروف أي ما عرف من الشارع حسنه نهيا أو أمرا .

قال الحافظ ابن حجر : المبايعة المذكورة في حديث عبادة بن الصامت على الصفة المذكورة لم تقع ليلة العقبة ، إنما بيعة العقبة ما ذكر أن ابن إسحاق وغيره من أهل المغازى: أن النبي ﷺ قال لمن حضر من الأنصار :« أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم» . فبايعوه على ذلك ، وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه . ثم ذكر جملة من الأحاديث وقال : هذه أدلة صريحة في أن هذه البيعة بعد نزول الآية بعد فتح مكة.

وأقول : ليس في كلام عبادة أن هذه البيعة بيعة العقبة، إذ لم يقل: بايعنا رسول الله بيعة العقبة وإن كان السياق يقتضيه ، وحينئذ فلا يحسن أن يكون كلام عبادة

---

(١) الروض الأنف: السهيلي ٢/ ١٨٤

شاهدًا لمن قال : وتلا عليهم آية النساء ، فلا يحسن التفريع المتقدم ، بل هو دليل على أن هذه المبايعة متأخرة عن يوم الفتح كما قال الحافظ والله أعلم.

زاد بعضهم: السمع والطاعة في اليسر والعسر والمنشط والمكره، وألا ننازع الأمر أهله وأن نقول الحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم .

قال : ومن وفي : بالتخفيف ـ والتشديد أي ثبت على العهد فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو (أي العقاب) طهرة له ، أو قال : كفارة له[1]

وهؤلاء الرهط الذين وافوا المرسم وبايعوا بيعة العقبة الثانية :الأولى .اثنا عشر رجلا وهم :

١ ـ أبو أمامة أسعد بن زرارة المتقدم ذكره.

٢،٣ ـ وعوف بن الحارث وأخوه معاذ وهما ابنا عفراء: المتقدم.

٤ ـ ورافع بن مالك المتقدم أيضا.

٥ ـ وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد بن عامر ابن زريق الزرقى ، قال :بن هشام : وهو أنصارى ومهاجرى.

٦ـ عبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج.

٧ ـ وحليفهم أبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم البلوى .

٨ ـ والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن يزيد بن غنم بن سالم ابن عمرو بن عوف ابن الخزرج العجلاني.

وأقام العباس المذكور بمكة إلى أن هاجر النبي ﷺ فهاجر فهو أنصاري ومهاجري،

---

(١) السيرة الحلبية :علي الحلبي ٢/ ٨.

واستشهد بأحد ﷺ. يروى أنه قال لهم حين اجتماعهم في هذه العقبة الثانية (الأولى) تأخذون محمدا على حرب الأسود والأحمر ،فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكتكم الحرب أسلمتموه فمن الآن فاتركوه ، وإن صبرتم على ذلك فخذوه . قال بعضهم : والله ما قال ذلك إلا ليشد العقد(١)

٩ـ وعقبة بن عامر بن أبي المتقدم .

١٠ـ وقطبة بن عامر بن حديدة المتقدم(٢) فهؤلاء عشرة من الخزرج ، ومن الأوس اثنان هما :

١ـ عويم بن ساعدة.

٢ ـ وأبو الهيثم مالك بن التيهان .

قال ابن هشام : التيهان يخفف ويثقل مثل : ميت ، وميت(٣)

والمقصود أن هؤلاء الاثنى عشر رجلا شهدوا الموسم عامئذ، وعزموا على الاجتماع برسول الله ﷺ فلقوه بالعقبة فبايعوه عندها ببيعة النساء وهي العقبة الأولى.

وروى أبو نعيم أن رسول الله قرأ عليهم من قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم] .

وقال ابن إسحاق : حدثني يزيد ابن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عبد الرحمن بن عسيلة عن عبادة وهو ابن الصامت قال كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ١ / ٢٨١

(٢) تقدم ذكر هؤلاء في أنهم الرهط الستة الذين كانوا أول من سمع من رسول الله ﷺ ووافوه مع غيرهم في الموسم حيث كانت بيعة العقبة الأولى .

(٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ١٧٨، ١٧٩

أن يفرض الحرب ، على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصية في معروف[١] ونعطيه السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقول الحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم .

ثم قال ﷺ بعد هذه البيعة :«فإن وفيتم فلكم الجنه، ومن غشى من ذلك شيئا كان أمره مفوضا إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه»، ولم يكن الجهاد مفروضا في ذلك الوقت، فلم يذكره لهم ، ولم يبايعهم عليه ، وقيل: إنما كانت بيعة العقبة الثانية على الإيواء والنصرة وما يتعلق بذلك ، أما المبايعة على ألا نشرك بالله شيئا ... إلخ، فإنما كانت عام الفتح ولا مانع من تعدد ذلك[٢]

وقد روى البخاري ومسلم هذا الحديث عن طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب به نحوه، ولم يكن أمر بالقتال بعد ، بل كان جميع ذلك قبل نزول الفرائض ما عدا التوحيد والصلاة[٣]

واتفقت جميع المصادر على عدد المبايعين وهم عشرة رجال من الخزرج ورجلان من الأوس، كما اتفقت هذه المراجع على شروط البيعة وقد ذكرنا أن تسميتها ببيعة النساء جاءت متأخرة قياسا على بيعة النساء بعد الفتح[٤]

انفرد مؤلف حياة الصحابة[٥] بذكر حديث طويل عن هذه البيعة ، وقد فرق بينهما وبين بيعة العقبة الثانية التي وردت عنده تحت عنوان عرضه ﷺ الدعوة في مواسم الحج قال : فلقيهم النبي ﷺ في أيام منى عند جمرة العقبة ليلا، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله ـ ﷻ ـ وإلى عبادته والمؤازرة على دينه الذي بعث به أنبياءه ورسله ،

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٧٩ . السيرة النبوية : ابن هشام (٢ / ٧٥) وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٢٥٣

(٢) السيرة النبوية : دحلان ١ / ٢٨٨

(٣) وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٨٨

(٤) السيرة النبوية : ابن كثير ٣ / ٦٠٣

(٥) حياة الصحابة : الكاندهلوي ١ / ٧٨، ٧٩

فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحى إليه فقرأ الرسول سورة إبراهيم ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم] فرق القوم وأخبتوا حين سمعوا فأجابوا .

فمر العباس بن عبد المطلب وهو يكلمهم ويكلمونه، فعرف صوت النبي ﷺ فقال ابن أخي ، ومن هؤلاء الذين عندك؟ قال :«يا عم ، سكان يثرب الأوس والخزرج قد دعوتهم إلى ما دعوت إليه من قبلهم من الأحياء فأجابوني وصدقوني ، وذكروا أنهم يخرجونني إلى بلادهم »، فنزل العباس وعقل راحلته ثم قال لهم يا معشر الأوس والخزرج : هذا ابن أخي، وهو أحب الناس إلي ، فإن كنتم صدقتموه وآمنتم به وأردتم إخراجه معكم، فإني أريد أن آخذ عليكم موقفا تطمئن به نفسي؛ ولا تخذلوه ولا تغروه،فإن جيرانكم اليهود،واليهود له عدو،ولا آمن مكرهم عليه، فقال أسعد بن زرارة ـ وشق عليه قول العباس حين اتهم عليه ـ سعدا وأصحابه : يا رسول الله ائذن لنا فلنجبه غير مخشنين بصدرك، ولا متعرضين لشيء مما تكره إلا تصديقا لإجابتنا إياك وإيمانا بك . فقال رسول الله «أجيبوه غير متهمين ».

فقال أسعد بن زرارة :وأقبل على رسول الله بوجهه فقال: يا رسول الله، إن لكل دعوة سبيلا إن لينًا وإن شدة ، وقد دعوت اليوم إلى دعوة متهجنة من الناس متوعرة عليهم ، دعوتنا إلى ترك ديننا واتباعك على دينك وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك ، ودعوتنا إلى قطع ما بيننا وبين الناس من الجوار والأرحام القريب والبعيد ، وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك .

ودعوتنا ونحن جماعة في دار عز ومنعة لا يطمع فيها أحد أن يرأس علينا رجل من غيرنا قد أفرده قومه وأسلمه أعمامه ، وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك .

وكل هذه الرتب مكروهة عند الناس إلا من عزم الله على رشده ، والتمس الخير في عواقبها ، وقد أجبناك إلى ذلك بألسنتنا وصدورنا وأيدينا إيمانا بما جئت به وتصديقا بمعرفة ثبتت في قلوبنا، نبايعك على ذلك، ونبايع ربنا وربك ، يد الله فوق أيدينا ، ودماؤنا دون دمك ، وأيدينا دون يدك، نمنعك ما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا

ونساءنا، فإن نفي بذلك فلله نفي ، وإن نغدر فبالله نغدر ونحن به أشقياء هذا الصدق منا يا رسول الله والله المستعان .

ثم أقبل على العباس بن عبد المطلب بوجهه فقال : وأما أنت أيها المعترض لنا بالقول دون النبي ﷺ والله أعلم ما أردت بذلك ؟

ذكرت أنه ابن أخيك وأحب الناس إليك، فنحن قد قطعنا القريب والبعيد وذا الرحم، ونشهد أنه رسول الله أرسله من عنده ليس بكذاب ، وأن ما جاء به لا يشبه كلام البشر ، وأما ما ذكرت من أنك لا تطمئن إلينا في أمره حتى تأخذ مواثيقنا فهذه خصلة لا نردها على أحد أرادها الله لرسول الخ ، فخذ ما شئت ثم التفت إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله خذ لنفسك ما شئت واشترط لربك ما شئت فذكر الحديث بطوله في بيعتهم[1]

من متابعة فقرات الحديث نجد أنِ به بعض التكلف ودمج بعض المواقف وترتيب بعض المقالات خاصة، وأنه انفرد به أبو نعيم وأخذ عنه الكاندهلوي .

لكن مع هذا نستطيع أن نستخلص بعض ملامح التحولات الفكرية والسياسية والعقدية لدى الأنصار ، فمنها مثلا أن المبايعين من الخزرج وهم الكثرة وهم الذين كانوا يعقدون الخرز وقتها لتتويج عبد الله بن أبي ملكا عليهم ، وهذا تحول كبير عن خطهم الأول ، وقد انفَض كما يظهر عن قومه قبل أعدائه من الأوس واجتماع الحيين على الإسلام ، ومبايعة الرسول ﷺ دليل أكيد على هذا التحول على الرغم من أن الأوس كانوا قلة في هذه البيعة ، ولكن العدد في الأوس ازداد يشكل مطرد واتساع كبير ، وهذا الأجماع يعتبر أول إجماع منهم على أمر بالغ الخطورة كهذا الأمر، فليس من السهل التقاء هؤلاء القوم بهذه البساطة والتفاهم على ما أقدموا وهي الخطوة الأولى في طريق رحلتهم .

إن الشروط التي حددها الرسول ﷺ قد شملت كل ما جاء به الإسلام حتى ذلك الوقت :

---

(١) انظر: دلائل النبوة (٥٨) .

١ـ التوحيد وهي الخطوة الأساسية الأولى في مجال العقيدة الإسلامية فطرح الشرك والأوثان هو من أوجب واجبات دعوة الإسلام، وقد قضى الرسول ﷺ صدر دعوته يؤكد هذه الحقيقة ويغرسها في عقول أتباعه، وعليها يأخذ العهد ولا يقبل عملا بدونه .

٢ـ النهي عن بعض ما نهى الإسلام عنه حتى ذلك الوقت السرقة والزنا وعدم قتل الأولاد، ولا يأتي المسلم بفاحشة أو بهتان مفترى بين يدى القوم وأرجلهم .

٣ـ الطاعة : وهي من الأمور المهمة في هذا المجال ، فإن القوم تعودوا على طاعة رؤسائهم وساداتهم وعلى مدة صلتهم بالدم بهؤلاء الرؤساء ، أما أن يتحولوا إلى طاعة رسول الله بهذه السرعة فإنه أمر خطير ، إذ إنهم فعلاً قد بدأوا ينسلخون عن جاهليتهم والتزاماتهم السابقة ليدخلوا في طاعة رسول الله ﷺ ، وهو نقض صريح لما تفاهم عليه ساداتهم من البيعة وتتويج الملك عليهم ، وأيضا ليكونوا بطاعتهم للرسول قد خرجوا عن طاعة ساداتهم وملئهم وكبرائهم ، والتوجه إلى طاعة الرسول ﷺ ، وهو أمر قد تم التأكيد عليه .

٤ ـ السلطة التي تحاسبهم إن أحسنوا أو أساؤوا هي الله تعالى ، فهم سيغادرون مكة إلى بلدهم وليس فوق رؤوسهم سلطة تأخذهم وتردعهم إن عصوا . وتجزيهم إن أحسنوا، فقد ترك رسول الله هذه القضية لضمائرهم ومراجعة الله تعالى لهم، فلهم الجنة إن وفوا ، وإن عصوا فأصابهم من عقاب الله في الدنيا فهو كفارة لهم ، فالأمر كله لله تعالى إن شاء غفر وإن شاء عذب .

أمر هذه البيعة جدٌّ وخطير، وسحب الناس من عاداتهم وتقاليدهم وتحويلهم إلى طريق الإسلام أمر فيه صعوبة بالغة وثانيا فإن نتائجه جد خطيرة .

لقد وفى هؤلاء عهدهم ودخلوا بعزيمة قوية درب الإسلام ، وتخلصوا بسهولة من كل الرواسب الجاهلية ـ بايعوا الرسول ﷺ على بنود لها في حياتهم الكثير من الرواسب والخلفيات لكنها طرحت جانبا دون العودة إليها واجتمعت في نفوسهم قوة الوفاء والصدق، لتكون شيئا كبيرا في تاريخ الإسلام .

فلما انصرف القوم عنه بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان مصعب يسمى المقرئ في المدينة ، وكان منزله على أسعد ابن زرارة .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أنه كان يصلي بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض(١)

وقد روى البيهقي عن ابن إسحاق قال : فحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أن رسول الله ﷺ إنما بعث مصعبًا حين كتبوا إليه أن يبعثه إليهم ، وهو الذي ذكره موسى بن عقبة كما تقدم ، إلا أنه جعل المرة الثانية هي الأولى ، قال البيهقي وسياق ابن إسحاق أتم(٢)

فلما انصرفوا راجعين إلى بلادهم بعث رسول الله ﷺ معهم ابن أم مكتوم، واسمها عاتكة، واسمه عمرو ، وقيل ، عبد الله ، وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها ، قال الشعبي : غزا رسول الله ثلاث عشرة غزوة ما فيها من غزوة إلا واستخلف ابن أم مكتوم على المدينة،وكان يصلي بهم،وليس له رواية،ومصعب ابن عمير يعلِّمان من أسلم منهم القرآن ، ويعلمانهم أي من أراد أن يسلم الإسلام ويفقهانهم في الدين ، ويدعوان من لم يسلم منهما إلى الإسلام ، وهذا ما في أكثر الروايات ، وهو يفيد أنه ﷺ بعث بهما معا، ويدل ما روى عن البراء بن عازب رضي الله عنه أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرئان الناس القرآن .

وفي رواية:أن رسول الله بعث مصعبا حين كتبوا إليه يبعث إليهم، وفي رواية:ثم بعثوا إلى رسول الله معاذ بن عفراء ، ورافع بن مالك رضي الله عنهما : أن ابعث علينا رجلا

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٧٦ ، ٧٧.

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٨٠

من قبلك يفقهنا ويدعو الناس بكتاب الله ، فبعث إليهم مصعبًا، وكان يقال له: المقرئ، وهو أول من تسمى بهذا الاسم ، وهذا يدل على أن مصعبا لم يكن معهم .

أقول وقد يقال : لا منافاة ؛ لأنه يجوز أن يكونوا كتبوا وأرسلوا إليه ﷺ بذلك عند خروجهم من مكة، وقبل أن ينصرفوا منها راجعين إلى المدينة ، والاقتصار على مصعب لا ينافي ما تقدم من ذكر ابن أم مكتوم معه ، ثم رأيت ما يبعد الجمع الأول وهو من ابن إسحاق أن رسول الله إنما بعث مصعب بن عمير بعدهم ، وإنما كتبوا إليه أن الإسلام قد فشا فينا، فابعث إلينا رجلا من أصحابك يقرئنا القرآن ويفقهنا في الإسلام، ويعلمنا سننه وشرائعه ، ويؤمنا في صلاتنا، فبعث مصعبا وما يبعد الجمع الثاني ، وهو ما نقل عن الواقدي أن ابن أم مكتوم قد وفد على المدينة بعد بدر بيسير .

وقد يقال : لا منافاة في ذلك؛ لأنه يجوز أن يكون كل من مصعب بن عمير وابن أم مكتوم رجعا إلى المدينة فجاء إليهم مصعب، وتخلف ابن أم مكتوم فليتأمل ذلك والله أعلم، وهذه المبايعة يقال لها: العقبة الأولى لوجود تلك المبايعة عندها ، ولما قدم مصعب المدينة نزل على أبي أمامة أسعد بن زرارة دون بقية رفقته[(١)]

لقد خفف علينا الرواة البحث عمن أرسل رسول الله إلى المدينة مصعبًا وحده أم هو ابن أم مكتوم، والذي يهمنا هو أن الأوس والخزرج كما ورد كره أن يؤم بعضهم بعضا ،وهذه واحدة وهي المهم لما بين الحيين من الماضى القريب من الثارات ونتائج الحروب ، والثانية وهي أمر طبيعي جدا أن يكون المبعوث أو المبعوثان إلى المدينة جاءا ليقرئا الناس القرآن ، ويعلموهم الإسلام ويفقهوهم في الدين ،إذ أن أهل يثرب حديثو عهد الإسلام لا يعلمون كثيرا عن تعاليمه ، وما نزل حتى ذلك الوقت من القرآن ومناسبة الآيات ودلالتها وأوامر الرسول ﷺ ونواهيه كان كل ذلك في مكة ، ويتطلب ذلك دعاة قد عايشوا هذه المرحلة ووعوها تماما .

---

(١) السيرة الحلبية : على الحلبي ٢ / ٩ ، والسيرة النبوية : دحلان ١ / ٢٨٩

وكان اختيار الرسول لرجلين من صلب قريش أمرًا بالغ الأهمية ، فقد يكونان هما الأفقه أو مساويين لغيرهما من الصحابة في مكة ، وتأمير مصعب على هؤلاء النفر الجدد من المسلمين ورضاء الطرفين من أهل يثرب أمر له دلالته التي سنوردها في بحوث لاحقة إن شاء الله، فالأمر الأول إمامة الصلاة هي الأهم في مجال البحث حتى الآن، لأنها فكرة جديدة في علاقة القوم السياسية وعلاقتهم في الدعوة الجديدة .

أقام مصعب عند أسعد بن زرارة، وهو من الخزرج وقريب الصلة مع الأوس إذ إنه يملك صلة قرابة بالرجل البارز في الأوس في ذلك الوقت سعد بن معاذ ، والصلة بين الرجلين متقدمة جدا ، وهو اختيار موفق من عدة جهات، أولها: أن أسعد بن زرارة يعتبر أول الدعاة من يثرب يتصدر العمل الإسلامى وجلب الأنصار والبيعة للرسول تلو البيعة، وثانيهما: أن علاقته بسعد ابن معاذ قد تحميه من بعض الثارات التي كانت للأوس على الخزرج ، وهو أحد المستهدفين من الأوس ، والشيء الآخر أن أسعد كان نشيطا فطنا داعية متحمسا وبشكل كبير لهذه الدعوة .

أصبح مصعب بن عمير ممثلا للرسول في المدينة ، وله يؤول الأمر إن ألم بجماعة المسلمين أي طارئ، وسيتعرض الرهط إلى العديد من المواقف التي تتطلب مقام أسعد وفطنته بالعلاقات الاجتماعية والسياسية، والتي تمهد لكسب أنصار جدد للدعوة من الأوس ومن الخزرج على السواء ، وهو أمر يتطلب دراية وحسن معاملة ومعرفة لمقام الناس ومراتبهم .

وتأتي قضية أخيرة ذات أهمية بالغة وهي قضية صلاة الجمعة والإمام في هذه الصلاة، وأول صلاة جمعة في المدينة ، تتفق الروايات على أن مصعب بن عمير ﷺ كان يؤم الأوس والخزرج لما بينهم من العداوة، كرهوا أن يؤم بعضهم بعضا ، وجمع بهم مصعب ﷺ أول جمعة في الإسلام قبل قدوم الرسول؛ لأنه ﷺ لم يتمكن من إقامة الجمعة بمكة ، فأمرهم بإقامتها في المدينة وكانوا أربعين رجلا ، واشتهر أن

أول من جمع بهم أسعد بن زرارة ﷺ ، ولا مخالفة؛ لأن مصعب بن عمير كان عند أبي أمامة فكان هو بمثابة المعاون له في جميع أموره، ومنها صلاة الجمعة فنسب تارة لهذا وتارة لذاك .

قيل: إنهم أقاموا الجمعة باجتهاد منهم من غير أمر النبي ، وهذا خطأ مردود ، بل روى ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير ، « أما بعد : فانظر اليوم الذي تجهز فيه اليهود بالزبور لسبتهم أي اليوم الذي يليه يوم السبت فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا حال النهار عن شطره فتقربوا إلى الله تعالى بركعتين »، فجمع مصعب عند الزوال أن صلى الجمعة بهم، واستمر على ذلك حتى قدم النبي ﷺ وأسلم خلق كثير من الأنصار على يد مصعب ﷺ بعد أن اشتد عليهم أمره في أول مجيئه ، وكادوا أن يقتلوه ثم هداهم الله[(١)]

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن أبي أمامة عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال : كنت قائد أبي كعب بن مالك حين ذهب بصره ، فكنت إذا خرجت إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلى على أبي أمامة (أسعد بن زرارة)، فمكث حينا على ذلك لا يسمع الأذان للجمعة ، إلا صلى عليه واستغفر له ، قال فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لعجز ألا أسأله ماله إذا سمع الأذان للجمعة على أبي أمامة .

قال فخرجت يوم الجمعة به، كما كنت أخرج،فلما سمعا الأذان صلى عليه واستغفر له ، فقلت له يا أبت مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبي أمامة قال أي بني ، كان أول من جمع بنا بالمدينة في هزم النبيت من حرة بني بياضة يقال له: نقيع الخضمات . قلت : وكم أنتم يومئذ؟ قال : أربعون رجلا [(٢)]

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٨٩ .

(٢) السيرة النبوية ابن هشام ٢ / ١٨٥ ، السيرة النبوية ابن كثير ٢ / ١٨١ ، والروض الأنف ٢/ ١٨٥

وانفرد صاحب السيرة الحلبية بذكر أن إمامة الصلاة في المهاجرين كانت لغير مصعب ، ولعل هذا وقع بعد بيعة العقبة الثانية .

عندما أخذ المهاجرون يتدفقون إلى المدينة فرادى وجماعات ، أما عند إرسال مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فإن كل المسلمين كانوا من الأنصار ومهمة مصعب تفقيه وتعليم وإقامة صلاة الجمعة فيمن أسلم من أهل يثرب .

وكان سالم مولى أبي حذيفة ﷺ يؤم المهاجرين بقباء قبل أن يقدم رسول الله ، وكان مصعب يؤم القوم (أي الأوس والخزرج)؛لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤم بعضهم بعضا ، وجمع بهم أول جمعة جمعت في الإسلام قبل قدومه ﷺ [١]

إن إمامة الصلاة في الإسلام قيادة أخروية (عبادة) و دنيوية أيضا ، وكون الأئمة في هذه الفترة من قريش فيه بعض الدلالات أهمها: أن الأوس والخزرج كان بهم من هو قادر على الإمامة ولكنهم كرهوا ذلك لما ورد بعدم رغبة أحد الفريقين أن يؤمه الفريق الآخر ، ومن هذه الدلالات أنهم قد أسلموا قيادهم للرسول ﷺ ولمن اختاره لهم رسول الله ، وآمنوا وصدقوا .

لقد بلغت أول جمعة أربعين رجلا عدا النساء والأطفال معنى ذلك أن المسلمين قد أصبحوا قوة متماسكة في المدينة وكلهم من الأوس والخزرج عدا مصعب بن عمير ، وكون أهل يثرب كادوا أن يقتلوا مصعبا فهو الظن بأنه جاء يحدث فتنة أو يفسد ما اتفق عليه القوم من تنصيب عبد الله بن أبي ملكا ، وربما كان الأوس هم الذين حاولوا ذلك ظنا منهم ـ أيضا ـ أن حماية الخزرج له وهو من صلب بني هاشم يعني أن حلفا قد نشأ مع بني هاشم ـ جريا على الأعراف المعتادة ـ لكن الله ـ تعالى جعل مصعبا هداية وإماما وقارئا ومبلغا لرسالة الإسلام بين هؤلاء القوم .

---

(١) السيرة الحلبية: علي الحلبي ٢/ ٩، ١٠.

(٣) الدعوة الإسلامية في يثرب

لاقت الدعوة الإسلامية في يثرب قبولا وتشجيعا كبيرين ، فمنذ أن وصل مصعب إلى المدينة ، اتخذ المسلمون لهم خطا ثابتا وقويا أدى إلى انتشار الإسلام ، وازدياد عدد المسلمين بشكل ملحوظ ، ومع ما اعترى الدعوة في بداية انتشارها من مقاومة من بعض الذين لم يفهموا مقصدها سرعان ما زالت هذه العقبات وحمل المعارضون لها لواءها ونشروها بكل قوة قل ما لاقتة حتى هذا التاريخ .

ويعتبر العام الذي انحصر بين البيعتين عاما خيرا ملحوظا محظوظا للمسلمين وللدعوة نفسها، ففي هذا العام دخل العدد الأكثر من الأوس والخزرج ، وطالت الدعوة كبار القوم فانحنوا لها راضين ودخلوا في هذا الدين مختارين ومن مشاهيرهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سيدا الأوس والخزرج حملا الدعوة بقوة وإيمان راسخين حتى إن عبد الله بن أبي ـ ملك الأوس والخزرج غير المتوج ـ قد أحنى رأسه ودخل الإسلام نفاقا ، أسلم أسيد بن حضير وأسلم كثيرون جدا حتى لم يبق بيت من بيوت الأوس والخزرج إلا وبه مسلم أو مسلمة كما تحدثت كتب السيرة .

إن هذا العام الذي نحن بصدده أدى إلى نتائج جد خطيرة ملموسة ، نجد آثارها في بنود بيعة العقبة الثانية والتي عرفت في التاريخ الإسلامي باسم بيعة الحرب تميزا لها عن بيعة النساء ، فلولا القوة الكبيرة والدعم الهائل الذي لاقته دعوة الإسلام في يثرب لما نتج عنه هذا التأييد العظيم للرسول ﷺ ، وهذا العام في الواقع هو الذي حول مجرى الدعوة إلى يثرب بقوة ، وجعل المدينة عاصمة الرسول وخلفائه أعواما طوالا غير بها أولئك أحداث التاريخ ومجراه .

لهذا العام آثاره الكثيرة وبصدد الوقوف على أهم أحداثه التي كانت سببا لهذا النجاح المتواصل ـ حمل مصعب بن عمير[١] عبء الدعوة بين أهل يثرب[٢]،

---

(١) الإصابة: العسقلاني ٣/ ٤٢١

(٢) أخرج ابو نعيم فى الدلائل ص(١٠٥) من طريق الواقدي، عن إسحاق بن يعلي ، قال: علي بن أبي =

وتحمل من أجلها الكثير فهو المقرئ الذي تمكن من النفوس والقلوب وتمكن أن يملأ هذه النفوس وهذه القلوب بصفاء الإسلام وسماحته ، فقد جذب إلى هذه الدعوة العشرات وتعداها إلى خانة المئات في ظروف قاسية من ظروف الدعوة التي جند المناوئون لها كل طاقاتهم وإمكانياتهم ، فخطا مصعب خطوات أخرى تثبت أركان الشريعة الإسلامية في قلوب متشوقة متعطشة .

اكتفى المؤرخون القدماء ولحقهم المحدثون بذكر إسلام سعد بن معاذ وأسيد ابن حضير في محصلة مسلمى هذا العام ، وبرزت الرواية بشكل دراماتيكى فيه بعض عناصر التشويق ، وسواء أكانت كما رويت أم بأسلوب آخر، لكن المهم هو أن هذا اللقاء يعتبر في مقدمة الأعمال الهامة والرائعة التي أنجزها مصعب بن عمير في المدينة ، واعتبر لقاؤهما هذا مع مصعب فاصلا في حياتهما وحياة قومهما وحياة يثرب كلها، ولم تمر ساعة واحدة إلا ودور بني عبد الأشهل قد تحولت إلى الإسلام ، ولقد أخذ جميع ناقلى الخبر عن ابن إسحاق ، ولا نستطيع أن نقف عند هذا الحديث كما ورد فإن وراءه أبعادا كثيرة وكبيرة .

نسلم نحن الآن بأن إسلام الرجلين كان سريعا ، ولكننا لا نسلم بحال هذه النقلة السريعة جدا في جميع دور بني عبد الأشهل ، إذ إن بعضا منهم قد تأخر إسلامه كثيرا فإن أصيرمًا من بني عبد الأشهل قد لحق بالمسلمين في أحد واستشهد يومها ولم يصل لله صلاة واحدة[١]

وحرى بنا أن نقف هنيهة ثانية أمام السبب الذي كرره المؤرخون دائما القاضي بإسلام أهل يثرب وهو سماعهم من اليهود خبر النبي وسرعتهم للإيمان بهذا النبي قبل أن تسبقهم إليه يهود ، فإن الرسول جاء للناس كافة وحتى لليهود أنفسهم ، فهل السباق يمنع أحد المتسابقين من الدخول في الإسلام ؟

= طالب ﷺ وهو يذكر الأنصار وفضلهم وسابقتهم ثم قال: إنه ليس بمؤمن من لم يحب الأنصار، ويعرف لهم حقوقهم والله ربوا الإسلام كما يربي الفلة (المهر الصغير) في غنائمهم بأسيافهم وطول ألسنتهم، وسخاء أنفسهم. حياة الصحابة: الكاندهلوي ١/ ٧٦.

(١) السيرة النبوية : ابني هشام٣ / ٩٥.

فيجب علينا أن نربط العصر بالأحداث المتتابعة الأخرى التي كانت تلف أهل يثرب والحجاز وجزيرة العرب والعالم وهو اتجاه الزمان إلى فترة نور بعد اشتداد الظلام، وتحطيم القيم وكثرة الحروب والأوبئة ، وشهد العالم وقتها كوارث طبيعية وبشرية وكل هذا لم يكن أهل يثرب بعيدين عنه .

ثم إن اضمحلال بريق الإيمان الوثني الذي وجد قبولا في وقت من الأوقات عند العرب بدأ يخبو ويموت فى النفوس ويودع غير مأسوف عليه وعلى فراقه ، وفوق هذا فإن رحمة الله فى عباده قد هيأ للبشرية منعطفا جديدا فأرسل رسوله ، وأيده ونصره،وهيأ له المؤيدين والأنصار،كما أن ازدياد الحروب وانحراف أصحاب الديانات السماوية وتحولهم إلى صف الشرك والكفر،وبروز عدد من المشاكل الصعبة التي لم يعد الإنسان قادرا على إيجاد حلول لها مقنعة ، وتوجه الناس إلى التمييز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ، وهذا ما أصاب أهل يثرب ، عندما فكروا بتمليك أحدهم عليهم كعقد صلح دائم بينهم بعد حروبهم الطويلة واختاروا هذا الطريق؛ لأنه الأوفق وقتها ، لكنهم عندما وجدوا الأفضل والأحسن طرحوه جانبا وتبنوا عقيد الإسلام وبهذا الشكل السريع الذي أوردته كتب السيرة ، على الرغم من أن هذا الموضوع الذي كان معقودا له بأعراف فى مكة من تنظيم لشؤونها وتوزيع لوظائفها قد تأخر تركه والأخذ بتعاليم الإسلام ، أما بالنسبة لأهل يثرب فإن ما بينهم وما بين الملكية فى بداياته ولم يزل فى مرحلة الكلام .

إن تفتيح عقل الناس من جهة ، وتأكيد النصارى الضالين واليهود والمغضوب عليهم، والذين خبرهم اليثربيون تماما من خلال الاحتكاك المتواصل بينهم، والذي زاد على مائتي عام سابقة لظهور الإسلام والخبرة التي وصلت إلى حد القطع بأن دعوة اليهود باطلة ، واعتراف اليهود أنفسهم بأن دينهم قد انحرف عن أصله، وتأكيدهم بأن النبي القادم سينشر العدل والأمن ويرفع الظلم فإن أهل يثرب قد فرقوا بين هذين الأمرين، ما رأوه من يهود وما خبروه منهم وسمعوه عن هذا الدين

سابقا ولاحقا،فلم يكن سعد بن معاذ قد سمع لأول مرة بهذا الدين (دين الإسلام) ليدخل فيه فجأة وبدون مقدمات ، ولكنه سمع به قبل ذلك ، ربما من أخيه إياس ابن معاذ الذي وفد إلى يثرب للحلف[1] كما سمع أخبار هذا الدين من مكة أو حتى من يثرب ، فلم يكن الرجل قد أغلق بابه على نفسه حتى استدرج إلى بئر حي بني ظفر كما سيرد لاحقا ، ويسمع من مصعب بن عمير وينقلب من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين فى فترة وجيزة جدا .

لقد سمع من أخيه ومن غير أخيه ، وقلب الموازين ، وعرف الطريق ، فقد كان زعيما فى قومه وهو الذي بادر بشجاعة نادرة وحمى أبناء عمه الخزرج من قومه الأوس عندما أراد قومه أن يحرقوا عليهم دورهم ونخيلهم ، لقد كان الحق أن يكون هو ملك يثرب بدلا من عبد الله بن أبي الذي آثر السلامة بالابتعاد عن الحرب ، أما سعد فقد خرج من الحرب زعيما مقدما للأوس منتصرا على الخزرج ولكنه كان ممتلئا يقينا بأن حال قومه يجب ألا يبقى على ما هو عليه ، ورضي بأن يكون ابن أبي ملكًا وهو من خصومه على أن تستمر العداوة والقتال فى العرب .

لقد كانت أخبار الدعوة الإسلامية قد سبقت كما تحدثنا إلى يثرب ولعل سعد ابن معاذ قد سمع بها وحلل أبعادها وناقشها فى نفسه ، ومن المعروف أنه كان يقرأ ويكتب ، وكان يجلس مع اليهود ويعقد معهم الحلف ويستأنس بآرائهم ، وخبر تجاربهم وتاريخهم ، ووقف مواقف شجاعة منهم بعد إسلامه بعيدا عن ردود الفعل فقد كان الرجل حليما فطينا بعيدا عن التأثر بردود الفعل، و إلا لكان الأولى له ينادي بالملكية له وهو المنتصر والأقوى فى يثرب بعد بعاث .

لقد شرح الله صدر القوم للإسلام : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام] .

---

(١) حياة الصحابة: الكاندهلوي ١/ ٦٢

إذا ضاقت صدور قريش فلم يقبلوا هذا الإسلام فلأمر أراده الله تعالى حتى يميز الخبيث من الطيب فقد كان فضل الله كبيرا على أهل يثرب أن هداهم إلى هذا الدين ، وجعلهم أنصاره وحماته .

بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير معهم (مبايعو العقبة) يقرئهم القرآن فأسلم على يديه السعدان سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج فأسلم لإسلامهما كثير من قومهما[١]

قال ابن إسحاق إن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير رضى الله عنهما يريد به دار بني عبد الأشهل ، ودار بني ظفر ، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة ، فدخل به حائطا من حوائط بني ظفر ، قال ابن هشام واسم ظفر كعب بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس ، قالا : على بئر يقال لها بئر مرق) [٢]

فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل وكلا هما مشرك على دين قومه ، فلما سمعا به قال :سعد بن معاذ لأسيد بن حضير[٣] :انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن ان يأتيا دارينا انطلق فإنه لولا أن أسعد، ابن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك ، هو بن خالتي ولا أجد علية مقدما[٤]

وفي رواية قال له : ائت أسعد بن زرارة فازجره ليكف عنا ما نكره ، فإنه بلغني أنه قد جاء بهذا الرجل الغريب يسفه ضعفاءنا ، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث

---

(١) حدائق الأنوار: الشيباني ١/ ٤٠ .

(٢) ياقوت الحموي قال في معجم البلدان (بئر مرق): بالمدينة، ذكر في الهجرة ويروي بسكون الراء .

(٣) أسيد بن حضير بن سماك (حضير الكتائب) الذى عقر ناقته في بعاث، وأقسم على الثبات حتى قاد قومه للنصر ومات بعد الحرب متأثرًا بجراحه.

(٤) السيرة النبوية ابن هشام ٢/ ٧٨،والسيرة النبوية:ابن كثير ٢/ ١٨٨،وفاء الوفا: السمهودي ١/ ٢٢٥ ،السيرة الحلبية: علي الحلبي ٢/ ١٢، الروض الأنف: السهيلي ٢/ ١٨٦.

علمت لكفيتك ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدما ، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل عليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير هذا سيد قومه فاصدق الله فيه ، فوقف عليهما وقال ما جاء بكما إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ، اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكم حاجة(١)

وروى الطبراني مرسلا في خبر طويل قال فيه عن عروة : ثم بعثوا (الأنصار) إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا رجلا من قبلك يدعو الناس بكتاب الله ، فإنه أدنى أن يتبع فبعث إليهم رسول الله مصعب بن عمير ، فنزل في بني غنم على أسعد بن زرارة فجعل يدعو الناس ويفسر الإسلام ، وهم في ذلك مستخفون بدعائهم ، ثم إن أسعد بن زرارة أقبل هو ومصعب بن عمير حتى أتيا (مرقا) أو قريبا منها ، فجلسا هنالك ، وبعثا إلى رهط من أهل الأرض فأتوا مستخفين ، فبينما مصعب بن عمير يحدثهم ويقص عليهم القرآن أخبر بهم سعد بن معاذ فأتاهم في لأمته ومعه الرمح حتى وقف علية فقال غلام يأتينا في دارنا ؟ هذا الوحيد الطريد الغريب ليسفه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم ، لا أراكما بعد هذا بشيء من جوارنا فرجعوا ، ثم إنهم عادوا الثانية بئر (مرق) أو قريبا منها فأخبر بهم سعد بن معاذ ثانية فتوعدهم بوعيد دون الأول ، فلما رأى أسعد منه اللين قال : يا بن خالة، اسمع من قوله ، فإن سمعت منكرًا فاردده بأهدى منه، وإن سمعت خيرا فأجب إليه، فقال: ماذا يقول ؟ فقرأ عليه مصعب: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [الزُّخرُف] .

فقال سعد : ما أسمع إلا ما أعرف فرجع وقد هداه الله ، ولم يظهر أمر الإسلام حتى رجع إلى قومه ، فدعا بني عبد الأشهل إلى الإسلام وأظهر إسلامه ، وقال من شك فيه صغيرا وكبيرا فليأتنا بأهدى منه، فوا لله لقد جاء أمر لتحزن فيه الرقاب فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلامه ودعائه .

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ٢/٧٨،والسيرة النبوية:ابن كثير ٢/١٨٨،وفاء الوفا: السمهودي ١/ ٢٢٥ ،السيرة الحلبية: علي الحلبي ٢/ ١٢، الروض الأنف: السهيلي ٢/ ١٨٦

إلا من لا يذكر ، فكانت داره أول دار من دور الأنصار أسلمت بأسرها ، ثم إن بني النجار اشتدوا على أسعد بن زرارة ، وأخرجوا مصعب بن عمير ، فانتقل إلى سعد بن معاذ ، فلم يزل يدعو ويهدى على يديه حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس .

وأسلم أشرافهم، وأسلم عمرو بن الجموح ، وكسرت أصنامهم فكان المسلمون أكثر أهلها ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله أ . هـ[١]

أما بقية رواية ابن إسحاق ، وأن سعد بن معاذ قد أمر أسيد بن حضير أن يذهب إليهم باعتبار قرابته من أسعد بن زرارة ، قال :فإخذ أسيد بن حضير حريته، ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال: لمصعب بن عمير ، هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب: إن يجلس أكلمه . قال: فوقف عليهما متشتمًا ، فقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعترلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة؟

فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره ، قال : أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن فقالا فيما يذكر عنهما والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله ثم قال ما أحسن هذا الكلام وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم شهد شهادة الحق ، ثم تصلي فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين فو الله ما رأيت بهما بأسا وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم

---

(١) وفاء الوفا: السمهودي ١/ ٢٢٣،السيرة النبوية: دحلان ٢/ ٢٩١

عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك .

قال: فقام سعد مغضبا مبادرا تخوفا للذى ذكر له من بني حارثة ، فأخذ الحربة بيده ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا ، ثم خرج إليهما . فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتمًا ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة ، ما رمت هذا مني ، أتغشانا بديارنا بما نكره ..؟

وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير أى مصعب جاءك والله سيد مَنْ وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان .

قال : فقال مصعب : أو تقعد فتستمع فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟

قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحرب وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن .

قالا :فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟ قالا : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين .

قالا فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عامدا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير . قال : فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ، قالوا سيدنا (وأوصلنا) وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله قالا : فو الله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا أمرأة إلا مسلما أو مسلمة[1]

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٧٩، ٨٠،والسيرة النبوية:ابن كثير ٢/ ١٨٢،وفاء الوفا: السمهودي ١/ ٢٢٧ ،الروض الأنف: السهيلي ٢/ ١٨٦، السيرة الحلبية: على الحلبي ٢/ ١٤

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله ، وهم من الأوس بن حارثة ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس الأسلت وهو صيفي وكان شاعرا لهم وقائدا ، يستمعون منه ويطيعونه ،فوقف بهم عن الإسلام ، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق ، وقال فيها رأى من الإسلام ما اختلف الناس فيه من أمره :

أربَّ النـــاس أشـــياء ألمـــت ... يُلَـفُّ الـصعب منهـا بالـذلول

أرب النـــاس أمـــا إذا ضـــللنا ... فيـــسرنا لمعـــروف الـــسبيل

فلـــولا ربنـــا كنـــا يهـــودا ... ومـا ديـن اليهـود بـذى شـكول

ولـــولا ربنـــا كنـــا نـــصارى ... مـع الرهبـان في جبـل الجليـل

ولكنـــا خلقنـــا إذ خلقنـــا ... حنيفـا ديننـا عـن كـل جيـل

نـــسوق الهـــدى ترســـف مـــذعنان ... مكـــشفة المناكـــب في الجلـــول

قال ابن هشام : أنشدني قوله : فلولا ربنا ، وقوله:لولا ربنا، مكشفة المناكب في الجلول رجل من الأنصار أومن خزاعة(١)

وسبب تأخر إسلام أبي قيس الأسلت ماذكره بعضهم أنه لما أراد الإسلام عند قدوم الرسول المدينة لقيه ابن أبي سلول وكلمه بها أغضبه ونفره عن الإسلام ، وقال أبو قيس : لا أتبعه إلا آخر الناس فلما احتضر أرسل إليه رسول الله ﷺ أن قل: لا إله إلا الله أشفع لك بها فقالها(٢)

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٧٩، ٨٠،إمتاع الأسماع: المقريزي ١/ ٣٤.
(٢) السيرة الحلبية: علي الحلبي ٢/ ١٥.

مع اختلاف الروايات في سرد القصة إلا أن المغزى واحد وهو أن إسلام أسيد ابن حضير وسعد ابن معاذ رضي الله عنهما كان فاتحة خير وبركة للإسلام في المدينة ، ومع أن أهل المدينة لم يدخلوا الإسلام طفرة واحدة كما هو متصور ـ نتيجة الصدِّ الكبير في مكة والانفتاح الخير في المدينة ـ فإن مقاومة كبيرة في بداية الأمر تظهر في صفوف الأوس والخزرج كلاهما ضد هذه الدعوة ، ونستطيع أن نقف على الكثير من الأحداث التي تؤيد هذا الرأى ، فبعد أن اطمأن مصعب بن عمير لإسلام بني عبد الأشهل وأكثر الأوس، شنت الخزرج حملة على أسعد بن زرارة حتى اضطر أن يخرج مصعبا من بيته ويتجه إلى بيت سعد بن معاذ ، فإن حمى سعد لا طائل للخزرج به أو منعه

وكذلك وقوف الملك الغير متوج عبد الله بن أبي وأصحابه في وجه الراغبين بالدخول في هذا الدين ـ كما أشرنا في السابق ـ نستطيع أن نستخلص من العقبات التي وقفت في وجه انتشار الدعوة في المدينة بشكل متكامل والتي لم تكن بحال من الأحوال كالعنف والقوة التي لقيتها هذه الدعوة في مكة .

ومقاومة أهل يثرب في البداية إنما جاءت نتيجة للرواسب والأحداث التي كانت في المدينة قبل أن يدخلها هذا الحدث الكبير ، والبعض من أهلها أرجأ دخوله الإسلام في الواقع ولم يرفضه تماما، وحتى هذه اللحظة فإن الذين دخلوا في الإسلام أصبح بإمكانهم أن يشكلوا القوة الأكثر عددا وتنظيما من بقية الفئات الأخرى ، وأصبح بإمكانهم وبمقدورهم أن يتخذوا القرارات المصيرية التي ستتأثر بها المدينة ككل ، ولم يعد الأمر مقتصرا على قلة من الناس مضطهدة تتقيأ السلامة وتبحث عن الأمن وتعيش في الخوف ، وقد ظهر هذا جليا عندما قرر هؤلاء المسلمون دعوة الرسول إلى المدينة فقرروا بذلك مصيرها إلى أحقاب طويلة دون الالتفات إلى معارضة المتأخرين أو المرجئين ، رغم كثرتهم ، دون النظر إلى اليهود الذين يقفون في الصف الثاني والمقام المتدني في سلم الفاعليات في يثرب رغم كثرة عددهم وتعدد قبائلهم .

تخطى هؤلاء المسلمون كل الاعتبارات والأعراف السابقة،وقاموا بأعمال أهلتهم لأن يكونوا سادة المدينة ، واستطاعوا أن يعطوا عهودا ومواثيق بالغة التأثير في حياتهم وحياة المدينة والمسلمين وهذا ما حدث بالفعل في بيعة العقبة الثانية .

نستطيع القول بأن المدينة قد أسلمت قيادها لهؤلاء المؤمنين ، وكانوا من التلاحم والقوة والبأس ما جعلهم في موقع مكنهم من السيطرة الفعلية عليها والذي مهد لقيام دولة الإسلام فيها .

وقد أورد الكثيرون سبب نجاح هذه الدعوة الكبيرة إلى الكثير من الأحداث تذكرها تاركين لأصحابها حسن استنتاجهم ورأيهم .

وعاش المسلمون في مكة أصعب فترة في حياتهم ، عاشوا مهددين في أرواحهم، محرومين من حقوقهم يتوقعون نزول الموت أكثر مما يؤملون بالحياة ، وكان تربص المسلمين في مكة بالمؤمنين واضطهادهم أكبر عامل على توقف تيار الدعوة في مكة ، وأعظم مؤثر في صد الناس عنها حتى كانت القبائل ترد رسول الله حين يعرض عليها الإسلام بقولها : أسرتك وعشيرتك أعلم حيث لم يتبعوك .

وعلى العكس من مكة كانت المدينة ، حيث تهيأت فيها الظروف ، واستعدت النفوس لقبول الدعوة الجديدة ، وتوفرت الدواعي التي مهدت لاستقرار الدين في قلوب المدعوين ، فلم يكن رسول الله ﷺ يعرضه على قبائل الأنصار حتى اشرأبت له الأعناق ، وتطلعت إلية القلوب ، وحمله أهل المدينة مخافة أن يسبقهم اليهود.

وتتلخص أسباب نجاح الدعوة في المدينة فيما يلى :

أ ـ تهيؤ الأذهان لاستقبال الدين الجديد :

كان وجود اليهود في المدينة سببا من أسباب تهيئة الجو ، وإعداد النفوس لتقبل الدين الجديد فقد كانوا أهل كتاب ، وكانوا ينشرون تعاليم دينهم[1] ، ويعيبون

---

(١) من المعروف أن الديانة اليهودية لا تنتشر بالدعوة، بل بالوراثة، ولم يقم بين اليهودي مبشرون في

الوثنية وأهلها ، ويخوِّفون الناس من يوم تشتد فيه الأهوال يقف فيه الناس بين يدى الله ـ ﷻ ـ ويحاسبهم على ما اكتسبوا من الأعمال ، فيحسن إلى المحسنين بإدخالهم جنات النعيم ، ويعاقب المسيئين بإدخالهم دار الجحيم ، كما كانوا يتوعدون العرب بظهور نبي آخر الزمان ، وسيبعث بدين سماوي يوافق دينهم ويحطم الأوثان ويحارب من يعبدها .

كذلك كانت الخصومة بين الأوس والخزرج من جهة، واليهود من جهة ثانية سببا آخر من أسباب استعداد العرب للدخول في هذا الدين ، حيث كان اليهود يهددون الأنصار بأنهم سينضمون إلى هذا النبي عند ظهوره .

لقد كان في نشر تعاليم الدين اليهودي وتردد ذكر يوم القيامة وما فيه من الحساب والعقاب والجنة والنار، والتنديد بالأصنام ، والاعتراف بوجود إله واحد هو وحده ـ سبحانه ـ المستحق للعبادة ، كل ذلك كان تهيئة للنفوس ، وشحذا للعقول ، ومقدمة لاستقبال تعاليم الدين الإسلامي فإن الذي كان يلقى عليهم من تعاليم لا يخرج عن ذلك ، فتكون النفوس قد سمعته وألفته ، فلا تفاجأ بشيء جديد لم تألفه ... إلخ .

ب ـ نجاح الأوس والخزرج في السيطرة على المدينة :

كان الأوس والخزرج قبل معرفتهم الإسلام قد نجحوا في السيطرة على الأوضاع الداخلية في المدينة حيث تغلبوا على اليهود وأخضعوهم لسياستهم حتى رضوا بالعيش معهم كموال لهم ، وبذلك أصبح موقف الأوس والخزرج موقف السيد المسيطر منهم لا يخافون من أحد ، بل ولا يحسبون حسابا إذا هموا بفعل شيء .

وكان نجاح الأوس والخزرج[١] السياسي في المدينة سببا قويا من أسباب نجاح الدعوة الإسلامية فيها، حيث دخلها الإسلام على أيد قوية تملك التصرف في شؤونها ، وتستطيع

الماضي والحاضر، ويعتمد على صفاء عروقهم، ولا يقبلزن أن يعتنق ديانتهم أحد من الأميين.

(١) بالأصل:(الأنصار).

أن تقرر مصيرها دون أن ترجع إلى غيرها في ذلك ، ويقبولهم واستجابتهم لما دعاهم إليه الرسول ﷺ يكون قد دخل المدينة من باب واسع لا يزاحمه فيه شيء ، ولا يستطيع أحد أن يعترض على دخوله إليها أو يقف في طريق المؤمنين به .

وبذلك تكون قد تهيأت الفرص لأن يستمع الناس للدين الجديد ، وأن يتدبروه بعقول حرة لم تكبل بأغلال الظالمين الصادين عن سبيل الله ، وكان نتيجة ذلك أن أقبل الناس على الإسلام ، واعتنقه سادة القوم وأشرافهم ودخل فيه المنصفون حتى من اليهود أنفسهم[1]

(١) موسوعة المدينة: الوكيل ٢/ ١٥، ١٦.

(٤) بيعة العقبة الثانية وآثارها السياسية

عام واحد فقط ما بين العقبة الأولى والثانية كان حافلا بالأحداث العظام،منها: إسلام الكثير من أهل يثرب والأوس بخاصة وبني عبد الأشهل بغالبيتهم ، فإن تفكير القوم قد تغير تماما ، تغير في يثرب عندما أخذ سعد بن معاذ مصعب بن عمير إلى بيته ، ذلك الفتى الذي وصفه بالتشرد وخلق الفتنة قبل أن يشرح الله صدره للإسلام ، ثم تحول إلى تابع له يتبعه في الصلاة ويسمع منه ويتعلم .

وقف الرهط لاثنيا عشر عند حد بيعتهم الأولى عرفوا حدودها وإمكانياتهم ، فلم يخطوا خطوة تبطئهم أو تعيق مسيرتهم ، بايعوا بيعة النساء واكتفوا بما عندهم من قوة وبأس وتحمل ، آمنوا بالرسول وصدقوه واتبعوا ما أمرهم به وكانوا على يقين أنهم سلكوا مدا رج الرقي، وسيصلون إلى مجالات أرحب وأوسع ، ومع أن عددهم كان ضعف من سبقهم بعام فقط لكنهم أصبحوا القوة الحقيقية في المدينة أصبحوا هم الذين يسيرون دفة الحياة فيها وقد ينقصهم بعض التنظيم، وانتقال القائد إليهم، وبذلك يمكن أن يقيموا دولتهم بقوة وثبات وعزيمة، وما مملكتهم السابقة إلا أضغاث أحلام طردت من عقولهم وتجاوزوا زمانهم كثيرا ، وتبخر من عقولهم فكر الجاهلية وحدودها وثأرها وحروبها .

إن هذا العام ـ حيث أسعد حاميا ومصعب داعيا قد أُسلس لهما قياد الرجال ، وأخضع لهما تفكير القادة وجعلهما في مأمن يعملون بحرية وأمان ـ أعطى هذا العام نتائجه إذ نضج ثمره ، وكثر عطاؤه ، ودخل الإسلام القلوب المغلقة التي صدت عنه وهي نفسها لم تتمكن من أن تصمد أمام نوره المشرف فانفتحت جوانبها ، وكلام المؤرخين الذي أثبتوه وتداولته الأجيال يؤكد هذه الحقيقة . قالها سعد بن معاذ عند عودة أسيد بن حضير أحلف بالله لقد عاد إلينا بغير الوجه الذي ذهب به، وأكد هذه الحقيقة الملأ الذين عاد إليهم سعد بعد إسلامه وغيرهما عادوا بغير الوجوه التي ذهبوا بها ، عادوا بوجوه مؤمنة صادقة وتركوا وجوه الضلالة والشرك .

استعادت هذه الوجوه صفاءها بنور الإسلام وتحولهم إلى دعاة له أنتج هذا العام وأعطى ثمرا ناضجا ، وهيأ رجالات قادرين على تحمل المصاعب والشدائد ، وهم مستعدون الآن لأن يتجاوز بيعتهم الأولى إلى أقوى وأمتن منها .

في هذا العام بين البيعتين يمكن أن نقول بأن تحولا صارخا وحادا جرى في يثرب ، فكريا وسياسيا وعقديا وانتمائيا.

أما التحول الفكري ، فإنه ولأول مره تفتحت العقول إلى سماع أقوال ليست بأقوال البشر وليست من معطيات الماضي والحاضر ، ليست شعرا وليست نثرًا وليست مقولة ، إنها شيء آخر تماما حدث بسرعة وبسرعة فائقة جدا نبذت كل ما كان ممتناولًا بين الناس ، وطرحت كل ما تعارف علية الناس وانفقوا على تعظيمه والاستدلال به ، لم تلغ من ذاكرة الناس ما عندهم ، بل ثبتت وبأسلوب عجيب كل ما يتساوى ويتوافق مع إنسانية الإنسان ، وتفكير الإنسان .

ومسحت من الذاكرة البشرية كل ما هو تافه ، وكل ما يدل على التدني والأنانية والثأر ، كلمات الله تعالى لم تطرق آذان اليثربيين وترتد، ولكنها تجاوزتها إلى عقولهم فغيرتها ، واقتضى تغييرها تبدل ملامح وجوههم ، وسحنات أشكالهم ، فلم تعد تلك الوجوه كما كانت عليه بالأمس ذات النزعات والانفعالات والتحرك للثأر والحديث عن العصبية .

تغيرت أفكار الناس وتحولت بزاوية مضادة تماما ، طرحت أفكارا توارثها الناس منذ أن انحرفوا عن ملة سيدنا إبراهيم ﷺ ، وما وجدوا في اليهودية الممسوخة ما يسد هذا الفراغ ، فساروا في متاهاتهم إلى أبعد الحدود ، دون أن تقوم هي أو النصرانية بمهمة إيقاف هذا التردي والتدهور ، بل على العكس تركت الناس يتيهون ويغرقون في متاهات عقلية وفكرية تافهة ، ولم يقدم مفكرو اليهود إلا الانغلاق والتقوقع على أنفسهم ، وترك الناس مع أصنامهم وأوثانهم وتخلف عقولهم، والنصرانية التي انتقلت إلى مرحلة الصراع بين أتباعها لم تقدم هي الأخرى

للوثنيين من العرب شيئا جديدا؛ لأنها تحولت إلى وثنية وشرك ، ولم يكن لدى النصارى من الحرية الفكرية ما يمكن لهم أن يكونوا مبشرين قادرين على جذب الأتباع وتحويل الوثنيين ، ودخول بعض قبائل العرب بها كانت له ظروفه وأسبابه فلم يكن إيمانا بقدر ما هي اتباع سياسي أو قبلي .

تلمس البعض لا الكل الحنيفية وهي تراث أمة العرب ولكن لم يجدوا فيها أو على الأقل الباقي منها إلا عبارة عن متوارث كئيب فقد أصله ، وبقيت الأسماء والمسميات .

قال ابن إسحاق ، وسعيد بن يحيى الأموي في مغازيه : كان أبو قيس بن الأسلت قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ، وفارق الأوثان ، واغتسل من الجنابة، وهم بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ودخل بيتا له فاتخذه مسجدا لا يدخل فيه حائض ولا جنب وقال عبد إله إبراهيم حين فارق الأوثان كلها حتى قدم رسول الله ﷺ فأسلم فحسن إسلامه ، وكان شيخا كبيرا ، وكان قوالا بالحق معظما لله في جاهليته ، يقول في ذلك أشعارًا إحسانا ، وهو القائل :

يقول أبو قيس وأصبح غاديا ألا ما استطعتم من وصاتى فافعلوا
فأوصيكم بالله والبر والتقى وأعراضكم والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدونهم وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكلم فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وإن ثاب عزم فادح فارفقوهم وما حملوكم في الملمات فاحملوا
وإن أنتم أمعزتم[1] فتعففوا وإن كان فضل الخير فيكم فافضلوا

ولقد أوردت كتب السيرة أشعارًا كثيرة وله غير هذه[2]

---

(١) أمعزتم: أصابتكم شدة.

(٢) السيرة النبوية: ابن كثير ٢/ ١٩٠

وجاء الإسلام الوارث الوحيد لدين إبراهيم الحنيف ليقضي على ما علق بهذا الدين من ترهات وما حل بجنباته من ترسبات ، جاء بأسلوب حديث ؛ ليكون أيضا جامعا خير كل الأديان السابقة ، مكملا لكل نواقصها العقائدية والتشريعية، خاتما لها مقرّا بفضل أنبيائها والعاملين المؤمنين من أتباعها ،وجاء الإسلام ليصحح كل ما انحرفت إليه هذه الديانات بدءًا من الحنيفية وما جاء بعدها من رسالات ، وليتجنب كل السقطات التي عانت منها الأفكار الدينية والأفكار الدنيوية من مختلف جوانبها .

إن المسلمين الجدد في يثرب قد تخلصوا بسرعة من أفكارهم وآرائهم ،لم يجادلوا كثيرا دفاعا عن موروثاتهم ،لكنهم وبكل سهولة وبساطة طرحوها جانبا وتقبلوا بشوق وشغف كل ما جاء به الإسلام من تعاليم دون تردد إلا القليل الذين آثروا التريث ،ليس طاعة لأفكارهم،فأفكارهم قد انهزمت مع من انهزم ، ولكن التزاما بمصالح وجدوا أنها ستزول وتذهب ويحل محلها إطار آخر لمجتمع فاضل آخر، فارتكزوا على مصالحهم علها تسندهم إلى حين ، وبعضهم تمسك بها حتى مات ، وآخرون تريثوا ثم استسلموا ، فأسلموا ، وحسن إسلامهم .

وأما التحول السياسي ، فهو واضح تماما ، إذ ترك الناس مداولاتهم في مجالسهم وندواتهم أخبار ابن أبي الملك المقبل ، ومجتمع المدينة الملكى ، والتزموا وراء غريب جاءهم من مكة اسمه مصعب بن عمير يصلون وراءه ، يقصون أوقاتهم معه ، يسمعون منه ويتعلمون . ينظرون إلى مستقبل حكم الله وحكومة الإسلام .

هذا الملك الذي سيستفيد منه ـ كحال الملوك في أي وقت ـ من تقريب الأصحاب والأتباع ، والاستيزار والحرس والحاشية ، وانزوى من تفكيرهم هذا المنطق تماما والذي شغلهم فترة من ترصيع التاج وتتويج الملك ، وعمل المراسم ، وعقد البيعة

إلخ ، تحولوا إلى ذاك الدين السهل الهين الطيب ، الذي يخاطب العقول والقلوب والأفئدة فيهزها وينظها ويخلصها من الشوائب والمخلفات التي ربما تؤثر في عطائها ، وتؤثر في نتائجها ، وبذلك فقد كان هذا التوجه نحو أسلوب جديد لم يكن فيه حدٌّ

واضح حتى تلك اللحظة ، ولكن مركزاته النيرة كفيلة بأن يكون البنيان الذي سيشيد على هذه المرتكزات بناءً متكاملا واضحا ثابتا دائما ، لا يستطيع بحال عقل بشر أن يحيط بجزء بسيط منه ومن جوانبه .

وبذلك فقد تغيرت توجهات الناس وأحاديثهم ، ولم يعد اليهود يشغلون الناس بتذكيرهم بأيامهم ونبش ماضيهم وطالبي وساطاتهم والمستدينين بالربا منهم، وإنما وجدوا أن الذين لم يستطيعوا أن ينالوا من حياتهم شيئا قد خرجوا عن مخططاتهم مرتين ، **واحدة** :عندما استذلوهم وقهروهم وأخضعوهم لسلطانهم ، **والثانية** عندما اعتنقوا دينا غير دينهم ، وجاءهم علم أصبح علمهم أمامه مجرد ترهات وهم الذين كانوا يعتبرونه ذخيرتهم وكنوزهم وأسرارهم ، جمدواهم عليه وانطلق اليثربيون من الأوس والخزرج إلى الإسلام إلى عوالم الخير والبركات ، إلى عوالم الإيمان والإسلام .

والعجيب أن هذا التحول لم يكن فرديًّا كما كان يهرب أفراد في السابق من الوثنية إلى أي شيء سواها، بل كان جماعيا، جمع المتخاصمين في بيت واحد في صف واحد ، وأصحاب الثأر في صلاة واحدة ودفاع واحد ، ومحا ما علق في ذهن الناس من انتماءات قبلية كانت تسير حياتهم وتأخذ بأفكارهم أسلسوا لها قيادهم ، ويعودون ثانية إلى حروب ما إن تنتهي إلا لتبدأ ، أسقطت من أذهانهم ذلك التنافر العجيب البغيض ، وتزاحمت المناكب بالصلاة الجماعية يؤمهم فيها غريب عنهم لكنه هو المعلم وهو القارئ فأصبح هو المطاع فيهم ، كنت مهمته محددة وهي تفقيه الناس وجلب الأنصار ، لكنهم مع هذا وجدوا فيه بعض الصفات القيادية فالتزموا بها فهو ممثل رسول الله بينهم فطاعته طاعة للنبي ﷺ ، فالبعض قد رأي الرسول والآخرون يتلهفون شوقا لهذا الملتقى حيث سيكون الرسول وقتها القائد والرسول والإمام والمقوم والمطاع فيهم ويقيم على بركة الله دولتهم .

وأما التحول العقائدي، فقد سبق القول بأن أفكار الناس قد تركت الفكر الوثني الموروث الثقيل وما ارتبط به من عادات وتقاليد ورثها الناس ظنا منهم أنها من بقايا

دين إبراهيم عليه السلام ، وما هي في الحقيقة إلا جرائر الشيطان الذي أسلس له الناس قيادهم ، فأوهمهم بأوثان وأصنام ورموز ظنوا أن بها خلاصا ، ويقينهم أنها لا تعني شيئًا ، ولكن الخائف دائما يتمسك بالوهم حتى يتخلص من مخاوفه وهواجسه ، وأرادوا قبل الإسلام دينا فما أشبعهم ما أحاط بهم من أديان ، فكان أسرع شيء يمكن أن يتركوه ولا يتأسفون له هو الوثنية التي لم تتعلق بنفوسهم إلى مماسك ضحلة ، وما إن سمعوا بصوت التوحيد حتى كان ما في نفوسهم من معتقدات بآلهة سابقة تجر مع القاذورات ، وتلقى في مسالك المارين حقيرة محتقرة .

لقد ترك الناس الانتماء إلى الأوس والخزرج ، وإلى بني فلان وفلان ، وإلى الأطم والمنزل والمدينة وأخذ كل منهم طريقه إلى مكان فيه عز الدنيا والآخرة؛ الانتماء إلى الإسلام الذي جعل من حياتهم عنوانا آخر لصفات الإنسان والجماعة المحاطة بعناية الله والآخرة بما أنزل الله ، والمنقادة لرسول الله ﷺ .

طال هذا العام علية القوم كما طال نساءهم وأطفالهم وعبيدهم ومواليهم حتى بعض اليهود فمنهم من آمن ومنهم من أصر على كفره وضلاله حتى خذله الله كما نرى في الأحداث التالية في المدينة ، لم يكن عدد المسلمين بسيطا ، ولم يكن أمر تخفيهم ليطول أكثر من أيام وأسابيع انتقلوا بعدها إلى الجهر والتحدى ، وكسب الأنصار والأتباع بزمن قياسى ليضيف إلى العهد الأول عهدا أوثق وأشد وأمتن .

قال ابن إسحاق : ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة[1] ورجوعه ليمهد لقار العقبة الثانية ، وليعطي الرسول ﷺ تقريره عن عمله خلال هذا العام؛ ليعطيه كشفا بالذين فتح الله عليهم من فضله فأسلموا ، فكانت مهمة مصعب في سفارته هذه شاقة لكنها منتجة وناجحة ومباركة ، جاء الرسول يحمل البشرى ، لم يعد كما عاد مسلمو الحبشة الذين تمكنوا من المحافظة على حياتهم وتخلصوا من عذاب قريش عاد بل عاد مصعب يحمل البشرى بأن آفاق يثرب قد فتحت أمام الدعوة لتكون البداية لفتح أبواب الدنيا .

(١) السيرة النبوية: ابن هشام ٢/ ٨١.

جاء مصعب ليخبر الرسول بأن القوم قادمون يحملون في جعبتهم أفكارا جديدة ويطمئن الرسول بأن ما كلف به قد نفذ بحذافيره وأن مقادير يثرب كادت تقع تحت أيدى المسلمين وحدهم ، وأن القوم جاؤوا قوة موحده جاؤوا جيلا جديدًا غير الإسلام أشكاله وحياته وهم عصبة من الناس آمنت وأسلمت ولا يقف في وجه إيمانها وإسلامها أي صعب .

وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أواسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أرادوا من كرامته والنصر لنبيه ، وإعزاز الإسلام وأهله [١]

قال ابن إسحاق : حدثني سعيد بن كعب أن أخاه عبد الله بن كعب حدثه: أن أباه كعب بن مالك حدثه قال : ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أواسط أيام التشريق قال: فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول ﷺ لها ومعنا عبد الله بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبا[٢]

وقد روى البخاري ، حدثني إبراهيم ، حدثنا هشام: أن ابن جريح أخبرهم قال عطاء قال جابر أنا وأبي وخالاي من أصحاب العقبة ، قال عبد الله بن محمد : قال ابن عيينة أحدهما البراء بن معرور، حدثنا على بن المديني ، حدثنا سفيان ، قال : كان عمرو يقول : سمعت جابر بن عبد الله يقول : شهد بن خالاي العقبة .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن خثيم ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم

---

(١) السيرة النبوية: ابن هشام ٢/ ٨١، ٨٣.

(٢) السيرة النبوية: ابن هشام ٢/ ٨١، ٨٣.

بعكاظ ، ومجنة في الموسم يقول : من يؤويني ؟ من ينصرني ؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة فلا يجد أحدًا يؤويه ، ولا ينصره حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مصر ـ كذا

قال فيه : فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك ويمضي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون إسلامهم ، ثم ائتمروا جميعا ..فقلنا : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ، فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه الموسم فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا(١)

قال : فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا قضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا بالشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب(٢) ، (أم عمارة) إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نائي، إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع(٣)

---

(١) السيرة النبوية: ابن هشام ٢/ ١٩٤، ١٩٥

(٢) هي أمرأة زيد بن عاصم ، شهدت بيعة العقبة ، وبيعة الرضوان ، كما شهدت يوم اليمامة وباشرت القتال بنفسها وشاركت ابنها عبد الله في قتل مسيلمة فقطعت يدها ، وجرحت اثنى عشر جرحا ، ثم عاشت بعد ذلك دهرا ، يروي أنها قالت لرسول الله : ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى للنساء شيئا ، فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب] (حاشية سيرة ابن هشام ٢/ ٨٤ ، والطبقات : ابن سعد ٨/ ٤١٢) .

(٣) تكنى أيضا أم (شباث) تزوجها (أبو شباث) خديج بن سلامة بن أوس بن عمرو فولدت (خيبر ليلة العقبة) ، وشهد العقبة خديج ومعه امرأته أم منيع ، أسلمت وبايعت ، وشهدت خيبر مع الرسول ﷺ ، الطبقات: ابن سعد ٨/ ٤٠٨ ،الروض الأنف :السهيلي٢/١٨٨، ٢٠١، وإمتاع الأسماع : المقريزي ١/ ٣٥ ، السيرة الحلبية: علي الحلبي ٢/ ١٦

قال : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس ابن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس ، فقال : يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خز رجها وأوسها ـ إن محمدا منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز في قومه، ومنعة في بلده ، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه ، ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه ، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعونه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

قال : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ، ورغب بالإسلام ثم قال : «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ».

قال: فأخذ البراء بن معرو ر بيده، ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر

قال : فأعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال:يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال :« بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم»

قال ابن هشام : ويقال: الهدم الهدم : يعني الحرمة : أي ذمتي ذمتكم ، وحرمتي حرمتكم[١] ، فقلنا ـ أي الأنصار: يا رسول الله ، علام نبايعك ؟

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٨٤ ، ٨٥ ، الروض الأنف : السهيلي ٢ / ١٨٩ ، عيون الأثر : ابن =

قال :«تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة »، فقمنا إليه فبايعناه .

وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم .

وفي رواية البيهقي : وهو أصغر السبعين إلا أنا . فقال : رويدا ، يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مناوأه للعرب كافة ، وقتل خياركم ، وإن تعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك ، فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون على أنفسكم خيفة فذروه ، فبينوا ذلك هو أعذر لكم عند الله .

قالوا : أمط عنا يا سعد : فو الله لاندع هذه البيعة لا نسلبها أبدا .

قال : فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة .

وقد رواه الإمام أحمد أيضا والبيهقي عن طريق داود بن عبد الرحمن العطار .

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبدا لرحمن بن أبي الزناد ، عن موسى بن عبد الله عن أبي الزبير عن جابر ، قال : كان العباس آخذا بيد رسول الله ﷺ يرافقنا ، فلما فرغنا قال رسول الله :«أخذت وأعطيت» .

وفي رواية: قال رسول الله للنقباء من الأنصار:« تؤوني وتمنعوني» ؟ قالوا : نعم ، فما لنا ؟ قال :« الجنة»[1]

وقد وردت صيغة العهد بأقوال غير ما ذكر وبشروط لا تتعدى مجال الأسس العامة التي تم الحديث عنها قبل البيعة ، وهي الشروط التي اشترطها الرسول ﷺ لنفسه ولحربه، والتأكيدات التي جاءت من مختلف آراء المبايعين .

= سيد الناس ١ / ١٩٨ ، وإمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٣٥ ، والسيرة الحلبية: علي الحلبي ٢ / ١٦ ، وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٢٩ ، والسيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٩٣

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٥٩

وعندما تكلم العباس بما ذكر ، قالوا له : قد سمعنا مقالتك فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

وفي رواية: خذ لنفسك ما شئت ، ولربك ما أحببت .

وفي رواية خذ لنفسك ما شئت ، فقال النبي :« أما لربي ﷻ أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسي أن تمنعوني ما تمنعون به أنفسكم وأبناءكم»

قال ابن رواحة، فإذا فعلنا فما لنا ؟ فقال رسول ﷺ :«لكم الجنة »، قالوا :ربح البيع ... إلخ البيعة .

قال كعب بن مالك وقد كان قال رسول الله أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ، ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

قال ابن هشام : من الخزرج فيما حدثنى ابن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد ابن إسحاق :

١ـ أبو أمامة أسعد بن زرارة عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وهو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج .

٢ـ سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك ابن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج .

٣ ـ عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأغر بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج .

٤ ـ رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج .

٥ ـ البراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سليمة بن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج .

٦ـ عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج .

٧ ـ عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن الخزرج .

٨ ـ سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خز يمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج .

٩ ـ المنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوزان بن عبدون بن زيد بن ثعلبة ابن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج .

قال ابن هشام ويقال : ابن الخنيس .

ومن الأوس :

١ـ أسيد بن حضير بن سماك بن عتيق بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهب بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس .

٢ ـ سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب بن السماط بن كعب بن حارثة بن غنم بن السهم بن امرئ القيس بن مالك بن أوس .

٣ ـ رفاعة بن عبد المنذر بن زبير بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن مالك بن الأوس .

قال بن هشام: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان،ولا يعدون رفاعة .

وقال كعب بن مالك يذكروهم فيما أنشدنى أبو زيد الأنصاري :

أبلـــغ أبيـــا أنـــه قـــال رأيـــه   وحان غداة الشعب والحين واقـع

أبي الله مـــا منتـــك نفـــسك إنـــه   بمرصـاد أمـر النـاس راء وسـامع

وأبلـغ أبـا سـفيان أن قـد بـدا لنـا   بأحمـد نـور مـن هـدى الله سـاطع

فلا ترغبن في حشد أمر تريده وألب وجمع كل ما أنت جامع
ودونك فاعلم أن نقضى عهودنا أباه عليك الرهط حين تبايعوا
أباه البراء وابن عمرو كلاهما وأسعد يأباه عليك ورافع
وسعد أباه الساعدى ومنذر لأنفك إن حاولت ذلك جادع
وما ابن الربيع إن تناولت عهده بمسلمة لا يطمعن ثم طامع
وأيضا فلا يعطيكه ابن رواحة وأخفاره من دونه رلم نافع
وفاء به والقوقلى بن صامت بمندوحة عما تحاول يافع
أبو هيثم أيضا وفي بمثلها وفاء بما أعطى من العهد خانع
وما ابن حضير إن أردت بمطمع فهل أنت عن أحمومة الغي نازع
وسد أخو عمرو بن عوف، فإنه صروح لما حاولت ملأ مر مانع
أولاك نجوم لا يغبك منهم عليك بنحس في دجى الليل طالع

قال ابن إسحاق: إن رسول الله ﷺ قال للنقباء:«أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم : وأنا كفيل على قومي (المسلمين)».

قالوا : نعم[(١)]، قلت وذكر سعد بن معاذ وليس من النقباء بالكلية في هذه الليلة .

وروى يعقوب بن سفيان ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : كان الأنصار ليلة العقبة سبعين رجلا ، وكان نقباؤهم اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

وحد ثني شيخ من الأنصار أن جبريل كان يشير إلى رسول الله ﷺ إلى من يجعله نقيبا ليلة العقبة ، وكان أسيد بن حضير أحد النقباء تلك الليلة[(٢)]

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٩٩ ، ٢٠٠، البداية والنهاية : ابن كثير ٣/ ١٦١ فما بعدها ، إمتاع الأسماع ، المقريزى ١/ ٣٧.
(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٠٠

وفي رواية: أنه ﷺ قال لهم :«إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثنى عشر نقيبا ، فلا يحدث أحد في نفسه أن يؤخذ لغيرة ، فما يختار لي جبريل » ـ أي لأنه ﷺ حضر البيعة ـ فلما تخيرهم ـ أي النقباء وذكرهم المؤلف – كل واحد على قبيلة رضى الله عنهم أجمعين .

وقال ﷺ لأولئك النقباء «وأنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مر يم ، وأنا كفيل على قومي» ـ يعني المهاجرين

وقيل إن الذي تولى الكلام عن الأنصار وشد العقدة لرسول الله أسعد بن زرارة ، أي وهو أصغرهم ، فإنه أخذ بيد النبي ﷺ وقال : رويدا ياأهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل ، إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وأن إخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم يقتل خياركم ، ومفارقة العرب كافة – أي جميعا – فخذوه ، وأجركم على الله تعالى ، وأما أنتم تخلفون من أنفسكم خيفة فذروه فهو غذر لكم عند الله ـ ﷻ .

فقالوا يا أسعد أعطنا يدك فو الله لا نذر ـ أي لا نترك ـ هذه البيعة ، ولا نستقيلها ـ أي لا نطلب الإقالة منها[١]

قال ابن إسحاق إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن فضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ،هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ ، قالوا نعم ، قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم القتل أسلمتموه ؟ ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة .

وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه نهكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل

---

(١) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ،السيرة النبوية: دحلان ١ / ٢٩٤

الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ ، قال :« الجنة ». قالوا فبسط يده ، فبايعوه[١]، وقالوا : ربح البيع ، ولا نستقيل ، فنزل قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] .

والذين بايعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة ، ذات صفات مميزة،منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في الشعور والشعائر، ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي سواهم ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة] .

والآيات التالية في السياق تقطع ما بين المؤمنين الذين بايعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة وبين كل من لم يدخلوا معهم فيها ، ولو كانوا أولى قربى فقد اختلفت الوجهتان ، واختلف المصيران ، فالذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة ، والذين لم يعقدوها هم أصحاب الجحيم ، ولا لقاء في دنيا ولا في آخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم وقربى الدم والنسب، إذًا لا تنشئ رابطة، ولا تصلح وشيجة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم[٢]

وكانت هذه البيعة على حرب الأحمر والأسود ، فلما تمت بيعتهم استأذنوا رسول الله أن يميلوا عن أهل منى بأسيافهم فقال :« لم نؤمر بذلك»[٣]

وأول من بايعه ﷺ البراء بن معرور ، وقيل : أسعد بن زرارة ، وقيل : أبو الهيثم ابن التيهان ، ثم بايعه السبعون كلهم ، أي وبايعه المرأتان المذكورتان من غير

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ، ٢ / ٨٨ ، ٩٨ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٠١

(٢) الظلال: سيد قطب ٣ / ١٧١٤ ،تفسير ابن كثير : ٢ / ٤٠٦ ،تفسير القرطبي : ٨ / ٢٢٦

(٣) إمتاع الأسماع : المقريزي ٢ / ٣٧ .

مصافحة؛ لأنه كان لا يصافح النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أحرزن قال «اذهبن فقد بايعتكن» كما سيأتي ، فكانت هذه البيعة على حرب الأسود والأحمر ـ أي العرب والعجم ـ فهؤلاء الثلاثة لم يتقدم عليهم أحد غيرهم ، وحينئذ تكون الأولية فيهم حقيقية وإضافية ، أي: ويقال : إن أبا الهيثم بن التيهان قال : أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر نقيبا من بني إسرائيل موسى بن عمران ﵇ .

وأن عبد الله بن رواحة قال : أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر من الحواريين عيسى ﵇ ، وقال أسعد بن زرارة أبايع الله ﷻ يا رسول الله ، فأبايعك على أن أتم عهدي بوفائي ، وأصدق قولي بفعلي بنصرك .

وقال النعمان بن حارثة : أبايع الله ـ ﷻ ـ يا رسول الله ، وأبايعك على الإقدام في أمر الله ـ ﷻ ـ لا أرأف فيه القريب ولا البعيد ، أي لا أعامل فيه بالرأفة والرحمة ، وقال عبادة بن الصامت : أبايعك يا رسول الله على ألّا تأخذني في الله لومة لائم .

وقال سعد بن الربيع: أبايع الله ، وأبايعك يا رسول الله على ألا أعصى لكما أمرًا، ولا أكذبكما حديثًا[1]

أخبرنا عمرو بن عثمان الرقي ، حدثنا زهير «حدثنا عبد الله بن عثمان بن خشيم، عن إسماعيل بن عبد الله بن رفاعة، عن أبيه ، قال : قدمت روايا خمر ، فأتاها عبادة ابن الصامت فخرقها،وقال:إنا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب مما نمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة ، فهذه بيعة رسول الله التي بايعناه عليها (وهذا إسناد جيد قوى ولم يخرجوه)[2] فلما كانت ليلة العقبة الثلث الأول من الليل تسلل إلى رسول الله ﷺ ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان فبايعوا رسول الله خفية من قومهم ومن كفار قريش على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم

(١) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ١٩ ، السيرة النبوية : دحلان ١ / ٢٩٥

(٢) البداية والنهاية : ابن كثير ٣ / ١٦٣ فما بعدها .

وأبناءهم وأزرهم ، فكان أول من بايعه ليلتئذ البراء بن معرور ، وكانت له اليد البيضاء؛ إذ أكد العقد،وبادر إليه، وحضر العباس عم الرسول ﷺ مؤكدا البيعة[١]

الآثار السياسية لبيعة العقبة الثانية :

لم يرد في تاريخ العرب القديم قبل هذه البيعة مثيل لها،كانت الأحلاف عبارة عن ردود فعل على أحداث طارئة أو حرب قائمة ، والأحلاف ما هي إلا طلب القوة للثأر وللانتقام ، ولم يكن في أي عهد جرى إلا انتظارًا لمغنم ، أو دفعًا لمغرم ، أو طلبًا للثأر ، إلا ما كان من حلف الفضول ، ولم يعرف العرب قبلا أن قوما تركوا كل ارتباطاتهم السابقة ، وعاهدوا وتعهدوا على السير في حياة جديدة تماما ، ثمنها الجنة فقط إن وفوا ، كما لم تشر الأحلاف والمعاهدات والتجمعات البشرية إلى أن العهد الذي قطعه الناس على أنفسهم وقد نفذ بحذافيره ، بل كان ثابتا أقوى وأكثر مما تعاهد عليه الناس .

بيعة العقبة الثانية كانت تحولا في تاريخ الإسلام أولا وحياة العرب ثانيا ، وحياة العالم كله وخصوصا في حياة سكان يثرب ـ على اختلاف انتماءاتهم ـ أوضحت الكلمات التي جرى تثبيتها من مصادرها أن أصحابها موفون بعهودهم قادرون على التزاماتهم ، صادقون في إيمانهم ، وكل الذين بايعوا أدركوا أبعاد هذه البيعة ، أدركوا أنهم قاطعون حبالاً كانت موصولة ، وأدركوا أنهم سيحاربون الأبيض والأسود والأحمر ، وأدركوا أن العالم كله سينقلب عليهم ، ولكن شعورهم العجيب بقوتهم ـ على الرغم من قلة عددهم ـ قد جعلهم يستأذنون بالميل على أهل منى من العرب ـ المشركين ـ بأسيافهم لشركهم وضلالتهم أدرك هؤلاء أن وشائج القربى والدم والعشير قد انتهت ، وأن صلة الإسلام هي التي حلت محلها بكل أبعادها وقوتها وثباتها تركوا ملكهم نائما، مع رغبتهم لو كان معهم في عقد هذه البيعة، ولكن يظهر أنهم رغبوا عنه بعد ذلك وهو قريب منهم ، وقد تملكه العجب عندما سئل عن هذا الأمر ، فقال : ما كان قومى يقطعون أمرًا بهذه الخطورة دون الرجوع إلى ، لكنه نام

---

(١) السيرة النبوية : الندوي من ١٣٤ ، ١٣٥ ، زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٤٨ .

عن تحرك الدنيا التي كانت تتحرك وقتها باتجاه آخر لم يتمكن من إدراكه . وموقعه لم يعد له وزن في سياسة يثرب إلا أن يدخل في هذا الدين فينال شرف الإسلام،وشرف خدمة الإسلام،وشرف التضحية من أجله؛ وليعلم أنه لم يعد هناك من قوم سيبقون مخلصين له ، قادرين على أن يعيدوا إليه ما ظن أنه ما زال قائما وهو ملكية يثرب .

تركه قومه نائمًا وذهبوا إلى محمد يبايعونه بيعة الحرب التي فتحت أبواب التاريخ على مداها الواسع ، فهؤلاء قد تعهدوا بتقديم أموالهم وأرواحهم في سبيل الله ، ولكن تمت البيعة، فهل تمر بهدوء ، طلب العباس من القوم أن يخفضوا أصواتهم ، فإن عيونًا ترصدهم ، وتسمع ما يقولون ولا يريد لهذا الأمر أن يكشف وقتها، تمت البيعة لكن ما وراءها كان كبيرًا .

١ـ لقد صعق الشيطان صعقة هزت أركان الوادى فإن أمرًا كهذا ، قد صفعه على وجهه وقلبه ولما وقعت البيعة صرخ الشيطان من رأس العقبة بأشد صوته وأبعده .

يا أهل الجباجب ـ أي بجيمين الأولى مفتوحة ، والثانية مكسورة ، وبعد كل جيم باء موحدة وهي منازل مني .

وفي الهدى : يا أهل الأخاشب ، هل لكم في مذمم والصباة معه ، يعنى بمذمم : النبي ﷺ ؛ لأن قريشا كانت تقول عنه: مذمم ، ويعني بالصباة أصحابه الذين بايعوه؛ لأنهم كانوا يقولون عمن أسلم: صابئ؛ لأن الصابئ من خرج من دين إلى دين، وقد جاء:«لا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش، إنهم يسبون مذممًا، وأنا محمد ، فإنهم قد أجمعوا ـ أي عزموا ـ على حربكم» .

فقال رسول الله ﷺ :«هذا أزب العقبة ـ أي عدو الله أما والله لأفرغن[1] لك [2]

---

(١) أزب: أي الشيطان سمي بهذا الاسم المركب من المضاف والمضاف إليه، عامرها : والأزب بالأصل: العقير ، ومن ثم رأى عبد الله بن الزبير رجلاً طوله شبران على بردغة رجله ، فقال : ما أنت ؟ قال : أزب قال : وما أزب ؟ قال : رجل من الجن فضربه على رأسه فهرب .وردت في السيرة : ابن كثير ، ٢ / ٢٠٤ ، هذا أزب العقبة، هذا ابن أزيب .

(٢) ناقص فى السيرة الحلبية: علي الحلبي ٢ / ١٩ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٠٤

وفي رواية لما بايع الأنصار بالعقبة صاح الشيطان من رأس الجبل يا معشر قريش ، هذه بنو الأوس والخزرج تحالفت على قتالكم ، ففزعوا ـ أي الأنصار ـ عند ذلك ، فقال رسول الله :«لا يردعنكم هذا الصوت ، فإنما هو عدو الله إبليس ، وليس يسمعه أحد ممن تخافون»، ولا مانع من اجتماع صراخ (أزب العقبة) ، وصراخ إبليس الذي هو أبو الجن ، ويجوز أن يكون المراد بعدو الله إبليس (أزب العقبة)؛ لأنه من الأبالسة ، وأنه أتى باللفظين معا .

وقد حضر البيعة جبريل كما تقدم ، فعن حارثة بن النعمان ﷺ لما فرغوا من المبايعة ، قلت يا نبي الله ، لقد رأيت رجلا عليه ثياب بيض ، أنكرته قائما على يمينك .. ؟ ، قال :«أورأيته» ؟ قلت : نعم . قال :«ذاك جبريل» .. والله أعلم[١]

ثم قال رسول الله ﷺ : « ارفضوا إلى رحالكم» ، فقال العباس بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا ، قال : فقال رسول الله :«لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»

قال : فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا[٢]

لقد غضب الشيطان من هذا الحلف ، فضلال العرب مريح له ، وضلال الناس أعطاه الهدوء والطمأنينة ، ولكن أن يبدأ الحق والإيمان والإسلام بالبزوغ ، وإزاحة ظلامة الشيطان وأهله ، فإنه وأيم الله ضربة للشر وللشيطان ، وللشرك وللضلالة في مقتل ، ومن موضع الألم الشديد صرخ صرخة مخيفة فعند ابن هشام وغيره أنها أنفذ صوت سمع .

لقد كانت البيعة تحويلًا من لدن الباري ـ جلَّ وعلا ـ لعباده إلى ترك طريق الضلالة والشرك الذي طال الزمن على سالكيه ، فجاء هدى الله تعالى وعنايته

---

(١) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٢٠

(٢) السيرة النبوية ابن هشام ٢ / ٩٠ ، زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٤٨ ، وفاء الوفا السمهودي ١/ ٢٣١ ، إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٣٧ ، الروض الأنف : السهيلي ٢ / ١٩٢ وزيادة الشرح والتفضيل ٢ / ٢٠٤

ورعايته ؛ ليسلك بعباده إلى خيرى الدنيا والآخرة ، وراء رسوله ونبيه الذي أرسله خاتـمًا للرسالات والأنبياء .

والشيء الثاني أن المبايعين من أهل يثرب كانوا يرغبون أن تكون البيعة عامة يشارك فيها من أسلم أو من لم يزل على شركه ؛ حتى تكون أقوى وأمتن وأشدَّ ، خاصة أن الحرب إن وقعت غدًا بين المسلمين من أهل يثرب وسواهم ، فإنها ستطال الآخرين من أهليهم وذويهم الذين ما زالوا يعيشون على مبادئ الماضي وترهات الجاهلية .

أراد المسلمون المبايعون أن يكون جميع من معهم من أهل يثرب أن يكونوا في عهد الرسول ، فقد حاول العباس بن نضلة الأنصارى أخو بني سالم بن عوف امرين ، بقوله للأنصار يا معشر الخزرج ، أتدرون علام تبايعون هذا الرجل .؟ إلخ مقالته .

الأمر الأول : قال عاصم بن عمرو بن قتادة : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله ﷺ في أعناقهم .

الأمر الثاني : وأما عبد الله بن أبي بكر ، فقال : ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها ـ أي البيعة ـ عبد الله بن أبي ابن سلول ، فيكون أقوى لأمر القوم ، فالله أعلم أي ذلك كان[1]

ولكن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء ويضل عنه من يشاء ، فلم يبايع الرسول ﷺ إلا المسلمون القانعون الناذرون نفوسهم رخيصة لله .

فلما علمت قريش بالأمر

عن كعب بن مالك قال فلما أصبحنا عدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا،فقالوا:يا معشر الخزرج،إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٨٨ ، ٨٩ .

من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، قال : فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمناه ، قال : وصدقوا ، لم يعلموا ، قال : وبعضنا ينظر إلى بعض(١)

قال ابن إسحاق وحدثني عبد الله بن أبي بكر أنهم أتوا عبد الله بن أبي ابن سلول ، فقالوا مثل ما ذكر كعب من القول ، فقال لهم : إن هذا الأمر جسيم ما كان قومي ليتفرقوا على مثل هذا وما علمته كان ، فانصرفوا عنه(٢)

بقي الأمر إذًا بين المسلمين ، لم يشاركهم مشرك أو كافر ، وبقيت البيعة من الفئة المؤمنة التي أرادها الله تعالى أن تكون خالصة له .

والأمر الثالث : أن قريشا قد عرفوا بالأمر متأخرين ، أرادوا اللحاق بالأمر قبل فواته .

قال ابن إسحاق : ونفر الناس من مني قتنطس(٣) القوم الخبر فوجدوه قد كان ، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر ، والمنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكلاهما كان نقيبًا .

فأما المنذر فأعجز القوم وأدركوا سعد بن عبادة ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رجله ، وجعلوا يضربونه ، ويجرونه ، ويجذبونه بجمته حتى أدخلوه مكة ، فجاء مطعم بن عدي ، والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه ، فإذا سعد قد طلع عليهم ، فواصل القوم جميعًا إلى المدينة (٤)

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) السيرة النبوية :ابن كثير ٢/ ٢٠٥، ٢٠٦، في ابن هشام (ليتفرقوا على بمثل هذا).

(٣) القتنطس: أي تحسس وأكثر البحث.

(٤) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٠٦ ، زاد المعاد : ابن القيم ٢ / ٩٤

وكما فات أمر المبايعين مشركي الأوس والخزرج فات قريشا أيضا رغم تأكدهم من ذلك ، فما قدروا إلا على أسر سعد ، ولكن لصداقته مع مطعم والحارث تركوه يعود إلى المدينة ، فقد ثبَّت بذلك الله تعالى هذه البيعة وأتمها ، فهي فاتحة طيبة وخطوة مباركة للثبات والإخلاص والتقدم؛ ليتخلص المسلمون من حصار قريش وبطشها إلى نصرة الأوس والخزرج ، وللانفتاح على العالم ، وكان هؤلاء النفر من المدينة ركن الدعوة وأساسها ، ومنار الإسلام وقوته ، فقد كان تحولهم إلى هذا الدين من أكبر الانتصارات التي صنعتها الدعوة الإسلامية من بداية ظهورها في مكة ، وسيكون لهم بعد ذلك العطاء المتميز عن عطاء كل بني الإنسان .

قال ابن إسحاق : فلما رجع الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية إلى المدينة أظهروا الإسلام بها .

روى البيهقي بسنده عن عيسى بن أبي عيسى بن جبير قال : سمعت قريش قائلا يقول :

فإن يسلم السعدان يصبح محمد　　　بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان : من السعدان ؟ أسعد بكر ؟ أم سعد هزيم ؟، فلما كانت الليلة الثانية سمعوا قائلا يقول :

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرًا　　　ويا سعد سعد الخزرجيين الغطارف

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا　　　على الله في الفردوس منية عارف

فإن ثواب الله للطالب الهدى　　　جفال من الفردوس ذات رفارف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان:هو والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة [١]

وعندما أظهر المبايعون الإسلام في المدينة كان في قومهم بقايا من شيوخ لهم على

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٠٧

دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام ، وكان ابنه معاذ ابن عمرو ممن شهد العقبة ، وكان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة وأشرافهم ، وكان قد اتخذ صنما من خشب في داره يقال له : مناة ، وأخذ الفتية من المسلمين يأخذونه كل يوم ، ويلقونه في مناطق النجاسة والقذارة ، ويبحث عنه صاحبه ويعيده ويعطره ، وربط مرة في رقبته سيفا ، وقال له : إن كنت إلها دافع عن نفسك ، فجاء الفتية فأخذوا السيف ، وأهانوا الصنم أكثر من كل مرة ، فلما أبصره على هذا الحال ، وسمع من المسلمين عن هذا الدين فأسلم ، وحين عرف من الله ما عرف ، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصره منه ، ويشكر الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة يقول :

والله لو كنت إلها لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر في قرن

أف لملقاك إلها مستدن ... الآن فتشناك عن سوء الغبن

الحمد لله العلي ذي المنن ... الواهب الرزاق ديان الدين

هو الذي أنقذني من قبل أن ... أكون في خلة قبر ممتهن(١)

قال ابن إسحاق : وكانت بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله ﷺ في القتال شروطا سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى ، كانت الأولى بيعة النساء وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله بالحرب ، فلما أذن له فيها وبايعهم عليه السلام في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

قال ابن إسحاق:فحدثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه الوليد عن جده عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء قال : بايعنا رسول الله بيعة الحرب ـ وكان عبادة من الإثنى عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى على بيعة النساء ـ على السمع

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٠٨ ، والسيرة الحلبية : على الحلبى ٢ / ٢٠ ، ٢١، السيرة النبوية ابن هشام ٢ / ٩٥

والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم[1]

لقد شملت أسماء المبايعين ـ رجالا ونساء ـ كل بطون الأوس والخزرج تقريبًا ، دخل العرب الإسلام واليهود ينظرون ، ولقد سبق هؤلاء باتباع محمد ، والسؤال الآن: لماذا لم يقم اليهود بالمبادرة والدخول في الإسلام قبل اليثربيين أو بعدهم ؟ والجواب على هذا يتطلب منا أن نتعرف قليلا على ما عند اليهود ، ولكن اليهود اعتقدوا أن لا نبي إلا منهم ، وبذلك فقد تريثوا ورفضوا الأمرين :

١ـ أن محمدًا ليس منهم وهذا أمر كاف لأن تنفي عنه النبوة على الرغم من أن كل الإرهاصات والدلائل تشير إلى أن هذا النبي سيكون من الأميين، وستكون يثرب مهاجرًا له .

٢ـ والأمر الثاني أنهم لم يتسرعوا حتى يتأكدوا من صدق دعوته ومن أنه المنبأ عنه في كتبهم وأسفارهم وربما هذان هما السببان الواضحان لتخلفهما عن الرسول ﷺ ، أو أنهم يملكون من أخبار النبوة ما لا يمكن للعرب الوثنيين أن يعرفوه ، ومن المعروف بعد الهجرة أن قضايا التريث والانتظار قد انقلبت إلى عداوة مستمرة ، كما سيرد لاحقًا .

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٩٧

(٥) هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب

ربط المؤرخون بين بيعة العقبة الثانية والإذن لرسول الله ﷺ بالقتال ، واعتبر جميع المؤرخين تقريبا أن الحدثين متلازمان ، على الرغم من الفارق الزمني البسيط بينهما إلا أن شروط العقبة والتي عرفت بـ(بيعة الحرب) قد قربت المسلمين إلى هذا الهدف كثيرا، ولا ينتهي الحديث عن العقبة الثانية لدى كتاب السيرة والمؤرخين إلا ويردفوه مباشرة بالإذن لرسول الله بالقتال ، ولعل ما قاله العباس بن عبادة بن نضلة عندما تمت البيعة وطلبه للرسول أن يميل على أهل منى بسيفه مع المبايعين دليل على أن الرهط قد أدركوا بحواسهم أن القتال أصبح قاب قوسين أو أدنى منهم ، فقد عاهدوا على الحماية والذود والدفاع حتى يصل الرسول إليهم وهذا يستوجب في الغالب استعمال السلاح .

إلا أن الأمر الذي تجاوزه المؤرخون واعتبروه أمرًا طبيعيا ونتيجة منطقية وهو هجرة المسلمين إلى يثرب ؛ إذ كان عهد الأنصار بالنصرة في ميزان التحولات السياسية والاجتماعية في التاريخ يعتبر حدثًا هامًا بحد ذاته ، وتحولا بالغ الخطورة ، فإنه لا يقل عنه بحال هجرة المسلمين إلى المدينة .

وللقياس فقط فقد كان المهاجرون إلى الحبشة قلة من المستضعفين والمضطهدين الذين لا ناصر لهم في مكة ، أو أنهم غير قادرين على تحمل الأذى أو رده على الأقل ، فإن الهجرة إلى المدينة أمر يختلف تماما عن تلك .

الهجرة إلى الحبشة لجوء سياسي - إن صح هذا التعبير - إلى رجل لا يظلم عنده أحد ، ولم يكن من مهامهم الدعوة إلى الدين الجديد ، بل المطلوب منهم أن يحافظوا عليه في أنفسهم حتى أن بعضهم استمرأ الحياة بين النصارى في الحبشة فتنصر (عبيد الله بن جحش) وسواه .

إلا أن الهجرة إلى المدينة هي انتقال من مدينة إلى مدينة والتحام قوم بقوم، وتدبر حياة جديدة مقطوعة عن ارتباطات الماضي ، واندماج متداخل بين هؤلاء ، وتقاسم مشاكل الحياة المادية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتكوين مجتمع جديد كل الجدة بمختلف تفرعاته وذهاب بلا عودة ، حتى ولو توقف سكان مكة عن اضطهاد المسلمين فإن النظر إلى الهجرة إلى المدينة كان أعمق كثيرًا من مجرد اللجوء أو الهرب ، أو طلب النجدة او الحماية ، انتقال الرجال والنساء والأطفال ، والتزاوج والمشاركة في المال والبيت والمسكن تواجهنا بعد ذلك عملية المؤاخاة التي جرت مرة واحدة في التاريخ ، وانتهت ومع تكرارها بشكل فردى أو ضيق لكنها لم تكن كالأولى ، وإذا كانت جماعية بعد ذلك فهي تقع تحت قضايا التهجير الجماعي الذي ألزمته ، أو فرضته الحروب والانتصارات أو الانهزام ، أو التقلبات السياسية والعسكرية في العالم المتصارع .

أما مؤاخاة المسلمين تحت ظل الإسلام فهي أمر مختلف تمامًا ، وستبقى تحت كنف الإسلام فقضايا الإيثار لم تكن إلا عند هؤلاء الرهط من الأنصار التي تتكرر دائما بحدود ضيقة جدًا ، الهجرة إلى المدينة هي المشاركة التامة في كل شيء وهكذا كان ، ولا نريد أن نسوق الأمثلة والأدلة الكثيرة التي حفل بها التاريخ وامتلأت بها صفحات كتب السيرة ، والمشاركة في المشاعر والمشاركة بالمعاش والمساكنة والتزاوج والمؤاخاة وإيجاد المجتمع الفاضل الذي حلم به الفلاسفة وتحقق مرة واحدة في المدينة .

في جميع الأعراف والقوانين الوضعية أن الوافد أو المهاجر في مرتبة أقل من صاحب الدار ، ومهما كانت التسميات التي تنطبق تحت هذا الاسم ـ على الأقل لفترة انتهاء الكوارث التي كانت سببًا لها ـ قد تدوم لأجيال ، وحتى تنسى هذه الأجيال الأصول التي جاءت منها هذه الفئة أو تلك ، لكن هجرة المسلمين غيرت كل الأعراف ، وحطمت كل الاعتبارات التي كانت سائدة والتي ربما ما زالت حتى الآن .

لقد كانت المساواة في هجرة المسلمين تامة إلى درجة أكثر بكثير مما كان يظن ، فعندما يؤثر الأنصارى أخاه المهاجر بأفضل ما بداره وبأجمل زوجاته ليطلقها ويتزوجها الآخر ، وليقدم أولئك لهؤلاء كل تسهيلات الحياة ، نقول: هذا من أعمال الأنبياء ولا يطيقه إلا الذين تخرجوا من مدرسة الإسلام بقيادة الرسول ﷺ .

فمن أهم النتائج السياسية والاجتماعية هو هجرة المسلمين من مكة أو من أية منطقة حصل فيها ضغط أو إرهاب إلى المدينة .

سكان المدينة من غير المسلمين لم يفهموا ماذا حصل ، ولقد استطاع المسلمون منهم أن يفرضوا وجودهم وشروطهم على المدينة ، ويمكن القول بأنهم بسطوا سيادتهم الفعلية عليها ، وعلى مقدراتها وشؤونها وإلا لتجمع الآخرون العرب واليهود وهم كثر ، وطردوا القادمين أو ضايقوهم على الأقل ، لكن هذا لم يحصل ، وبدأت الهجرة واستمرت بعد ذلك ثمان سنوات متتالية حتى تم فتح مكة – ولم يعد هناك هجرة؛ إذ لا هجرة بعد الفتح ، ولم يذكر التاريخ إلا محاولات فاشلة حاول بها المنافقون واليهود أن يوقعوا إثارة بين الأوس والخزرج وتارة بين المهاجرين والأنصار ، وحركوا مرة قضية العزة للقاطنين في المدينة فكانت النتيجة أن فشلوا وأعلن الملأ أنهم هم الأذلاء والرسول والمؤمنون الأعزاء .

استمرت الهجرة قبل قدوم الرسول إلى يثرب وبعد قدومه وانقطعت بالفتح ، وكان المهاجرون الذين تركوا كل شيء وراءهم قد وعدوا أيضا بثواب الدنيا والآخرة مثلهم مثل الأنصار،واستمر أهل يثرب كرامًا ذوي فضل حتى بعد الفتح، فلم يفكروا أن يطردوا أو يخرجوا المهاجرين بعد أن عادت إليهم بيوتهم وديارهم وإن وقت حمايتهم قد انتهى، فطلب منهم الرجوع، بل العكس كان الأنصار يخافون أن يتركهم المهاجرون وخاصة رسول الله ﷺ ويعود إلى مكة وكان هذا الهاجس المخيف قد طرد من مخيلتهم بعد غزوة حنين ، عندما عادوا بغنيمتهم ـ رسول الله ـ وذهب الناس بالدنيا والدرهم والدينار .

قال الزهري:عن عروة عن عائشة، قالت:قال رسول الله ﷺ وهو يومئذ بمكة: قد رأيت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين ، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك،ورجع إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين .

وقال أبو موسى عن النبي ﷺ :« رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة يثرب» ، وهذا الحديث قد أسنده البخاري في مواضع أخرى بطوله .

قال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو العباس القاسم بن القاسم السياري بمرو، حدثنا إبراهيم بن هلال ، حدثنا العامري عن على بن الحسن بن شفيق ، حدثنا عيسى بن عبيد الكندي ، عن غيلان بن عبد الله العامري ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جرير ، أن النبي ﷺ قال :« إن الله أوحى إلى أي هؤلاء البلاد الثلاثة نزلت فهي دار هجرتك المدينة ، أو البحرين ، أو قنسرين» ، قال لهم : ثم عزم له على المدينة فأمر أصحابه بالهجرة إليها ، هذا حديث غريب جدا[١] ، وقد رواه الترمذي في المناقب من جامعه منفردا .

عن أبي عمار الحسين بن حريث ، عن الفضل بن موسى ، عن عيسى بن عبيد عن غيلان بن عبد الله العامري ، عن أبي زرعة بن عمر بن جرير ، عن جرير قال : قال رسول الله ﷺ :« إن الله أوحى إليَّ أي هؤلاء الثلاثة نزلت فهي دار هجرتك المدينة أو البحرين أو قنسرين»، ثم قال:غريب لا نعرفه إلا من حديث الفضل تفرد به أبو عمار.

قلت وغيلان بن عبد الله العامرى ، هذا ذكره ابن حيان في التقات ، إلا أنه قال : روى عن أبي زرعة[٢] ، حديث منكر في الهجرة ، والله أعلم[٣]

إن قريشا لما علمت أنه ﷺ آوى (أي استند) إلى قوم أهل حرب وتحمل ضيقوا

---

(١) قال الزرقاني ، صححه الحاكم ، وأفرد الذهبي فى تلخيصه ، لكنه قال في الميزان: حديث منكر ما أقدم الترمذي على تحسينه ، بل قال: غريب ، وقال الحافظ : في ثبوته نظر لمخالفته ما فى الصحيح ، شرح المواهب ١ / ٣١٨

(٢) انظر : تاريخ أبي زرعة الدمشقي ١ / ١٧ فما بعدها.

(٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢١٤ ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٢١

على أصحابه ، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى ، وجعل البلاء يشتد عليهم ، وصاروا ما بين مفتون في دينه ، وبين معذب في أيديهم ، وبين هارب من البلاء ، شكوا إليه ﷺ واستأذنوه بالهجرة ، أي: فمكث أياما لا يأذن لهم ، ثم قال لهم :«أريت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لا بتين ، وهي الحرثان ، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ ، لقلت هي هي» والسرأة بفتح السين أعظم جبال بلاد العرب ثم خرج إليهم مسرورًا ، فقال :« قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب» فأذن لهم ، وقال :« من أراد أن يخرج فليخرج إليها ».

فحرجوا إليها أرسالا ، أي : متتابعين يخفون ذلك[(١)]

واشتد الأذى على من بمكة من المسلمين فأذن لهم ﷺ في الهجرة إلى المدينة فبادروا إلى ذلك ، وتجهزوا إلى المدينة في خفاء وستر ، وتسللوا فيقال : إنه كان بين أولهم وآخرهم أكثر من سنة ، وجعلوا يتوافدون بالمال وبالظهر ، ويترافقون ، وكان من هاجر من قريش (يستودع دوره وأمواله) رجلا من قومه ، فمنهم من حفظ على من أودعه ، ومنهم من باع ، فممن حفظ وديعته هشام بن الحارث بن حبيب فمدحه حسان بن ثابت[(٢)]

وقبل الهجرة آخى ﷺ بين المسلمين أي المهاجرين على الحق والمواساة ، فآخر بين أبي بكر وعمر ، وآخى بين حمزة وزيد بن حارثة ، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير وابن مسعود ، وبين عبادة بن الحارثة وبلال ، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص ، وبين أبي عبيدة بن الجراح ، وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله ، وبين على ونفسه ﷺ ، وقال:« أما ترضى أن أكون أخاك ؟» قال : بلى ، يا رسول الله رضيت ، قال :« فأنت أخي في الدنيا والآخرة»[(٣)]

---

(١) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٢٦ ، وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٣٥ ، حدائق الأنوار : الشيباني ١ / ٢٦٢

(٢) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) عيون الأثر : ابن سيد الناس ١ / ٢٤١ ، السيرة الحلبية: علي الحلبي ٢ / ٢٢

وأنكر أبو العباس بن تيمية المؤاخاة بين المهاجرين سيما مؤاخاة النبي لعلي بن أبي طالب ، قال لأن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إنما جعلت لارتفاق بعضهم ببعض ، ولتأليف قلوب بعضهم ببعض ، فلا معنى لمؤاخاة مهاجري ومهاجري .

قال الحافظ ابن حجر : هذا رد للنص بالقياس ، وبعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال ، والعشيرة فآخى بين الأعلى والأدنى ، ليرتفق الأدنى بالأعلى ، ويستعين الأعلى بالأدنى؛ ولهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلي ﷺ كان هو الذي يقوم بأمره قبل العقبة[1] ، وفي الصحيح في عمرة القضاء أن زيد بن حارثة قال : إن بنت حمزة بنت أخي أي بسبب المؤاخاة[2] ، قال كثير فقلت لجميع بني عمير أنت تشهد بهذا على عبد الله بن عمر ؟ قال : أشهد[3]

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحل له الدماء،إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم من بلادهم منهم بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فرارًا منهم من بأرض الحبشة ، منهم من بالمدينة ، وفي كل وجه ، فلما عتت قريش على الله ﷻ ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه ﷺ ، وعذبوا ونفوا من عبده ، ووحده ، وصدق نبيه واعتصم بدينه أذن الله ﷻ بالقتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم فيما بلغنى عن عروة ابن الزبير وغيره من العلماء قول الله تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ

---

(١) السيرة النبوية ، دحلان ١ / ٢٩٧ ، ٢٩٨

(٢) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٢٣

(٣) عيون الأثر : ابن سيد الناس ١ / ٢٤١

ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٣٩] (١)

أي إنها أحللت لهم القتال ، لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر يعنى النبي ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال:٣٩] (أي حتى لا يفتن مؤمن عن دينه) ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩] (٢) (أي حتى يعبد الله لا يعبد معه غيره) (٣)

قال ابن إسحاق فلما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب ، وتابعه(٤) هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه، وآوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارًا تأمنون بها(٥) ، فخرجوا أرسالا

لقد أصبح للمضطهدين في مكة وفي غير مكة مكان يلجؤون إليه ، ودار هجرة يهاجرون إليها ، وأرض يأمنون بها على حياتهم ، وأخوة يدفعون عنهم الأذى ، ويؤمنون لهم الحماية والنصرة ، واطمئن الرسول إلى هذا الحي من العرب ، فهم صادقون ببيعتهم قادرون على تحقيق ما عاهدوا عليه ، ولذلك فقد صرح للمسلمين في مكة أن أزفت الساعة ، وانتهى البلاء ، وتحولت الدعوة لتمارس القوة والدفاع

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ٤ / ٢٤٢٦ - ٢٤٢٨

(٢) في ظلال القرآن : سيد قطب ٣ / ١٥٠٨ - ١٥١٠.

(٣) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١١٠ ، ١١١

(٤) عند ابن هشام (بايعه) وعند ابن كثير (تابعه) وكلاهما جائز .

(٥) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢١٤ ، ٢١٥ ، الطبرى : تاريخ ٢ / ٣٦٨ ، ٣٦٩

عن النفس ، وأضحى لها جنود قادرون على تحمل مسئولياتها الجسام ، قادرون على أن يكونوا قوة لها وزنها الكبير في مجتمع لم يكتمل إسلامه بعد ، والقلة هم الذين بايعوا محمدًا في العقبة الثانية .

بدأت جماعات المهاجرين في ترك كل شيء خلفها وتتوجه إلى يثرب . ومن خلال متابعة قصص الذين هاجروا إلى يثرب أو أول من هاجر نجد أن الهجرة كانت خالصة تمامًا ، فمنهم من ترك الزوج والولد ، ومنهم من ترك المال والديار ، ومنهم من ترك القبيلة والعشير ، ومنهم ومنهم ، توجهوا جميعًا إلى المدينة راغبين بدين الله وحده ناسين كل ما يربطهم في الدنيا مهما كان هذا الرباط ، ومهما كانت الوشائج التي تشده .

ترك المهاجرون خلفهم كل شيء ، وتعهد الأنصار بتقديم كل شيء ، وما عند الأنصار سيعوض المهاجرين على ما فقدوه وما عند الله للطرفين خير وأبقى .

هكذا بدأت الهجرة إلى المدينة بدأت بأفراد قلائل استحكم بهم الظلم والاستعباد حدًا لم يعد يطاق ، فانطلقوا فرادى وجماعات باتجاه المستقبل المضيء الذي سيكون له أمر عظيم .

لقد توسعت كتب السيرة والأخبار بالحديث عن أول من هاجر إلى المدينة، وتفاخرت القبائل بأن أوائل المهاجرين كانوا منها ، كما تفاخرت قبائل المدينة بأن أول المبايعين منها ، فالكل قد قدم التضحيات الجسام في سبيل الله ، وصبرا الفريقان وإن كان صبر المهاجرين على البلاء كان كبيرًا لقد كان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله من المهاجرين من قريش من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم اسمه (عبد الله) ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة،وكان قدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة، فلما أذته قريش ، وبلغة إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرًا [١]

(١) السيرة النبوية ابن هشام ٢ / ١١٢ ، الطبري : تاريخ ٢ / ٣٦٩ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢١٥ ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٢٢ ، الروض الأنف : السهيلي ٢ / ٢١١ – ٢١٦ ، تاريخ العرب القديم : عاقل ص ٤٢٩

وذكرت الروايات أن المشركين اعترضوا سبيل أم سلمة بعد أن ركبت ناقتها لمرافقة زوجها ، فبنو مخزوم منعوا أم سلمة ، وبنو عبد الأسد قوم أبي سلمة انتزعوا الطفل من أمه حتى خلع كتفه وقالوا :لا والله لا نترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا ، قالت فتجاذبوا ابني سلمة مني بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد،وحبسني بنو المغيرة عندهم ففرق بيني وبين زوجي وابني،قالت: فكنت أخرج كل غداة ، فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسى سنة أو قريبا منها .

ذهب الرجل ، وبقيت المرأة مسجونة في أهلها ، وابنها في أهل زوجها ، وسار الرجل مهاجرًا في سبيل الله إلى أن حنن الله قلوب بعض من أقاربها فتركوها ، وردوا إليها ابنها وتوجهت وحيدة إلى المدينة ، فلما رآها عثمان بن طلحة ـ وكان مشركًا ـ وعرف أن مقصدها المدينة تحركت به نخوة الرجال ، وقال : والله ما لك من مترك ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معي يهوي بي فو الله ما صحبت رجلا من العرب قط ، أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر بعيري ، فحط عنه ثم قيده في الشجرة ، ثم تنحى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه ، فرحله ثم استأخر عني وقال : اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي فلم يزل يصنع ذلك حتى أقدمني المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء ، قال زوجك في هذه المدينة (القرية) وكان أبو سلمة بها نازلا ، فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعا إلى مكة ، فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة ، ثم عبد الله بن جحش بن رئاب ، احتمل بأهله وبأخيه عبيد ابن جحش (أبي أحمد) وكان ضريرا يجوب شعاب مكة وحده بغير قائد ، وكان شاعرًا ، وكان عنده الفريعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ، فطلقت دار بني جحش هجرة، فمر بها عقبة بن ربيعة والعباس

ابن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة ، وهي دار أبان بن عثمان اليوم التي بالروم وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابًا ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكـــل دار وإن طالـــت ســـلامتها يومًـــا ســـتدركها النكبـــاء والحـــرب

وقال عتبة بن ربيعة أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها[١]، فقال أبو جهل : وما نبكي عليه من قُلٍّ بن قل (القل : الواحد) ، ثم قال يعنى للعباس : هذا عمل ابن أخيك ، هذا فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا[٢]

وترك صهيب الرومي ماله،وكان غنيًا جدًا،دل القرشيين على ماله حتى تركوه، وتتابع الناس أرسالا ـ فرادى وجماعات ـ حتى أصبحت مكة خاوية من سكانها ، والكل يتجه إلى يثرب مهاجرًا في سبيل الله ، تاركًا كل ما لديه مهما غلا وثمن ، والكل كانوا يتواعدون سرًا إلا عمر بن الخطاب،وكان قد تواعد للهجرة مع عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل . وقلنا : أينا لم يصبح عند (سرف) مكان خارج مكة ، فقد حبس فليمض صاحباه ، فتواعد عمر وعياش وجلس هشام ، وفتن فافتتن ، وتمكن أهل عياش أن يردوه إلى مكة بسبب قساوة أمه ، وفي الطريق قيدوه وحبسوه مع هشام حتى تمكن الوليد بن الوليد أن يحضر مكة شخصيا ويفك أسرهما ويأتي بهما إلى رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة .

وعن علي ﷺ قال : ما علمت أحدا من المهاجرين هاجر إلا متخفيا إلا عمر بن الخطاب فإنه لما همَّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قومه ، وانقضى في يديه أسهما ، واختصر عثرته ، أي وهي الحربة الصغيرة علقها عند خاصرته ، ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعًا ثم أتى المقام فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ، فقال : شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس (أي

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١١٣ ، وكذلك المراجع السابقة ، السيرة النبوية – ابن كثير ٢ / ٢١٨، والسيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١١٤ ، ١١٥

(٢) السيرة الحلبية علي الحلبي ٢ / ٢٣.

الأنوف) من أراد أن تثكله أمه (أي تفقده)، أو ييتم ولده ،أو ترمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي ، قال علي بن أبي طالب ﷺ : فما تبعه أحد ثم مضى لوجهه(١)

ومضى المسلمون إلى يثرب حيث الأمان والسلام، وتلقى الأنصار إخوتهم على الرحب والسعة وأنزلوهم منازلهم ، قال البخارى حدثنا الوليد ، حدثنا شعبة ، أنبأنا أبو إسحاق سمع البراء يقول : أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، ثم قدم علينا عمار وبلال ، وعن البراء بن عازب ، قال : أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم ، وكانا يقرئان الناس ، فقدم بلال وسعد وعمار ، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين نفرًا من أصحاب النبي ﷺ .

ثم قدم النبي ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة ، ومن لحق به من أهله وقومه وأخوه زيد ابن الخطاب وعمرو عبد الله ابنا سراقة بن المعتمد ، وخنيس بن حذافة السهمى ، وكان صهره على ابنته حفصة بنت عمر ، فخلف عليها رسول الله من بعده ، وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل وواقد بن عبد الله التميمى حليف لهم ، وخولى بن أبي خولي ، ومالك بن أبي خولي ـ حليف لهم ـ وبنو البكير ـ أربعتهم ـ وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث على رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر في بني عمرو بن عوف بقباء(٢)

قال ابن إسحاق : ثم تتابع المهاجرون رضى الله عنهم فنزل طلحة بن عبيد الله ، وصهيب بن سنان على خبيب بن إساف أخي بلحارث بن الخزرج بالسنح ، ويقال: بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة .

(٢،١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٢١ ، ٢٢٢ أيضا السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٢٠

القسم الثالث

هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة (يثرب)

تمهيد :

هجرة الإنسان لم تهدأ على سطح الأرض منذ أن وطئت قدما آدم وحواء عليهما السلام هذا الكوكب مئذنين بدبيب هذا المخلوق على هذه الأرض ، واستمرت الهجرات تتوالى ، وتترى وما زالت كذلك حتى اليوم ، وستبقى إلى أن يأذن الله تعالى بأمر آخر يريده .

هجرات الناس كلها منذ أن بدأت ليست أكثر من ترحال سكان إلى مكان آخر طلبا للعيش والهناء والأمن والاستقرار وكل متطلبات الحياة واستمراريتها ، وتتفاوت هذه الهجرات من عصر إلى عصر ومن قوم إلى قوم ومن أرض إلى أرض ، فكم من أقوام هاجروا في جيل واحد أكثر من هجرة ، وكم من أماكن تغيرت معالمها وأشكالها ، وبنيت وعمرت ، وأخرى هجرت وخربت ، وكل هذا لم يوقف هذه الهجرة ، ولم يوقف تنقل الإنسان إطلاقا .

وإرادة الله تعالى أن الحركة مستمرة والدبيب متواصل،فهذان أمران قائمان دائمان، يهيئ لهما الأسباب ويرغب لهما النفوس ، فيتحرك الناس جاهدين حتى يحققوا هذه الإرادة ، ويعمروا هذه الدنيا ، كل هذه الهجرات الدائمة والمستمرة لم تغير إلا ديمغرافية الحياة السكانية فقط؛ أي أنها بدلت شيئا من الأعمار ، وشيئا من الطباع ، وشيئا من السكان، وشيئا من المعاش ، ونسيت الأجيال كلها أنها كانت من سلالة مهاجرين جاؤوا إلى أرضهم يومًا على حساب الآخرين حينا ، ولو طوفنا بعقولنا نحو ما سمعناه في السابق ، وما نسمع اليوم لوجدنا العجب العجاب ، وما زالت حتى الساعة أقوام مهاجرة بعضها استقر به الحال ، وبعضها ما زالت تحمل عصا الترحال ، وبعضها يقاتل ويقاتل حتى يجد لقومه موقعا في هذه الدنيا .

كل هذه الهجرات كانت تأثيراتها محدودة جدا ، وبحدود جغرافية واجتماعية وديمغرافية ضيقة إلا هجرة محمد ﷺ إلى المدينة ، فقد كانت هي الهجرة الفريدة الوحيدة في تاريخ الإنسانية التي غيرت كثيرًا في مسار هذا التاريخ ، إن لم تقلبه رأسا على عقب ، كما غيرت كثيرا من تقديرات الباحثين ، كما غيرت كل ما كان سائدا في ذلك العصر ، والذي يليه والذي تلاه إلى يوم يبعثون .

محمد ﷺ في مكة يقع تحت الحصار والمطاردة ، والضغوط الكثيرة التي طالته بعد أن تمكنت من أصحابه وموقعه في مكة لم يعد له ذلك الوزن الكبير ، يضيق عليه الخناق قليلا قليلا حتى وصل الحد إلى الإحاطة ببيته لقتله والتخلص منه ، أصحابه فروا بدينهم إلى الحبشة، ومنهم من عاد منها وبعضهم وجه باتجاه يثرب طلبا للنجدة والحمية والأمان .

وقريش وصلت ذروة التفاهم بين ساداتها هذه المرة فلم يعد هناك معارض للخطط الجماعية ، وأغراهم الشيطان بأن قتل محمد ﷺ هو الأمر المطلوب حتى تدفن هذه الدعوة في مهدها مع صاحبها ، وأصحابها الآخرون لا يمكن لهم أن يتابعوا المسيرة التي بدأها محمد فدعوته لم تكتمل بعد ، وتبقى في ذاكرة أصحابه جيلا أو جيلين ، وينتهي بذلك محمد ودعوة محمد وأصحاب محمد .

هذه حال محمد ﷺ في مكة هذا أمر ، لكن ما كان يجرى في يثرب أمر آخر فقط أن يتمكن محمد من الوصول إلى هناك ، إلى يثرب ، إلى حيث النصرة والرجال والمقاتلين ولكن كيف يخرج والحصار يضيق ، ويضيق إلى درجة لم يعد لمحمد من مخرج من بيته هل هذا الحال سيغير التاريخ ؟ هل هذا الحال قادر على أن يفعل شيئا؟ هذا هو السؤال الذي يطرح بشدة عند دراسة تفصيلات هذا الواقع

المراقبون للأحداث وقتها ، والذين يهمهم ما يجرى في هاتين المدينتين على الأقل قد حكموا أن أمر محمد قد انتهي ، ولم يبق إلا أن يطبق المقاتلون عليه بضربة واحدة من أربعين سيفًا في أيدي أربعين فارسًا، توزع دمه على القبائل، ولا يبقى لبني هاشم

أي أمل في نيل ثأرهم فليس بمقدورهم أن يجابهوا هذا التحالف القومي الذي وصل في ذلك الوقت إلى أقصاه، والذي كان من ترتيب الشيطان الذي خرج على المتآمرين بهيئة شيخ نجدى مجرب محنك وأعطاهم الدليل لسلوك ذاك السبيل .

هذا إذا كان مراقبو الأحداث في ذلك الزمان يتابعون سلسلة هذا الحديث الجلل ، وأما القوى الكبيرة الفاعلة في الأرض في ذلك الوقت ، فلم تعلم بعد أن هناك شخصًا اسمه محمد قد أرسل نبيًّا إلى العالم كافة ، أو رسالة تسمى الإسلام خاتمة رسالات السماء ، ولم يصل إلى مسامعها بعد هذا الحديث الكبير ، ولذلك لم تكن تمر هذه المنطقة أيا من اهتماماتها ، وإن أعارتها لصدفة ما بين مسؤول كبير في الشمال أو الجنوب أو الشمال الشرقي من الحجاز ، فإنه مجرد تغيير حديث تعود عليه الذين يستقبلون أبناء الحجاز والبادية؛ ليعرفوا مجريات الأحداث عندهم لو قدر لهذا الحدث أن يعاد أو يتكرر من قريب أو بعيد ، فإن أحدًا من الناس لن يصدق إطلاقا أن يخرج محمد من الحصار ، ويهاجر إلى المدينة ، ويقيم دولة الإسلام ، ويضرب بالقلة المؤمنة قوى الظلم والبغي في فارس والروم ، وينشر الإسلام بين الناس ويسود الإسلام أربعة عشر قرنا أرضا وحكومة وأتباعا ومسار حياة .

لا يمكن لأحد أن يصدق توالى هذه الأحداث ، ولكنها معجزة الإسلام الكبرى التي كانت في هجرة من الهجرات ، وبمسافة قصيرة جدًا من المسافات الطويلة التي قطعها الناس مهاجرين ، ورجل له صحبة رجل آخر يغير كل ما يمكن أن يخطر على البال ، هذه هي المعجزة الكبرى التي حققتها هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة بنوره .

هجرة الرسول ﷺ كانت النقلة الأولى والخطوة الجبارة في مسار التاريخ ؛ ليخضع بعدها لإرادة الإسلام والمسلمين ، ويسكن هادئا هذه المرة فقد أعيد نشر العدل والسلام في الأرض ، وتحقق الدين القيم على حساب الظلم والطواغيث والجور والقهر ، ولتبادل المواقع فيسود العدل والإيمان والصدق ، وتغيب ولفترات طويلة ظلامة الإنسان للإنسان وجبروته وحكم الشيطان وأعوانه .

هجرة الرسول ﷺ لم تكن كأي هجرة من الهجرات الدائمة على مسار التاريخ فإنها الوحيدة التي غيرت التاريخ ، وبدأت بتسجيل أحداثه، وطوينا في هذه اللحظات الصفحة التاسعة بعد الأربعمائة والألف من تاريخ هذا الدين ، وهذه الهجرة التي لم يكن يعلم بها إلا قلة من الناس تحاول كبتها وإنهاءها من أهل مكة ، وينتظر إتمامها وكمالها أهل المدينة ، والمتحرك المهاجر بين هاتين المدينتين محمد ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه .

(١) مراحل الهجرة

لقد مرت هجرة الرسول الكريم ﷺ إلى يثرب بمراحل عدة ، كانت كل واحدة ضرورية لبدء الأخرى ، وهذه المراحل قد تمت بالفعل في وقتها المحدد ، وحصلت على نتائجها المحددة ، فقد كانت بيعة العقبة الأولى اللبنة الأولى التي رسمت في خارطة هذه الرحلة،وبذلك فقد سبق الإسلام الرسول إلى المدينة بعامين،كانت هذه البيعة خطوة هامة لا بد من إتمامها ورصد نتائجها،فقد تمت بوقتها. وبحدودها ، وبأبعادها ، وكانت نتائجها من الخطورة بمكان ، لقد مر علينا شرح تفصيلاتها ونتائجها التي أدت إلى الخطوة التالية ، وهي بيعة العقبة الثانية ، والتي كانت أخطر من سابقتها ، وأبعد أثرًا ، وأعطت من النتائج أيضا ما كان له الأثر الكبير للتحرك في الخطوة الثالثة ، والتي كانت هجرة المسلمين إلى المدينة ، وتشكيل القوة الكافية القادرة على الردع والحماية والقتال ن وهذه المرة فقد أذن للرسول به ـ كما سبق القول أيضا ـ هذه الخطوات الثلاث ، قد أمنت الملجأ ، وأمنت الحماية ، وأمنت المكان وأمنت الرجال ، وثبتت العقيدة ، وشدت الناس إلى هذا الحدث الكبير الذي سيقع في المراحل التالية ، والتي كانت قد أعدت لمتابعة الخطوات السابقة .

أما هجرة الرسول ﷺ فقد كانت قوة الدفع الكبرى التي كانت البدايات والنتائج تحسب لها ، البدايات التي سبقتها وهيأت الأجواء لحصولها ، والنتائج التي خلفتها ، وغيرت من مجريات الأحداث بعدها

أم هجرته ﷺ ، وهي القضية وهي الحدث فقد مرت هي الأخرى بمراحل خطيرة ، لو حدث خلل بواحدة فيها لما تمت الهجرة ، ولكان مجرى التاريخ منذ ذلك الوقت قد نحا منحى آخر ، والهجرة في تاريخ العالم شعاع خير وبركة أزالت عنه كابوس الظلم والظلام وأحلت محله الخير والبركة والتقدم والعدل والسلام .

والهجرة في تاريخ الإسلام نقطة التحول الخطيرة في حياة العرب والإسلام ، فقد انتقلت جماعة المسلمين من مغبة المطاردة والملاحقة والقتل والقهر إلى طريق الخلاص والجهاد والانتظار،والهجرة في تاريخ الإسلام أيضا بداية له ومنطلق لمبادئه وأهدافه،من عالم تحكمه الأهواء والمشاحنات إلى عالم متطور واع ، متقدم ، موحد .

وهذه الهجرة النبوية الكريمة بمراحلها المختلفة هي العطاء الكبير الذي حف الله تعالى به نبيه ﷺ وأخرجه إلى العالم ينشر دعوته ويبلغ رسالته .

وأقام الرسول ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة(١) ولم يتخلف معه بمكة أحد المهاجرين إلا أخذ فحبس، أو فتن إلا على بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة ، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له الرسول :«لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا» ، فطمع أبو بكر أن يكون هو(٢)

قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء] أرشده الله وألهمه أن يدعو بهذا الدعاء ، أن يجعل له مما هو فيه فرجًا قريبًا ، ومخرجًا عاجلًا ، فأذن له تعالى في الهجرة إلى المدينة حيث الأنصار والأحباب ، فصارت له دارًا وقرارًا وأهلها له أنصارًا

قال أحمد بن حنبل ، وعثمان بن أبي شيبة عن جرير عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس : كان رسول الله ﷺ بمكة ، فأمر بالهجرة وأنزل عليه ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي ﴾[الإسراء:٨٠] إلى آخر الآية وقال قتادة:﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء:٨٠] المدينة ، ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء:٨٠] الهجرة من مكة: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾[الإسراء] كتاب الله وفرائضه وحدوده .

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢١٥

(٢) الطبري : تاريخ ٢ / ٣٦٩ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٢٦

١ ـ فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة ، وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم منعة فحذروا خروج رسول الله ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة ، وهي دار قصى بن كلاب التي كانت قريش لا تقضى أمرًا إلا فيها يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله حين فاتوه[1]

قال الحلبي : دار الندوة من جهة الحجر عند مقام الحنفي الآن ـ زمن المؤلف ـ وكان لها باب إلى المسجد أعدت للاجتماع للمشورة ، وكانت قرشي لا تقضي أمرًا إلا فيها ، وكانوا لا يدخلون فيها غير قريش إلا إن بلغ أربعين سنة بخلاف القرشي، وقد أدخلوا أبا جهل ولم تكتمل لحيته .

وكان اجتماعهم يوم السبت يوم مكر وخديعة . وكان اجتماعهم هذا ليتشاوروا فيما يصنعونه في أمره ﷺ . وكان المجتمعون مائة رجل ، وقيل: خمسة عشر ، وكان يسمى ذلك اليوم يوم الزحمة ؛ لأنه اجتمع فيه أشراف بني عبد شمس وبني نوفل ، وبني عبد الدار ، وبني أسد ، وبني مخزوم ، وبني جمح وبني الحارث ، وبني كعب ، وبني تيم، وبني عدي وغيرهم، ولم يتخلف من أهل الرأي والحجا عليهم أحدا[2]

وأجمعت كتب السيرة والتاريخ والمغازي أن هذا الاجتماع كان من أخطر الاجتماعات التي حضرتها كل بطون قريش ، لتضع حدًّا نهائيا لمشكلتها مع رسول الله ﷺ، وقلَّب القوم وجوه الرأي ، وتوسعت المصادر بذكر الآراء المتداولة إلى أن دخل عليهم إبليس بزي رجل نجدي، واقترح عليهم أن يخرجوا من كل قبيلة رجلًا شديدًا مشهورًا بالقوة والبأس والطعان ويجتمع هؤلاء ينهالون على محمد بسيوفهم في وقت واحد فيقتلونه ، ويتوزع دمه بين بطون قريش وقبائلها فلا يتمكن بنو هاشم من حرب هذا الحلف الذي ضمهم جميعا فيقبلون بالدية .

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٢٧

(٢) السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٠٣ ، ٣٠٤

وراق الرأي للمتآمرين ، وكانت مشورة إبليس حتى يحبط كل عمل من أعمال هذه الدعوة ، وبمقتل محمد تنتهي دعوة الإسلام التي مضى على وجودها ثلاث عشرة سنة لاقى القرشيون خلالها الكثير من تسفيه الرأي ، وكشف الزيغ وضلال المعتقد وتفاهة أصنامهم وتحقيرا الآلهة التي كانوا يعبدونها لألهتهم ، وفوق هذا تهديد مركزهم الدينى الكبير بين القبائل ، وعقد الحلف على هذا الرأي ، واختار القوم من رجالهم الأشداء للقيام بهذه المهمة الصعبة ومحاصرة بيت الرسول والقضاء عليه .

وكان في القوم الحكم بن أبي العاص ، وعقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث ، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود ، وأبو الهيثم ، وأبو جهل(١)

٢ـ وجاء جبريل إلى الرسول ﷺ وأخبره بخبر القوم ، وطلب منه ألا يبيت ليلته تلك في بيته ، فلما كان عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيقعون عليه ، فلما رأي الرسول مكانهم ، قال لعلي بن أبي طالب نم في فراشي وتسجى ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم ، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام .

وهذه القصة التي ذكرها ابن إسحاق رواها الواقدي ، بأسانيده، عن عائشة وابن عباس، وعلى، وسراقة بن مالك بن جعشم، وغيرهم .

دخل حديث بعضهم في بعض فذكر نحو ما تقدم .

قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي ، قال : لما اجتمعوا له ومنهم أبو جهل ، قال وهم على بابه إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلت لكم النار تحرقون فيها

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٠٣، ٣٠٤

قال فخرج رسول الله ﷺ ، وأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال :« نعم أنا أقول ذلك ، وأنت أحدهم»

وأخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو هذه الآيات ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس] ولم يبق رجل إلا وضع على رأسه ترابًا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم ، فقال ما تنظرون ههنا ؟ قالوا : محمدًا ، فقال : خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك رجلا منكم إلا وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته ؛ أفما ترون ما بكم ؟

قال فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله ، فيقولون والله إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده ، فلم يبرحوا ذلك حتى أصبحوا ، فقام علي عن الفراش ، فقالوا : والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا .

قال ابن إسحاق : فكان مما أنزل الله في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال] وقوله ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الطور].

قال ابن إسحاق : فأذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة [1]

---

(١)السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٣١ ، الطبري : تاريخ ٢ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

٣ ـ خرج رسول الله من الحصار سالـمًا متحديًا محاصريه ، تاركًا على رؤوسهم علامة ، ومروره من أمامهم ، وهذا منتهي التحدى ، لم يخرج من باب خلفي ، أو يتآمر مع بعض المحاصرين؛ ليفتحوا له ثغرة يخرج منها ، لكنه خرج يحمل إيمانه الكبير مستعينا عليهم بالله تعالى الذي أرسله فهو يحميه ، وهو الذي يمنعه من أعدائه ، فجعل بين أيديهم سدًا فلم يروه ، ومن خلفهم سدا فلم يشعروا به أو يلحقوه ، خرج ﷺ من هذا الحصار وعلى ينام مطمئنا دون أن يساوره الشك أو الخوف وأربعون سيفا بأيدى المحاصرين مشحوذة لتهوى عليه في كل لحظة ، نام عليٌّ قرير العين ، فقد وعده الرسول بأنهم لن ينالوا منه ولن يصلوا إليه ، لم يخف ولم يشك لحظة واحدة ، أنه خارج من بين أيديهم ، إنه ناج منهم بإذن الله .

خرج الرسول ﷺ إلى مقصده وأذن الله له بالهجرة ، فلم يعد في مكة من أمل لافي أهلها ولا فيمن بقى فيها ، ولم يبق أمامه إلا الطريق إلى المدينة ، فالطريق مفتوح والأنصار ينتظرون هناك؛ ليصل إليهم ليوفوا له ما وعدوه وما عاهدوه عليه[1]

٤ ـ أجمعت كتب السيرة والتاريخ بما فيهم الطبرى في تاريخه على أن الرسول ﷺ ما حبس أبا بكر في مكة إلا ليؤمله بصحبته في الطريق ، وأعد أبو بكر راحلتين وعلفهما لهذا اليوم ، وقد ذكر الجميع أن الرسول ﷺ قد أتى إلى بيت أبي بكر برواية عائشة ، قالت: حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه الله لرسوله بالهجرة ، والخروج من مكة من بين ظهرانى قومه ، أتانا رسول الله بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها .

قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله في هذه الساعة إلا لأمر حدث ، قالت : فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ وليس عند رسول

(١) لقد اعتبرت هجرة الرسول أول التاريخ الإسلامي ، كما اتفق عليه الصحابة في خلافة عمر ، قال البخاري : حدثنا مطر بن الفضل ، حدثنا روح ، حدثنا هشام ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس ، قال بعث النبي ﷺ لأربعين سنة فمكث فيها (أي مكة) ثلاث عشرة سنة يوحي إليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وقد كانت هجرته سنة ثلاث عشرة من بعثته ﷺ وذلك يوم الاثنين ، كما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : ولد نبيكم يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ونبئ يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين وتوفى يوم الاثنين ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٣٢

الله[1] أحد إلا أنا وأختي أسماء ، فقال رسول الله :« أخرج عني من عندك ؟» قال : يا رسول الله ، إنما هما ابنتاي وما ذاك فداك أبي وأمي ، قال إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة .

فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ؟ قال : الصحبة .

قالت فو الله ما شعرت قط قبل اليوم أحدًا يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي ، ثم قال : يا نبي الله ، إن هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا .

قال ابن إسحاق : ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله أحد حين خرج إلا علي ابن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر .

أما علي ، فإن رسول الله أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس وكان رسول الله وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته[2]

وذكر الطبري أن بعضهم قد زعم أن أبا بكر أتى عليا فسأله عن النبي ﷺ فأخبره أنه لحق بالغار من ثور، وقال : إن كان لك فيه حاجة فالحقه ، فخرج أبو بكر مسرعا فلحق بنبي الله في الطريق ، فسمع رسول الله جرش أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين ، فأسرع رسول الله المشي ، فانقطع قبال نعله ، ففلق إبهامه حجرة فكثر دمها ، وأسرع السعي ، فخاف أبو بكر أن يشق على رسول الله ﷺ فرفع صوته وتكلم ، فعرفه رسول الله فقام حتى أتاه فانطلقا ، ورجل رسول الله تستن دما حتى انتهى إلى الغار مع الصبح فدخلاه ، وأصبح الرهط الذين كانوا يرصدون رسول الله فدخلوا الدار ، وقام علي من فراشه، فلما دنوا منه عرفوه ، فقالوا له: أين صاحبك ؟ قال لا أدري أو رقيبا كنت عليه ؟ أمرتموه بالخروج

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام وليس عند أبي بكر ٢/ ١٢٩

(٢) الطبري: تاريخ ٢ / ٣٧٤ – ٣٧٦ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٣٣ – ٢٣٥ ،السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ ، السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٠٦ ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٣٦

فخرج ، فانتهروه وضربوه ، وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه ، ونجى الله رسوله من مكرهم .

٥ ـ وبدأت رحلة الهجرة المباركة بدأت رحلة الفتح العظيم التي غيرت كل مجريات الأحداث والأزمان ، فقد استأجر الرسول ﷺ وأبو بكر عبد الله بن أرقط .

قال ابن هشام : ويقال: عبد الله بن أريقط رجل من بني الديل بن بكر ، وكانت أمه من بني سهم بن عمرو ، وكان مشركا ، يدلها الطريق ، ودفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما

قال ابن إسحاق فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة ، فخرجا من خوفة لأبي بكر في ظهر بيته .

وقد روى أبو نعيم من طريق إبراهيم بن سعد، عن محمد بن إسحاق قال بلغني: أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة مهاجرًا يريد المدينة ، قال :« الحمد لله الذي خلقنى ، ولم أك شيئا ، اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الأيام والليالى ، اللهم اصحبني في سفري ، واخلفني في أهلى وبارك في رزقي ، ولك فذللني، وعلى صالح خلقي فقومني، وإليك رب فحببني ، وإلى الناس فلا تكلني ، رب المستضعفين وأنت ربي ، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين ، أن تحلَّ عليَّ غضبك ، أو تنزل بي سخطك ، أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نقمتك ، وتحول عافيتك ، وجميع سخطك لك العتبى عندى خير ما استطعت ولا حول ولا قوة إلا بك»[١]

واحتاط أبو بكر للأمر فأمر ابنه عبد الله أن يأتيهما مساءً بخبر القوم إلى غار ثور، وعامر بن فهيرة راعي غنمه أن يريح أغنامه بالقرب منهم ، وابنته أسماء تحضر لهما الزاد ، ومكثا في غار ثور حتى ظل الذين لحقوا الرجلين يبحثان عنهما في كل فج

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٣٤ ، ٢٣٥

ووادٍ ، وجبل وسهل ، حتى أعيتهم الحيل ، وصورت كتب السير والتاريخ أخبار نسج العنكبوت على باب الغار وباض الحمام على مدخله مما أبعد من ذهن المطاردين أن يكونا في هذا المكان ، وتحول القرشيون إلى وضع الجوائز المغرية لمن يحضر محمدًا حيًا أو ميتًا، جوائز يسيل لها لعاب الأغنياء قبل الفقراء وهي لا يحلم بها أي إنسان أن يقفز فجأة إن حصل على هذه الجائزة إلى مصاف كبار الأغنياء .

لقد فقد المحاصرون رشدهم عندما خرج الرسول من أيديهم ، فصبوا نقمتهم على عليٍّ، ولما لم يفلح أمرهم لحقوا الرسول إلى بيت أبي بكر ، فلما لم يجدوه لطم أبو جهل خد أسماء بنت أبي بكر على وجهها ، فأطار قرطها من أذنها ، واقتفي الرجال أثر الرسول ﷺ وصاحبه فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل ، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا أحد لم يكن نسيج العنكبوت على بابه ، فمكثا فيه ثلاث ليال .

وهذا إسناد حسن،وهو من أجود ما روى في قصة نسيج العنكبوت على فم الغار وذلك من حماية رسول الله ﷺ [(١)]

فمكثا في الغار ثلاث ليال حتى خمدت عنهما نار الطلب ، فجاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين ، فارتحلا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة ، وسار الدليل أمامهما، وعين الله تكلؤهما ، وتأييده يصحبهما وإسعاده يرجلهما وينزلهما[(٢)]

وكان من قوله ﷺ حين خرج من مكة ، لما وقف على الحزورة ، ونظر إلى البيت، قال: «والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أهلك أخرجوني ما خرجت منك»(رواه الإمام أحمد والترمذى) .

وفي رواية له: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :« ما أطيبك من بلد ، وأحبك إلى ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك» .

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٣٩ ، الطبري : تاريخ ٢ / ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٠٨، ٣٠٩ ، إمتاع الاسماع : المقريزي ١ / ٣٨ ، ٣٩

(٢) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٥٤ ، وفاء الوفا ١ / ٢٤١

٦ـ خرج الرسول وصاحبه ومن معهما من غار ثور بعد أن مكثا به ثلاث ليال، ومع أن الطلب لم ينقطع خلال هذه الفترة ، والدلائل تشير إلى أن غار ثور ، هو المقصد إلا أن إرادة الله تعالى حمتهما ، وحالت بينهما وبين قريش ، وروى أن أبا جهل ـ لعنه الله ـ لقيهما ، فأعمى الله بصره عنهما حتى مضيا ، ولما فقدت قريش رسول الله طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة (وهو الذي يقتفي الأثر) في كل وجه ، وفي رواية قال لهم القائف : هذا القدم قدم ابن أبي قحافة ، وهذا الآخر لا أعرفه إلا أنه يشبه القدم الذي في المقام (يعنى قدم إبراهيم ﷺ) فقالت قريش : ما وراء هذا شيء .

وشق على قريش خروجه ، وجزعوا لذلك ، وجعلوا مائة ناقة لمن رده عن سيره ذلك بقتل أوأسر[1]، قال تعالى في هذه الهجرة : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] .

٧ ـ غليان في مكة وحسرة وندم وعتاب وكلام كثير، فقد تمكن محمد من الخروج من مكة ، ولم تتمكن قريش أن تنال منه شيئا ، والقوم يلوم بعضهم بعضًا على ما فرطوا في خروج محمد من عندهم وكادوا أن يصلوا إلى نقطة النهاية بالنسبة للعلاقة المتشددة بينهم وبين هذه الدعوة ؛ ولذلك فقد أصبح أمرهم في طيش ورعونة، وردود فعل قاسية ، وأول شيء عملوه هو أنهم أخذوا بالشدة وبالأسر وبالسجن على من أسلم ولم يهاجر ، إلى درجة أنهم اتخذوا بيوتهم الخاصة والعامة معتقلات وأماكن تعذيب للمسلمين .

وفي الجانب الآخر في الشمال كانت يثرب تغلى ، المؤمنون ينتظرون وصول

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٠٧، ٣٠٨

الرسول ﷺ على أحر من الجمر ، يتشوقون لرؤيته من رآه ومن لم يره بعد ، وكلهم قد أعدوا أنفسهم لكل ما يطلب منهم من تضحيات مادية أو جسدية أو معنوية ، الكل من أهل يثرب مؤمنهم وكافرهم وحتى يهودهم، والمهاجرون أيضًا يستعدون استعدادات غير عادية لهذا اللقاء المرتقب ، أهل يثرب جميعا ينتظرون فقد تناهت الأخبار إليهم أن محمدًا قد غادر مكة متوجها إليهم ، وفي الطريق محمد وصاحبه ومرافقوهما ، وأيضا الحالمون بالثروة والغنى يتبعون خطوات محمد حتى يصبحوا أغنياء ويملكون النوق (الجائزة) لمن يأتي بمحمد حيًا أو ميتًا ، ومن هؤلاء خرج رجل قادر على أن ينال من محمد بقوته وعزيمته ، وجبروته وفروسيته إذًا ، فليكن هو صاحب الجائزة ، إنه سراقة بن مالك .

روى محمد بن إسحاق، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم، عن أبي عن عمه سراقة: أنه ـ أي سراقة ـ استقسم بالأزلام ، أول ما خرج من منزله ـ قاصدا قتل أو أسر محمد ، والفوز بالجائزة فخرج السهم الذي يكره ، لا يضره ، وذكر أنه عثر به فرسه أربع مرات، وكل ذلك يستقسم بالأزلام ويخرج الذي يكره : لا يضره حتى ناداهم ـ أي الرسول وأصحابه ـ بالأمان وسأل الرسول ﷺ أن يكتب له كتابا يكون أمارة ما بينه وبين رسول الله ﷺ .

قال فكتب لى كتابا يكون أمارة ما بينه وبين رسول الله في عظم ، أو رقعة ، أو حزمة ، وذكر سراقة : أنه جاء به إلى الرسول ﷺ وهو بالجعرانة مرجعه من الطائف فقال له الرسول :«اليوم يوم وفاء وبر أجنه». يقول سراقه ادنه: فدنوت منه ، فأسلمت، ولما رجع سراقة بعد أن أخذ الكتاب من الرسول والعهد، عاد إلى قومه ، جعل لا يلقى أحدًا من الطلب إلا رده وقال : كفيتم هذا الوجه[1]

هذه الأولى في طريق الهجرة ، والثانية : أن الرسول وأصحابه قد مروا بقديد على أم معبد (عاتكة بنت خالد الخزاعية) ، وكانت تحت ابن عمتها ويقال له : تميم بن عبد العزي بن منقذ بن ربيعة الخزاعي وكان منزلها بقديد .

أخبرنا محمد بن عمر عن حزام بن هشام عن أبيه عن أم معبد، قالت: طلع علينا أربعة على راحلتين فنزلوا بي ، فجئت إلى رسول الله ﷺ بشاة أريد أن أذبحها فإذا هي ذات در فأدنيتها منه ، فلمس ضرعها ، فقال : لا تذبحيها ، فأرسلتها . قالت : وجئت بأخرى فذبحتها فطحنت لهم فأكل هو وأصحابه، قلت : ومن معه؟ قالت : ابن أبي قحافة ومولى ابن أبي قحافة ، وابن أريقط وهو على شركه ، قالت : فتغدى رسول الله منها وأصحابه ، وسفرتهم منها ما وسعت سفرتهم ، وبقى عندنا لحمها ، أو أكثره فبقيت الشاة التي لمس رسول الله ضرعها عندنا ، حتى كان زمان الرمادة ، زمن عمر بن الخطاب ، وهي سنة ثماني عشرة للهجرة ، قالت: وكنا نحلبها صبوحا وغبوقا ، وما في الأرض قليل أو كثير ، وكانت أم معبد يومئذ مسلمة .

قال محمد بن عمر ، وقال غيره: بل قدمت بعد ذلك وأسلمت وبايعت[1]

وما زالت قريش تطلب النبي ﷺ حتى بلغوا أم معبد فسألوها عنه ﷺ ووصفوه لها فقالت ما أدري ما تقولون ؟ قد صادفني حالب الحائل فقالوا: ذاك الذي نريده ، ثم أسلمت وهاجرت ، قال السيد السمهودى في الوفاء هاجرت هي وزوجها وأسلما ، وفي خلاصة الوفا: فخرج أبو سعيد في أثرهم ؛ ليسلم فيقال: إنه أدركهم ببطن ريم فبايعه وانصرف .

أما الثالثة في طريق الهجرة : أخرج البيهقى عن بريدة بن الحصيب ﷺ قال : لما جعلت قريش مائة ناقة لمن يرد النبي ﷺ حملنى الطمع ، فركبت في سبعين من بني سهم فلقيته ﷺ فقال :«من أنت؟» قلت ، بريدة ، فالتفت رسول الله إلى أبي بكر وقال :« برد أمرنا وصلح»، قال : سلمنا ، ثم قال« ممن ..؟» قلت : من بني سهم .

---

(١)الطبقات : ابن سعد ٢ / ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، أكثر كتب السيرة تقول : إن الشاة التى لمس الرسول ضرعها كانت هزيلة ، مريضة ، غير حلوب ، ولا يأتيها الفحل ، فأخذها الرسول وحلب منها ، وشرب وسقى القوم وأم معبد وأبقى عندهم . والشاة الثانية استسلفتها أم معبد من جيرانها وذبحتها لهم زيادة فى إكرامهم والترحيب بهم ، السيرة النبوية دحلان ١ / ٣١٥ ، وفاء الوفا السمهودى ١/ ٢٤٠

قال :«خرج سهمك يا أبا بكر»، فقال بريدة للنبي من أنت .. ؟ قال : «أنا محمد بن عبد الله ورسول الله »، فقال بريدة أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فأسلم بريدة ، وأسلم من كان معه جميعا .

قال بريدة : الحمد لله الذي أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين ، فلما أصبح ، قال بريدة يا رسول الله ، لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحل عمامته ثم شدها في رمح ، ثم مشى بين يدي رسول الله حتى دخلوا المدينة .

(٢) دخول الرسول ﷺ إلى المدينة

كانت الهجرة انتصارات تتلوها انتصارات من إسلام أم معبد،إلى تراجع سراقة، إلى إسلام بني سهم وهو مطارد ، يدعو الله تعالى وهو الداعية العابر وفي كل مراحل حياته ، فكانت مطاردته ومطاردوه خيرًا وبركة ، فقد دخل كل هذا الرهط في الإسلام ، ويدخلون جميعًا في عهد الرسول وبيعته .

أهل يثرب في انشغال كبير فقد خرج الرسول ﷺ من مكة مهاجرًا منذ أيام، والمدة التي انقضت كافية للوصول إلى المدينة ، فأخذ الناس يستعدون لاستقبال هذا القادم الكريم بعفوية تامة ، ليس في أذهانهم إلا أن نبيًا هاديًا جاء؛ ليخلصهم من الظلمات إلى النور ، فلم يدر في خلدهم أن بعضًا منهم سيدفن في عاصمة الروم ، أو يهدم حواضر الفرس ويزيل قلاع الطواغيت ويهدم معاقل الظلام ، تمامًا عندما تحدثت الأخبار عندما وعد الرسول ﷺ سراقة بن مالك وعدًا لا يمكن أن يطبق ، ولا يصدقه عاقل في ذلك الوقت، وعده أن يعطيه سواري كسرى، فقال سراقه باستغراب شديد : كسرى هرمز ؟ قال رسول الله ﷺ :«نعم» وطوى سراقة الخبر في نفسه ، ومرت الأيام وذهب إلى الرسول إلى الجعرانة ليريه عهده فوفاه الرسول ﷺ ذلك العهد ، لكن الوعد أن يلبس سواري كسرى ، فقد حصل ذلك في خلافة عمر ﷺ عندما ورد السواران المدينة في جملة غنائم فارس فأعطاهما عمر لسراقة ، وقال له : هذا ما وعدك به رسول الله، وأخذ سراقة يمشي في طرقات المدينة رافعًا يديه ، ويقول: صدق رسول الله ، صدق رسول الله[١] الله أكبر الحمد لله الله أكبر الحمد لله، الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن مالك أعرابيا من بني مدلج ، فهل يصدق أن أبا أيوب الأنصاري الذي ما عرف أكثر من حدود يثرب أن يقطع الدنيا غازيًا في سبيل الله ويشارك في حصار القسطنطينية ويدفن عند أسوارها .

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ١/ ٣١٩

هؤلاء الذين ينتظرون محمدًا ﷺ في المدينة عند هجرته من مكة ، أحبوه ﷺ وانتظروا قدومه ، ولم يدر في خلدهم أكثر من هذا ، فليس في مخططاتهم أكثر من حماية هذا الذي لم تقبل به بلده (مكة) نبيًا هاديًا ، فلجأ إلى المدينة يحتمي بأهلها ، ويستنصر بهم لإبلاغ رسالة ربه إلى الناس .

يخرج الناس مبكرين مصبحين ينظرون الأفق البعيد باتجاه مكة علَّهم يرون القادم المنتظر الذي شغل عليهم كل تفكيرهم ، في الوقت الذي خرج أهل مكة ، وقد شغل عليهم تفكيرهم أيضا يطاردونه ويرصدون الجوائز لأسره حيًّا أو ميتًا

هذا حال القريتين ومحمد بينهما خلف وراءه بلده قادمًا إلى المدينة ، وهذه هي نفوس القوم حالة الترقب التي يعيشها اليثربيون ، وحالة الحقد والضغينة التي يعيشها المكيون في يوم كان بداية التاريخ ودنيا الإنسانية العادلة ، بداية التاريخ للمسلمين[1] ، بداية لانقشاع الظلام وانتشار النور ، بداية تاريخ الإنسان المتعلق بالله، الذي وعي دين الله وهداه ،وترك خلفه ما توارثه الناس من ضلالات الآباء والأجداد، وما حرفه الإنسان وما زوره؛ ليستخدمه لصالحه ولصالح مطامعه وأطماعه .

هذا هو محمد الأمين ﷺ ، خلف عليًا على ودائع الناس ليردها ، وهم الذين يريدون قتله ، يعد بسواري كسرى ، وهو لا يستطيع أن يضبط أي شيء حوله ، آخرون يأتونه مطاردين فيؤمنون ويبايعون ، وصاحب وصاحبة شاة جرباء تحلب لبنًا تشبع المهاجر وأصحابه وأهل دار صاحبها ، فينطلق هؤلاء خلف النبي ﷺ ليعلنوا إسلامهم وأهل يثرب يتسلقون المبانى والآطام والأشجار ، ويصعدون كل مكان مرتفع علهم يكونون أول من تكتحل عيونهم برؤياه .

وبلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة وقصده المدينة ، وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار ، فإذا اشتد حر الشمس رجعوا على عادتهم إلى

---

(١) الطبري : تاريخ ٢ / ٣٨٨ حيث أفرد فصلا عن الوقت الذى عمل فيه التاريخ

منازلهم ، فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة خرجوا على عادتهم، فلما حمى حر الشمس رجعوا ، وصعد رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه فرأي رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فصرخ بأعلى صوته ، يا بني قيلة هذا صاحبكم قد جاء ، هذا جدكم الذي تنتظرونه فبادر الأنصار إلى السلاح ؛ ليلتقوا برسول الله ﷺ ، وسمعت الرَّجة والتكبير في بني عمرو بن عوف ، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه ، وخرجوا للقائه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة مطيفين حوله ، والسكينة تغشاه ، والوحى ينزل عليه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم] .

فسار حتى نزل بقباء في بني عمرو بن عوف ، فنزل على كلثوم بن الهدم ، وقيل: بل على سعد بن خيثمة ، والأول أثبت ، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة ، وأسس مسجد قباء وهو أول مسجد أسس بعد النبوة[(١)]

وفي رواية: لما دنوا من المدينة بعثوا رجلًا من أهل البادية إلى أبي أمامة أسعد بن زرارة وأصحابه من الأنصار . ولا مانع من الأمرين ، فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، وهو مع أبي بكر ﷺ في ظل نخلة كانت هناك ، ثم قالوا لهما : ادخلا آمنين مطمئنين .

وفي رواية: فاستقبله ﷺ زهاء خمسمائة من الأنصار فقالوا : ركب آمنون مطاعون فعدلا ذات اليمين حتى نزلا بقباء في دار عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، وكان نزوله ﷺ عند كلثوم بن الهدم؛ لأنه شيخ بني عمرو بن عوف وهم بطن من الأوس ، وكان كلثوم يومئذ مشركًا ثم أسلم ﷺ وتوفي قبل غزوة بدر بيسير ، وقيل أسلم قبل وصوله ﷺ المدينة، وعند وصوله نادى كلثوم يا نجبح لغلام له، فقال رسول الله ﷺ :لأبي بكر ﷺ :« نجحت يا أبا بكر» .

---

(١) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٥٨ ، وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٤٤

وكان يجلس للناس ويتحدث مع أصحابه في بيت سعد بن خيثمة ؛ لأنه كان عزبًا لا أهل له هناك ، وكان منزله يسمى منزل العزاب ، وبهذا يجمع بين قول من قال : نزل على كلثوم ، ومن قال: نزل على سعد بن خيثمة[(١)]

(١) السيرة النبوية : دحلان ٢ / ٣٢٢ ، الطبري : تاريخ ٢ / ٣٨٢ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٦٧، السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٣٨ ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٥٦ ، البداية والنهاية : ابن كثير ٣ / ١٩٦

(٢) بناء مسجد قباء وبناء المسجد النبوى وأثرهما في بناء الدولة الإسلامية

إن لقاء الرسول ﷺ بأصحابه من أهل المدينة ـ موضوع دراستنا ـ وأهل مكة من المهاجرين هو نقطة البداية لميلاد الهيكل السياسى للدولة الإسلامية ، لم يكن هذا الهيكل قد خطط له من قبل ، فإن بنيانه قد تكفل به الله تعالى بآيات منزلات على رسول الله ﷺ ، يرسم له الطريق ، ويحدد له معالمه ، وبذلك فقد كانت البداية هي وصول الرسول ﷺ إلى مأمنه في يثرب بين أنصاره وأصحابه .

ولكل تجمع سياسي مركز يشاد لتدار منه الدولة ، ويجتمع به رجالها ومركز الدولة الإسلامية المسجد ، كان الرسول يركز دعوته في مكة بالمسجد الحرام ، ويلتقى بأصحابه ـ أحيانا ـ وبالوفود القادمة إلى مكة فيه ، وكان يبث دعوته للناس فيه،ولكن المشركين الذين دنسوا أرجاءه وأركانه بأصنامهم وأزلامهم، ومعبوداتهم كانوا يحولون بين الرسول ﷺ ، وطهارة البيت الذي شيد أركانه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ،ولذلك فقد حصل التصادم الكبير بين أن يطهر هذا البيت، أو يبقى كما هو، وقد حوله أتباعه إلى مركز تدار منه وثنية جاهلية أوصلت القوم إلى هذا الدرك من التفكير والمعتقد ؛ ولذلك فقد كانت رغبة الرسول قبل هجرته إلى المدينة أن يطهر هذا البيت استجابة لأمر الله تعالى إلى نبيه إبراهيم : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج] .

ولما ضاق بأهل مكة الذين دنسوا البيت بأوثانهم وأصنامهم انطلق الرسول ﷺ

بإذن من ربه إلى المدينة ، وليس في المدينة ـ كما سبق القول ـ مسجد أو مكان عبادة للناس، وإنما يحجون إلى البيت الحرام، وليس في المدينة مركز تجمع يجتمع به الناس، ويتلاقون على عبادة معينة ، وليس فيها مقر يدير الناس شؤونهم منه ، بل كان الناس يلتقون في بيوت ساداتهم وفي آطامهم، فكان من أول أولويات الرسول ﷺ بعد وصوله إلى يثرب والتقائه بالأنصار والمهاجرين هو تشييد المسجد ، الذي ستنطلق منه الدعوة ، وتدار منه الدولة ، وتؤدى به النسك وتقام به الحدود ، فإن القوم مقدمون على أمور قد بينها الرسول ﷺ ووعيها أصحابه ، فإنهم قالوا عندما بايعوه في العقبة بأنهم سيحاربون الأبيض والأسود والأحمر ، فإن لقاء الرسول ﷺ بجنوده معناه بدء المسيرة الكبرى لتحقيق ما قاله الرسول ﷺ ، وليوصل هذا الدين إلى الناس كافة ، إن علم الرسول بمستقبل هذه الجماعة بوحي الله تعالى إليه قد جعله يبدأ خطواته الأولى ببناء المسجد،بناء مركز الدولة،بناء مركز الجماعة،وبناء مركز الدعوة، ومع أن الرسول أول ما وصل نزل بقباء ، ولم يدخل المدينة بعد ، وإنما أقام في هذه الضاحية عند عزب يجتمع لديه العزاب ، فإنه كان يجتمع بالناس في هذه الدار وقام فورًا بإنشاء مسجد قباء .

بناء مسجد قباء :

ذكر البخارى عن الزهرى ، عن عروة ، أنه نزل في بني عمرو بن عوف بقباء ، وأقام فيهم بضع عشرة ليلة ، وأسس مسجد قباء في تلك الأيام[(١)]

لقد كان مكوث الرسول ﷺ في قباء خمس عشرة ليلة ، وهي غير كافية للقيام بعمل شيء لكنه قام بها ببناء المسجد ، وهو أول مسجد أسس في الإسلام .

قال بعضهم ولبث ﷺ في بني عمرو بن عوف ، أي في قباء بقية يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وخرج يوم الجمعة ، وقد لبث بضع عشرة ليلة،وهو المنقول عن البخاري، وعن ابن عقبة: أقام ﷺ اثنتين وعشرين ليلة.

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٦٧

وفي الهدى: أقام أربعة عشر يوما ، وهو ما في صحيح مسلم فليتأمل .

وأسس في قباء المسجد الذي أسس على التقوى الذي أنزلت فيه الآية[١] ، وصلى فيه رسول الله ﷺ ، وقال في الهدى : ولا ينافي هذا قوله ﷺ ، وقد سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى ؟ فقال :« مسجدكم هذا» ، وأشار إلى المسجد المدينة ، وفي رواية:فأخذ حصاة فضرب بها الأرض، وقال :«مسجدكم» . يعني: مسجد المدينة؛ لأن كلا منهما مؤسس على التقوى .

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يرى كل مسجد بني بالمدينة الشاملة لقباء أسس على التقوى ، ولكن الذي نزلت فيه الآية مسجد قباء .

وكان محل مسجد قباء مربدًا ، أي محلات يجفف فيها التمر لكلثوم بن الهدم ، وهو أول مسجد بني في الإسلام لعموم المسلمين[٢]

وفي الصحيح : ولبث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى ، وفي رواية عبد الرزاق عنه قال : الذي بني فيهم المسجد الذي أسس على التقوى ، هم بنو عمرو بن عوف .

وكذا في حديث ابن عباس عند ابن عابد ، ولفظه ومكث في بني عمرو بن عوف ثلاث ليال .

واتخذ مكانه مسجدًا فكان يصلى فيه ، ثم بناه بنو عمرو بن عوف فهو الذي أسس على التقوى، وروى يونس بن بكير في زيادات المغازي والمسعودي عن الحكم بن عتبة ، قال : لما قدم النبي ﷺ فنزل بقباء ، قال عمار بن ياسر : مالرسول الله بد من أن يجعل له مكانًا يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه ، فجمع حجارة فبنى مسجد قباء ، فهو أول مسجد بني ـ يعني لعامة المسلمين ـ أو للنبي ﷺ بالمدينة .

---

(١) ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة] .

(٢) السيرة الحلبية : على الحلبى ٢ / ٥٩ بتصرف ، السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٢٣ ، أخبار عن مسجد قباء فى تاريخ المدينة : ابن شبة ١ / ٤١ فما بعد .

وهو في التحقيق أول مسجد صلى فيه بأصحابه جماعة ظاهرًا ، وإن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد ، فقد روى ابن شبة عن جابر ، قال : لقد لبثنا في المدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله ﷺ سنتين نعمر المساجد ونقيم الصلاة؛ ولذا قيل : كان المتقدمون في الهجرة من أصحاب رسول الله والأنصار بقباء قد بنوا مسجدًا ، يصلون فيه يعني هذا المسجد ، فلما هاجر رسول ﷺ وورد قباء صلى بهم إلى بيت المقدس ، ولم يحدث فيه شيئا ـ أي في بادئ الأمر ـ لأن ابن شبة روى ذلك .

ثم روى أنه ﷺ بني مسجد قباء ، وقدم القبلة في موضعها اليوم ، وقال : جبريل يؤم بي البيت(١)

ومن بركات بناء مسجد قباء أنه جرى به أول تحطيم لعادات الجاهلية في مجتمع يثرب ، وأول خروج على الفكر السياسى الجاهلي والفكر الاجتماعي ، والذي كان سيد الأحكام في مجتمع يثرب ، والعرب عامة ، وهو قضية الأخذ بالثأر ، على الرغم من أن هذا التوجه قد أخذ يخبو ويضمحل منذ أن التقى الأوسيون والخزرجيون في بيعة واحدة هي بيعة العقبة ، ودخول الفريقين الإسلام إلا أن المبدأ لم يمح تمامًا إلا في حجة الوداع ، ولكن الممارسة الفعلية لتركه والتخلص منه من أذهان الناس بدأ مبكرًا مع أخوة الإسلام ، والقصة تتعلق بالداعية الإسلامي الكبير والأنصاري الأول أسعد بن زرارة ﷺ .

روى يحيى عن عبد العزيز بن عبيد الله بن عثمان بن حنيف قال : لما نزل رسول الله ﷺ على بني عمرو بن عوف،وقد كان بين الأوس والخزرج ما كان من العدواة، وكانت الخزرج تخاف أن تدخل دار الأوس ، وكانت الأوس تخاف أن تدخل دار الخزرج ، وكان أسعد بن زرارة قتل نبتل بن الحارث يوم بعاث ، فقال رسول الله ﷺ : أين أسعد بن زرارة فقال : سعد بن خيثمة ، ومبشر بن عبد المنذر ، ورفاعة بن عبد المنذر كان يا رسول الله أصاب منا رجلًا يوم بعاث ، فلما أتت ليلة الأربعاء جاء أسعد إلى النبي ﷺ متقنعا بين المغرب والعشاء، فلما رآه رسول الله ﷺ قال :« يا

---

(١)وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٥٠ ، ٢٥١ ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٥٩

أبا أمامة جئت من منزلك إلى ها هنا وبينك وبين القوم ما بينك ؟» قال أبو أمامة : لا، والذي بعثك بالحق نبيًا ، ما كنت لأسمع بك في مكان إلا جئت ، ثم بات عند رسول الله حتى أصبح، ثم غدا فقال رسول الله ﷺ لسعد بن خيثمة ورفاعة ومبشرا بني عبد المنذر:« أجيروه »، قالوا : أنت يا رسول الله ، فأجره فجوارنا في جوارك ، فقال رسول الله :« يجيره بعضكم »، فقال سعد بن خيثمة : هو في جوارى ، ثم ذهب سعد بن خيثمة إلى أسعد بن زرارة في بيته ، فجاء به مخاصرة يده في يده ظهرًا حتى انتهي به إلى بني عمرو بن عوف ، ثم قالت الأوس : يا رسول الله ، كلنا له جار ، فكان أسعد بن زرارة الخزرجيبعد يذهب ويروح إلى رسول الله ﷺ [١]

وقد وردت فضائل مسجد قباء وبناؤه وما يتعلق به في كتب السيرة والتاريخ والحديث ، ولما لهذا المسجد من أثر كبير في بدء تكوين الدولة الإسلامية .

وفي الكبير للطبراني ورجاله ثقات عن الشموس بنت النعمان ، قالت : نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم ونزل ، وأسس هذ االمسجد (مسجد قباء) فرأيته يأخذ الحجر والصخرة حتى يصهره «الحجر» وأنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سترته، فيأتى الرجل من أصحابه ويقول: بأمي أنت يا رسول الله ، أعطيك أكفك ، فيقول : « لا خذ مثله» حتى أسسه ويقول :« إن جبريل الطَّيْلا هو يؤم الكعبة» ، قالت : فكان يقال: إنه أقوم مسجد قبلة[٢]

قال أبو غسان طول مسجد قباء وعرضه سواء وهو ستة وستون ذراعًا ، وطول ذرعه في السماء تسعة عشر ذراعًا، وطول رجعة التي في جوفه خمسون ذراعا،

وعرضها ستة وعشرون ذراعا ، وطول منارته خمسون ذراعا ، وعرضها تسعة أذرع وشبر في تسعة أذرع وفيه ثلاث أبواب ، وثلاث وثلاثون أسطوانة ومواضع قناديله لأربعة قناديل[٣]

---

(١) وفاء الوفا : السمهودى ١ / ٢٥

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٥٣ ، السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٢٣

(٣) تاريخ المدينة : ابنه شبة ١ / ٥٧

حدثنا موسى ابن إسماعيل ، قال : حدثنا حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي أن عبد الله بن رواحة كان يقول ـ وهم يبنون المسجد :

حدثنا موسى ابن إسماعيل ، قال : حدثنا حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمى أن عبد الله بن رواحة كان يقول ـ وهم يبنون المسجد :

أفلح من يعالج المساجد .

فقال رسول الله ﷺ «المساجدا » .

فقال عبد الله :

ويقرأ القرآن قائما وقاعدا

فقال رسول الله ﷺ :«قاعدا».

فقال عبد الله :

ولا يبيت الليل عنه راقدا

فقال الرسول : «راقدا»

هذه فرحة بناء هذا المسجد العظيم الذي يعد أول مسجد أسس في الإسلام ليكون مقرًا لدولته في بداية تكوينها حيث انتقلت بعدها إلى يثرب .

قال ﷺ :« من توضأ وأسبغ الوضوء ، ثم جاء مسجد قباء فصلى فيه ، كان له أجر عمرة».

وروى الترمذي والحاكم وصححاه عن أسيد بن حضير عن النبي ﷺ أنه قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة» ، وفي رواية :« من صلى في مسجد قباء يوم الاثنين والخميس انقلب بأجر عمرة »[1]

وتحرك ركب رسول الله ﷺ من قباء إلى المدينة بعد أن مكث هناك زهاء خمس

---

(١) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٦٠

عشرة ليلة ، ولا بد من الإشارة إلى أن دخوله ﷺ إلى المدينة قد هيج مشاعر الناس كافة من آمن ومن لم يؤمن بعد ، فكل من سمع عن رسول الله خرج ، وتلاقى الجميع ليروا صاحب المسلمين الجدد ، والذي وصل المدينة ، وقد أسهبت كتب السيرة في وصف هذا المشهد العظيم الذي تدافع به الناس بعضهم مع بعض دون ترتيب أو تنظيم مسبق أو موعد سابق ، وإنما خرجوا استجابة للنداء الذي تردد في أرجاء يثرب ، جاء محمد رسول الله .

لم يكن الكثير يعرفون رسول الله، لكنهم مع هذا فقد خرجوا فرحين لهذا اللقاء، وخرج المسلمون من أهل يثرب بسلاحهم خوفا على رسول الله ، وبلغ عددهم زهاء خمسمائة مسلم ، كما تروى كتب السيرة ، ووضع الجميع أنفسهم تحت تصرف الرسول والذود عنه ، وبقية الناس أخذوا يرددون أنشودة الهجرة المعروفة :

طلـــــع البــــدر علينــــا مـــــن ثنيــــات الــــوداع[1]

والغلمان والقلائد يقولون: جاء رسول الله ﷺ فرحًا به[2]

ولما ركب ﷺ وخرج من قباء سار الناس معه ما بين ماشٍ وراكب ، ولا زال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة حرصًا على كرامة رسول الله وتعظيما له ، حتى دخل المدينة الشريفة ، وصار الخدم والصبيان يقولون الله أكبر ، جاء رسول الله ، ولعبت الحبشة بحرابها فرحًا برسول الله ﷺ .

وقالت بنو عمرو بن عوف له حين أراد الخروج من قباء يا رسول الله، أخرجت ملالًا لنا ؟ أو تريد دارا خيرًا من دارنا ، ؟ قال :«إني أمرت بقرية تأكل القرى»، أي تغلبها وتقهرها والمراد أن أهلها يفتحون القرى فيأكلون أموال تلك القرى ويسبون ذراريهم ،«فخلوا سبيلها» ـ يعنى ناقته ـ ثم أدركته صلاة الجمعة في

---

(١) السيرة النبوية: دحلان ١ / ٣٢٣ ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ١ / ٥٨ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٦٩

(٢) السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٢٣ ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ١ / ٥٨ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٦٩

مسجد بني سالم ابن عوف ، وهو المسجد الذي في بطن الوادي على يمين السالك إلى مسجد قباء، ويسمى مسجد الجمعة ، فصلاها بمن معه من المسلمين وكانوا مائة ، وهي أول جمعة صلاها ﷺ بالمدينة .

وخطب بها وهي أول خطبة في الإسلام ، ومن خطبته تلك ،«فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإنها تجرى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ، والسلام على رسول الله ورحمته تعالى وبركاته»

ثم ركب ﷺ بعد الجمعة متوجهًا إلى المدينة ، وهو مردف أبا بكر خلفه إكراما له، وإلا فقد كانت له راحلة .

ولما ركب ﷺ أرخى لناقته زمامها ، وهي تنظر يمينًا وشمالًا ، وكلما مر على دار من دور الأنصار يدعونه للمقام عندهم ، يقولون يا رسول الله ، هلم إلى القوة والمنعة ، فيقول :« خلو سبيلها ـ يعني ناقته ـ فإنها مأمورة»، وفي ذلك حكمة بالغة هي أن يكون تخصيصه عليه السلام لمن خصه بنزوله عنده آية معجزة تطيب بها النفوس ، وتذهب معها المنافسة ، ولا يحيك ذلك في صدور أحد منهم شيئا[١]

وفي البخاري من حديث أنس قدم رسول الله ﷺ فنزل في حي يقال : لهم بنو عمرو بن عوف ، فأقام بهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى بني النجار ، فجاؤوا بالسيوف ، ثم رواه البخارى بلفظ آخر ، فقال : قدم النبي ﷺ فنزل جانب الحرة ، ثم بعث إلى الأنصار فجاؤوا النبي ﷺ وأبا بكر فسلموا عليهما ، وقالوا : اركبا آمنين مطاعين ، فركب حتى نزل جانب دار أبي أيوب .

وفي التاريخ الصغير للبخاري عن أنس أيضا ، قال : إني لأسعى مع الغلمان ، إذ قالوا: محمد جاء فننطلق فلا نرى شيئا،حتى أقبل وصاحبه ، فكمنا في بعض جوانب المدينة ، وبعثا رجلًا من أهل البادية يؤذن بهما ، فاستقبله خمسمائة من الأنصار ، فقالوا : انطلقا آمنين مطاعين .

---

(١) السيرة النبوية : دحلان :١/ ٣٢٤.

وتوسعت كتب السيرة في الحديث المسهب عن الحادث العظيم ، وهو وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة ، والاستقبال الرائع الذي لاقاه من سكان هذه المدينة عدا الموقف الذي بدر من عبد الله بن أبي الذي لم يدعه إليه في سرد طويل أورده المؤرخون ، ووقفوا جميعًا عند مروره بدار ابن أبي ، وما جرى في هذا الموقف .

أخذ الرسول يمين الطريق حتى جاء بني الحبلي ، فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبي ، وهو عند مزاحم ، وهو الأطم محيبا ، قال اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم ، فقال سعد بن عبادة : لا تجد (لا تحزن) يا رسول الله في نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه عليها ، ولكن هذه داري .

فمر ببني ساعدة ، فقال له سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دجانة هلم يا رسول الله، إلى العز والثروة والقوة والجلد ، وسعد يقول: يا رسول الله ،ليس من قومي أكثر عذقا (نخلا) ولا فم بئر منى مع الثروة والجلد والعدد والحلقة ، فيقول رسول الله :« بارك الله عليكم . يا أبا ثابت خل سبيلها ، فإنها مأمورة »[١]

وسقت موقف النقيضين عبد الله بن أبي ، وسعد بن عبادة للدلالة على القوم الذين اتجه إليهم الرسول ، ولتبيان التوجه الذي اتجه إليه الأنصار ، وهو التخلي عن فكرة ملكية عبد الله بن أبي وقد وقف ﷺ ـ كما يرد لاحقا ـ موقفا نبيلًا كبيرًا من كل ممارسات ابن أبي التي قام بها بعد ذلك .

وقد اختصر الطبري هذا اللقاء بقوله[٢]

حدثنا ابن حميد قال : قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ ركب ناقته وأرخى لها الزمام ، فجعلت لا تمر بدار من دور الأنصار إلا ودعاه أهلها إلى النزول عندهم ، وقولوا له هلم إلى العدد والعدة والمنعة ، فيقول لهم :«خلوا زمامها فإنها مأمورة» حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم فبركت على باب

---

(١) وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨

(٢) الطبري : تاريخ ٢ / ٣٩٦

مسجده، وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بني النجار في حجر معاذ ابن عفراء ، يقال لأحدهما : سهل وللآخر سهيل ابنا عمرو بن عبادة بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، فلما بركت لم ينزل عنها رسول الله ﷺ ، ثم رجعت إلى بركها أول مرة ، فبركت فيه ووضعت جرانها .

ونزل عنها رسول الله ﷺ ، فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه في بيته ، فدعته الأنصار إلى النزول عليهم ، فقال رسول الله ﷺ :«المرء مع رحله »، فنزل على أبي أيوب خالد بن زيد بن كليب في بني غنم بن النجار .

وروى ابن زبالة أنها لما بركت ـ أي الناقة ـ بباب أبي أيوب جعل رسول الله ﷺ يريد أن ينزل فتحلحل ، فيطيف حولها أبو أيوب فيجد جبار بن صخر أخا بني سلمة تنخسها برجله ، فقال أبو أيوب يا جبار ، عن منزلى تنسخها ؟ أما والذي بعثه بالحق لولا الإسلام لضربتك بالسيف، فنزل رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب، وقر قراره ، واطمأنت داره ، ونزل معه زيد بن حارثة[١]

وقد شرف بنو النجار المصطفي لما بركت الناقة على باب أبي أيوب حتى خرجت جوار من بني النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحـــن جـــوار مـــن بنـــي النجـــار يـــا حبـــذا محمـــد مـــن جـــار

فقال رسول الله ﷺ :«أتحببني ؟» قلن : نعم يا رسول الله[٢]، فقال :« والله وأنا أحبكن قالها ثلاثا ، وفي رواية «يعلم الله أني أحبكن»[٣]

ورد في وفاء الوفا (١ / ١٨٨ و ٢٦٥)قصة بيت أبي أيوب ، فقال : وقد قدمنا في بعض الروايات أن مالك بن العجلان لما قتل ملك اليهود قصد اليمن إلى تبع الأصفر ، وأنه هو الذي نصرهم على يهود ، ولعل هذا مراد ياقوت بقوله : أن يهودًا

---

(١) وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٦٠

(٢) السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٢٧

(٣)وفاء الوفا السمهودى : ١ / ٢٦٢ ، ٢٦٣

كانوا أهل المدينة ، حتى أتاهم تبع، فأنزل معهم بني عمرو بن عوف ، لكن نقل المجد وغيره عن المبتدأ لابن إسحاق أنه قال : في بيت أبي أيوب الذي نزله النبي ﷺ مقدمه المدينة ، أن تبعا الأول بناه لما مر بالمدينة ، قال في المبتدأ ، واسمه تبان أسعد ابن كلكي كرب ، وكان معه أربعمائة عالم ، فتعاقدوا على ألا يخرجوا منها ، فسألهم تبع عن سر ذلك ، فقالوا إنا نجد في كتبنا أن نبيا اسمه محمد هذه دار مهاجره ، فنحن نقيم لعل أن نلقاه ، فأراد تبع الإقامة معهم ، ثم بني لكل واحد من أولئك دارًا واشترى له جارية ، وزوجها منه ، وأعطاه مالاً جزيلاً ، وكتب كتابا فيه إسلامه ومنه :

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النسم

فلو مد عمري إلى عمره فكنت وزيرا وابن عم

وختمه بالذهب ودفعه إلى كبيرهم وسأل أن يدفعه إلى النبي ﷺ إن أدركه ، وإلا فمن أدركه من ولده أو ولد ولده ، وبني النبي ﷺ دارًا لينزل فيها إذا قدم المدينة ، فتداول الدار الملوك إلى أن صارت لأبي أيوب ، وهو من ولد ذلك العالم ، وأهل المدينة الذين نصروه كلهم من أولاد أولئك العلماء .

وهذا الحديث يخالف ما روى في السابق على أن تبعا قد حارب أهل المدينة ، ووقع تحت تأثير حبرين يهوديين بألا يدخل المدينة لأنها مهاجر نبي ، ونصحاه بكسوة الكعبة ، وبأنه اعتنق اليهودية ونقلها إلى اليمن ، وأن الذي نصر مالك بن العجلان ليس تبعا وإنما ملك الغساسنة كما سبق الحديث ، وقدانفرد السمهودى بهذا الحديث ، ووقفه من باب كثرة رواته .

وفي المعارف لابن قتيبة ص ٢٧٤ ، وقد أشار إلى خلاف فيمن كسا الكعبة ، أهو تبع الأوسط أم تبع الآخر ، ولكنه لم يذكر خلافا في أن الذي آمن بالرسول هو أسعد أبو كرب بن كليكو ، كما ذكر أن الذي ذهب إلى جديس هو حنان بن تبع[١]

(١) وفاء الوفاء : السمهودي ١٨٥ ، السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٢٦

وما إن استقر الحال برسول الله ﷺ وعلم موقعه في المدينة ، واختيار الله تعالى له ليكون هذا المكان أشرف بقعة في الدنيا بعد الكعبة ، وليكون ترابه قد عايش الرسول في حياته وضمه بعد وفاته إلى أن يبعث الله تعالى خلقه ، فيقف رسول الله شفيعا في أمته ، لقد سارت الناقة حتى جلست في هذا المكان الطهور ، تركت كل المواقع وكل الموانع ، وكل الدعوات وجاءت إلى هذا المكان حيث إنه كان أرضًا خاوية تحولت إلى جنة غناء ، ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة .

لقد كان العمل التالى فورًا هو بناء مسجد رسول الله ﷺ .

قال أبو جعفر وسأل رسول الله ﷺ عن المربد «لمن هو؟» فأخبره معاذ ابن عفراء ، وقال هو ليتيمين لي سأرضيهما ، فأمر رسول الله ﷺ أن يبني مسجدًا ، ونزل على أبي أيوب الأنصاري ، حتى بني مسجده ومساكنه .

وقيل : إن رسول الله ﷺ اشترى موضع مسجده ثم بناه .

والصحيح عندنا في ذلك، حدثنا مجاهد بن موسى، قال: حدثنا يزيد بن هارون ، قال أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي التياح عن أنس بن مالك ، قال كان موضع مسجد النبي ﷺ لبني النجار ، وكان فيه نخل وحرث وقبور من قبور الجاهلية ، فقال لهم رسول الله ﷺ :«ثامنوني» (أي اجعلوا لى ثمنا به) ، فقالوا لا نبتغي به ثمنا إلا ما عند الله ، فأبي رسول الله ﷺ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ، وكان جدارًا ليس له سقف ، وقبلته إلى بيت المقدس ، وبهذا احتج الحنفية على صحة التعرف من غير البالغ ، وكان يصلى فيه ، ويجمع فيه أسعد بن زرارة قبل مقدم الرسول ﷺ ، وكان فيه شجر فرقد ونخل وقبور للمشركين ، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت وبالنخيل والشجر ، فقطعت وصفت في قبلة المسجد ، وجعل طوله مما يلى القبلة إلى مؤخرته مائة ذراع ، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه ، وجعل أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع ، ثم بنوه باللبن ، وجعل رسول الله ﷺ يبني معهم ، وينقل اللبن والحجارة بنفسه ، ويقول : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة .

وجعل قبلته من اللبن ، وقيل: من حجارة ، وجعلها إلى بيت المقدس[(١)]

ولما أن اكتمل له المقام ﷺ وقر به القرار ، بني مسجده هو وأصحابه من المهاجرين والأنصار ، وقد مر وصف المسجد ، وطوله وعرضه وارتفاعه ومواد بنائه ، إلا أن الأمر الأهم والأخطر من ذلك هو بناء المسجد المقر الدائم لجماعة المسلمين ، وكان هذا البناء تحولاً ذا شأن في حياة جماعة المسلمين والأنصار خاصة .

ومن أن بعض الروايات قد ذكرت أن أسعد بن زرارة ﷺ والذي وافته المنية بعدم مقدم رسول الله بقليل ، كان قد اتخذ المكان مصلى قبل أن تبرك ناقة رسول الله فيه ، وقد اتخذ الرسول المكان مسجدًا ، وبني بجانبه حجرة لعائشة ، ثم لبقية زوجاته وأصبح المسجد المكان الذي تدار منه الدولة الإسلامية ، وسقطت ببنائه كل الأحلام والآمال التي بنيت على دعائم الجاهلية ، وكانت غضة ابن أبي وقتها عندما وجد استقبال أهل يثرب (قومه) للرسول ﷺ ، ورفض أن ينزل الرسول عنده مع أن القوم يقتتلون لكسب الرسول في دورهم وآطامهم ، وتقديم كافة المغريات والتسهيلات له ، وقد تم بذلك بناء دار الدولة ودار الإسلام ومسجد رسول الله ، ومقره ومستقره ، وكان لمسجد قباء نفس الأهمية التي كانت لمسجد الرسول قبل أن ينتقل الرسول إلى المدينة ، واختيار سكن الرسول قرب المسجد ، يكون قد حسم قضية تكامل البناء لدولته،فهو على رأس إدارتها ليل نهار، ومسجده هو مقره ومقر المؤمنين،منه انطلقت أعظم الجيوش، وفيه عقدت الألوية، وفيه تعلم الناس الإسلام وفيه ومنه بنيت دولة الإسلام .

وبعد كل هذا ضم هذا التراب الطهور جسد الرسول ﷺ فقد دفن في هذا المسجد ، والذي يعتبر منذ ذلك الحين واليوم وغدا من أقدس مقدسات المسلمين بعد الكعبة المشرفة .

---

(١) إعلام الساجد - الزركشي ص ٢٢٣ ، الطبري : تاريخ ٢ / ٣٩٦ ، ٣٩٧

(٤) تأسيس الدولة الإسلامية

لقد كان لوصول الرسول ﷺ إلى المدينة واللقاء مع أصحابه من المهاجرين الذين سبقوه ، وأهل يثرب الذين آمنوا ونصروه خروجًا من الطوق المحكم الكئيب الذي فرضه القرشيون على الرسول وأتباعه طيلة ثلاث عشرة سنة ، لم يترك بها القوم حيلة توصلوا إليها أو أوصلهم إليها الشيطان إلا اتبعوها في محاولة يائسة ، لكبت هذه الدعوة وإنهائها ، فتارة بالترغيب وأخرى بالترهيب وثالثة بالحرمان ، وبكل الوسائل الممكنة التي اتخذوها لذلك .

إن يقين الرسول ﷺ بأن دعوته لن تنهزم جعلته يطرق مختلف السبل ، ويتكلم مع جميع الناس ، ويعرض نفسه على كل القبائل إلى أن وجد النصرة والمعونة في أهل يثرب ، من خلال الحديث الطويل الذي شرحناه .

لقد انهارت أحلام قريش فجأة بالقضاء على هذه الدعوة بخروج الرسول من مكة ، وبعد أن اتخذت كافة الإجراءات الاحترازية لقتله ، وكَبْت هذه الدعوة إلى الأبد ، وخروجه يعنى بزوغ الفجر الجديد لهذا الدين .

إن محمدًا ﷺ قد خرج من حصار شاق وقاس إلى فسحة الأرض وقوة النصرة وجمع المسلمين ، لم يخرج من حصار مكة ليقع في حصار مدينة أخرى ، كما حصل معه في الطائف ، إذ إن الله تعالى لم يكتب لأهل هذه القرية النصرة ، وجمع للمسلمين وللدين كما أعطاها لأهل يثرب ، وبذلك فقد كان هذا التحول يعني أن أمورًا خطيرة وكبيرة ستغير مجرى الأحداث في جزيرة العرب والعالم أجمع .

لقد كانت لقاءات الرسول ﷺ مع وفود يثرب المتتالية سواء في مكة أو العقبة تضع الأسس المتينة والقوية لبنيان الدعوة والدولة ، وهذه القواعد والدعائم ما كانت لتشاد بهذه السهولة فالمحيط العام سواء في مكة ، وفي يثرب يقتضي التهيؤ

لأوضاع وأحداث جليلة سيلقاها المسلمون في كلا البلدين ، وهذا ما أثبتته أحداث العشر سنوات التالية من حياة الرسول ﷺ في المدينة ، وقيامه على رأس الدولة التي أسسها منذ وصوله إلى يثرب .

وأثبتت الأحداث التالية أن التحديات قد زادت بشكل ملحوظ ، فقد كان العدو واحدًا في مكة وهو قريش حتى إن الكثير من وتينى العرب لم ينضموا إلى قريش لشن حرب على محمد ، بل كان الكثير منهم يستمعون للرسول ﷺ وينصتون له ، ومنهم من دخل في قلبه وفي روعه أن هذه الدعوة لابد منتصرة؛ لأنها تدعو إلى الحق والعدل والتوحيد وطرح الوثنية والظلم ، لقد كان العدو واحدًا في مكة وهو قريش ، ولعله أيضا لم تكن كل قريش ، فقد خرجت بعض البطون على قرارات جماعية مثل مقاطعة الرسول وعشيرته ، وحمت الذين دخلوا في الإسلام ، وأمنت لهم الحماية والأمن والسلام ، ومالت بعض البطون وبشدة لنصرة محمد وأتباعه ، لكن عندما استقر المقام في المدينة فإن التحديات قد ازدادت ، وهذا هو سر نزول آيات القتال والسماح للمسلمين بالرد على أعدائهم والدفاع عن حياتهم ومعتقداتهم، يضاف إلى أنهم أصبحوا قوة تستطيع أن ترد العدوان بمثله ، وتستطيع أن تحمى وجودها واستمرارها .

وكان على الرسول ﷺ الذي لم يكتب لأمره النجاح في مدينته الأم أن يعمل في ظروف صعبة في دار هجرته .

ويلخص (فرانشيسكو غابرييلي) هذه الصعوبات التي واجهت الرسول في مستهل هجرته بقوله لقد كان النصر الذي توصل إليه الرسول ، ومركزه كنبي صاحب سلطة دينية ، ورئيس دولة فتية أنشأها هو ، نصرًا بطيئا ومحفوفًا بالمصاعب الكثيرة التي يثيرها ضده أعداء ظاهرون ومستترون ، لقد كان المكيون أعداءه الظاهرين ، وكان عليه أن يواجه ألاعيب سياسية ومؤامرات كثيرة تدبر في الخفاء من قبل الفئات المختلفة التي تسكن المدينة ، وفي هذا القول صحة وصدق ، إذ إن محمدًا لم يكن في الأيام الأولى من هجرته إلى المدينة الرجل المطاع الأوحد الذي لا

ينازع سلطته منازع ، وإذا صحت هذه الصفة على الجزء المتأخر من وجوده في هذه المدينة ، فإنها لا تصح على أيامه الأولى فيها ، لقد كان في أول الأمر لا يملك السيادة إلا على الجماعة التي آمنت به من مهاجرين وأنصار ، وكان عليه أن يقوم بجهد كبير في ميدان الدعوة لدينه بين أولئك المدنيين الذين لم يقبلوا الإسلام كدين[١]

لقد كانت آيات القتال أول إعلان للذين آمنوا بأنهم استضعفوا ، وإن الله على نصرهم لقدير إعلان بأنه أصبح لهم كيان سياسى واسع واسم ينطوون تحت لوائه؛ جماعة المسلمين ، أو جماعة المؤمنين : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج][٢]

قال العوفي عن ابن عباس نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم : هذه أول آية نزلت في الجهاد ، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية وقال ابن جرير حدثنى يحيى بن داود الواسطى، حدثنا إسحاق بن يوسف عن سفيان عن الأعمش عن مسلم ، هو البطين بن سعد بن جبير عن ابن عباس ، قال : لما أخرج النبي ﷺ من مكة ، قال أبو بكر أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ، ليهلكن ، قال ابن عباس فأنزل الله ﷻ : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾[الحج:٣٩]، قال أبو بكر:فعرفت أن سيكون قتال[٣]

قال الضحاك استأذن أصحاب رسول ﷺ في قتال الكفار إذا آذوهم بمكة فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج] فلما هاجر نزلت : ﴿أُذِنَ

---

(١) تاريخ العرب القديم : عاقل ٤٣٧
(٢) في ظلال القرآن : سيد قطب ٤ / ٢٤٢٤
(٣) ابن كثير ـ تفسير ٣ / ٢٣٥

﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج:٣٩] وهذا ناسخ لكل ما في القرآن من إعراض وترك وصفح ، وهي أول آية نزلت في القتال[١] وبذلك فإن مشروعية القتال هي أول دعائم بنيان الدولة وذلك للدفاع عنها ، ورد كيد أعدائها ، فلم تعد الدولة مجرد دعوة لأفراد ؛ حتى يتركوا ما عندهم من ضلالة ، لكنها أصبحت الآن كيانًا قائمًا ثابتًا يذاد عنه بالسيوف وبالأنفس .

والشيء الثاني في هذا البنيان إقامة صلاة الجمعة .

ثم رأيت في كلام بعضهم أنه ﷺ كان يصلي الجمعة في مسجد قباء في إقامته هناك أي ، ويبعد أنه صلاها من غير خطبة .

وفي الجامع الصغير : «أن الله كتب عليكم الجمعة في مقامي هذا في ساعتي هذه في شهري هذا في عامي هذا إلى يوم القيامة ، من تركها من غير عذر مع إمام عادل أو إمام جائر ، فلا جمع له شمله ولا بورك له في أمره ، أو ولا صلاة له ، ولا حج له، ألا ولا بركة له ، ولا صدقة له» ، فإن قال ذلك في هذه الخطبة التي خطبها في مسجد الجمعة ، كما هو المتبادر اقتضى ذلك أنها لم تكن واجبة قبل ذلك ، وهو مخالف قول فقهائنا أنها وجبت بمكة ، ولم تقم بها لعدم قدرتهم على إظهارها بمكة؛لأن إظهارها أقوى من إظهار جماعة الصلوات الخمس[٢]

وصلاة الجمعة وخطبتها جمع وتظاهر ، وتكاتف وبيانٌ يلقى من رئيس الدولة على رأس كل يوم سابع من حياة المسلمين ، وكان هذا الرأس الجمعة عند المسلمين، وبذلك فقد كانت هذه الصلاة الدعامة القوية الأخرى التي شيدت هذه الدولة ، وكان الرسول ﷺ يعطى تعليماته ، والمستجدات في الدعوة في كل صلاة جمعة ، وجعلها ـ كما سبق ـ لا يصح عمل بدون عذر غيرها ، وكان وصول القائد ﷺ إلى أتباعه ، ووقوفهم حوله أشداء بايعوا على نصرة هذا الدين ، وتقديم كل غال، وثمين في سبيل هذه الدعوة .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢ / ٦٩ : القرطبي .

(٢) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٦٣

التقاء الأمة والقائد لرد التحديات الكثيرة التي ظهرت في يثرب ، وهي على غير ما كانت عليه في مكة ، ثم إن العنصر المهم من بناء الدولة وهو الأرض التي يستقر عليها الناس ، قد تحققت بدخول أهل المدينة الإسلام ؛ وهم ساكنو الأرضين ومقيمون عليها ، ودعوتهم لأن تكون هذه الأرض دار هجرة للرسول والذين آمنوا معه ، ثم تم تشييد المسجد الذي يعتبر المقر الدائم للدولة وللمسؤولين عنها، وللمقاتلين والمستشارين ، ولكل جندى مجند في خدمة هذه الدولة .

وتتالت بذلك القضايا الضرورية لتشييد بنيان هذه الدولة،ولم يترك الرسول ﷺ واحدة دون تحقيقها ، فتميز المسلمون بهذا التنظيم الدقيق عن سواهم ، فانصهروا في بوتقة الإسلام ، وقدموا تضحيات جسامًا وكل ما طلب منهم ، واجتمع شمل الأمة ـ المهاجرين والأنصار ـ وتحولت آيات القرآن إلى ذكر التشريع وتنظيم الجماعة ، وبدأت الآيات القرآنية تتسم بالطول والتشريع ووضع قواعد وأسس وبنيان الدولة .

وفي هذه السنة زيد في صلاة الحضر ـ فيما قيل ـ ركعتان ، وكانت صلاة الحضر والسفر ركعتين وذلك بعد مقدم رسول الله ﷺ بشهر في ربيع الآخر لمضي اثنتى عشرة ليلة منه ، زعم الواقدي ألا خلاف بين أهل الحجاز فيه[(١)]

وازدياد أعداء المسلمين من مختلف الاتجاهات والفئات والقبائل وأمر الله ـ تعالى ـ بتجديد العلاقات الداخلية فيما بين الجماعة المسلمة، والعلاقات الخارجية مع القوى الأخرى على مختلف انتماءاتها وتنوع الأعداء في يثرب ، واختلاف توجهاتهم قد حدد اتجاها آخر في معاملة هؤلاء سواء من وثنيى يثرب ، وهم غير منتظمين وبين يهود يثرب ، وهم الذين يملكون المبدأ والتنظيم ، وبذلك فقد بدأت المعركة معهم تأخذ طابعًا عسكريًا وفكريًا وسياسيًا معًا ، وكذلك بروز معسكر المنافقين كل هذا جعل المسلمين يتخذون الإجراءات المناسبة التي أمرهم الله بها في تنزيله، أو اتخذها الرسول ﷺ لدرء أخطار الأعداء ، والمحافظة على هيكل الدولة وبنائها ، ومتابعة تشييده بقوة وثبات وتميز جماعة المسلمين جند الدولة والدعوة .

---

(١) الطبري : تاريخ ٢ / ٤٠٠

وبرزت قوة جديدة هي قريش التي لم تكتف بها عندها ، بل تحولت إلى عمل الأحلاف وجمع الأنصار وشن الحروب المتتالية على هذه الدولة ، كل هذا قد أدى إلى تنظيم دؤوب دائم لهذه الدولة حتى تستطيع أن تقف في وجه كل التحديات .

ويذكر أن أول من توفي بعد مقدم الرسول ﷺ المدينة من المسلمين ، فيما ذكر صاحب منزله: كلثوم بن الهدم(١)

ثم توفى بعده أسعد بن زرارة في سنة مقدمه ـ وكانت وفاته قبل أن يفرغ رسول الله ﷺ من بناء مسجده بالذبحة والشهقة .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة قال : قال محمد بن إسحاق : حدثنا عبد الله بن أبي بكر، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن: أن رسول الله ﷺ قال :« بئس الميت أبو أمامة ليهود ومنافقي العرب ، يقولون : لو كان محمد نبيًا لم يمت صاحبه ، ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئًا» .

قال ابن حميد قال سلمة، عن ابن إسحاق قال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري ، أنه لما مات أبو أمامة أسعد بن زرارة اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله ﷺ ، وكان أبو أمامة نقيبهم ، فقالوا : يا رسول الله ، إن هذا الرجل قد كان منا حيث علمت ، فاجعل منا رجلا مكانه ، يقيم أمرنا ما كان يقيمه، فقال لهم رسول الله ﷺ : « أنتم أخوالى وأنا منكم وأنا نقيبكم»(٢)

وأسعد بن زرارة من أوائل مؤمني الأنصار ، ومن أشدهم تحمسًا للدعوة ، وممن بايع في العقبتين ، وهو الذي حمى المسلمين قبل هجرة الرسول بين العقبتين ، وهو الذي كان له أكبر دور في يثرب .

مات بعد أن اطمأن إلى قيام دولة الإسلام ، وشاهد الرسول ﷺ يبني الدولة ، ويبني المسجد ، وقد ذهب إلى أعدائه الأوس ، وهم يختصرون بعضهم بعد أن

(١) صاحب منزل الرسول ﷺ فى قباء (الروض الأنف : السهيلي ٢ / ٢٤٥)
(٢) الطبري : تاريخ ٢ / ٣٩٧ ، ٣٩٨

ماتت في النفوس آثار الجاهلية ، وحل الرسول ﷺ محله نقيبًا في بني النجار ، رحمه الله . وأحسن مثواه .

أما الإجراءات الكبرى التي اتخذها الرسول ﷺ في هذا المقام فهو المؤاخاة ، بين المهاجرين والأنصار ، وكتابة الصحيفة بين جماعة المسلمين والقوى الموجودة في يثرب ، وهذا ما سيكون شرحه وافيا في الفصل القادم إن شاء الله .

الفصل الرابع

الأنصار

القسم الأول : موقف أهل يثرب من الدعوة الإسلامية .

القسم الثاني : الأنصار جند الدعوة الإسلامية .

القسم الثالث : مواقف الأنصار من الدولة الإسلامية .

الفصل الرابع

الأنصار

القسم الأول

موقف أهل يثرب من الدعوة الإسلامية

تمهيد :

لم تكن مواقف أهل يثرب من الدعوة الإسلامية واحدة لا في بدايتها ، ولا في نهايتها ، ولا في تمكنها من إقامة الدولة الإسلامية في يثرب ، ومع أن كل العواطف تشير إلى أن المدينة بلد الأنصار رضوان الله عليهم ، ومركز الدعوة الإسلامية ، ومهاجر الرسول والمسلمين الذين وفدوا عليها فارين بدينهم ، وملتقى صحابة رسول الله ﷺ ، كما أن الدلالات والإشارات تتوجه إلى المدينة التي أُلغى اسمها الأول (يثرب) لتنال الأسماء الطيبة التي أطلقت عليها ، ولتحتضن بحنو كبير دعاة الإسلام وعلى رأسهم رسول الله ﷺ .

والمدينة التي قدمت الرواد الأوائل من النقباء والعقبيين الذين بايعوا الرسول ﷺ بيقين مؤكدين على تقديم الغالى والرخيص في سبيل نصرة هذا الدين، وإعلاء كلمته، وتثبيت أركانه ، وحماية الرسول ﷺ حتى يبلغ الرسالة الربانية إلى الناس كافة، وبعد أن حاربته مكة ولم تقبله بقية القبائل العربية ، وأخرجته الطائف منها بشكل غير لائق ، وتقاسم أهل يثرب المسلمون مع المهاجرين كل ما يملكون من مال وغذاء وسكن ومأوى حتى أشعروهم أكثر مما كانوا ينتظرون ، ودافعوا عنهم أكثر مما كانوا يتصورون .

المدينة التي أصبحت مركز الثقل والحركة في حياة الجزيرة العربية ، وتوجهت إليها الأنظار ليغادر حجاج مكة الوثنيون تلك الديار إلى المدينة يعلنون إسلامهم ،

والإنخراط تحت لواء هذا الدين ، وقيادة المدينة التي تأكل القرى وستفتح العالم ، هذه المدينة الكريمة التي غيرت مجرى التاريخ كله قديمه وحديثه ، وما زالت هذه المدينة تحتفظ بشذى قدسيتها ، فهي أمل كل مسلم أن يفد إلى جنباتها ليزور قبر الرسول ، ويتدرج في مدارج الأولين الذين تمكنوا ـ رغم القلة والضعف ـ من قيادة العالم كله

ما زالت المدينة مزار كل المسلمين ليقفوا على تلك الآثار الخالدات التي اندرج عليها السلف الصالح الذين كانوا نخبة الدنيا مرة واحدة، وفي مدينة واحدة ، وبعدهم تفرق الجمع فلم يعد له تكرار ، ولا لهذه المدينة مثيل حتى في تاريخ الإسلام نفسه .

سكان هذه المدينة لم تكن مواقفهم متفقة تماما ـ حتى ولا من قريب ـ تجاه دخول دعوة الإسلام إليها ، وخلال تلك الحقبة من تاريخنا الذي نحن بصدد دراسته .

لقد طغت الأخبار الطيبة التي تحققت للمسلمين بدخولهم المدينة على العديد من التحديات التي لاقاها المسلمون ، صحيح أن دخول الرسول إلى المدينة قد أعطى أصحابه دفعة قوية مكنتهم أن يسودوا فعلا ، وأن يزيحوا كل القوى الأخرى جانبا ، وأن يتحكموا بكل القدرات التي هيأت لهم وبسرعة إقامة دولة الإسلام ، وكتابة المعاهدات والتحالفات ، وتحديد الحدود الجغرافية ـ حرم المدينة ـ الذي أصبح محرما على غير المسلمين وغير ذلك ، فإن هذه التحولات السريعة أذهلت الآخرين لكنها لم تقض عليهم ، وبذلك فإننا نقف في الفصلين التاليين على الأحداث التي حركتها هذه القوى التي ظهرت عند أهل يثرب أوسها وخزرجها ومن، حالفهم من القبائل الأخرى التي كانت تقطن معهم ، وكذلك قبائل اليهود التي كان لها وجود ملموس وقوى جدا في هذه المدينة ، إن القوى التي برزت مؤخرا في المدينة على أثر دخول الرسول إليها ثلاث قوى هي :

١ـ **الأنصار** : من المسلمين سكان المدينة ـ أوسها وخزرجها ـ وسنفرد لهم هذا التفصيل .

٢ــ المنافقون : من عرب المدينة أوسها وخزرجها وسواهم .

٣ــ اليهود :الذين وقفوا منذ اللحظات الأولى موقف المعادي للدعوة الإسلامية .

٤ــ كما كان يوجد بقية الناس الذين بقوا على وثنيتهم ، أو لم تدخل في نفوسهم هذه الاتجاهات.

وقد خصصنا الفصل التالي لدراسة موقف المنافقين،واليهود، وبقية الناس الذين بقوا على وثنيتهم، وسنولي دراسة كل واحدة من هذه القوى تفصيليًا؛ لنقف على مدى القوى التي تمكن الأنصار رضوان الله عليهم من ترسيخها وتثبيتها في المدينة والدولة .

(١) الأنصار

قال تعالى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة] .

وردت كلمة نصر ومشتقاتها والتي تعني النصر والانتصار والمعونة والمساعدة ، وفيها كلمة الأنصار في مائة وأربعة وأربعين موضعا ابتداء من كلمة نصركم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران:١٢٣]،وانتهاء بكلمة (منتصرين) بقوله تعالى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص] .

وقد شمل ذلك أكثر سور القرآن الكريم ، أكثر ما ورد اشتقاق (نصيرا) وقد ورد ثلاث عشرة مرة ، وفي سورة النساء وحدها سبع مرات[١]

نصر النصر إعانة المظلوم ، نصره على عدوه ينصره نصرًا ، ورجل ناصر من قوم نصار ، ونصر مثل صاحب ، وصحب وأنصار قال :

والله سمى نصرك الأنصارا آثرك الله بها إيثارا

وفي الحديث :« انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا »، وتفسيره أي يمنعه من الظلم ، إن وجده ظالما، وإن كان مظلومًا أعانه على ظالمه والاسم (النصرة) .

والأنصار : أنصار النبي ﷺ ، غلبت عليهم الصفة فجرى مجرى الأسماء ، وصار كأنه اسم الحى ، ولذلك أضيف إليه بلفظ الجمع فقيل:« أنصاري»

---

(١)المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : عبد الباقى ٧٠٢ - ٧٠٤

وقالوا :رجل نصر ، وقوم نصر فوصفوا بالمصدر ، كرجل عدل ، وقوم عدل[(١)]

والأنصار : أهل مدينة الرسول الذين ناصروه حين هاجر إليهم، وهم خلاف المهاجرين[(٢)] . والمهاجرون إلى المدينة،لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء إثراء أو استعلاء .

والأنصار : الذين استقبلوهم وناصبوا قومهم العداء ، وأهدفوا أعناقهم للقاصي والداني لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كما اتفق[(٣)]

انفردت دائرة المعارف الإسلامية بدراسة مختصرة عن الأنصار برأي كُتَّاب هذه الدائرة من المستشرقين الغربيين ، ورد المحققين المسلمين على كثير من النقاط التي أثارها أولئك، وسنحاول أن نورد بعض الردود في أماكنها المناسبة عند الحديث عن الأنصار تفصيلا

الأنصار: لقب الذين آمنوا بالنبي من أهل المدينة ، وآووه وأيدوه بعد هجرته من مكة ويقال لهم أحيانا:(أنصار النبي) وقد يكون هذا اللفظ جمعا لكلمة نصير التي لم ترد قط في هذا المعنى الشرعي ، وينسب إلى الأنصار فيقال للمفرد : أنصارى، وهو مشتق من الجمع، والأنصارى يطلق على الرجل من سلالة الأنصار، ويستعمل صفة وجمعه(أنصاريون) [(٤)]

ويظهر أن محمدا ﷺ استغل التشابه الموجود بين لفظ أنصار ونصارى ، فجعل عيسى يطلق على الحواريين أنصار الله: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

(١) لسان العرب : ابن منظور ٣ / ٦٤٧ ، ترتيب القاموس : الزواوي ٤ / ٣٨٠

(٢) المعجم الوسيط ٢ / ٩٢٥ ، مختار الصحاح ص ٦٦٢ ، لم يتطرق لكلمة الأنصار، وإنما شرح كلمة نصر ومشتقاتها فقط .

(٣) فقة السيرة : الغزالي ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، تحت عنوان : أسس البناء الجديد .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية : خورشيد ٥ / ٧٣ – ٧٥ ، طبعة دار الشعب ، و ٣ / ٥٣ ، ٥٤ ، طبعة دار المعرفة .

لِلْحَوَارِيِّنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف] .

وكثيرًا ما يردد النبي أن المؤمنين يجب أن يكونوا أنصارالله ، وهو يخص الأنصار والمهاجرين بأنهم السابقون إلى الإسلام، وقد تبعهم باقي المؤمنين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة] ، وإذا استثنينا: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة] فإن الآية (١٠٠) منها هي الآية الوحيدة التي أطلق فيها لفظ الأنصار بصفة مباشرة على المؤمنين من أهل المدينة[١]

ونجح محمد ﷺ في تحبيب الإسلام إلى فريق من رجال المدينة الذين كانوا يتوجهون إلى مكة حاجين ، وذلك في وقت تحرج مركزه فيه من جراء الدعوة التي كان يبشر بها ، وما إن اطمأن لتأييدهم حتى هاجر إليهم إلى المدينة عام ٦٢٢م ، ولقي هو وجماعته ما كانوا ينتظرونه من عون ، وكان عدد من هؤلاء يعيشون على الكفاف ، فاضطروا إلى الاستعانة في الرزق بإخوانهم من أهل المدينة ، وآزر النبي الأنصار في نشر دعوته ، وكان غالب أتباعه في أول الأمر من قبيلة الخزرج بالمدينة ، وعلى ذلك .

فإذا قيل:الأنصار كانت هذه التسمية تعني هذه القبيلة وهي المقصودة ، أما قبيلة الأوس ، فقد وقفت من النبي موقفا محايدًا ، إن لم تكن ناصبته العداء أحيانا ، ومن الأنصار جماعة فرقوا ما بين ما يقدمونه إلى محمد ﷺ من العون بصفته نبيا ، وما يقدمونه إليه بصفته من رجال السياسة .

---

(١) ابن كثير: تفسير ٣ / ٢٣٥

كانت جماعة المؤمنين تنقسم إذن إلى مهاجرين وأنصار ، وظل هذان الفريقان منفصلين انفصالا واضحا بالرغم من أن محمدًا قد جاهد من أول الأمر في أن يصل ما بينهما قدر طاقته ، وذلك بمؤاخاة أفرادهما ، وكان أخص صحابة النبي دائما من المهاجرين ، وبقيت بين الأنصار بعض المنازعات القبلية التي تعود إلى الجاهلية ، وإن لم تبلغ قط ما كانت عليه من حدة [1]، وسيطرت روح التضحية على الأنصار فكانوا يغيثون الفقير بالرغم مما في ذلك من إثقال لكاهلهم ، وفيما عدا ذلك نجد الأنصار قد قصروا مساعدتهم أول الأمر على الذود عن الدين ، ولم يساهموا في الحروب الأولى التي وجهت إلى مكة وكانت قلة حماسهم في المبادرة إلى الجهاد كثيرا ما تقلق بال النبي ، حتى آثر الاعتماد على عون الله ، مادام عون الإنسان ليس بقريب[2]

وحول الأفكار الخمسة التي وردت في هذا المقال للمستشرق (روكند ورف) رد الدكتور أحمد محمد شاكر بقوله :

(١) ليس في الكلمة معنى شرعي ومعنى غير شرعي ، بل هي كلمة استعملت في معناها اللغوي على الحقيقة كسائر أنواع الاستعمال اللغوي ، فكل أناس نصروا شخصا معينا ، أو عقيدة خاصة ، فكانوا أنصارا لمن قاموا بنصره ، فالكلمة استعملت هنا في معناها اللغوي الحقيقي ، وأطلقت على بعض أفراد مدلولها ، ولذلك قال في لسان العرب (النصير)، (والناصر) قال تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال] ، والجمع أنصار مثل شريف وأشراف .

(٢) هذه دعوى غريبة لا توافق أي دليل ولا نجد لكاتبها وجها يستند إليه ، ولا على سبيل الشبهة ، فإنه يرمي بذلك الأمة العربية في أوج فصاحتها وبلاغتها بأنها لا تفرق بين كلمتين تشابهتا في بعض الحروف ، وهما كلمتان مختلفتان بالمعنى ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية – خورشيد ٥ / ٧٣ – ٧٩ ، بتصرف طبعة دار الشعب .

(٢) السابق ذاته .

إحداهما: عربية خالصة مرجعها إلى مادة (نصر) التي اشتقت منها مشتقاتها ، والأخرى : نسبة شاذة على غير قياس إلى كلمة أعجمية الأصل هي علم جامد لا يشتق منه شيء وهي كلمة (ناصرة) اسم قرية قيل: أن المسيح عيسى عليه السلام ولد فيها أو نشأ بها ، ولن يشتبه الأمر بين الكلمتين على أجهل عربي بلغة قومه ، وقد جاء بها سيدهم وأفصحهم وأعلمهم بالعربية ، وصدع به قوما كان جل فخرهم بالفصاحة والبلاغة ... إلخ .

(٣) ادعى الكاتب في هذا الموضع دعاوي لا توافق شيئا من الحقائق التاريخية الثابتة ، فإنه يزعم أن لقب الأنصار إذا أطلق كان المقصود به الخزرج فقط ، بل الأوس والخزرج كلاهما أطلق عليه اسم الأنصار ، وإنما رأي الكاتب كلمة فنقلها على غير وجهها ، ولعله لم يصل إلى حقيقة معناها في اللغة العربية ، ونصها في مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٣ ص ٤٦٠ ـ ٤٦٢ ، في قصة بيعة العقبة الثانية من رواية ابن إسحاق عن معبد بن كعب بن مالك عن أخيه عبد الله عن أبيهما كعب بن مالك ، وكان ممن شهد العقبة أن العباس بن عبد المطلب حضر مع النبي ﷺ لقاء الخزرج والأوس في موعدهم بالشعب ، قال كعب : فلما جلسنا كان العباس بن عبد المطلب أول متكلم ، فقال : يا معشر الخزرج ، قال : وكانت العرب ما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج ، أوسها وخزرجها ، (حديث) إسناده صحيح ... الخ .

وكذلك نقل الكاتب: إن الأوس وقفت من النبي موقفا محايدًا إن لم تكن ناصبته العداء أحيانا إلى آخر ما ألقاه كأنه حقيقة تاريخية مقرره ، فإنه شيء لم نجد له مثيلا ولا شبيها مما في أيدينا من كتب التاريخ والسير والأحاديث ، ولا نرى شبهة له في نقله هذا ، وإن الأوس والخزرج كانوا سوء في نصرة النبي ﷺ ودعوته إلى الإقامة بين أظهرهم وكان الحاضرون من الأنصار في بيعة العقبة الأولى اثنى عشر رجلا منهم رجلان من الأوس ، وشهد بيعة العقبة الثانية ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان منهم أحد عشر رجلا من الأوس ، وشهد غزوة بدر ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين ، وواحد وستون من الأوس، ومائة وسبعون من الخزرج .

(٤) قال تعالى في سورة آل عمران في شأن الأنصار: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران:١٠٣] وقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال].

وخطب رسول الله ﷺ الأنصار ، فكان مما قال :« يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين ، فألفكم الله بى ، وعالة فأعتاكم الله بي»، فكلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أَمَنُّ .

ونقل ابن إسحاق وغيره أن آية آل عمران نزلت في شأن الأوس والخزرج ، وأنهم كاد أن يثور بينهم القتال بدسيسة من بعض اليهود ، فأتاهم النبي ﷺ فجعل يسكنهم ويقول :«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم »، وتلا عليهم الآية فندموا على ما كان عليهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح »[١]

(٥) هذا كلام ليس فيه شيء من التحقيق العلمي ، ولا هو يوافق أدب التحدث عن الأنبياء ، فإن النبي ﷺ أعلم الناس بالله ، وأرجاهم له ، وأشدهم خشية لله واعتمادا عليه ولا يعتمد إلا على الله ، ولا يرجوا النصر إلا من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وليس شيء من الصدق أن الأنصار لم يجاهدوا إلا كارهين ، فإن كل الروايات متضافرة على خلاف هذه الدعوى الباطلة ، ثم يورد المؤلف مواقف الأنصار في بدر وغيرها من الغزوات ، كما سنتحدث تفصيلا فيها ، وقد انفردت طبعة دار الشعب في القاهرة بإيراد تعريف لا حق عن الأنصار[٢]

(١) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ٢ / ٢٠٠ - ٢٠٧

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣ / ٥٥ ، ط ، دار المعرفة .

الأنصار : التسمية المألوفة التي أطلقت على أولئك القوم من أهل المدينة الذين نصروا النبي ﷺ للتفرقة بينهم وبين المهاجرين ، وهم أتباعه من أهل مكة ، ولما دخل العرب عامة في الإسلام بطل استعمال الاسم القديم ، الأوس والخزرج، وكان يطلق عليهم مجتمعين (بنو قيلة) وحل محله الاسم (الأنصار)، والمفرد الأنصارى قوله تعالى :

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة]، وقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة].

وبذلك أشيد بذكر الخدمات الأولى التي أداها أولئك القوم من أهل المدينة لقضية الإسلام ، ومن المحتمل أن يكون لقب الأنصار جمع (نصير) وكلمة المفرد نصير لم يستعمل في الاصطلاح قط ، وللفعل نصر معنى بذل العون للشخص على عدوه الذي أساء إليه ، وهذا كان لتعليل السبب في إطلاق اسم الأنصار على مسلمى المدينة (قيل لهم أحيانا أنصار النبي ... الخ) .

ثم لما هاجر النبي نزل على الأوس (ابني عمرو بن عوف) في قباء ، وعم الإسلام الأوس والخزرج،وأظهروا في نصرة النبي همة عظيمة فدعاهم (الأنصار)، وخطبهم النبي وكتب لهم كتابا عاهد فيه اليهود ، وأقرهم على دينهم ، ثم كانوا مع النبي في حروبه الكثيرة ، وأبلوا البلاء الحسن ، واستشهد جماعة من أشرافهم في تلك

المواقع[1] ومع هذا كله كان لقب الأنصار هو أهم ما فاخروا به حتى إنهم آثروه على أسماء قبائلهم بالمدينة المشهورة[2]

إن تتبع التسمية التي أوردناها تصل بنا في جميع تفرعاتها إلى بحر واحد ، وهم أولئك المسلمون الذين آمنوا ونصروا وضحوا في سبيل الله ، بكل ما تحت أيديهم من طاقات من عرب المدينة ، وخاصة من الأوس والخزرج وهما (ابنا قيلة) وتفرعاتها وقبائلهما ، ولم تطلق هذه التسمية في الإسلام على غيرهم ، ولم تطلق إلا عليهم وعلى ذرياتهم ، وعلى الرغم من أن النبي ﷺ أطلق على الصحابة الذين عاصروا النبي ﷺ من أهل المدينة ونصروه ، لكن هذا لم يمنع أن تستمر التسمية ملتصقة بكل من نبت أو ولد منهم أو والاهم ، أو انحدر من أصلابهم ، وإلى فترات طويلة من التاريخ ولكن يظهر العديد من الألقاب في العصر الحاضر في مختلف أنحاء العالم الإسلامى من يحمل هذا اللقب ، ويعتز بالانتساب إليه .

وهكذا فإننا نجد أن هذه التسمية ـ الأنصار ـ قد حددت في التاريخ قوما دون سواهم ، وكانت متميزة عن كل الأسماء الأخرى والمشتقات الأخرى ، وعلى الرغم من إن هذه التسمية قد أطلقت على بعض الأتباع في التاريخ مثل الأنصار في السودان أتباع المهدية ، فإن مدلولها لم يعط التوضيح الوافي الذي لبسته المجموعة الأولى من الأوس والخزرج ، ومع أن هذه التسمية أيضا قد أطلقت على بعض المريدين والأتباع للشيوخ أو للقادة السياسيين ، فإن الأنصار مازالوا في ذاكرة الأمة دون سواهم الذين آووا ونصروا من الأوس والخزرج ، والذين استقبلوا الرسول ﷺ بنشيدهم المعروف :

طلــــع البـــــدر علينـــــا مـــــن ثنيــــات الــــــوداع

وفتحوا بيوتهم وقلوبهم له ولأتباعه، وضحوا في سبيل الله، والدفاع عن الرسول والإسلام بكل ما يملكون، وهم الأنصار الذين لم يدخلوا في حسبانهم أي فكرة عن

---

(١) كتاب دائرة المعارف : البستانى ٧ / ٣٧٦

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣ / ٥٥ ، ط . دار المعرفة .

الحصول على مغنم في الدنيا ، مهما كان على الرغم من بعض الخواطر التي راودت بعض النفوس على مدار الأحداث إلا إنهم عادوا إلى أصالتهم التي فطروا عليها من النصرة والتأييد والتضحية الأكيدة ـ بعيدا عن أعمال المنافقين .

لقد أزال الرسول ﷺ أسباب العدواة بين الأوس والخزرج بجمعهم على الإسلام، كما أزال ما من شأنه أن يذكرهم هذه العداوة، وأن يثير فيهم حمية الجاهلية فسماهم (الأنصار) وهو اسم يطلق على الجميع على حد سواء، وفي ذلك جمع لهم حيث لا أوس ولا خزرج ، بل هم أنصار الله وأنصار دين الله ، لم يعد هناك داع للخصومة القديمة فقد كانت تلك للتنافس على السيادة سياسيا واقتصاديا ، فأصبحوا يتنافسون على نصرة الله ورسوله ، والله ورسوله يدعوان للمحبة والأخوة والسلام ، وشيء آخر فقد وجه رسول الله ﷺ هذه المعارك الطاحنة ، التي كانت لا تنقطع بينهم إلى أعدائهم ، فبعد أن كانت تحصد رؤوسهم، وتقصف برؤسائهم، أصبحت تضمهم في صف واحد ويدافع كل منهم عن أخيه، ويرد عنه ما يؤذيه، وأصبحت الحروب سببا في جمعهم بدلا من تفرقهم(١)

وبذلك فقد أصبح الأنصار قوة متميزة واضحة المعالم والحدود تركت كل ما في الجاهلية وأخذت كل ما في الإسلام ، وأصبح الأنصار أحد أهم أركان دعائم دولة الإسلام وأقوى وأصدق جنده .

(١) المدينة : السيد الوكيل ٢ / ٢٩

(٢) الأنصار والمهاجرون والمؤاخاة [1]

لقد قدم الأنصار للدعوة الإسلامية كل غال ورخيص ، ولم يبخلوا عليها بشيء من مال أو جهد أو ولد أو نفس ، وصدق الله العظيم بقوله فيهم وفي المهاجرين.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

إن هؤلاء الفتية من الأنصار من الأوس والخزرج الذين باعوا دنياهم بأخراهم واشتروا بإيمانهم رضوان الله تعالى عنهم ، قد قدموا لهذه الدعوة الكثير والكثير ، ولعل أمر المؤاخاة التي قامت بينهم وبين إخوانهم المهاجرين قد جاءت في ذروة خطهم البيانى من التضحيات .

لقد انسلخ القوم عن أهلهم وأبناء جلدتهم ومواليهم ، وارتضوا إخوة جددًا من غير دمهم ، ومن غير بلدهم ، وأعطوا هذه الأخوة حقها من الميراث وتقاسم الأموال والثأر، وكل ما كان يرتبط بين الأخوة من الناس قبل الإسلام ، ويرتبط به القوم عادة ، وهذه الفترة التي كانت الأخوة في الإسلام سائدة فيها قد أدت واجباتها وحقوقها ، كما تتحدث كتب السيرّ والتاريخ ، بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والأسرية دون أي ترددٍ أو تخلف في نفسٍ شكًا ، أو تؤجل أمرا إلى يوم تال .

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة؛ ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزرهم بعضهم ببعض ، فلما عز

---

(١) نظام الحكم : القاسمي ٢٨

الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة ، أنزل الله سبحانه ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٧٥] ، أعني الميراث ، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحُجُرات:١٠] ويعني في التواد وشمول الدعوة [(١)]

قال ابن اسحاق : وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال : فيما بلغنا ـ ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل ..

تآخوا في الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب ، فقال : هذا أخي، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذي ليس له نظير ولا مثيل من العباد وعلي بن أبي طالب ﷺ ، أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ ، وعم رسول الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وإليه أوصى يوم أحد حمزة حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت ، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين ، الطيار في الجنة ومعاذ بن جبل أخو بني سلمة .

قال ابن هاشم : وكان جعفر بن أبي طالب يومئذ غائبا بأرض الحبشة .

قال ابن إسحاق : وكان أبو بكر الصديق وخارجة بن زهيرأخو بلحارث بن الخزرج أخوين ، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخو بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين ، وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ بن النعمان أخو بني عبد الاشهل أخوين، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخو بلحارث بن الخزرج أخوين، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخو بني عبد الاشهل أخوين، ويقال بل الزبير وعبد الله بن مسعود حليف بني زهرة أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخو بني النجار أخوين، وطلحة ابن عبيد الله وكعب بن مالك أخو بني سلمة أخوين، وسعد بن زيد بن عمر بن

---

(١) الروض الأنف : السهيلي ٢ / ٢٥٢ ، نفس النص حاشية ابن هشام : السيرة النبوية ٢ / ١٥٠

نفيل[١]، وأبي بن كعب أخو بني النجار أخوين، ومصعب بن عمير بن هاشم ، وأبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد أخو بني النجار أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر بن وقش أخو بني عبد الأشهل أخوين،وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم وحذيفة بن اليمان أخو بني عبس حليف بني عبد الأشهل أخوين،ويقال : ثابت بن قيس بن الشماس أخو بلحارث بن الخزرج خطيب رسول الله ﷺ أخوين وعمار بن ياسر ، وأبو ذر وهو برير بن جنادة الغفاري ، والمنذر بن عمر والمعنق ليموت[٢] أخو بني ساعدة بن كعب بن الخزرج أخوين .

قال ابن هشام : وسمعت غير واحد من العلماء يقول : أبو ذر جندب بن جنادة .

قال ابن إسحاق وكان حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى ، وعويم بن ساعدة أخو بني عمرو بن عوف أخوين.

وسلمان الفارسى وأبو الدرداء عويمر بن ثعلبه أخو بلحارث بن الخزرج أخوين.

وبلال مولي أبي بكر مؤذن الرسول ﷺ وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الختمي ثم أحد الفزع أخوين .

فهؤلاء من سمى لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه .

فلما دون عمر الدواوين بالشام، وكان بلال قد خرج إلى الشام ، فأقام بها مجاهد ، فقال عمر لبلال : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال مع أبي رويحة ، لا أفارقه أبدا ، للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني فضم إليه ، وضم ديوان الحبشة إلى خشعم لمكان بلال منهم فهو في خشعم إلى هذ اليوم بالشام (أيام المؤلف) [٣] أخرج

---

(١) ورد فى طبعة دارالقلم (سعد) ، والصحيح سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، والإصابة : العسقلاني ٢ / ٤٦ ، والاستيعاب : ابن عبد البر ٢ / ٢

(٢) أي: إن المنية أسرعت إليه وساقته إلى الموت .

(٣) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٥٠ – ١٥٣ ، عيون الأثر : ابن سيد الناس ٢ / ٢٤٢

الإمام أحمد، عن أنس بن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قدم المدينة ، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فقال له سعد : أي أخي ، أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فانظر شطر مالي فخذه ، وتحتي امرأتان ، فانظر إليهما أعجب إليك حتى أطلقها

فقال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلوني على السوق فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح ، فجاء بشيء من أقط وسمن[١]

وأخرج البخاري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه للأخوة التي آخى بها النبي ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾[النساء:٣٣] نسخت، هكذا وقعت في هذه الرواية أن ناسخ ميراث الحليف هذه الآية ، وفي اللاحقة أن الناسخ هو نزول﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ ﴾ [الأنفال:٧٥] ، قال الحافظ: هذا هو المعتمد ، ويحتمل أن يكون النسخ ، وقع مرتين الأولى حيث كان المعاقد يرث وحده دون العصبة فنزلت ، ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا ﴾[النساء: ٣٣] فصاروا جميعا يرثون ، وعلى هذا ينزل حديث ابن عباس رضي الله عنهما ثم نسخ ذلك آية الأحزاب ، وخص الميراث بالعصبة ، وبقى للمعاقد النصر والإرفاد ونحوهما[٢]

أخرج البخاري ج ١ ، ص ٣١٢ عن أبي هريرة ﷺ قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل ، قال :«لا» ، فقالوا : أفتكفوننا المؤنة ونشرككم في الثمرة ؟ ، قالوا: سمعنا وأطعنا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﷺ قال رسول الله ﷺ للأنصار :«إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم »، فقالوا : أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله :«أو غير ذلك ؟» قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال :«هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر»،وقالوا: نعم (كذا في البداية ٣/ ٢٢٨)

---

(١)حياة الصحابة : الكاندهلوي ١ / ٣٦٢

(٢)حياة الصحابة : الكاندهلوى ١ / ٣٦٣، ٣٦٤

وأخرج الإمام أحمد، عن يزيد، عن حميد، عن أنس ﷺ، قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مؤاساة في قليل ، ولا أحسن بذلا من كثير ، لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال:« لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم» ، هذا حديث ثلاثي الإسناد على شرط الصحيحين ، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه ، (كذا في البداية ٣ / ٢٨٨) وأخرجه أيضا ابن جرير ، والحاكم ، والبيهقي (كنز العمال ٧ / ١٣٦) .

وأخرج البزار عن جابر ﷺ قال كانت الأنصار إذا جزوا (قطعوا) نخلهم ، قسم الرجل ثمره قسمين أحدهما أقل من الآخر ، ثم يجعلون السعف مع أقلها ، ثم يخيرون المسلمين فيأخذون أكثرهما ، ويأخذ الأنصار أقلها من أجل السعف ، حتى فتحت خيبر ، فقال رسول الله ﷺ لقد :«وفيتم لنا بالذي كان عليكم ، فإن شئتم أن يطيب أنفسكم بنصيبكم من خيبر ، ويطيب ثماركم فعلتم » قالوا إنه قد كان لك علينا شروط ، ولنا عليك شرط بأن لنا الجنة ، فقد فعلنا الذي سألتنا بأن لنا شرطنا ، قال :« فذاكم لكم» (قال الهيثمى ١٠ / ٤٠) .

وأخرج البخاري ، عن أنس ﷺ قال دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين،قالوا :لا إلا أن نقطع لإخواننا المهاجرين مثلها،قال:«أمالا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم آثرة»[1] ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك،وكانوا تسعين رجلا نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله ﷻ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ [الأنفال:٧٥] رد التوارث إلى الرحم دون عقدة الأخوة[2]

(١) حياة الصحابة : الكاندهلوي ١/ ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٣٢٨
(٢) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٦٣ ، مع حاشيته ص ٦٣

أما عن الأمر الثاني وهو صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر ، فقد أقامه الرسول ﷺ على الإخاء الكامل ، الإخاء الذي تمحى فيه كلمة (أنا) ، ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها ، فلا يرى لنفسه كيانا دونها ، ولا امتداد إلا لها .

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب العصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا بالإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه، وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا لا لفظًا فارغًا، وعملا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر[(١)]

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال ، حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين، فما نزل مهاجرى على أنصارى إلا بقرعة، وقدر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلوه ، ولا نالوا منه بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف[(٢)]، وكان رسول الله ﷺ الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة ، لم يتميز عنهم بلقب خاص وفي الحديث « لو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذته ـ يعنى أبا بكر ـ خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل »[(٣)]

والإخاء الحق لا ينبت من البيئات الخسيسة ، فحيث يشيع الجهل والنقص والجبن والبخل والجشع لا يمكن أن يصبح إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا أن أصحاب رسول الله ﷺ جبلوا على شمائل فتية واجتمعوا على مبادئ رضية ، ما سجلت لهم الدنيا التآخي الوثيق في ذات الله .

فسمو الغاية التي التقوا عليها وجلال الأسوة التي قادتهم إليها ، كل هذا نمى فيهم خلال الفضل والشرف ، ولم يدع مكانا لنماذج رديئة .

---

(١) فقه السيرة : محمد الغزالي ٢٧٠ - ٢٧٢

(٢) فقه السيرة : محمد الغزالي ٢٧٠ - ٢٧٢

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري ٧/ ١٤

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهودًا وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط لهم ، وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين ، فقال فيما بلغنا :« تآخوا في الله أخوين أخوين »، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال :«هذا أخي» . قلت : كانت هذه المؤاخاة بعد مقدمه ﷺ المدينة بخمسة أشهر، وقيل ثمانية، وهو يبني المسجد ، وقيل بعده، وقيل قبله ، وذكره أبو حاتم في السنة الأولى ، والظاهر أن ابتداءهما كان فيها ، واستمرت على حسب من يدخل الإسلام أو يحضر ، كما يعلم من تفاصيلها ، وقيل : وكانوا تسعين رجلا من كل طائفة خمسة وأربعون ، وقيل مائة ، آخى بينهم على الحق والمساواة والتوراث، وكانوا: كذلك إلى أن نزل بعد بدر ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ [الأنفال:٧٥] الآية.

وقال الواقدي لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين ، وآخى بين المهاجرين والأنصار .

وقال ابن عبد البر:كانت المؤاخاة مرتين الأولى :قبل الهجرة بمكة بين المهاجرين، فآخى بين أبي بكر وعمر ، وهكذا حتى بقى على ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : «أما ترضى أن أكون أخاك ؟ » ، قال بلى يا رسول الله. قال « فأنت أخي في الدنيا والآخرة ».

والمؤاخاة الثانية ما تقدم من مؤاخاة المهاجرين والأنصار ، وهي المرادة بقول الحسن : كان التوارث بالحلف فنسخ بآية المواريث[١]

ولأبي داود عن أنس بن مالك : حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا ، وحديث : لا حلف في الإسلام ، معناه حلف التوارث ، والحلف على ما منع الشرع منه .

وعبر رزين عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فيما نقله عن أبي حاتم بقوله ثم آخى بين أصحابه ، ودعا لكل واحد منهم دعوة ، وقال :« أبشروا أنتم في أعلى

---

(١) يعني أن الحلف كان معدودا من أنواع العصبة فى أول الإسلام في المدينة ، يرث الحليف حليفه بعد مرتبة أهل الفروض والعصبية ، ثم نسخ التوارث بالآية .

غرف الجنة »، وقال لعلي :« ما أخرتك إلا لنفسي أنت أخي ووارث علمي ، وأنت معي في الجنة في مقري مع ابنتي ».

وقصة المؤاخاة الأولى أقربها الحاكم : فذكر المؤاخاة بين أبي بكر وعمر ، وذكر جماعة ثم قال فقال على : يا رسول الله ، إنك آخيت بين أصحابك ، فمن أخي ؟ قال :« أنا أخوك»

وقد أنكر ابن تيمية في الرد على ابن المطهر الرافضي المؤاخاة بين المهاجرين خصوصا مؤاخاة النبي لعلي ، قال : لأنها شرعت للإرفاق والتآلف ، فلا معنى لها بينهم ، وهو رد للنص وغفلة عن حقيقة الحكمة في ذلك ، مع أن بعضهم كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة ، والارتقاء ممكن، وكان النبي يقوم بعلى من عهد الصبا ، واستمر ذلك[(١)]

ولم تكن المؤاخاة عملا أدبيا فقط كترحيب المضيف بضيفه الذي ينزل عليه ، بل ارتفعت إلى أعلى من ذلك فربطت بين المهاجرين والأنصار برباط معنوي ومادي بلغ حد التوارث بينهما بعد المهات ، وقد صعد الأنصار رضوان الله عليهم هذه الأخوة حتى بلغت مبلغا لم يخطر للعقل البشري ، فقسموا أموالهم بينهم وبين إخوانهم، وعرضوا زوجاتهم على المهاجرين، ليختاروا منهن اللواتي يعجبن فيطلقن ويتزوجن من المهاجرين .

وعن طريق المؤاخاة حلت مشكلة المهاجرين العاطلين الذين قدموا من مكة إلى المدينة ، ولا مال لديهم يستثمرونه ، ولا تجارة يديرونها في الأسواق ، ولا حركة يزاولونها ، كانت المؤاخاة وسيلة عملية لحل تلك المعضلة حيث شعر كل أنصارى نحو أخيه المهاجر بتبعة عظيمة؛ إذ كيف يعيش هانئا ناعما ، وأخوه يطوى أحشاءه من الجوع والمخمصة .

واقتضى واجب الأخوة بينهم أن يهيئوا أسباب العمل لإخوانهم حتى لا يكونوا

---

(١) وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٦٧ ، ٢٦٨ امتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٤٩ فما بعدها ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ٩٦ ، ٩٧ ، عيون الأثر – ابن سيد الناس ٢ / ٢٤١

عالة على غيرهم ، فشغلوهم في أرضهم مزارعة ، وأقرضوهم الأموال ، ودلوهم على أسواق المدينة ، وكانوا هم تجارا ماهرين فتاجروا وربحوا ، وظهرت آثار النعمة عليهم بعد أيام قليلة من تجارتهم[١]

مع كل ما قيل حول هذا الموضوع ، فإن المؤاخاة التي جرت بين المهاجرين والأنصار تبقى لوحدها حدثا فريدا في تاريخ الإنسانية ، قد يكون لها مثيل فردي .. أو لعله لم ينقطع، ونفوس البشر فطرت أصلا على الخير والتضحية من صفات الإنسان أولا وأخيرًا ، ولكن يبقى الحدث بعظمته وإجلاله فريدًا تماما ، ليس عند الأنصار فقط،بل وحتى عند المهاجرين أيضا،فإن الآخذ والمعطى سيان في الحدود .

المهاجرون لم يتركوا أموالهم وتجارتهم ودورهم وأرضهم ، وكل متاع الدنيا إضافة إلى أهليهم وذويهم وأزواجهم وذرياتهم ويهاجرون في سبيل الله إلا تسامى الإنسان بالإيمان إلى مرتبة تقرب من الكمال ، فعندما جاؤوا المدينة ، وقد خلفوا كل شيء وراءهم لم يكونوا جميعا مطرودين ، بل الكثير منهم نفذوا أمر الهجرة لأنها في سبيل الله وكفى ، والبعض ليتخلص من العذاب والهوان ، وتبقى التضحية أكبر كثيرا من متاع الدنيا

ثم جاء دور الأنصار فلا بد أن يكون هناك تواز تمامًا في التضحيات بين الطرفين فإن هؤلاء ـ الأنصار ـ ليسوا أقل إيمانا وأقل وفاء لهذا الدين ، فإن قدموا نصف ما يملكون فقد قدم المهاجرون كل ما يملكون، وإن جاء الأنصار رضوان الله عليهم بالمودة والوفاء والحماية والنصر ، فإنهم ارتضوا أخوة قوم جدد، تجمعهم بهم العقيدة والدعوة ، وترك كلا الطرفين كل ما في الدنيا خلفهم، ليؤسسوا جماعة أخرى تختلف ارتباطاتها عن المتعارف أصلا، فلقد كانت التضحية من أسمى أعمال الأنصار وأقواها ، ولكنها لم تكن كل شيء، فإن أمام الأنصار بعد هذه المؤاخاة الطريق الطويل ، فالمؤاخاة هي الخطوة الأولى فقط في طريق الإسلام العظيم ، ولولا هذه التضحيات لما كنا نحن الآن ، من ورثة هذا الدين العظيم .

---

(١) المدينة المنورة : السيد الوكيل ٢ / ٢٩ - ٣٠

(٣) الصحيفة وظهور دستور الدولة الإسلامية

مما لا شك فيه أن من الأعمال الكبيرة التي أرست قواعد الدولة الإسلامية في المدينة بعد بناء المسجد ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار هو العهد الذي عمله الرسول ﷺ ، وهو أول دستور داخلي ينظم شؤون الناس ، ويحدد الحدود بينهم ، ويعتبر بالدرجة الأولى تميزا للمسلمين وإظهارا لقوتهم وشأنهم ، وحدد الحقوق والواجبات لكل الفئات التي تقيم في المدينة وتتحكم فيها ، ولم يدع هذا العهد أمرا إلا وتطرق إليه في حدود السياسة الداخلية والخارجية ، ومع أن الصحيفة هي من عمل الرسول ﷺ الموحي له من ربه ، فإنها تعتبر بحق إقرارًا وإعترافًا من جميع السكان أن القوة أصبحت في المدينة للمسلمين،وأن الرسول ﷺ هو القائد والحاكم الجديد لهذه المدينة ، على الرغم من أن المسلمين الذين آخى الرسول بينهم لم يصل عددهم إلى المائة .

الكثير من الناس في المدينة سكتوا إعجابا ، أو انتصارًا ، أو نفاقا ، وبدأت هذه الأقنعة تسقط الواحد تلو الآخر . هذا من جهة العرب ، أما عن جهة اليهود فقد توصلت الآراء عندهم إلى عداوة الرسول ض على الرغم من وجود آراء ليست ضعيفة اعترفت بنبوته ﵇ ، ونصحت اليهود أن يدخلوا في هذا الدين ، وكانت هذه القوى باتجاهين:

الأول : أسلم ، وترك ملة يهود ، وهو قانع أنه فعل ذلك بأوامر من موسى ﵇ ومنهم عبد الله بن سلام .

والثاني : انطوى تحت لواء العداوة والمعاندة والمكابرة ، وسكت مؤقتا؛ لأنه لم يجد الرأي الذي يستطيع أن يجر به اليهود إلى الإسلام ، فآثر ألا يخرج عن دينه ، ويترك مذهبه وانتماءه والشق الأقوى من يهود، فقد أظهر العداوة، وسار في طريقها إلى النهاية .

حدثت أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب[١] ، رضي الله عنها قالت : كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدا عليه أبي وعمي مغلسين (بين الفجر وسطوع النور) فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيا الهويني، فهششت إليهما، كما كنت أصنع، فو الله ما التفت إلى واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي «أهو هو ؟» ، قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبته؟قال: نعم، قال: فما بنفسك فيه؟ قال: عداوته والله ما بقيت ، فشقيا بحسدهما والله أعلم[٢]. وإن هذا الجمع المضطرب الذي جمعته المدينة أمر لا بد من تنظيمه وضبطه ، فالمسلمون مهاجرون وأنصار من منابت شتى جمعتهم أخوة الإسلام والمؤاخاة ، ثم المشركون من العرب سواء من الأوس والخزرج أو من سواهم ، واليهود من بني قينقاع وقريظة والنضير أو يهود العرب ، والمنافقون الذين بدؤوا يدخلون الإسلام نفاقا وتقية ، ومن ثم قريش التي لن تسكت على هذا الوضع ، وتسمح بأن يزداد نفوذ محمد في المدينة وما حولها ، والعرب الوثنيون في الجزيرة العربية ويشاركها سيادتها الاسمية على الأقل ، هذا التجمع المتفاوت المختلف لابد من تنظيمه .

وقد جاءت الصحيفة جامعة لكل توجيهات هذه التناقضات ، وضعت كل إنسان عند حده وفي إطاره الصحيح ، وأن يتمكن الرسول ﷺ في فترة قصيرة بعد وصوله المدينة والتي لم تتعد بعد الأشهر، ويقال بعد أن فرغ من بناء المسجد ، أو قبل ذلك بقليل يدل على أن القوى الموجودة في يثرب قد اعترفت بقيادته وسيادته على المدينة ، ولم يظهر من المسلمين بعد وعلى الفور الجيل الذي تمخضت عنه الدعوة ، لكنه كان تجميعا للقوى التي سينطلق بها إلى آفاق الدنيا

---

(١) الطبقات الكبرى : ابن سعد ٨ / ١٢٠ ، ١٢٩ . حياة صفية بنت حيي رضي الله عنها .

(٢) وفاء الوفا: السمهودي ١/ ٢٧٠

إن دراسة الصحيفة قد تعطى الكثير من الدلائل التي نود أن نصل إليها ، والتي تعتبر تجسيدا قويا؛ لتحول فكر الأنصار السياسي إلى الرسول وإلى الإسلام ، وإلا لما كان بمقدور الرسول ﷺ بقوة بسيطة من المهاجرين أن يفرض رأيه على أهل يثرب جميعا ، وإنما كان ثبات الأنصار ، وطرح فكرة تتويج عبد الله بن أبي من أذهانهم نهائيا ، والالتزام التام بالإسلام من قبلهم والمهاجرين هو الذي أعطى هذه الصحيفة قوة الالتزام للآخرين .

لما استقر الرسول في المدينة رأي أن يضع الأسس التي تعتقدها مهمة لتنظيم الحياة العامة فيها،وذلك حتى تتضح الأمور،وتتحد العلاقات،وتضبط المسؤوليات التي تترتب على جميع الفرقاء الذين يشتركون في العيش في مدينة واحدة ، سيما وأنهم من أصول مختلفة ، ويعتنقون أكثر من ديانة، ولا تجمعهم وحدة الموقف والمصلحة[١]

ولقد أورد ابن هشام نص الصحيفة كما وردت بتفصيلاتها[٢] كاملة، وقد فصلها الدكتور نبيه عاقل على النحو التالي[٣]

يقول ابن إسحاق : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم :

١ـ إنهم أمة واحدة من دون الناس .

٢ـ المهاجرون من قريش على ربعتهم (الرباعة: الحال الذي جاء الإسلام وهم عليها) يتعاقلون (يدفعون ديات القتلى المتوجبة عليهم) بينهم، وهم يفدون عانيهم (العاني : الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

---

(١) تاريخ العرب القديم : عاقل ص ٤٤١ ، عبقرية الإسلام : العجلاني ض ٣٦

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٤٧ . السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٣٢١ ، زاد المعاد ك ابن القيم ـ تاريخ العرب القديم ٣ / ٦٥ ، عيون الأثر : ابن سيد الناس ١ / ٢٣٨ ، المدينة : د الوكيل ٢/ ٣٣، تاريخ العرب القديم: السيد عبد العزيز ٧٩

(٣) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول : عاقل ٤٤٢ – ٤٤٩ ، نظام الحكم في الشريعة : القاسمي .

٣ ـ وبنو عون على ربعتهم يتعاقلون معاقيلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ ـ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى . إلخ كما في الفقرة ٣

٥ ـ وبنو والحارث ... إلخ كما في الفقرة ٣

٦ ـ وبنو جشم ... إلخ كما في الفقرة ٣

٧ ـ وبنو النجار ... إلخ كما في الفقرة ٣

٨ ـ وبنو عمرو بن عوف ... إلخ كما في الفقرة ٣

٩ ـ وبنو النبيت ... إلخ كما في الفقرة ٣

١٠ ـ وبنو الأوس ... إلخ كما في الفقرة ٣

١١ ـ وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا (المفرح الثقل الكثير العيال) بينهم ان يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

١٢ ـ و لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣ ـ وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعهم، ولو كان ولد أحدهم

١٤ ـ ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن .

١٥ ـ وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

١٦ ـ وإنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

١٧ ـ وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

١٨ ـ وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .

١٩ ـ وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله،وأن المؤمنين على أحسن هدى وأقومه.

٢٠ ـ وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

٢١ ـ وإنه من اعتبط (قتل بلا جناية) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه تؤد به (أي يقتل القاتل المتعمد تعويضا على ما جنيت يداه) ، إلا أ ن يرضى ولى المقتول ، وإن المؤمنين كافة لا يحل لهم إلا قيام عليه .

٢٢ ـ وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا (المحدث هو المبتدع الذي يقوم بعمل يغير الأوضاع القائمة في المجتمع)، ولا يؤويه ، وانه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٣ ـ وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله ـ عز وجل ـ وإلى محمد رسول الله .

٢٤ ـ وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٥ ـ وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

٢٦ ـ وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

٢٧ ـ وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

٢٨ ـ وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

٢٩ ـ وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بن عوف .

٣٠ ـ وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

٣١ ـ وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣٢ ـ وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣ ـ وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن البر دون الإثم .

٣٤ ـ وإن موالى ثعلبة كأنفسهم .

٣٥ ـ وإن بطانة (خاصة الأهل) يهود كأنفسهم .

٣٦ ـ وإنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد ﷺ [١]

٣٧ ـ وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم .

٣٨ ـ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٣٩ ـ وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٠ ـ وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤١ ـ وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

٤٢ ـ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله ﷻ ، وإلى محمد ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره (أي أن الله وضربه المؤمنين على الرضا به) [٢]

٤٣ـ وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها

---

(١) في السيرة النبوية: ابن هشام ٢/ ١٤٩ ، هذه الفقرة سقطت هنا : وإنه لا ينحجر على ثأر جرح ، وإنه من فتك ، وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أثر هذا (أي على الرضا به)

(٢) ساقط من كتاب تاريخ العرب القديم : عاقل .

٤٤ ـ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٥ ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

٤٦ ـ وإن يهود الأوس ، مواليهم ، وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة (مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة) [١]

٤٧ـ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ ، ثم يتابع المؤلف تحليل الصحيفة ، ويورد بعض الآراء فيها .. يقول :

إن صحة هذه الوثيقة أمر لا يناله الشك ، ولكن الشيء الذي آثار النقاش بين بعض المستشرقين هو تاريخها ، وإذا كانت قد كتبت قبل وقعه بدر أم بعدها ؟

فالمستشرق (فلها وزن) يقول : إنها سابقة لبدر ، فى حين أن (هيوبرت غريم Grmme) من مستشرقي القرن التاسع عشر ، يقول عنها : إنها تالية لهذه الموقعة ، بيني اعتقاده هذا على الأسس التالية :

١ـ ما جاء فى البندين ٢٣ ، ٣٦ من أن محمدا .هو الحكم فى الخلافات التى تقوم بين الأطراف المختلفة فى المدينة ، ومن أنه هو فقط الذى يأذن بالخروج للحرب لجماعته ، دليل قاطع على المكانة الرفيعة التى غدت له فى المدينة ، ولم يصل محمد إلى هذا المركز إلا بعد موقعة بدر .

٢ـ إن ماجاء فى بعض بنود هذه الوثيقة ١٧ ، ١٩ ، ٤٥ ، من إشارات إلى القتال فى سبيل الله أو فى سبيل الدين ، يتضمن إشارة مباشرة إلى أن القتال قد بدأ قبل قبل كتابة هذه الوثيقة ، ولا يمكن للرسول أن يطلب من أهل المدينة أن يقفوا موقفا

---

(١) السابق ذاته .

عدائيا من قريش، إلا إذا كانت قريش قد هاجمتهم ، أو اشتبكت معهم فى قتال، ولم يحدث هذا الأمر قبل بدر .

ولا يوافق (كاتياني) على هذه الحجج أو الأسلوب في المناقشة ، ويرده فى حوار طويل ، ويقرر مع (فلها وزن) أن الوثيقة سابقة لموقعة بدر لا تالية لها .

أما المستشرق (مونتجمرى وات) فقد استعرض آراء جميع الذين سبقوه من المستشرقين ، وبعد مناقشة لها يقرر إن الوثيقة لا ترجع إلى تاريخ واحد ، وأنها لم تكن فى الأساس وحدة لها جميع هذه البنود التى يذكرها ابن إسحاق ، على أساس أنها كل متكامل وضع في وقت واحد ، وما بين هذه المقاطع من تفاوت فى اللغة والأسلوب (مؤمنون ، مسلمون ...) كما يبينه على أساس ما ورد من اليهود فيها كاعتبارهم في بنودها الأولى جزءا من الأمة أو الجماعة المدنية ، وهذا ينطبق على وضعهم فى الفترة الأولى من هجرة الرسول إلى المدينة ، وفصلهم عن هذه (الأمة) أو (الجماعة) بعد بدء لقتال بينه وبين قريش،وتخصيص حقوق وواجبات للجماعات اليهودية المختلفة منفصلة عما يترتب على المسلمين،وذلك واضح فى البنود الأخيرة ، وبعد كل هذا يصل (مونتجمرى وات) إلى القول : بأن الوثيقة بشكلها الذي يورده ابن إسحاق لا تمت إلى الوثيقة الأصلية ، وإن ما يرد من بنود فى وثيقة ابن إسحاق هو تجميع لشروط ومواثيق أخذها الرسول ﷺ على الفئات المختلفة خلال مراحل عديدة تبدأ من بيعة العقبة ، وتمتد إلى ما بعد بدر[١]

وأيا كان ، فإنه من المهم أن نلاحظ أن هذه الوثيقة لا ترد إلا فى سيرة ابن إسحاق[٢] التي نقلها ابن هشام ، وفي نصوصها إتقان تام ما كان يجرى وما تحتاج إليه المدينة فقد نصت فى جملة ما نصت عليه على أمور أهمها :

١ـ اعتبار جميع المسلمين على اختلاف فئاتهم ، وانتمائهم القبلي أمة واحدة (إنهم أمة واحدة من دون الناس)

---

(١) M watt mohammadat madina،1956 pp 225 -228 .

(٢) حاشية: صفحة ٧٤٥ ومن المصدر المشار إليه .

٢ـ التضامن التام والمسؤولية الكاملة بين أفراد الجماعة الإسلامية (البنود ١٢، ١٣، ولا سيما ١٥) .

٣ ـ فتح المجال أمام اليهود والراغبين فى الدخول فى الإسلام ، وضمان نفس الحقوق والواجبات لهم وعليهم (البند ١٦) .

٤ـ تقرير حرية الاعتقاد لليهود (البند ٢٥)

٥ ـ الحق فى فض الخصومات بين أهل المدينة يعود لله ولرسوله (البنود ٢٣، ٣٦، ٤٢) .

٦ـ حددت الصحيفة لأهل المدينة جميعا بفئاتهم المختلفة موقفا واضحا من قريش ، ولا يجوز لأي أحد أن يحيد عنه ، كما حددت نفس الموقف بالنسبة لكل من ناصر قريشا (بند ٤٣)

٧ ـ الدفاع عن المدينة مسؤولية جماعية تتساوى فيها جميع الفئات (البند ٤٤) .

٨ ـ أوضحت الوثيقة أن الحرب مسؤولية جماعية ، وأنه في حال نشوبها فعلى كل فريق من فرقاء المدينة أن يتحمل النفقة التى تترتب عليه (البنود ٢٤ ، ٣٧) .

٩ـ قررت الوثيقة حرمة المدينة ، أى أنه يحرم فيها ما يحرم بمكة (البند ٣٩) .

١٠ـ قررت الوثيقة فى أكثر من موضع المسؤولية الجماعية لكل فئة من الفئات المسلمة ، (مهاجرين ، أنصار) فيما يتعلق بالديات والفديات ، كما قررت مسؤولية الجماعة المسلمة كلها عن هذين الأمرين ، بقطع النظر عن انتماء المسؤول المباشر إلى فرع معين من فروع المسلمين (البنود، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨ ، ١٠ ، خاصة ١١) .

١١ـ أوضحت الوثيقة شدة الصلة بين المؤمن والمؤمن ، هذه الصلة التي تبلغ حد التفضيل على القربة بالتوالد (البند ١٣ بصورة خاصة) .

١٢ـ قررت الوثيقة أهمية الولاء والجوار ، وأعطت المولي والجار نفس الحقوق والواجبات التي أعطتها لأبناء القبائل العربية أو اليهودية (البنود ٤٠ ، ٤٦ ، ٥٥)

كما أن أحد الباحثين المحدثين قد أعطى تحليلا لهذه الصحيفة بقوله[(١)]

ونستنتج من هذه الوثيقة الهامة التي تعتبر دستور الدولة المدنية عدة أمور منها :

١ـ إن الصحيفة تجاهلت نظام القبلية االذي يفتت وحدة العرب ، وجعلت من المسلمين جميعهم مهاجريهم وأنصارهم ، ومن تبعهم ممن لحق بهم ، وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس ، وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى إذ اعتبر جماعات المسلمين أمة واحدة :

قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] .

وبهذا الاسم االذي أطلق على جماعة المسلمين والمؤمنين ومن تبعهم من أهل يثرب ممن احتفظوا بدينهم ألغى النبي ﷺ الحدود والفواصل القبلية ، واندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة التي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام ، فهم يتكافلون فيما بينهم ، وهم ينصرون المظلوم على الظالم وهم يرعون حقوق القرابة ، والصحبة والجوار ، ولم تستبعد الصحيفة من مدلول الأمة الفئات التي لم تعتنق الإسلام بعد الأوس، وطائفة من اليهود الذين يوالون المسلمين ويحاربون معهم ، وإن كانوا لا ينتمون انتماء وثيقا إلى الأمة الإسلامية ، انتماء المهاجرين والأنصار؛ إذ إن درجة الانتماء إلى الأمة الإسلامية كما حددتها الصحيفة كانت تتفاوت بين طبقات سكان المدينة ، فقد فرقت بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل .

٢ـ على الرغم من أن الصحيفة تجاهلت نظام القبيلة ، واندمجت كل طوائف المدينة في الأمة الإسلامية ، إلا أن هذا الاندماج لم يتم إلا عن طريق القبيلة ، فكأن

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : السيد عبد العزيز ص ٨٢ ، ٨٤ .

القبائل دخلت الأمة بتنظيماتها القبلية القديمة ، وألقى على كاهل القبائل عبء دفع ديات القتلى وفديات الأسرى، على نفس النظام االذي كان متبعا في العصر الجاهلي ، كذلك أبقت الصحيفة على رابطة الولاء ، وما يترتب عليها من حقوق الموالاة ، فلم تجز لأحد أن يخالف مولى دون مولاه .

بالإضافة إلى ذلك أباحت الصحيفة حق إجارة أي شخص غريب ، ولم تستثن إلا قريشا ومن نصرها ،« وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها».

وفي البند الثالث يتحدث الكاتب عن قضية الأخذ بالثأر ، وقضية الاقتتال بين المسلمين ، وفي البند الرابع تحدث عن أن الصحيفة تركت قضية فض المنازعات لله تعالى ولرسول الله ، وفي البند الخامس تحدث عن أن الصحيفة أكدت على تضامن المسلمين والمؤمنين وتماسكهم أمام أي خطر خارجي .

وأخيرا تحدث المؤلف عن توجه الصحيفة إلى العلاقة بين المسلمين واليهود ، وتركت لهم حرية الاعتقاد بقولها :« إن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة».

وفي مجال دراستنا نحب أن نؤكد أيضا على القضايا المتعلقة بالأنصار ، والتي تطرقت إليها هذه الصحيفة خاصة وأنها كتبت في ديارهم ، وبعد وصول النبي ﷺ إليهم ، وقيام دولة الإسلام في مدينتهم وفوق أرضهم ، وهم احد الأطراف الفاعلة في حياة هذه المدينة وهذه الدولة نرى أن الصحيفة قد فرقت بين الأنصار والمهاجرين هما أمة الإسلام فقط ، أما من لم يكن منهم فقد يكون من مواليهم ، أو من معاهديهم ، وحددت الصحيفة بوضوح حدود كل من هذه الفئات ، وإمكاناتها في الحرب والسلم والتآزر والدفاع والهجوم ، وديات القتلى والعلاقات الاقتصادية والسياسية .

ونرى أن الأنصار قد خرجوا من ارتباطاتهم السابقة القبلية منها والفكرية فبعد أن كانوا كل الأوس والخزرج وأكثرهم تنحى باتجاه ملكية خزرجية ، فإن أكثر

الأوس والخزرج الذين شكلوا بعد ذلك الأنصار قد طرحوا هذه الفكرة ، وانقادوا تماما إلى قيادة الرسول ﷺ وإمرته واتخذوا الإسلام خط حياتهم ومصيرهم ، قد اتضحت الصورة لديهم منذ العقبة الثانية ، على أنهم سيدعون اخوة الدم والقبيل والنسب ، ويشكلون مع إخوانهم المهاجرين أمة واحدة من دون الناس ، وبذلك فإن الصحيفة قد أوضحت الكثير من الأفكار الجديدة التي أصبحت خطا للأنصار والمهاجرين،وبموجبها أصبح عليهم أن يدافعوا عن الإسلام،لا عن ثارات قديمة، ولا أحلاف قبلية ولا عن حروب وأيام أرهقتهم خلال تاريخهم الطويل .

لقد حددت الصحيفة دور الأنصار كمسلمين، وفرقت بينهم وبين من بقى من أهلهم على وثنية في كل شيء ، في الموالاة ، وفي الانتماء ، وفي الدفاع ، وفي السياسة ، وفي الإدارة إذ إن ارتفاع قيمة المسلمين جعل الآخرين في حمايتهم، وتحت إشرافهم، فلا يخرج أحدهم إلا بإذن من الرسول ولا يحالفون أعداء المسلمين ، ولا يتاجرون معهم ، ولا يقدمون لهم الحماية ، بل وجب عليهم بموجب هذه الصحيفة أن يقطعوا صلاتهم التجارية والمالية معهم وربما السياسية أيضا

وقطعت الصحيفة بوضوح تحالفات الأنصار السابقة مع اليهود،والتي استمرت زمنا طويلا ، وتميز بذلك المسلمون عن سواهم .

إن الصحيفة تعتبر حولا خطيرا وواضحا في فكر الأنصار السياسي ، واالذي يعتبر تابعا للعقيدة الإيمانية التي اعتنقوها منذ اللحظات الأولى لدخولهم في الإسلام ، واعتبروا أن كل شيء من روابط الجاهلية ساقطا ، وأصبح المسلمون من الأوس والخزرج أي ـ الأنصار ـ قوة الدين الجديد وجنوده المدافعين عنه ، ولقد قدمت السيرة هذه الصحيفة على المؤاخاة فبعد أن ذكرت تفاصيلها ، انتقلت فورا لذكر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، والاعتقاد ، والله أعلم أن هذه الصحيفة يبدو أنها تمت بعد المؤاخاة قطعًا ؛ لأنها لم تعد تتحدث عن المؤمنين إلا كجماعة متلاحمة قوية ماتت فيها روابط الجاهلية الماضية، واعتبرتهم متميزين عن كل الفئات التي وردت في الصحيفة بجمعهم وليس بأسمائهم الأولى .

(٤) الأنصار في ظل قيادة الرسول ﷺ

لم يرد في كتب التاريخ، ولا دون المؤرخون حب قوم لقائدهم مثل حب الأنصار والمهاجرين والمسلمين الأولين لرسول الله ﷺ خاصة ، ثم حب المسلمين قديمًا وحديثًا ومستقبلًا عامة ، إلا أن المقاييس تختلف اختلافا جذريا في هذ ا المضمار، فمنذ أن تعرف الرهط من الخزرج على رسول الله ، دخل في قلوبهم حبٌّ أنساهم كل ما يحيط بهم من أشكال وألوان وحياة ، نعم هذه حقائق لا يتطرق إليها الشك ، فعلى الرغم من أن القوم لم يعرفوا بعد ما هو حدود المطلوب منهم ، وماذا يمكن أن يقع على عاتقهم مستقبلا ، فإنهم اندفعوا بحب الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، وانصاعوا إليه انصياعا عجيبا إلى درجة أنهم أصبحوا جزءا من تفكيره، وقطعة من جسده يحركهم في كل لحظة، وفي أي اتجاه كان .

لا يُـخِلُّ أن بعضا من القوم (الأوس والخزرج) ، قد تأخروا وتخلفوا ونافقوا وحقدوا ، وهذه كلها أمور طبيعية في بني البشر ، إلا أن الحديث عمن اصطبغت صفتهم بالأنصار ، وليس عن كل الذين ينتمون إلى تلك الأصول .

قصدنا في هذه الدراسة الأنصار، ولذا فإننا نرى أنهم تحولوا من بشر يملكون في نفوسهم المشاعر والارتباطات والعادات ، ويخضعون لطبيعة تكوينهم ووجودهم إلى أعراف وقوانين ، وينتمون بموجب معارفهم غير المدونة إلى قبائل وبطون ، ويحفظون في رؤوسهم بموجب الانتماء من يثأر وممن يتم الثأر،ومن يقع عليه الثأر، هؤلاء بالطبع كانوا في مجتمع هذا ديدنه ، وهذا تفكيره ، وهذه قوانينه وأعرافه ، وقد خرجوا حديثا من آخر ملحمة ما كان لأحد فيها من رأي ، إنما قادتهم الجاهلية والعصبية إلى هذا الاقتتال االذي أطاح برؤوس ساداتهم وقاداتهم تقريبا ، وبرزت تلك القيادات الجديدة في كلا الحيين ، هذه القيادات التي قادت التحول الكبير في

هذه الحقبة الصغيرة من الزمن دليل على أن الحدث كبيرًا جدًا ، ذابت فيه عقولهم وقلوبهم ، فأضحى كل ما بنفوسهم من مشاعر وأحاسيس يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنبي المرسل ﷺ ، وهو ليس من قبيلتهم وليس من قادتهم وليس من أبناء عمومتهم ، فلعله هناك خؤولة بينه وبين حى واحد منهم وهم الخزرج ، والناس قد قطعوا عري الأخوة العصبية واقتتلوا بها ، فليس من المعقول بحال أن يبحثو عن خؤولة بعيدة ليحافظوا عليها ، فإن في الطرف الآخر عددًا لا يستهان به لا يمكن أن يسكت على هذا التحالف ، ويناقش هذه المحبة المفاجئة .

ولكن الأمر يختلف ، والحديث إذا أخذنا بجزئياته لن يخرجنا منه ، وإذا كانت كتب السير والتاريخ والحديث قد أعطتنا صورة عن هذا ، فإن الصور الأخرى التي لم تصلنا أعظم وأثبت ، وبالقياس فإن الارتباط العضوى والعاطفي والنفسى بالرسول ﷺ قد قدم لنا المؤرخون منه أمثلة فقط ، وليست بالطبع تسجيلا لكل ما في هذه القضية من بيان ، الأنصار في البداية ، والذين لم يتجاوز بعد عددهم عدد أصابع اليد ، سلكوا منذ البداية طريق حب محمد ، ثم ازداد العدد ، ثم أصبح القوم في قوة لا مثيل لها ، ولقد تمكنوا ـ رغم قلتهم ـ أن يفرضوا سلطانهم على المدينة ، ليس على شكل سيطرة عسكرية فيها القهر والظلم والغلبة ، ولكن سيطرة عاطفية باعتبار أنهم تحولوا إلى أناس آخرين يتبعون رجلا نبيا قادمًا إليهم من مكة في القريب العاجل

لقد أثبت هؤلاء أن سيطرتهم على يثرب عندما أخضعوا كل أحداثها لتصرفاتهم من استقبال المهاجرين وتسكينهم ، والدفاع عنهم ، وفتح باب حرية الدعوة لهم ، وحمايتهم والدخول معهم في دين واحد ، إلى استقبال النبي ﷺ االذي كسب عواطف الناس كلهم حتى تزاحم للناس للخروج لرؤيته ، فقد تمكن هؤلاء على قلتهم أن يطغوا على ملكية ابن أبي وما يعدلها من ترتيبات ، وطغوا على يهودية اليهود ورهبانية أبي عامر الراهب ، ووثنية البقية الباقية من أبناء جلدتهم ، لقد تمكن هؤلاء العصبة من القوم أن يتصرفوا وبمنتهى الحرية بمقدرات المدينة ، ويجعلوا كل

الناس ينظرون إليهم على أنهم أصحاب السيادة فعلا ، وإن الأمر قد أصبح بأيديهم وهم قلة ، وإلا لماذا لم يقف الأعداء الكثر لهم وللإسلام ليردوهم عن الاسترسال بفعلتهم ، ولم يجرؤ أحد ـ كما حدثت الأخبار ـ على أن يقول : لا، أولم؟ ، أو لماذا ؟ ، أو كيف ؟

الجميع عقدت ألسنتهم الدهشة والأنصار يتصرفون بمقدرات المدينة كما يردون ، ويقيمون دولتهم بكل ثبات وقوة وعزم ، ويتحركون بأوامر الرسول ﷺ في أي اتجاه، غازين أحيانا، مدافعين أحيانا، فارضين سلطانهم خارج المدينة أحيانا أخرى، ولم يمض كبير وقت حتى تحرك البعض تنفيذًا لأوامر الرسول بالقضاء على كل من تحدثه نفسه أن يعادى هذه الدولة أو أبنائها .

والقوم يجلسون أمام الرسول ﷺ يسمعون خبر السماء ، فقد أصبحت قلوبهم مرتبطة بعنانها ، أصبحت قلوبهم بيد الله ـ عز وجل ـ يحركها كيف يشاء .

ولابد من إيراد بعض الأمثلة عن طيب هذه العلاقة التي تدفع كل شبهة ترد من أي مصدر كان لهذه العلاقة ، ونحن بصدد الحديث عن الأنصار ، وللآخرين بعدهم حديث آخر ، ونتم ما نقله مؤلفوا دائرة المعارف الإسلامية(١) وبعض الرد عليه ليكون فاتحة هذا الباب ، وأخذ الأنصار ينصاعون للنبي ﷺ شيئا فشيئا ، كان عليهم تأييده في دعوته ، وعدم مساعدة خصومه ، مثال ذلك أنهم أمروا بأن يكونوا عيونا للنبى على الكفار من أقاربهم ، على أنهم في الوقت نفسه احتفظوا ـ إلى حد ما ـ بحقهم في إبداء الرأي، وطالبوا بتوقير أشخاصهم، وهو أمر أمرهم النبي ﷺ عليه، ولم يكن هناك ما يدعو الأنصار إلى الأسف على تأييدهم للنبي ﷺ إذ تحقق ما ورد بالقرآن من أن«الله ينصر من ينصره» وما إن خلص الأنصار من المحن حتى تحسنت حالهم بتدفق الغنائم على المدينة ، ونفاق تجارتها ، ولما استولى المسلمون على مكة خشى الكثيرون من الأنصار أن ينقل النبي عاصمته إليها ، ولكنه بدد مخاوفهم

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : خورشيد ٣ / ٥٨ .

بقوله إنه يريد أن يعيش حيث يعيشون ، ويموت حيث يموتون ، ومن الواضح أنه لم يكن ليجد مؤيدين يطمئن إليهم في أية بلدة كما وجد الأنصار في المدينة ، ومع هذا ، فقد قدر لهم أن يروا أشراف مكة الذين ذهبوا في مناوأة النبي كل مذهب سينعمون برضاه .

أما الرد على هذه الافتراءات ، فإنه لا يحتاج من أي مطلع مهما كانت ثقافته على السيرة النبوية ، ليقول لا ، فإن ما قدمه الأنصار خاصة للإسلام ولنبي الإسلام لم يتكرر مثيل له في التاريخ ، إذ إن هؤلاء القوم كانوا يتبارون بحب الله ورسوله ، ومن لم يتمكن من الفوز في هذه المباراة فهو الشهيد االذي قدم نفسه في سبيل الله ، وفي سبيل نصرة دينه وهي أعلى مراتب التضحية والفوز بمرضاة الله تعالى .

ومن هذه الأحداث الكثيرة نسوق بعض الأمثلة التي لا تحصى، نسوق بعضا منها لا للرد ، فإن سيرة المصطفي ﷺ أسمى من أن تصبح مجالا للدفاع عنها ، فهي نور يشيع في قلوب المسلمين إلى يوم الدين .

كان أنس بن النضر بن ضنضم عم أنس بن مالك لم يشهد مع الرسول ﷺ يوم بدر ، قال أنس بن مالك : فشق عليه ، وقال : في أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ..؟ لئن أراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ليريني الله ما أصنع ، فهاب أن يقول غيرها ، قال : فشهد يوم أحد مع رسول الله ﷺ ، فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس: يا أبا عمرو أين .. ؟ واهًا لريح الجنة .. أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قتل ، فوجدوا في جسده بضها وثمانين بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته، عمتي الربيع بنت النضر: « فما عرفت أخي إلا ببنانه »، ونزلت هذه الآية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب][1] فقد كانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ٥ / ٢٨٤٤ ، ابن كثير : تفسير ٣ / ٤٨٤ ، مجمع البيان : تفسير الطبري ٧–٨/ ٣٥٠

(رواه الإمام أحمد في المسند رقم ١٣٠٤٧ ، و ١٣١١٧ ، و ١٣٦٩٣ ، ج ٢ ص ١٩٤ و ٢٥٣ ، رواه البخاري ج ٦ ص ١٦ ، ١٧ فتح الباري) .

فهذه الأحاديث الصحيحة ، وهي من رواية أنس بن مالك ـ وهو أنصاري ـ صريحة في أن قومه لم ينكصوا عهدًا عن الجهاد ، ولم يتردد في بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الدعوة إلى الله، وإلى الدين الحق االذي آمنوا به، وعاهدوا بينهم على السمع والطاعة والنصر والتأييد .

وحسبنا هذا لندل على بطلان ماادعاه كاتب هذا المقال .

روى مسلم في صحيحه ج ٢ / ٦٣ عن أبي هريرة في شأن غزوة الفتح: فقالت الأنصار بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته ، قال أبو هريرة وجاء الوحى ، وكان إذا جاء لا يخفي علينا ، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى الرسول ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما انقض الوخي قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار »: قالوا لبيك يا رسول الله ، قال :« قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ؟» قالوا :« قد كان ذلك »، قال :« كلا ، إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم ، المحيا محياكم ، والمهات مماتكم »، فأقبلوا إليه يبكون ، ويقولون والله ما قلنا االذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله ، فقال رسول الله ﷺ « إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم» ، وانظر سيرة ابن هشام ص ٨٢٤ ، والسيرة الحلبية ، ٣ / ١٣٨ طبعة بولاق ، والمواهب اللدنية (١/ ١٥٧ طبعة الشرقية) وشرح المواهب للزرقاني ٢ / ٣٩٧ طبعة بولاق[1]

لقد وقف الأنصار في استقبال رسول الله بدخوله المدينة موقفا رائعا ، يأمل كل منهم أن ينزل عنده الرسول؛ ليكون له شرف استضافته ، وتصف كتب السيرة هذه المظاهر الرائعة بكل تفصيلاتها وجزئياتها وأسماء أصحابها حتى أولئك الذين لم يدخلوا كلية في الإسلام ، قد خرجوا يدعون الرسول ﷺ للعدد والعدة والنصرة ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : خورشيد ٣ / ٥٨ ، ٥٩ طبعة دار المعرفة .

وكان استقباله استقبالا نادرا وفريدا[١] أسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم، وسمع الكبير يرج بأنحاء المدينة ن ولبست يثرب حلة العيد ومباهجه .

قال البراء: ثم جاء رسول الله ﷺ فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء(صحيح البخاري) [٢]

وعن أنس بن مالك ﷺ لما كان اليوم االذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء فيها كل شيء وصعدت ذوات الخدور على الأحاجير (أي الأسطحة) عند قدومه ، يعلن بقولهن :

طلع البدر علينا .

وعن عائشة ﷺ :لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جلس النساء والصبيان والولائد يعلن جهرا :

طلع البدر علينا[٣]

لما أسلم سعد بن معاذ ﷺ أقبل عائدًا إلى قومه ، ومعه أسيد بن حضير ، فلما رأوه مقبلا قالوا نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه االذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل ، كيف ترون أو تعرفون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا : أي أبركنا نفسا وأمرا ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قال : والله ما أمسى في دار قبيلة بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة ، فأسلموا في يوم واحد كلهم ، إلا ما كان من الأصيرم وهو عمرو بن ثابت من بني عبد الأشهل ، فإنه تأخرا إسلامه إلى يوم أحد فأسلم واستشهد ﷺ ولم يسجد لله سجدة واحدة ، وأخبر عنه أنه من أهل الجنة

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٣٩ فما بعد .

(٢) فقه السيرة : محمد الغزالى ٢٥٥

(٣) السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٢٢، ٢٩١

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم تحويلها إلى الكعبة حكم عظيمة ، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .

فأما المسلمون (المهاجرون والأنصار) ، فقالوا : سمعنا وأطعنا . وقالوا : ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] وهم الذين هدى الله ، ولم تكن كبيرة عليهم .

وأما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع إليها إلا أنه الحق ، وأما اليهود ، فقالوا : خالف قبلة الأنبياء قبله ، ولو كان نبيا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء ، وأما المنافقون فقالوا ما يدرى محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقا فقد تركها ، وإن كانت الثانية حقا فقد كان على باطل .

وكثرت أقاويل السفهاء من الناس،وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٣] ، وكانت محنة امتحن الله بها عباده؛ ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه[١] ، فلما استقر الرسول في المدينة وأيده الله بنصره وعباده المؤمنين الأنصار ، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم ، منعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر وبذلوا نفوسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم ، و رمتهم العرب واليهود على قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة وصاحوا بهم من كل جانب ، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة ، واشتد الجناح فأذن الله يومئذ في القتال[٢]

روى الترمذي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وهم جلوس فيهم أبوبكر وعمر فلا يرفع أحد منهم بصره إلا أبو بكر وعمر ، فإنها كانا ينظران إليه وينظر إليهما ، ويبتسمان إليه ويبتسم إليهما .

---

(١) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٦٧ ، ٧٠

(٢) شرح الشفا : القاري ٣ / ٦٢٥ ، ٦٢٦

كما أن أحد الباحثين المحدثين قد أعطى تحليلا لهذه الصحيفة بقوله[(١)]

ونستنتج من هذه الوثيقة الهامة التي تعتبر دستور الدولة المدنية عدة أمور منها :

١ـ إن الصحيفة تجاهلت نظام القبلية االذي يفتت وحدة العرب ، وجعلت من المسلمين جميعهم مهاجريهم وأنصارهم ، ومن تبعهم ممن لحق بهم ، وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس ، وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى إذ اعتبر جماعات المسلمين أمة واحدة :

قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾ [آل عمران] .

وبهذا الاسم االذي أطلق على جماعة المسلمين والمؤمنين ومن تبعهم من أهل يثرب ممن احتفظوا بدينهم ألغى النبي ﷺ الحدود والفواصل القبلية ، واندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة التي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام ، فهم يتكافلون فيما بينهم ، وهم ينصرون المظلوم على الظالم وهم يرعون حقوق القرابة ، والصحبة والجوار ، ولم تستبعد الصحيفة من مدلول الأمة الفئات التي لم تعتنق الإسلام بعد الأوس، وطائفة من اليهود الذين يوالون المسلمين ويحاربون معهم ، وإن كانوا لا ينتمون انتماء وثيقا إلى الأمة الإسلامية ، انتماء المهاجرين والأنصار؛ إذ إن درجة الانتماء إلى الأمة الإسلامية كما حددتها الصحيفة كانت تتفاوت بين طبقات سكان المدينة ، فقد فرقت بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل .

٢ـ على الرغم من أن الصحيفة تجاهلت نظام القبيلة ، واندمجت كل طوائف المدينة في الأمة الإسلامية ، إلا أن هذا الاندماج لم يتم إلا عن طريق القبيلة ، فكأن

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : السيد عبد العزيز ص ٨٢ ، ٨٤ .

القبائل دخلت الأمة بتنظيماتها القبلية القديمة ، وألقى على كاهل القبائل عبء دفع ديات القتلى وفديات الأسرى، على نفس النظام االذي كان متبعا في العصر الجاهلي ، كذلك أبقت الصحيفة على رابطة الولاء ، وما يترتب عليها من حقوق الموالاة ، فلم تجز لأحد أن يخالف مولى دون مولاه .بالإضافة إلى ذلك أباحت الصحيفة حق إجارة أي شخص غريب ، ولم تستثن إلا قريشا ومن نصرها ،« وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها».

وفي البند الثالث يتحدث الكاتب عن قضية الأخذ بالثأر ، وقضية الاقتتال بين المسلمين ، وفي البند الرابع تحدث عن أن الصحيفة تركت قضية فض المنازعات لله تعالى ولرسول الله ، وفي البند الخامس تحدث عن أن الصحيفة أكدت على تضامن المسلمين والمؤمنين وتماسكهم أمام أي خطر خارجي .

وأخيرا تحدث المؤلف عن توجه الصحيفة إلى العلاقة بين المسلمين واليهود ، وتركت لهم حرية الاعتقاد بقولها :« إن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة».

وفي مجال دراستنا نحب أن نؤكد أيضا على القضايا المتعلقة بالأنصار ، والتي تطرقت إليها هذه الصحيفة خاصة وأنها كتبت في ديارهم ، وبعد وصول النبي ﷺ إليهم ، وقيام دولة الإسلام في مدينتهم وفوق أرضهم ، وهم احد الأطراف الفاعلة في حياة هذه المدينة وهذه الدولة نرى أن الصحيفة قد فرقت بين الأنصار والمهاجرين هما أمة الإسلام فقط ، أما من لم يكن منهم فقد يكون من مواليهم ، أو من معاهديهم ، وحددت الصحيفة بوضوح حدود كل من هذه الفئات ، وإمكاناتها في الحرب والسلم والتآزر والدفاع والهجوم ، وديات القتلى والعلاقات الاقتصادية والسياسية .

ونرى أن الأنصار قد خرجوا من ارتباطاتهم السابقة القبلية منها والفكرية فبعد أن كانوا كل الأوس والخزرج وأكثرهم تنحى باتجاه ملكية خزرجية ، فإن أكثر

الأوس والخزرج الذين شكلوا بعد ذلك الأنصار قد طرحوا هذه الفكرة ، وانقادوا تماما إلى قيادة الرسول ﷺ وإمرته واتخذوا الإسلام خط حياتهم ومصيرهم ، قد اتضحت الصورة لديهم منذ العقبة الثانية ، على أنهم سيدعون اخوة الدم والقبيل والنسب ، ويشكلون مع إخوانهم المهاجرين أمة واحدة من دون الناس ، وبذلك فإن الصحيفة قد أوضحت الكثير من الأفكار الجديدة التي أصبحت خطا للأنصار والمهاجرين،وبموجبها أصبح عليهم أن يدافعوا عن الإسلام،لا عن ثارات قديمة، ولا أحلاف قبلية ولا عن حروب وأيام أرهقتهم خلال تاريخهم الطويل .

لقد حددت الصحيفة دور الأنصار كمسلمين، وفرقت بينهم وبين من بقى من أهلهم على وثنية في كل شيء ، في الموالاة ، وفي الانتماء ، وفي الدفاع ، وفي السياسة ، وفي الإدارة إذ إن ارتفاع قيمة المسلمين جعل الآخرين في حمايتهم، وتحت إشرافهم، فلا يخرج أحدهم إلا بإذن من الرسول ولا يحالفون أعداء المسلمين ، ولا يتاجرون معهم ، ولا يقدمون لهم الحماية ، بل وجب عليهم بموجب هذه الصحيفة أن يقطعوا صلاتهم التجارية والمالية معهم وربما السياسية أيضا .

وقطعت الصحيفة بوضوح تحالفات الأنصار السابقة مع اليهود،والتي استمرت زمنا طويلا ، وتميز بذلك المسلمون عن سواهم .

إن الصحيفة تعتبر حولا خطيرا وواضحا في فكر الأنصار السياسي ، واالذي يعتبر تابعا للعقيدة الإيمانية التي اعتنقوها منذ اللحظات الأولى لدخولهم في الإسلام ، واعتبروا أن كل شيء من روابط الجاهلية ساقطا ، وأصبح المسلمون من الأوس والخزرج أي ـ الأنصار ـ قوة الدين الجديد وجنوده المدافعين عنه ، ولقد قدمت السيرة هذه الصحيفة على المؤاخاة فبعد أن ذكرت تفاصيلها ، انتقلت فورا لذكر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، والاعتقاد ، والله أعلم أن هذه الصحيفة يبدو أنها تمت بعد المؤاخاة قطعًا ؛ لأنها لم تعد تتحدث عن المؤمنين إلا كجماعة متلاحمة قوية ماتت فيها روابط الجاهلية الماضية، واعتبرتهم متميزين عن كل الفئات التي وردت في الصحيفة بجمعهم وليس بأسمائهم الأولى .

(٤) الأنصار في ظل قيادة الرسول ﷺ

لم يرد في كتب التاريخ، ولا دون المؤرخون حب قوم لقائدهم مثل حب الأنصار والمهاجرين والمسلمين الأولين لرسول الله ﷺ خاصة ، ثم حب المسلمين قديمًا وحديثًا ومستقبلًا عامة ، إلا أن المقاييس تختلف اختلافا جذريا في هذ ا المضمار، فمنذ أن تعرف الرهط من الخزرج على رسول الله ، دخل في قلوبهم حبٌّ أنساهم كل ما يحيط بهم من أشكال وألوان وحياة ، نعم هذه حقائق لا يتطرق إليها الشك ، فعلى الرغم من أن القوم لم يعرفوا بعد ما هو حدود المطلوب منهم ، وماذا يمكن أن يقع على عاتقهم مستقبلا ، فإنهم اندفعوا بحب الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، وانصاعوا إليه انصياعا عجيبا إلى درجة أنهم أصبحوا جزءا من تفكيره، وقطعة من جسده يحركهم في كل لحظة، وفي أي اتجاه كان .

لا يُخِلُّ أن بعضا من القوم (الأوس والخزرج) ، قد تأخروا وتخلفوا ونافقوا وحقدوا ، وهذه كلها أمور طبيعية في بني البشر ، إلا أن الحديث عمن اصطبغت صفتهم بالأنصار ، وليس عن كل الذين ينتمون إلى تلك الأصول .

قصدنا في هذه الدراسة الأنصار، ولذا فإننا نرى أنهم تحولوا من بشر يملكون في نفوسهم المشاعر والارتباطات والعادات ، ويخضعون لطبيعة تكوينهم ووجودهم إلى أعراف وقوانين ، وينتمون بموجب معارفهم غير المدونة إلى قبائل وبطون ، ويحفظون في رؤوسهم بموجب الانتماء من يثأر وممن يتم الثأر،ومن يقع عليه الثأر، هؤلاء بالطبع كانوا في مجتمع هذا ديدنه ، وهذا تفكيره ، وهذه قوانينه وأعرافه ، وقد خرجوا حديثا من آخر ملحمة ما كان لأحد فيها من رأي ، إنما قادتهم الجاهلية والعصبية إلى هذا الاقتتال االذي أطاح برؤوس ساداتهم وقاداتهم تقريبا ، وبرزت تلك القيادات الجديدة في كلا الحيين ، هذه القيادات التي قادت التحول الكبير في

هذه الحقبة الصغيرة من الزمن دليل على أن الحدث كبيرًا جدًا ، ذابت فيه عقولهم وقلوبهم ، فأضحى كل ما بنفوسهم من مشاعر وأحاسيس يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنبي المرسل ﷺ ، وهو ليس من قبيلتهم وليس من قادتهم وليس من أبناء عمومتهم ، فلعله هناك خؤولة بينه وبين حى واحد منهم وهم الخزرج ، والناس قد قطعوا عري الأخوة العصبية واقتتلوا بها ، فليس من المعقول بحال أن يبحثو عن خؤولة بعيدة ليحافظوا عليها ، فإن في الطرف الآخر عددًا لا يستهان به لا يمكن أن يسكت على هذا التحالف ، ويناقش هذه المحبة المفاجئة .

ولكن الأمر يختلف ، والحديث إذا أخذنا بجزئياته لن يخرجنا منه ، وإذا كانت كتب السير والتاريخ والحديث قد أعطتنا صورة عن هذا ، فإن الصور الأخرى التي لم تصلنا أعظم وأثبت ، وبالقياس فإن الارتباط العضوى والعاطفي والنفسى بالرسول ﷺ قد قدم لنا المؤرخون منه أمثلة فقط ، وليست بالطبع تسجيلا لكل ما في هذه القضية من بيان ، الأنصار في البداية ، والذين لم يتجاوز بعد عددهم عدد أصابع اليد ، سلكوا منذ البداية طريق حب محمد ، ثم ازداد العدد ، ثم أصبح القوم في قوة لا مثيل لها ، ولقد تمكنوا ـ رغم قلتهم ـ أن يفرضوا سلطانهم على المدينة ، ليس على شكل سيطرة عسكرية فيها القهر والظلم والغلبة ، ولكن سيطرة عاطفية باعتبار أنهم تحولوا إلى أناس آخرين يتبعون رجلا نبيا قادمًا إليهم من مكة في القريب العاجل .

لقد أثبت هؤلاء أن سيطرتهم على يثرب عندما أخضعوا كل أحداثها لتصرفاتهم من استقبال المهاجرين وتسكينهم ، والدفاع عنهم ، وفتح باب حرية الدعوة لهم ، وحمايتهم والدخول معهم في دين واحد ، إلى استقبال النبي ﷺ االذي كسب عواطف الناس كلهم حتى تزاحم للناس للخروج لرؤيته ، فقد تمكن هؤلاء على قلتهم أن يطغوا على ملكية ابن أبي وما يعدلها من ترتيبات ، وطغوا على يهودية اليهود ورهبانية أبي عامر الراهب ، ووثنية البقية الباقية من أبناء جلدتهم ، لقد تمكن هؤلاء العصبة من القوم أن يتصرفوا وبمنتهى الحرية بمقدرات المدينة ، ويجعلوا كل

الناس ينظرون إليهم على أنهم أصحاب السيادة فعلا ، وإن الأمر قد أصبح بأيديهم وهم قلة ، وإلا لماذا لم يقف الأعداء الكثر لهم وللإسلام ليردوهم عن الاسترسال بفعلتهم ، ولم يجرؤ أحد ـ كما حدثت الأخبار ـ على أن يقول : لا، أولم؟ ، أو لماذا ؟ ، أو كيف ؟

الجميع عقدت ألسنتهم الدهشة والأنصار يتصرفون بمقدرات المدينة كما يردون ، ويقيمون دولتهم بكل ثبات وقوة وعزم ، ويتحركون بأوامر الرسول ﷺ في أي اتجاه، غازين أحيانا، مدافعين أحيانا، فارضين سلطانهم خارج المدينة أحيانا أخرى، ولم يمض كبير وقت حتى تحرك البعض تنفيذًا لأوامر الرسول بالقضاء على كل من تحدثه نفسه أن يعادي هذه الدولة أو أبنائها .

والقوم يجلسون أمام الرسول ﷺ يسمعون خبر السماء ، فقد أصبحت قلوبهم مرتبطة بعنانها ، أصبحت قلوبهم بيد الله ـ ﷻ ـ يحركها كيف يشاء .

ولا بد من إيراد بعض الأمثلة عن طيب هذه العلاقة التي تدفع كل شبهة ترد من أي مصدر كان لهذه العلاقة ، ونحن بصدد الحديث عن الأنصار ، وللآخرين بعدهم حديث آخر ، ونتم ما نقله مؤلفوا دائرة المعارف الإسلامية[١] وبعض الرد عليه ليكون فاتحة هذا الباب ، وأخذ الأنصار ينصاعون للنبي ﷺ شيئا فشيئا ، كان عليهم تأييده في دعوته ، وعدم مساعدة خصومه ، مثال ذلك أنهم أمروا بأن يكونوا عيونا للنبى على الكفار من أقاربهم ، على أنهم في الوقت نفسه احتفظوا ـ إلى حد ما ـ بحقهم في إبداء الرأي، وطالبوا بتوقير أشخاصهم، وهو أمر أمرهم النبي ﷺ عليه، ولم يكن هناك ما يدعو الأنصار إلى الأسف على تأييدهم للنبي ﷺ إذ تحقق ما ورد بالقرآن من أن«الله ينصر من ينصره» وما إن خلص الأنصار من المحن حتى تحسنت حالهم بتدفق الغنائم على المدينة ، ونفاق تجارتها ، ولما استولى المسلمون على مكة خشى الكثيرون من الأنصار أن ينقل النبي عاصمته إليها ، ولكنه بدد مخاوفهم

(١) دائرة المعارف الإسلامية : خورشيد ٣ / ٥٨

بقوله إنه يريد أن يعيش حيث يعيشون ، ويموت حيث يموتون ، ومن الواضح أنه لم يكن ليجد مؤيدين يطمئن إليهم في أية بلدة كما وجد الأنصار في المدينة ، ومع هذا ، فقد قدر لهم أن يروا أشراف مكة الذين ذهبوا في مناوأة النبي كل مذهب سينعمون برضاه .

أما الرد على هذه الافتراءات ، فإنه لا يحتاج من أي مطلع مهما كانت ثقافته على السيرة النبوية ، ليقول : لا ، فإن ما قدمه الأنصار خاصة للإسلام ولنبي الإسلام لم يتكرر مثيل له في التاريخ ، إذ إن هؤلاء القوم كانوا يتبارون بحب الله ورسوله ، ومن لم يتمكن من الفوز في هذه المباراة فهو الشهيد االذي قدم نفسه في سبيل الله ، وفي سبيل نصرة دينه وهي أعلى مراتب التضحية والفوز بمرضاة الله تعالى .

ومن هذه الأحداث الكثيرة نسوق بعض الأمثلة التي لا تحصى، نسوق بعضا منها لا للرد ، فإن سيرة المصطفي ﷺ أسمى من أن تصبح مجالا للدفاع عنها ، فهي نور يشيع في قلوب المسلمين إلى يوم الدين .

كان أنس بن النضر بن ضنضم عم أنس بن مالك لم يشهد مع الرسول ﷺ يوم بدر ، قال أنس بن مالك : فشق عليه ، وقال في أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ..؟ لئن أراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ليريني الله ما أصنع ، فهاب أن يقول غيرها ، قال : فشهد يوم أحد مع رسول الله ﷺ ، فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس: يا أبا عمرو أين .. ؟ واهًا لريح الجنة .. أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قتل ، فوجدوا في جسده بضها وثمانين بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته، عمتي الربيع بنت النضر: « فما عرفت أخي إلا ببنانه »، ونزلت هذه الآية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب] [1] فقد كانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ٥ / ٢٨٤٤ ، ابن كثير : تفسير ٣ / ٤٨٤ ، مجمع البيان : تفسير الطبري ٧–٨/ ٣٥٠

(رواه الإمام أحمد في المسند رقم ١٣٠٤٧ ، و ١٣١١٧ ، و ١٣٦٩٣ ، ج ٢ ص ١٩٤ و ٢٥٣ ، رواه البخاري ج ٦ ص ١٦ ، ١٧ فتح الباري) .

فهذه الأحاديث الصحيحة ، وهي من رواية أنس بن مالك ـ وهو أنصاري ـ صريحة في أن قومه لم ينكصوا عهدًا عن الجهاد ، ولم يتردد في بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الدعوة إلى الله، وإلى الدين الحق االذي آمنوا به، وعاهدوا بينهم على السمع والطاعة والنصر والتأييد .

وحسبنا هذا لندل على بطلان مادعاه كاتب هذا المقال .

روى مسلم في صحيحه ج ٢ / ٦٣ عن أبي هريرة في شأن غزوة الفتح: فقالت الأنصار بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته ، قال أبو هريرة وجاء الوحى ، وكان إذا جاء لا يخفي علينا ، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى الرسول ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما انقض الوحي قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار »: قالوا لبيك يا رسول الله ، قال :« قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ؟» قالوا :« قد كان ذلك »، قال :« كلا ، إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم ، المحيا محياكم ، والمهات مماتكم »، فأقبلوا إليه يبكون ، ويقولون والله ما قلنا االذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم» ، وانظر سيرة ابن هشام ص ٨٢٤ ، والسيرة الحلبية ، ٣ / ١٣٨ طبعة بولاق ، والمواهب اللدنية (١/ ١٥٧ طبعة الشرقية) وشرح المواهب للزرقاني ٢ / ٣٩٧ طبعة بولاق[١]

لقد وقف الأنصار في استقبال رسول الله بدخوله المدينة موقفا رائعا ، يأمل كل منهم أن ينزل عنده الرسول؛ ليكون له شرف استضافته ، وتصف كتب السيرة هذه المظاهر الرائعة بكل تفصيلاتها وجزئياتها وأسماء أصحابها حتى أولئك الذين لم يدخلوا كلية في الإسلام ، قد خرجوا يدعون الرسول ﷺ للعدد والعدة والنصرة ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : خورشيد ٣ / ٥٨ ، ٥٩ طبعة دار المعرفة .

وكان استقباله استقبالا نادرا وفريدا[١] أسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم، وسمع الكبير يرج بأنحاء المدينة ن ولبست يثرب حلة العيد ومباهجه .

قال البراء: ثم جاء رسول الله ﷺ فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء(صحيح البخاري) [٢]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه لما كان اليوم االذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء فيها كل شيء وصعدت ذوات الخدور على الأحاجير (أي الأسطحة) عند قدومه ، يعلن بقولهن :

طلع البدر علينا .

وعن عائشة رضي الله عنها :لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جلس النساء والصبيان والولائد يعلن جهرا :

طلع البدر علينا[٣]

لما أسلم سعد بن معاذ رضي الله عنه أقبل عائدًا إلى قومه ، ومعه أسيد بن حضير ، فلما رأوه مقبلا قالوا نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه االذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل ، كيف ترون أو تعرفون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا : أي أبركنا نفسا وأمرا ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قال : والله ما أمسى في دار قبيلة بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة ، فأسلموا في يوم واحد كلهم ، إلا ما كان من الأصيرم وهو عمرو بن ثابت من بني عبد الأشهل ، فإنه تأخرا إسلامه إلى يوم أحد فأسلم واستشهد رضي الله عنه ولم يسجد لله سجدة واحدة ، وأخبر عنه أنه من أهل الجنة

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٣٩ فما بعد .

(٢) فقه السيرة : محمد الغزالى ٢٥٥

(٣) السيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٢٢ ، ٢٩١

وكان الله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم تحويلها إلى الكعبة حكم عظيمة ، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .

فأما المسلمون (المهاجرون والأنصار) ، فقالوا : سمعنا وأطعنا . وقالوا : ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] وهم الذين هدى الله ، ولم تكن كبيرة عليهم .

وأما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع إليها إلا أنه الحق ، وأما اليهود ، فقالوا خالف قبلة الأنبياء قبله ، ولو كان نبيا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء ، وأما المنافقون فقالوا ما يدرى محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقا فقد تركها ، وإن كانت الثانية حقا فقد كان على باطل .

وكثرت أقاويل السفهاء من الناس،وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٣] ، وكانت محنة امتحن الله بها عباده؛ ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه[١] ، فلما استقر الرسول في المدينة وأيده الله بنصره وعباده المؤمنين الأنصار ، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإلاحن التي كانت بينهم ، منعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر وبذلوا نفوسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم ، و رمتهم العرب واليهود على قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة وصاحوا بهم من كل جانب ، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة ، واشتد الجناح فأذن الله يومئذ في القتال[٢]

روى الترمذي ﷺ :أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وهم جلوس فيهم أبوبكر وعمر فلا يرفع أحد منهم بصره إلا أبو بكر وعمر ، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ، ويبتسمان إليه ويبتسم إليهما .

---

(١) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٦٧ ، ٧٠

(٢) شرح الشفا : القاري ٣ / ٦٢٥ ، ٦٢٦

روى أسامة بن شريك قال : أتيت النبي ﷺ وأصحابه حوله كأنما على رؤوسهم الطير ، وفي حديث صفته عليه السلام إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير[1] ، وعندما أرسلت قريش عروة بن مسعود إلى رسول الله ﷺ عام القضية (الحديبية) فإنه رأي في المدينة عجبا من أصحاب الرسول ﷺ ، وخاصة الأنصار، فلما رجع إلى قريش،قال: يا معشر قريش:إني جئت كسرى في ملكه،وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه،وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه .

وفي رواية إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم محمدا أصحابه ، وقد رأيت قوما لا يسلمونه أبدا .

وعن أنس رضي الله عنه لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه ، وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل[2]

وقد بلغت ذروة التضحية والحب لرسول الله ﷺ من الأنصار خاصة في غزوة أحد ، فقد ضحى في هذه الغزوة الرجال والنساء والولدان ، وامتلأت كتب التاريخ والسير بقصص أولئك الذين نادوا رسول الله بأنفسهم في محبة وسمو وسرور .

قال ابن إسحاق حدثني حيان بن واسع بن حيان عن أشياخ من قومه: أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه ، وفي يده قدح به القوم ، فمر بسواد، بن غزية حليف بني عدي بن النجار ، وهو مستند من الصف ، فطعنه في بطنه بالقدح ، وقال استو يا سواد فقال يا رسول الله ، أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدني ، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال ، استقد، قال : فاعتنقه فقبل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله ، حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك،فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقاله[3]

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٦٢٨ ـ ٦٣٠

(٢) السابق ذاته .

(٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٤١٠ ، إمتاع الإسماع ـ المقريزي ١/ ٧٩

ومن أخبار التضحيات الخالدة يوم أحد:

أصيبت عين قتادة بن النعمان الأوسي ، ثم الظفري[1] ، حتى وقعت على وجنتيه فردها رسول الله بيده ، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما .

وانتهى أنس بن النضر إلى رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا ما بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ، قال : فماذا تصنعون به ؟ قوموا وموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل .

وقاتل زياد بن السكن في خمسة من الأنصار ، دون رسول الله ﷺ ،يقتلون دونه رجلا ثم رجلا ، فقاتل زياد حتى أثخنته الجراح ، فقال رسول الله ﷺ : ادنوه مني فأدنوه ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يخرج معهم ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد ، وأتى عمرو رسول الله فقال : إن بني هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك ، ووالله إني لأرجو أن استشهد فأطأ بعرجتي هذه الجنة ، فقال رسول الله ﷺ :« أما أنت ، فقد وضع الله عنك الجهاد »، وقال لبنيه :«وما عليك أن تدعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة »، فخرج مع رسول الله فقتل يوم أحد شهيدا .

يقول زيد بن ثابت الأنصاري ﷺ بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع الأنصاري، فقال لي ، إن رأيته فأقرئه السلام ، وقل له : يقول رسول الله لك : كيف تجدك ؟، قال:فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية سهم ، فقلت : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك :أخبرني كيف تجدك ؟ فقال وعلى رسول الله السلام ، وقل له : يا رسول الله ، إن سعد بن الربيع ، يقول لك جزاك الله عنا

---

(١) الإصابة : العسقلاني ٣/ ٢٢٥ (٧٠٧٦) .

خير ما جزى نبيا عن أمته[١] أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف،وفاضت نفسه من وقته[٢]

لقد تخلف من الأوس والخزرج بعض لم يدخلوا الإسلام ، وهم أربعة : خطمة ووائل وواقف وأمية بن زيد ، وبعض عشيرة خاصة هم عمرو بن عوف ، وكان هؤلاء جميعا على صلة وثيقة باليهود ، ويجب التفريق بين هؤلاء المشركين وبين المنافقين[٣]

فلما قدم رسول الله المدينة ، وقد أسلمت الخزرج ، وطوائف من الأوس بنو عبد الأشهل كلها وظفر وحارثة ومعاوية وعمرو بن عوف إلا ما كان من أوس الله، وهم وائل وبنو خطمة وواقف وأمية بن زيد مع أبي قيس بن الأسلت ، وكان شاعرها وخطيبها[٤] هؤلاء الذين تخلفوا عن الإسلام أو استمروا به ليسوا موضوع بحثنا ، وإن كان يتبادر إلى الذهن فورا أن كلمة أنصار تعنى الأوس والخزرج .

ذكرنا بعض المواقف للرجال ولم تكن المواقف وقفا عليهم ، فإن نساء الأنصار قد قدمن تضحيات تعجز عنها نساء الدنيا في كل وقت وزمان ، نذكر منهن نسيبة بنت كعب التي شهدت العقبة الثانية ، وبايعت رسول الله ، ووقفت دونه في غزوة أحد تسقى الماء.

قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان ، وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال ، وأنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا ، وكانت تقول : إني لأنظر إلى بن قمئة وهو يضربها على عاتقها ، وكانت أعظم جراحها فداوته سنة ، ثم نادى منادي رسول الله في اليوم التالي لأحد إلى حمراء الأسد ، فشدت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم[٥]

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ١٠٠

(٢) السيرة النبوية : الندوى ١٨٦ – ١٨٧

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : خرورشيد ٥/ ٨١ ، ط دار الشعب .

(٤) الطبقات : ابن سعد ٤/ ٣٨٥

(٥) الطبقات الكبرى : ابن سعد ٨/ ٤١٢ فما بعد .

لم يرد في كتب الأثر أن صحابيا قد راودته من أمر إسلامه خاطرة ، أو راجع نفسه بعد إيمانه ساعة أو ضن بغال وثمين تجاه رسول الله ﷺ والرضا بقيادته وحبه ، وكلما توسعنا في البحث وقفنا على مناقب أكثر لهؤلاء القوم وفضل، وهم بحق جند الله،أعز الله بهم الإسلام وأعزهم بالإسلام،وأذهب ما بنفوسهم من غل، فأصبحوا بنعمته إخوانا ، وطرحوا كل ما في نفوسهم من شوائب ومعطيات الجاهلية .

أخرج الإمام أحمد، عن أنس بن مالك ﷺ قال شق على الأنصار النواضح فاجتمعوا عند رسول الله يسألونه أن يكرى لهم نهرا سحا ، فقال لهم رسول الله «مرحبا بالأنصار ، مرحبا بالأنصار ، مرحبا بالأنصار . لا تسألوننى اليوم شيئا إلا أعطيتكموه ، ولا أسأل الله شيئا إلا أعطانيه »، فقال بعضهم لبعض: اغتنموها فرصة وسلوه المغفرة ، قالوا : يا رسول الله ادع لنا بالمغفرة .

قال :«اللهم اغفر للأنصار ، ولأبناء الأنصار »، ولأبناء أبناء الأنصار ، وفي رواية ولأزواج الأنصار ، قال البيهقي : ج١ ص ٤٠ :رواه الإمام أحمد[١]

فلم يسأل الأنصار الرسول في ساعة الإجابة إلا المغفرة، فهي غاية المنى عندهم، ورأس كل أمر يخافون منه في الدنيا والآخرة رضي الله عنهم أجمعين .

(١) حياة الصحابة : الكاندهلوى ١/ ٣٩٣ ط دار المعرفة .

القسم الثاني

الأنصار جند الدعوة الإسلامية

تمهيد :

نعم، إن الأنصار جند الدعوة الإسلامية ، وهم عمادها، وهم الأوفياء المخلصين لهذا الدين حملوه إيمانا وصدقا ، ودافعوا عنه رجالا مخلصين ونساء مخلصات ، وأخلصوا دينهم وأعطوا رسوله ﷺ محبتهم ، وقدموا للإسلام كل غال ورخيص ، وما ورد عنهم أي تخاذل أو تقصير أو شك ، فمنذ أن دخل هذا الدين في قلوبهم ، وهم حتى انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهم كثرة .

ولقد تبدي في كل ساعة من ساعات انتصاراتهم للرسول عملا خيرا كله ، واندفاعا وإيمانا سما بهم إلى المراتب العليا فكانوا أنصار الله ، وجند دعوته بكل الإخلاص والثبات ، ومهما حاولنا أن نستجمع الأوصاف الخيرة لنطلقها عليهم ، فإنا مسبوقون بالأحداث الكثيرة التي سجلها المؤرخون والرواة والمحدثون ، وامتلأت كتب السير والتاريخ والحديث والفقه وغيرها من تراث الإسلام بالأعمال الجليلة، والعظيمة التي قام بها الأنصار .

أقر الله تعالى عيني نبيه بهم وأيده بهم ونصره بهم ، فوفاهم الرسول حبا بحب مثله ، وأخرج من نفوسهم حب الدنيا فطاعت لهم ، وبكى عندما ظنوا أنه تاركهم ، وعاد ليعلن على الملأ بأنه منهم وبأنه فرد من الأنصار ، ولولا الهجرة لما كان إلا منهم، ترك أحب أرض له إلى أحب أرض إلى الله .

لم يعد لدينا إضافات نقولها عن الأنصار غير ما امتلأت به الأسفار والمراجع والكتب عن فضلهم وسبقهم وإيمانهم وإخلاصهم .

وما سردنا لبعض أخبارهم في غزوات رسول الله ﷺ وسراياه والأحداث الكبيرة التي كادت مرات ومرات أن تعصف بهذه الدعوة والدولة ، فتبخرت بثباتهم وتضحياتهم وما هي إلا تكرار واختصار وتسليط بعض الضوء على هذه الأحداث ، لم يكن الكبير فيهم بأفضل من صغيرهم ، ولم يكن رجالهم بأفضل من نسائهم ، ولم يكن السابقون أشد إيمانا من اللاحقين ، فإنهم على سواء في نصرة هذه الدعوة والعمل من أجلها، والدفاع المستميت عن حياضها لا طلبا لمغنم أو توجها للدنيا بل على العكس ، فعندما وزع الرسول المال والمتاع والمغانم في قريش ، ليتألف قلوبهم ارتضى الأنصار بالرسول قسما وارتضوا به مغنما ، وعادوا وهم الفائزون في الدنيا والآخرة .

وما سيرد عن ذكرهم في الغزوات وغيرها إنما هو الدليل الأمثل على تضحيات هؤلاء القوم لهذا الدين ، فقدموا الشهداء والدعاة والقادة ، وانقلب الكيد االذي استشرى بينهم في الجاهلية إلى ملاحم بطولية وفداء في سبيل هذا الدين في الإسلام، والزود عن رسول الله ﷺ ، وإذا تتبعنا النصوص وجدنا أنهم قدموا أكثر مما عاهدوا عل تقديمه ، وفاقت تضحياتهم كل ما كان ينتظر منهم ، وأصبحت المواثيق والمبايعات تافهة أمام الأعمال والجهود التي بذلت ، ولم ينقض الخلف عهد السلف، ولم يتراجع الأبناء عن سيرة الأباء ، بل كان كل يوم تأكيدا لما سبقه من العظماء والعطاء .

عشر سنوات تحت قيادة الرسول ﷺ ، والأنصار يقدمون لهذه الدعوة كل ما يملكون، فقد استعاضوا بكل ما كان في أذهانهم بالسابق بالإيمان ، وما تتطلب هذه الدعوة من عطاء وتواصل وتضحيات ، لقد كانوا جند هذه الدعوة ، وكانوا عماد دولة الإسلام وكانوا .... أي من الأنصار .

ومن خلال النظرة السريعة على ما فعله الأنصار نستطيع أن نؤكد كل الحقائق التي وردت عنهم .

سرايا رسول الله قبل غزوة بدر

لم يشترك الأنصار في السرايا التي شكلها رسول الله ﷺ بعد أن نزلت آية القتال، والإذن للرسول بذلك ، وكانت هذه السرايا كلها من المهاجرين ، وغاية الرسول من هذه السرايا كانت قطع الطريق على قريش ، ومصادرة مالها من تجارة للتعويض على المهاجرين الذين تركوا أموالهم ودورهم ومتاعهم وصادرتها قريش ، وتوزعها ساداتها، وملؤها، وكانت هذه السرايا لإظهار قوة الرسول ، والوقوف على أخبار قريش ، ومعرفة تحركاتها وطرق قوافلها ، وحتى غزوة بواط (ربيع الآخر وجمادى الأولى ٢هـ) ،وقد سبقها غزوة أبواء عل رأس السنة الأولى للهجرة صفر بعد أحد عشر شهرا من وصوله المدينة ، وغزوة سفوان (بدر الأولى) جمادى الآخرة – شعبان ٢هـ[1] ، فإن الأنصار لم يشاركوا فيها للعهد الذي بين الرسول وبينهم بأنهم مانعوه إذا داهم المدينة أحد ، والنصرة عليهم ما دام مقيما في مدينتهم .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٢٤٨ – ٢٥٦ ، الطبرى – تاريخ ٢/ ٤٠٤ – ٤١٨ ، السيرة النبوية : دحلان ١/ ٣٥٣

غزوة بدر الكبرى[(١)]

انتدب الرسول ﷺ الناس لملاقاة أبي سفيان بن حرب وهو عائد من الشام في تجارة محملة بمال المهاجرين المصادرة في مكة ، وانتدب الناس هذه المرة لم يكن خاصا بالمهاجرين ، فقد كان النداء عاما ، وهرع الأنصار إلى الرسول ﷺ مع أن الكثير منهم قد تخلف؛ لأنهم لم يحبسوا أن رسول الله يلاقى كيدا ، أو يدخل حربا ، ولذلك فإن الذين تخلفوا قد عاشوا كل حياتهم نادمين لما فاتهم من خير بدر التحق الأنصار بالرسول تلبية لندائه والذين التحقوا أيضا لم يكونوا ظانين بأنهم سيلاقون حربا .

خرج الرسول ﷺ في شعبان ٢هـ ، ومع كل ما جرى من أحداث في مكة ، ومع حذر أبي سفيان وسلوكه طريقا أبعده عن ملاقاة رسول الله ، ووصول القافلة آمنة لكن القوم (قريش) كانوا قد استعدوا استجابة لنداء ضمضم بن عمرو الغفارى ، وقرروا أن ينفقوا ما في هذه من مال وتجارة لحرب محمد ، وخرج كبار القوم (الملأ من قريش) ليظهروا مدى قوتهم وعزمهم وحتى يبقى لهم في نفوس العرب مهابة ، وحتى لا تسقط آخر أوراقهم ، بقيادة ساداتهم وملئهم أبي جهل عمرو بن هشام ، وأبي سفيان بن حرب ، وعتبة بن ربيعة ، وأخيه شيبة ، وغيرهم ومن أجل أن يردوا لذاتهم اعتبارها ، ويظهروا انهم قادرون على الحد من نشاط محمد وأتباعه .

أجمعت الروايات على أن أكثر جند الرسول ﷺ كانوا من الأنصار فقد بلغ عددهم حسب رواية هشام ٢٣١ من ٣١٩[(٢)]، وورد عددهم ٢٣٨ من ٣١٩ حسب نقل دائرة المعارف الإسلامية[(٣)]

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٤٤ ط دار المعارف ، عيون الأثر : ابن سيد الناس ١/ ٢٩٠

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٣٦٤

(٣) ورد فى سيرة ابن هشام ٢/ ٦٤ أن عدد المشاركين فى بدر من الأوس كان ٦١ رجلا

العشيرة	ع١	ع٢	ب	ش ب	ن	ملاحظات
عبد الأشهل	١	٣	١٥	-	٣٥	
ظفر	-	-	٥	-	٢٣	
حارثة	-	-	٣	١	٢٣	
عمرو بن عوف	١	٥	٤٠	٢	٢٨	
أوس مناة	-	-	-	-	١٢	
خطمة						
مجموع الأوس	٢	١١	٦٣ (١)	٣	١٢١	
بنو النجار	٣	١١	٥٦	٣	٨٣	
الحارث	-	٧	١٩	١	٣٠	
بنو الحبلى	٣	٦	٢٥	-	٢١	
ساعدة	-	٢	٩	-	١٢	
سلمة	٢	٢٩	٤٣	١	٥٤	
زريق	٢	٤	١٦	-	١٦	
بياضة	-	٣	٧	-	١٢	
مجموع الخزرج	١٠	٦٢	١٧٥ (٢)	٥	٢٢٨	

والجدول الموضح بجانبه والرموز على النحو التالي :

(١) ورد فى سيرة ابن هشام ٢/ ٣٦٤ أن عدد المشاركين من الخزرج فى غزوة بدر كان ١٧٠ رجلا

(٢) الطبري ـ تاريخ ٢/ ٤٣١. قال الزرقاني: إن سعد بن عبادة كان يتهيأ للخزرج إلى بدر، ويأتي دوور الأنصار ويحضهم على الخروج فنهش (أي: لدغته أفعى)، فقال ﷺ : «لئن كان سعد لم يشهدها، لقد كان عليها حريصا» وضرب له بسهم وأجره، (السيرة النبوية: دحلان ١/ ٣٦٨) .

ع١ : بيعة العقبة الأولى .

ع٢ : بيعة العقبة الثانية .

ب : الذين حضروا غزوة بدر .

ش ب : شهداء بدر .

ن : نساء العشيرة اللاتي أشار إليهن ابن سعد في الطبقات ج٨

ويمكن أن نستخلص من ذلك دليلا عاما على عدد العشائر حتى يوم بدر من الأوس والخزرج .

واتفق المؤرخون المسلمون على رواية ابن إسحاق بأن عدد الأنصار ٢٣١ رجلا، وعلى رواية الطبري ٢٣٦ رجلا ، والمهاجرين ٧٧٠ رجلا . وقد حمل راية الأنصار سعد بن عبادة الخزرجي[١] وقيل : مع سعد بن معاذ الأوسي[٢]، وقيل : مع الحباب ابن المنذر[٣]

حدثنا ابن إسحاق عن البراء قال : كنا نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجز معه إلا مؤمن ، ثلاثمائة وبضع عشرة .

ولما خرج رسول الله ﷺ من المدينة استعمل عليها واليا أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسى ﷺ ، قيل: رده من الروحاء بعد أن خرج ليوليه المدينة ، واستعمل ابن أم مكتوم (عبد الله بن عمرو) على الصلاة بالناس ، وخلف (عاصم بن عدي حليف الأنصار) ﷺ على قباء وأهل العالية لشيء بلغه عن أهل مسجد الضرار[٤]

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٢٦٤

(٢) السيرة النبوية : دحلان ١/ ٣٦٥ ، وقد أورد صاحب السيرة الحلبية أن راية الأنصار مع سعد بن معاذ ، وراية الخزرج مع الحباب ابن المنذر .

(٣) السيرة النبوية : دحلان ١/ ٣٦٥

(٤) السابق ذاته .

وجاء الموقف الصعب ، موقف الإختبار الكبير ، وموقف الإمتحان الخطير في هذه الغزوة :

فأولا : إن أكثر أفراد الجيش من الأنصار ، وذلك أنهم كانوا عدد الناس .

وثانيا إنهم حين بايعوه في العقبة ، قالوا يا رسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإن وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع عنه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها النصرة ، إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم[1]

وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره وابن مردويه، واللفظ له من طريق عبد الله ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم عن أبي عران: أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول :قال رسول رسول الله ﷺ ومحمد بالمدينة :« إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يغنمناها؟»فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يوما أو يومين ، قال لنا : ما ترون في القوم ؟ فإنهم قد أخبروا بمخبركم .فقلنا : والله ما لنا طاقة بقتال القوم ، ولكنا أردنا العير ، ثم قال : ما ترون في قتال القوم ؟ فقلنا مثل ذلك .

فقام المقداد بن عمرو فقال إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون .

قال : فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا مثل ذلك ، أو مثل ما قال المقدار أحب إلينا أن يكون لنا مال عظيم ، فأنزل الله ـ ﷻ ـ على رسوله ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ ﴾ [الأنفال] وذكر تمام الحديث .

يقول المقريزي[2] : فخرج معه المهاجرين وخرجت الأنصار ، ولم يكن غزا بأحد منهم قبل ذلك ، فنزل بالبقيع ويقال لها : بئر أبي عتبة ، وهي على ميل من المدينة ،

---

(١) الطبري : تاريخ ٢/ ٤٣٥ ، السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٢٦٧

(٢) إمتاع الأسماع : المقريزي (١/ ٦٢ ، ٦٣)

فرد صغار السن ومنهم عبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد ، وأسيد بن حضير[1] ، وزيد بن أرقم وغيرهم ، ومرض عمير بن أبي وقاص فاستصغر ، فقال ارجع ، فبكى فأجازه ، فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة .

وأمر ﷺ أصحابه أن يستقوا من بئر السقيا ، وشرب من مائها وصلى عند بيوت القبا، ودعا يومئذ لأهل المدينة ، فقال :«اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لأهل مكة وإني محمد عبدك ونبيك أدعوك لأهل المدينة ، أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم وثمارهم ، اللهم وحبب إلينا المدينة ، واجعل ما بها من الوباء بختم (وادي عند الجحفة بين مكة والمدينة يصب في البحر) اللهم إنى حرمت ما بين لا بتيها كما حرم إبراهيم خليلك مكة».

ونعود إلى القول بأنه لم يكن هناك أي أمر أو عهد أو حلف يدعو الأنصار إلى حرب خارج مدينتهم ، ولكنهم أجابوا نداء الرسول ﷺ عندما دعاهم فقاموا معه بعضهم لم يكن يرى في الخروج من مصلحة لكن الآخرين كانوا يرون فيه كل شيء، وبذلك فقد أظهر الاختبار علو همتهم ، وعمق إيمانهم ، واندفاعهم وطاعتهم للرسول ﷺ.

ثم وافاه الخبر عن عير قريش وسيرهم ليمنعوا غيرهم ، فاستشار الناس وأخبرهم عن عير قريش فقام أبو بكر الصديق ، فقال: وأحسن ، ثم أحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمر فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (موضع على بعد خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن) لجالدنا معك دونه حتى تبلغه .

ثم قال :«أشيروا على أيها الناس» ، وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم كانوا عداد

---

(١) الصواب أسيد بن ظهير .

الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة ، قالوا يا رسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا إلخ ، فكان رسول الله يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسيروا بهم إلى عدو من بلادهم .

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال سعد بن معاذ ـ وهو سيد الأوس ، بل سيد الأنصار ، قال الزرقاني كان منهم كالصديق ﷺ في المهاجرين[1] والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال:«أجل» قال فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله، لما أردت فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله[2]

وفي رواية قال سعد بن معاذ أنا أجيب من الأنصار ، كأنك يا رسول الله تريدنا ؟

قال : إنك عسى أن تكون قد خرجت عن أمر قد أوحى إليك غيره ، فإنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به الحق ، فأعطيناك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا نبي الله ، وصل من شئت واقطع من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت ، والذي نفسي بيده ، ما سلكت هذا الطريق قط وما لى به من علم ، وما نكره أن نلقى عدونا ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ..

وفي رواية أيضا قال : إنا قد خلفنا من قومنا قوما ، ما نحن بأشد حبا لك منهم،

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ١/ ٣٦٧

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٣٩٢

ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة في الجهاد ونية ، ولو ظنوا يا رسول الله، أنك ملاق عدوا ما تخلفوا ، ولكن إنما ظنوا العير نبني لك يا رسول الله عريشا فتكون فيه ، ونعد عندك رواحلك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت من وراء ، فقال له النبي ﷺ خيرا ، وقال :« أو يقضي الله خيرا من ذلك يا سعد»[١]

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال :« سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»[٢]

هذا الموقف الخالد حول المسلمين من بعض الشك إلى كل اليقين ، فليس موقف المهاجرين بأكثر أملا من موقف الرسول ﷺ من اختبار موقف الأنصار ، خاصة وأن بعضا منهم قد جاء للعير ، ولم يأت للقتال . إلا أن موقف سعد بن معاذ ﷺ قد حول الأمر إلى قوة وتلاحم ، إلى عزم وتصميم ، إلى دفع وثبات ، وأثلج صدر المؤمنين وأفرح قلب رسول الله ، فجاءت بشراه ﷺ نتيجة طبيعية لمعرفة المواقف والرجال ، وأخبرهم بأنه ينظر إلى مصارع القوم ، وأن الله وعده إحدى الطائفتين ، وسارت الأمور تباعا والقوم ينتظرون الحرب ، لا ينتظرون سلما ، إنما استعدوا للقتال وللحرب ، فماذا قدم الأنصار بعد هذا ؟ هل تراجعوا ؟ هل تخاذلوا ؟ لم يحدث، بل إنهم باعوا أنفسهم لله ، والله قبل هذه المقايضة ، وهذه التجارة فأصدقهم الإيمان والجزاء والثبات .

لقد ألقت مكة بأفلاذ أكبادها في بدر ، والمسلمون أيضا جاؤوا على قلب رجل واحد ، وهم سيقاتلون مجتمعين لأول مرة تحت ظل الإسلام حيث الثواب المقيم جنة الخلد التي وعد المتقون ، ولقد خرج الأنصار من حروب كثيرة يحملون الندم والخسران والماء وجثث القتلى وبدون سبب يقنع ، واليوم الكل متحدون سيقاتلون في سبيل الله .

---

(١) إمتاع الأسماع : المقرزي ١/ ٧٥ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٣٩٥ ، البداية والنهاية : ابن كثير ٢/ ٢٦٤

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٢٦٧ ، ابن الأثير ٢/ ٨٤

وجاءت المواقف تترى من الأنصار .

قال ابن إسحاق فحدثت عن رجال من بني سلمة أن الحباب بن المنذر بن الجموح الخزرجي ، قال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال :« بل هو الرأي والحرب والمكيدة» فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى الماء (أدنى ماء القوم) ، فتنزله ثم تغور (الدفن والطمس) ، ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ :«لقد أشرت بالرأي» فنهض رسول الله ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزلوا،تم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضًا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماءً ثم قذفوا فيه الآنية[١]

ويقال أن رسول الله ﷺ كان يجمع الأقباض (الجماعة من الناس) وجبريل عن يمينه؛ إذ أتاه ملك من الملائكة ، فقال يا محمد ، إن الله يقرأ عليك السلام ، فقال : رسول الله ﷺ :«هو السلام ومنه السلام وإليه السلام»، فقال الملك: إن الله يقول لك: إن الأمر الذي أمرك به جباب بن المنذر[٢] فقال رسول الله يا جبريل هل تعرف هذا ؟ قال : ما كل أهل السماء أعرف ، وإنه لصادق وما هو بشيطان .

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر:أنه حدث أن سعد بن معاذ، قال: نبني لك عريشا ـ كما ورد سابقا فبنوا له عريشا فكان فيه[٣]

لقد كان صيت الأنصار منتشرا في البقاع ، وكانت تعلم قريش أن الأنصار مقاتلون أشداء ، دهمتهم الحرب ، وشدت أزرهم ، كانت حروبهم على الباطل وكانوا بها أشداء ، فكيف وهم يقاتلون اليوم عن عقيدة وإيمان متحدين متناصرين

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٢٧٢ ، السيرة النبوية : دحلان ١/ ٣٧١

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٤٠٢.

(٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٤٠٣ ، إمتاع الأسماع : المقريزي ١/ ٧٥ ، الطبري : تاريخ ٢/ ٤٤٠

فتية الدين الجديد الذي طالما سمعوا يهود يذكرونه ويذكرون نبيه وهم فتوة هذا الدين وجند هذا النبي الآن .

قال ابن إسحاق وحدثني إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار ، قالوا : لما اطمأن القوم (أي قريش) بعثوا عمير بن وهب الجمحي، فقالوا : احزر لنا القوم أصحاب محمد ، قال : فاستجال بفرسه حول المعسكر ، ثم رجع إليهم فقال ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد ؟

وكان عدد قريش ألفا ونيفا من أبطال قريش وزعمائها ورجالاتها ، قال : فضرب في الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا ، فرجع إليهم فقال ما رأيت شيئا ، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلا يا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ؛ إذ ترونهم خرسا لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعي ، لا يريدون أن يقبلوا إلى أهليهم ، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الجحف[1]

قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم[2]

وتداول القوم لكن جبروت وفتية أبي جهل حالت دون رأي أصحاب الرأي عتبة بن ربيعة، وحكيم بن حزام .

وتوالت المواقف الرائعة النيرة من الأنصار في هذا اليوم .

قال عوف بن الحارث وهو ابن عفراء: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده، قال :«غمسه يده في العدو حاسرا»، فنزع درعا كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل ، قال ابن إسحاق : ثم عدل رسول الله ﷺ الصفوف ، ورجع إلى

(١) السيرة النبوية : دحلان ١/ ٣٧٢ ، إمتاع الأسماع : المقريزى ١/ ٨٣
(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٤٠٧ ، الطبرى ، تاريخ ٢/ ٤٢٢

العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره ، وكان سعد بن معاذ ﷺ واقفا على باب العريش متقلدا بالسيف ومعه رجال من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ خوفا من أن يدهمه العدو من المشركين والنجائب مهيأة لرسول الله ﷺ إن احتاج إليها ركبها ، ورجع إلى المدينة كما أشار سعد بن معاذ [١]

لقد كانت كتيبة الأنصار تحمي رسول الله ﷺ في عريشه ، وتولى هؤلاء حراسته وليمنعوا عنه أي عدو يداهم مركز قيادة المسلمين ، وسعد بن معاذ رئيسهم ، وأبو بكر الصديق قائمون جميعا على باب العريش وحوله يتلقون أوامر الرسول لينفذوها فورا

وأخذ الرسول ﷺ يناشد ربه ويدعوه أن ينصره ـ بالدعاء المشهور ـ وأمر القوم ألا يباشروا بالقتال حتى يأذن لهم ، فلما اطمأن لموقف المسلمين أمرهم أن يباشروا القتال ، وخرج من صفوف المشركين عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فخرج إليهم فتية من الأنصار معاذ ، ومعوذ ، وعوف بنو عفراء ، ويقال ثالثهم عبد الله بن رواحة ، فاستحيى رسول الله ﷺ وكره أن يكون أول قتال يلقى فيه المسلمون المشركون في الأنصار[٢]، وقيل فإن القوم لما برز لهم فتية الأنصار ، قالوا من أنتم ؟ قالوا رهط من الأنصار ، فقالوا ما لنا بكم من حاجة، وفي رواية قالوا أكفاء كرام ، ولكن أخرجوا إلينا من بنى عمنا ، ونادى مناديهم يا محمد ، أخرج إلينا أكفاء من قومنا .

فقال النبي ﷺ :«قم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، قم يا حمزة بن عبد المطلب ، قم يا على بن أبي طالب ، وترى أن الرسول ﷺ في هذا الموقف ، قد جعل الأنصار بقربتهم له مثل قربة عمه وأبناء عمه له»

وكان أن قتل المسلمون المبارزين من قريش ، وذلك خلال وقت قصير تلقى كل صاحبه بضربة فأرواه قتيلا ، إلا ما كان من عبيدة بن الحارث الذي اختلف مع

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٤١٠ ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢/ ١٧١

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٤١٣ .

خصمه ضربتين جرح فيهما فأجهز الحمزة وعلى على خصمه فقتلاه .

واحتدم القتال ، وخرجت لنا من هذه المعركة المواقف الخالدة للمسلمين جميعا وخاصة الأنصار ، وكان أول قتيل من المسلمين في المعركة مهجعا مولى عمر بن الخطاب رمى بسهم فقتله .

قال ابن إسحاق : ثم رمى بعده حارثة بن سراقة أحد بني عدي بن النجار ، وهو يشرب من الحوض رمى بسهم فأصاب نحره فمات .

وثبت في الصحيحين عن أنس أن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر ، وكان في النظارة أصابه سهم غرب فقتله ، فجاءت أمة فقالت يا رسول الله أخبرني عن حارثة إن كان في الجنة صبرت ، وإلا فليرين الله ما أصنع ، يعنى من النياح ـ وكانت لم تحرم بعد ـ أي البكاء والنواح على الميت ، فقال لها رسول الله ﷺ «ويحك أهبلت ؟ إنها جنان ثمان ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى »[(١)]

يقول عمير بن الحمام أخو بني سلمة الأنصاري يا رسول الله ، جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال :«نعم» قال بخ بخ ؟ فقال رسول الله :« ما يحملك على قول بخ بخ ؟»قال: لا والله ، يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها .فقال: « فإنك من أهلها »، واخرج ثمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال لئن حييت حتى آكل هذه إنها حياة طويلة ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ، قال : فرمى ما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله[(٢)]، وقد ذكر ابن جرير أن عميرا قاتل وهو يقول ﷺ :

ركـــــضا إلى الله بغـــــــير زاد إلا التقـــى وعمـــل الميعـــاد

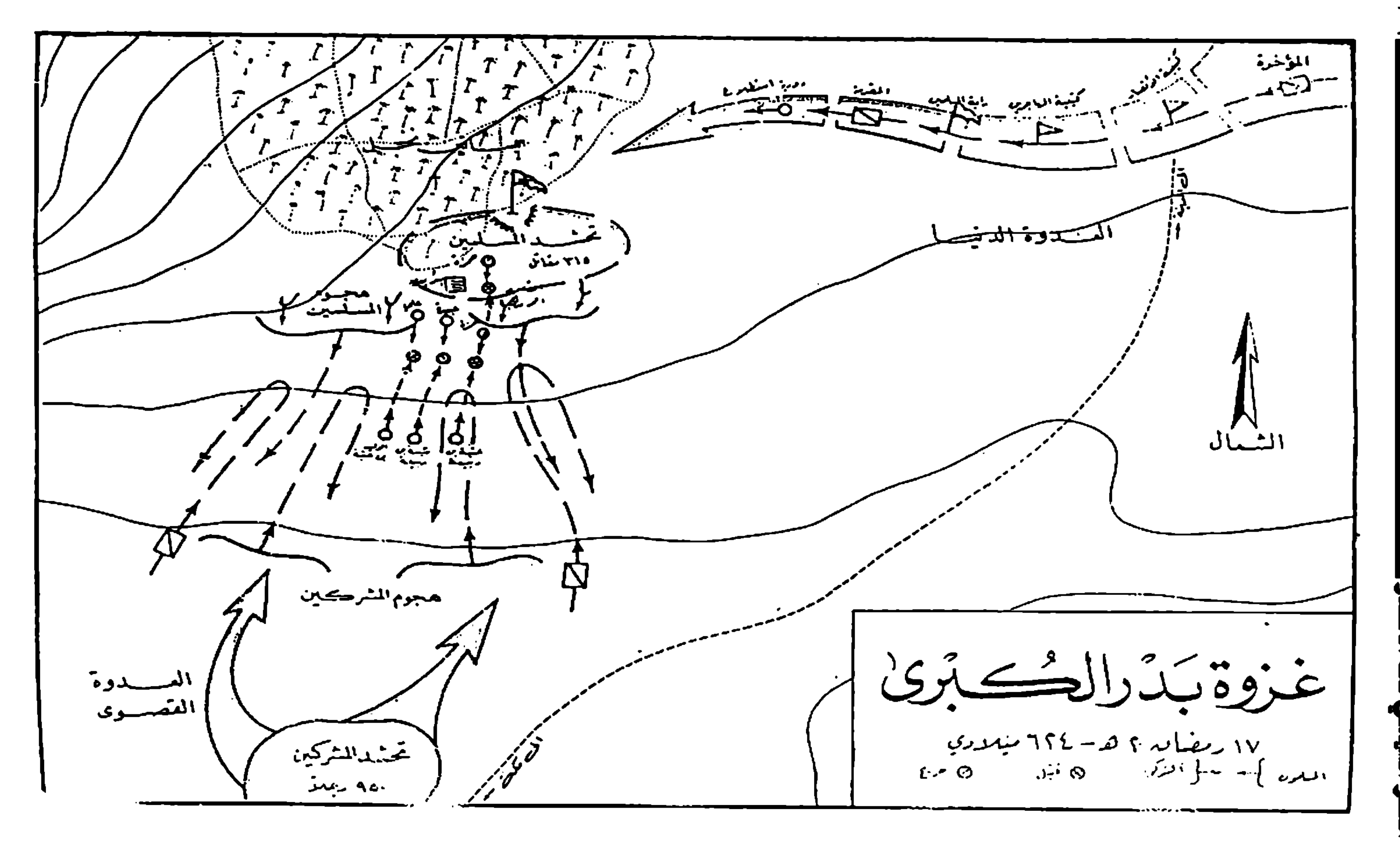
والـــصبر في الله عـــلى الجهـــاد وكـــل زاد عرضـــه النفـــاد

غـــير التقـــى والـــبر والرشـــاد

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٤١٦

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٢٧٩


غزوة بدر الكبرى
١٧ رمضان ٢ هـ – ٦٢٤ ميلادي
الشمال
العدوة الدنيا
العدوة القصوى
هجوم المشركين
حشد المشركين
٩٥٠ جندي
المؤخرة

وكان رسول الله ﷺ يحض الناس على القتال ، وكان مما يقول :« والذي نفسي بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة»

وقد جعل رسول الله ﷺ شعار المهاجرين: يا بني عبد الرحمن ، وشعار الخزرج : يا بني عبد الله ، وشعار الأوس : يا بني عبيد الله .

ولما وضع القوم أيديهم يأسرون ، رأي رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ، فقال :«كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟» قال أجل والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إلى من استبقاء الأسرى(١)

وفي قوله ﷺ عندما نزلت الآية الكريمة : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال:٦٧].

قال :« لو نزل عذاب من السماء ما نجى منه إلا سعد بن معاذ ، وفي مواضع أخرى عمر بن الخطاب لقوله الإثخان في القتل أحب إليَّ من استبقاء الأسرى ، ولعل السبب أن استشارة الرسول أصحابه في الأسرى بعد المعركة ، كان رأي عمر موافقا لرأي سعد بن معاذ عندما سأله الرسول في المعركة فوردت في بعض المراجع: سعد بن سعاد وفي الأخرى عمر بن الخطاب .

لقد أسر أحد الأنصار العباس بن عبد المطلب ، واعترف العباس بأنه أسر من رجل وضيء غير آسر ـ ودعا رسول الله ﷺ فقال :«اللهم لا تعجزني فرعون هذه الأمة» يعني أبا جهل .

وقد ثبت في الصحيحين من طريق يوسف بن يعقوب بن الماجشون عن صالح ابن عبد الرحمن بن عوف بن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف قال : إني لواقف يوم بدر

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٤٣٦ ، إمتاع الأسماع المقريزي ١/ ٩٦ ، البداية والنهاية : ابن كثير ٣/ ٢٨٤ ، السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٢٨٦ ، السيرة النبوية : دحلان ١/ ٣٨٢

في الصف فنظرت عن يميني وشمالي ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثي السن حديثه أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضعف منهما ، فغمزني أحدهما ، فقال : يا عم، أتعرف أبا جهل؟ قلت: نعم وما حاجتك إليه ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك ، فغمزني الآخر ، وقال لي أيضا مثلها ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل ، وهو يجول بين الناس فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه ، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه فقال :«أيكما قتله »؟ قال كل منهما أنا قتلته ، قال :« هل مسحتما سيفكما ؟» قالا لا ، قال فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال :«كلاكما قتله» وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو ابن الجموح والآخر معاذ بن عفراء ، في لفظ البخاري قريب من هذا

وفي الصحيحين أيضا : أن عبد الله بن مسعود أجهز عليه ، واحتز رأسه ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ .

لقد أبلى الأنصار يوم بدر بلاءً عظيما ، مقاتلين حماة طالبي شهادة ، خلص لله في أعمالهم .

ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما حرض أصحابه على القتال ، ورمى المشركين بالتراب ، وهزمهم الله تعالى ، صعد إلى العريش ومعه أبو بكر الصديق وسعد بن معاذ ومن معه من الأنصار وقوفا على باب العريش يحرسونه ، ومعهم السيوف خيفة أن تكر راجعة قريش إلى النبي ﷺ .

وقدم الأنصار في هذه الغزوة التضحيات تتلو التضحيات ، قدموا أرواحهم شهداء ، وقدموا أيمانهم مقاتلين ، وقدموا سيوفهم محاربين في سبيل الله ، ولقد استشهد منهم من استشهد وجرح منهم من جرح ، وحمل عبد الله بن رواحة وزيد ابن ثابت البشرى لأهل المدينة ،

قا ل حسان بن ثابت الأنصاري في ذلك :

قومي الذين آووا نبيهم ... وصدقوه وأهل الأرض كفار

إلا خصائص أقوام فهم سلف ... للصالحين من الأنصار أنصار

مستبشرين بقسم الله قولهم ... لما أتاهم كريم الأصل مختار

أهلا وسهلا ففي أمن وفي سعة ... نعم النبي ونعم القسم والجار

وقال كعب بن مالك أخو بنى سلمة يرد على ضرار بن الخطاب :

عجبت لأمر الله والله قادر ... على ما أراد ، ليس لله قاهر

قضى يوم بدر أن تلاقي معشرا ... بغوا وسليل البغي بالناس حائر

وقد حشدوا واستنفروا من يليهم ... من الناس حتى جمعهم متكاثر

وسارت إلينا لا تحاول غيرنا ... بأجمعها كعب جميعا وعامر

وفينا رسول الله والأوس حوله ... له معقل منهم عزيز وناصر

وجمع بني النجار تحت لوائه ... يمشون في الماذي والنقع ثائر

فلما لقيناهم وكل مجاهد ... لأصحابه مستبسل النفس صابر

شهدنا بأن الله لا رب غيره ... وأن رسول الله بالحق ظاهر[1]

وقال حسان :

فأنزلوه بدار لا يخاف بها ... من كان جارهم دارا هي الدار

وقاسموهم بها الأموال إذ قدموا ... مهاجرين وقسم الجاحد النار

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم ... لو يعلمون يقين العلم ماساروا

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ١٥

إن الخبيث لمن والاه غرار ... والاهم بغرور ثم أسلمهم
شر الموارد وفيه الخزي والعار ... وقال إني لكم جار فأوردهم
من منجدين ومنهم فرقة غاروا[١] ... ثم التقينا فولوا عن سراتهم

رفعت غزوة بدر من معنويات المسلمين كثيرا مهاجريهم وأنصاريهم ، ولبست المدينة ثوب النصر المؤزر كلها مرة واحدة إلا ما كان من يهود ، فقد قتلهم الحسد وشهقوا به ، ولم يتمكنوا أن يستوعبوا هذا النصر العظيم الذي حمله زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة إلى المدينة ، وأن رؤوس قريش كلها قد هوت ومن لم يمت فقد أسر ، وعادت كتيبة الإيمان إلى المدينة يحف بها نصر الله ومعها سورة الأنفال تلك التي رسمت كرامة المجاهدين ، ومقام الشهيد ، وجمال التضحيات ، وتوزيع الغنائم ، والثبات يوم الزحف ، ونصر الله المؤزر للقلة المالكة لزمام الإيمان على الكثرة التابعة للطواغيت والشيطان .

وتحولت المدينة إلى دار عرس كبيرة يعلو بها الإيمان ويسمو ، وانتقلت الأخبار إلى أنحاء الجزيرة تتحدث عن هذه المعركة الخالدة التي هزم بها جمع قريش أمام قلة من المؤمنين مما غير كثيرا من المواقف المعلنة في أنحاء جزيرة العرب ، وخاصة في قريش الذين قرروا أن يكون الثأر في أقرب فرصة متاحة ، مجندين في ذلك ولأجل ذلك كل إمكاناتهم المادية والمعنوية للثأر من محمد عن قتلى بدر حيث قتل منهم سبعون ، وأسر منهم سبعون آخرون ، واستشهد من المسلمين سبعة فقط ، اثنان من المهاجرين وخمسة من الأنصار .

وبعد أن شهق اليهود بالحسد تحركت أول جماعة منهم (بنو قينقاع) ، وسنأتي على تفصيلاتها ، وغزا الرسول ﷺ إلى (بحران) ، وكانت بعد بدر بأميال قليلة ، وقد قصد النبي بنى سليم فوجدهم قد تفرقوا فعاد ولم يلق كيدا[٢]

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٤٥٤ .
(٢) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٢٩ ، ٣١

وتلتها غزوة غطفان ، وكانت على رأس خمسة وعشرين شهرًا من الهجرة حيث خرج الرسول مع أربعمائة وخمسين من أصحابه يريد غطفان في نجد ، بعد أن علم أنهم جمعوا له بقيادة غوث بن الحدث فتفرقوا في الجبال ، ولم يظهر منهم أحد[1]

(١) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٢٩ ، ٣١

غزوة أحد

كان يوم أحد يوم فداء وبلاء ، وتمحيص واختبار ، امتحن به الله تعالى المؤمنين من عباده واختبر به المنافقين ممن أظهروا الإسلام بلسانهم وأخفوا في صدورهم الكفر والعصيان ويوما أكرم الله به من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته[١]

لقد كان يوم أحد اختبارا وتمحيصا وتفريقا بين المؤمنين والمنافقين فالمؤمنون صدقوا في عهدهم مع الله، ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

والمنافقون الذين فضح الله فعالهم بقوله : ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

ثم أولئك الشهداء الذين قبلهم الله في جنات الخلد وفي الفردوس الأعلى .

هذه بعض ملامح غزوة أحد .

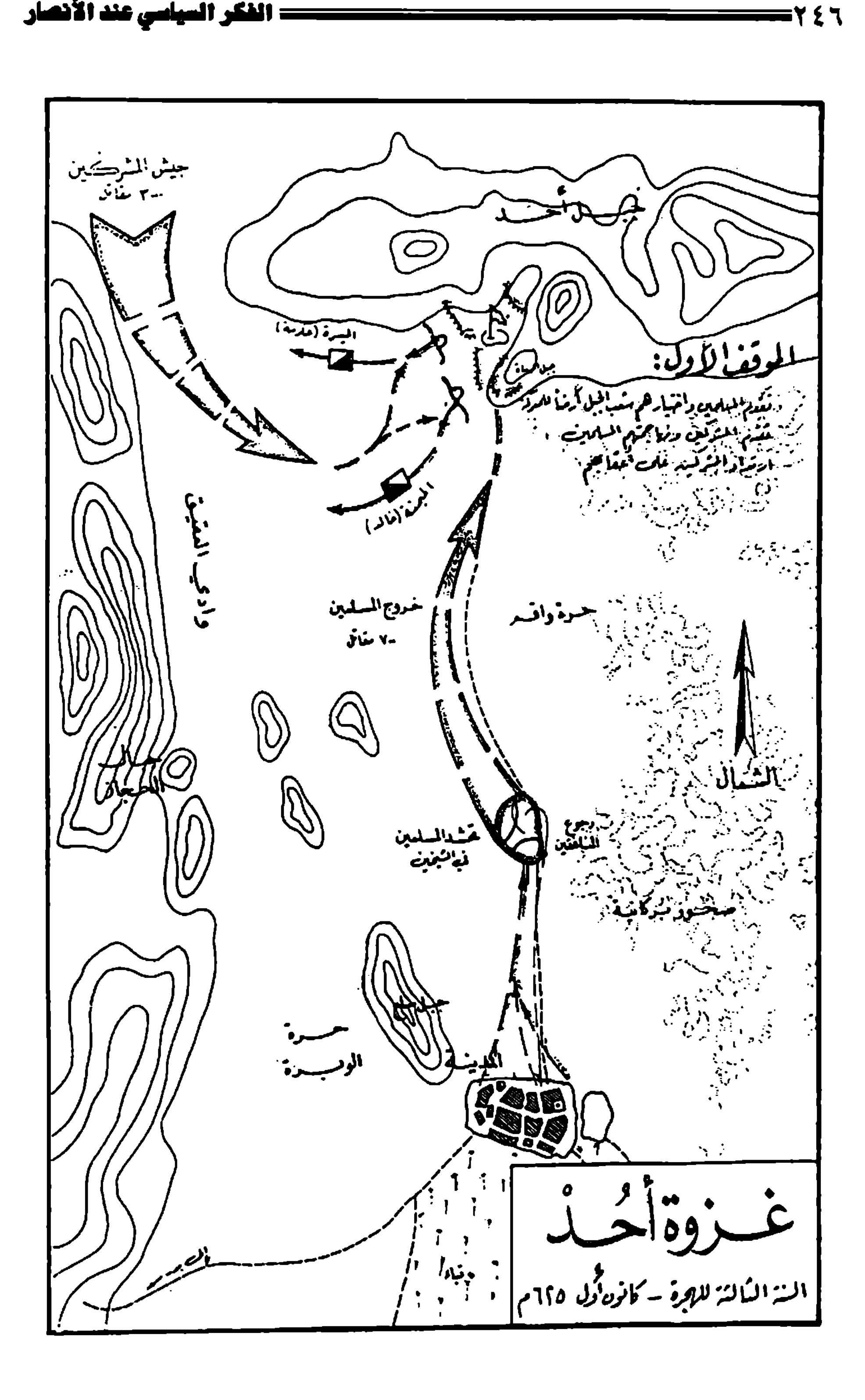
لقد كان جنود احد في مرحلة الاستعداد لها ثلاث فئات :

١ـ فئة قاتلت في بدر واستوعبت مقام الشهادة والتضحية والجهاد ، وشاهدت نصر الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين وملائكته لهم ظهيرا . فقررت ألا يفوتها موقف مع رسول الله ﷺ ، وخرجت متعطشة للشهادة ، راغبة إليها ، يحدوها الأمل ، ويدفعها الرجاء جائرة بالدعاء إلى الله أن يحقق لهم الشهادة أو النصر .

٢ـ وأخرى لم تقاتل في بدر ، فخلفت في نفوسها الأسى والحسرة والندم،إذ لم يشارك أفرادها في أول لقاء بين المسلمين والكفار ، وقرروا ألا يفوتهم مشهدًا ، وليكفروا عما فاتهم في بدر .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ١١٢


جيش المشركين
٣٠٠٠ مقاتل
جبل أحد
الموقف الأول:
الميمنة (خالد)
وادي العقيق
خروج المسلمين
٧٠٠ مقاتل
حرة واقم
الشمال
حشد المسلمين في الشيخين
رجوع المنافقين
صخور بركانية
حرة الوبرة
المدينة
غزوة أحُدْ
السنة الثالثة للهجرة - كانون أول ٦٢٥م

٣ ـ وفئة أخرى خرجت التماسا للدفاع عن المدينة ، أو من أجل الوفاء ببعض العهود بالزود عن المدينة إذا داهمها مداهم ، وقد انكفأت مع رئيسها عبد الله بن أبي، وقبل ان يحصل الالتحام بالقتال ، كان الأنصار هم.العدد الأكثر في الفئتين الأولى والثانية . فما فاتهم في بدر يجب أن يحصلوا على مثيله في هذا اللقاء ، وبذلك فقد أبلى هؤلاء بلاءً شهد لهم به الله تعالى وشهد به لهم رسوله .

كانت غزوة أحد في شوال[١] سنة ثلاث للهجرة، وقيل : ليال سبع منه .

قالوا : لما رجع من حضر بدر من المشركين إلى مكة ، وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب موقوفة في دار الندوة ، فمشت أشراف قريش إلى أبي سفيان وقالوا: نحن طيبوا النفس أن تجهزوا بربح هذا العير جيشا إلى محمد .

فقال أبو سفيان وأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، فباعوا فصارت ذهبا ، فكانت ألف بعير ، والمال خمسين ألف دينار ، فسلم إلى أهل العير رؤوس أموالهم ، وأخرجوا أرباحهم ، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار دينارا ، وفيهم نزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال] . وبعثوا رسلهم يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم ، فأوعبوا وتألب من كان معهم من العرب وحضروا، فأجمعوا على إخراج الظعن (النساء) ليذكرنهم قتلى بدر فيحفظنهم فيكون أحد لهم في القتال .

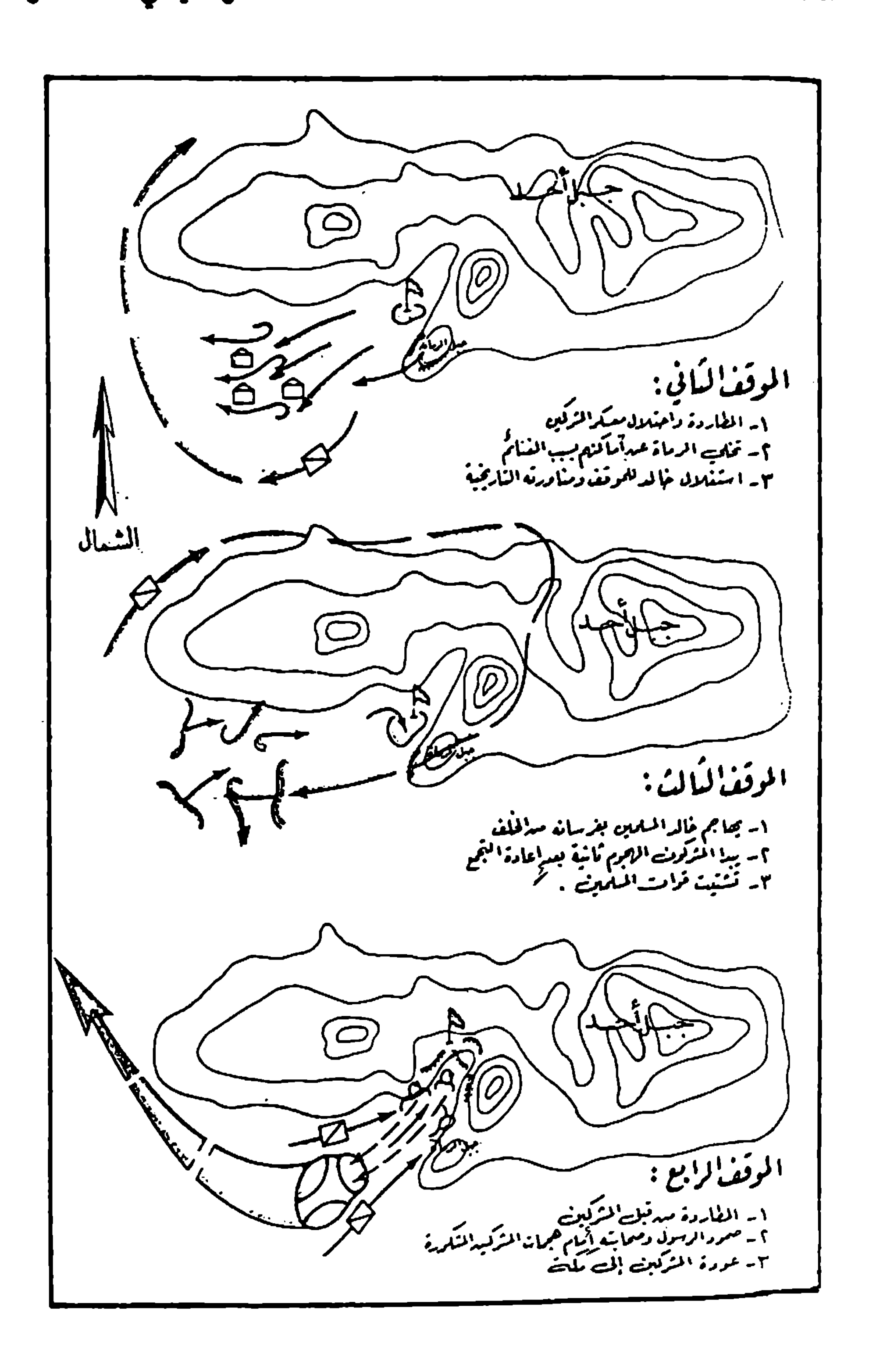
وكتب العباس بن عبد المطلب بخبرهم كله إلى رسوله الله ﷺ .

وأرجف المنافقون في المدينة واليهود ، وخرجت قريش من مكة ومعهم أبو عامر الراهب (الفاسق) في خمسين رجلاً من قومه، وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل ، فيهم سبعمائة دارع،ومعهم مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير،والظعن (النسوة) خمس عشرة امرأة[٢]

---

(١) البداية والنهاية : ابن كثير ٤/ ٩

(٢) الطبقات الكبرى : ابن سعد ٢/ ٣٦ ، ٣٧ ، البداية والنهاية ٤/ ١٠ ، السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٣٢ ، السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ٦٥ فما بعدها .


جبل أحد
الموقف الثاني:
١- المطاردة واحتلال معسكر المشركين
٢- تخلي الرماة عن أماكنهم بسبب الغنائم
٣- استغلال خالد للموقف ومناورته التاريخية
الشمال
جبل أحد
الموقف الثالث:
١- يهاجم خالد المسلمين بفرسانه من الخلف
٢- يبدأ المشركون الهجوم ثانية بعد إعادة التجمع
٣- تشتيت قوات المسلمين.
جبل أحد
الموقف الرابع:
١- المطاردة من قبل المشركين
٢- صمود الرسول وصحابته أمام هجمات المشركين المتكررة
٣- عودة المشركين إلى مكة

واستشار رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرج إليهم أم يمكث في المدينة ، وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت ، ووافقه على هذا الرأي عبد اللله ابن أبي ، وكان هو الرأي .

فبادر جماعة فضلاء الصحابة،ممن فاتهم الخروج يوم بدر،وأشاروا عليه بالخروج وألحوا عليه في ذلك ، وأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة، وتابعه على ذلك بعض الصحابة فألح أولئك على رسول الله فنهض ودخل بيته ، ولبس لأمته ، وصف الناس ينتظرون خروجه عليه السلام ، فقال لهم سعد بن معاذ ﷺ وأسيد بن حضير استكرهتم رسول الله على الخروج فردوا الأمر إليه ، وكان سعد بن معاذ سيد الأوس وهو في الأنصار كالصديق في المهاجرين[(١)] وخرج رسول الله عليهم وقد لبس لأمته، وانثنى عزم أولئك، وقالوا: أكرهنا رسول الله ﷺعلى الخروج ، فقالوا : يا رسول الله ، وإن أحببت أن تمكث في المدينة فأفعل ، فقال :«ما ينبغى لنبى لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه »[(٢)]

وكان الرسول قد أرسل رجالا يلتمسون خبر القوم قبل وصولهم ، ومات سعد ابن معاذ وأسيد بن خضير وسعد بن عبادة في عدة ليلة الجمعة عليهم السلاح في المسجد بباب رسول الله ﷺ ، وحرست المدينة حتى أصبحوا[(٣)]

فخرج رسول الله ﷺ والسملمون ، فسلكوا على البدائع وهم ألف رجل ، والمشركون ثلاثة آلاف ، فمضى رسول الله حتى نزل بأحد .

وهنا أعاد عبد الله بن أبي بن سلول تجربته السابقة عندما انخزل بأصحابه يوم بعاث ظنا أن التكرار لأمر نجح به في المرة الأولى في الجاهلية يهيئ له الجو ثانية بأن يقتل الرسول وأصحابه وتعود له العزة والمنعة ، ويصالح قريش على ما تريد ،

(١) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٣٥ .

(٢) زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ١٩٣

(٣) بقات الكبرى : ابن سعد ٢/ ٣٧

ويتوج ملكًا على يثرب ـ كما فعل يوم بعاث عندما رأي رؤوس قادة الأوس والخزرج تتساقط وهو في مؤيديه وجماعته لم يصب بأذى ، قام هذه المرة معيدا ما فعله في السابق على أمل تكرار القضية ثانية فانخزل مع ثلاثمائة من أصحابه احتجاجا على عدم الأخذ برأيه والمكوث في المدينة ، فلما انخزل وعاد تبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ابن عبد الله ويحضهم على الرجوع ، ويقول : تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع ..؟ فرجع عنهم وسبهم ، وسأل قوم من الأنصار رسول الله ﷺ أن يستعينوا بحلفائهم من اليهود فأبى[١]

بقى المسلمون سبعمائة عدوهم ثلاثة آلاف بكامل استعداداتهم وأحقادهم ، وغليان الثأر في دمائهم ، وخرج من خرج والكل يدفعهم الإيمان العظيم للزود عن حياض هذا الدين ، قال الذين لم يشهدوا بدرا : كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله فقد ساقه إلينا وقرب المسير .

وقال رجل من الأنصار: متى نقاتلهم يا رسول الله ، إذا لم نقاتلهم عند شعبنا ..؟

وقال نعيم بن مالك بن مقلبة أحد بنى سالم من الأنصار : يا نبى الله لا تحرمنا الجنة ، فوا الذي نفسى بيده لأدخلنها فقال رسول الله: بم قال بأنى أحب الله ورسوله، ولا أفر يوم الزحف، فقال رسول الله ﷺ :«صدقت »واستشهد يومئذ[٢]

وضع الرسول ﷺ جبل أحد خلفه وأحد جبل من جبال المدينة قيل: سمى بذلك لتوحده وانفراده عن غيره من الجبال التي هناك . وقال ﷺ :«أحد جبل يحبنا ونحبه ، إذا مررتم فكلوا من شجره ولو من عضاهه »: أي وهي كل شجرة عظيمة لها شوك ، والقصد الحث على عدم إهمال الأكل من شجرة ببركته .

وقال ﷺ :« أحد ركن من أركان الجنة»، وفي رواية:« جبل من جبال الجنة »[٣]

---

(١) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ١٩٤

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٣/ ٢٤

(٣) السيرة الحلبية : على الحلبى ٢ / ٢٥٨ ، ٢٢٩

وتعبأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة رجل ، وأمر على الرماة يومئذ عبد الله بن جبير الأوسي البدري أخا بني عمرو بن عوف ، وهو معلم يومئذ بثياب بيضاء ، والرماة خمسون رجلا ، فقال :« انضح عنا بالنبل لا يأتون من خلفنا ،و إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك» .. وفي رواية قال :«إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا نكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رايتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم ، أي مشينا عليهم وهم قتلى فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»(١)

ورد رسول الله ﷺ الغلمان من المهاجرين والأنصار منهم عبد الله بن عمر ، قال في الصحيحين:عرضت على النبي يوم أحد فلم يجزني،وعرضت عليه يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشر سنة فأجازني .

ورد يومئذ أسامة بن زيد ، وزيد بن حارثة ، والبراء من عازب ، وأسيد بن ظهير وقد ورد في غزوة أحد «أسيد بن حضير» وهو خطأ واضح ، والأمر أن أسيد ابن حضير كان قد اعتذر للرسول عن يوم بدر؛ لأنه لم يكن يعلم أن المسلمين يلقون كيدا فقبل الرسول عذره ، وهو من عناه سعد بن معاذ عندما طلب من الرسول إن كانت الدائرة عليهم يوم بدر أن يعود إلى قومه فهم يحبونه ويحبهم ، ويتابع دعوته بينهم ، وباعتبار أن أسيد بن حضير أحد البارزين من قادة بني عبد الأشهل قوم سعد ، وممن أعاد عرابة بن أوس بن قيظي ، وأسيد بن ضيمة ، وذكره السهيلي ، وأجازهم كلهم يوم الخندق ، وكان قد رد يومئذ سمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة ، فقيل:يا رسول الله إن رافعا رام فأجازه ، فقيل : يا رسول الله ، فإن سمرة رافعا سمرة يصرع رافعا فأجازه(٢)،وظهرت عظمة الأنصار وروعة إخلاصهم، وتفانيهم في خدمة الإسلام ونبي الإسلام ، وسنقف على بعض المواقف الخالدة الرائعة ، التي تزين صفحات التاريخ الإسلامي بزينة الإيمان والوفاء ، وأثبتت أن هؤلاء الجند قد نضر مثيلهم ، وقدموا للإسلام كل ما

(١) السيرة الحلبية ـ د حلان ٢ / ٣٧

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية ٣ / ٣٠

يملكون من طاقات وإخلاص ، وأعطوه الغالي والثمين بغير حساب أو منة، ولا طلبا لدنيا أو جاه ، إنما الغاية القصوى الفوز بالشهادة والجنة .

أخرج رسول الله ﷺ سيفه وقال:« من يأخذ هذا بحقه ..؟» فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بني ساعدة الأنصاري، فقال وما حقه يا رسول الله ..؟ قال :«أن تضرب به العد وحتى ينحني». قال أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه ، وكان لأبي دجانة عصابة حمراء يعلم بها عند الحرب ، يعتصب بها فيعلم أنه سيقاتل ، قال : فلما أخذ السيف من رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فاعتصب بها ، ثم جعل يتبختر بين الصفين ، فقال رسول الله ﷺ حين رأي أبا دجانة يتبختر :«إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن »، وقد أبلى أبو دجانة بلاء عجيبا في أحد(١)

وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهزم أعداء الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم ، فلما رأي الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه ، وقالوا يا قوم الغنيمة ، فذكرهم أميرهم عهد رسول الله فلم يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة، فذهبوا في طلب الغنيمة ، وأخلوا الثغر ، وكرّ فرسان قريش فوجدوا الثغر خاليا من الرماة فجازوا منه ، وتمكنوا حتى أقبل آخرهم فأحاطوا بالمسلمين ، فأكرم الله من أكرم بالشهادة وهم سبعون ، وتولى الصحابة ، وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ فجرحوا وجه ، وكسروا رباعيته اليمنى وكانت السفلى، وهشموا البيضة على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع لشقه، وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين ، فأخذ علي بيده ، واحتضنه طلحة بن عبيد الله ، وكان الذي تولى أذاه عمرو بن قمئة ، وعتبة بن أبي وقاص وقتل مصعب بن عمير بين يديه فدفع اللواء إلى علي بن أبي طالب ، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه فانتزعهما أبو عبيدة

---

(١) المصدر السابق ٣ / ٣٠ ، ٣١ ، زاد المعاد : ابن القيم ٢ / ١٩٦

ابن الجراح ، وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه، وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ، وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه، فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة ، وهم من الأنصار حتى قتلوا ، ثم جالدهم طلحة بن عبيد الله حتى أجهضهم عنه ، وترس أبو دجانة عليه بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك(١)

قال تعالى في هذا الموقف ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [آل عمران](٢)

وفشا الخبر بين الناس أن محمدا قد قتل ، فأصاب المؤمنين الزعر والخوف، وازداد النفاق ، حتى إن بعض المنافقين ، قالوا : لو أن لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي ليستأمن لنا من أبي سفيان ، ولكن المؤمنين الصادقين والأنصار والمهاجرين كان رأيهم غير ذلك .

قال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنهما : يا قوم إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وشهد له بهذه المقالة سعد ابن معاذ رضي الله عنه عند النبي ﷺ ، ووافق أنس بن النضر كثيرون على هذه المقالة ، وهم المؤمنون أهل الصدق واليقين الذين تمكن الإيمان من قلوبهم ، قال أنس بن مالك ولقد

(١) أخرجه البخارى ٦ / ٦٩ ، ٧١ ، ٧ / ٢٨٦ ، ١٠ / ١٤٦ ومسلم ١٧٩٠ من حديث سهيل بن سعد .

(٢) زاد المعاد ـ ابن القيم ٣ / ١٩٦ ـ ١٩٧

وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفته أخته إلا ببنانه[١]

وكان عمرو بن ثابت المعروف بالأصيرم من بني عبد الأشهل يأبي الإسلام ، فلما كان يوم أحد قذف الله الإسلام في قلبه للحسنى التي سبقت منه فأسلم ، وأخذ سيفه ولحق بالنبي ﷺ فقاتل فأثبتته الجراح ، ولم يعلم أحد بأمره ، فلما انجلت الحرب طاف بنو عبد الأشهل في القتلى يلتمسون قتلاهم فوجدوا الأصيرم وبه رمق يسير، فقالوا : والله إن هذا الأصيرم ،ما جاء به ؟ لقد تركناه ، وهو منكر لهذا الأمر، ثم سألوه مالذي جاء بك ؟ أحدب على قومك ، أم رغبة في الإسلام ؟ فقال بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله حتى أصابنى ما ترون ومات من وقته فذكروه لرسول الله ﷺ فقال :«هو من أهل الجنة» ، قال أبو هريرة: ولم يصل لله ولا صلاة واحدة قط[٢]

وفي صحيح مسلم: أنه ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش فلما رهقوه قال:« من يردهم عنا وله الجنة»، أو «هو رفيقي في الجنة»، فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه فقال، «من يردهم عنا وله الجنة» أو «هو» رفيقي في الجنة، فتقدم رجل من الأصنار فقاتل حتى قتل ، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول الله ﷺ :« ما أنصفنا أصحابنا»[٣]، [٤]

وقتل اليمان أبو حذيفة قتله المسلمون ، وكان رسول الله ﷺ قد رفعه، وثابت بن قيس بن وقش مع النساء ، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان: ما ننتظر ؟ أفلا نأخذ أسيافنا، فنلحق برسول الله ﷺ لعل الله أن يرزقنا الشهادة، ففعلا ، ودخلا في

---

(١) السيرة النبوية دحلان ٢ / ٤٥ ، البداية والنهاة : ابن كثير ٤ / ٢٢ ، الكامل : ابن الأثير ٢ / ١٠٩

(٢) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٢٠١ ، السيرة النبوية . ابن هشام ٣ / ٩٥

(٣) وهو يروى على وجهين بسكون الفاء ونصب أصحابنا على المفعولية ، وفتح الفاء ورفع أصحابنا على الفاعلية ، ووجه النصب أن الأنصار لما خرجوا للقتال واحد بعد واحد حتى قتلوا ، ولم يخرج القرشيان ، قال ذلك أي ما أنصفت قريش الأنصار ، ووجه الرفع أن يكون المراد بالأصحاب الذين فروا عن رسول الله حتى أفرد بالنفر القليل فقتلوا واحد ، بعد واحد ن فلم ينصفوا رسول الله ومن ثبت معه ، زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ٢٠٣ ، ابن هشام ٣ / ٨٦ .

(٤) أخرجه مسلم رقم ١٧٨٩ في الجهاد ، باب غزوة أحد .

الناس ولا يعلم بها، فأما ثابت فقتله المشركون، وأما اليمان فاختلفت عليه سيوف المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه ، فقال حذيفة : أبي أبي، فقالوا : والله ما عرفناه ، فقال : يغفر الله لكم ، وأراد رسول الله أن يديه فتصدق حذيفة بديته على المسلمين(١)

وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، وهي (عقبية : حضرت بيعة العقبة) يوم أحد ، فذكر سعيد بن أبي زيد الأنصارى: أن أم أسعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول دخلت على أم عمارة نسيبة بنت كعبة المازنية ، قلت لها يا خالة أخبرينيي خبرك ، فقالت خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى عنه بالقوس حتى خلصت الجراح إليَّ ، فرأيت على كتفها جرحا أجوف له غور ، فقلت من أصابك بهذا ؟ قلت ابن قمئة ، أقمأه الله ، لما ولى الناس عن رسول الله، أقبل يقول دلونى على محمد فلا نجوت إن.نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربنى هذه الضربة ، ولكن فقد ضربته عن ذلك عدة ضربات ، لكن عدو الله كانت عليه درعان(٢)

وتتوالى القصص في أحد، وتتوالى أخبار المخلصين من الرجال والنساء والولدان الذين قدموا أنفسهم رخيصة في سبيل الله، صدقوا مع الله صدق المؤمنين المتقين، وقصص تتلى عن خبر هؤلاء .

فكن قصة عمرو بن الجموح الذي قرر أن يدخل الجنة بعرجته ، إلى قصة سعد ابن الربيع الذي أوصى قومه الأنصار بألا عذر لهم عن حماية الإسلام(٣) إلى أحداث وأفعال أخرى يطرب لها قلب المؤمن .

---

(١) الكامل : ابن الأثير ٢ / ١١٢ ، السيرة النبوية . ابن هشام ٣ / ٢

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ٨٧ ، مائة أوائل من النساء . البواب ص ١٨٤ ، عيون الأثر : ابن سيد الناس ٢ م ٢٠

(٣) السيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ٩٦ ، ١٠٦

قال ابن هشام وحدثني أبو بكر الزبير: أن رجلا دخل على أبي بكر الصديق، وبنت لسعد من الربيع جارية صغيرة على صدره (يرشفها : يمص ريقها) ويقبلها، فقال له الرجل : من هذه ؟ قال: هذه بنت رجل خير مني بنت سعد بن الربيع ، كان من النقباء يوم العقبة، وشهد بدرا ،واستشهد يوم أحد(١)

قال ابن اسحاق قال أبو دجانة رأيت إنسانا يحمس الناس حمسا شديدًا فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امراة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة وهذه المرأة كانت هند بنت عتبة(٢)

قال ابن إسحاق مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله في أحد ، فلما نعوا لها قالت ما فعل رسول الله ؟ قالوا: بخير يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه ، قال : فأشير لها حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل(٣)

ومر رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظفر فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم فذرفت عينا رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قال :« لكن الحمزة لا بواكي له»، فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير إلى دار بني عبد الأشهل أمر نساءهم أن يتحزمن ، ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ ، قال ابن هشام : إن رسول الله لما سمع بكاء هن قال :« رحم الله الأنصار ، فإن المواساة ما عتمت منهم لقديمة ، مروهن فلينصرفن»(٤)

في خضم المعركة لما صاح إبليس : إن محمدًا قد قتل ، فتفرق الناس ، فمنهم من ورد المدينة ، فكان أول من دخلها بهذا الخبر أبو عبادة سعد بن عثمان بن مخلد بن عامر بن زريق الأنصاري ، ثم ورد بعده رجال ، فجعل النساء ، يقلن : عن رسول الله تفرون ؟ وجعل ابن أم مكتوم ـ وهو أعمى كما هو معروف ـ يقول : عن رسول

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ٩٦ ، ١٠٦.

(٢، ٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٣ / ٣٣ ، ٩٣

(٤) السيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ١٠٤

الله تفرون ؟ وحثت أم أيمن في وجوه بعضهم التراب وتقول : هاك المغزل : أغزل به ، وهلم سيفك إليَّ .

وقيل : إن المسلمين لم يعدوا الجبل وكانوا في سفحه لم يجاوزوه[(١)]

وصاح أحد المنافقين : إن رسول الله قد قتل ، فارجعوا إلى قومكم فإنهم داخلوا البيوت ، وأقبل ثابت بن الدحداحة ، ويقال : (ابن الدحداح) بن نعيم بن إياس ابن بكير والمسلمين (أوزاع) متفرقون ، قد سقط في أيديهم فصاح يا معشر الأنصار ، إلي إلي أنا ثبات بن الدحداحة إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت، فقاتلوا عن دينكم ، فإن الله مظهركم وناصركم ، فنهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كتيبة فيها: خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب ، فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله ، وقتل من كان معه من الأنصار ﷺ فيقال إن هؤلاء آخر من قتل من المسلمين[(٢)]

وانجلت غزوة أحد عن تضحيات جسام قدمها الأنصار رضوان الله عليهم ، فقد كانوا عدة الجيش وكانوا أكثر الشهداء ، وكانت بشرى للرسول تترى برؤية منازلهم في الجنة .

ومن الغرائب في غزوة أحد أن أبا عامر الراهب ، الفاسق ـ والذي حضر مع قريش كما سيرد تفاصيل عمله، وحفر الحفر ليقع بهما المسلمون كان ابنه حنظلة في أُحد غسيل الملائكة[(٣)]

والتقى حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة ويقال :«الغسيل» وأبو سفيان ، فلما استعلى حنظلة بن أبي عامر رآه شداد بن الأسود ، وهو ابن شعوب ، قد علا أبا سفيان فضربه شداد ، فقتله فقال رسول الله ﷺ :« إن صاحبكم يعني حنظلة

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ١٥٠ ـ ١٥٢

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) البداية والنهاية : ابن كثير ٤ / ٤٢

لتغسله الملائكة ، فسألوا أهله ما شأنه ؛ فسئلت صاحبته عنه ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة، وأورد ابن هشام قصيدة لأبي سفيان عن الحادث ، وأبيات لشداد يذكر فضله على أبي سفيان فقال :

ولولا دفاعي يابن حرب ومشهدي لألفيت يوم النعف[1] غير مجيب

ولولا مكري المهر بالنعف قرقرت ضباع عليه أو ضراء كليب[2]

وانجلت المعركة ، وعاد كل واحد يتلس أخاه وابن عشيرته .

وعن حمير بن هلال عن هشام بن عامر: أنه قال : جاءت الأنصار إلى رسول الله ﷺ يوم أحد ، فقالوا : أصابنا قرح وجهد ، فكيف تأمر ، فقال :« احفروا وأوسعوا واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر الواحد»، قيل: يا رسول الله، فأيهم يقدم؟ قال « أكثرهم قرآنا»[3]

قال موسى بن عقبة : جميع من استشهد يوم أحد من المهاجرين والأنصار تسعة وأربعون رجلا ، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن البخاري عن البراء: أنهم قتلوا من المسلمين سبعين رجلا ، فالله أعلم ، وقال قتادة : عن أنس قتل من الأنصار يوم أحد سبعون ، ويوم بئر معونة سبعون ، ويوم اليمامة سبعون .

وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس: أنه يقول : قارب السبعين يوم أحد، ويوم بئر معونة ويوم مؤتة ويوم اليمامة .

وقال مالك، عن يحيى بن سعيد الأنصار، عن سعيد بن السيب : قتل من النصار يوم أحد ، ويوم اليمامة سبعون ، ويوم جسر أبي عبيدة سبعون .

ولقد كان قد استشهد من المهاجرين أربعة والباقي من الأنصار رضوان الله عليهم ،

---

(١) النعف : أسفل الجبل .

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ٧٩ ، ٨١ .

(٣) البداية والنهاية ، ابن كثير ٤ / ٤٢ ، ٤٦.

والمهاجرون: هم حمزة وعبد الله بن جحش، ومصعب بن عمير ، وعبد الله ابن فهر[(١)] . ويقال : شماس بن عثمان[(٢)]

نظر رسول الله ﷺ إلى جابر بن عبد الله ، وقال :« مالي أراك مهتما ؟ »قال يا رسول الله قتل أبي وترك دَّينًا وعيالا فقال : ألا أخبرك ما كلم الله أحدًا إلا من وراء حجاب وأنه كلم أباك كفاحًا ، وقال له يا عبدي سلني أعطك فقال : اسألك أن تردني إلى الدنيا ، فأقتل فيك ثانية ، فقال إنه قد سبق مني القول إنهم إليها لا يرجعون قال : يا رب فأبلغ من ورائي فأنزل الله سبحانه : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران][(٣)]

وخرج عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب وهو أعرج ، ويقول : اللهم لا تردني إلى أهلي ، فقتل شهيدا ، واستشهد ابنه خلاد بن عمرو وعبد الله بن حرام ابن ثعلبة بن حرام الأنصاري ، فحملتهم هند بنت عمرو بن حرام ـ زوجة عمرو بن الجموح ـ على بعير لها تريد المدينة ، فلقيتها عائشة رضي الله عنها، وقد خرجت في نسوة تستروح الخبر ، ولم يضرب الحجاب يومئذ فقالت لها عندك الخبر، ما وراءك ، فقالت أما رسول الله فصالح ، وكل مصيبة بعده جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا .

قالت عائشة: من هؤلاء ؟ قالت: أخي وابني خلاد وزوجي عمرو بن الجموح ، قالت ، فأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلى المدينة أقبرهم فيها ، ثم قالت حل، تزجر بعيرها ، فبرك ، فقالت عائشة لما عليه[(٤)] قالت ماذاك به لربما حمل ما يحمل البعيران ، ولكني أراه لغير ذلك ، وزجرته فقام فوجهته راجعة إلى أحد فأسرع ،

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٣/ ٩٥، ٩٦

(٢) السيرة النبوية: ابن هشام : ٣/ ١٢٩

(٣) البداية والنهاية : ابن كثير ٤ / ٤٤

(٤) إمتاع الاسماع : المقريزى ١ / ١٤٧ ، ١٤٨

فرجعت إلى النبي ﷺ بذلك فأخبرته ، فقال :« فإن الجمل مأمور هل قال شيئا عمرو بن الجموح ؟» قالت إن عمرًا لما وجه إلى أحد قال :« اللهم لا تردني إلى أهلي خزيان وارزقني الشهادة »، فقال رسول الله :« فلذلك الجمل لا يمضي ، إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره منهم عمرو بن الجموح ، يا هند، مازالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن» ثم مكث رسول الله حتى قبرهم ثم قال :« يا هند قد ترافقوا في الجنة ، عمرو بن الجموح وابنك خلاد وأخوك عبد الله » قالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني معهم[(١)]

جدول بعدد شهداء أحد حسب قبائلهم

الأنصار المهاجرون	بنو عبد الأشهل	بنو راتج	بنو ظفر	بنو ضبيعة	بنو عبيد	بنو ثعلبة	بنو السلم	بنو العجلان	بنو معاوية	بنو حطمة
٤	١٢	٣	١	٢	١	٢	١	١	١+١	١+
بنو النجار	بنو مبدول	بنو عمرو	بنو عدي	بنو مازن	بنو دينار	بنو الحارث	بنو الأبحر	بنو ساعدة	بنو طريف	
٤	٢	١+١	١	٢	٢	٣	٣	٢	٢	
بنو عوف	بنو الحلبي	بنو سلمة	بنو سود	بنو زريق	بنو سواد	بنو سالم	الأوس	الخزرج	جميع الشهداء	
٥	١	٤	٣	٢	١+	١+	٢٦	٤٠	٧٠	

ـ الأرقام العادية ذكرها ابن اسحاق .

+ الأرقام والقبائل التي لم يذكرها ابن إسحاق وذكرها ابن هشام .

نلاحظ من هذا الجدول ما يلي[(٢)]

١ ـ عدد الشهداء من الأنصار كانوا هم الغالبين وعدد الشهداء من المهاجرين كانوا قلة .

---

(١) إى برك للذي عليه من الحمل .

(٢) عيون الأثر: ابن سيد الناس ٢/ ٤٠ـ٤٢

٢ ـ قدم بنو عبد الأشهل أكبر نسبة بين جميع القبائل ويليهم بنو عوف ثم بنو النجار وبنو سلمة.

٣ـ شهداء الخزرج أكثر من شهداء الأوس باعتبارهم هم الأكثر عددًا .

٤ـ قتلى بني عبد الأشهل في مرحلتين الأولى دفاعا عن الرسول ﷺ ، والثانية في آخر المعركة مع خالد بن الوليد ، وعكرمة وسواهم .

٥ـ زيادة عدد شهداء الأنصار يعود إلى مقتل من بقى ثابتا منهم في الجبل مع أميرهم .

٦ـ شمل القتل جميع قبائل الأنصار تقريبا، ولم يبق إلا القليل النادر لم يقدم شهداء في أحد .

وتجلت تضحيات الأنصار وسمت في اليوم التالى لأحد لم يبق بيت إلا وقدم شهداء وليس هناك بيت إلا وفيه جرحى .

عاد الرسول ﷺ يوم السبت النصف من شوال ، وفي ليلة الأحد لست عشر ليلة من شوال أذن مؤذن الرسول في الناس يطلب العدو ، وأذن مؤذنه ألا يخرجن أحد إلا من حضر يومنا بالأمس ، فكلمه جابر بن عبد الله الذي تخلف على أخوات بنات بأحد فأذن له .

وخرج الرسول ﷺ مرهبًا للعدو وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم .

قال ابن إسحاق ـ رحمه الله : أن رجلا من بني عبد الأشهل ، قال : شهدت أحدا أنا وأخ لي فرجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو وقلت لأخي ، وقال لي : أتفوتنا غزوة مع رسول الله والله ما لنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحا همنه، فكان إذا غلب حملته عقبة، ومش عقبة حتى انتهت إلى ما تنتهي إليه المسلمون.

وانتهى رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال ، فأقام فيها الاثنتين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع المدينة وعرفت هذه الغزوة بغزوة حمراء الأسد[1]

(١) عيون الأثرة ابن سيد الناس ٢ / ٥٢ ، ٥٣

بين أحد والخندق [1]

كان الأنصار جند الإسلام في غزوة الرجيع وغزوة بدر الثانية ، وبئر معونة .

أما غزوة الرجيع فقد شارك بها أربعة من الأنصار ، واثنان من المهاجرين ، وقيل: عشرة وهو الأصح كما وقع في كتاب الجامع الصحيح للبخاري رحمه الله.

وسببها أن قوما من عضل والقارة عددهم سبعة قدموا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام ، وهدفهم أن بني لحيان جعلت فرائض (لعضل والقارة) وهما رحم من بني الهون بن خزيمة بن مدركة أخوة بني أسد بن خزيمة،على أن يقدموا على النبي ﷺ فيكلموه أن يخرج غليهم نفرا يدعونهم إلى الإسلام ليقتلوا من قتل سفيان بن نبيح الهذلي،ويبيعوا سائرهم على قريش مكة، وكان ذلك في صفر على راس ستة وثلاثين شهرًا من الهجرة[2]، فأرسل رسول الله ﷺ النفر وهم :

١ـ مرثد بن أبي مرثد الغنوي .

٢ـ خالد بن البكير الليثي.(وهما مهاجران).

٣ـ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأوسى .

٤ـ خبيب بن عدى أخو جحجبي الأوسي .

٥ـ زيد بن الدثنة بن معاوية الخزرجي .

٦ـ عبد الله بن طارق حليف بني ظفر الأوسي .

---

(١) لم نتطرق لذكر غزوات اليهود لورودها بمكانها .

(٢) إمتاع الأسماع: المقريزى ١ / ١٧٤ ، السيرة النبوية: ابن هشام ٣ / ١٧٨ ، زاد المعاد : ابن القيم ٢/ ٢٤٤

وأميرهم مرثد بن أبي مرثد ، وقيل : عاصم بن ثابت .

حتى إذا كانوا على الرجيع ـ ماء لهذيل ـ بناحية الحجاز على صدور الهدأة غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا ، فلم يرع القوم وهم في رحالهم بأيديهم السيوف قد غشوهم ، فأخذوا أسيافهم ، ليقاتلوهم فقالوا : إنا والله لا نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم .

أما الثلاثة الأوائل ، فقالوا والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقد أي أبدا ، وقال عاصم بن ثابت شعرا في ذلك ، وقاتلوا القوم حتى قتلوا الثلاثة معا

أما عاصم فقد أرادت هذيل أن تأخذ رأسه ليبيعوه (سلافة بنت سعد بن شهيد)، وكانت قد أقسمت لئن تمكنت من رأسه لتشربن الخمر في قحفه؛ لأنه أصاب ابنيهما يوم أحد،لكن الدبر منعتهم منه،وحالت بين جثته وبينهم،فأجلوه للمساء، فاحتمل الوادي ، سيلا وأخذ جثة عاصم ، وبذلت وفي نذره بألا يمس جسده مشرك ، ولا يمسه مشرك نجس .

أما الثلاثة الآخرون فقد أسروا وساروا بهم إلى مكة ليبيعوهم ، وفي الطريق عند الظهران (وادي قرب مكة) انتزع عبد الله بن طارق حليف بني ظفر يده، وأخذ سيفه فرماه المشركون بالحجارة حتى قتلوه ، وقبره الآن هناك .

وأما الآخران (٤ و ٥) خبيب وزيد فقد بيعا في مكة وقتلا بأوقات متفرقة، صبرا كلاهما صبرا عجيبا عبر عن مدى إيمانهما وقوة تحملهما ، ويعتبر خبر خبيب مثالا لصبر المسلم على المكاره والأذى ، وهو الذي سن سنة ركعتي الصلاة قبل الموت ، ورد على المشركين بإجابات ألجمت ألسنتهم قطعا لظنونهم أنه حبًا في الحياة قد يتكلم بسوء على الرسول ﷺ بل دعا عليهم وكان مما قال اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددًا ، ولا تغادر منهم أحدا ، وقد أنزل الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ

أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة] .

ولم تمض أشهر قليلة إلا وجاءت قضية بئر معونة ، وكان ضحاياها كلهم من الأنصار ، وفي هذا الشهر بعينه ، وهو صفر من السنة الرابعة كانت وقعة بئر معونة .

وملخصها :أن أبا براء عامر ابن مالك المدعو (ملاعب الأسنة) قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد ، فقال : يا رسول الله ، لو تبعث أصحابك إلى أهل نجد تدعوهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم ؟ فقال : إني أخاف عليهم أهل نجد ، فقال أبو براء   أنا جار لهم ، فبعث معهم أربعين رجلا في قول ابن إسحاق،وفي الصحيح(١) . أنهم كانوا سبعين، والذي في الصحيح هو الصحيح، وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة الملقب بالمعنق ليموت ، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم وجميعهم من الأنصار ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر، وحرة بني سليم ، فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام ابن ملحان أخا أم سليم بنت ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه ، وأمر رجلا فطعنه بالحربة من خلفه ، فلما أنفذها فيه ، ورأي الدم قال : فزت ورب الكعبة (٢)

ثم استنفر عدو الله لفوره بني عامر إلى قتال الباقين ، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء ، فاستنفر بني سليم ، فأجابته عصية ورعل وذكوان ، فجاؤوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد النجار ، فإنه (ارتث) ، بين القتلى ، فعاش حتى كان يوم الخندق ، وكان عمرو بن أمية

---

(١) البخاري ٧/ ٢٩٧ – ٢٩٩ ، وفى المغازى ، ومسلم ٦٧٧ ص ١٥١١ فى الإمارة .

(٢) في هذه السرية قتل حرام بن ملحان قتله جبار بن سلمة ، يقول القائل : إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت منهم يومئذ برمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول : فزت ورب الكعبة، فقلت في نفسي: ألست بقاتله ؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا للشهادة ، فقلت فاز لعمرو الله ، فكان سببا لإسلامه ، السيرة النبوية : الندوي ص ١٩٤

الضمري ، والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين ، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة ، فنزل المنذر بن محمد فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه ، وأسر عمرو ابن أمية الضمري وأطلق سراحه ، فقتل رجلين من بني عامر ظنا أنه نال ثأره ، وكانا معاهدين للرسول فأمر الرسول ﷺ بدفع ديتهما[١]

---

(١) زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ٩٤ ، السيرة النبوية: الندوي ١٩٤ ، ١٩٥ ، إمتاع الأسماع : المقريزي ١/ ١٧٨ ، الطبقات الكبرى : ابن سعد ٢/ ٥١ ، ٥٢ ، الطبري : تاريخ ٢/ ٥٤٥ ، حياة الصحابة : الكاندهلوي ١/ ٥١١ فما بعدها ، عيون الأثر : ابن سيد الناس ٢/ ٦١ – ٦٤

غزوة الخندق (الأحزاب)

في تصاعد مستمر من التضحية والفداء، استمرت مسيرة الأنصار رضوان الله عليهم، وأجدد التأكيد بأن الحديث عن الأنصار واستخلاص أعمالهم، لا يعنى بحال إغماط حق الآخرين من المسلمين، فالجميع أنصار ومهاجرون قد أدوا من معطيات، وفاق ما قدموه طاقة البشر، وما كتبه الأولون لم يكن جزءًا إلا بيسطًا للتضحيات التي قدمها أصحاب محمد بين يدي محمد ﷺ ، ورضي الله عنهم وأرضاهم .

ولطالما أن الحديث يخص الأنصار في هذا المجال للوصول إلى تحديد واضح حل بهم بإسلامهم من الخير والبركات، وباعتبار أن الرؤيا التي كحلت عيون الباحثين الأقدمين أجبرتهم على التوسع في ذكر كل ما قدمه هؤلاء، وما حوته بطون الكتب، وأمهات المراجع، كل هذه وتلك ليست إلا تصورًا بسيطا توخي به المؤرخون عدم الإطالة والاختصار وعدم التوسع ، وأحاط تآليفهم الكثير من الضغوط أهمها الوقوف على الحديث الصادق المؤكد والتحري الدقيق عن روايه وناقليه ومدونيه، وتركوا من جراء الالتزام بهذا المبدأ الكثير الكثير من الأخبار الأخرى التي كانت في عظتها وقوتها فتحا آخر في سبيل الله، وركزوا أضواءهم على الأحداث البارزة، والتي قام بها المشاهير من الرجال، فعن الشهيد الذي صاح فزت ورب الكعبة، والأم والزوجة والبنت، والأخ، والأخت والأهل كلهم يحزنون أن لم ينالوا ما ناله الشهيد، فلم يجر الحديث المفصل عن هؤلاء وجمعهم كبير جدًا، والذي أمامنا من صور في أكثر الكتب لايتعدى ذكر بعض الأحداث البارزة التي تناقلها الناس، ودونها الكتاب بعد ذلك، أما ما نسى من هذه الأعمال فهو كثير، ولم يصل إلينا بتفصيلاته.

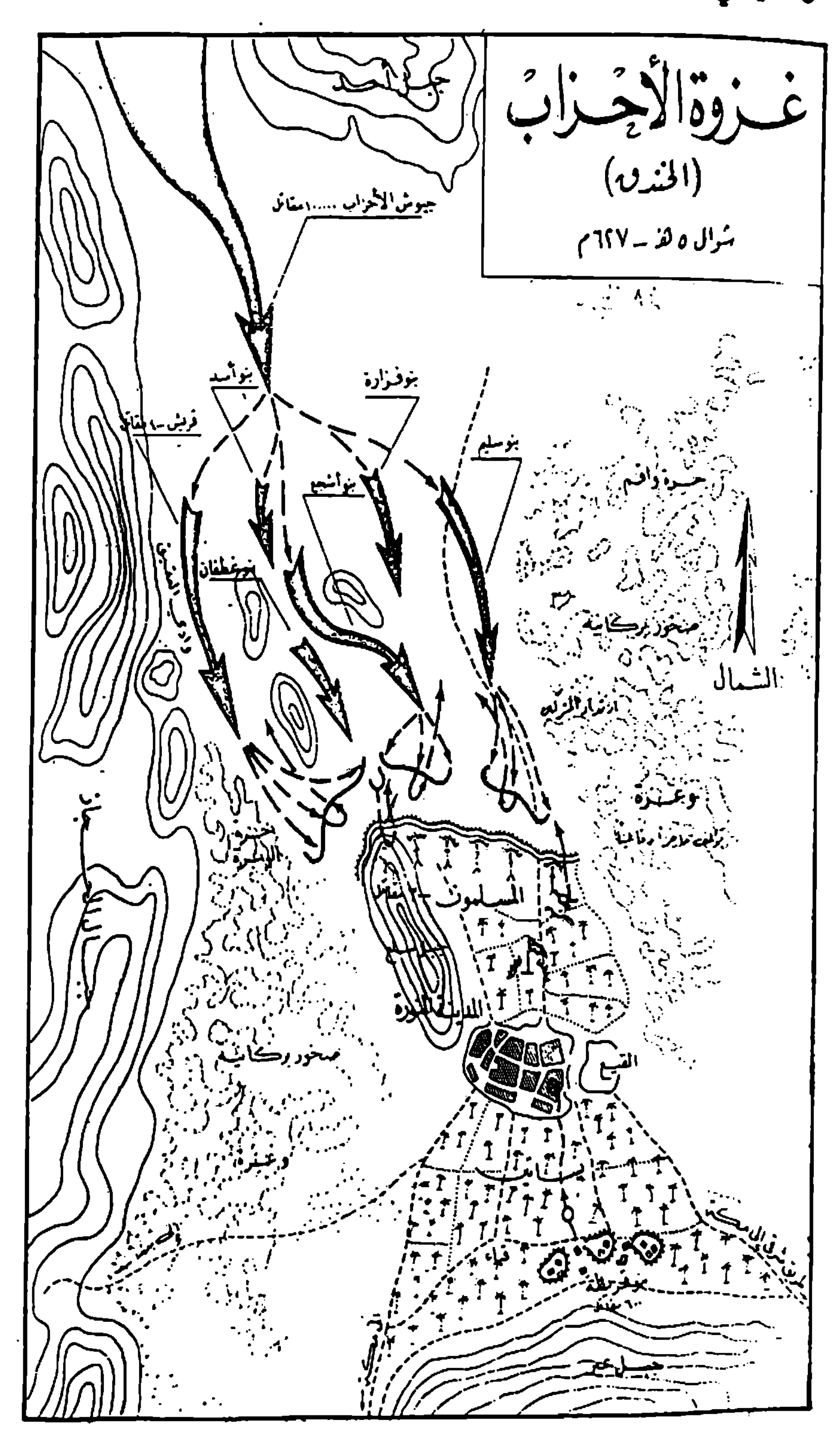
سار الأنصار في درب الإسلام الخالد صعودا يوما بعد يوم، تضحيات تتلوها أخرى، وشهداء يلحقهم آخرون، ورجال كان مقدرًا لهم أن يكونوا أو أولياء عهود أو وزراء يفرحون بأنهم يقفون حراسا على باب سيد المرسلين، يأخذون كل أثر منه مهما كان، وينفذون كل أمر دون تردد أو خوف، ويفرحون إذا وقع الاختيار الصعب عليهم.

نعم: إن مملكة يثرب كادت أن تقوم، ولم يبق إلا يوم ويتوج الملك، والكثيرون ممن كان لهم الجاه والسلطان في هذه المملكة، وعناصر فاعلة في ترحكاتها وأحداثها تركوها وراءهم ظهريًا، وانخرطوا في مسيرة الأنصار المباركة، ليرفعوا عمد هذا الدين، ويشيدوا بنيان هذه الأمة، واستمر عطاؤهم الغزير بغير حدود.

هذه الصفحة المشرقة من تاريخ الإسلام كانت تشع نورا وإيمانا وتصديقا بمزيد من العطاء الذي يقدمه المؤمنون بين يدى رسول الله ﷺ .

وفي غزوة الأحزاب أو الخندق.. تجمع الشرك والنفاق واليهود أعداء الله جميعا التقوا مرة واحدة في تجمع كبير، ما شهدته جزيرة العرب قبل ذلك، تجمعوا جميعا في محاولة للقضاء التام على الإسلام ورسول الإسلام وأهل الإسلام.

وجاءت بالمقابل تضحيات الرجال على قدر الحدث وجسامته ، وكانت هذه المواقف قد تمكنت أن تسقط وإلى الأبد كل تفكير محموم لهؤلاء الأعداء بأن الهجوم على مدينة الإسلام، وتحول المسلمون بعدها إلى الهجوم المضاد على كل المعاقل التي احتمى بها الكفرة والمشركون والمنافقون، وسقطت بأيديهم معقلًا يتلوه آخر، ونشر المسلمون الإسلام وفتحوا الأمصار، ودخلوا الحواضر والمدن والقرى، وغزا الدين عقول هؤلاء فحولهم إلى جنود وحماة له، وحملوا هم أنفسهم هذا الدين إلى العالم. وكان الأنصار رضوان الله عليهم وإخوانهم المهاجرون رواد هذا الفتح العظيم الذي جعل كلمة الله هي العليا في الأرض، في زمن قياسي بالنسبة لعمر الزمن.


غزوة الأحزاب
(الخندق)
شوال ٥ هـ - ٦٢٧م
بنو أسد
بنو فزارة
بنو سليم
بنو أشجع
بنو غطفان
الشمال
المسلمون

أجمعت المصادر على أن السبب المباشر لغزوة الخندق جاء من تحريض اليهود، بعد أن أخرج الرسول ﷺ بني النضير من المدينة، وبالسعي الحثيث والمتواصل لزعيمهم حيى بن أخطب، وكذلك تحريض أبي عامر الراهب، كما سيأتى تفصيل تحركهما في الحديث عن اليهود والمنافقين.

كانت الغزوة في شوال سنة ٥ هـ.

وجد المشركون الفرصة وتثبيت معتقداتهم بأخذ الرأي من يهود الذين يعتبرون من أهل الكتاب، وليسجلوا بذلك فوزا بهذه الشهادة بأن ديانة الوثنية والشرك خير من ديانة التوحيد؟

وسبب هذه الغزوة كما سبق... أنه لما وقع جلاء بني النضير سار نفر من اليهود منهم سلام بن مشكم وابن أبي الحقيق وحيى بن أخطب(١)، وهوذة بن قيس الوائلى وأبو عمار الوائلى في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل وهو الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إننا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟(٢)

كان السؤال انتهازا لموقف، وكان الجواب أيضا مثل ذلك، وحرصا على تثبيت هذه المواقف قال اليهود وبدون تردد: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى منه؟ ولم يقف اليهود على أية حجة أو منطق يؤيدهم، فهم أهل كتاب وقريش أهل أوثان، والحرب بين التوحيد والشرك قائم دائم، أما أن يشهد أهل التوحيد لأهل الشرك على أهل الإيمان والتوحيد، فهذا من مغالطات الأفكار، والإنحراف المعاسر وخيانة أمانة التوحيد، وجواب اليهود هذا لم يكن إلا ترضية لقريش، لأنهم يريدون أن يحققوا معهم أمرا يطفيء غيظ قلوبهم على الإسلام والمسلمين.

---

(١) السيرة النبوية: دحلان ٢/ ١١٣، حدائق الأنوار: الشيبانى ٢/ ٥٨٤، عيون الأثر ٢/ ٧٦ فما بعد.
(٢) السيرة النبوية: ابن هشام ٣/ ٢٢٤، ٢٢٥

ومن خلال كل الأحداث فإن قريشًا وثنيون، واليهود أهل الكتاب، وعندهم من التفريق بين هذين المعتقدين الشيء الكثير،فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء].

ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم، ثم ظافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب، فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان في آلاف ووافتهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت بنو أسد وفزارة، وأشجع وبنو مرة، وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حسن، وكان من وافي الخندق من الكفار عشرة آلاف مقاتل[1]

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه استشار أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق، وعمل بنفسه فيه، وبادروا هجوم الكفار عليهم،وكا في حفرة من آيات نبوته وإعلام رسالته ما قد تواتر به الخبر، وكان حفر الخندق أمام سَلْعٍ وسَلْعٌ جبل خلف ظهور المسلمين والخندق بينهم وبين الكفار.

وخرج رسول الله في ثلاثة آلاف من المسلمين فتحصن بالجبل من خلفه والخندق من أمامه[2]، وجعل الذراري والنساء في الأطام[3]

وتنافس المهاجرون والأنصار ممن يكون سلمان الفارسي الذي أشار بحفر الخندق

(١) الطبري: تاريخ ٢/ ٥٧٠، إمتاع الأسماع: المقريزي ١/ ٢١٨، وقد فصل في هذه الصفحة وتاليها كل أسماء القبائل وعددها .
(٢) زاد المعاد: ابن القيم ٣/ ٢٧٠، والكامل: ابن الأثير ٢/ ١٢٢
(٣) وفاء الوفا: السمهودي ١/ ٣٠١.

على رسول الله ، قال المهاجرون سلمان منا، وقالت الأنصار سلمان منا، فقال النبي ﷺ: سلمان من أهل البيت(١)

واستشرى النفاق بين الناس، وتأخر عن العمل أناس من المنافقين ومن خرج منهم صار يعمل عملا ضعيفا، ويعتذرون بالضعف، ومنهم من ينسل خفية بغير إذن رسول الله ولا علمه ﷺ ،وأنزل الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [النور] (٢)

خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأي رسول ما بهم من النصب قال:

اللهم إنَّ العَيْشَ عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجره

فأجاب المسلمون المهاجرون والأنصار:

نَحْنُ الذينَ بايعوا محمدًا ... على الجِهادِ ما بَقينَا أبدًا

وأنشد عبد الله بن رواحة الأنصارى وهو ينقل التراب:

والله لولا اللهُ ما اهتدَيْنا ... ولا تَصدَّقنا ولا صلَّيْنَا

فأنْزِلنْ سَكِينةً علينا ... وثَبِّت الأقدام إنْ لاقَيْنا

---

(١) السيرة النبوية: دحلان ٢/ ١١٤

(٢) السيرة النبوية: ابن كثير ٣/ ١٨٣

إن الألى قـــــد بغَـــــوا علينـــــا إذا أرادوا فِتْنَـــــةً أَبَيْنَـــــا[١]

وكان زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري فيمن ينقل التراب، وقد أذن له رسول الله في هذه الغزوة، وكان قد رده عن سابقتها لصغر سنه، فقال رسول الله:«إما أنه نعم الغلام» وغلبيته عيناه فنام في الخندق ـ وكان القُرُّ شديدا ـ فأخذ عمارة بن حزم سلاحه، وهو يشعر، فلما قام فزع! فقال له رسول الله:« يا أبا وقاد، نمت حتى ذهب سلاحك، ثم قال:«من له علم بسلاح هذا الغلام؟ فقال عمارة يا رسول الله هو عندي»، فقال:«فرده عليه»،ونهي أن يُرَوع المسلم ولا يؤخذ متاعه جادا أو لاعبا[٢]

وانطلق حبي بن أخطب إلى بني فريظة، فدنا من حصنهم، فأبي كعب بن أسد أن يفتح له، فلم يزل بكلمة حتى فتح له، فلما دخل عليه، قال: لقد جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش وغطفان وأسد على قادتها لحرب محمد، قال هب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام(السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه)، قد هراق ماؤه، فهو يرعد ويبرق وليس فيع شيء، فلم يزل به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله، ودخل مع المشركين في محاربته، فسر بذلك المشركون، وشرط كعب على حيى، أنه إن لم يظفروا بمحمد أن يجي، حتى يدخل معه في حصنه، فيصيبه ما أصابه فأجابه إلى ذلك[٣]

ومن المعجزات العظيمة في هذه الغزوة ـ ثمرات قليلة احضرتها ابنة بشير بن سعد لتطعم بها آباها وخالها، فأكل منها كل أهل الخندق، وشاة جابر بن عبد الله تعشى منها كل أهل الخندق[٤]

وبشر الرسول ﷺ المؤمنين بأنه سيفتح لهم من أقطار الدنيا مشرقها ومغربها، وهو يضرب صخرة استعصت على المسلمين.

---

(١) السيرة النبوية: دحلان ٢/ ١١٤

(٢) إمتاع الأسماع: المقريزي ١/ ٢٢٢

(٣) زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ٢٧٢ ،الطبري: تاريخ ٢٠/ ٥٧١، السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ٢٣١.

(٤) زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ٢٧٢ ،الطبري: تاريخ ٢٠/ ٥٧١، السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ٢٣١.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة، كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وعثمان وما بعده، افتحوا ما بدا لكم فواالذي نفسي أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتحونها إلى يوم الدين (القيامة)، إلا وقد أعطى الله سبحانه وتعالى محمدًا مفاتيحها قبل ذلك(١).

وتعاظمت مواقف الصحابة رضوان اله عليهم في هذه الغزوة إلى مراتب علية جدًا، أحاط المشركون بالمسلمين من كل جانب، المشركون واليهود أمام الخندق وحول المدينة، ونقض بنو قريظة العهد في المدينة، واستشرى النفاق بين الناس حتى عند بعض الذين لم يشهر عندهم النفاق.

وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ذهب ظن المؤمنين كل مذهب، ونجم النفاق، حتى قال متعب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط(٢)

ولما وصل خبر نقض بني قريظة العهد إلى رسول الله ﷺ، بعث إلى سعد بن معاذ ابن نعمان وهو يومئذ سيد الأوس، سعد بن عبادة بن دُلَيم، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بني الحارث من الخزرج، وخوات ابن جبير أخو عمرو بن عوف، فقال: «انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ..» فإن كان حقا فالحنوا لى لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاء الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلًا فيه حد فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربي الشاتمة، ثم أقبل سعدً وسعدً ومن سعهما إلى

(١، ٢) السيرة النبوية: ابن هشام ٣/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩، ٢٣٣.

رسول الله قالوا: عضل والقارة، أي كغدر هؤلاء بأصحاب الرجيع وأصحابه، فقال رسول الله : الله أكبر. أبشروا[(١)]

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحزاب]

وبدأ الموقف العظيم من الأنصار رضوان الله عليهم،وهم في هذه الشدة والبأس، وليس بينهم وبين أن يدخل الناس عليهم كل الأبواب فيحصدونهم حصدًا، إلا أن تغمض عين، أو يصابوا بغرة من جانب.

وارتأي رسول ﷺ أن يخزل عنهم بعض الأحزاب ، بعد أن وصل بهم الحال إلى ما هم فيه ، واشتد عليهم الحصار والبلاء والخوف الذي استشرى في كل مكان ، وقويت شوكة يهود بني قريظة ، وجلسوا يتقاسمون الغنائم قبل وقوعها ، حتى زوجات النبي ﷺ وزعوهم فيما بينهم ، ووجدوا الفرصة مواتية للخروج من استعلاء الأوس والخزرج عليهم عقودًا كثيرة .

بعث رسول الله إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري ، وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ، ولا عزيمة الصلح

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ٢٣٢، السيرة النبوية: دحلان ٢/ ١١٧ ، ١١٨ ، إمتاع الأسماع المقريزي ١/ ١٧٨ ، زاد المعاد: ابن القيم ٣/ ٢٧٢، السيرة النبوية: ابن كثير ٣/ ٢٠٠، وقد ذكر أن الذي شاتمهم هو سعد بن عبادة، وهو الذي كان به حدة، وقد قال سعد بن معاذ: إن ما بيننا وبينهم... وفعلا فقد كان ذلك .

إلا المراودة في ذلك ، فلما أراد أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وهما سيدا الأنصار ، والمعنيون أصلًا بثمار المدينة فمنهم أصحابها ولو أنهم أوقفوا كل شيء في سبيل الله، وأعطوا الرسول أن يتصرف بهم وبأولادهم وأحوالهم وأملاكهم كما يريد ، لا يرده ويسأله سائل ، والرجلين آنذاك محط استشارة الرسول ﷺ .

قال سعد بن معاذ ـ وكان قد وقف على نقض قريظة العهد ، وفي وضع لا يشجع على التشدد ـ قال: يا رسول الله، أمرًا تحبه فنصنعه ؟ أم شيئًا أمرك به الله لا بد لنا من العمل به ؟ أم شيئًا تصنعه لنا ؟ قال رسول الله :« بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما».

قال سعد بن معاذ ـ بأنفة المسلم ، وقوة المؤمن ، وشجاعة الرجال: يا رسول الله : قد كنا وهؤلاء القوم على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا (ثمارنا بلا مقابل) والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم[1]. فقال النبي ﷺ بعد أن وجد جبال الإيمان شامخة أمامه ، ثابتة راسخة : قال:« أنت يا سعد ، وذاك »وناوله الصحيفة ، فأخذها سعد بن معاذ فمحا ما بها من كتاب ، ثم قال رسول الله :« ليجهروا علينا»

وفي لفظة قال سعد : يا رسول الله ، إن كان أمر من السماء فامض له ، وإن كان أمر لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمعا وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأي ، فما لهم عندنا إلا السيف فقال رسول الله :«لو أمرني الله ما شاورتكما ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم على قوس واحدة »[2]

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، البداية و النهاية : ابن كثير ، ٤/ ١٠٢ ـ ١٠٣ بتصرف ، الكامل : ابن الأثير ٢/ ١٢٤ ، الطبري : تاريخ ٢/ ٥٧٣ ، فقه السيرة : الغزالي ٤٥٤ ـ ٤٥٥

(٢) السيرة الحلبية :علي الحلبي ٢/ ٣٣٩

ولم يكن بين المسلمين و المشركين إلا تراشق بالنبل ، والبعض قد اقتحم الخندق من مكان ضيق فيه ولكن المسلمين ردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم من قتلوا .

قال ابن إسحاق حدثني أبو ليلى عبد الله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل الأنصارى أخو بني حارثة أن عائشة أم المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق ، وكان من أحرز حصون المدينة ، قال : وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن ، فقالت عائشة وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ـ فمر سعد وعليه درع له مقلصة (قصيرة) قد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربته يركض بها و يقول :

لبثت قليلا يشهد الهيجا جمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه : الحق أي بني ، فقد والله أخرت .

قالت عائشة فقلت لها : يا أم سعد ، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ (أوسع) مما هي ، وخفت عليه حيث أصاب السهم منه ، فرمى سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل ، رماه حبان بن قيس ابن العرقة أحد بني عامر بن لؤي ، فلما أصابه قال : خذها وأنا ابن العرقة ، فقال له سعد : عرق الله وجهك في النار[(١)]

ثم قال دعاءه المشهور : اللهم إن كنت أبقيت من حروب قريش شيئا فأبقنى لها، فإنة لا قوم أحب إلى أن أجاهد هم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم إن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فاجعله لى شهادة ولا تمتنى حتى تقر عينى في بني قريظة ، وهيأ الله ـ تعالى ـ للمسلمين مخرجا بإسلام نعيم بن مسعود ابن أنيف من بني غطفان وجاء الرسول ، وأعلن إسلامه وطلب الرسول منه أن يفعل شيئا ، وقال له : خذل عنا إن استطعت فالحرب خدعة[(٢)]

(١) في الطبقات لابن سعد (٢/ ٦٧) أن الذي قال: عرق الله وجهك فى النار هو رسول الله ﷺ.

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ٢٣٧ ، ٢٣٨

وتمكن نعيم بن مسعود أن يوقع بين الأحزاب وبين بني قريظة بعد حصار دام حوالى الشهر ، وأرسل الله ـ تعالى ـ ريحا عاتية في أيام باردة شديدة البرودة ، فقلعت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وشتت شملهم .

ويبقى الأنصار الجند الأوفياء المخلصين ؛ ومع لحظات الخوف الشديدة هذه ، والريح تفعل فعلها في معسكر القوم التفت رسول الله إلى المسلمين حوله ، وقال:«من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ، ثم يرجع يشرط له رسول الله الجنة ، أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى في الجنة »، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني ، فقال يا حذيفة ، اذهب فادخل القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا ، قال : فذهبت فدخلت القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدرا ولا نارًا ولا بناءً . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي بجانبى ، فقلت من أنت ؟ قال : فلان بن فلان .

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضرب فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى ألا تحدث شيئا حتى تأتيني ثم شئت لقتلته بسهم[1]

وحذيفة أحد أبطال أحد قتل أبوه اليمان خطأ ، فتصدق بديته على المسلمين ، وذهبت الأحزاب وتفرغ الرسول ﷺ لبني قريظة كما سيأتي الحديث عنهم .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ٢٣٤

غزوة مؤته (جمادى الأولى ٨هـ) [١]

تتميز غزوة مؤتة عن سواها من الغزوات التي قادها الرسول ﷺ بنفسه أو جهزها بأنها أول لقاء بين المسلمين والروم ومن والاهم ، والأنصار سيخرجون هذه المرة لحرب أبناء عمومتهم من عرب الشام، وعرب الشام كما سبق (الغساسنة) وسواهم يعتبرون المجنَّ الواقي للدولة الرومانية من غارات الأعراب والبدو ، وتعتبر هذه الغزوة أول لقاء مع قوم من غير سكان جزيرة العرب ، وأول خروج للمسلمين خارج حدود الجزيرة التي لا سيطرة للساسانيين أو البيزنطيين عليها ، من جهه أخرى : سمى رسول الله ﷺ ثلاثة قواد يتولون القيادة ، إن هلك الأول حل محله الثاني وهكذا ، وقالت اليهود : إنهم ما سمى رسول قائدا بعد آخر إلا تنبأ بمقتل من سبقه[٢]

عين الرسول قائدين من المهاجرين زيد بن حارثة مولاه، و جعفر بن أبي طالب ابن عمه ، ومن الأنصار عبد الله بن رواحة، وهو أحد المقدمين في الأنصار بعد استشهاد سعد بن معاذ في يوم قريظة، وهو شاعر كبير دافع عن الرسول كثيرا بلسانه ضد أعداء الرسول والإسلام تماما كما كان يزود عنه بسيفه، وله شعر كثير في الدعوة ومدح الرسول والصحابة ، وذكر معارك المسلمين.

وفي هذه الغزوة كما في غيرها من الغزوات التي أتينا على ذكرها، أو التي سنأتى على ذكرها، قد تجلت تضحيات الأنصار بأوج عطائها وتفانيها، فعدا عن كونهم أكثر جند الحمله، وأكثر شهدائها فإن مواقفهم أثناء احتدام القتال كانت جليلة عظيمة، ومنهم عبد الله بن رواحة نفسه.

---

(١) عيون الأثر : ابن سيد الناس ٢/ ١٩٨ فما بعد .

(٢) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٢٣١

على أثر انتصار الروم على الفرس في بضع سنين التي حددها القرآن الكريم في سورة الروم ، وانتقام هرقل للهزائم التي منيت بها الدولة الرومانية ، والتي أدت إلى دخول الفرس إلى فلسطين وإلى بيت المقدس ، ونهب المقدسات المسيحية من كنيسة القيامة ، فقد تمكن الروم من الانتصار على الفرس ، واستعادة مقدساتهم ، وعاد الظافرون إلى بيت المقدس لإعادة هذه المقدسات إلى مكانها ، ولتقديم صلاة الشكر لله الذي أيدهم بنصره ، وفي هذا الطريق من فارس إلى القدس التقى بهم المسلمون في مؤتة .

تقول الأخبار: إن عدد الروم أكثر من مائة ألف ، وانضم إليهم من لخم و جذام والقين وبهراء وبلى مائة ألف أيضا يقودهم رجل من(بلى) اسمه (مالك بن زافلة) ، والمسلمون ثلاثة ألاف فقط[١]

ومن أهم أسباب هذه الغزوة: أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى أحد بني لهب إلى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقتله ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره ، فاشتد ذلك عليه ، وندب ، الناس ، فأسرعوا وعسكروا بالجرف ، وهم ثلاثة آلاف ، وأمر عليهم رسول الله أمراءهم[٢] وخرج الجيش ، وخرج رسول الله والناس لوداعهم وعقد ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، وجعل المسلمون ينادون : دفع الله عنكم ، وردكم صالحين غانمين وسبقهم رسول الله إلى ثنية الوداع ، وقف وهم حوله. وقال: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله لا تغدروا ولا تغلوا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين ـ الحديث للقائد ـ فادعهم إلى إحدى ثلاث ، فأيهن أجابوك إليها فاقبل منهم ، واكفف عنهم» ، ادعهم إلى الدخول في الإسلام فإن فعلوا فأقبل منهم ، واكفف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم

---

(١) السيرة النبوية: ابن هشام ٤/ ١٧.

(٢) الطبقات:ابن سعد ٢/ ١٢٨ ، إمتاع الأسماع : المقريزى ١/ ٣٤٤.

أنهم يكونوا كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم،فإن أبوا فأستعن بالله وقاتلهم...»إلخ .

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، مرني بشيء أحفظة عنك ، قال :« إنك قادم غدا بلدا السجود فيه قليل ، فأكثر السجود »، قال زدني يا رسول الله ، قال : «اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب» . وقام من عنده حتى إذا مضى ذاهبا رجع ، فقال : يا رسول الله إن الله وتر (مفرد) يحب الوتر فقال :« يا بن رواحة، ما عجزت فلا تعجزن ، إن أسأت عشرا أن تحسن واحدة» . فقال : لا أسألك بعدها شيئا[1]

فلما ودع عبد الله بن رواحه بكى ، فقال له الناس : ما يبكيك ، فقال : ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية وهي: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾[مريم:٧١][2]، فلست أدرى كيف بالصدور بعد الورود ، فقال المسلمون : صحبكم الله وردكم إلينا سالمين .

عن ابن عباس قال بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة في سرية، فوافق ذلك يوم الجمعة ، قال : فقدم أصحابه ، وقال : أتخلف فأصلى مع رسول الله الجمعة ثم ألحقهم ، فلما صلى رسول الله رآه ، فقال ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟ فقال : أردت أن أصلي معك الجمعة ثم ألحقهم ، فقال رسول الله ﷺ :«لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما أدركت غدوتهم»[3]

وأوردت هذه الأحداث متلاحقة في مقدمة الغزوة لما تحويه من مبادئ سلوكية ، وأسس سياسية للحرب ، وتوجيهات في المعارك مما يشكل رصيدا عظيما في سياسة الإسلام تجاه أعدائه من جهة ، ومن ثم تفقه القادة واستزادتهم من هذه المبادئ ،

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١/ ٣٤٥ ، السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٢٣٦
(٢) الكامل : ابن الأثير ٢/ ١٥٨
(٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٣/ ٤٥٧

وهي الأسس التي اعتنقها الأنصار وعملوا بموجبها وجاهدوا تحت لوائها في كل غدواتهم سابقا ومستقبلا

واصطدموا مع الغساسنة في سيرتهم بقيادة سدوس بن عمرو أخى شرحبيل بن عمرو الذي قتل موفد رسول الله بوادي القرى فقاتلوه وقتلوه .

أقاموا ليلتين ، وأرادوا أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ليردهم أو يزيدهم رجالا ، وتفتحت ثانية بواعث الإيمان واليقين في نفوس هؤلاء ، فقال عبد الله بن رواحة يا قوم والله إن التي تكرهون للتى خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله ، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة ، فقال الناس : صدق ابن رواحة فمضى الناس على بركة الله[١]

ثم التقى الناس، واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة ﷺ مع راية رسول الله حتى قتل، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب ﷺ ، وقاتل على فرس أشقر ، ثم نزل عنه وعقره وهو أول رجل من المسلمين يعقر فرسه ، وأول فرس عقر في الإسلام ، عقره خوفا من أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين ، ولم ينكر عليه أحد من أصحابه ، ثم قطعت يمينه ، فأخذ الراية بيساره ، فقطعت يساره ، فاحتضن الراية وقاتل حتى قتل ﷺ .

فأخذها عبد الله بن رواحه ﷺ ، وتقدم بها وهو على فرسه[٢]، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد ويقول :

أقـــسمت يـــا نفـــس لتنزلنـــه لتنـــــــزلن أو لتكرهنـــــــه

إن أجلـــب النـــاس وشـــدوا الرنـــة مـــــالي أراك تكـــرهين الجنـــة

(١) السيرة النبوية: ابن هشام ٤/ ١٧ ، إمتاع الأسماع ١/ ٣٤٧

(٢) السيرة الحلبية : على الحلبى ٣/ ٧٨ ، حدائق الأنوار : الشيبانى ٢/ ٦٥٤

قــد طــال مــا قــد كنــت مطمئنــة　　هــــل أنـــت إلا نطفـــة في شــــنة

وقال أيضا :

يـــا نفـــس إن لا تقــتلي تمـــوتي　　هـــذا حمـــام المـــوت قـــد صـــليت

ومــــا تمنيـــت فقـــد أعطيـــت　　إن تفعـــلي فعلهـــما هـــديت[1]

فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق من لحم، فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت في الدنيا ، فأخذه ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه ، ثم تقدم ، فقاتل حتى قتل ﷺ .

ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى لم أر اثنين جميعا ـ الحديث لأبي عامر عن أبي اليسر ـ ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار ـ ثابت بن أقزم ـ ثم سعى به حتى إذا كان إمام الناس ركزه،ثم قال:إليّ أيها الناس،حتى إذا كثروا مشى بالواء إلى خالد بن الوليد ،فقال له خالد: لا آخذه منك؟ أنت أحق به من ، فقال الأنصاري: والله ما أخذته إلا لك فأخذه خالد ، ثم حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا[2]

أخرج البخاري عن خالد بن الوليد ﷺ يقول : لقد دق في يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى في يدي إلا صفيحة يمانية (أخرجه ابن أبي شيبة) [3] ، وتمكن خالد ابن الوليد أن يخرج من المعركة مقاتلا بعملية رائعة جدا ، تعتبر من أزكى العمليات الحربية آنذاك .

وهنا نحب أن نقف قليلا لنسأل عن قلوب الأنصار وما حوته هذه القلوب من إيمان ويقين وصبر شديدين ورسول ﷺ يحدث الناس عن المعركة أثناء وقوعها وهم في مؤتة ، وهو في المدينة ، وهو يراها أمامه .

---

(١) فعلهما : يقصد زيدا و جعفرا .

(٢) الطبقات : ابن سعد ٢/ ١٣٠

(٣) حياة الصحابة : الكاندهلوي ١/ ٥٤٩

قال ابن إسحاق:ولما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ :أخذ الراية زيد بن حارثة، فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها ، حتى قتل شهيدا ، ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه كان في عبد الله بن رواحة ما يكرهون ، وهذه اللحظة الحرجة كانت من أحرج الساعات العصيبة التي مر بها الأنصار ، وهي لحظة قصيرة، لكن قلوب الأنصار قفزت إلى حلوقهم ، ودماؤهم غلت في رؤوسهم ، وامتدت أيديهم إلى مقابض سيوفهم يتحسسونها خوفا من أن يكون عبد الله بن رواحة قد أتى أمرا يكرهونه ، وتهامس الناس ، ونظر بعضهم إلى بعض والكل يتساءلون ، ثم ماذا ؟ ـ وسكون الرسول يعني الشئ الكثير بالنسبة لهم وهذه مسبة لا تغفر في تاريخهم الأبيض المنير الملىء بالمواقف الخالدة ، التي بذلوا فيها الخير وكل العطاء ، وما أذهب عنهم حرجهم وانشغالهم ، إلا قول رسول الله ﷺ : ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، ثم قال : لقد رفعوا إلى الجنة ـ فيما يرى النائم ـ على سرر من ذهب ، فرأيت سرير عبد الله بن رواحة به ازورار عن سريرى صاحبيه ، فقلت عم هذا ؟ فقيل لى مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى[(١)]

وظن الناس بأهل مؤتة فرارا أو تخاذلا ، أو خوفا وعند قدوم المسلمين من مؤتة خرج الناس، وخرج رسول الله ﷺ يحمل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، ليستقبل الجيش ، فما إن وصلوا حتى أخذ الناس يحثون في وجوههم التراب ، ويقولون : يا افرار ، فررتم في سبيل الله ، لكن الرسول ﷺ قال : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله .

وقد استشهد في مؤتة أربعة من المهاجرين وهم جعفر بن أبي طالب ، وزيد حارثة ، ومسعود بن الأسود ، ووهب بن سعد بن أبي سرح .

وثمانية من الأنصار هم عبد الله بن رواحة، وعباد بن قيس ، والحارث بن النعمان بن إيساف ، وسراقة بن عمرو ، وأبو كليب وجابر، ابنا عمرو بن زيد أخوان

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ٢٢ ، والسيرة النبوية : ابن كثير ٣/ ٤٦٢

لأم وأب ، وعمرو وعامر أسعد ابنا بن الحارث(١)

ثم تتالت السرايا قبل الفتح العظيم«فتح مكة» وبعده ، وكان الأنصار قادة الكثير من هذه السرايا ، وأكثر جنودها ، ومن هذه السرايا : فمنها قبل مؤتة

١ـ سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى فدك (شعبان سنة ٧هـ) في ثلاثين من أصحابه .

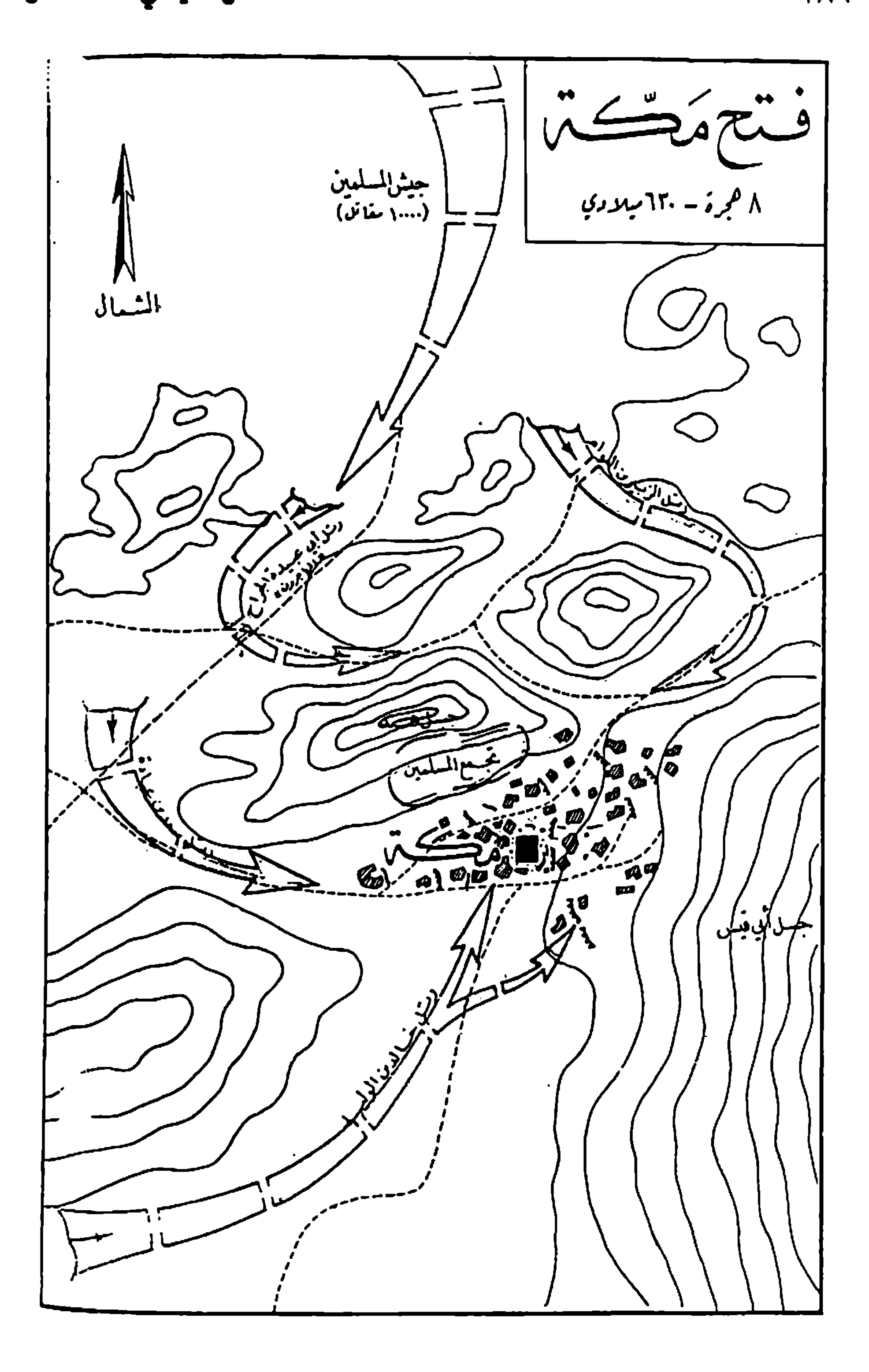
٢ـ سرية بشير بن سعد الأنصاري أيضا إلى يمن و جبار (شوال سنة ٧هـ) مع ثلاثمائة رجل للقاء عيينة بن حصن زعيم غطفان .

٣ ـ وبعد مؤتة وقبل الفتح أرسل رسول الله ﷺ سريتين بقيادة أبي قتادة ابن ربعي الأنصاري الأولى مع خمس عشر من المسلمين (شعبان سنة ٨هـ) إلى أرض محارب بنجد ، وأرسله أيضا إلى بطن إضم (أول رمضان سنة ٨هـ) لإيهام الناس أنه سيتجه إلى هناك وهو يقصد مكة(٢)

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٣/ ٤٦٢

(٢) الطبقات : ابن سعد ٢/ ١١٨ ـ ١٢٠ ، ١٣٢ ـ ١٣٣


فتح مكّة
٨ هجرة - ٦٣٠ ميلادي
جيش المسلمين
(١٠٠٠٠ مقاتل)
الشمال
تجمع المسلمين
مكة
جبل أبي قبيس

غزوة الفتح

وجاء الفتح الأكبر على المسلمين،فقد انتهى اتفاق الحديبية،نقضت قريش بعض بنوده وتنازلت عن البعض الآخر لما أصابها الأذى على يد أبي بصير وإخوانه الذين فروا من مكة ـ ولم تقبلهم المدينة ـ حسب نصوص الاتفاق ـ فأقاموا في منتصف الطريق البحري ، وقطعوا على قريش طرق تجارتها وإمدادها ، ولما طلبوا من الرسول أن يأخذهم المدينة لم يقبل بذلك نتيجة لنصوص الاتفاق ، فتشكلت قوة جديدة للمسلمين أخذ كل مضطهد في مكة أو في أي مكان يتوجه إلى أبي بصير الذي تمت قوته شيئا فشيئا .

أصبح الجو مهيئا للعودة إلى مكة ، عودة المهاجرين إلى ديارهم وأهليهم وأملاكهم ، وأصبحت مكة تحت نظر المسلمين ، وهدفهم التالي ، فهي مركز الثقل بالنسبة للشرك والمشركين ، وحتى لليهود والمنافقين ، يجدون فيها مؤيديهم ومناصريهم والحاقدين جميعا على الإسلام والمسلمين ، اتجهت الأنظار الآن إلى مكة بعد أن سقطت مواطن الشر الأخرى في خيبر وغيرها ، للقضاء على أقوى معاقل الوثنية في جزيرة العرب،ولتطهير البيت العتيق من الأصنام و الأرجاس والأنجاس ، والقضاء على رؤوس الكفر والشرك .

حان الوقت لذلك ، ولم يعد أمام الرسول ﷺ بعد أن أخضع الجزيرة ، وراسل الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ، وأخضع المتمردين في كل أنحاء الجزيرة العربية ، ولم يبق أمامه إلا مكة ـ انقضت معاهدة العشر سنوات ، وسقطت بنودها بندا بندا الموقعة في الحديبية ، رغم أن كل البنود تدعم موقف القرشيين ، واعتبروها نصرا مؤزرا لهم ، وكان آخر بنودها تعدى بكر حلفاء قريش على خزاعة حلفاء الرسول ، فأسقطوا بذلك آخر بنود هذه المعاهدة واعتبرت كأنها لم تكن ، وأصبحت مكة هدفا للمسلمين قاب قوسين أو أدنى .

أما حال جيش المسلمين : فقد كان رسول الله ﷺ قد قضى ثلاث وخمسين حجة من عمرة في مكة ، ثلاث عشرة منها داعيا قومه إلى الإسلام ، فختمها بأن أخرجوه طريدا منها هو وأصحابه ، أما القرشيون فقد سقط ساداتهم بين الهجرة والفتح قتلى، وألقت مكة إلى المدينة بأفلاذ أكبادها مسلمين مهاجرين ، ومع هذا فما زالت مكة تحوي الكثير من المعاندين والكائدين ، والذين في نفوسهم الكثير على الإسلام وأهله ، فالرسول يعود إليها الآن فاتحا بعد أن دخلها سلما لقضاء العمرة ولأيام ثلاثة فقط .

المهاجرون خاصة من أهل مكة لهم في نفوسهم ذكريات لا ترضى، فالعديد منهم قد لاقى العذاب ، والطرد، ومنهم من قتل ذويهم في غارات قريش على المدينة، فقد تحول من مهاجر طريدا إلى جندى مسلم عركته الحروب ، وأحلى ما لديه الشهادة ، وقد أثلج صدره الآن وبرد قلبه ، فها هو يعود إلى مكة قائدا ، ومجربا ، ومحنكا ، وجنديا شجاعا حارب في كل الجهات ، ولم ينل الشهادة ، فقد كتب الله له أن يعود إلى أهله ووطنه ومرتع صباه ، وإلى الأرض التي تفجرت بها هذه الدعوة ، سيعود هؤلاء الجند الآن وقد امتلأت نفوسهم بالإيمان والرغبة بأن تضم مكة إلى هذا الصرح الإسلامي الشامخ ، والشوق والحنين إلى قبلة المسلمين وتوجه صلاتهم الكعبة الشريفة.

الأنصار : الذين نصروا الله ورسوله ، وحموه وأيدوه ، حملت عليهم قريش عدة حملات وقتلت منهم ما قتلت في بدر وأحد والخندق وغيرها ، وجاءت قريش إلى المدينة جبارة متكبرة تريد أن تمحى المدينة ومن عليها ، وتسقط محمدا وأصحابه ، وقد روع القرشيون أهل يثرب بحصار طويل في الخندق ، وقتلوا من قتلوا دون أية اعتبارات في أحد .

واليوم تأتي كتيبة الأنصار تحت قيادة الرسول ﷺ يحمل لواءها سعد بن عبادة الذي أصبح المقدم في الأنصار بعد استشهاد القادة الأوائل ـ سعد بن معاذ وسواه ، ومهما كانت الأسباب ، والسبب المباشر نصرة الرسول لخزاعة التي داهمتها بكر حليفة قريش خارقة بذلك ـ أو بالأحرى سقطة آخر بند من بنود الحديبية ـ الصلح

روحا ونصا ، أسرع أبو سفيان إلى المدينة لتجديد الحلف والعهد ، فلم يلق أذنا صاغية من أحد حتى إن بعضهم أراد قتله ، وابنته طوت عنه فراش رسول الله ﷺ ، فعاد إلى مكة خالي الوفاض، يتدبر أمرا ما عاد باستطاعته تدبيره ، فقد مضى عهد قيادته للجيوش الجرارة التي شكلها لحرب الإسلام والساعية لدخول المدينة والفتك بأهلها من المسلمين .

جاء الدور الآن للمسلمين ليدخلوا مكة ـ بلدهم ـ وليزيلوا منها الشرك والأوثان وعبد الطاغوت ، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار[١]، قال الحلبي في السيرة : وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس ، وكانت مزينة ألفا ومعها مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة ومعها ثلاثون فرسا ، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرسا ، وكانت الأنصار أكثر الجند عددا وعدة[٢]

وقد لقى الرسول عمه العباس في الطريق مهاجرا في أهله ، وابن عمه أبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبي أمية ، فلم يقبل لقاءهما في أول الأمر ثم دخلوا عليه وأسلموا (وقد وردت بالمثنى لتعني فقط أبا سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أبي أمية). ووصل جيش رسول الله إلى مر الظهران بعشرة آلاف مسلم، بعد ثماني سنوات من خروجه وصاحبه أبي بكر طريدين من هذه المدينة .

وخشي العباس على أهل مكة فقال : والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه ، إنه مهلاك قريش إلى آخر الدهر

والتقى العباس بأبي سفيان بن حرب وأجاره إلى رسول الله ، وأسلم الرجل في موضع لم يكن فيه بجيش الجيوش ، ولكن في موضع ليس له به من دون الله كاشفة، وهذا ما صرح به لرسول الله ﷺ عندما قال له : والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ٤٢ .

(٢) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٢٦٠

ثم طلب الرسول من العباس أن يبقى أبا سفيان بحقيق الوادي عند خطيم الجبل حتى يرى جند الله تسير أمامه ، وكان كلما مرت كتيبة سأل أبو سفيان العباس عن أصحابها ، فيقول : بنو فلان ، فيقول أبو سفيان : ما لي ببني فلان ؟ إلى أن مر رسول الله ﷺ بكتيبة الخضراء (قيل الخضراء لكثرة الحديد فيها)

قال حسان بن ثابت :

لمـــا رأى بـــدرا تـــسيل جلاهـــه كتيبـــة خـــضراء مـــن بلخـــزرج

وفي هذه الكتيبة المهاجرون والأنصار ﷺ ، لايرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال أبو سفيان سبحان الله من هؤلاء ؟ قال العباس هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

وبدر من سعد بن عبادة في هذا الموقف أمر، وكأنه أراد أن ينتقم إلى ما أصاب قومه من الأنصار من قريش ، وكانت معه راية رسول الله على الأنصار فبلغه عنه في قريش كلام وتواعد لهم ـ وكانوا قد أهانوه يوم العقبة ، وقتلوا كثيرا من الأنصار في معاركهم ، فأخذ الرسول ﷺ الراية من سعد بن عبادة ، وأعطاها ابنه قيس بن سعد، حتى لا يكون الفتح انتقاما ، وأمر رسول الله سعد أن يدخل مكة من كداء على رأس الأنصار(١)

وفي رواية : أن سعد بن عبادة ﷺ كانت معه راية رسول الله على الأنصار ولما مر على أبي سفيان ، وهو واقف بمضيق الوادى ، قال أبو سفيان :من كتيبة هذه ؟ قال :

---

(١) الطبقات ابن سعد ٢/ ١٣٥ ، وقد وردت أخبار الفتح فى حدائق الأنوار ، الشيباني ٢/ ٦٦١ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٣/ ٥٢٦ ، الكامل : ابن الأثير ٢/ ١٦١ فما بعد ، البداية والنهاية : ابن كثير ٤/ ٢١٢ ، المختصر فى سيرة الرسول الخطراوي ص ١٧٤ ، السيرة الحلبية : علي الحلبي ٣/ ٩٥ ، امتاع الأسماع المقريزي ١/ ٣٧٥ ، السيرة النبوية دحلان ٢/ ٢٥٠ فما بعدها ، زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ٣٩٤ ، الطبري تاريخ ٣/ ٤٢ وما بعد ، وما من مرجع فى السيرة والحديث والفقه والتاريخ إلا وأعطى هذه الغزوة حقها بالبحث .

هؤلاء الأنصار وعليهم سعد بن عبادة معه الراية ، فلما جاذاه سعد ، قال يا أبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة (أي الحرب والقتال) اليوم استحل الحرمة وفي لفظ (الكعبة) ، اليوم أذل الله قريشا

فلما أقبل رسول الله ﷺ قال بعضهم ورأيته مع الزبير بن العوام وحاذاه أبو سفيان ، ناداه يا رسول الله ، أأمرت بقتل قومك ؟ فإنه زعم سعد بن عبادة حين مر بنا أنه قاتلنا ، وقال اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا ، أنشدك الله في قومك ، فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم ، فقال عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ ، فإنا لا نأمن من سعد أن يكون له في قريش صولة فقال رسول الله :«يا أبا سفيان ، كذب سعد بن عبادة ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشا»، وأرسل رسولا إلى سعد بن عبادة أن ينتزع منه اللواء ، ويدفع إلى ابنه قيس ، وقيس ﷺ كان من دهاة العرب ، وأهل الرأي والمكيدة في الحرب ، مع النجدة والبسالة والشجاعة ، وكان له من الكرم ما لا مزيد عليه ، وكان جميلا ، ولم يكن في وجهه شعر ، وكانت الأنصار تقول : وددنا أن نشتري لقيس بن سعد لحية بأموالنا

ودخل المسلمون مكة كل من المكان الذي عينه رسول الله ، ولم يلاق أحد كيدا، إلا خالد بن الوليد حيث قام آخر المدافعين عن الشرك وأهله صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو بمقابلة جيش المسلمين ، فحصل صدام فر على أثره المشركون ولم يصمد منهم أحد .

وكان الفتح العظيم الذي فتحة الله على نبيه ، واستسلمت مكة بكل جبروت أهلها وكبريائهم ، وبكل عنادهم وتمسكهم بالكفر والشرك .

سقطت هذه المدينة التي لفظت المسلمين يوما ، في أيدي المسلمين اليوم وكان هم رسول الله الأول أن يحطم الأصنام ، ويطهر الكعبة من الأوثان والرجس الذي أحاط بها منذ أن قدم عمرو بن لحي بواحد منها من الشام .

استسلم الناس ودخلوا البيت الحرام ليكونوا آمنين ، ومنهم من لحق ببيت أبي سفيان ليكون آمنا ، ومنهم من أغلق عليه وأهله بابه فهو آمن ، وينظر أهل مكة إلى أهل الرحمة يعيدون الوفاق والوداد والمحبة مع الناس ،وتتساقط الأحقاد والثارات وتتساقط الضغائن والبغضاء ، ويهرع الناس للدخول في الإسلام ،واستقبال الفاتح العظيم الذي عرفوه، فهو أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وعرفوا أن حربهم له كانت باطلا ، يدفعهم إليها الشيطان ليضلهم عن ذكر الله .

وأمر الرسول ﷺ :أن يقتل بعض الحاقدين الذين آذوا المسلمين والإسلام ، ولوكانوا متمسكين بأستار الكعبة فر منهم من فر ، وبقى منهم من بقى ، فهذة اللحظات العظيمة من الثلث الثالث من شهر رمضان المعظم العام الثامن للهجرة كانت عبارة عن محو ظلام طويل ، وتطهير أقدس بيوت الله في الأرض مما لطخ به وأودع في جوفه وحوله من الأصنام .

وأرسل رسول الله ﷺ عددا من السرايا إلى أماكن تواجد بعض رموز الجاهلية من الأصنام والأوثان والكفرة ، وهمه الأول إسقاطها وتطهير مكة وما حولها من هذا الشرك المبين ، وعادت هذه السرايا ، وقد قامت كل واحدة بها رسم لها وعلى الشكل الأفضل .

غزوة حنين «هوازن»

بسقوط مكة معقل الشرك والوثنية تبددت تجمعات المشركين وكسرت شوكتهم ، ولم يعد لهم مركز يلجؤون إليه أو موسم يلتقون به ، يتدارسون أمور الدعوة الإسلامية والقوى المناوئة لها، لكن لابد لهذه التجمعات التي فقدت مهبط أحلامها أن تفعل شيئا تحاول به أن تسترد بعضا من مواقعها ، أو على الأقل إعادة احتلال مكة وأخذها من أيدى المسلمين .

علم الرسول ﷺ أن آخر فلول العرب قد أخذت تجمع الجموع لاسترداد مكة بعد أن دخل القرشيون في الإسلام ، وانضموا إلى رسول الله ﷺ ، فكانت قبيلة (هوازن) إحدى أكبر القبائل العربية الوثنية تقطن قريبا من مكة ، قد آلت إليها هذه المهمة ، وهي استرداد مكة أو إصابة غرة من المسلمين .

ذهب الرسول ﷺ إليها مع جيشه الذي جاء من المدينة ، ومن انضم إليهم من مسلمى مكة الجدد وهم ألفان من الرجال ، فأصبح المسلمون بالتعداد البشرى اثنى عشر ألف مقاتل حتى قال قائلهم :لن نغلب اليوم من قلة[١]

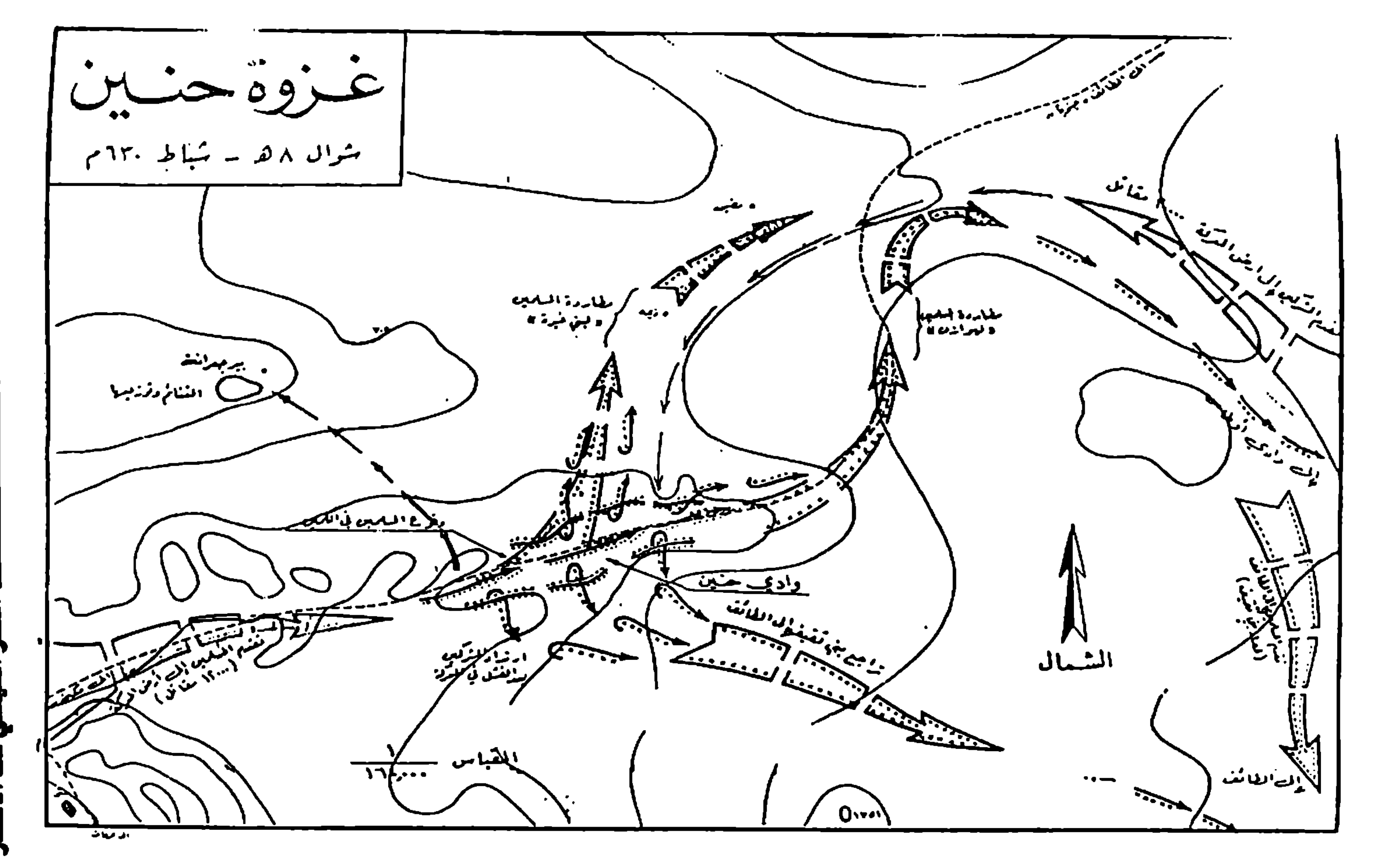
حتى إن من بين الخارجين إلى هذه الغزوة ثمانين رجلا لم يسلموا بعد منهم صفوان ابن أمية، وسهيل بن عمرو رضي الله عنهما فإنهما أسلما بعد ذلك .

أعطى رسول الله لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب ، ولواء الخزرج للحباب ابن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد بن حضير ، وجعل لكل بطن راية يحملها واحد منهم .

وأعدت (هوازن) كل عدتها للقتال وقد جمع القوم كل ما يملكون من مال ونساء وأطفال وخيول ومواش ، ورتبوها حسب أهميتها حتى يقاتل كل رجل عن

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ٨٣ ـ ٨٧ ، السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٣١١


غزوة حنين
شوال ٨ هـ - شباط ٦٣٠م
وادي حنين
الشمال
المقياس
إلى الطائف

ماله ، ولم يقبل مالك بن عوف النضرى أية نصيحة غير ذلك ، حيث تركة بعض القوم ، لإصراره على رأيه ، وذهبوا إلى الطائف في هذه التعبئة ، ولما علم رسول الله بهذا الترتيب من (ابن أبي حدرد) تبسم وقال :« تلك غنيمة المسلمين إن شاء الله ».

وقيل: إن حلف (هوازن) بلغ ثلاثين ألفا ، وقيل : أربعة آلاف وهو الأرجح كمن مقاتلو (هوازن) في شعاب جبل حنين ، ولما انحدر به المسلمون عند غبش الصبح حمل المشركون على المسلمين حملة رجل واحد ، وكانت (هوازن) رماة ، فانكشفت خيل بنى سليم مولية ، وكانت مع النبي وأصحابه ، فتبعهم أهل مكة والناس فانهزموا وقيل: إن (الطلقاء)[١] وقال بعضهم لبعض:(أي من كان إسلامه مد خولا) : خذلوهم فهذا وقته ، فانهزموا أول ما انهزموا تبعهم الناس[٢]

فانحاز رسول الله إلى اليمين، وجعل يقول:«يا أنصار الله، ويا أنصار رسول الله، أنا عبد الله ، أنا رسول الله» ، وتاب من انهزم وثبت معه نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس، وأبو سفيان بن الحارث وابنه، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن أم أيمن بن عبيد استشهد يومئذ .

وغلبت نفوس أهل مكة شركهم الحديث ، فأكثروا من القول منهم أبو سفيان ابن حرب ، إلا إن صفوان بن أمية ، وكان مشركا قال لأخيه كلدة بن الحنبل عندما قال : بطل السحر اليوم ، قال صفوان : اسكت ، فض الله فاك ، فوالله لأن يربني (يكون لي رب) من قريش أحب أن يربني رجل من هوازن .

قال ابن إسحاق ولما رأي رسول الله الناس لا يلوون على شيء ، قال لعمه العباس، «اصرخ ، يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة »، قال: فأجابوا

---

(١) أهل مكة لقول رسول الله لهم«اذهبوا فأنتم الطلقاء » عندما سألهم ،« ما تروني فاعل بكم ؟».

(٢) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٣١٠، ٣١١

لبيك لبيك قال فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه، فينفذها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم على بعيره ، ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله حتى إذا اجتمع إليه مائة منهم استقبلوا الناس ، فاقتتلوا ، وكانت الدعوى أول ما كانت للأنصار ، ثم خلصت أخيرا للخزرج ، وكانوا جزءا عند الحرب ، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم ، وهم يجتلدون ، فقال : الآن حمى الوطيس .

وعن جابر بن عبد الله ، قال : بينا صاحب الراية من (هوازن) على جمله يصنع ما يصنع ، إذ هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه قال : فيأتيه على من خلفه ، فضرب عرقوبي الجمل ، فوقع على عجزه ، ووثب الأنصاري على الرجل ، فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه ، فانجعف عن رحله (سقط منها صريعا) .

قال: واجتلد الناس، فوا الله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ [١]

ولما انكشف الناس سأل رسول الله ﷺ حارثة بن النعمان الأنصارى ... كم ترى الناس الذين ثبتوا ...؟ فحزرهم مائة ، وهذه المائة كرت بعد الفرار ، فاستقبلوا هوزان واجتلدوا هم وإياهم .

وكان دعاؤه يومئذ ﷺ ـ حين انكشف الناس عنه ، فلم يبق إلا المائة الصابرة «اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكي ، وأنت المستعان ».

ويقال إن المائة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين ، وسبعة وستون من الأنصار[٢] ، وكانوا يقاتلون بين يدي رسول الله .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) إمتاع الأسماع : المقريزي ١/ ٤٠٧ .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ التفت فرأي أم سليم بنت ملحان[١] الأنصارية ـ أم أنس بن مالك ـ وكانت مع زوجها أبي طلحة ، ومعها جمل أبي طلحة ، وخشيت أن يقرها (يقلبها) ، فأدنت رأسه منها ، فأدخلت يدها في حزامته مع الخطام ، فقال لها رسول الله«أم سليم»؟ قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، ما تقتل الذين يقاتلونك ؟ فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله :«أو يكفي الله يا أم سليم». قال : ومعها خنجر ، فقال لها أبو طلحة . ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا منى أحد المشركين بعجته به ، قال يقول أبو طلحة ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميصاء[٢]

وكانت أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية في يدها سيف صارم وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها، وهي يومئذ حامل بعبد الله بن أبي طلحة، وأم سليط، وأم الحارث ـ حين انهزم الناس ـ يقاتلن ، وأم عمارة تصيح بالأنصار : أية عادة هذه ، ما لكم وللفرار ، وشدت على رجل من (هوازن) فقتلته وأخذت سيفه.

ورسول الله ﷺ قائم مصلت سيفه بيده ، وقد طرح غمده ينادي :«يا أصحاب سورة البقرة» فكر المسلمون وجعلوا يقولون : يا بني عبد الرحمن (المهاجرون) يا بني عبد الله (الخزرج) ، يا بني عبيد الله (الأوس) ، يا خيل الله ، وكان ﷺ قد سمي خيله خيل الله ، فكرت الأنصار ، ووقفت (هوازن) حملة ناقة، ثم كانت هزيمتهم أقبح هزيمة ، والمسلمون يقتلون و يأسرون ، وأراد المسلمون أن يقتلوا الذراري ، لحنقهم على المشركين فمنع رسول الله ذلك بألا تقتل الذرية ، فقال أسيد ابن حضير الأنصاري الأوسي يا رسول الله ، أليس إنما هم أولاد المشركين ؟ ، فقال رسول الله :«أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟ كل نسمة تولد على الفطرة ،

---

(١) الطبقات الكبرى ابن سعد ٨/ ٤٢٤ ، ويقال لها : الغميصاء و الرمياء ، ويقال اسمها سهلة ، ويقال : رميلة من بني عدي بن النجار .

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ٨٨ـ ٨٩ .

حتى يعرب عنها لسانها ، وأبوها يهودانها أو ينصرانها»[١]

وحدث شيوخ من الأنصار قالوا رأينا كالبجد السود هوت من السماء ركاما فنظرنا ، فإذا نمل مبثوث ، فإن كنا لننفضه عن ثيابنا ، فكان نصرا أيدنا الله به[٢]

وهزمت هوازن شر هزيمة ، وقتل منهم عدد كبير ، واستمر القتل في ثقيف في بنى مالك ، قتل منهم سبعون تحت رايتهم ، ولما انهزموا أتوا الطائف ، ومعهم مالك ابن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة وهم بنو غيرة من ثقيف .

ويعدد ابن هشام القتلى في كل قبيل وما حل بهم من الهزيمة [٣]

ثم اجتمعت إلى رسول الله ﷺ سبايا حنين وأموالها ، وكان على الغنائم مسعود ابن عمرو الغفارى ، وأمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال إلى الجعفرانة فحبست فيها[٤]

واستشهد من المسلمين أربعة فقط ، اثنان من قريش وأنصارى واحد ، وأبو عامر الأشعري . وتابع رسول الله ﷺ القوم إلى الطائف هم أو من تخلف عنهم ، ومكث في الطائف ، فأغلقت الطائف أبوابها ، وكانت محصنة وقد حصرها الرسول ﷺ حوالى سبع عشر ليلة ، ثم فك حصاره عنها وأسلمت ثقيف بعد ذلك .

وقد استشهد من المسلمين في حصار الطائف سبعة من قريش ، وأربعة من الأنصار ، ورجل من بني ليث ، أكثرهم مات برمى النبال من حصون الطائف .

غنائم حنين :

بعد الفتح العظيم الذي فتحة الله على نبيه ﷺ والمؤمنين في مكة ، والنصر الكبير بعد الهزيمة المنكرة في حنين ، وثبات الرسول ﷺ مع قلة من المهاجرين والأنصار ،

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزى ١/ ٤٠٨ـ ٤٠٩

(٢) إمتاع الأسماع : المقريزى ١/ ٤١٠

(٣) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ٩٨ فما بعد ، ١٠١

(٤) السابق ذاته

وانهزام (هوازن) وصلفها هزيمة منكرة شنيعة ، وقتل العدد الكثير من ساداتها ، وكذلك الغنائم التي ساقها الله إليالمسلمين في هذا اليوم السبايا و الذرارى ، ترك رسول الله ﷺ الغنائم ، وساق السبايا و الذراري إلى الجعرانة ، وذهب لحصار الطائف وعاد بعدها إلى الجعرانة حيث تركت الغنائم والنسبايا و الذرارى بأعداد كبيرة لم يجر من قبل مثيل لها .

ونقف على خبر الأنصار بعد هذا المسار الطويل منذ أن خرج ﷺ من المدينة ، حتى استقر ثانية بالجعرانة ، حيث (السبايا والغنائم) ، والقوم ينتظرون أن توزع عليهم هذه الغنائم التي غنموها ، ونحب أن نقف على القضايا التالية :

١ـ أعطى رسول الله زعماء قريش وأفرادها من أسلم بعد الفتح ، وكان قد حارب الإسلام ، في أيامه السابقة حتى سقطت معاقل الوثنية والشرك ، وحديثا دخوله في الإسلام جدا حارب في حنين والطائف ، أعطاهم حتى شبعوا ، واقتنعوا وفاضت عطاياهم بشكل كبير جدًا .

قال أبو سفيان يا رسول الله، أصبحتُ أكثر قريش مالا ، وأعطاه وزاده حتى قال إنك يا رسول الله لكريم ، فداك أبي وأمي ، والله لقد حاربتك فكنت نعم المحارب ، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت جزاك الله خيرا ، ومن المعروف أن أبا سفيان فقد عينه الواحدة بحصار الطائف .

٢ـ أعطى حكيم بن جزام حتى شبع ، وقال له :«يا حكيم بن حزم إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك فيه ، ومن أخذ بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول»، فأخذ حكيم المائة الأولى من الإبل وترك ما سواها .

٣ـ في صحيح مسلم، عن الزهري: طاف صفوان بن أمية مع النبي وهو يتصفح الغنائم وكان الرسول قد أعطاه ثلاثمائة من الإبل؛ إذ مر بشعب مما أفاء الله عليه فيه إبل وغنم ورعاؤها مملوءا ، فأعجب صفوان ، وجعل ينظر إليه ، فقال :« أعجبك

هذا يا أبا وهب ـ هذا الشعب ؟ : قال نعم ، قال : فهو لك وما هو فيه» ، فقال : أشهد ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبي الله ، وأشهد أنك رسول الله .

هذه نماذج واحدة مما أعطى رسول الله قريشا يتألف به قلوبهم ، ولكنه لم يعط حتى من قريش وسواها ممن أوكله إلى إسلامه .

٤ ـ قال سعد بن أبي وقاص : يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن ، والأقرع ابن حابس مائة مائة ، وتركت جعيل بن سراقة الصخرى ؟ فقال :« أما والذي نفسى بيده لجعيل ابن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع ، ولكنى أتألفهما ليسلما وقد وكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه»

ولعب الشيطان في النفوس الضعيفة أمام ما رأوه من أغطاء الرسول قريشا كل هذا ، فأتى ذو الخويصرة التميمي واسمه (حرفوص) فقال: اعدل يا رسول الله . فقال :«ويلك فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، قال عمر : ايذن لى فيه أضرب عنقه ، قال :« دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية . وينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ...»إلخ .

وقال معتب بن قشير العمري يومئذ ، ورسول الله يعطي تلك العطايا إنها لعطايا ما يراد بها وجه الله ، فأخبر عبد الله بن مسعود رسول الله بذلك ، فتغير له ، ثم قال :«يرحم الله أخي موسى فقد أوذي أكثر من هذا فصبر»

وحصل بعد كل هذا لكل رجل أربع من الإبل ، وأربعون شاة ، وإن كان فارسا أخذ اثنى عشر من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس واحد لم يسهم لهم .

٥ ـ وجاء وفد هوزان وقد أعلنوا إسلامهم،ودخلوا على رسول الله ﷺ وأخبروا بإسلام من في قومهم ، ثم قالوا يا رسول الله ، إنما في هذه الحظائر أخواتك وعماتك وبنات عماتك وخالاتك وبنات خالاتك ، وأبعدهن قريب منك يا رسول

الله بأبي أنت وأمي حضننك في حجورهن ، وأرضعنك بثديهن ، ووركنك أو راكهن ، وأنت خير المكفولين ، وأنشد أبياتا يظهر فيها أن الرسول ﷺ قد رضع في بني سعد ، أرضعته حليمة السعدية وهي إحدى بطون هوزان ، وكانت أخته الشيماء قد أتت إليه فأكرمها وأسلمت ، وبقية النسوة إنما عشائر تلك القبائل قريبات لحليمة ، فأرادوا أن يستخلصوا من ذلك عطفه بعد تلك الحروب الطويلة التي شنوها على رسول الله ﷺ .

فخيرهم الرسول بين المال والنساء فاختاروا النساء . فقال :«أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وأسأل الناس ، فإذا صليت الظهر بالناس ، فقوموا فقولوا : إننا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ، فإني سأقول لكم ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب لكم إلى الناس ، فلما صلى الظهر بالناس ، قاموا فتكلموا بما أمرهم به ، فأجابهم بما تقدم ، فقال المهاجرون : فما كان لنا فهو لرسول الله ، وقالت الأنصار وما كان لنا فهو لرسول الله ، ورفض بعض القوم أن يفعلوا ذلك .

ثم قام رسول الله خطيبا ، وأخذ يحث الناس على أن يرفعوا أيديهم عن السبايا حتى اقتنع الجميع فقام زيد بن ثابت عن الأنصار وعمر بن الخطاب عن المهاجرين، والعرفاء الآخرون عن قبائلهم حتى رد المسلمون ما تحت أيديهم من السبايا وتمسكت بنو تميم مع الأقرع بن حابس بالسبي ، فجعل رسول الله الفداء ثلاث حقاق وثلاث جذاع[(١)]

وأرسل ﷺ وراء مالك بن عوف وقد هرب ولحق بحصن بالطائف من يبلغه أنه إن يأت مسلما رد إليه ماله وأهله ، ولما علم مالك بذلك ، وكان قد حبس أهل مالك بمكة فجاء مسرعا فأسلم ووفي له رسول الله وعده .

---

(١) الحقاق . جمع حقة الناقة استكملت ثلاث سنوات ، والجذاع جمع جذعة ، وهى التى استكملت الرابعة ودخلت الخامسة .

ولم يؤت الأنصار من كل هذا شيئا .لم يعط رسول الله أحدا من الأنصار كل شيء أخذه المؤلفة قلوبهم والمهاجرون ، ومن لحق بالمسلمين في هذه الغزوة إنها وقفة امتحان كبيرة خص بها الله تعالى هؤلاء القوم .

إنها لحظة ابتلاء عظيمة دخلت نفوس هؤلاء القوم ، أين ما كان يؤثرهم رسول الله به ؟ أين النصرة والاستئثار ؟ أين وأيـن ؟ وخطرت في نفوسهم خواطر شتى ، لكنها لم تخرج على ألسنتهم ، وإنما بقيت في قلوبهم يرددونها بينهم وبين أنفسهم ، فإذا خرجت فمن باب الاستعتاب كما قالوا ليس إلا

ولما أعطى رسول الله ﷺ عطاياه (وجد الأنصار)[1] في أنفسهم - إذ لم يكن فيهم منها شيء وكثرت القالة ، فقال واحد : لقى رسول الله قومه .، أما حين القتال فنحن أصحابه ، وأما حين القسم فقومه وعشيرته ، وددنا أن نعلم من كان هذا؟ (إن كان هذا من الله صبرنا ...؟ وإن كان هذا من رأي رسول الله استعتبناه؟) فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فغضب غضبا شديدا ، ودخل عليه سعد بن عبادة فقال له : «ما يقول قومك يا سعد »؟ قال وما يقولون يا رسول الله ...؟ فذكر له ما بلغه وقال : «فأين أنت من ذلك يا سعد »؟ قال سعد يا رسول الله ، ما أنا إلا كأحدهم و إنا لنحب أن نعلم من أين هذا ؟ ، قال :«فاجمع لى كل من كان هنا من الأنصار»فلما اجتمعوا حمد رسول الله الله تعالى وأثنى عليه ثم قال :«يا معشر الأنصار : ما مقالة بلغتني عنكم (غضبه) وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم» ؟ قالوا :« بلى يا رسول الله ، أمن وأفضل» .

«قال : ألا تجيبوني»؟

قالوا : وماذا نجيبك يا رسول الله ؟

قال:«أما والله لو شئتم قلتم فصدقتم أتيتنا مكذبا فصدقناك،ومخذولا فنصرناك،

---

(١) وجد فى نفسه يجد : غضب

وطريدا فآويناك،وعائلا فآسيناك، وخائفا فأمناك »، وجدتم (غضبتكم) في أنفسكم يا معشر الأنصار في شيء من الدنيا،تألفت به قوما أ سلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار ان تذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ والذي نفسي بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، أكتب لكم بالبحرين كتابا من بعدي تكون لكم خاصة من دون الناس ؟ قالوا وما حاجتنا بعدك يا رسول الله ...؟ قال :« أما لا..... فسترون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض ، وهو كما بين صنعاء وعمان ، وآنيته أكثر من عدد النجوم ،اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» فبكوا حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله حظا وقسما ، وانصرفوا[(1)]

وهكذا نجح الأنصار في أعظم اختبار وبلوى أصابتهم: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [الـمُلك] .

خرجوا مع رسول الله في سبيل الله ، ودالت لهم الأرض والمدن والقبائل ، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ، وعادوا برسول الله قسما وغنما ، طردوا وجدهم (غضبهم) وعاد إليهم رضاهم وعلموا أن دورهم في هذه الدنيا ـ في ظلال الإسلام ـ غير أدوار غيرهم ، فللآخرين الدنيا أو بعضها ولهم العمل الخالص الذي لا يرقى إليه الشك .

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١/ ٤٢٣ ـ ٤٣٢ بتصرف ، البدية والنهاية : ابن كثير ٤/ ٣٥٠ وما بعدها الكامل : ابن الأثير ٢/ ١٨٢ فما بعدها، السيرة النبوية : ابن كثير ٣/ ٦٦٧ فما بعد ، حدائق الأنوار : الشيباني ٢/ ٦٩٢ فما بعدها، السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ١٣٠ فما بعدها، الطبقات : ابن سعد ٢/ ١٥٢ فما بعدها، السيرة الحلبية : علي الحلبي ٣/ ١٣٧ فما بعدها، السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٣٢٥ ، الطبري: تاريخ ٣/ ٨٦ ـ٩٤ ، السيرة النبوية : الندوي ٢٩٧ ، زاد المعاد : ابن القيم٣/ ٤٨٤ فما بعدها، وغير هذا من المراجع .

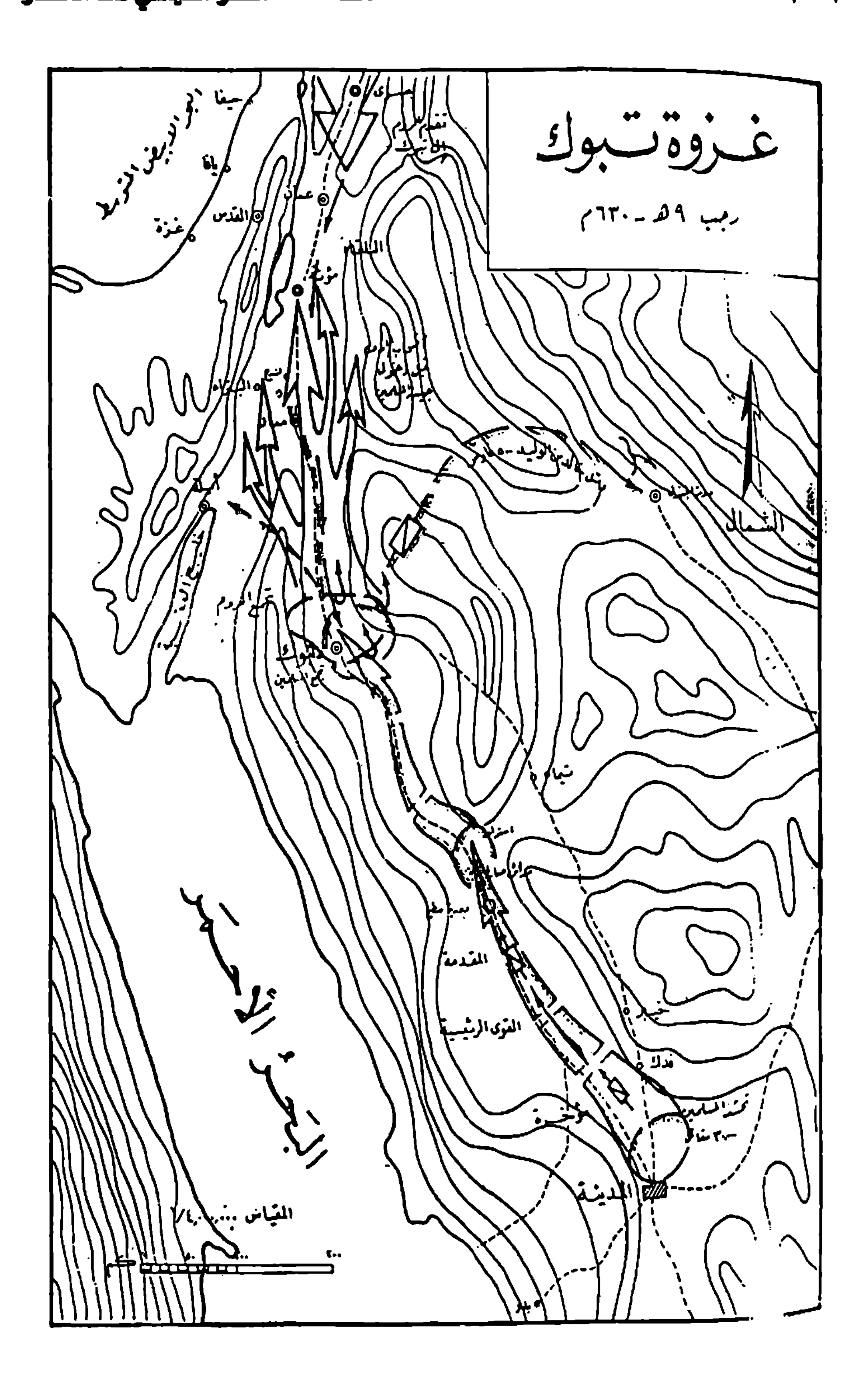
غزوة تبوك (رجب ٩هـ)

في غزوة تبوك كانت كتيبة الأنصار مثلها في جميع المواقف في السلم والحرب التي سارت بها تحت لواء رسول الله ﷺ تستلهم هديه ، وتطيع أمره ، وتقدم نفسها رخيصة في سبيل الله تعالى ، ولإعلاء شأن هذا الدين ، لم تبخل ، ولم تتأخر ، ولم تتباطأ تركوا الناس يذهبون بالشاء والبعير وأخذوا رسول الله حصتهم حظهم وقسمتهم .

في تبوك وفي العسرة ، كان الأنصار منشطا وقوة ودفعا ليس له مثيل ، وإذا تخلف البعض للعسرة ، ولكن المؤمنين منهم لحقوا رسول الله ، وثلاثة خلفوا بدون عذر ولا حجة ، أدبهم الله تعالى تأديبا وصل عندهم إلى حد الموت منه أرحم ، حتى تاب الله عليهم ورضى عنهم ، فعادوا إلى مثل ما كانوا عليه وأشد إخلاصا وتضحية من ذلك .

هذة كتيبة الأنصار موضوع بحثنا تمثلت الإسلام تمثلا عجيبا حتى كادت أن تذوب فيه أفكارهم ، وقلوبهم ،ودمائهم ، ونفوسهم وأملاكهم كلها سخرت في سبيل الدين وفي طاعة رسوله الأمين ، فكانوا المثال االذي يحتذى ، والنموذج الفريد بين المسلمين .

أصبحوا روح الإسلام ، ومثال الإسلام ، وعنفوان الإسلام ، وكبرياء الإسلام ما كان منها من شيء يجعل المسيرة تتأخر ساعة أو تقف ساعة ، وسنوات الهجرة من حياة الرسول ﷺ كانت كتيبة الأنصار في كل مقام جندا محاربين ، عافين عن الغنائم، طوع يد القائد عليه السلام عرفت غزوة تبوك باسم«غزوة العسرة »، وقد وصفها المؤرخون بالكثير من الأوصاف الدالة عليها .


غزوة تبوك
رجب ٩ هـ - ٦٣٠ م
الشمال
المدينة
المقدمة
القوى الرئيسية
خيبر
فدك
تبوك
غزة
القدس
عمان
يافا
حيفا
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأحمر
المقياس

قال ابن إسحاق ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذى الحجة سنة ٨ إلى رجب سنة ٩هـ ، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك في زمان من عسرة الناس ، وشدة الحر ، وجدب البلاد وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم و ظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الزمان الذي هم عليه .

وسبب هذه الغزوة كما روى الطبراني ...كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل أن هذا الرجل الذي يدعي النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم ، فإن كنت تريد أن تلحق دينك، فالآن فبعث رجلا عظيما منهم يقال له (قياذ) وجهز معه أربعين ألفا ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ولم يكن للناس قوة في الذهاب لتلك الأرض لفقد الظهر والنفقة[١]

وذكر ابن سعد قال : بلغ رسول الله أن الروم قد جمعت جموع كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معهم لخم وجذام وعاملة وغسان ، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء[٢] ، وكان رسول الله قلما يخرج من غزوة إلا كنى عنها : أخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذي يصمد له ليتأهب لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم[٣] في مثل هذا الحال فقسم الناس إلى فئات :

١ـ فئة سمعت وأطاعت وهم كتيبة الأنصار والمهاجرين .

٢ـ وفئة وجدت في الأمر عسرا والتأخر عن الذهاب إنما يقضى بشئ من العتاب والاعتذار وهم قلة .

٣ ـ وفئة من المنافقين الذين اتخذوا خط التخذيل والتبسيط والمراوغة ، ثم الانكفاء بعد التجهيز ، وحتى من استمر فإنه لم يكن عنده شيء من القناعة .

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٣٤٨

(٢) زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ٥٢٨ .

(٣) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ١٥٩

لقد استنفر الرسول ﷺ القبائل المسلمة كلها ، وأرسل في طلب القوم من كل جانب حتى من مكة ورغب الصدقة لمن يجهز في هذا الجيش ، فجاء الصحابة رهوان الله عليهم بأموالهم وأملاكهم يضعونها بين يدي رسول الله من المهاجرين والأنصار ، وفاق عليهم عثمان بن عفان حين جهز ثلث الجيش كاملا ، فقال رسول الله ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم قالها مرارا .

ورغب عليه السلام أهل الغنى في الخير والمعروف ، فتبادر المسلمون في ذلك حتى إن الرجل ليأتي بالبعير للرجل والرجلين ، فيقول : هذه البعير بينكما فتعاقبانه، ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج ، وأتت النساء بكل ما قدرن عليه ، فكن يلقين في ثوب مبسوط بين يدى النبي ﷺ المسك والمعاضد والخلاخل و الأقرطة والخواتيم والخدمات ، وأخذ عليه السلام الناس بالجد ، وعسكر بثنية الوداع والناس كثير لا يجمعهم كتاب[(١)]

وفي الحوادث الفردية التي ظهرت بين القوة ، كان نصيب الأنصار رضوان الله عليهم منها الشيء الكثير .

البكاؤون قال ابن إسحاق ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله وهم (البكاؤون)، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف ، فاستحملوا رسول الله ، وكانوا أهل حاجة ، فقال لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا ، وأعينهم تفيض من الدمع حزنا لا يجدون ما ينفقون ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة] .

قال ابن إسحاق : فبلغني أن يامين بن عمرو بن كعب النضري لقى أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعبد الله بن مغفل ، وهما يبكيان ، فقال ، ما يبكيكما ؟ ، قالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزى ١/ ٤٤٧

على الخروج معه ، فأعطاهما ناضحا له (بعير ينضح الماء عليه) ، فارتحلاه وزودهما شيئا من تمر فخرجا مع رسول الله[١]

وقام عليه ابن زيد بن عمرو الأنصاري الأوسي[٢] فصلى من الليل وبكى،وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك ، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال، أو جسد ، أو عرض ، ثم أصبح مع الناس ، فقال النبي ﷺ :«أين المتصدق هذه الليلة» فلم يقم أحد ثم قال:« أين المتصدق فليقم»، فقام إليه فأخبره . فقال النبي ﷺ : « أبشر ، والذي نفس محمد بيده ، لقد كتبت في الزكاة المتقبلة »

وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم فلم يفدوهم وهم اثنان وثمانون رجلا قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٩٠)﴾ [التوبة] .

وتخلف عبد الله بن أبي مع حلفائه ، وسيرد خبره لاحقا ، واستخلف رسول الله على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري (٦) ، واستخلف الرسول ﷺ علي بن أبي طالب على أهله وعياله ، فأرجف المنافقون فلحق على برسول الله ، ولكن الرسول رده إلى المدينة .

ولما ارتحل ﷺ من ثنية الوداع متوجها إلى تبوك عقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصديق، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام ، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن خضير ، وراية الخزرج للحباب بن المنذر ، ودفع لكل بطن من الأنصار وقبائل العرب لواء أو راية ، وقيل إن عدد الجيش ثلاثون ألفا وقيل أربعون وغير ذلك[٣]

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ١٦٢

(٢) الإصابة : العسقلاني ٢/ ٤٩٩

(٣) زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ٥٢٨ .

وتخلف نفر من المسلمين أبطأت بهم النية ـ وهم الأنصار ـ من غير شك ، ولا ارتياب منهم كعب بن مالك الأنصاري ، وهلال بن أمية الواقفي ، وأبو خيثمة عبد الله بن خيثمة الساليمي ، ومرارة بن الربيع العمري ، ثم إن أبا خيثمة هجر العريش والنساء والوقت البارد والرطب والزاد ، ولحق برسول الله كما لحق به أبو ذر الغفاري بعد أن أبطأت به راحلته ، وسار على قدميه بالحر والتعب حتى لحق برسول الله ، وتجيء قصة المخلفين بعد ذلك(١)

وسار جيش العسرة متوكلا على الله باتجاه تبوك ، وهي في أقصى جزيرة العرب شمالا مما يلي أرض الشام ، وبقى الرسول يقصر الصلاة عشرين يوما ، ورأي من المعجزات ما ثبت به قلوب الذين آمنوا ومحق الكفر والكافرين ، وظهر نفاق بعض المنافقين ، وسيرد شرحه في الحديث عنهم ، وكلما تخلف عن الرسول أحد ، يقول الناس : تخلف فلان ، فيقول ﷺ :«دعوه فإن يك فيه خيرا فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه صاحب أيلة،فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جوبا وأذرع فأعطوه الجزية ، وكتب رسول الله كتابا فهو عندهم(٢)

وأرسل رسول الله خالد بن الوليد إلى أكيدر(دومة الجندل) وهو (أكيدر بن عبد الملك) رجل من كنده، وكان نصرانيا وملكا عليها، وربما كان آخر ملوكها، وتمكن خالد بن الوليد من أسر أكيدر وقتل أخيه حسان ، وجاء إلى رسول الله فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله(٣)

وأقام رسول الله بتبوك بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ، ثم انصرف عائدا إلى المدينة، وفي طريق عودته ظهرت منه بعض المعجزات ﷺ ـ نورد شرحا لها بمكان آخر ـ ويبقى موضوع الذين تخلفوا من الأنصار وسواهم ، وهي قضيه هامة جدا تظهر لنا

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٣٤٣

(٢) زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ٥٣٥ بتصرف .

(٣) عيون الأثر : ابن سيد الناس ٢/ ٢٨٢

أن رسول الله ﷺ قد فرق تماما بين الأنصار الذين عرفهم وخبرهم، وعاش معهم ونصروه وأيدوه ، وبين من كان منافقا لم يتجاوز إسلامه ألفاظ لسانه ، وهو ما نحب تأكيده في هذا المجال ، فإن الأنصار رضوان الله عليهم قد أخذوا بكل ما يمكن أن يخفف عقابهم في الآخرة ، وشدوا عليهم وعوتبوا ، وبين الذين اعتذروا من المنافقين فقبلت معذرتهم دون أي معاتبة .

أوردت كتب السيرة قصة المخلفين الثلاثة تفصيلا ، وذلك لما في هذه القصة من العبرة والحكمة و المثال ، فإن كثيرًا قد تخلف عن رسول الله وليس هؤلاء فقط ، ولكن هؤلاء الرهط من الأنصار كان لهم شأن آخر

وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وقد كان قد تخلف عنه رهط من المنافقين وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق ، كعب بن مالك(١) ، وهلال بن أمية(٢) ومرارة بن الربيع(٣) فقال رسول الله :« لا تكلمن أحدا من هؤلاء الثلاثة» ، وأتاه من تخلف عنه من المنافقين فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، فصفح عنهم رسول الله ، إلا هؤلاء الثلاثة فلم يعذرهم الله ولا رسوله ، واعتزل المسلمون كلام أولئك النفر الثلاثة (٤)

فقد روى حفيد كعب بن مالك، عن أبيه عن جده قصته في تبوك ، وما جرى له ولزميليه الآخرين الذين تخلفا معه دون عذر أو سبب ، والمراجع لكتب السيرة لا يستطيع أن يتمالك نفسه عن البكاء لهذه القصة ، ولكن البكاء شيء ، وذكر حقائق التاريخ شيء آخر ، فإن ما أريد به ذكر هذه القصة هو مبلغ التفاعل والاندماج العقلي والجسدي والفكري والإيماني والحياتي للأنصار في الإسلام ، أما الوصف فهو عبارة عن سرد أحداث جرت في التاريخ .

---

(١) الإصابة : العسقلاني ٣/ ٣٠٢ (٧٤٣٣) .
(٢) الإصابة : العسقلاني ٣/ ٦٠٦ ، ٦٠٧ (٨٩٧٨) .
(٣) الإصابة : العسقلاني ٣/ ٣٩٦ (٧٨٦٥) .
(٤) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ١٧٥

لم يشارك هؤلاء الأنصار الثلاثة في تبوك ، وهم المستثنون في تاريخ الأنصار قاطبة منذ اللحظة التي بدأ بها الأنصار يدخلون الإسلام ، وحتى اللحظات التي غاب بها الأنصار في التاريخ ، وهذه الفئة من المؤمنين لم يرد عنها شيء يخرج بحال من الأحوال عن مفهوم الإسلام ، وعقيدة الإسلام، وحدود الإسلام حتى في الأحفاد الذين توارثوا كرامات الآباء والأجداد ، لقد حصل انحراف فكرى وعقائدي في بعض الأحيان ، وكان بعض أحفاد المهاجرين مستغلين به أو فاعلين[١] ، إلا أنه لم يرد وحسب ما اطلعت عليه على الأقل من الأنصار، أو أبنائهم، أو أحفادهم بعض الانحراف . فدعاء الرسول ﷺ قد حماهم من الزلرل ، وحمى نسلهم ، ومن جاء من بعدهم منهم :«اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار »[٢]

ولذلك فإن تجربة هؤلاء الثلاثة كانت قاسية جدا ، لكنهم من منطلق الإيمان العظيم الذي في نفوسهم فقد ثبتوا حتى آخر لحظة .

جاؤوا الرسول يعتذرون فلم يقبل عذرهم؛ لأنه لم يكن لديهم عذر ، ثم قاطعهم المسلمون ، فلم يعد يكلمهم أحد ، وفي كثير من الحالات جاؤوا محاولين الاعتذار، أو غيره فلم يجدوا قبولا من أحد .

يقول كعب بن مالك : بعد أن عاد رسول الله ﷺ ،وبدأ بالمسجد ، وصلى ركعتين وجلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فيقبل منهم رسول الله علانيتهم وإيمانهم ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فسلمت عليه ، فتبسم تبسم المغضب ، ثم قال لي مقالة ، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لي:«ما خلفك ؟ ألم تكن أبتعت ظهرك ؟».

---

(١) الأديان والمذاهب : عبد الرزاق الأسود ٢/ ١٨٢ فرقة (الجناحية) وغيرها .

(٢) من دعاء الرسول فى توزيع غنائم حنين .

فقلت إني يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكن و الله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثا كذبا ، لترضين عني ، وليوشكن الله أن يسخطك عليّ ، ولئن حدثتك حديثا صدقا ، تجد على فيه إني لأرجو عقابي من الله فيه . ولا والله ما كان لى عذر، والله ، ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك

فقال رسول الله ﷺ :« أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك»، فقمت وكان مثل صاحبيه(١)

ثم منعت عنهم زوجاتهم وفارقتهم ، وهم صابرون محتسبون ، وطال الزمن ، وهم ينتظرون ، وينظرون إلى عينى الرسول وشفتيه أن يرد عليهم سلاما أو يكلمهم، فحبسوا أنفسهم في بيوتهم حتى كادت أرواحهم من الحزن تزهق .

ثم جاء رسول ملك غسان يبحث عن كعب بن مالك ، يظهر له الفرج ، ويدعوه إلى غسان مكرما معززا بعد أن علم ملك غسان أن صاحبه ـ أي الرسول ـ قد جافاه ، لكن كعبا لم يلتفت إليه أو يجعل للشيطان في نفسه مدخلا ، وصبر واحتسب .

يقول كعب بن : فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ، ثم صليت الصبح على ظهر بيت من بيوتنا ، على الحال الذي ذكره الله منا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وضاقت على نفسى ، وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سلع ، فكنت أكون فيها ، إذ سمعت صوت صارخ أو في على ظهر سلع ، يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجدا ، وعرفت أنه قد جاء الفرج ، وما أن وصل صاحب الصوت حتى خلعت له ثوبي ، وأعطيته إياهما ، والله لا أملك غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، ثم انطلقت إلى رسول الله ﷺ ، وتلقانى الناس يبشروننى بالتوبة ، حتى دخلت المسجد ، فقام طلحة بن عبيد الله ، فحيانى وهنأني ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا

---

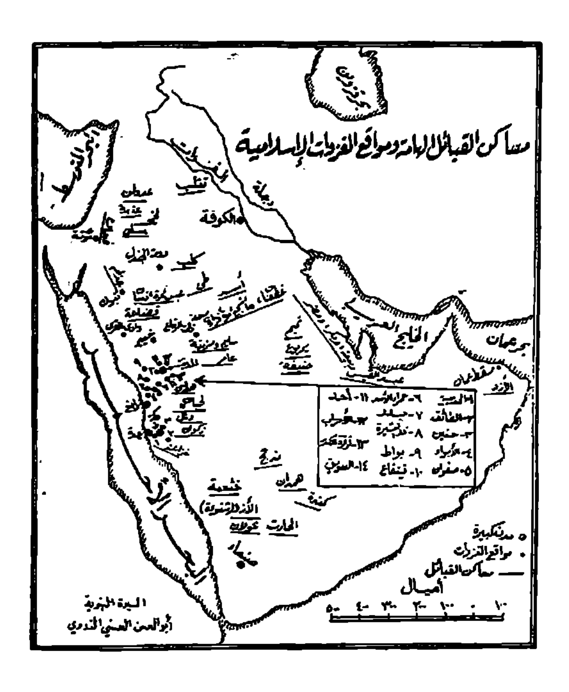
(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ١٧٦ وما بعدها ، عيون الأثر : ابن سيد الناس٢/ ٢٨٢ وما بعدها

ينساها لطلحة ، فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال لي ووجهه يبرق من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قلت أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟ قال :« بل من عند الله» . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى إلى الله ـ ﷻ ـ أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . قلت : إني ممسك بسهمي الذي بخيبر ، وقلت : يا رسول الله ، إن الله قد نجاني بالصدق ، وإن من توبتي إلى الله ألا أحدث إلا صدقا ما حييت ، والله ما أعلم أحدا من الناس أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظني الله فيما بقى .

وأنزل الله تعالى قوله ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة:١١٧] [1]

وليس بعد هذا من تعليق يزيد عن رضا الله على المهاجرين والأنصار، وعلى الثلاثة الذين خلفوا

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ١٨٠ ـ ١٨١ بتصرف ، القرطبي : تفسير ٨/ ٢٧٨ ، ابن كثير : تفسير ٢/ ٤١٠ ، ٤١١ ، في ظلال القرآن : سيد قطب ٢/ ١٧١٢ وما بعدها .


مساكن القبائل الهامة ومواقع الغزوات الإسلامية
الكوفة
تغلب
ربيعة
عبس
كلب
دومة الجندل
طيئ
أسد
تميم
حنيفة
الخليج العربي
بحر عمان
الأزد
٦- حمراء الأسد
١١- أحد
٧- جليل
٨- ذو العشيرة
٩- بواط
١٠- ينبع
٥- صفوان
٤- الأبواء
٣- حنين
١٤- السويق
مذحج
همدان
كندة
خثعمة
الأزد (السراة)
الحارث
نجران
مدن كبيرة
مواقع الغزوات
مساكن القبائل
أميال
السيرة النبوية
أبو الحسن الحسني الندوي

القسم الثالث

موقف الأنصار من الدولة الإسلامية

(١) بعض السرايا التي قادها الأنصار

١ـ سرية بشير بن سعد إلى بني مرة بفدك شعبان ٧هـ ومعه ثلاثون رجلا ، فوجدوا الناس شاتين في منازلهم ، ورعاؤهم حول مضاربهم ، فاستعاض المسلمون الشاء والنعم ، وانحدروا إلى المدينة فلحق بهم القوم وتراموا بالنبل ، حتى فنيت نبال المسلمين ، وولوا مدبرين ، وقاتل بشير حتى جرح وكان به رمق، فظنوه قد مات، فتركوه ، وأعادوا النعم و الشياه ، وفي الليل تحرك بشير في اتجاه فدك ، وبقى فيها ثم جاء المدينة ، وكان قد سبقه بالخبر علبة بن زيد ﷺ [(١)]

٢ ـ سرية بشير بن سعد أيضا (شوال ٧هـ) إلى غطفان مع ثلاثمائة ، وكان هؤلاء قد تواعدوا بالإغارة على المدينة برئاسة عيينة بن حصن ، فلما سمعوا بخروج المسلمين ولُّوا منهزمين ، لكن بشيرا وصحبه لحقوا بهم ، وناوشوهم وأخذوا منهم أسيرين ، وغنموا غنائم وعادوا إلى المدينة[(٢)]

٣ ـ سرية أبي قتادة عمرو أو النعمان بن ربعي الأنصاري السلمي ، بعثه الرسول إلى خضرة ، وهي أرض محارب بنجد شعبان ٨هـ ، ومعه خمسة عشر رجلا، وأمره أن يشن الغارة على غطفان ، وقد غنم وعاد إلى المدينة .

٤ ـ وبعد خمس عشرة ليلة أرسل رسول الله ، سرية أبي قتادة إلى أضم (واد على بعد ثلاث برد من المدينة) رمضان ٨ هـ كما ورد الحديث عنها[(٣)]

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨

(٣) السيرة النبوية: دحلان ٢/ ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤٧، ٢٤٨

٥ ـ هدم مناة ، وهو سرية سعد بن زيد الأشهلى الأنصارى ﷺ ، ومناة صنم للأوس والخزرج ومن دان دينهم ، وقيل أيضا أنها لهذيل وبنى كعب وخزاعة وغسان ، وكانت بالمشلل بضم الميم وفتح الشين ، واللام الأولى مشددة (جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد) مع عشرين فارسا حتى وصل إليها وعليها سادن، فقال السادن : ما تريد ؟ قال : هدم مناة ، فقال : أنت وذاك ، تهكما ظنا أنه لا يقدر عليها ، فأقبل سعد يمشى إليها فخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الشعر ، والرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها ، فقال السادة : مناة دونك بعض عصاتك ، فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه ، ولم يجدوا في خزانته شيئا ، ويقال أن عليَّ بن أبي طالب هو الذي سار إليها ، وقيل أبو سفيان والله أعلم[(١)]

٦ ـ بعث قيس بن سعد إلى صداء : بعث ﷺ قيس بن عبادة الخزرجي ﷺ إلى اليمن بعد انصرافه من الجعرانة في أربعمائة فارس ، وأمره أن يقاتل قبيلة (صداء) فقدم زياد بن الحرث الصدائي ، فسأل عن ذلك البعث فأخبرته ، فقال : يا رسول الله، أنا وافدهم إليك ، فاردد الجيش ، وأنا أتكفل بإسلام قومى وطاعتهم فقال اذهب فردهم ، فذهب إليهم فردهم[(٢)]

(١، ٣) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ٣٠٦ ، ٣٣٠

(٢) آراء الأنصار في سياسة الدولة الإسلامية

منذ أن وصل الرسول ﷺ المدينة ، وأرسى أسس الدولة الإسلامية ببناء المسجد أولا ، ثم تحديد العلاقات بين المسلمين وغيرهم من المشركين واليهود ، وبالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ،وبالصحيفة التي حددت كل الصلات بين كل العناصر المتواجدة على أرض يثرب ، ثم الإذن بالقتال وإرسال السرايا والغزوات، برز الأنصار رضوان الله عليهم على ساحة العمل الجهادى أولا حسب ما تقدم جنودا أوفياء لهذا الدين ، ولقد برز منهم العديد من القادة وأصحاب الرأي من كلا الفريقين الأوس والخزرج على حد سواء .

لقد كان أسعد بن زرارة من أول الذين برزوا على ساحة العمل الإسلامى في يثرب ، وهو ممن شهد البيعتين بالعقبة ، بل كان أول من التقى مع الرسول ﷺ على الإسلام ، وكان مقدما ونقيبا في قومه وهو الذي حمى الداعية الأول مصعب بن عمير،وكان مرافقا له، وقد اتخذه الرسول ﷺ مستشار في الكثير من القضايا المتعلقة بالجماعة الإسلامية ، ولم يطل الزمان بأسعد بن زرارة، فلم تمض السنة الأولى من الهجرة إلا وانتقل إلى الرفيق الأعلى .

ثم برز آخرون على الساحة ـ ومع نفاق ـ عبد الله بن أبي فإن الرسول كان يستشيره في بعض القضايا الخاصة بأحوال الناس باعتباره مقدما لديهم ، لكن اتخاذه خط النفاق وتزعمه المنافقين ـ كما سيرد لاحقا ـ وكذلك استمرار تعاونه مع اليهود ، وتقوية الصلة بهم، فإن الرسول ﷺ قد اتخذ منه موقفا محددا ، وباعتباره لم ينخرط في خط الدعوة الإسلامية .

برز العديد من الصحابة الأنصار الآخرين ، وهم الذين صدقوا الله ما عاهدوه عليه ، ويأتي على رأس مستشاري الرسول من الأنصار سعد بن معاذ الأشهلي

الأوسي ، والرجل في الواقع ، ومن خلال دراسة ذاتية لسيرته يأتي في مقدمة صحابة الرسول ﷺ ، ولقد مر بنا أنه كان بمنزلة أبي بكر في المهاجرين ، وكان من أقرب الناس إلى رسول الله مؤمنا صادقا وفيا ، لم يشب إسلامه شائبة إطلاقا منذ أن دخل في هذا الدين على يد مصعب بن عمير ، وأسعد بن زرارة ﷺ أجمعين ، وكان الرسول يأخذ برأي سعد ابن معاذ ، ويستشيره في أكثر القضايا خطورة وأهمية في الدولة وفي الجماعة ، وكان صاحب راية الأنصار في الحروب التي خاضها ، وقد حضر جميع الغزوات مع رسول الله مقدما في قومه الأوس وفي والأنصار ليس في قومه بنى عبد الأشهل فقط .

وكان سعد ذا نظرة صائبة ورأي سديد ، ويكفي أنه لم يحكم أحد من الصحابة ورسول الله على قيد الحياة إلا سعد بن معاذ عندما حكم في بنى قريظة ـ كما سيرد لاحقا ـ وبعد أن قضى وحكم فيهم قال رسول الله ﷺ :« لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات».

إن سعد بن معاذ في هذا الموقف أو سواه كان يتمتع بالصدق والوفاء والإخلاص لهذا الدين ، ولرسول رب العالمين ، وسيرد الحديث عن بعض القضايا التي برز فيها سعد برأيه وفعله ، وسنرى أن هذه القضايا كانت قضايا مصيرية في مسيرة الدولة الإسلامية ، فقد سعد إخوته في الجاهلية والإسلام ، فعلى التوالى مات إياس في يوم بعاث ، وما كان يشك بأنه قد مات مسلما ، واستشهد أخوه عمرو في أحد، وكان أحد البارزين في هذه الغزوة ، وكان سعد مع الرسول ﷺ كظله حارسا له مدافعا عنه أمينا عليه، وعلى حياته سواء في المعارك التي حضرها مع الرسول، أو في المواقع الأخرى التي تقتضى الرأي والمشورة ، وقد استشهد ﷺ عقب غزوة بنى قريظة واهتز له العرش وبكته الملائكة ، وحضر وفاته سبعون ألف ملك لم يطؤوا الأرض قبلها ، ويستخلص من سيرته الذاتية الكثير من الخبر والعبر التي كانت ترافق حياة هذا الرجل ، والذي كان مثل أبي بكر في المهاجرين صاحب رأي ومشورة وصدق .

وبعد استشهاده انتقلت زعامة الأوس ومشورتهم إلى الصحابي الجليل أسيد ابن خضير، والذي أخذ مكان سعد في كل القضايا التي طرحت على ساحة العمل الإسلامي الجهادي ، والحياتي معا في المعارك ، وفي حالات السلم ، وكان مثل سعد صاحب رأي ومشورة صادقا وفيا لهذه الدعوة ، ولم يتردد ساعة عن إجابة النداء لأي طارئ على هذه الدولة ، كان نقيبا وحضر مع رسول الله الغزوات كلها ، ولم يتخلف عن واحدة سوى بدر، وكان صاحب راية الأنصار من الأوس بعد سعد بن معاذ ، وسيكون له دور بارز في سقيفة بنى ساعده، وغيرها من المواقف .

وبرز من الخزرج سعد بن عباده بن دليم ، وهو أحد النقباء ، وصاحب رسول الله في جميع المواقع والغزوات التي حضرها الرسول ﷺ ولم يتخلف عن واحدة منها سوى بدر وأطلق عليه، وعلى سعد بن معاذ معا اسم السعدين ، ووردت هذه التسمية في كثير من المواقف .

سمعت قريش قائلا يقول في الليل على جبل أبي قبيس بعد بيعة العقبة الثانية :

فإن يسلم السعدان يصبح محمد بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: من السعدان؟ سعد بكر ، سعد تميم ، سعد هذيم ، فلما كان في الليلة الثانية سمعوه يقول :

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا على الله في الفردوس منية عارف

فإن ثواب الله للطالب الهدى جنان من الفردوس ذات رفارف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان : هما والله سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة[١]

ورافق السعدان رسول الله[٢] بعد عودته من أحد آخذين بزمام فرسه،وبنو الأشهل

---

(١) الطبرى : تاريخ ٢/ ٣٨٠، ٣٨١

(٢) إمتاع الأسماع :المقريزى ١/ ١٦٤

قوم سعد بن معاذ أكثر القتلى والجرحى فيهم ، وبقيا معه حتى نزل عن فرسه حملا ، واتكأ على سعد بن عبادة وسعد بن معاذ حتى دخل بيته ، فلما أذن لصلاة المغرب خرج على مثل تلك الحال يتوكأ على السعدين فصلى ثم عاد إلى بيته[(١)]

ومن الخزرج كان قيس بن سعد بن عبادة من أخص مستشارى الرسول ﷺ ، وقيس هذا كان يتمتع بصفات كثيرة جدا أهلته ليكون في هذا المستوى ، حتى إن رسول الله ﷺ أخذ راية الأنصار في فتح مكة من سعد بن عبادة ، ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد كما سبق القول .

وقد ورد أيضا أسماء كل من الحباب بن المنذر ، الذي كانت له آراء صائبة وجيدة في حياة الدعوة الإسلامية ، وهو الذي وافق خبر السماء اختياره لموقع المسلمين في بدر، وكذلك كانت آراؤه من البيان والحجة ما جعل الرسول يأخذ بها ويتبناها ، وكانت له راية الأنصار في غزوة تبوك ، وعبد الله بن رواحة الذي قاد العديد من السرايا ، وأحد قادة معركة مؤتة حيث استشهد فيها ، وكان شاعرا فذا دافع عن الإسلام بلسانه وسيفه .

ومن الذين أبدوا آراءً طيبة واتخذهم الرسول محط استشارته وثقته ، حسان بن ثابت الأنصارى شاعر الرسول ﷺ والمدافع عن حياض الإسلام وأهل الإسلام ، وديوانه في الإسلام كله دفاعا عن هذه الدعوة ، ومدحا للرسول والمسلمين ولأعمال الأنصار خاصة رضوان الله عليهم ، وقد وردت بعض أبيات من شعره في هذا البحث .

وكان عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الصحابي الصالح في مقدمة مستشاري رسول الله نظرا لما يتمتع به من إيمان صادق وتضحية لا حدود لها ، وكان خصما عنيدا لخط أبيه ونفاقه ، مع أنه لو أصبح والده ملكا لكان هو وليا للعهد وملكا بعد أبيه ، إلا أنه آثر الإيمان والإسلام على كل ملك أبيه وتوجهاته ، لما عاد المسلمون من

---

(١) إمتاع الأسماع :المقريزي ١/ ١٦٤

أحد ، وقد أصابهم ما أصابهم كان الأب قد تخلف والولد داخل المعركة وعاد جريحا ، وجعل بن أبي (الأب) والمنافقون يشمتون معه ، ويسرون لما أصاب المسلمين ويظهرون أقبح القول ، فيقول ابن أبي لابنه عبد الله وهو جريح ، وقد بات يكوى جراحه بالنار : ما كان خروجك إلى هذا الوجه برأي ، عصاني محمد ، وأطاع الولدان والله لكأني كنت أنظر إلى هذا ، فقال ابنه الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خيرًا[1]

هذا وكان رسول الله ﷺ يأنس كثيرا للأنصار رضوان الله عليهم،ويأخذ بآرائهم ويسألهم عن الكثير من الأمور الهامة التي تخص أحوالهم وأحوال أهل الإسلام ، وعن العلاقة بينهم وبين اليهود ، ورأيهم في العلاقات بين المسلمين والقبائل المحيطة بالمدينة ، وفي الكثير من الأمور الحياتية الخاصة بالمسلمين ، ولعل أكثر ما كان يستشيرهم الرسول في تعبئة المعارك الحربية ، لمعرفتهم بأرضهم من جهة ، ومعرفتهم بخصومهم من جهة ثانية ، ولقد تجلت آراء الأنصار في الكثير من الأحداث الجسام وكان يضبط آرائهم القضايا التالية :

١ـ إذا كان الأمر من الله تعالى فأول من ينفذه الأنصار ، ولم يحدث أن اعترض أي منهم على فرض فرضه الله تعالى أو أمر به،أو قاله الرسول ﷺ أو أبدي رأيا فيه، وكانوا أشد الناس تسليما وسمعا وطاعة في هذا المضمار .

٢ـ إذا كان الرأي رأي الرسول ﷺ فإنهم سماعون له منصاعون لتنفيذه، يطيعونه كما يطيعون أوامر الله تعالى سواء بسواء،فالرسول ﷺ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾[النجم] فكانوا يذعنون ويسمعون ويطيعون .

٣ ـ تجلت آراء الأنصار في القضايا المصيرية التي صادفت الدولة الإسلامية في حياة الرسول ﷺ بعد أن يتأكدوا بأن الأمر ليس أمرًا إلهيًا، وليس أمرًا من رسول

(١) إمتاع الأسماع :المقريزي ١/ ١٦٥

الله ﷺ ، إنما يدخل في مجال الشورى ، وإبداء الرأي تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨﴾ [الشورى] . فكان أمرهم مؤخرا على أوامر الله وأوامر رسول الله ، فإذا كان بعد ذلك فهم يقدمون آراءهم خالصة لوجه الله تعالى ، متوخية مصلحة جماعة المسلمين ، وغالبا ما أقر الرسول هذه الآراء ، وعمل بها وكان نتيجتها الخير والبركة للمسلمين ودولة الإسلام

ولقد وردت بعض هذه الآراء في مجال حديثنا عن غزوات الرسول ﷺ ونختصر بعض هذه الآراء أو نشير لها إشارة سريعة :

١ـ تجلى رأي الأنصار بمحاولة الاستئثار برسول الله ﷺ عندما هاجر إليهم ، فما إن خرج من بني عمرو بن عوف في قباء ودخل المدينة ، حتى تقاطر الأنصار يقدمون له الإغراءات؛ لينزل بدورهم وهو يمر بها ، وحتى لا يجعل بينهم أية حاله من الاستئثار والإيثار ، فالله تعالى أوصى إليه أن ناقته مأمورة لتصل إلى المكان الذي اختاره الله لها؛ ولتكون مقاما له ﷺ ، وكان الأنصار يبدون رأيهم ويقدمون ما عندهم، وبأن لديهم العدد والعدة والقوة والمنعة ، ويطلبون من الرسول أن ينزل فيهم ، ولكن أمر الله كان ألزم لهم ولرسوله ، فنزلت حين نزلت قرب بيت أبي أيوب الأنصاري .

٢ـ استخلف رسول الله سعد بن عبادة على المدينة في أول غزوة قادها الرسول بنفسه، وهي غزوة (ودان) بالأبواء ، واستخلف سعد بن معاذ في غزوة (بواط) ربيع الأول على ثلاثة عشر شهرا من مهاجره ﷺ [١]

٣ ـ لقد قيل: إن أول من صلى للكعبة من المسلمين هو أوس بن المعلي بن نقيع الزرقي الأنصاري وصاحب له ، وأبو سعيد رافع ، ويقال : الحارث ، والأول أثبت وجميعهم من الأنصار ، وقبل أن تحول الصلاة إلى الكعبة المشرفة .

---

(١) إمتاع الأسماع :المقريزي ١/ ٥٣ ، ٥٤

٤ـ في غزوة بدر برزت قوة الأنصار عندما أخذ الرسول ﷺ يسأل أصحابه ، «أشيروا على أيها الناس»، ويكررها بعد كل جواب من المهاجرين فيه الخير والفلاح وفيه اليقين والشجاعة ، حتى نهض سعد بن معاذ ﷺ وقال : كأنها تعنينا يا رسول الله قال :«نعم» : قال سعد كلمته المشهورة التي حركت قلوب المسلمين وأفئدتهم وأجسادهم في التضحية الفداء في سبيل الله ، مستبعدا ومنكرا أن يتأخر أو يتخاذل أي من الأنصار ، مظهرا أن الأنصار أهل الحرب والتضحية والفداء ، في كلمات خالدات ، ورد ذكرها في غزوة بدر ، وكان الرسول قد استخلف على المدينة (أبا لبابة بن عبد المنذر) الأنصاري رده من الروحاء؛ ليكون على المدينة ، ثم أشار سعد ابن معاذ ببناء العريش للرسول، وهو قائم عليه يتلقى أوامره، لينفذها ويعود جماعة من الأنصار لحراسة الرسول ولدرء أي خطر عير محتمل عليه ، وطلب منه إن كانت على المسلمين فقد أعد له راحلة وحرسا وجنودا ، يعود معهم المدينة إلى الذين تخلفوا ، وهم يظنون أنه لن يلقى كيدا ويتابع مسيرته معهم .

كما أن الرسول ﷺ رأي استنكارًا في وجه سعد والحرب قائمة،فسأله فقال سعد: يا رسول الله ، أرى أن الإثخان في القتل أفضل من استبقاء الأسرى ، ونزل قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال:٦٧]، فقال رسول الله ﷺ :«لو نزل عذاب من السماء لما نجى منه إلا سعد بن معاذ ، لقوله إن الإثخان بالقتل أفضل من استبقاء الأسرى ، ولما أتى بالأسرى كره ذلك سعد بن معاذ فقال رسول الله ﷺ :« يا أبا عمرو ، كأنه شق عليك الأسرى أن يؤسروا ؟» فقال:« نعم يا رسول الله ،كانت أول وقعة التقينا فيها والمشركون ، فأحببت أن يذلهم الله وأن نثخن فيهم القتل»(١)

كما أن الرسول استشار أصحابه في المنزل في معركة بدر ، فقال الحباب بن المنذر الأنصاري: انطلق بنا يا رسول الله إلى أدنى ماء ، إلى الماء فإني عالم بها وبقلبها، بها

---

(١) إمتاع الأسماع :المقريزي ١/ ٩٦، ٨٤ .

قليب قد عرفت عذوبة مائه، وماؤه كثير لاينزح ، ثم نبني عليه حوضا ، ونقذف فيه الآنية ، فنشرب ونقاتل ، ونغور ما سواه من القلب ، فقال رسول الله :« يا حباب، أشرت بالرأي» ، ونهض ومن معه ونزل على القليب ببدر .

وفي بدر أيضا أكثر الرسول ﷺ من الدعاء ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، والله لينصرنك الله ، وليبيضن وجهك ، وقال عبد الله بن رواحة الأنصاري : يا رسول الله إني أشير عليك ، ورسول الله أعظم وأعلم بالله من أن يشار عليه ، إن الله أجل وأعظم من أن ينشد وعده ، فقال رسول الله :«يا بن رواحة، ألا أنشد الله وعده ؟ إن الله لا يخلف الميعاد»[1]

وفي غزوة بني قينقاع استعمل الرسول ﷺ ، على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر الأنصاري واليا على المدينة ، كما استخلفه أيضا في غزوة السويق .

٥ ـ أما في غزوة أحد فقد استشار الرسول أصحابه ، فأشار البعض بالمكوث في المدينة ، ومنهم كبار الصحابة ، وعبد الله بن أبي ، فأشاروا عليه برأيه هو الذي اقتنع به ، لكن هذا الرأي قد تراجع أمام حماس الكثرة الغالبية ، والذين فاتهم يوم بدر ، فقد ألحوا على الخروج وملاقاة المشركين ، ونزل رسول الله ﷺ على رأيهم ، ودخل بيته ، ولبس لأمته ، وحمل سيفه وخرج ، لكن أصحاب الرأي من الصحابة ، وعلى رأسهم سعد بن معاذ ، وأسيد بن خضير قالا للناس قلتم للرسول ما قلتم واستكرهتموه على الخروج ، والأمر ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هوى فأطيعوه ، فلما خرج الرسول وقد لبس لأمته، وتقلد سيفه تقدم منه الذين يلحون ، وقالوا : يا رسول الله ، ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك ، فقال :«قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم»[2]

---

(١) إمتاع الأسماع :المقريزي ١/ ٩٦، ٨٤ .

(٢) إمتاع الأسماع :المقريزي ١/ ١١٧، ١١٨

وبدا الفرق واضحا بين المؤمنين من أصحاب الرأي ، والمنافقين ممن استشيروا في هذا الموضوع ، فقد انخذل عبد الله بن أبي بثلاثمائة من أصحابه؛ لأن الرسول لم يأخذ برأيه .

لكن المؤمنين من أخذ الرسول برأيهم أو خالفهم ، فقد مضوا على بركة الله إلى حيث أمر الله إلى قدر الله تعالى ومشيئته .

٦ـ لما غنم رسول الله ﷺ بني النضير بعث ثابت بن قيس بن شماس ، فدعا الأنصار كلها و الأوس والخزرج ـ فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر الأنصار ، وما صنعوا بالمهاجرين ، وإنزالهم إياهم في منازلهم وأثرتهم على أنفسهم ، ثم قال :«إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله على من بني النضير»، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكن في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم .

فقال سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يا رسول الله ، بل تقسمه للمهاجرين ، ويكونو في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال:«اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار »، وقسم ما أفاء الله عليه على المهاجرين دون الأنصار، إلا رجلين كانا محتاجين، وأعطى سعد بن معاذ سيف بن أبي الحقيق ، وكان سيفا له ذكر[١]

هجا حسان بن ثابت الأنصاري صفوان بن المعطل بن ربيعة السلمى ، وصفوان أقرب لرسول الله من حسان ـ ببيت قال فيه :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابنة الفريعة أمسى بيضة البلد

فخرج صفوان مصلتا سيفه حتى ضرب حسان بن ثابت ، فوثب الأنصار عليه، فأوثقوه رباطا ، فولى ذلك منه ثابت بن قيس الأنصاري ، فخلى عنه وجاء به ،

(١) إمتاع الأسماع :المقريزى ١/ ١٨٣

وبحسان إلى رسول الله ﷺ ، فقال حسان : يا رسول الله ، شهر على السيف في نادي قومي ، ثم ضربني لأموت ولا أراني إلا ميتا من جراحاتي .

فقال ﷺ لصفوان :« ولم ضربته ؟ وحملت السلاح عليه» وتغيظ رسول الله ﷺ . فقال :« يا رسول الله، آذانى وهجانى ، وسفه على ، وحسدني على الإسلام . فقال لحسان :«أسفهت على قوم أسلموا ؟» ثم قال:« احبسوا صفوان ، فإن مات حسان فاقتلوه به ، فخرجوا بصفوان».

وبلغ ذلك سعد بن عبادة فأقبل على قومه من الخزرج فقال : عدتم إلى رجل من قوم رسول الله تؤذونه ، وتهجونه بالشعر وتشتمونه ، فغضب لما قيل له ، ثم أسرتموه أقبح الأسر ، ورسول الله بين أظهركم ؟ قالوا : فإن رسول الله أمرنا بحبسه، وقال : إن مات صاحبكم فاقتلوه، قال سعد: والله، إن أحب الأمرين إلى رسول الله العفو، ولكن رسول الله قد قضى لكم بالحق ، وإن رسول الله ليحب أن يترك صفوان ، والله لا أبرح حتى يطلق .

فقال حسان : ما كان لى من حق فهو لك ، وأتى قومه فغضب قيس بن سعد ابن عبادة وقال : عجبا لكم ما رأيت كاليوم ، إن حسان قد ترك حقه ، وتأبون أنتم؟ ما ظننت أن أحدا من الخزرج يرد أبا ثابت في أمر يهواه ، فاستحيا القوم ، وأطلقوا صفوان من الوثاق ، فذهب سعد إلى بيته فكساه حله ، ثم خرج إلى المسجد ليصلى فيه فرآه رسول الله ﷺ فقال :«صفوان» ، قالوا نعم يا رسول الله ، قال :« من كساه»؟ قالوا : سعد بن عبادة ، قال :«كساه الله من ثياب الجنة» .

ثم كلم بعد حسان حتى أقبل في قومه إلى رسول الله ، وقال : يا رسول الله، كل حق لى قبل صفوان بن معطل ، فهو لك ، فقال له :«قد أحسنت وقبلت ذلك»[1]

وفي غزوة الخندق وبني قريظة أعطى الأنصار رأيهم بصراحة متناهية في كل المواقف الحرجة التي انتدبوا للرأي فيها ، وكان سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في مقدمة هؤلاء .

---

(١) إمتاع الأسماع: المقريزي ١/ ٢١١ ـ ٢١٣

لما انتهى إلى رسول الله خبر نقض قريظة لعهد رسول الله بعث سعد بن معاذ ـ وهو سيد الأوس ، وسعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة، ويقال: أسيد بن خضير ، وخوات بن جبير ، فقال لهم :«انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا نعرفه ، ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم ، فاجهروا به للناس ، فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، وقالوا : ـ اليهود ـ من رسول الله ....؟ لا عقد بيننا وبين محمد ، ولا عهد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه ، وكان رجلا فيه حدة ، ويقال : أنهم أفحشوا في القول في المسلمين، وفي رسول الله ، فقال سعد بن معاذ : دع عنك مشاتمتهم ، فإن ما بيننا وبينهم أربي من المشاتمة ، وهذا دليل على أن سعد بن معاذ ، قد وضع في نفسه شيئا تجاههم ، وهم حلفاؤه ـ وعاد الوفد إلى رسول الله ، وقالوا : عضل والقارة ـ أي كأصحاب عضل والقارة في الغدر .

ولما فاوض الرسول ﷺ زعماء غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة لمدة عام على أن يخرجوا من الحصار ويسحبوا أتباعهم ، وقبل أن يوقع العقد بينهم ، وإنما جرت المكاتبة بالشروط ، فقط أرسل وراء السعدين ، وذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا يا رسول الله ، أمر تحبه فنصنعه أم شيء أمرك الله ـ ﷻ ـ لا بد لنا من العمل به ، أم شيء تصنعه لنا ، قال : لا ، بل لكم والله ما أصنع ذلك ، إلا أنى رأيت العرب قد رمتكم على قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شكوتهم لأمر ما ساعة .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله عز وجل وعبادة الأوثان ، ولا نبعد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى أو بيعًا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، ونصرنا بك نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف في حلوقهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله :« فأنت وذاك»، فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ،

ثم قال : ليجهدوا علينا[١]

ولما انقضت غزوة الأحزاب ، وضرب الرسول ﷺ الحصار على بنى قريظة ، سألت الأوس بنى قريظة كما سأل عبد الله بن أبي بني قينقاع وبني النضير ، فقال رسول الله :« أفلا ترون يا معشر الأوس أن يحكم به رجل منكم ؟» قالوا : بلى ، فقال :« ذلك إلى سعد بن معاذ ، والرسول يعلم من هو سعد بن معاذ ، ولقد ترك الحكم له كما سيرد فيما بعد ، وهذا الأمر لم يحصل قبل ، فلم يحكم أحد في أمر من أمور الدين والدولة إلا بوحى من الله تعالى ، والحكم لله ولرسوله في أدق الأمور وأعظمها ، أو أنه الرأي والمشورة ، أما أن يسند الحكم لأي من المسلمين ، فإن هذا لم ينل شرفه إلا سعد بن معاذ ، وقبلت الأوس بذلك ».

وطلب بنو قريظة في حصارهم أبا لبابة بن عبد المنذر الأنصاري حليفهم ، وهو مقدم بالرأي عندهم يسألونه ويستشيرونه في حل معضلتهم ، بعد أن نقضوا العهد وتآمروا على المسلمين ، وشاركوا في حصارهم ، فدخل أبو لبابة عليهم ، فقالوا : ما ترى ؟ إن محمدا قد أبي إلا أن ننزل على حكمه ، قال : فانزلوا ، وأومأ إلى حلقه ـ أي إنه الذبح ـ ثم نزل ، والناس ينتظرونه، وقد ندم على ما كان منه فمر على وجهه حتى ارتبط إلى سارية في المسجد ، وبلغ ذلك رسول الله ما صنع ، وذهابه ، فقال «دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء ، ولو جاءني لاستغفرت له ، وأما إذا لم يأتني ، وذهب فدعوه »، وبقى خمس عشرة ليلة ، وكان أبو لبابة مقدما في القتال فأسند الرسول أعماله إلى أسيد بن حضير ، وهو أيضا من حلفائهم ، حتى تاب الله عليه وأنزل قوله : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة].

ولم تقف آراء الأنصار على قضايا الغزو والحرب ، فإن رسول الله ﷺ قد استشارهم وأخذ برأيهم في جميع الأمور التي تحتاج إلى مشورة ورأي ، وكان ﷺ

(١) الطبري: تاريخ ٢ / ٥٧١ – ٥٧٢ ، زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٢٧٢ – ٢٧٣

يبدي لهم رأيه الخاص ، فإن وجدوا فيه ما يقيم حياتهم أخذوا به ، أو استأذنوا الرسول بالأخذ بغيره .

في آية اللعان جرى حوار بين رسول الله وسعد بن عبادة .

حدثنا أبو داود قال : حدثنا عباد بن منصور قال : حدثنا عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [النور] قال سعد بن عبادة : يا رسول الله ، أهكذا أنزلت ؟ فلو وجدت لكاعا يتفخذها رجل لم يكن لى أن أخبركم ولا أهيجه حتى آتى بأربعة شهداء ؟ فو الله لا يأتي بأربعة شهداء حتى يقضى حاجته ، فقال رسول الله ﷺ :« يا معشر النصار ، ألا تسمعون ما يقول سيدكم» ؟ قالوا : يا رسول الله ،لا تلمه ؛ فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج فينا قط إلا عذراء ، ولا طلق امرأة له ، فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته .

فقال سعد: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنه حق، وأنها من الله ، ولكنى عجبت من ذلك لما أخبرك الله فقال النبي ﷺ ، فإن الله يأبى إلا ذلك ، فقال : صدق الله ورسوله[1]

(١) تاريخ المدينة – ابن شبه ٢ / ٣٧٩

قالوا : في الأنصار

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾[الأنفال].وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة] (١)

وقال ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] (٢)

وقال تعالى ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة] (٣)

وقال تعالى ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحزاب] .

---

(١) تفصيل آيات القرآن الحكيم : جول لا بوم ص ٤٩٧ .

(٢) القرطبي : تفسير ١٨ / ٢٠

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن .

وقال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

من فضل فضائل الأنصار : الأنصار : جمع ناصر ، والمراد هنا : أهل المدينة ﷺ

الدار : المدينة . والذين تبوؤوها ، وأخلصوا في الإيمان قبل غيرهم ، هم الأنصار الذين يحبون من هاجر إليهم ، ولا يحسدونهم ، بل يقدمونهم على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة : أي شدة جوع فقد حفظوا أنفسهم مع الشح فلهم الفوز العظيم .

قال رسول الله ﷺ عن البراء ﷺ عن النبي ﷺ قال :«الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله» ومن أبغضهم أبغضه الله (رواه الشيخان والترمذي) .

عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال :« آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار»[1] وعنه عن النبي ﷺ رأي صبيانا ونساءً من الأنصار مقبلين من عرس، فقام ممثلا فقال :« اللهم أنتم من أحب الناس إليَّ ثلاث مرات ».

وعنه قال جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فخلا بها ، وقال «والذي نفسى بيده إنكم لأحب الناس إلى» ثلاث مرات (روى هذه الأحاديث الثلاثة الشيخان) .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :«لو أن الأنصار سلكوا واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار» (رواه البخاري والترمذي) وقيل لأنس بن مالك ﷺ : أرأيت اسم الأنصار ، أكنتم تسمون به ؟ أم سماكم الله ؟ قال : بل سمانا الله ـ ﷻ .

(١) غاية المأمول : شرح التاج الجامع للأصول ٣ / ٣٨٦ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٨٢

عن أبي هريرة ﷺ : قالت الأنصار للنبى ﷺ (اقسم بيننا وبينهم النخل قال : لا، تكفونا المؤونة وتشركونا في التمر) قال المهاجرون : سمعنا وأطعنا .

عن زيد بن أرقم ﷺ قال : قالت الأنصار : يا رسول الله ، لكل نبي أتباع ، وإنا قد اتبعناك ، فادع لنا أن يجعل أتباعنا منا فدعا به قال :«الله اجعل اتباعهم منهم» (روى البخاري هذه الثلاثة).

وعنه عن النبي قال: اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصا، (رواه مسلم والترمذي) وروايات ذكرت (ذراري الأنصار) ، وأخرى زادت (ونساء الأنصار)

عن أبي أسيد ﷺ عن النبي ﷺ قال :« خير دور الأنصار بنو النجار، وبنو عبد الأشهل ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير ، فقال سعد بن عبادة ﷺ : ما أرى النبي إلا قد فضل علينا . فقيل : قد فضلكم على كثير .

وفي رواية: أن سعد قال يا رسول الله، خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخرًا ، فقال :« أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار» (رواه الشيخان والترمذي)[(١)]

عن أنس ﷺ قال : مر أبو بكر والعباس ﷺ بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فسألهم ، فقالوا : ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا ، فدخل على النبي ﷺ فأخبره فخرج، وقد عصب رأسه حاشية بردة ، فصعد المنبر ، ولم يصعد بعده ذلك اليوم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :« أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتى ، وقد قضوا الذي عليهم وبقى الذي لهم ، فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»

وفي رواية أخرى عن ابن عباس ، قال رسول الله في موقعه ذاك :« أما بعد ، أيها الناس إن الناس يكثرون ، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام ، فمن ولى منكم أمرا يضر فيه أحدا أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ».

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٨١ ،وما بعد .

وقد دعا النبي ﷺ أن يقطع لهم البحرين ، فقالوا لا ، إلا أن تقطع لإخواننا المهاجرين مثلها ، قال :« أما ، لا فاصبروا حتى تلقونى فإنه سيصيبكم بعدى أثره» (روى البخارى هذه الثلاثة)

وعنه : قال رجل من الأنصار: يا رسول الله ، ألا تستعملني كما استعملت فلانا ؟ [١] قال:«ستلقون بعدي أثره ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» .

وعنه قال : كنت الأنصار تقول يوم الخندق :

نحـــن الـــذين بـــايعوا محمـــدا عـــلى الجهـــاد مـــا حيينـــا أبـــدًا

فأجابهم ،« اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فارحم الأنصار والمهاجرة» (رواه البخاري والترمذي) ، عن أبي طلحة ﷺ قال : قال لى رسول الله ﷺ :«أقرئ قومك السلام ، فإنهم ما علمت أعفة صبر ، أي أقرئ الأنصار السلام ، فإني ما علمتهم إلا أعفة» (عفيف) صبر جمع صابر أي : منهم أهل صبر .

وعنه ﷺ : واحشرنا في زمرتهم آمين (رواه الترمذي بسند حسن) [٢]

وفي ذكر سبب نزول قوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] .

حدثنا مسدد ، حدثنا عبد الله بن داود ، عن فضيل بن غزوان ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ﷺ أن رجلا أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه ، فقلن: ما معنا إلا الماء ، فقال رسول الله ، من يضم أو يضيف هذا ؟ فقال رجل من الأنصار أنا ، فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ فقالت : ما عندنا إلا قوت صبياني ، فقال : هيئي طعامك ، وأصبحي سراجك ، ونومي صبيانك ، وإذا أرادوا عشاء ، فهيأت طعامها ، وأصبحت سراجها ، ونومت صبيانها ، ثم قامت كأنها تصلح

---

(١) السائل أسيد بن حضير الأنصاري ، وفلان هو عمرو بن العاص القرشي .

(٢) التاج الجامع للأصول : على ناصف ٣ / ٣٨٦ – ٣٩٠ ، صحيح البخارى ٢ / ٣٠٩ – ٣١٣ ، صحيح مسلم ١٦ / ٧١ ، ٧٢

سراجها ، فأطفأته فجعلا يريانه ، أنهما يأكلان . فباتا طاويين ، فلما أصبح غدًا إلى رسول الله ﷺ فقال :«ضحك الله الليلة »، أوعجب من فعالكم ، فأنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر:٩] [(١)]

عن أنس بن مالك ﷺ قال : خرجت مع جرير بن عبد الله البجلي في سفر ، فكان يخدمني ، فقلت له : لا تفعل ، فقال : إني قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئا آليت ألا أصحب أحدا منهم إلا خدمته ، زاد ابن المثنى وابن بشار في حديثهما ، وكان جرير أكبر من أنس ، وقال ابن بشار : أسن من أنس [(٢)]

أخرج الإمام أحمد، عن يزيد، عن حميد عن أنس ﷺ قال قال المهاجرون يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مؤاساة في قليل ، ولا أحسن بذلا من كثير ، لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنأ (ما أتاك بلا مشقة) ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله قال :« لا ما أثنيتم عليهم ودعوتهم الله لهم »، هذا حديث ثلاثي الإسناد على شرط الصحيحين ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه .

(كذا في البداية ٣ / ٢٢٨ ،وأخرجه أيضا ابن جرير والحاكم والبيهقي ، كما في كنز العمال ٧ / ١٣٦) [(٣)]

عن أنس ﷺ قال : افتخر الحيان الأوس والخزرج.

فقالت الأوس : منا غسيل الملائكة حنظلة بن الراهب ، ومنا من اهتز له العرش سعد بن معاذ ، ومنا من حمته الدبر عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، ومنا من أجيزت له شهادته بشهادتين بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت ، رضوان الله عليهم أجمعين .

---

(١) صحيح البخاري ٢ / ٣١٢

(٢) صحيح مسلم ١٦ / ٧١

(٣) حياة الصحابة : الكاند هلوى ١ / ٣٦٥.

وقال الخزرجيون[1] : منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يجمعه غيرهم ، زيد بن ثابت، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد رضوان الله عليهم جميعا ، وأخرجه أيضا أبو عوانة، وابن عساكر ، وقال : هذا حديث حسن صحيح كما في المنتخب ٥/ ١٣٩ [2]

وفي حديث طويل، عن أبي هريرة وافي رسول الله ﷺ في الصفا عند فتح مكة ، قال : يقول بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته ، قال أبو هريرة : وجاء الوحى ، وكان إذا جاء لم يخف علينا ، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي ، قال هاشم : فلما قضى الوحي رفع رأسه ، ثم قال :« يا معشر الأنصار أقلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ، ورأفة بعشيرته ؟ قالوا : قلنا ذلك يا رسول الله ، قال :« فما اسمى إذن ؟ كلا إني عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم ، والمات مماتكم »، قال فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون : والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورسوله ، فقال رسول الله : « إن الله يصدقانكم بعذرانكم»، وقد رواه مسلم النسائي من حديث أبي هريرة[3]

وفي حديث عن أنس ﷺ قال في حديث طويل قال رسول الله ﷺ :«للأنصار إنكم ما علمت تكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع »، كذا في كنز العمال ٧/ ١٣٦

وقال رسول الله ﷺ لأبي طلحة ﷺ :« اقرئ قومك السلام ، وأخبرهم أنهم ما علمتهم أعفة ، صبر »، وعن عائشة ﵂ ، قالت : قال رسول الله ﷺ ، ما تصير امرأة نزلت بين بيتين من الأنصار ، أو نزلت بين أبويها ، (قال الهيثمى رجاله رجال صحيح) .

---

(١) في الأصل (قالت الخزرجيون) وهو خطأ والصحيح ، قال الخزرجيون : أو قالت الخزرج : لأن كلمة الخزرجيون (جمع مذكر سالم) ، والخزرج جمع تكسير مجازى التأنيث .

(٢) حياة الصحابة : الكاند هلوي١ / ٣٧٩.

(٣) حياة الصحابة : الكاند هلوي ١ / ٣٨١

وأخرج ابن عساكر، عن زيد بن ثابت ﷺ قال دخل سعد بن عبادة ﷺ على رسول الله ﷺ ومعه ابنه فسلم ، فقال رسول الله :« ها هنا ، وها هنا » ، وأجلسه عن يمينه ، وقال : مرحبا بالأنصار ، مرحبا بالأنصار ، وأقام ابنه بين يدي رسول الله . فقال رسول الله ﷺ :«إجلس »، فجلس . فقال :« ادن »فدنا فقبل يدي رسول الله ، ورجله ، فقال النبي ﷺ :« وأنا من الأنصار ، وأنا من فراخ الأنصار »(أي أبنائهم) فقال سعد أكرمك الله كما أكرمتنا ، فقال الرسول :«إن الله أكرمكم قبل كرامتي، إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[(١)]

وقد أفرد صاحب كتاب حياة الصحابة قسما كبيرا للحديث عن الأنصار ، كما أفردت كتب الصحاح أبوابًا لذكر فضائل الأنصار رضوان الله عليهم ، آثرنا أن نأخذ ما قاله الرسول فيهم جمعا واختصارا ، مع أنه قد مر ذكر كثير من أخبارهم الأخرى في مواقعها من هذا البحث.

قال ابن إسحاق : وقال أبو قيس صرمة بن أبي أنس يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام ، وما خلصهم به من رسول الله ﷺ .

ثوى في قريش بضع حجة ... يذكر لو يلقى صديقًا مواتيا

ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا

فلما أتانا واطمأنت به النوى ... وأصبح مسرورًا بطيبة راضيا

وألفى صديقا واطمأنت به النوى ... وكان له عونا من الله باديا

يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا

فأصبح لا يخشى من الناس واحدًا ... قريبا ولا يخشى من الناس نائيًا

---

(١) السابق ١ / ٣٨٩.

بـذلنا لـه الأمـوال مـن جـل مالنـا | وأنفـسنا عنـد الـوغى والتآسـيا
نعادي الذي عادي من النـاس كلهـم | جميعًـا ولـو كـان الحبيـب المواسـيا
ونعلــم أن الله لا شيء غــيره | وأن كتــاب الله أصــبح هاديــا
أقــول إذا صــليت في كــل بيعــة | حنانيـك لا تظهـر علينـا الأعاديـا
أقــول إذا جـاوزت أرضًـا مخيفـة | تباركــت اســم الله أنــت المواليـا
فطأمــه رضًـا إن الحتـوف كثـيرة | وإنــك لا تبقــى لنفــسك باقيـا
فو الله ما يدري الفتى كيـف سـعيه | وإذا هــو لم يجعــل لــه الله واقيـا
ولا تحفــل النخــل المقيمــة ربهـا | إذا أصـبحت ريـا وأصـبح ثاويـا[١]

مدح كعب بن زهير في قصيدته المشهورة البردة المهاجرين دون الأنصار ، إذ إن أحد الأنصار وثب إلى رسول الله ﷺ عندما رآه قادمًا وهو ما زال على كفره ، وبعد أن شهر بالمسلمين ، فأمره الرسول أنه جاء تائبًا مسلمًا ، تاركًا كفره ، فلما أسلم مدح الأنصار بقوله :

مــن سره كــرم الحيــاة فــلا يــزل | في مقــضب مــن صــالحي الأنــصار
ورثــوا المكــارم كــابرًا عــن كــابر | إن الخيــار هــم بنــو الأخيــار
البــاذلين نفوســهم لنبــيهم | يــوم الهيــاج وســطوه الجبــار
والذائــدين النــاس عــن أديــانهم | بالمــشرفي وبالقنــا الخطــار
والبــائعين نفوســهم لنبــيهم | للمــوت يــوم تعــانق وكــرار
يتطهــرون يرونــه نــسكًا لهــم | بــدماء مــن علقــوا مــن الكفــار

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٣٨٢

وإذا حللـــت ليمنعـــوك إلـــيهم ... أصـــبحت عنـــد معاقـــل الأعفـــار

قـــوم إذا خـــوت النجـــوم فـــإنهم ... للطـــارقين النـــازلين مقـــاري[١]

قال كعب بن مالك يرد على ضرار بن الخطاب بن مرداس من قصيدته في أحداث بدر :

عجبـــت لأمـــر الله والله قـــادر ... عـــلى مـــا أراد لـــيس لله قـــاهر

قـضى يـوم بـدر أن تلاقـة معـشرًا ... بغـوا وسـبيل البغـى بالنـاس جـائر

وقد حـشدوا واسـتنفروا مـن يلـيهم ... مـن النـاس حتـى جمعهـم متكـاثر

وســارت إلنــا لا تحــاول غيرنــا ... بأجمعهـــا كعـــب جميعـــا وعـــامر

وفينــا رســول الله ، والأوس حولــه ... لــه معقــل مــنهم عزيــز ونــاصر

وجمـع بنـي النجـار تحـت لوائـه ... يمـشون في المـاذي والنقـع ثـائر[٢]

قال حسان بن ثابت يفتخر بقموه من الأنصار :

فنحن الذري من نسل آدم والعري ... تربـع فينـا المجـد حتـى تـأثلا

بنـي العـز بيتًـا فاسـتقرت عـماده ... علينـا فأعيـا النـاس أن يتحـولا

وإنك لن تلقى مـن النـاس معـشرًا ... أعـز مـن الأنـصار عـزًا وأفـضلا

وأكثـر أن تلقـى إذا مـا أتيـتهم ... لهم سيدًا ضخم الدسيعة جحفـلا[٣]

وأشـيب ميمـون النقيـة يبتغـي ... بـه الخطـر الأعـلى وطفـلاً مـؤملا

وأمـــرد مرتاحًـــا إذا مـــا ندبتـــه ... تحمـــل مـــا حملتـــه فـــتربلا[٤]

---

(١) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٥٢٥ ، السيرة النبوية : دحلان ٢ / ٢٨٣

(٢) المدينة فى صدر الإسلام : الخطراوي ٦٣

(٣) الدسيعة : المائدة الكبيرة .

(٤) تربلا : عظم .

وعُــدًّا خطيبــا لا يطــاق جوابــه وذا أربـــة في شـــعره متـــنخلا[1]

وأصير نهاضًـا إلى الـسيف صـارمًا إذا مـا دعـا داع إلى المـوت أرقـلا

وأغيـــد مختـــالاً يجـــبر إزاره كثـير النـدى طلـق اليـدين معـذلا

لنـــا حـــرة مـــأطورة بجبالهـــا بنـي المجـد فيهـا بيتـه فتـأهلا[2]

يقول حسان بن ثابت من قصيدة طويلة :

وكنـا ملـوك النـاس قبـل محمـد فلـما أتـى الإسـلام كـان لنـا الفـضل

وأكرمنـا الله االـذي لـيس غـيره إلـه بأيـام مـضت مالهـا شـكل

بنـصر الإلـه للنبـي ودينـه وأكرمنـا باسـم مـضى مالـه مثـل

أولئـك قـومى خـير قـوم بـأسرهم ولـيس عـلى معـروفهم أبـدًا قفـل

يربون بالمعروف معـروف مـن مـضى فما عـد مـن خـير فقـومى لـه أهـل[3]

يقول حسان بن ثابت ﷺ في أحد :

وقد ضاربت فيـه بنـو الأوس كلهـم وكـان لهـم ذكـر هنـاك رفيـع

وحـامي بنـو النجـار فيـه وضـاربوا ومـا كـان مـنهم في اللقـاء جـزوع

أمـام رسـول الله لا يخـذ لونـه لهـم نـاصر مـن ربهـم وشـفيع

وفـو ا إذا كفـرتم باشـحين بـربكم ولا يـستوي عبـد عـصى ومطيـع

وقال في بدر :

فلاقينـاهم منـا بجمـع كأسـد الغـاب مـن مـرد وشـيب

أمـام محمـد قـد آزروه عـلى الأعـداء في رهـج الحـروب

---

(١) أربة : الشدة والإحكام .

(٢) المدينة فى صدر الإسلام : الخطراوي ٨٠ ، ٨٧ .

(٣) المدينة فى صدر الإسلام : الخطراوي: ١٢٠ .

قال معاوية ﷺ يومًا لجلسائه أخبروني بأشجع بيت وصف به رجل قومه فقال له روح بن زنباع قول كعب بن مالك :

نصل السيوف إذا قصرنا بخطونا يومًا ونلحقها إذا لم تلحق

فقال له معاوية صدقت ، ويطول الحديث في هذا المقام فقد جمع شعراء يثرب في وصف أعمال الأنصار كل شيء من فضائلهم وأعمالهم ، وجمعوا تاريخا كاملا لما فعلوه في حياتهم بين يدى رسول الله ﷺ .

الفصل الخامس

موقف المنافقين واليهود من الدولة الإسلامية

القسم الأول : المنافقون .

القسم الثاني : اتخاذ الخط الديني .

القسم الثالث : موقف الإسلام من المنافقين .

القسم الرابع : اليهود .

القسم الخامس : موقف الإسلام من اليهود .

الفصل الخامس

موقف المنافقين واليهود من الدولة الإسلامية

القسم الأول : المنافقون

(١) تمهيد وتعريف

أصل الكلمة نَفَقَ نَفَقَ الشيء نَفْقًا نَفِدَ نَفَقَ الزَّادُ ، وَنَفَقَتِ الدَّراهم ، واليَرْبُوعُ:خرج من نَافِقَائِه «جحرِه» .و ـ الدَّابة نُفُوقًا:مَاتَتْ و ـ الـجُرْحُ تَقَشَّر. والبِضَاعَة نِفَاقًا : رَاجَتْ وُرغب فيها . ويقال : نَفَقَتْ الـمَرأَةُ . كَثُر خُطَّابُها .

أَنْفَقَ فلان : افْتَقَر وذَهَبَ مَالُهُ والتَّاجر : راَجَتْ بِضَاعَتُهُ وتِجارَتُه ، و ـ الإبل: انتشرت أوبارها سمنا ، والمال ونحوه : أَنْفَدَهُ وأَفْنَاهُ .

(نَافَقَ) اليَرْبُوعُ نِفَاقًا،ومُنَافَقَةً:دَخَل في نَافِقَائه ..و ـ فلان:أَظْهَر خِلافَ ما يُبْطنُ .

والـمُنَافِقُ مَنْ يُخْفي الكُفْر ، وُيظْهِرُ الإيمانَ ، ومن يُضمِرُ العَداوةَ ويُظْهِرُ الصَّدَاقَةَ ، ومن يُظْهِرُ خِلافَ ما يُبطن[(١)]

وفي حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والجزور نَافِقَةٌ أي مَيِّتَةٌ من نَفَقَتِ الدَّابَّةُ إذا ماتت .

قال الشاعر

نَفَـــقَ البَغْـــلُ وأَوَّدى سَرُجـــه في ســـبيل الله سرجـــى والبغـــل

قال أبو عبيد : سمي الـمُنَافِقُ مُنَافِقًا لِلْنَّفَقِ : وهو السَّربُ من الأَرض . وقيل : إنما سمي مُنَافِقًا ؛ لأنه نَافَق كاليَرْبُوع وهو دُخُولُه نَافِقائه .

---

(١) المعجم الوسيط : ٢/ ٩٤٢ ، مادة (نَفَقَ)

يقال: قد نَفَقَ به ونَافَقَ لَهُ جحرًا آخر يقال له القَاصِعَاءُ ، فإذا طُلِبَ قَصَعَ فخرج من القَاصِعَاء أو يدخل من القَاصِعَاء ويخرج من النَافِقَاءِ فيقال هكذا يفعل المُنَافِقُ يدخل في الإسلام ، ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه .

ومنه اشتقاق الـمُنَافق في الدين ، والنِّفَاقُ بالكسر فِعل الـمُنَافِقِ والنِّفَاقُ الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر . وقد نَافَق مُنَافَقَةً ونِفَاقًا . وقد تكرر في الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسمًا وفعلا ، وهو اسم إسلامى لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله في اللغة معروفًا[١]

والمنافقون : جمع منافق وهذا ما ورد في القرآن الكريم ، والأثر الشريف للدلالة على قوم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر وهو المعنى الاصطلاحي للكلمة[٢]

لم تكن الكلمة معروفة عند العرب ـ كما سبق القول ـ ولم تستعمل أيضًا في مكة ، ولكن جاء استعمالها كثيرًا في المدينة بعد الهجرة ، وكثر أتباعها ، واستمر طيلة العهد المدنى ، وإلى ما بعده بقليل .

وحتى تخلص كلمة (الأنصار) من كل تداخل ، فإنه يجب أن نعرف بأن المنافقين هم قوم من الأوس والخزرج ومن والاهم من العرب فقط ، وبعض المؤرخين يطلق عليهم أحيانا هذا الحي من الأنصار ، باعتبار أن كلمة الأنصار قد أصبحت علمًا على الأوس والخزرج .

ولكن يجب أن نضيف بأنهم ـ الأنصار ـ الذين آووا النبي ونصروه .

---

(١) لسان العرب : ابن منظور ٣/ ٦٩٤ . ترتيب القاموس المحيط ٤/ ٤١٨

(٢) وردت صفة النِّفَاقِ ، وفعل النِّفَاقِ في العديد من آيات القرآن الكريم فقد وردت نَافَقُوا : آل عمران ١٦٧ ، والحشر ١١ النِّفَاق سورة التوبة ٧٧ ، ٩٧ ، الـمُنَافِقاتِ التوبة ٦٧ ، ٦٨ ، والفتح٦ ، والحديد ١٢ ، الـمُنَافِقُون جمع مذكر سالم ووردت هذه الكلمة في ست وعشرين آية من آيات القرآن الكريم . سورة المنافقون السورة رقم (٦٣) وآياتها ١٠ وهي من السور المدنية . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٧١٦ – ٧١٧

أما المنافقون منهم ، فقد حاربوا الدعوة باطنًا وأيدوها ظاهرًا ، وهم من الأوس والخزرج ـ أيضًا

والمنافقون هؤلاء قد مزجوا عملا صالحًا وآخر سيئًا ، أشهروا الإسلام والعمل به واتباع تعاليمه وأبطنوا العداوة لرسول الله ﷺ وللمسلمين ، وقاموا بأعمال دلت على مبلغ حقدهم ورغبتهم في استئصال هذا الدين والقضاء عليه

ولنفرق بين الموقفين فنقول : دخلت الأوس والخزرج في الإسلام فمنهم من ناصر ، ومنهم من نافق ، ولقد تحدثنا عن الأنصار ومواقفهم وآرائهم ، وتضحياتهم واستشهادهم في سبيل الله، وهذا الدين وهم الذين اتخذوا الإسلام منهج حياة وسلوكًا وعقيدة وشرعة ، وجهادًا في سبيل الله واستشهادًا ، فبيَّضوا صحائف التاريخ بهذه التضحيات ، وأناروا دروب الأجيال بنور ربهم الذي وهبهم إياه ، فكان منهم الشهيد ، ومنهم المناصر ، ومنهم المؤيد ، ومنهم جند الدعوة الإسلامية الذين بنوا مجد الإسلام ورفعوا شأنه وحملوا لواءه .

والمنافقون : القسم الثاني من الأوس والخزرج ، والعدد يختلف بين هؤلاء وهؤلاء، يقل ويكثر حتى إنه كثيرًا ما كان من النصف وما دون ذلك دخلوا الإسلام ظانين أنه مجرد طفرة بسيطة وصلة غير متينة بين الإنسان وربه ، لا يتدخل في شؤون الحكم والحرب، أو العلاقات بين الناس، ومع أنهم قد بلغوا شأوًا بعيدًا في معرفة الإسلام ، وكانوا يجالسون النبي ﷺ ويسمعون منه ، ومنهم من ينفذ أوامر الشرع والدين، ولكنهم في ساعات العسرة يبخلون ويتركون المسلمين في أحرج الأوقات ، وأشد ساعات العسرة،وقد بدت منهم بعض الأعمال التي أنقذ الله الدين والمسلمين منها ، فارتبطوا بالتنزيل مع الكافرين ـ دائـمًا .

فهم مع الكافرين في آيات القرآن الكريم بأفعالهم ، وهم من الأوس والخزرج يتظاهرون بالإسلام ، ويتحركون حركة المسلمين في المدينة من غزو أو مجادلة أو تحالف أو غير ذلك .

وارتبط الأنصار بالجماعة الإسلامية ارتباطا مصيريا ، وتآخوا مع المهاجرين وشكلوا جماعة المسلمين وذابوا في بوتقة الإسلام وتعاليمه .

واستمرأ المنافقون النفاق مع ساداتهم وكبرائهم ، يتلقون الأوامر منهم وينفذون تعاليمهم ويأتمرون بأمرهم ، وهم في استقلالية تامة عن الالتزام بشرائع الله تعالى ، أو الأخذ به أو تطبيقه ، وبقيت جماعتهم منفصلة متباينة ، مع انخراطهم في الحياة اليومية للمسلمين ـ ومعايشة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في أقرب التجمعات .

فكثيرا ما فرق الإسلام بين المنافق وبين الأنصارى المسلم ، بين الولد ووالده ، والأخ وأخيه ، والأخت وأخيها ، وغير ذلك .

وقد عُرِفُوا في المجتمع الإسلامي معرفة تامة، وعرف قوادهم ومؤيدوهم وأركان دولتهم ، والتقى المنافقون في صف اليهود والكفار ، وكانوا معهم بالرأي والنصرة السياسية ، والاجتماعية ، والمستقبلية للجزيرة العربية وبقى المنافقون يدافعون عن مواقعهم خلال فترة طويلة من الزمن، ويقفون حجر عثرة في سبيل جماعة المسلمين ، إلى أن تخطاهم الإسلام، وانهارت أحلامهم، وضعفت شوكتهم وانقرضت ذريتهم، فذهبوا إلى غير رجعة ، لكن هذا الأمر بقى شرخًا في جماعة المسلمين طيلة العهد المدني وهذه بعض تفصيلاته .

(٢) الانتصار للملكية في يثرب عبد الله بن أبي ابن سلول

سبق القول : وضعفت شوكتهم وانقرضت ذريتهم بأن قبيلتي الأوس والخزرج قد دخلتا في حالة من السلم بعد يوم بعاث ، كان محورها الاتفاق بينهما على الموادعة والسلم ، وأن يتوجوا عليهم ملكًا منهم يأخذ الأمور بالجد ، وينهي حالة الحرب والفوضى والاقتتال ووقع الاختيار ـ كما سبق الشرح ـ على عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث ابن مالك بن سالم بن غنم ابن عوف بن الخزرج ابن سلول ، وسلول امرأة من خزاعة ؛ ليكون ملكًا على هذا الحي من العرب . وعبد الله ابن أبي كان ممن يُشهد لهم برجاحة العقل والحكمة ، وقد تجنب الحرب يوم بعاث فيمن تبعه من الخزرج، حيث قتل في هذا اليوم عمرو بن النعمان البياضي رئيس الخزرج ـ أقبل سهم لا يدري من رمى به ـ فبينا عبد الله بن أبي يتردد راكبًا قريبًا من بعاث يتجسس الأخبار ؛ إذ طلع عليه بعمرو بن النعمان قتيلا في عباءة يحمله أربعة رجال كما كان قال له فلما رآه قال : ذق وبال البغى ، وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الأوس السلاح[١]

وأصبح عبد الله بن أبي زعيم الخزرج بلا منافس ، وحتى إن الأوس بعد موت زعيمهم «حضير الكتائب» وتحول زعامتها إلى سعد بن معاذ الأشهلي ، قد ارتأت أن يتم الصلح نتيجة للكثير من التطورات ، خاصة رأي من قال عندما وضعت الأوس السلاح في الخزرج بعد الهزيمة حيث صاح صائح يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم ، فجوارهم خير من جوار الثعالب (اليهود) ، فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم ، وإنما سلبهم قريظة والنضير ، فكان الهدف الأول هو توحيد الكلمة خوفًا من طغيان اليهود ومجاورتهم .

---

(١) الكامل : ابن الأثير ١/ ٤١٨

واتفقت الكلمة فعلًا،وأخذت يثرب تستعد للدخول في عصر جديد من عصورها، عصر السلام والملكية ، وكان القوم يستعدون «ويشكون الخرز ليتوجوا عبد الله بن أبي» .

حصلت تطورات خطيرة ـ كما سبق القول ـ باتجاه آخر فقد دخل عدد من الخزرج في الإسلام ، وتبعهم بعض الأوس ، وبايعوا بيعة العقبة الأولى وتبعتها بيعة العقبة الثانية « بيعة الحرب» ، وبرزت في هذه الأثناء القوة الجديدة النامية ، وهي قوة الأنصار .

لم يكن عدد الأنصار كافيًا للتحكم بمقدرات المدينة ، فهم بضع وسبعون وامرأتان كانوا في العقبة ، ولم يكن العدو بأكثر من هذا في المدينة ، مع أن التقديرات تعطى عدداً لا بأس به لسكان المدينة من العرب واليهود . لم تكن هذه القوة النامية كافية لأن تحكم يثرب على المدى القريب أو المنظور ، فلم تجد المقاومة المطلوبة للتصدى لها من الداخل ، بل على العكس سكت الجميع على هذه القوة ، حتى إن بعضاً من المبايعين في العقبة الثانية تمنوا لو بايع معهم عبد الله بن أبي ـ ملكهم المنتظر ـ ليكون العهد أقوى وأمتن ، نظراً لأهمية الرجل وموقعه في يثرب ، فهو الملك المقبل للمدينة على هذا الحي من العرب .

لكن الثقة العظمى التي أولاها الأنصار للإسلام ، والوقفة العظيمة التي وقفوها بأنفسهم جعلتهم يتحركون باتجاه آخر ، باتجاه إقامة دعائم الإسلام ، غير ملتفتين لأية اعتبارات سابقة مهما كانت ، وأخذ المسلمون يزدادون يومًا بعد يوم ، وفتحوا بيوتهم للمهاجرين من المسلمين ، وأعلنوا استقبالهم ، وفعلًا بدأت الهجرة التي أخذت طابعًا جماعيًا وفرديًا في كثير من الأحيان ، وازداد عدد المهاجرين ، وازداد عدد المسلمين من الأنصار .

وبقى الآخرون من غير المسلمين واليهود ينظرون إلى هذا التحول وقد أخرس الله ألسنتهم ، وعقد أيديهم وأبطل تفكيرهم .

وجاء الرسول ﷺ ودخل المدينة ، واستقبل بما يليق به ﷺ ، وفتحت له المدينة أبوابها ، حتى إن العدد الكبير من غير المسلمين كان مستعداً للحماية والمبايعة ، ونظر عبد الله بن أبي حوله ، فوجد أتباعه وجنوده ومؤيديه يتناقصون يومًا بعد يوم ، والأحلام الكبرى التي ملأت ذهنه وتفكيره لإقامة مملكة تنافس أو توازى مملكة غسان أو كندة أو الحيرة بدأت تتلاشى ، وبدأ حماس القوم يفتر وينفض عنه قومه وأنصاره وقامت دولة الإسلام وعيناه تنظران .

وأخذ الرسول ﷺ يخطو خطواته الثابتة لتدعيم أركان دولته ، من بناء المسجد ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار،وكتابة الصحيفة مع جميع القوى المؤثرة في يثرب، وإرسال السرايا وتشكيل الجيوش ، وعبد الله بن أبي ينتظر أن يتوج ملكًا على يثرب ، أو يشترك في هذا الأمر

ولما وجد أن قضية ملكيته قد ذهبت ، فرأى أن أحسن السبل هو الدخول في الإسلام ، والعمل من داخل الجماعة المسلمة ، ففي هذه الحالة لا يشكل قوة معادية يتمكن الرسول من القضاء عليها في أية لحظة ، لكنه يمكن أن يكون قوة داخل الجماعة ، ويجد لنفسه موقعًا قويًا يتحرك من خلاله ـ أو على الأقل ـ يكون هو البديل أو الوارث في زعامة هذه الجماعة .

دخل الإسلام ولحقه أتباعه ، وفعلًا بدؤوا يشكلون قوة لا بأس بها داخل تجمع الجماعة المسلمة ، لم تمح آمال ابن أبي من رأسه ، ولم يدخل الإسلام بعظمته في قلبه ، ولم يضع نفسه لخدمة هذا الدين ، بل ترأس قوة معارضة قوية وظاهرة جمعت كل الذين لم يتمكنوا أن يحاربوا هذا الدين علانية ، أو أن مصالحهم قد لحقها الضرر من وصول الإسلام إلى يثرب ، أو الذين ملأت قلوبهم وساوس الشيطان والثأر ، وأصبحت هذه القوة ملجأ لكل حاقد على الإسلام ، غير راغب فيه ، وأصبح عبد الله ابن أبي حاميًا لهذه القوة ، قائدًا لها ، موجهًا لسياستها ، حاميًا لمؤامراتها ، فهو الرأس المدبر وهو المسيطر والمنفذ لكل ما يمكن أن يسيء لهذا الدين وأهله ، مع استغلال الفرص للتشهير بالإسلام وأهله .

جاء إلى رسول الله ﷺ أسيد بن حضير في غزوة بنى المصطلق ، وأخبره الرسول بما قال عبد الله بن أبي بحق رسول الله «لئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» ، فقال أسيد : يا رسول الله ، أنت والله تخرجه إن شئت ، وهو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : ارفق به فو الله لقد جاء الله بك وإن قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ، وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا(١)

كما أن القوة المعارضة من قريش واليهود وجدت في عبد الله بن أبي وجماعته حليفًا طبيعيًا لها ؛ لمقاومة الإسلام والقضاء عليه وعبد الله بن أبي ـ وكان رأس المنافقين ورئيس الخزرج والأوس أيضًا ـ كانوا قد أجمعوا على أن يُملِّكوه عليهم في الجاهلية ، فلما هداهم الله للإسلام قبل ذلك شرق اللعين بريقه ، وغاظه ذلك جدًا(٢)

لم تكن هذه القوة سرية أو خافية على أحد ؛ فإن الرسول بحكمته قد اتخذ منها موقفا ، سنذكر تفصيلاته وهو يتلخص بالإحسان إلى أفرادها وكذلك إلى قائدها ، والدعوة بينهم ليعودوا إلى جماعة المسلمين .

كانت أهداف هذه المجموعة متباينة ؛ فهدف رئيسها تحقيق حلمه بأن يصبح ملكًا على يثرب ، وقد تبعه بعض أفراد قبيلته الذين مازالت القبلية عنوان حياتهم ، ولم يتمكنوا من التخلص من رواسب الجاهلية وآخرون وجدوا في هذه الفئة تحقيقاً لأحلامهم بالوصول إلى مراتب ووظائف من جراء تتويج الملك الذي يحتاج إلى حاشية ووزراء ومستشارين وقادة وموظفين وغير ذلك ، وفريق آخر لم يستسغ الدخول في الإسلام لأي سبب ، فوجد في هذه الجماعة حماية له ؛ ليبث حقده وينشر رأيه ويدس سمومه ؛ وهؤلاء جمعتهم جميعًا المصلحة مع ابن أبي ليشكلوا هذه القوة داخل الجماعة الإسلامية .

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ١١٠

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٣٤٨

فكان هؤلاء المنافقون يحضرون إلى المسجد ، ويسمعون أحاديث المسلمين ، ويسخرون ويستهزئون بدينهم[(١)] ، ثم إن القوى الأخرى التي تضررت من بروز الإسلام على الساحة ـ كقوة وحيدة متماسكة ـ وجدت هذه القوى المتناثرة في ابن أبي حليفًا مناسبًا نتيجة موقعه في قبيلته ـ الخزرج ، ورأي الأوس فيه ، ثم ماضيه السابق مع ثقة اليهود به ؛ الذين أصبح حليفا طبيعيا لهم ولقريش من جهة أخرى .

لم تظهر هذه القوة ـ كما قلت ـ بانتظار ما سيؤول إليه حال المسلمين ، وظن ابن أبي ـ في بادئ الأمر ـ أن الرسول ﷺ بما عُرِفَ عنه في مكة، بأنه يدعو إلى دين واحد، وإله واحد ، لم يتدخل في سياسة مكة ولم يرفض تنظيماتها ومراتبها ، بل ظن أن الرسول سيكون مؤيدا لهذه المملكة في يثرب ، وأمل بأن تقوم مملكة يثرب بحمايته وأتباعه الضعفاء الفارين من قريش ، وسيكون الرسول ـ على حد ظن ابن أبي ـ أحد دعائم مملكته وقوتها ووجودها ، أما أن يكون الأمر غير ذلك ، فإن ابن أبي لم يقبل عقله ولا فكره أن يكون الإسلام منافسه الأقوى ، والذي أراده أن يكون جنديًا كبقية جنود الدعوة ، وعندما يرى سعد بن عبادة وسعد بن معاذ سيدا قومهما وسيدا يثرب مثله تمامًا قد أصبحا حارسين أمينين على محمد ـ مجرد حارسين يحرسانه إذا دخل، ويقومان على بابه إذا خرج، وينفذان أوامره بحذافيرها ، وينطلقان كالسهام إلى أي هدف يشير إليهما به، بل يأخذان بزمام فرسه، ولا يرسلاها إلا بأمره .

عندما وجد ابن أبي حال زعيمي يثرب بهذا الشكل وهو الملك المنتظر لم يتحمل عقله هذا ، ولم يستطع أن يتصور أن الإسلام غير ما يعرفه أو يريد أن يكونه، أما أن يكون دين الله في الأرض عقيدة وسلوكًا ، وحكمًا واقتصادا ودولة وسياسة والدنيا كلها مطوية تحت ظله .. فهذا عرفه الأنصار وجهله المنافقون .

كل هذه الاعتبارات كونت هذه المجموعة، وبدأت بوادر تشكلها في غزوة بني

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ٣٤٩

قينقاع؛ وذلك أن الرسول ﷺ لم يشرك أحداً من الأنصار في السرايا قبل بدر، وبدر لم تكن حدًا فاصلًا بين المشاركين والمتخاذلين والمتخلفين والنفعيين، وإنما أعطى الرأي بأوضاع الناس سعد بن معاذ بقوله في بدر يا رسول الله لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًا عليها ألا ينصروك إلا في ديارها، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت، وصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت به من أمر فأمرنا تبع لأمرك ... إلخ الحديث [(١)]

ودخل الناس معركة بدر، ونصرهم الله، وعادوا مرفوعى الرأس، وقد حققوا أول نصر على قوة كبيرة في الجزيرة العربية، وهي قوة قريش التي أخضعت لها الكثير من القبائل، وكان يتهافت الناس عليها طلباً للحلف ومنهم قبيلة الأوس نفسها .

عاد المسلمون إلى المدينة، وقد تمكنوا من عدوهم، وهزموه شر هزيمة، فكانت ردود الفعل متباينة بعد هذه الغزوة، ليس في المدينة أو مكة وحدهما، بل في جميع أنحاء الجزيرة، وخاصة في نفوس أولئك الذين كونوا جماعة المنافقين .

---

(١) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ١٧٣

(٣) علاقة المنافقين بالمسلمين

لم نقف بعد على أعمال المنافقين المخزية التي عملوها في عهد الرسول ﷺ ، ولم نتحدث تفصيلًا عن تآمرهم وخذلانهم وصدهم وعداوتهم، ولكن مع هذا، فإننا يمكن أن نستبق الأحداث قليلاً، لنذكر بعضاً من هذه العلاقة؛ لأنها ستوضح لنا مواقفهم في المعارك والحروب التي شاركوا فيها مع المسلمين، وإيضاح الصورة ضروري لتبيان هذه الأمور .

الإسلام يؤمن بالتعددية الدينية ، فهو ليس مبدأ قهر وإجبار : قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة] .

وهذا الإيمان حل في مجال التطبيق، فقبل في محيطه أهل الكتاب من اليهود ومن النصارى وحتى الصابئة ـ على الرغم من أن الله تعالى ـ قد أظهر ضلالهم وانحرافهم وتحريفهم الكلم عن مواضعه، وصرح في بعض الآيات عن كفرهم البواح وخطل معتقداتهم التي توصلوا إليها، ومع هذا فإن الإسلام قبل هؤلاء بمحيطه، لهم دينهم وللمسلمين دينهم ـ حتى وللكافرين معبوداتهم ـ وللمسلمين إلههم الواحد القهار : ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون] .

هذا المبدأ وهذا التوجه من الإسلام ، قد قبل من أراد الله ـ تعالى ـ أن يقبله في دائرته غير ضار به أو متآمر عليه، والدين الذي قبل اليهود والنصارى والصابئة أولى به قبول ضعاف الإيمان من أتباعه . والسعي بهم لأن يؤهلوا إلى المراتب الأعلى في الإيمان والإسلام .

المنافقون ـ كما سبق القول ـ أصحاب المصالح الدنيوية ، الذين وجدوا أن الإسلام قد سلبهم أمرا أو منفعة، أو أن قلوبهم لم تقبل فطرة الله تعالى، واستمرت تحوم حول محتوياتهم السابقة من العصبية القبلية، والتمسك بالعادات والتقاليد، وامتلاء نفوسهم بالثأر، والمحافظة على نظام الجاهلية، والإغراءات الدنيوية خاصة وأن تعاليم الإسلام المضادة لكل هذه الأفكار قد بدأت تأخذ أوضاعها النهائية من عبادات ومعاملات، وبعد عن المحرمات، وترك الشهوات والسعى للاستشهاد في سبيل الله، بدأت هذه التعاليم تستكمل بالتنزيل المدنى من القرآن الكريم . هذه الأمور لم ترق للمنافقين، فوجدوا في جماعة ابن أبي ملاذًا لهم، ومكانًا يستطيعون أن يتحركوا من خلاله .

الأنصار والمنافقون أبناء قبيلة واحدة، إخوة، أبناء، أبناء عمومة، أعمام، أخوال ... إلخ ما هنالك، ومن أجمل المفارقات أن ابني رأسي النفاق ـ عبد الله بن أبي وأبي عامر الراهب ـ كانا من أخلص وأصدق المسلمين إسلامًا ووفاء . فعبد الله بن عبد الله بن أبي وكان اسمه (الحباب)، سماه النبي ﷺ عبد الله شهد معركتي بدر وأحد والمشاهد كلها مع رسول الله، وهو الذي استأذن الرسول بقتل أبيه فقال الرسول :« بل أحسن إليه»[1]

وحنظلة بن أبي عامر بن عمرو بن صيفي بن مالك بن أمية بن مالك بن الأوس، وهو حنظلة الغسيل . خرج والرسول ﷺ يسوي الصفوف في أحد . فلما انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب ، فوقع على الأرض وصاح، وحنظلة يريد ذبحه، فأدركه شداد بن الأوس ويقال له ابن شعوب فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه، ومشى حنظلة إليه في الرمح وقد أثبته، ثم ضربه الثانية فقتله ونجا أبو سفيان .

فقال رسول الله ﷺ: « إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء

(١) الإصابة : العسقلاني ٢/ ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، رقم ٤٧٨٤

والأرض بماء المزن في صحاف الفضة» قال أبو أسيد الساعدي : فذهبنا إليه فإذا رأسه يقطر ماءً، فلما أخبر النبي بذلك أرسل إلى امرأته فسألها، فأخبرته أنه خرج وهو جنب[1]، وذكر ابن هشام[2] قصة حاطب بن أمية بن رافع، وكان شيخًا جسيمًا قد عمى (أسن وولى) في جاهلية، وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب .. أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراح فحمل إلى دار بني ظفر

قال ابن إسحاق فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، أنه جمع إليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو بالموت فجعلوا يقولون : أبشر يابن حاطب بالجنة، قال فنجم نفاق الأب ـ حينئذ ـ فجعل يقول أجل جنة والله من حرمل ، غررتم والله المسكين من نفسه ـ انتهي .

فالعلاقة إذا بين المسلمين من الأنصار خاصة والمنافقين علاقة دم ورحم ونسب، فهم من الأوس والخزرج معًا ومن حلفائهم من العرب، وكان الأمر بينهم على حدود الجاهلية وتحالفاتها، كل قبيلة مع حلفائها إلى أن جاء يوم بعاث، فاتفق أبو عامر الراهب وعبد الله بن أبي ـ وهما سيدا الحيين آنذاك ـ على موضوع ملكية عبد الله بن أبي .

وفي الإسلام دخل عبد الله بن أبي (منافقًا) ورفضه أبو عامر الراهب .

العلاقة ذات وشائج قوية بين الأنصار والمنافقين، وهي ليست مقطوعة تماماً كما حصل في مكة بين المشركين والمسلمين، فالقرشيون رفضوا الإسلام، وعدوا على من تحت أيديهم يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، والمنافقون دخلوا في الدين وأخذوا يخربون في الإسلام من الداخل .

ويمكن تلخيص العلاقة بعدة مراحل على حسب ظهور النفاق وارتفاع شأنه :

١ـ في المرحلة الأولى من الدعوة وحتى نهاية غزوة بدر، لم يكن في الأمر ما يظهر

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزى ١/ ١٤٩، ١٥٠

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ١٧١

الريبة أو الخوف، فالعلاقة واحدة قائمة في بيت واحد، وحي واحد، وعشيرة واحدة، ولم يفرق الإسلام بين المنافق وزوجته كما فرق بين المشرك وزوجته إلا عندما حرم الثلاثة الذين خلفوا في تبوك من لقاء زوجاتهم، حتى نزل قبول توبتهم من السماء ـ لم يبدأ المنافقون بإظهار العداوة والبغضاء للمسلمين، بل بالعكس كانوا يظهرون الإيمان والطاعة، ولذلك فإن فكرة الإسلام التي يعتنقها المسلمون هي الإقرار بوجود تعددية دينية، فكيف بأناسٍ أظهروا إيمانهم وجهروا به، وموضوع إخفائهم لمعتقداتهم، ومطامعهم، وآرائهم أمر متروك لله تعالى . وقد فضحهم الله تعالى ـ كما سيرد لاحقا ـ وأظهر خبايا نفوسهم .

٢ـ بعد غزوة بدر استشرى النفاق، وظهر الحسد وبان في وجوه الناس، فقد أخذ أبو عامر الراهب خمسين من الأوس من أتباعه وذهب إلى قريش يواسيها، ويحالفها، ويعدها بالنصر والمؤازرة إن هي همت بالثأر من محمدٍ، وعبد الله بن أبي بدأ يتحسس مواقع قدميه، ويجدد الأحلاف مع اليهود، ويقوى صلته معهم بعد أن تأكد من أن اليهود قد صدوا عن دين الإسلام، وهم الذين أشبعوا العرب تهديدًا ووعيدًا عن موعد ظهور النبي الذي سيؤمنون به ويقتلونهم به قتل عاد وإرم .

عاد عبد الله إلى تأكيد حلفه، وتقوية مركزه وجمع جموعه . هذه الفترة كانت من فترات التحول الكبير في العلاقة بين الأنصار والمنافقين وهم من حي واحد .

٣ ـ المرحلة الثالثة : بدأت عندما جهر المنافقون بالعداوة، وخذلوا المسلمين في مواقع كثيرة واستشرى النفاق، وظهر المنافقون على حقيقتهم ، وأظهر الله ـ تعالى ـ في العديد من آيات القرآن الكريم خباياهم ومقاصدهم، وما هو مصيرهم المرتقب. وأضحت العلاقة علاقة حذر وخوف، ولكن أوامر الرسول ﷺ كانت ـ دائما ـ تذكر المؤمنين بهم، وكان ـ القدوة في حسن التعامل معهم أمام جميع المسلمين، حتى يضبطوا أنفسهم ويتربوا على الإسلام وسعة الأفق وحسن الخلق .

٤ ـ بدأ المنافقون في هذه المرحلة بالتحالف مع القوى الأخرى، وأصبح خطرهم

جسيمًا على الدولة الإسلامية والمسلمين، وقد همَّ العديد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بقتل المنافقين لما فعلوه من إضرار بمصلحة الجماعة المسلمة، وخلق الفتن وترويج الشائعات بين جماعة المسلمين، فخشى البعض أن يقدم البعض على قتلهم، فأرادوا أن يخففوا من غلواء انحرافاتهم .. سمع زيد بن أرقم مقالة عبد الله بن أبي في النيل من المسلمين وإيقاع الفتنة، وشاع كلام ابن أبي بين الناس فأخبر رسول الله، فقال له بعض الأنصار : انطلق إلى رسول الله واعتذر له حتى يستغفر لك فأبي، فلم يزالوا به حتى رضى وذهب معهم إلى النبي ﷺ واعتذر، وحلف أنه ما قال ذلك. فقبل النبي ﷺ عذره ـ تأليفًا له ـ كما كانت عادته ﷺ مع المنافقين ، ثم أنزل الله تعالى تكذيبًا لابن أبي وتصديقا لزيد بن أرقم : ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]

فقال النبي لزيد بن أرقم ﷺ :« ياذا الأذن الواعية، إن الله صدَّق مقالتك وتلا الآيات عليه»، فقال عمر بن الخطاب ﷺ : يا رسول الله دعنى أضرب عنق ابن أبي فإنه رأس المنافقين، فقال النبي ﷺ :« لا يتحدث أحد أن محمداً يقتل أصحابه» ، وأنزل الله تعالى في حق عمر ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية:] [1]

وبعدها طلب عبد الله بن عبد الله بن أبي أن يأمره الرسول بقتل أبيه، ويأتى برأسه إلى الرسول، لأنه يخاف أن يقتله غيره فلا يستطيع عبد الله أن يرى قاتل أبيه فيقتله، فيكون بذلك قد قتل مؤمناً بمنافق .

استمرت العلاقة هكذا مع المنافقين إلى أن مات رأس النفاق – عبد الله بن أبي– وانفضت جماعته، وذهب المنافقون كل مذهب، منهم من آمن، ومنهم من كفر،

(١) السيرة النبوية : دحلان ٢/ ١١٠، ١١١

وانتهت هذه الظاهرة ـ كما سيأتي كتجمع ـ لكنها لم تنته بشكل فردي ، فقد وجد ضعاف القلوب والنفوس في النفاق ستاراً يحميهم من قوة الإسلام وانتصاراته وما زال النفاق آفة متأصلة في قلوب الناس اللاهثين وراء مغانم أو مكاسب أو دنيا لهم بها أهداف .

(٤) تحالفات المنافقين داخل المدينة وخارجها

سبق القول بأن المنافقين من الأوس والخزرج ـ وعلى الرغم من كل الحروب التي سبقت بين هذين الحيين لظهور الإسلام ـ فإن فترات من السلم كانت تسود بينهم، وكثيرًا ما كانوا يستغلون هذه الفترات لتقوية أحلافهم خاصة مع اليهود .

ففي يوم بعاث حالفت الأوس بني النضير وقريظة، وحالفت الخزرج بني قينقاع ، وبعد انتهاء يوم بعاث وسيادة فترة من السلم بين الحيين، فقد بدا أن عبد الله ابن أبي سيد الخزرج وأبا عامر الراهب سيد الأوس، قد ظهر بينهما توجهات إلى إقامة حلف من الأوس والخزرج ضد اليهود، وبصورة عامة لم يقم هذا الحلف على أرض الواقع ، لكن ظهر من المنادي الذي قال للأوس:إن مجاورة إخوانكم خير من مجاورة الثعالب (أي اليهود) . وبدا الأمر واضحًا وبشكل كبير، واتخذت إجراءات فعلية قوية لإتمامه، وهي إقامة مملكة يثرب من العرب دون الالتفات إلى اليهود، أو حتى استشارتهم .

وجاء الإسلام ودخل المدينة بعزم وقوة ، وظهر النفاق واستشرى ، فاستمر التحالف قائما بين عبد الله بن أبي وأتباعه وأبي عامر الراهب وأتباعه وأصبحا زعيمين لظاهرة النفاق، تحرك أبو عامر خارج المدينة وبقى عبد الله داخلها كل يعمل في الإطار المرسوم، حيث تلتقى جهودهما بعد ذلك بتقويض أركان الإسلام وإنهاء دوره في يثرب . ولا أدل على ذلك من انسحاب عبد الله مع ثلاثمائة من أتباعه يوم أحد ومشاركة أبي عامر الراهب بالحرب مع قريش مع خمسين من أتباعه .

ومن المعروف أن أبا عامر الراهب قد التحق بقريش بعد غزوة بدر مع هؤلاء الخمسين ، وعقد حلفًا مع قريش على أن يغزو محمدًا ، وأن أنصاره في المدينة ينتظرونه حتى يعود ليلحقوا به، ويقاتلوا محمدًا والمسلمين بعد أن حل بديارهم وعطل مصالحهم الدنيوية، لكنَّ أحدًا لم يلحق بأبي عامر هذا، وكان ابنه من شهداء أحد الأوفياء ـ وكان غسيل الملائكة .

عندما توجه الرسول ﷺ إلى بني قينقاع ليجلوهم عن المدينة ، وبعد أن نقضوا العهد معه وتحذيرهم من قبل ؛ بأن سلوكهم طريق العداوة سيصيبهم ما أصاب قريشًا في بدر ، لكنهم أبوا واستكبروا وتدخل ابن أبي لصالحهم ـ وروى أنه قال : يا محمد أحسن في موالى، فأعرض عنه ، فعاد ابن أبي للقول : أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله ﷺ :« هم لك»[1] ، وقبل الرسول شفاعته فيهم وأمرهم بالجلاء عن المدينة فأجلاهم محمد بن مسلمة الأنصارى، وقد كانوا في الجاهلية حلفاءه .

نرى أن المنافقين لم يتخلوا عن أحلافهم الأولى، واعتبروا الصحيفة التي كتبها الرسول بينه وبين أهل المدينة أمراً لا يعنيهم .

كما أن ابن أبي وقف موقفا مغيظًا للرسول في غزوة بني النضير يذكر الرسول بأن يهود بني النضير من مواليه، فلما حاصر الرسول بنى النضير بعث إليهم رهطًا من بني عوف بن الخزرج؛ منهم عبد الله بن أبي، ووديعة، ومالك، وسويد، وداعس قد بعثوا إليهم أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قوتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل[2]

يتضح من ذلك أن المنافقين قد أرادوا توثيق أحلافهم مع اليهود في الإسلام، في الوقت الذي قطع الأنصار كل صلة لهم في الجاهلية، وحملوا كل عهد في الإسلام .

كان المنافقون يتحسسون أخبار قريش، ويودون أن تأتى إليهم، وفعلا فإنهم قد انسلوا من الحرب في الخندق الواحد تلو الآخر، ونجم النفاق بشكل ملحوظ،

---

(١) وفاء الوفا ١/ ٢٧٨

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٤٥ فما بعدها .

وهذا يقودنا إلى القول بأن المنافقين ما وقفوا يومًا موقفًا ينصرون به الإسلام، بل على العكس فإنهم خذلوا المسلمين في تبوك كما خذلوهم في أحد، وأحدثوا فتنة لها أول وليس لها آخر في غزوة بني المصطلق .

القسم الثاني

اتخاذ الخط الديني

تمهيد :

قلنا إن المنافقين عندما بدأت منافسة الإسلام لهم بالمدينة، حيث إنهم لم يكن لهم في بداية الأمر اعتراضات كثيرة على المسلمين، ولا على الرسول ﷺ ، باعتبار أنهم لم يجدوا في الإسلام في أول دخوله المدينة ذلك الخطر الذي يهدد مصالحهم، أو يقضي على توجهاتهم . ومع أن زعماء المنافقين يرون أن أتباعهم يقلون يومًا عن يوم، ويزداد المسلمون يومًا بعد يوم على حسابهم، حيث إن أتباعهم الذين تخلوا عنهم وضعوا أنفسهم لخدمة الإسلام والتوجه إلى الرسول ﷺ بالطاعة كما أنهم نسوا تمامًا ارتباطاتهم القبلية وعلاقاتهم العشائرية، ونسوا التزاماتهم في الجاهلية، ولم تعد تحرك مشاعرهم قضايا الثأر والارتباط القبلى، حتى إن الزعماء الكبار في يثرب والذين كانوا هم الفيصل في جميع القضايا المصيرية لعشائرهم ومستقبل المدينة، قد تخلوا تماما عن أفكارهم، ورضوا أن يكونوا أفرادًا عاديين في مجتمع الإسلام والمسلمين .

والأهم من هذا والأخطر هو إيجاد روابط جديدة بين المسلمين ، فالأنصار تآخوا مع المهاجرين، وهذا التآخيي أبعدهم عن الارتباط القبلى القائم على صلة الدم والموالاة، فأصبح الرابط الجديد هو الأقوى، فالأخ يرث أخاه ويقتسم معه كل ما يملك، وأصبح هو الأساس في التعامل الاجتماعى بين المسلمين، ونسى القوم أن بينهم وبين القوم تحالفات وعهودًا سابقة، وأضحت الصحيفة التي وقعها الرسول مع سكان يثرب هي القاعدة الثابتة للعلاقات دون غيرها، وقبلها كانت هناك الأحلاف التي كانت تحددها المصالح بالوقت والمكان المناسبين وهذه كلها سقطت من أذهان الأنصار إلى غير رجعة .

بدأ الأمر يتفلت من أيدي المنافقين مع نمو الجماعة الإسلامية وقوتها، وأصبحوا عرضة لمواقف كثيرة محرجة أمام أتباعهم وأمام المسلمين، فقد خرج الولد على أبيه، والأخ على أخيه، والزوجة على زوجها، وتكررت الصورة التي كانت في مكة في شكل أوضح وأقوى في المدينة، وذلك بانشطار المجتمع المكى إلى مسلمين وكافرين، فقد بدأ المجتمع اليثربي ينشطر هذا الانشطار، لكن الصورة في مكة غير التي في المدينة؛ ففي مكة بدأ الإيمان والإسلام بين الضعفاء والعبيد والموالى، وأصر الأقوياء على كفرهم يدعمهم ملأ قريش كله، فكان المجتمع قد انقسم إلى مسلم وكافر يتمسك الكفار بوثنيتهم وجهلهم، ونتيجة لهذا فقد لاقى المستضعفون من الرجال والنساء والولدان في مكة أذى كبيرًا .

في يثرب الأمر يختلف تمامًا، فالمسلمون هم السادة والرؤساء والأغنياء، وأصحاب الرأي والزعامة والمشورة، وقد تأخر الموالى قليلًا في المدينة إلا أن سادتهم ونساءهم وخيارهم كانوا في المقدمة، فلا مجال لأن يجد المسلمون من العنت والتضييق والفتنة ما لا قوه من قريش بمكة، بل على العكس وجدوا الحماية، والنصرة، والتأييد، والتحم المسلمون التحاما عجيبا لم يتحدث التاريخ عن مثله .

من هذا المنطلق فإن الفئتين اللتين تضررتا من هذا الأمر هم اليهود وأتباع الملكية، أو الذين لم يجدوا في الإسلام مصلحة لهم ومن هنا فقد وجدت الفئة الأولى (اليهود) أن إظهار العداوة والبغضاء هو السبيل الأفضل والوحيد مستندين إلى تراثهم الدينى والثقافي، وما بين أيديهم من علم ومعرفة وشريعة حتى لا تسفه آراؤهم ويتركوا دينهم . مع أن أفرادًا منهم قد جهروا بالحق وآمنوا .

أما الفئة الثانية (الوثنيون العرب) فلم يجدوا الإسلام في مراحله الأولى ضررًا عليهم ، فقدموا للدخول فيه ، وأعلنوا إسلامهم ، واتخذوا الخط الدينى طريقًا سهلًا للوصول إلى غاياتهم ، وليس من المصلحة البقاء على وثنيتهم ، خاصة وأنهم وجدوا أن الإسلام لا يهادن الوثنية إطلاقاً مهما كان موقعها أو مصدرها ، فوجدوا

أن الأفضل الدخول فيه وتعلم شعائره .. ومع توالى الأيام وجدوا اصطداما بين مصالحهم ومبادئ الإسلام ، وبأن مساواة الإسلام بين أتباعه أمر يضر قادتها وموجهيها ، ووجدوا أن ما بنوه في السابق من توجهات سياسية أو إصلاحات دينية وثنية ـ مبدأ أبي عامر الراهب ـ قد سقطت من الحسبان ومحيت من الأذهان وعفا عليها الزمان .

فوجد المنافقون أن اتخاذ الخط الدينى طريقًا لتحقيق هذه المطامع ، كان أهون من الوقوف في وجه التيار الإسلامي القوى الذي أخذ يقتلع من الجذور أركان الشرك والطاغوت ، ومن المعلوم أن عملهم داخل الجماعة أفضل من العمل خارجها ، وكذلك من المتعارف عليه أن أية جماعة لا تتحصن من أتباعها بقدر تحصنها من أعدائها ، وهذا باب كبير يمكن أن يدخل منه المنافقون ليحققوا ما يحلمون به ، فلو بقوا على وثنيتهم لكان عداء الإسلام لهم شديدًا،ولحوربوا وجوبهوا بجيوش وقتال، كما حصل مع كل القبائل التي بقيت على وثنيتها وتجمعت أو تفرقت لشن الغارة على المدينة ، فإن السرايا والغزوات لم تهدأ خلال الفترة المدنية ضد هذه القوى ومحركيها والقائمين عليها .

كما أن العمل داخل الجماعة يؤدى إلى معرفة أسرارها ، ومواقع الضعف والقوة فيها ، ويمكن أن توجه الضربات في الوقت المناسب من تثبيط للهمم ، أو انسحاب من المواقع ، أو الخذلان في الوقت المناسب ، وبذلك فقد بدأ المنافقون العمل باتجاهات مختلفة تحقيقاً للوصول إلى غايتهم .

(١) المشاركة في الغزوات

١ـ لم يحاسب الرسول أي متخلف عن بدر ، للأسباب الكثيرة التي ذكرناها ، ولم يعاتب أو يسأل ، لكن الذين حضروا بدرًا ذهبوا بالفضل كله ، وكانت معركة بدر تمحيصاً للإيمان والنفاق ، فالذين آمنوا تكونت لديهم قناعات كاملة بأن الغزو في سبيل الله والجهاد تحت راية رسول الله ، والاستشهاد في الحرب هي الغاية والمنى، وخاصة بعد أن نزلت سورة الأنفال تتحدث عن بدر وأهل بدر وفضل أصحاب بدر ومقام الشهداء ، والترغيب في هذا الباب حتى جعل الناس يتشوقون حسرة لكل موقعة قادمة .

٢ـ جاءت غزوة أحد وحماس شباب الإسلام على أشده ـ خاصة من فاتهم يوم بدر وشرف بدر ـ ولينال هؤلاء الفتيان الشهادة وينزل الله فيهم قرآنا ، ويلتقوا مع شهداء بدر على الحوض ، وتمكنت هذه الفئة أن تُغَلِّب الرأي وتصر على الخروج للقاء العدو خارج المدينة ، وكان من رأي الرسول ﷺ ورأي عبد الله بن أبي ـ رأس النفاق وملك يثرب غير المتوج ـ التحصن بالمدينة ولا ندرى بالطبع ما كان سيفعله ابن أبي لو انتصر الرأي الثاني وتحصن الناس بالمدينة ـ هل سيقاتل قريشًا فعلًا ويذود عن بلده التي تصدت لوجود الرسول والمسلمين فيها ، وتحت ظل الإسلام وقيادة الرسول،أم أنه سيعطى الأعداء غرة أو ثغرة يمكن أن يصلوا بها إلى الرسول ويقضوا عليه ـ نحن لا يمكن لنا أن نتأول أو نستنتج ، لكن الغزوة الوحيدة التي شارك فيها المنافقون وهي غزوة بني المصطلق قد جلبت بلاءً على المسلمين وأي بلاء .

على كل حال كانت غزوة أحد تمحيصًا واختبارًا قاسيًا لمن نافق ولمن نصر ، وكانت هي بالفعل الحد الفاصل بين الجماعتين وبها ظهرت الخبايا والأفكار والآراء المستورة ، وبها نزلت أكثر آيات النفاق في عبد الله بن أبي وأتباعه في سورة براءة .

ومن هذه الغزوة يمكن أن نستخلص المواقف التالية للمنافقين :

١ ـ موقف أبي عامر الراهب :

وقد حدث قبيل هجرة الرسول ﷺ (الهجرة إلى المدينة المنورة) ، تجديد في الديانة الوثنية أدخله أبو عامر الراهب الذي لم يقنع بزعامة (أوس الله) في القتال ، والراجح أن هذا التجديد قد نشأ بتأثير التوحيد اليهودى خلال سنين كثيرة .

وقد قوى شأنه في الأوس وفي بني عمرو بن عوف ، ولكنه لم يستطع الثبات أمام قوة الإسلام .وشهدت(أوس الله) أبا عامر حانقًا ثابتًا في معاداته لمحمد ﷺ حتى إنه ذهب إلى مكة الوثنية مع خمسين من قبيلته ـ وقيل : في خمسة عشر فقط ـ وظل أتباعه المخلصون في المدينة على اتصال به سرًا في المسائل الدينية ، ولكنهم لم يجرؤوا على اللحاق به كما كان يرجو ذلك وكان أبو عامر عند ذلك يحارب في صفوف أهل مكة (الظافرين) ، ويظهر أنهم رضوا بقبول الإسلام مصطبغاً بتعاليم أبي عامر ولكن النبي محمدًا أبي عليهم أن يعتزلوا ويتعبدوا في مسجد خاص بهم (مسجد ضرار) ، ولا نستطيع أن نثبت أن أبا عامر ومن اتبع رأيه كانوا من النصارى[(١)]

وكان أبو عامر الراهب يعد قريشًا أنه لو لقى محمدًا لن يتخلف عنه من الأوس رجلان ، فلما التقى الناس بأحد كان أبو عامر أول من لقى الأحابيش وعبدان أهل مكة فنادى يا معشر الأوس أنا أبو عامر ؟ فقالوا فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق فقال لقد أصاب قومى بعدى شر ، ثم قاتلهم قتالا شديدًا حتى راضخهم بالحجارة[(٢)] . وكان ابنه حنظلة مع المسلمين وهو غسيل الملائكة ـ رضي الله عنه ـ.

٢ ـ موقف عبد الله بن أبي :

كان من رأي ابن أبي القتال داخل المدينة ، ولما نزل رسول الله ﷺ على رأي المتحمسين للقتال خارجها،وقال كلمته:«لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يخلعها..»،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥ / ٢٢٥ ، طبعة دار الشعب، وبين – معترضتين– من الكامل : ابن الأثير ٢ / ١٠٤

(٢) الكامل : ابن الأثير ٢ / ١٠٤

استجاب الجميع لاختيار رسول الله سواء أكان قانعا أو مستكرها، وخرج المسلمون وعددهم ألف مقاتل إلى خارج المدينة ، ولما كانوا بين المدينة وأحد، انخذل ورجع عبد الله بن أبي ابن سلول في ثلاثمائة ، وقال : تخالفني وتسمع من غيري ..؟ فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم ويذكرهم الله ألا يخذلوا نبيهم. فقالوا لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم وانصرفوا فقال :« أبعدهم الله أعداء الله فسيغنينى الله عنكم»[1]

وأنزل الله ـ تعالى قوله : ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران] .

وهذه الرجعة هي تكرار فعل فعله ابن أبي في يوم بعاث،يوم ترك القوم يقتتلون، وتسقط الزعامات والقيادات فيبقى هو في الساحة، لقد أصاب هدفا في بعاث طال شرحه ، والعمل المعاد اليوم هو خطوة أخرى في سبيل إخراج الرسول وصحبه من دربه ، ويعلم ابن أبي أن ثلاثة آلاف حاقد من قريش سيبيدون المسلمين ويفنونهم عن آخرهم ـ على الرغم من أن أكثر جند أحد من الأنصار أيضًا ومن قومه ، ولكن الفئة البارزة من الأوس وزعاماتها سعد بن معاذ وأخيه عمرو وأسيد بن حضير، قد دخلوا المعركة جادين مؤمنين ، ومنهم في الجانب المقابل أبو عامر الراهب وأتباعه.

لكن فأل ابن أبي خاب تماماً فما فاز به في بعاث قد خسره كله في أحد ، وسقط من أعين الناس سقوطًا ذريعًا ... وقد انتظر أن تعود إليه الزعامة فعلًا ، فأثناء المعركة لما اشتد القتال وسقط الشهداء وأشيع أن محمدًا قد قتل ـ قال بعض أصحاب الصخرة : ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان ، يا قوم إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم[2]

وهذا يؤكد المقولة السابقة بأن ابن أبي انخذل بأتباعه لتأكده من انتصار قريش،

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢ / ١٠٥ ، وزاد المعاد : ابن القيم ٣ / ١٩٤

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٣ / ٤٤ .

ومن أن القوم الفارين سيأتون إليه بطلب الأمان من أبي سفيان ؛ ويقبل أبو سفيان وساطته لعدم تورطه بالقتال ، ويصبح هو صاحب الرأي والشأن في المدينة بعد مقتل الرسول وأصحابه .

وعند انخذال ابن أبي ، سأل بعض الأنصار رسول الله الاستعانة بحلفائهم من يهود فأبي ذلك .

٣ـ موقف مربع بن قيظي :

أرسل رسول الله رجلا يتجسس أخبار القوم،حيث قال:«من رجل يخرج بنا على القوم من كثب ـ أي من قريب ـ من طريق لا يمر بنا عليهم .. ؟ » فقال أبو خيثمة ـ أخو بني حارثة بن الحارث : أنا يا رسول الله .. فنفذ به في حرة بني حارثة وأموالهم حتى سلك به في مال لمربع بن قيظي ، وكان رجلًا منافقًا ضرير البصر ، فلما سمع حس الرسول ومن معه من المسلمين قام يحثو في وجوههم التراب ويقول: إن كنت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي .

قال ابن إسحاق : وقد ذكر لى أنه أخذ حفنة من التراب في يده ثم قال : والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال رسول الله ﷺ :«لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب ، أعمى البصر ..» وقد بدر إلى سعيد بن زيد ـ أخى بني عبد الأشهل ـ قبل نهي الرسول فضربه بالقوس فشجه[١] ، كان هذا قبل أن تبدأ المعركة .

ومن فضل الله ـ تعالى ـ على المسلمين أن انخذل المنافقون عنهم ، وإلا لكان المصاب بالمسلمين أكثر والعلم عند الله .

٤ـ وفرح المنافقون بما أصاب المسلمين ـ مع أن أكثر الشهداء من الأنصار ـ لقد حضر بعض المنافقين غزوة أحد .. قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم ابن عمر ابن

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٣/ ٢٨

قتادة قال : كان فينا رجل لا يدري من هو ، يقال له :« قزمان» فكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر : « إنه لمن أهل النار ..» .

فلما كان يوم أحد قاتل قتالًا شديدًا فقتل هو وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة ، فحمل إلى دار بني ظفر ، قال فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر .. قال : بماذا أبشر ؟ فو الله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت ، قال فلما اشتدت عليه جراحاته أخذ سهما من كنانته فقتل نفسه .. قاله ابن إسحاق .

٥ ـ ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، كان عبد الله بن أبي ـ كما حدثني الزهري ـ له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر له شرف في نفسه وفي قومه ـ وكان فيهم شريفًا ـ إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة يخطب الناس ، قام عبد الله بن أبي فقال : يا أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله به، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا .. ثم يجلس .

حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ، ورجع مع الناس ، قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا اجلس عدو الله ، والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت .. ؟ فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجرا (الشر والأمر العظيم) إن قمت أشدد أمره ؟ فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك .. ما لك ..؟ قال : قمت أشدد أمره ، فوثب الرجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني .. لكأنما قلت بجرا ؟ إن قمت أسدد أمره ؟ قالوا ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ ، قال والله ما أبغي أن يستغفر لي .. (١)

وتدل هذه الحادثة على أن عبد الله بن أبي الذي لم ينل ما أراد من إهلاك طرفي القتال ؛ لينفرد بالسيادة والملك ، عاد وبكل ما أوتى من صفاقة إلى مجلسه القديم ؛

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ، ٣/ ١٠٢، ١٠٣

لينافق الرسول ﷺ إلا أن المسلمين قد كشفوه ، وأظهروا ما به ولم يعودوا يصدقونه بعد فعلته الكبرى التي فعل .

ومع كل هذا فقد أخذته العزة بالإثم فرفض أن يطلب من الرسول الاستغفار له .

٢ـ غزوة الأحزاب (الخندق):

أنزل الله ـ تعالى ـ في غزوة الأحزاب صدر هذه السورة يصور بها حال الناس التي وصلوا إليها من الخوف والفزع وفقدان الأمل ، وقد بين الله ـ تعالى ـ حال الناس جميعًا ، ثم خص حال المنافقين ، ثم حال المؤمنين بآيات بينات خالدات في كتاب الله تعالى .

١ـ بينَّ الله ـ تعالى ـ نعمته على المؤمنين أولا فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

٢ـ ثم بين حالة عامة الناس فقال : ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

٣ ـ وقال ـ تعالى ـ عن حال المنافقين : ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحزاب].

٤ـ وعن حال المؤمنين يقول الله ـ تعالى : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا

ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾[الأحزاب] .

إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص، وأعيان الذوات ؛ ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع ويغفل تفصيلات الحوادث، وجزئيات الواقع ليصور القيم الثابتة، والسنن الباقية التي لا تنتهي بانتهاء الحادث ، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص، ولا تنقضي بانقضاء الملابسات، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلاً لكل جيل ولكل قبيل، ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير (١)

ولقد افتتح الله آيات سورة الأحزاب التي نزلت بمناسبة الغزوة بما فعل الله ـ تعالى ـ بالمشركين . وعن حالة الخوف ، قالت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ : شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف؛المريسيع وخيبر، وكنا بالحديبية، وفي الفتح، وحنين، لم يكن ذلك أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق ، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة،وأن قريظة لا تأمنها على الذرارى، فالمدينة تحرس حتى الصباح، نسمع فيها تكبير المسلمين حتى يصبحوا خوفًا حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرًا (٢)

والمهم في هذا الموقف ما فعله المنافقون في هذه الواقعة ذلك كله إلى ما كان من كيد المنافقين والمرجفين في المدينة وبين الصفوف:﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ [الأحزاب: ١٢] فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون أن يلومهم أحد .

وفرصة للتهوين والتخذيل، وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ٥ / ٢٨٣٥

(٢) في ظلال القرآن : سيد قطب ٥ / ٢٨٣٤

والتشكيك ، وهم في هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم ، فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل ، وروع نفوسهم ترويعاً لا يثبت له إيمانهم المهلهل : فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين.

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة ، وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء . فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٣] فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودة إلى بيوتهم ، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين فهذا لا موضع له ولا محل ، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم ، وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها ـ ثغرة الخوف على النساء والذراري ـ والخطر محدق والهول جامح والظنون لا تثبت ولا تستقر .

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ [الأحزاب: ١٣] .

يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو ومتروكة بلا حماية ؛ وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة ويجردهم من العذر والحجة : ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣] ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب] .

وقد روى أن بني حارثة بعثت بأوس بن قيظي إلى رسول الله ﷺ يقولون : إن بيوتنا عورة ، وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا فأذن لهم ﷺ فبلغ ذلك سعد بن معاذ فقال : يا رسول الله لا تأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا . فردهم .

فهكذا كان أولئك الذين يجيبهم القرآن بأنهم ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب][١]

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ٥ / ٥٨٣٨ .

ويستمر المؤلف في تصوير حال المنافقين بصور أدبية رائعة تعطي أشكالهم ومواقفهم بكل ما يستحقون من ازدراء، وبتصوير دقيق، ومن الأسماء التي برزت في الخندق ونجم منها نفاق، معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف قال: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ... إلخ الحديث.

٣- غزوة بني المصطلق: أو غزوة المريسيع:

هذه هي الغزوة الوحيدة التي شارك فيها المنافقون بقياداتهم وجمعهم مع المسلمين، كانوا في كل غزوة يترصدون الأسباب والحجج حتى يتخلصوا أو يتخلفوا، أو ينخذلوا، وإذا وجدوا بعضًا من هذه الأسباب،لا يكتفون بالانكفاء على وجوههم، لكنهم - أيضًا - يقومون بتخذيل المسلمين، وإضعاف شأنهم وتثبيط هممهم، لكن هذه الغزوة شارك فيها هؤلاء مشاركة فعالة، لم يحصل بها قتال كما حصل في غزوات الرسول الأخرى - كبدر وأحد والخندق، لكنها كانت من الغزوات الكبيرة التي قادها الرسول ﷺ بنفسه، وتعتبر هذه الغزوة من أوسع الغزوات التي وجد فيها المنافقون مرتعا خصبا لبث أفكارهم بين المقاتلين، وترويج الشائعات، وخلق الأكاذيب، ولن ندخل في جدل عن زمانها، إذ إن هناك اختلافًا في توقيتها فمنهم من يجعلها قبل الخندق، ويقحم اسم سعد بن معاذ ﷺ فيها، ومنهم من يجعلها بعد الخندق وقريظة، وسعد ﷺ استشهد في قريظة بعد إصابته في غزوة الخندق، فتكون بذلك في السنة السادسة للهجرة وهو الراجح في عرف المحدثين والإخباريين وإقحام اسم سعد بن معاذ فيها من الأخطاء التاريخية التي قد تتكرر.

قال البخاري وهي غزوة المريسيع، وقال ابن إسحاق وذلك في سنة ست (للهجرة)

قال ابن إسحاق بعد أن أورد أخبار (ذي قرد) قال فأقام رسول الله ﷺ في المدينة بعض جمادى الآخرة ورجب، ثم غزا بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ٦ هـ في سبعمائة من أصحابه.

بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له الجموع بقيادة الحارث بن أبي ضرار (أبو جويرية بنت الحارث) التي تزوجها رسول الله ﷺ، وبسبب زواجه منها أطلق المسلمون أسراهم وسباياهم – إكرامًا لها – فكانت جويرية عظيمة البركة على قومها ، ويقال إن رسول الله ﷺ جعل صداقها عتق كل أسير من بني المصطلق.

فلما سمع بهم رسول الله ، خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يسمى (المريسيع) من ناحية على الساحل ، فتزاحم الناس واقتتلوا ، فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل منهم ، ونفل رسول الله أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه ، وقتل من المشركين عشرة وأسر سائرهم ، واستشهد من المسلمين واحد فقط ؛ وهو هشام بن صبابة أصابه رجل من الأنصار وهو يرى أنه من العدو فقتله خطأ .

وذكر ابن إسحاق أن أخاه ـ مقيس بن صبابة ـ قدم من مكة مظهرًا الإسلام ؛ فطلب دية أخية هشام من رسول الله لأنه قتل خطأ ، فأعطاه ديته ، ثم مكث يسيرًا ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ورجع مرتدًا إلى مكة، فأهدر الرسول دمه يوم الفتح [(١)]

هذا مجمل حديث المعركة ، ولكنَّ ما حصل بها كاد أن يعصف بوحدة المسلمين وقوتهم، لولا عناية الله ـ تعالى ـ ويقظة المسلمين وحسن قيادة الرسول ﷺ وسيطرته على كل هذه الأحداث ، وقد وجد المنافقون فرصة سانحة لنفث كل ما في نفوسهم من أحقاد .

١ـ بسبب تزاحم دلوين في بئر ماء لكل من سنان بن وبر الجهني ـ حليف الأنصار ـ وجهجاه بن مسعود خادم عمر بن الخطاب ، فالتبست دلو سنان ودلو جهجاه فتنازعا ، فضرب جهجاه سنانًا فسال الدم فنادى : يا للخزرج وثارت الرجال .

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٣ / ٢٩٧ فما بعدها .

وهرب جهجاه وجعل ينادي في المعسكر: يا لقريش يا لكنانة فأقبلت قريش (المهاجرون) وأقبلت الأوس والخزرج (الأنصار) ومن نافق معهم ، وشهروا السلاح حتى كادت تكون فتنة عظيمة ، فقام رجال في الصلح ، فنزل سنان عن حقه بروح المسلم المؤمن ، وطردًا للشيطان وأهله ، ودفعًا للشر ومثيريه .

وكان عبد الله بن أبي جالسًا في عشرة من المنافقين فغضب وقال : والله ما رأيت كاليوم مذلة،والله إن كنت لكارها لوجهي هذا،ولكن قومي غلبوني .. قد فعلوها .. قد نافرونا (خاصمونا) وكاثرونا في بلدنا ، وأنكروا منتنا ، والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك ؟ والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بها هتف به جهجاه وأنا حاضر لا يكون لذلك مني غير ، والله لئن رجعنا المدينة (إلى المدينة) ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضر من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، ونزلوا منازلكم ، وآسيتموهم في أموالكم حتى استغنوا ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ، ثم لم ترضوا ما فعلتم ، حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا ، فقتلتم دونهم ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا .

وكان زيد بن أرقم ـ وهو غلام لم يبلغ أو قد بلغ ـ فحدث رسول الله ﷺ بذلك وعنده نفر من المهاجرين والأنصار ، فتغير وجهه ثم قال :« يا غلام لعلك غضبت عليه ؟ قال : لا والله لقد سمعت منه ... قال :« لعله أخطأ سمعك» قال : لا يا نبي الله .

قال :« فلعله شبه عليك ...»؟ قال لا والله لقد سمعت منه يا رسول الله ، وشاع في المعسكر ما قال ابن أبي حتى ما كان للناس حديث غيره .

وأنب جماعة من الأنصار زيد بن أرقم .. فقال : وإني لأرجو أن ينزل الله على نبيه حتى تعلموا أني كاذب أم غيري [(١)]

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٢٠٠ ، ٢٠١

- ردود فعل المسلمين على مقالة ابن أبي :

١- قال عمر بن الخطاب يا رسول الله مر عباد بن بشر فليأتك برأسه ، فكره ذلك وقال :«لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه» ، وأقسم ابن أبي أنه ما قال ذلك .. والخبر يزداد انتشارًا .

٢ - أقبل عمر بن الخطاب حتى جاء الرسول ﷺ وهو في فيء شجرة عنده غُلَيِّم أسود يتميز ظهره ، فقال : يا رسول الله كأنك تشتكي ظهرك .. فقال :« تقحمت بي الناقة الليلة» قال عمر يا رسول الله إيذن لي أن أضرب عنق ابن أبي في مقالته .. فقال : « لا يتحدث الناس أن محمدًا قتل أصحابه»

٣ - وأمر الرسول ﷺ بالرحيل في ساعة لم يكن يرحل فيها - في ساعة شديدة الحر - وبعد أن جاءه ابن أبي يحلف أنه ما قال - فكان أول من لقيه سعد بن عبادة أو أسيد ابن حضير . فقال : خرجت يا رسول الله في ساعة ما كنت تروح فيها ، قال : « أو لم يبلغك ما قال صاحبكم ابن أبي ؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» قال فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت ، فهو الأذل وأنت الأعز .. يا رسول الله ارفق به فو الله لقد جاء الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ، ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودي ليتوجوه ، فما يرى إلا سلبته ملكه[1] (وغالب الرأي أن القائل سعد بن عبادة لقرب الأسلوب من مقالاته)

٤- وصدق زيد بن أرقم فقد نزل الوحي بتصديقه ، فأخذ الرسول بأذنه حتى ارتفع من مقعده عن راحلته وهو يقول : « وفق أذنك يا غلام ، وصدَّق الله حديثك ..» ونزل في ابن أبي قوله تعالى : ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، والطبري : تاريخ ٢ / ٦٠٨

مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)﴾ [المنافقون] .

٥ـ وكان عبادة بن الصامت ـ وهو من الأنصار ـ قال لابن أبي : ايت رسول الله يستغفر لك، فلوى رأسه معرضًا. فقال له عبادة: والله لينزلن الله في لَيِّ رأسك قرآنًا يصلي به .

٦ـ ومر عبادة بن الصامت بابن أبي ـ عشية راح رسول الله من المريسيع ـ وقد نزل فيه القرآن فلم يسلم عليه، ثم مر أوس بن خولي الأنصاري فلم يسلم عليه .. فقال : إن هذا الأمر تمالأتما عليه ، فرجعا إليه فأنباه ، وبكتاه بما صنع ، وبما نزل من القرآن تكذيبًا لحديثه فقال : لا أعود أبدًا .

٧ـ وجاء ابنه عبد الله ـ كما سبق ـ فقال : يا رسول الله، إن كنت تريد أن تقتل أبي فيما بلغك عنه فمرني به ، فو الله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالده مني ، وإني لأخشى ـ يا رسول الله ـ أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأدخل النار . وعفوك أفضل ومنك أعظم ، فقال رسول الله:« ما أردت قتله وما أمرت به ، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا» . فقال : يا رسول الله، إن أبي

كانت هذه البحيرة قد اتفقوا عليه ليتوجوه ، فجاء الله بك فوضعه ورفعنا بك ، ومعه قوم يطيفون به يذكرونه أمورا قد غلب الله عليها[(١)]

ويقال : إنه لما وصل ابن أبي إلى المدينة اعترض طريقه ابنه عبد الله شاهرًا سيفه في وجهه ، وقال له : والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ، وصاح : ابني يمنعني بلدي ، وأصر الولد على موقفه حتى جاء قوم رسول الله فأخبروه ، فأرسل إلى عبد الله أن إيذن لأبيك ، فلما جاءه أمر رسول الله قال لأبيه : الآن ادخل وأنت الأذل ورسول الله هو الأعز[(٢)]. وفي رواية أنه لما وصل المسلمون وادي العقيق ، وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي يتصفح الركاب حتى مر أبوه فأناخ به ثم وطئ على يد راحلته ، فقال أبوه : ما تريد يا لكع .. ؟ فقال : والله لا تدخل حتى تقر أنك الذليل ، وأن رسول الله العزيز ، وحتى يأذن لك ، لتعلم أيكما الأعز من الأذل أنت، أم رسول الله ...إلخ الحديث[(٣)]

٨ ـ وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث (من ابن أبي) كان قومه هم الذين يعاتبونه ، ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى : أقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»، قال عمر : قد علمت والله لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري[(٤)]

هذا أمر من الأمور الكثيرة التي استغل المنافقون حدوثها ؛ ليوقعوا الفرقة والبغضاء والتناحر بين المسلمين .

وهبت ريح عاتية على المسلمين في عودتهم ، وخافوا أن يكون عيينة بن حصن قد

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزى ١ / ٢٠٢، ٢٠٣ ، والطبرى : تاريخ ٢ / ٦٠٨

(٢) السيرة النبوية ابن كثير ٣ / ٣٠١ ، والسيرة الحلبية على الحلبي ٢ / ٣٠٦ ، وفاء الوفا السمهودي ١ / ٣١٤

(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٣٠٦

(٤) السيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ٣٠٥

داهم المدينة ، وتنبأ الرسول ﷺ وقال :« ليس عليكم بأس منها فما بالمدينة من نقب إلا عليه ملك يحرسه ، وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها ، ولكنه مات اليوم منافق عظيم النفاق في المدينة فلذلك عصفت الريح» وكان موته للمنافقين غيظاً شديداً وهو (رفاعة بن زيد بن التابوت) أحد بني قينقاع، وكان عظيمًا من عظماء اليهود ، وكهفا للمنافقين ، مات ذلك اليوم وكانت هذه الريح ـ أيضًا ـ بالمدينة حتى دفن عدو الله فسكنت .

وقال عبادة بن الصامت ـ يومئذٍ ـ لابن أبي : أبا حباب مات خليلك .. قال : أي أخلائي ؟ قال: من موته فتح للإسلام وأهله (رفاعة بن زيد بن التابوت) .. قال : يا ويلاه كان والله وكان وكان ، وجعل يذكره فقال له عبادة : اعتصمت والله بالذنب الأثير قال من خبرك يا أبا الوليد بموته ؟ قال رسول الله أخبرنا الساعة .. أنه مات هذه الساعة ، فأسقط في يديه وانصرف كئيبا حزينا ، فلما دخلوا المدينة وجدوا عدو الله مات في تلك الساعة[(١)]

وجاء حادث الإفك الأكبر في حديث الإفك الذي تطاول به المنافقون على مقام رسول الله ﷺ ، وأشاعوا على السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما أشاعوا،وأرجفوا في المدينة ما أرجفوا وأصبحت القضية في ذاكرة الناس جميعًا ، وقد أحدثوا في نفس الرسول والناس المؤمنين عامة أثراً بعيداً . ودون الدخول في تفصيلات هذا الموضوع نظراً لما أشبعه الباحثون من دراسة وتمحيص ، ويكفي القول إن الله ـ تعالى ـ قد دحض افتراءهم وسفه أحلامهم ، وأبطل سحرهم ببراءة أم المؤمنين في تنزيله الكريم ، وهذا يكفي من أي حديث بعده . وقد كان هذا بعض ضلالاتهم ونفاقهم وحقدهم على الإسلام ، ورسول الإسلام ، وأهل رسول الله ﷺ [(٢)]

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزى ١ / ٢٠٤ ، وتاريخ المدينة : ابن شبة ١ / ٣٥٣

(٢) إمتاع الأسماع : المقريزى ١ / ٢٠٤ ، وتاريخ المدينة : ابن شبة ١ / ٣٥٣.

٤ ـ غزوة تبوك

لم تكن مواقف المنافقين في هذه الغزوة بأقل شرًا من مواقفهم الأخرى ، ففي هذه الغزوة وصلوا إلى أوج قوتهم،ويظنون أن انتهاء الرسول ﷺ قضاء على هذه الدعوة، ولذلك فإنهم قاموا بتنفيذ كل ما أغراهم الشيطان به ، وخططوا ليوقعوا الرسول والمسلمين في نهاية مأساوية ليخلو لهم الجو بعد ذلك ، ويكونوا الورثة الطبيعيين لهذه الدعوة ، ليحرفوا مسارها ويشوهوا مبادئها ـ ظنًا منهم أن الإسلام مجرد طفرة سياسية عارضة قامت وستزول بزوال قائدها وراعيها رسول الله ﷺ .

ويمكن أن نلخص مواقف المنافقين في هذه الغزوة بالتالى ، بعد أن أتينا على شرحها في مواقف الأنصار المشرفة ، وإن ذكر الأشياء بأضدادها يبين مدى قيمتها وعظمتها، فأين البكاؤون من المنافقين ؟ وأين المنفقون من المخذلين؟ وأين المؤثرون من المثبطين؟ وأين الذائدون بأرواحهم عن رسول الله ﷺ من الذين حاولوا قتله .. ؟ وكلاهما تلاقى في هذه الغزوة بأحلى صورة .

١ـ جد بن قيس بن صخر بن خنساء[1] يثبط قومه ويقول : لا تنفروا في الحر فأنزل الله تعالى فيه ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة] . وقوله ـ تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة].

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٢٠٤ ، وتاريخ المدينة : ابن شبة ١ / ٣٥٣.

كتب السيرة : إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٢٠٦ فما بعدها ، السيرة النبوية : ابن كثير٣ / ٣٠٤ فما بعدها السيرة النبوية ابن هشام ٣ / ٣١٥ فما بعدها، السيرة النبوية دحلان ٢ / ١٠٤ فما بعدها. السيرة الحلبية : على الحلبي ٢ / ٣١٠ فما بعدها ، زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٢٥٩ فما بعدها.

كتب التاريخ : الطبري: تاريخ ٢ / ٦١٠ ، الكامل : ابن الأثير ٢ / ١٣٢ . البداية والنهاية : ابن كثير ٤ / ١٦٠ ، حدائق الأنوار : الشيباني ٢ / ٥٦٣ . تاريخ المدينة : ابن شبة ١ / ٣١١ عدا ما ورد في كتب الصحاح والتفسير وسواها من أمهات الكتب .

٢ـ وجاء أناس من المنافقين يستأذنون رسول الله من غير علة فأذن لهم ، وهم بضعة وثمانون رجلا ، وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا وهم نفر من بني غفار، فيهم خفاف بن أيماء بن رخصة ، اثنان وثمانون رجلاً

٣ ـ وجاء عبد الله بن أبي ابن سلول بعسكره ـ معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين ـ فضربه على ثنية الوداع فكان يقال : ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكرين[1]

وقيل : إن جيش المسلمين بلغ ثلاثين ألفا، وقيل : أربعين ألفا ، وقيل : اثنى عشر ألفا ، والأول أصح يعني هذا أن ابن أبي تمكن أن يجمع خلقًا كثيرًا من حلفائه اليهود ـ والذين أخرجوا من المدينة ، وبعض الحلفاء الآخرين ، وانضم إليهم المنافقون مما أدى إلى تجهيز جيش كبير لغزو بني الأصفر (أي الروم) وحلفائهم من الغساسنة ولخم وسواهما ، وكان النفاق يحيط بجيشه وحلفائه .

٤ـ خلف الرسول ﷺ على المدينة (سباع بن عرفطة الغفاري) ، وقيل : محمد ابن مسلمة ، وخلف علي بن أبي طالب عنه على أهله ، فأرجف المنافقون وقالوا ما خلفه ـ عن على ـ إلا استثقالًا له ولم يشأ على أن يسمع مثل هذا الكلام ، فأخذ سلاحه ولحق رسول الله ﷺ بالجرف .. وأخبره ما أرجف المنافقون . فقال رسول الله: «كذبوا إنما خلفتك لما ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلى ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ..» فرجع .

٥ ـ وبعد أن تجهز الجيش واستعد للمسير جيش المسلمين وجند ابن أبي ، وكالمعتاد ـ دائـمًا ـ فإن عبد الله بن أبي قد تعود أن يخذل المسلمين في ساعات العسرة ، والساعات الحرجة فمع تجهيز جيشه وكثرة عدد هذا الجيش خاف من الروم ، وخاف من الغساسنة ، وخاف من لخم ورأى أن يلقي محمدًا وصحبه في هذا الأتون المحرق في هذا الجو اللاهب ، في هذا القحط والحر الشديدين ، وينتظر الأخبار التي تأتيه أن جيش محمد قد تحول إلى أسرى لدى الروم ، وهنا يستقل هو بالرأي وقوته

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٤٤٩ - ٤٥٤

لم يمسها شيء ويحقق ما فشل به يوم أحد وحتى في السنوات السبع التي كان بها الرسول في المدينة بعد الهجرة .

فلما سار رسول الله تخلف ابن أبي فيمن تخلف من المنافقين وقال يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ـ إلى ما لا قبل له به ...؟ أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب .. ؟ ونافق بمن معه ممن هو في مثل رأيه . ثم قال : والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدًا مقرنين بالحبال[١]

تمامًا مثلما قال في يوم بعاث والله لكأنى أرى عمرو بن النعمان البياضي ميتًا يحمله أربعة رجال في عباءة . وصدق حدسه ـ آنذاك ـ وقتل عمرو بن النعمان وحمله أربعة رجال في عباءة ، وظن ابن أبي للمرة الثانية بعد أحد أن المسلمين وقادتهم مقرنون في الحبال ، وخاب وخسر فما كان له ما أراد .

٦ـ ولما مضى رسول الله من ثنية الوداع جعل يتخلف عنه قوم فيقولون يا رسول الله تخلف فلان فيقول :« دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه» كما خرج معه ناس من المنافقين كثر ، لم يخرجوا إلا رجاء الغنيمة ، ولأمر آخر قد يكونون متورطين فيه ؛ لأنهم لم يتركوا أمرا إلا وجالوا فيه في الطريق .

كان رهط من المنافقين يسيرون وفيهم (وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف ، والجلاس بن سويد بن الصامت ، ومخشى بن حمير من أشجع ، وثعلبة بن حاطب .

قال ثعلبة تحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم ؟ والله لكأني بكم غدًا مقرنين في الحبال ـ مقالة عبد الله بن أبي ـ فالكل متأكدون بأن محمدًا يسير بأصحابه إلى الأسر

وقال وديعة بن ثابت : ما لي أرى قراءنا[٢] هؤلاء أرغبنا بطونًا ، وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء .

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٤٤٩ - ٤٥٤

(٢) يريد بالقراء أصحاب رسول الله .

فقال الجلاس بن سويد ـ زوج أم عمير ـ هؤلاء ساداتنا وأشرافنا وأهل الفضل منا ، والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير .. ؟

فقال له عمير ـ وكان يتيمًا في حجره ـ فأنت شر من الحمير ، ورسول الله الصادق وأنت الكاذب . وقال مخشى بن حمير : والله لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وألا ننفلت من أن ينزل علينا قرآن بمقالتكم .

وقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر ﷺ :« أدرك القوم ، فإنهم قد اخترقوا فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل بلى ؟ قد قلتم كذا وكذا ..» فذهب إليهم فقال لهم : فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه .

فقال وديعة بن ثابت ورسول الله على ناقته وقد أخذ بحقبيها ـ حزامها يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله تعالى قوله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة] وتاب منهم من تاب وآمن وخشى عاقبة فعلته .

قال مخشي بن حمير يا رسول الله أقعد بي اسمي واسم أبي .. فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مخشي ، فسماه الرسول عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتله شهيدًا لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر

وجاء الجلاس فحلف ما قال من ذلك شيئًا فأنزل الله فيه : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [التوبة] .

وكان للجلاس دية في الجاهلية على بعض قومه ـ وكان محتاجًا ـ فلما قدم رسول الله المدينة أخذها له فاستغنى بها[1]

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٤٥٤

٧ـ ولم يصدق عبد الله بن أبي حدرد ما رأي بعينيه من معجزة الرسول ﷺ عندما مر القوم بمنطقة لا ماء فيها ، فدعا رسول الله ربه فتلبدت السماء بالغيوم ، وما رام مقامه حتى سحت السماء بالرواء ثم كشف السماء من ساعتها والأرض (عذر) فسقى الناس وارتووا عن آخرهم ، فكبر رسول الله وقال :« أشهد أني رسول الله » فقال عبد الله بن أبي حدرد : سحابة مارة [(١)]

٨ ـ وأظهر المنافقون في هذه الغزوة كل ما في نفوسهم وقلوبهم من حقد وغيظ، وقد أوردنا بعضًا من أخبارهم فما زالوا على نفاقهم ، وما زالوا مخالفين أوامر رسول الله ويعارضون رأيه ما استطاعوا .. ولما أن قفل الرسول ﷺ عائدًا من تبوك ـ وفي وادي المشقق ـ بين تبوك ووادى الناقة وكان فيه (وشل) [(٢)]. تخرج منه من أسفله قدر ما يروى الراكبين أو الثلاثة . فقال رسول الله :« من سبقنا إلى ذلك الرمل ، فلا يستقين منه شيئًا حتى نأتي». فسبق إليه أربعة من المنافقين (معتب بن قشير، والحارث بن يزيد الطائى حليف بني عمرو بن عوف ، ووديعة بن ثابت، وزيد بن اللصيق) فقال عليه السلام :«ألم أنهكم ؟». ولعنهم ودعا عليهم ، ثم قام ﷺ فوضع يده في الوشل فمسحه بإصبعه حتى اجتمع منه في كفه ماء قليل ، ثم نضحه به ثم مسحه بيده ، ثم دعا بها شاء أن يدعو فانخرق الماء . قال معاذ بن جبل : والذي نفسى بيده لقد سمعت له من شدة انخراقه مثل الصواعق ، فشرب الناس ما شاؤوا ، وسقوا ما شاؤوا ، ثم قال عليه السلام :«لئن بقيتم ، أو بقى منكم لتسمعن بهذا الوادى وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه». وكانت المعجزة ، ورأي الناس بأم أعينهم .. فازداد المؤمنون إيمانا ، وازداد المنافقون نفاقًا .. فقال سلمة بن سلامة بن وقش لوديعة بن ثابت:ويلك بعد، ما ترى شيئًا؟ أما تعتبر؟فقال: قد كان يفعل مثل هذا قبل هذا[(٣)]

---

(١) إمتاع الأسماع المقريزي١ / ٤٥٦ ، ويعتقد أن غير عبد الله بن أبي قائل ذلك؛ لأنه تخلف عن المدينة.

(٢) الوشل : الجبل أو الصخر يتقطر منه الماء قليلًا قليلًا

(٣) إمتاع الأسماع : المقريزي ١/ ٤٧٤

ولما لم ينل رسول الله ﷺ شر في غزوته تلك، وعاد مظفرًا بعد أن خضعت له كل الحجاز حتى تبوك ، وفتح دومة الجندل، وكتب المعاهدات مع العرب القاطنين على الطريق إلى تبوك ، غاظ المنافقين هذا الأمر أيما إغاظة وقرروا إن لم يكن القرار قد اتخذ قبل ذلك اغتيال رسول الله ﷺ ، ووجدوا أن هذا هو الحل الأسرع لتحقيق رغباتهم التي جاؤوا من أجلها

لم تحك لنا كتب السيرة عن المغزى من مشاركة بعض المنافقين لرسول الله في هذه الغزوة ـ على الرغم من أن ابن أبي قد انخذل مع أتباعه وحلفائه مع عدد يوازى جيش المسلمين ، وظهرت إشارة بسيطة تقول : إنما جاؤوا للغنيمة . وإننى أرى من خلال دراسة كل الأحداث التي رافقت الغزوة أن الفكرة المؤكدة التي امتلأت بها نفوسهم بأن المسلمين لابد منهزمون وسيقودهم الروم أسارى ـ لمن لم يقتل ؛ وهنا سيخلو الجو من أية قيادة في الحجاز كلها ، فأصحاب محمد جميعهم معه ، ولم يبق في المدينة إلا النزر القليل فإنني أرى ـ والله أعلم ـ أن مشاركة هؤلاء كانت لتنفيذ مهمة محدودة ، بأن يقوموا أولا بالتماس الصلة مع الغساسنة أبناء عمومتهم ، وليشيدوا معهم بعض الصلة أو الحلف خاصة وأن أبا عامر الراهب ـ وهم جلة أنصاره ـ يقيم في الشام بعد أن فر من الطائف على إثر فتحها ، والطرف الآخر للمهمة هو أن في المدينة قوة بديلة قائمة على رأسها عبد الله بن أبي وحلفاؤه من اليهود والمنافقين،وهم القادرون على سد الفراغ بعد الانتهاء من محمد وأصحابه على يد الرومان وهو المرجح وإن لم يكن فبالاغتيال .

إن الأسماء التي ترددت مغرقة في النفاق ، فلما عاد الرسول ظافرًا قويًا ، وقد فرض سلطانه على الجزيرة كلها حتى تخوم الشام ، أصبح لابد من الإسراع بالقيام بعملية الاغتيال هذه ، وهذا ما نختم به حديثنا عن هذه الغزوة .

ذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة قال : ورجع رسول الله ﷺ قافلا من تبوك إلى المدينة ، حتى إذا كان ببعض الطريق ، مكر برسول الله ناس من المنافقين ، فتآمروا أن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق ، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها

معه ، فلما غشيهم أخبر خبرهم ، وأخذ رسول الله العقبة ، وأخذ الرسول ببطن الوادى إلا النفر الذين هموا بالمكر برسول الله ﷺ لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا، وقد هموا بأمر عظيم وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وأمر عمارًا أن يأخذ بزمام الناقة ، وأمر حذيفة أن يسوقها ، فبينا هم يسيرون إذ سمعوا وكرة القوم من ورائهم قد غشوه، فغضب رسول الله وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب الرسول،فرجع ومعه محجن واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضربا بالمحجن ، وأبصر القوم وهم ملثمون ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر .

فأرعبهم الله - ﷻ - حين أبصروا حذيفة ، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه ، فأسرعوا حتى خالطوا الناس. وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله، فلما أدركه قال : «اضرب الراحلة يا حذيفة ، وامش أنت وعمار فأسرعوا حتى استووا بأعلاها»، فخرجوا من العقبة ينظرون الناس . فقال النبي ﷺ لحذيفة :« هل عرفت من هؤلاء الركب أحدًا ؟....» .

قال حذيفة : عرفت راحلة فلان وفلان ، وقال : وكانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون . فقال رسول الله :« هل علمتم ما كان شأن الركب وماذا أرادو ؟.. » قالوا : لا والله يا رسول الله .. قال : « فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت في العقبة طرحوني فيها .. » قالوا : أولا تأمرنا بهم يا رسول الله ، إذًا فنضرب أعناقهم .. قال :« أكره أن يتحدث الناس ويقولون إن محمدًا قد وضع يده في أصحابه »، فسماهم لهما وقال :«اكتماهم»[(١)]

فلما أصبح رسول الله قال له أسيد بن حضير : يا رسول الله ما منعك أمس من سلوك الوادي فقد كان أسهل ؟ فقال :« يا أبا يحيى أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما هموا به ..؟» قالوا : نتبعه في العقبة ، فإذا أظلم الليل عليه قطعوا أنساع راحلتى،

---

(١) أخرجه أحمد (٥ / ٤٥٣) ، وروى مسلم ما يشهد على هذه القصة (٢٧٧٩/ ١)، وزاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٥٤٥ فما بعدها .

ونخسوها حتى يطرحوني عن راحلتي فقال أسيد : يا رسول الله فقد اجتمع الناس ونزلوا، فمر كل بطن أن يقتل الذي هَمَّ بهذا،فيكون الرجل الذي يقتله من عشيرته، وإن أحببت فنبئني بهم ، فوالذي بعثك بالحق لا تبرح حتى آتيك برؤوسهم ، وإن كانوا في (النبيت) كفيتكم ، وأمرت سيد الخزرج فكفاك من ناحيته، فإن مثل هؤلاء لا يتركون يا رسول الله ، حتى متى نداهنهم ..؟ وقد صاروا اليوم في القلة والذلة ، وضرب الإسلام بجرانه ، فما نستبقى من هؤلاء؟.

قال :« يا أسيد إني أكره أن يقول الناس : إن محمدًا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه ..» .

فقال: يا رسول الله وهؤلاء ليسوا بأصحاب ، قال :« أو ليس يظهرون الشهادة؟» قال بلى ، ولا شهادة لهم قال :« أوليس يظهرون أني رسول الله؟» قال: بلى .. ولا شهادة لهم .

قال :« فقد نهيت عن قتل أولئك ..»

وكان أهل العقبة ـ الذين أرادوا ما أرادوا ثلاثة عشر رجلا ، قد سماهم رسول الله لحذيفة بن اليمان وقال ابن قتيبة : الذين هموا بالنبي .

١ـ عبد الله بن أبي ابن سلول:والصحيح أنه لم يكن معهم فقد تخلف عن الغزوة، لكن من المؤكد بأنه قد يكون مطلعاً على المؤامرة أو هو المدبر لها .. ؟

٢ـ سعد بن أبي سرح : وهو الذي يكتب لرسول الله مكان غفور رحيم (عزيز حكيم)

٣ ـ وأبو حاضر الأعرابي .

٤ ـ الجلاس بن سويد بن صامت : وهو الذي قال : لا ننتهي حتى نرمي محمدًا من العقبة الليلة ، وإن كان محمد وأصحابه خيراً منا ، إنا إذا لغنم وهو الراعى ، ولا عقل لنا وهو العاقل

٥ ـ مجمع بن جارية .

٦ـ مليح التميمي : وهو الذي سرق طيب الكعبة ، وارتد عن الإسلام ، وانطلق فلا يدرى أين ذهب .

٧ ـ حصين بن نمير[١] : وهو الذي أغار على ثمر الصدقة ، وقال له رسول الله : «ويلك ما حملك على هذا ؟» قال : حملني عليه أني ظننت أنه لا يطلعك الله عليه ، فأما إذا أطلعك الله عليه وعلمته فأنا أشهد اليوم أنك رسول الله ، وإني لم أؤمن بك قط قبل هذه الساعة ، فأقال رسول الله عثرته وعفا عنه .

٨ ـ طعمة بن أبيرق .

٩ ـ مرة بن الربيع : بنيا مسجد الضرار لأبي عامر الفاسق .

١٠ـ أبو عامر الراهب اعترض على وجوده معهم ؛ لأنه فر من الرسول من أول الهجرة ، ولكن المؤكد أنه كان على صلة بهؤلاء القوم ، وربما يكون على رأس المحرضين ، وهو من أكثر المستفيدين من قتل رسول الله ﷺ .

١١ـ عبد الله بن عيينة : وهو الذي قال لأصحابه : اسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله ، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل . فدعاه فقال:«ويحك ما كان ينفعك من قتلي لو أنك قتلتني ؟» فقال عبد الله : فوا الله يا رسول الله لا نزال بخير ما أعطاك الله النصر على عدوك ، إنما نحن بالله وبك . فتركه رسول الله ﷺ[٢]

١٢ـ مرة بن الربيع وهو الذي قال : نقتل الواحد الفرد ، فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين فدعاه رسول الله فقال له :« ويحك ما حملك على أن تقول الذي قلت ؟ »قال : يا رسول الله إن كنت قلت شيئًا من ذلك إنك لعالم به ، وما قلت شيئاً من ذلك[٣]

---

(١) في زاد المعاد (حصن) وليس حصينًا .
(٢) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، عدا التعليق على ابن أبي وأبي عامر الراهب .
(٣) التعليق رقم ٤ ، والتعليق رقم ٧ ، والفقرة ١١ ، ١٢ ، وزاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٥٤٧

فجمعهم رسول الله وهم اثنا عشر رجلا الذين حاربوا الله ورسوله وأرادوا قتله، فأخبرهم بقولهم ومنطقهم ، وسرهم وعلانيتهم ، وأطلع الله ـ سبحانه ـ نبيه على ذلك بعلمه ، ومات الاثنا عشر ـ منافقين محاربين لله ولرسوله ـ وذلك قوله ـ تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ [التوبة] .

وقد فند ابن القيم رواية ابن إسحاق حول القضايا التالية في هذه الحادثة :

١ ـ إن السر بالأسماء بقى عند عمار وحذيفة،ولم يعلمه أحد سواهما،حتى إن عمر كان إذا مات الرجل وشكوا فيه يقول عمر انظروا فإن صلى عليه حذيفة ، وإلا فهو منافق منهم .

٢ـ مشاركة عبد الله بن أبي وأبي عامر الراهب ـ كما سبق التعليق .

٣ ـ مشاركة سعد بن أبي سرح ، وهذا لم يعرف له إسلام البتة ، وإنما ابنه عبد الله كان قد أسلم وهاجر ، ثم ارتد ولحق بمكة حتى استأمن له عثمان عام الفتح ، فأمنه وأسلم فحسن إسلامه ، ولم يظهر منه شيء بعد ذلك ينكر عليه(١)

وانتهت هذه الغزوة بمحاولة خائنة لم يتم لمدبريها ما أرادوا ، كشف الله خباياها وأظهرها رسول الله ، وذهب الله بكيدهم وفضحهم على الملأ وكما ورد فقد عفا عنهم وتركهم .

---

(١) زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ٥٤٨

(٢) بناء مسجد الضرار وآثاره السياسية والدينية (أبو عامر الفاسق)

سبق الحديث عن ردود الفعل لدى بعض الأوس والخزرج على دخول الإسلام إلى المدينة،وبروز قوة المسلمين،وقيام دولتهم،وانخراط الخلص من هاتين القبيلتين في الإسلام،وأخذهم لقب الأنصار.إلا أن العديد من الأوس والخزرج قد تضررت مصالحهم من قيام دولة الإسلام في المدينة، فقاموا يحاربون هذه الدولة من داخلها ، ويجمعون الجموع، ويأتون بالأفاعيل الباطلة التي كان آخرها محاولة اغتيال الرسول ﷺ .

في جانب آخر من الخط الديني الذي سلكه المنافقون غير ما تقدم وحتى يضفوا على أعمالهم الصبغة الشرعية وليبعدوا الشك من نفوس الناس تجاههم، وتجعل مكائدهم تحاك تحت ظل الدولة ، وفي أهم مؤسسة من مؤسساتها وهو المسجد وبتوجيهات من رأسهم أبي عامر الراهب، فقد أقدموا على بناء مسجد واتخاذه مركزًا لهم .

ونقدم ملخصًا سريعًا لما مر من مقتطفات حول هذا الرجل ، فإنه كان زعيمًا في الأوس ، وقد ترهب في الجاهلية ، وأسندت إليه دائرة المعارف الإسلامية حركة إصلاح في الوثنية العربية ، وكان ذا رأي راجح في المسائل الدينية والدنيوية ، فكان مبرزاً مقدماً في قومه ـ الأوس .

التقى هذا الرجل مع ند له وشريك وهو عبد الله بن أبي زعيم الخزرج . وخرجا معا برأي واحد بعد يوم بعاث وهو الاتجاه إلى إقامة مملكة يثرب وتنصيب ابن أبي ملكا عليها ، ويشهد الجميع بأن أبا عامر كان ذا رأي راجح ، وكان القوم يحترمونه لذلك .

كان لأبي عامر علاقة وطيدة باليهود ، وربما اطلع على كثير من آرائهم الدينية

وعلى معتقداتهم ، كما كان على صلة بأهل مكة وسدنة الكعبة على الخصوص ، فهو لم يتهود ولم يتنصر ، وإنما كان يبحث عن دين إبراهيم (الحنيفية) مثله مثل الكثير من الذين اتجهوا هذا الاتجاه قبل البعثة المحمدية لم ترد أخبار كثيرة عن أبي عامر الراهب هذا في الجاهلية غير هذا ولم يشارك قومه الأوس في أي من الأحداث العظام التي صادفتهم قبل الإسلام ، ولكن ورد اسمه في النتائج بعد حرب بعاث ، حيث كان الممثل القوى لجناح الأوس في مفاوضات إنشاء المملكة .

بعد الهجرة إلى المدينة ، وفي بداية هذه الأحداث لم يكن يشعر أبو عامر أو غيره من المنافقين أن شيئًا مهمًا أو خطيرًا قد جاء إليهم ، ولم ينظروا إلى الدعوة الإسلامية أكثر من كونها حركة إصلاح وتهذيب نفسي وديني يحتاج إليها الزعماء ، ويسكتون عنها، لكنها عندما بدأت السرايا وبدأت الغزوات،وضجت جزيرة العرب بالحدث الكبير الذي أفزعها وحركها من سباتها وهي معركة بدر،فقد بدأ المنافقون يتحسسون مواقع أقدامهم ، ويشعرون أن القوة المتنامية إن لم ينخرطوا فيها جنودًا ، فستأخذ بجلابيبهم وبنواصيهم، ولذلك فقد آثروا العداوة الحاقدة على هذا الدين وانخرطوا تحت لوائه .

فر أبو عامر هذا إلى مكة مع خمسين من أتباعه ، وحمسوا قريشًا على الأخذ بثأرها من محمد وأصحابه، وأقنعها بأنه سيشاركها في القتال ، وعندما يراه قومه فإنهم سيخذلون محمدًا ويلحقونه ، فإن له فيهم رأيا وسيادة وتقدمًا وفعلًا فقد شارك أبو عامر بغزوة أحد بكل ما أوتي من قوة وصاح بالناس ينادي قومه ، فما وجد إلا اللعنات تنصب عليه من كل حدب وصوب .فقال لقد أصاب قومي من بعدي سوء ، ولو انفرد به أحد الأوس ـ جنوده كما يدعي ـ لما تركه حيًا

قبل غزوة بدر كان أبو عامر وتجمعات قومه خارج المدينة في بني عمرو بن عوف (أوس الله)، قرر أن يوازي الرسول بأعماله بأن يبني له مسجدًا يبث من خلاله أفكاره ، ويحيك به مؤامراته ، ويجتمع به أتباعه .

فقد انعطف الرسول وهو في طريقه إلى بدر إلى ذاك الموقع بعد أن بلغه خبر أبي عامر هذا ، ولم يكن من أمره وأمر أتباعه ما يثير الحفيظة أو الشك .

لكن أبا عامر قد خرج في خمسين رجلًا إلى مكة وحرض قريشًا وسار معها وهو يعدها أن قومه يؤازرونه واسمه (عبد عمرو بن صيفي الراهب) وكان رأس الأوس في الجاهلية ، وكان مترهباً ، فلما جاء الإسلام انخذل ولم يدخل فيه ، وجاهر رسول الله بالعداوة فدعا عليه ، فخرج إلى مكة[1] . قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآيات[2] : سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج[3] يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في (الخزرج) كبير فلما قدم رسول الله مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فارًا إلى مكة مع مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله ـ ﷻ ، وكانت العاقبة للمتقين .

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ ، وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى ، وشج

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزى ١ / ٦١٥

(٢) ابن كثير : تفسير ٢/ ٤٠٢ ، وفي ظلال القرآن : سيد قطب ٣/ ١٧١٠

(٣) ورود كلمة الخزرج تعنى : الحيين من العرب ، وأبو عامر سيد من سادات الأوس .

رأسه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق، يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر .

وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته هذه الدعوة وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأي أمر الرسول في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ، فوعده ومناه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من (الأنصار) ؟ من أهل الريب والنفاق يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ويغلبه ، ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك .

فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله إلى تبوك ، وجاؤوا فسألوا رسول الله أن يأتي إليهم فيصلى في مسجدهم ، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكر أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال :« أنا على سفر ولكن إذا رجعنا ـ إن شاء الله»

فلما قفل النبي ﷺ راجعًا إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم ، أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمد بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين ... إلخ .

وأقبل رسول الله من تبوك حتى نزل بذي أوان وبينها وبين المدينة ساعة ، وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يتجهز إلى تبوك (فاعتذر لحين مقدمه) ، فلما نزل بذي أوان جاءه خبر المسجد من السماء .

فدعا مالك بن الدخشم أخا بني سلمة بن عوف ومعن بن عدي العجلاني فقال:

« انطلقا إلى أهل هذا المسجد الظالم فاهدماه وحرقاه» ، فخرجا مسرعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم . فقال مالك لمعن أنظرني حتى أخرج لك بنار من أهلي ، ودخل إلى أهله، فأخذ سعفا من النخل ، فأشعل فيه نارًا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، فتفرقوا عنه فأنزل الله فيه : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ [التوبة:١٠٧]إلخ الآية[1] وقد بناه اثنا عشر رجلًا :

١ـ خذام بن خالد من بني عبد بن زيد أحد عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق .

٢ـ ثعلبة بن حاطب من بني عبيد وموالى بني أمية بن زيد وهو بدري .

٣ ـ معتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد وهو بدري .

٤ـ أبو حبيبة بن الأذعر من بني ضبيعة بن زيد .

٥ ـ عباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من عمرو بن عوف .

٦ـ حارثة بن عامر وابناه مجمع بن حارثة ، وزيد بن حارثة (ورد بالإمتاع جارية ـ وهو حمار الدار) .

٧ ـ نبتل بن الحارث وهو من بني ضبيعة (ورد في الإمتاع عبد الله بن نبتل ـ وفي السيرة الوالد وابنه) إلا أن نبتلًا قد تاب وحسن إسلامه .

٨ ـ مخرج وهو من بني ضبيعة (ورد في الإمتاع بخرج) .

٩ـ بجاد بن عمران وهو من بني ضبيعة (ورد في الإمتاع بجاد بن عثمان) .

١٠ـ وديعة بن ثابت من موالي بني أمية رهط أبي لبابة بن المنذر[2]

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا معاوية ابن

---

(١) زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ٥٤٩ .

(٢) ابن كثير : تفسير ٣/ ٤٠٣ .

صالح بن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ [التوبة:١٠٧] هم أناس من الأنصار..؟[1]

ابتنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم ، واستمدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدًا وأصحابه[2]

فلما قدم ﷺ المدينة عرض على عاصم بن عدى المسجد يتخذه دارًا فقال ما كنت لأتخذ مسجدًا قد نزل فيه ما نزل دارًا ، فأعطاه ثابت بن أقرم ، وأخذ أبو لبابة بن عبد المنذر خشبًا من مسجد الضرار كان قد أعانهم به ، وكان غير مغموص عليه النفاق ، فابتنى به منزلًا له ، فلم يولد له في ذلك البيت مولود ، ولم يقف فيه حمام ، ولم تحضن فيه دجاجة قط .

وقال رسول الله ﷺ :« زمام خير من خذام ، وسوط خير من بجاد»، وكان عبد الله بن نبتل يسمع حديث رسول الله ثم يأتى المنافقين . فقال جبريل : يا محمد : إن رجلًا من المنافقين يأتيك فيسمع حديثك ، ثم يذهب به إلى المنافقين . فقال :« أيهم هو؟» قال: الرجل الأسود ذو الشعر الكثير ، الأحمر العينين ، كأنهما قدران من صغر كبده كبد حمار ، وينظر بعين الشيطان .

وأرادوا ببنائه أنهم كانوا يجتمعون بالمسجد فيتناجون فيما بينهم ، ويلتفت بعضهم إلى بعض فيلحظهم المسلمون بأبصارهم ، فشق عليهم ذلك ، وأرادوا مسجداً يكونون فيه ، لا يغشاهم فيه إلا من يريدون ممن هو على مثل رأيهم . وكان أبو عامر يقول لا أقدر أن أدخل مربدكم هذا ، وذلك أن أصحاب محمد يلحظوننى وينالون منى ما أكره . فقالوا : نحن نبني مسجدًا نتحدث فيه عندنا[3]

---

(١) تتردد كلمة الأنصار مرادفة لكلمة المنافقين في كثير من المراجع ، وما هذا الفصل إلا للتفريق بين مدلول الكلمتين رغم أن الموصوفين بهما من منبت واحد (الأوس والخزرج) ولتنزيه الأنصار .

(٢) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٥٥٠

(٣) إمتاع الأسماع : المقريزي (١ / ٤٨٢ ، ٤٨٣) بتصرف .وكان (مجمع) غلامًا حدثًا قد جمع من القرآن

هذه قصة مسجد الضرار وأبي عامر ، ويقال إن أبا عامر بقى في مكة حتى الفتح ثم غادر إلى الطائف ، فلما فتحت الطائف فر إلى قيصر الروم ، ومن هناك أخذ يراسل أصحابه لبناء المسجد ، ومات في الغربة في الشام عند قيصر الروم .

إن بناء مسجد الضرار كان له تأثيرات جانبية كثيرة ، فقد اتخذ غطاء دينيًا للمنافقين حتى لا يثير تغامزهم في مسجد الرسول وتآمرهم خارجه حفيظة المسلمين أو انتباههم .وفيه كانوا يتآمرون للوصول إلى تحقيق أغراضهم من تخريب للدين وتشكيك فيه والخروج عن تعاليمه وبث أفكار دينية جديدة من عندهم قوامها الجاهلية،وما امتلأت به نفس أبي عامر من انحرافات وثنية مشوبة ببعض المعتقدات النصرانية أو اليهودية ، وبذلك يستطيع أن يخلق من أول ساعة في الإسلام شرخًا تكون بعده الانحرافات الكبيرة عن الهدف السامى وعن التوحيد الحق الذي جاء به الإسلام .

والهدف الثاني وراء بناء هذا المسجد هو تجميع المؤيدين لخط النفاق وخزن السلاح وتقوية الرجال وحماية المنافقين،وتلقى المساعدات من قيصر الروم والغساسنة، فإن حفنة من جنود الدول الحاجزة كفيلة بتأديب محمد ، وإنهاء ما بناه والطريق لدى هؤلاء أكثر أمانا وسهولة من سلوك جنود الروم ، وكان المنافقون يجدون بعض الأمن والاطمئنان والتآمر من غير رقباء أو ملاحظين على جماعة المسلمين تحت ظل هذا المسجد وبين جدرانه .

في محيط الجماعة ومن داخلها فكانوا (المنافقون) قوة لا يستهان بها ، بل تمكنوا في بعض الحالات أن ينفذوا إلى قلب الجماعة وإلى الرسول ﷺ لولا حماية الله له .

أكثره ، وكان يصلي بهم فيه ، ثم إنه لما أخرب المسجد وذهب رجال من بني عمرو بن عوف كانوا يصلون ببنى عمرو بن عوف في مسجدهم ـ زمن عمر بن الخطاب ـ كلم مجمعا ليصلى بهم فقال: لا ، أو ليس بإمام المنافقين في مسجد الضرار؟ فقال لعمر : يا أمير المؤمنين والله الذى لا إله إلا هو ما علمت بشيء من أمرهم ، ولكن كنت غلامًا قارئًا للقرآن ـ وكان لا قرآن معهم فقدموني أصلي بهم ، وما أرى من رأيهم إلا على أحسن ما ذكروا ـ فزعموا أن عمر قد تركهم فصلى فيه (ابن هشام: السيرة ٢ / ١٦٩، ١٧٠) .

فأبو عامر الفاسق في جيش قريش يؤلب الأعداء ويحفر الحفر ويرضخ الناس بالحجارة ، وعبد الله بن أبي في جماعته يتجسس أخبار المعركة وينتظر أن يهرع إليه الناس ليوقع الصلح مع قريش ، وكل الإشارات تظهر بأن خذلان ابن أبي للمسلمين في أحد وتبوك لم يأت عن ردود فعل وحجج أو غباء أو خوف أو مخالفة رأي ، لكنه إنما فعل أفعاله في كل مرة عن تخطيط ودراسة ودراية بأحوال الناس والوقت ، ففي أحد قلل عدد المسلمين حتى أصبحوا بنسبة ١/ ٥ من عدوهم ، وفي تبوك قللهم كثيرًا أمام هذا الجيش الذي يقوده هرقل والذي وصلت أخباره إلى المدينة والذي نجا منه المسلمون في مؤتة بأعجوبة وإلا لذهب جنود مؤته أسرى مكبلين بالحبال ، لكن الله أبطل غيظهم ومكيدتهم .

هل نستطيع أن نبرئ ذمة ابن أبي من محاولة اغتيال الرسول في تبوك ؟

هل نستطيع أن نقول بأنه شد أزر اليهود الذين خانوا العهود والمواثيق، وحاولوا قتل الرسول وإحداث الفتنة بين المسلمين كما كانوا يفعلون بين الأوس والخزرج مجرد مصادفات ؟

كلا ولا شك أن الأمر أخطر من هذا وأبعد،فإن هدف المنافقين الأول كان تهديم أركان هذه الدولة وإزالتها من الوجود ، وإحلال محلها حلم العمر بإقامة مملكة ابن أبي ، أو على حد قول مؤلف فقرة دائرة المعارف الإسلامية : تطبيق إصلاحات أبي عامر الوثنية على المعتقدات الوثنية إذا اعتبرت هذه إصلاحات في هذه الديانة ؟

إن كل خطوة خطاها المنافقون كانت سهمًا واضحًا ، درست قوته وهدفه وصوب إلى قلب المسلمين ، لكن فأل المنافقين كان في كل مرة يخيب ، ويظهر نفاقهم للملأ ، وينزل في شأنهم قرآن يتلى ، حتى ملأت آيات النفاق صفحات كثيرة من كتاب الله ـ تعالى .

ولو أن هؤلاء المنافقين لا يحتاجون أو يستحقون كل هذا لما نزل فيهم كل هذا الكم من آيات الله .ولكن لأن ظاهرة النفاق ـ ككل في تاريخ الإنسانية وحياة

الأنبياء على الخصوص ـ كانت معول هدم وتحطيم ، وفي نشوء الدولة الإسلامية على الخصوص كانت مسحة سوداء في جبين أصحابها .

إن ما ذكرناه من تفصيلات يعطينا الدليل الواضح عن المنافقين الذين كانوا شق الأنصار ساروا في متاهات طويلة ، وكانوا متواجدين على الساحة في كل يوم حتى أذهب الله كيدهم وأماتهم بغيظهم ، وأبطل كل محاولاتهم وأعمالهم .

ويعطينا ـ أيضًا ـ الأمر الآخر وهو ثبات المسلمين أمام التحديات وأهمها التحدي الذي ظهر في داخل الجماعة المسلمة على أيدى المنافقين وكان ثابتًا شامخًا تمكن معه المسلمون دون أن يمسوهم بسوء ـ رغم قدرتهم على ذلك ـ فقد كان الرسول ﷺ يقف حائلا بين المسلمين وأخذ المنافقين بالشدة ، ويدل هذا على عظمة هذا الدين وعلى أنه دين الله الخالد الذي لم يبن على ردود فعل ، أو على طفرات آنية، بل إنه دين البشرية الذي قضى على أعدائه بثباته وقوته ، وعلى المتخاذلين بالصبر والتؤدة ، حتى انتهي الطرفان وثبتت أركان الإسلام خالدة إلى يوم الدين .

وقد قسم صاحب الظلال الناس المتواجدين على الساحة في المدينة بقوله[1]: يجيء المقطع الخامس من سورة براءة وهو يتولى تصنيف المجتمع المسلم بجملته في هذه الفترة من الفتح إلى تبوك ، ومنه نعلم أنه كان إلى جوار السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار،وهم الذين كانوا يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية، جماعات أخرى .

الأعراب : وفيهم المخلفون والمنافقون من أهل المدينة . وآخرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامى ، ولم يصهروا في بوتقة الإسلام تماماً ، وطائفة مجهولة الحال لا تعرف حقيقة مصيرها ، متروك أمرها لله وفق ما يعلمه من حقيقة حالها ومآلها ، ومتآمرون ينتشرون باسم الإسلام ويدبرون المكائد ويتصلون بأعداء الإسلام في الخارج ... إلخ الحديث.

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب (٣/ ١٦٩٢)

(٣) أعمال المنافقين ضد الدولة الإسلامية

ما أوردنا من أعمال كانت كلها موجهة من المنافقين ضد الدولة الإسلامية ، وظهرت أثناء الحديث ظاهرة ، وهي أن عدداً من المنافقين كان يقع تحت تأثير الشك في الرسالة إلى أن أراه الله سوء عمله ، ومعجزات الإسلام والنبوة ، فعاد منهم إلى الحق والإسلام من عاد ، وحسن إسلامهم وخدموا هذا الدين بكل جوارحهم ، وأذهب الله الشك من نفوسهم وعوضهم اليقين والإيمان إلا أن البعض الآخر قد استمر في دربه إلى الآخرة .

وفي الوقت الذي كشف الله خباياهم وأسرارهم ، وأبطل أعمالهم ومؤامراتهم ، وفي الوقت الذي أراهم الله معجزاته وانتصارات هذه الدعوة المتتالية كانوا يعودون في كل مرة إلى أشد وأقسى ما كانوا عليه من عداء واستهزاء وتجريح للرسول وللصحابة وللتشكيك في الدين .

ويُفرح المنافقين بلاء المسلمين، ويغيظهم انتصارهم وخيرهم ، ولم يكن المنافقون يكتمون هذا الأمر بل يظهرونه أحياناً علنا وعلى الملأ .

ولو أردنا أن نكرر المكرور والمعاد من سوء عملهم وفعالهم لطال بنا المقام ، لكننا نستطيع أن نؤكد بأن أعمال المنافقين ما كانت إلا حسداً لقيام دولة الإسلام وتمنى زوالها وما وصلت إليه .

وعلى الرغم من التناقضات العجيبة التي عاشها المنافقون ـ زعامات وأفرادًا ـ إلا أن شرهم فاق في كل مرة خيرهم ، وأذهبت أعمال السوء عمل الخير لديهم ، فقد كانوا يتبعون العمل الصالح عمل سوء وشر ، ومنذ أن تحققت الانتصارات بين يدى رسول الله ﷺ من سراياه أو غزواته قبل بدر وفي يوم بدر العظيم الذي أزال فيه الله ـ تعالى ـ دولة قريش التي نالت بها ضربة هزت جذورها من الأعماق ، ولم

تعد لرشدها بعد بدر قريش إلا بانضوائها تحت ظل الإسلام .

وكان أن سقط كل جبابرة قريش في لقاء نهار واحد ، لم يتحاجز الناس ليلًا ليعاودوا حربهم نهاراً بل سقطت قريش وشرخت شرخاً لم يلتئم بعدها ، وأخذت تسعى لتحقيق أي نصر يعيد لها هيبتها وعزتها إلا أن الضربة كانت في القلب حرباً وفي العقل فكرًا ، فكان ما قامت به قريش بعد ذلك ـ على هوله وقوته ـ لم يكن أكثر من نفضات القتيل المذبوح .

وعرف الناس منذ بدر أن الإسلام ليس من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين خرجوا مطرودين فارين بدينهم من مكة إلى يثرب وآوتهم الأخرى ولمت شملهم ، لكن هذا الدين العظيم الذي أراده الله جامع وخاتم رسله وكتبه ، فكان الإسلام النظام المتقدم على ما ساد العالم وقتها من أفكار وعلوم وسياسة وقوة في فترة زمنية كانت ترصد للاستعداد ليوم من أيام العرب ، أو لترتيب حسابات في الدول الكبرى والصغرى وأصبح الإسلام القوة المهابة الثابتة في محيطه في المدينة وخارجها في الحجاز .

في مثل هذا الموقف عرف المنافقون أن قضية هذا الدين إلى تقدم وسمو وارتفاع فتداعوا مسرعين لتدارك المواقف ، فحاكوا المؤامرات في الداخل ، واتصلوا بالحاقدين على الإسلام في الخارج ، وبث الأحقاد .

القسم الثالث

موقف الإسلام من المنافقين

(١) القرآن الكريم - آيات النفاق

سبقت الإشارة إلى آيات القرآن الكريم التي نزلت في المنافقين[١]

وفي ترتيب السور والأوصاف والأعمال، والعلاقات، والمصير في الدنيا والمصير في الآخرة الذي رسمه الله تعالى للمنافقين، ففي سورة البقرة (السورة رقم ٢) يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة] (ثبت عليهم صفة النفاق) : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة] (فهم قد جبلوا على الخديعة ـ ظنًا منهم أنهم يخدعون المسلمين) .

﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة]. (قلوبهم مريضة فزادهم الله مرضاً وعاقبتهم الخسران المبين) .

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة] . ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة] (هم المفسدون ويظنون أنهم هم المصلحون) .

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة] .

(إنهم يظهرون خلاف ما يبطنون ، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر والتبعية

---

(١) حاشية (٣) ، ص ٤٠ من هذا الكتاب .

للشيطان ، ويهزؤون بالمؤمنين ولكن الله يستهزئ بهم ويمدهم في ضلالاتهم وطغيانهم) .

(ثم إن تجارتهم خاسرة لأنهم فضلوا الضلال على الهدى ، فهم عمى أمام النور، وقد فقدوا كل حواسهم فأصبحوا كالأبله الذي يسير في الظلام يخاف من الصواعق ، يحذر الموت ، يرى البرق فيسير ، ونور البرق خاطف ، فلا يتقدم إلا خطوة واحدة ، ويقف ينتظر لمحة نور في هذه الدنيا ، ولكن لو شاء الله لأفقدهم كل حواسهم فهو القادر على كل شيء) .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة] .

(بشرهم بعذاب أليم من الله ـ تعالى ـ لاتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين يبتغون عندهم عز الدنيا والسؤدد ويقولون إن أمر محمد لن يتم ولكن خاب فألهم فلله العزة جميعا ولرسوله وللمؤمنين) .

﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء].

(لقد أنزل الله عليكم القرآن ليكون لكم هدى ورحمة ، فإذا سمعتم آيات الله يكفر بها من قبل المنافقين والكافرين ، فلا تسمعوا للذين يلغون فيها ولا تجالسوهم حتى يتكلموا بحديث غير هذا ، وإذا سمعتم لهم ما يقولون ويستهزئون فإنكم ستكونون قد أصبحتم مثلهم والله سيجمع المنافقين والكافرين بمصيرهم المحتوم ـ نار جهنم ـ جزاء فعلتهم تلك التي فعلوا ..) .

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء] .

(يتربص المنافقون بالمؤمنين وينتظرون أعمالهم ، فإن كان فتح من الله قالوا : نحن شركاء فيه (يبتغون الغنيمة) ، وإذا مالت الدنيا مع الكافرين يقولون : إننا لم نتكلم أو نستأصل شأفتكم فأبقينا عليكم . إن الله هو الذي يحكم يوم القيامة ، وليتأكد المشككون بأن الله ـ تعالى ـ لن يجعل للكافرين نصرًا على المؤمنين ، وأعدت النار للكافرين ، والجنة أعدت للمؤمنين)، ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء] .

(صفة المنافقين الخداع ـ لكن الله خادعهم ـ يقومون إلى الصلاة كسالى ، يراؤون الناس بصلاتهم وعباداتهم ولا يذكرون الله إلا قليلًا أمام الناس تأكيدًا لريائهم وخداعهم وإطلاق صفة التذبذب تأتي تمامًا ـ كتعبير صادق للنفاق ـ وفيها كل الهزء والسخرية منهم ؛ لأنهم لا إلى هؤلاء ولا لأولئك . وليعلم المنافقون أنه من يضلل الله فلن يجد له طريقًا مستقيمًا) .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء].

(إن كان مصير الكافرين النار فمصير المنافقين الدرك الأسفل منه ، ولن يكون لهم أي نصير ينصرهم أو شفيع يشفع لهم ، إلا الذين يتوبون ويصلحون أنفسهم فسيحشرون مع المؤمنين،وأجر المؤمنين عند ربهم عظيم) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ

﴿ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ۝١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١٤٦﴾ [النساء].

وفي سورة المائدة (السورة رقم ٥) :

(تشير الآية إلى المنافقين دون ذكر اسمهم ، وذلك بصفاتهم التي وردت في الآيات الأخرى مع صريح اسمهم ، وفي الآية التالية يضع الله جزاء أولئك الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا ، أن ينالوا أقسى العقوبة ، فجزاء النفاق والفساد قطع أيديهم وأرجلهم ونفيهم من الأرض - هذا في الدنيا وفي الآخرة لهم عذاب أشد وأكبر) .

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾ [المائدة].

وفي سورة التوبة (السورة رقم ٩) :

(يصف الله - تعالى - موقف المنافقين من غزوة تبوك تلميحا دون ذكر اسمهم وإنما بأعمالهم وصفاتهم) .

قال - تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢﴾ [التوبة].

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ

إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة] .

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة].

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة].

(وتبرز هذه الصفات ـ صفات النفاق ـ في كل آية من الآيات الكريمة التي نزلت بهم ـ تلميحًا أو تصريحًا ـ ويبقى النفاق آخذًا بأحوالهم وحياتهم ومتلبسًا بهم إلى أبعد الحدود)

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾[التوبة] .

ولقد سبق القول بأن أسباب نزول الآيات التاليات عندما كان المنافقون يتحدثون عن المسلمين بأنهم سيجدون الروم الأقوياء ، فيأخذونهم أسرى وغير هذا من الأقاويل التي تحط من قدر المسلمين) .

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ

قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة] .

(المنافقون والمنافقات صفاتهم بعضهم من بعض ـ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يبخلون بما آتاهم الله ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فهم الفاسقون ، وعدهم الله هم والكافرين نار جهنم هي جزاؤهم وهي مصيرهم ، ولعنوا وأعد لهم عذابًا عظيمًا .

مثلهم كمثل الذين خلوا من قبلهم كانوا أصحاب قوة ومال وسلطان وجاه وأولاد فأصابهم عذاب الله . وصفاتهم التي استأثروا بها لن تكون عليهم إلا خزياً وبلاء ، فليستمتعوا بها كما استمتع من قبلهم فسقطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وخسروا بذلك خسرانًا كبيرًا . وهؤلاء الذين استمتعوا بخلاقهم ، ألم يسمعوا بمن سبقهم قوم عاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وقوم لوط الذين انقلبت أعمالهم شراً مبيناً . جاءتهم رسلهم بالهدى وبالبيان الواضح ، لكنهم كفروا فما كان الله ليظلمهم ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وارتضوا بهذا الظلم المبين)

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [التوبة] .

(أمر من الله ـ تعالى ـ لنبيه : يا أيها النبي قاتل الكفار والمنافقين ـ وإدراجهم مع بعض دليل على مدخلهم الواحد في الدنيا والآخرة   لا تأخذك رحمة ، كن غليظاً عليهم   ثم يردون إلى ربهم الذي أعد لهم مصيرًا مشتركًا ـ جهنم مأواهم وبئس المصير الذي ينتظرهم . الكذب من أهم صفاتهم يحلفون بالله على كل شيء ما قالوا.. ما فعلوا .. لكن الله الذي يعلم ما تخفي الأنفس وما تعلن ، علم أن المنافقين قالوا كفراً بواحاً ، وكفرهم جاء بعد إسلامهم فهم في موقع الردة .. ثم يظهر الله –تعالى– فشلهم بمحاولة قتل النبي ﷺ . وما نقموا بعد ذلك إلا بعد نعمة أنعمها الله عليهم ، وهي أن الله قد أغناهم من فضله ..) .

وأخيرًا فإن طريق التوبة إن سلكوه فهو خير لهم   وإن أرادوا الاستمرار في طريقهم ـ طريق النفاق والكفر ـ فعذاب الله في الدنيا والآخرة قائم جزاء لهم وليس لهم من دون الله أولياء ولا نصراء : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة].

(حتى أولئك الذين عاهدوا الله إن آتاهم خيرًا سيتصدقون ويكونوا صالحين ، فلما آتاهم الله ما طلبوا من فضله ، نافقوا وأعرضوا ، فأعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم بخيانتهم عهودهم وكذبهم) .

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا

جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة].

(ثم تأتي الآيات التي نزلت في المنافقين بمناسبة غزوة تبوك ، وقد مر ذكرها في الآيات : ٨١ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٤) .

(ثم آيات الأعراب المنافقين الذين جاؤوا الرسول يعتذرون عن هذه الغزوة آية: ٩٠) .

(ثم الآيات التي نزلت بمناسبة نتيجة غزوة تبوك حيث جاء المنافقون ليعتذروا للرسول آية : ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١) .

(ثم الآيات التي نزلت في أصحاب مسجد الضرار ، الآيات : ١٠٦ ، ١٠٨)

سورة الحشر (السورة رقم ٥٩) :

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحشر] .

سورة المنافقون (السورة رقم ٦٣) :

(وهي سورة كاملة أنزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين ، تكذب مزاعمهم وحلفّهم الله ما قالوا وهم يكذبون ، كما تصور مجمل هذه الأكاذيب والضلالات) .

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المنافقون].

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون].

(وتتكرر الصورة كما في سورة براءة عن هؤلاء المستكبرين الذين أخذتهم العزة بالإثم)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المنافقون] .

(حتى لو استغفر لهم الرسول أو تركهم من غير استغفار ؛ فإن الله لن يغفر لهم ذنوبهم وأعمالهم التي عملوها والله لن يهديهم لأنهم محشورون مع الكافرين والفاسقين) .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المنافقون].

(ثم تتوالى آيات السورة بتصوير وذكر أعمالهم الناجمة عن نفاقهم ، ثم تختم السورة بكلام ابن أبي في غزوة بني المصطلق ـ كما سبق التفصيل فيها الآيات ٧، ٨) .

سورة الأحزاب (رقم السورة ٣٣) :

(وفي سورة الأحزاب تصوير لحال المنافقين في هذه الغزوة التي سبق تفصيلها ـ وخاصة اعتذارهم للهروب من مواجهة العدو الذي أحاط بالمدينة بحشد هائل كبير).

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا

لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب] .

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب].

سورة الحديد (السورة رقم ٥٧) :

(الآيات الثلاث في سورة الحديد تصور حال المنافقين والمؤمنين في الآخرة ، عندما يرى المنافقون والمنافقات نور المؤمنين ، وما كشف لهذا النور من نعيم وجنات فيقول المنافقون للمؤمنين دعونا نأخذ شيئًا من نوركم ، لكن المؤمنين الذين اكتووا بنار المنافقين وأعمالهم في الدنيا وصبروا عليهم كثيرا يقولون لهم ارجعوا إلى الدنيا واعملوا أعمالا صالحة ، وتخلصوا من نفاقكم ـ وذلك طردًا لهم وتهكمًا بهم ـ فضرب الله بين المؤمنين والمنافقين بسور باطنه للمؤمنين الجنة ، وظاهره للكافرين النار .

وينادي المنافقون: ألم نكن معكم ..؟ عشنا معا ..؟ وأكلنا وشربنا معاً .. فيجيب المؤمنون : نعم .. لكنكم ارتبتم وكذبتم ، وفسقتم ونافقتم ، فاليوم لا يفدى مخلوق مخلوقًا من العذاب ، فذوقوا عذاب النار التي وعدتم) .

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ

﴿نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد] [1]

ولا تخلو سور القرآن الكريم من التلميح لأعمال المنافقين وصفاتهم وعقابهم المنتظر في الدنيا والآخرة ، من غضب الله ولعنته وسوء عاقبتهم ، وقد قيست أعمالهم وأدمجت مع أعمال الكافرين الذين وردوا مترادفين في كثير من المواضع ، وعذاب المنافقين أشد وأقسى ؛ لأنهم عرفوا الإيمان وضلوا عنه واستهزؤوا به ، وكانوا يخربون جماعة المسلمين من داخلها ، أما الكافرون فقد كانوا أعداءً صرحاء ، تحذرهم الجماعة وتتحصن ضد أعمالهم وتحاربهم وتقاتلهم ، لكن المنافقين ظاهرهم فيه الإيمان وباطنهم فيه الحقد والسوء والعذاب ، وتشير الآيات السابقة بمجملها إلى سوء ما عملوا وعظيم ما خربوا و ... لكن ـ أيضًا ـ تصور هول ما سيلاقون يوم القيامة جزاء لما فعلوه مع المسلمين ، وسوء عاقبتهم في الدنيا وشديد عذابهم في الآخرة .

---

(١) تفسير النسفي ، تفصيل آيات القرآن جول لابوم ٢١١ ، ٦٣٥ ، والسيرة النبوية ابن هشام ٢/ ١٧٧ ، ٢٢٦

(٢) موقف الرسول ﷺ من المنافقين

منذ أن وصل رسول الله ﷺ المدينة ، ووجد الترحيب الكبير من سكانها ، فقد بادل هؤلاء السكان ترحيبًا وحبًا كبيرين تفانى الأنصار أمام رسول الله وأعطوه حباً وفداء وتضحية وعطاء بغير حدود ، وكان ما قدمه الأنصار شيئًا يفوق وصف الأدباء والشعراء ، أعطوه كل شيء ، وحطموا بأيديهم وبأفعالهم وبسلوكهم كل الأعراف والعادات والتقاليد القائمة على الضلال في مجتمعهم قبل وصول الرسول إليهم وثبتوا ذلك وقووه بعد وصوله وإقامته فيهم .

لقد أحب رسول الله المدينة ، وأحب أهلها ، ودعا لها ولأهلها بخير ، فتغير طقسها إلى الأحسن بعد أن كان في جوها بعض الوباء وكان دعاؤه عند خروجه من مكة :«**اللهم أخرجتنا من أحب الأرض إلينا ، فأدخلنا بأحب الأرض إليك**» وكانت المدينة .

وقد أعطى الرسول كل محبته وعطفه للناس الذين كان لهم الفضل الكبير في حمل الرسالة والتضحية في سبيلها بكل غالٍ وثمين .

الرسول ﷺ لم يدخل المدينة وسكانها جميعًا مسلمون ـ حتى ولا الأكثرية منهم ـ بل كانوا الأقلية ـ لكن كان العديد منهم أصحاب السيادة والرأي والقيادة والزعامة في قبائلهم وعشائرهم وبطونهم ، ولذلك فلم يتمكن الآخرون من الذين لم يسلموا بعد ، أن يفعلوا شيئا يحول دون حماية المهاجرين واستقبال الرسول ، والتوسع في بنيان الدولة الإسلامية . ويعلم الرسول ﷺ أنه جاء المدينة في وقت كانت تلملم فيه أحزانها ، وتداوى جراحها من أثر حروب طاحنة طويلة وعداوات وثارات كثيرة تحكم مصير الأفراد والجماعات ، وتهيمن من قريب أو بعيد على تصوراتهم .

ويعلم رسول الله أن فكرة إقامة الملكية في يثرب كانت تسير بخطى سريعة نحو

إتمامها ، ولذلك كان يؤكد على محاولة كسب عبد الله بن أبي المرشح للتاج وأبو عامر الراهب الذي درس وترهب في الجاهلية لأنه يعلم أن كسب هؤلاء إلى الدعوة أمر فيه خير للجماعة ، ويعطى الإسلام دعمًا وقوة تمامًا كما كان يدعو في مكة بأن يقبل الإسلام أحد العمرين ، عمرو بن هشام ، وعمر بن الخطاب وناله الآخر وذهب بعنده وكفره الأول ، وكما كان يرى ﷺ أن في رأس خالد بن الوليد عقلاً يرجو رسول الله ألا يسلمه إلا لخير .

هذه السياسة الحكيمة من الرسول ﷺ جعلت أولئك الرجال في مواقع طيبة بعد إسلامهم وكان لهم من الفضل الصريح في هذه الدعوة .

كان الرسول يؤكد على عبد الله بن أبي في المدينة والراهب أيضا ، لأن لهما في قومهما شأنًا وقوة ورأيًا ، فعندما دخل سعد بن معاذ في الإسلام فقد حول قبيلته بني عبد الأشهل في ليلة واحدة إلى مسلمين وصدق المؤرخون عندما قالوا : أنه لم يكن في بني عبد الأشهل ـ دون جميع بطون الأوس والخزرج ـ منافق واحد ، ومن أخطأ ـ والخطأ من طبيعة البشر ـ استغفر وأناب وتاب وعاد إلى إيمانه وإسلامه« لم يعلم في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة يعلم إلا الضحاك بن ثابت أحد بني كعب ـ رهط سعد بن زيد ـ فقد كان يتهم بالنفاق وحب يهود»[(١)]

إسلام سعد بن معاذ غير كل الترتيبات السابقة في قبيلته ، وخرَّج منهم رجالًا ونساء وأطفالًا فعلوا في سبيل الله الأعاجيب ، وقدموا أكثر الشهداء .

إن الرسول كان يأمل أن يدخل هؤلاء الرجال وأمثالهم في الإسلام حتى يلحق بهم أقوامهم ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي ، ومن شدة رغبة الرسول تلك فقد استجاب الله لدعائه وأعطاه من أصلابهم أناسًا يوحدون الله ، فعبد الله بن عبد الله ابن أبي ، وحنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة .

فكان من أصلابهم مؤمنون صادقون ، واستمروا هم في نفاقهم وعنادهم .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٧٣

لقد أحب رسول الله الحيين من الأوس والخزرج ، وآثرهم بنفسه في كل موقف، وأكد لهم أنه منهم وأنهم منه ، وعندما ظنوا أن محمدًا ﷺ قد وجد أهله وعاد قريته وخص عشيرته بمتاع الدنيا ، جاء إليهم وتكلم معهم ، وبكوا من فرط حبهم ، وأعطاهم هو أيضًا مثل هذا وأعطاهم عطفه وحنانه ، فبادلوه بذلك حباً خالداً أبد الدهر .

إن الرسول ﷺ كان يعلم أن المنافقين إخوة وآباء وأبناء عم وأقارب وخؤولة الأنصار ، والأنصار والمنافقون شقان لمنبت واحد . فكان الرسول ﷺ يرغب تمامًا ألا يجرح الأنصار في موقف ثأر أو انتقام ، أو صد لمنافق يتأثر به أنصاري ـ على الرغم من أن الأنصار كانوا أشداء على المنافقين كما سيرد لاحقًا ـ وكان يحاول أن يبقى قلوب الأنصار من هذه الناحية مفعمة بالحب والإخلاص ، لعل الله يهدى قلوب المنافقين فيكسب ودهم ليؤوبوا ويعودوا ويتوبوا

فكانت سياسة الرسول ﷺ منذ اللحظات الأولى هي الإحسان إليهم لا خوفًا منهم ولا تقية مع مقدرته على كف أذاهم ، وتحجيم قدراتهم ، فآيات القرآن تتنزل كالصواعق ـ كما سبق ذكرها ـ على رؤوسهم ، تفند كذبهم ومزاعمهم ، وتظهر نفاقهم وزيفهم ، وتصور حالهم ومآلهم .

وسلوك الرسول ﷺ كان معهم في منتهى الرحمة والعطف والتسامح ، إلى درجة أنهم مَتَّنَ قلوب الشق الأول من الأوس والخزرج (الأنصار) بحسن معاملة الشق الثانى (المنافقين) التي رد بها عليهم ففي الوقت الذي اشتد فيه النبي ﷺ على الأنصار ولم يقبل منهم عذرًا لخطيئة ، وعاتبهم وعاقبهم وتركهم للأيام والليالي يتجرعون الأسى والحسرة والندم ، حتى نزلت آيات القرآن تحمل العفو عنهم من السماء .

كان الرسول ﷺ يتبسم في وجه المنافقين ويقبل أعذارهم حتى اشتد أذاهم ووصلوا إلى درجة التفكير وانتقلوا إلى مرحلة التنفيذ بمحاولة قتله ﷺ فلم يبادر إلى سيف وعقوبة ، بل اكتفى أن دعا عليهم وفي أحيان كثيرة كان يدعو لهم بالهدى وحسن المآل .

وما سبق من ذكر للأحداث التي قام بها المنافقون يتبين لنا بوضوح تام هذا الموقف العظيم الجليل من رسول الله تجاههم ، وكثيرًا ما طلب الأنصار من رسول الله معاقبتهم على أفعالهم ، إلا أنه كان في كل مرة يقول لهم :«لنعطف عليهم ونرحمهم ، وحتى لا يقال بين الناس : إن محمدًا قد وضع السيف في أصحابه» ومع استغلال هذا الموقف من قبل المنافقين أكثر من مرة وتكرارهم أعمالهم ، فإن الرسول كان بهم أرحم وكان عليهم أحن فقد كان معهم ومع غيرهم رسولًا رفيقًا أمينًا .

ويمكن لنا أن نجعل بعض الأحداث التي كانت رد فعل للصحابة بها قوية تجاه المنافقين وجواب رسول الله أو عمله تجاه هؤلاء .

ـ في غزوة أحد انخذل عبد الله بن أبي مع ثلث الجيش تقريبًا ، فلم يعره الرسول ﷺ اهتمامًا وسار في طريقه للقاء أعدائه ، وكان من خطبه التي خطبها صبيحة أحد قوله :« إن من كان على حرامًا ، فرق الله بيني وبينه ورغب له عنه غفر الله له ذنبه ، ومن صلى عليَّ، صلى الله عليه وملائكته عشرًا ، ومن أحسن مع مسلم أو كافر وقع أجره على الله في عاجل دنياه أو آجل آخرته»[١]

وسلك رسول الله والمسلمون حرة بني حارثة وقال :« من رجل يخرج بنا على القوم من كثب»، فخرج به بعض الأنصار ، حتى سلك في حائط لبعض المنافقين وكان أعمى ، فقام يحثو التراب على وجوه المسلمين ويقول : لا أحل لك أن تدخل في حائطي إن كنت رسول الله .. فابتدره القوم ليقتلوه فقال : «**لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر**»[٢]

ووقع الرسول في حفرة كان حفرها وغيرها أبو عامر الراهب بين الصفين ، وكان هو أول من أنشب الحرب ، وسبه قومه ولعنوه وكانت حفرًا حفرها أبوعامر كالخنادق يكيد بها للمسلمين ، وكان رسول الله ﷺ واقفًا على بعضها ولا

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ١٢٢

(٢) زاد المعاد : ابن القيم ٣ / ١٩٤

يشعر به فوقع في واحدة منها[١]، فكان موقف الرسول أن لعن أبا عامر ودعا عليه بأن يموت غريبًا ـ وفعلًا فقد مات بالشام غريبًا .

لقد أفرد ابن شبة في كتابه تاريخ المدينة[٢] بابًا كاملًا عن عبد الله بن أبي ونفاقه ، وموقف الرسول ﷺ منه ، وقد ذكرنا بعضًا من هذه المواقف الخالدة التي تجلت بها رحمة رسول الله واتساع صدره وصبره على نفاق هؤلاء وإن عبد الله بن أبي قد سلك منهج النفاق منذ أن وصل رسول الله إلى المدينة ، حتى أن الرسول كان يرغب في إن ابن أبي يدعوه للنزول عنده كما دعاه الأنصار المؤمنون جميعاً إلا أن ابن أبي... أبي ولم يفعل .

ذكرموسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ مر في طريقه بعبد الله بن أبي ابن سلول وهو في بيت ، فوقف رسول الله ينتظر أن يدعوه إلى المنزل وهو ـ يومئذ سيد الخزرج في أنفسهم ، فقال عبد الله : انظر الذين دعوك فانزل عليهم .

فذكر ذلك رسول الله لنفر من الأنصار فيهم سعد بن عبادة ، فقال سعد يعتذر عنه : لقد منَّ الله علينا بك يا رسول الله ، وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملكه علينا[٣]

حدثنا ميمون بن الإصبع قال : حدثنا الحكم بن نافع قال : حدثنا شعيب ابن أبي حمزة عن الزهرى،قال: أخبرني عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد ﷺ أخبره أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه إكافٍ فوقه قطيفة فدكية ، وأردف أسامة بن زيد خلفه وسعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، فسار حتى مرَّ بمجلس فيه عبد الله بن أبي، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين وعبدة الأوثان واليهود ، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمَّر ابن أبي أنفه بردائه ثم قال لا

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ١٩٤

(٢) تاريخ المدينة: ابن شبة ١ / ٣٤٩.

(٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٧٣

تغبروا علينا ، فسلم رسول الله عليهم ، ثم وقف فنزل ، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبي أيها المرء إني لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقًا..؟ فلا تؤذنا في مجلسنا ..؟ ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه .. فقال عبد الله بن رواحة بلى يا رسول ، فاغشنا في مجالسنا ؛ فإنا نحب ذلك فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتناورون فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة . فقال :« **يا سعد ، ألا تسمع ما قال أبو حباب**» ـ يريد عبد الله بن أبي ـ ؟ «**قال : كذا .. وكذا ..**» فقال سعد يا رسول الله اعف عنه واصفح ، فوا الذي نزَّل الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه ، فيعصبوه بالعصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك، شَرِقَ بذلك فذلك فعل به مارأيت . فعفا عنه رسول الله[1]

وما زال رسول الله ﷺ يرأف به ويسكت عليه طيلة مرافقته له . وقد سبق القول عن هذه المواقف ـ خاصة من أولئك الذين حاولوا اغتياله في عودته من تبوك وعندما انتشرت مقالة ابن أبي في بني المصطلق ـ لئن رجعنا المدينة.. كيف أن الرسول ﷺ نهى عبد الله بن عبد الله بن أبي أن يقتل أباه بل قال له :«.. لا بل نترفق به»

ومن المعلوم أن المنافقين مع هذه المعاملة الحسنة التي كان الرسول يعاملهم بها ، فقد أشاعوا حادثة الإفك المشهورة بالسيدة عائشة ـ أم المؤمنين رضي الله عنها ، وقضاء الرسول بجلد الذين روجوا لهذا الأمر بعد أن نزلت آيات براءة السيدة عائشة وذلك بحد القذف .

خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :«أما بعد، فأشيروا على معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي (اتهموهم وعابوهم) وما علمت عليهم من سوء قط. أبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط. ما بقيت إلا وهو

(١) تاريخ المدينة : ابن شبة ١ / ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

معي، ولا دخل بيتي إلا وأنا شاهد». فقال سعد بن معاذ[(١)] : يا رسول الله أرى أن تضرب أعناقهم . فقال رجل من الخزرج يقال : سعد بن عبادة ـ التاج (٤/ ١٩٠). مجمع الزوائد (٩/ ٢٣٣) .كذبت والله لو كان من رهطك ما أمرت بقتلهم ، حتى كاد أن يكون بين الخزرج والأوس كون (حدث) وكان ممن تولى كبره حسان ابن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش في آخرين لا يسمون ، وكان يتحدث به عند عبد الله بن أبي ويذيعه[(٢)] ، فكان جزاؤهم بعد هذا جلد القذف . وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ، فلما سئلت عائشة ﵂ قالت : كان مسيئًا في أمري[(٣)]

وورد في الصحيحين قوله ﷺ :« آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان». وفي قوله تعالى ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠] يقول صاحب الظلال[(٤)]: ويبدو أن رسول الله ﷺ كان يستغفر للمخطئين ، عسى أن يتوب الله عليهم ، فأما هؤلاء فقد أخبر أن مصيرهم قد تقرر فلا رجعة فيه : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة].

أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترجى لهم أوبة ، وفسدت قلوبهم فلم يعد يرجى لها صلاح ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠] والسبعون تذكر عادة للتكثير لا على أنها رقم محدد ، والمعنى العام أن لا رجاء لهم في مغفرة ، لأنه لا سبيل لهم إلى التوبة . والقلب البشري حين يصل إلى حد معين من الفساد لا يصلح والضلال حين ينتهي إلى أمد معين لا يرجى بعده اهتداء والله أعلم بالقلوب ـ انتهى .

---

(١) التحقيق أن سعد بن معاذ قد استشهد في بني قريظة ، ومن جعل بني المصطلق بعدها فقد أخطأ في هذا . والغالب ـ والله أعلم ـ أنه خطأ والقائل هو : أسيد بن حضير الذى آلت إليه زعامة الأوس بعد سعد

(٢) تاريخ المدينة : ابن شبة ١ / ٣٢٦

(٣) المصدر السابق ١ / ٣٣٧

(٤) في ظلال القرآن : سيد قطب ٣ / ١٦٨١

والسياق هنا ذكرته لأدلل على مبلغ رحمة رسول الله ﷺ ـ الذي كان يستغفر لهم. وعندما مات عبد الله بن أبي ـ رأس النفاق ، والذي أحدث ما أحدث من شقاق وبلاء في جماعة المسلمين والدولة الإسلامية . طلب ابنه عبد الله من الرسول ﷺ أن يستغفر له ويصلي عليه ، فاعترض عمر بن الخطاب وقال : يا رسول الله ، ألم يقل الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]. فقال عليه السلام قولًا بلغ الذروة في الرحمة والإحسان والعطف ومعرفة الجميل رغم كل ما تقدم من إيذاء فقال ﷺ : « يا عمر والله سأستغفر له واحدًا وسبعين مرة» .

وروى ابن كثير في تفسير هذه الآية[1] يخبر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وقد قيل : إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم ؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلًا منها ، وقيل : بل لها مفهوم ، كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله لما نزلت هذه الآية قال :«أسمع ربي قد رخص لى فيهم ، فو الله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين ، لعل الله أن يغفر لهم» . فقال الله من شدة غضبة عليهم : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾ [المنافقون] .

وقال الشعبي : لما ثقل عبد الله بن أبي ، انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال : إن أبي قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلى عليه فقال له النبي ﷺ : «ما اسمك ..» قال : الحباب بن عبد الله ، قال :«بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم الشيطان.. » فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل له : أتصلي عليه..؟ فقال :« إن الله قال : ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة:٨٠] ، ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين ..» كذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد ابن جبير وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير بإسناده .

---

(١) ابن كثير : تفسير ٢ / ٣٩٠

ما أرحمك يا رسول الله وما ألطفك !

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة] .

وقد أورد ابن كثير عدة روايات تتحدث عن سبب نزول هذه الآية[١] وكلها تدور حول استغفاره لعبد الله بن أبي ، وجرأة عمر بن الخطاب في الوقوف في وجه رسول الله يذكره بقول الله ـ تعالى ـ في الآية السابقة،والرسول يطلب منه أن يتحول، حتى صلى عليه وكفنه بقميصه وهذه واحدة منها . وقال قتادة : أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض ، فلما دخل عليه قال النبي ﷺ : «أهلكك حب يهود ..» قال : يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ، ولم أرسل إليك لتؤنبني ، ثم سأل عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن به، فأعطاه إياه، وصلى عليه، وقام على قبره، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة:٨٤] الآية

ولهذا كان رسول الله بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين ، ولا يقوم على قبره ، كما قال الإمام أحمد .

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثني عبد الله بن أبي قتادة ، عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها ، فإن أثنى الناس عليها خيرًا قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها :«شأنكم بها» ولم يصل عليها .

وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان ، وفي هذا أيضًا إشارة إلى من قال بأن رسول الله ﷺ قد كتم حذيفة أسماء الذين أرادوا اغتياله بعودته من تبوك رحمة منه ، وحتى لا يجعلهم قتله في أعين الناس ؛ لأنه كان يعلم أعيان المنافقين فقد أخبرهم بهم رسول الله . ولهذا كان يقال له : صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ـ أي من الصحابة [٢]

---

(١) ابن كثير : تفسير ٢ / ٣٩٢ – ٣٩٤

(٢) إمتاع الأسماع : المقريزي ١/ ٤٩٥ – ٤٩٨ حول وفاة عبد الله بن أبي .

هذا هو موقف رسول الله ﷺ :الحب والاستغفار. والدعاء لهم بالمغفرة والتقرب إليهم والسؤال عن أحوالهم على الرغم من أن الصحابة كان لهم موقف آخرمن المنافقين .

وفي الصفحة التالية ثبت بأسماء المنافقين وقبائلهم ، وما عملوا من أعمال النفاق، وما نزل غيبهم من القرآن الكريم نتيجة أعمالهم ، أو ما قال الرسول ﷺ عنهم ، وذلك حسب رواية ابن هشام ـ السيرة النبوية (٢ / ١٦٦ - ١٧٤) .

علما بأن البعض لم يرد إلا في هذا المصدر وقد تمت الإشارة إلى من تاب وحسن إسلامه .

القبيلة	الاسم	ما قام به من أعمال النفاق	ما نزل فيه من القرآن/ أو الحديث
بنو عمر ـ أوس بنو حبيب ـ أوس	زوي بن الحارث جلاس بن سويد وأخوه	قال في تبوك: لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير ـ وقيل: بأنه تاب وعرف منه الخير في الإسلام.	﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ ﴾ [التوبة:٧٤]
	الحارث بن سويد	قتل المجذر بن زياد البلوي وقيس بن زيد يوم أحد، ثم التحق بقريش ، أهدر الرسول دمه.أرسل لأخيه يطلب التوبة فنزل فيه.	﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [آل عمران:٨٦]
بنو ضبيعة	بجاد بن عثمان بن عامر		
بنو لوذان	نبتل بن الحارث	كان يأتي الرسول ويسمع منه وينقل للمنافقين نزل فيه:ورد أنه تاب وصلح. الإعانة(٣/ ٥٤٩) (٨٦٧٥).	﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة:٦١]
بنو ضبيعة	ثعلبة حاطب شعيب بن قشير	عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ، نزل فيه قال يوم أحد :. لو أن لنا من الأمر شيء . قال يوم الأحزاب: محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر (بدر ريان وليسا من المنافقين ، الطبقات (٣ / ٤٦٠ ، ٦٣) .	﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٤] ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأنفال:٤٩]

	أبو حبيبة بن الأزعر بخرج ـ عمر بن حذام	عباد بن ضيف وأخوه سهل بن ضيف ـ عبد الله بن نبتل/ بناة مسجد الضرار .	﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ [التوبة:١٠٧]
بنو ثعلبة	جارية بن عامر وابناه ومجمع : كان قارئا	زيد : محمد اتخذ مسجد الضرار وصغيرا واعتذر بزمن الخليفة عمر بأنه ما كان يعلم من أمر هؤلاء شيئًا .	
بنو أمية	وديعة بن ثابت	ممن بني مسجد الضرار وهو القائل إنما كنا نخوض ونلعب .	﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٥] إلخ الآية.
بنو عبيد	خذام بن خالد وبشر ورافع ابنا زيد	وهو الذى أخرج مسجد الضرار من بيته	
بنو النبيت	مربع بن قيظي وأخوه أوس بن قيظي	قال يوم أحد لا أمل لك يا محمد إن كنت نبيا قال يوم الخندق إن بيوتنا لعورة	دعوه فإنه أعمى القلب أعمى البصر . ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣]
بنو ظفر بنو عبد الأشهل الخزرج	حاطب بن أمية بشير بن أبيرق وقزمان لم يثبت أن أحدًا نافق رافع بن وديعة ، زيد	قال عندما أصيب ابنه ف أحد (جنة والله من حرمل) حليف لهم . بشير سارق الدرعين منهم ـ الضحاك بن ثابت يحب اليهود . جلاس بن سويد تاب وحسنت توبته هو ورافع بن زيد .بن عمرو ، عمرو بن قيس ، قيس بن عمرو بن سهل	﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء :١٠٧]

بنو جشم	الجد بن قيس	يقول : يا محمد ائذن لي ولا تفتني .	﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ [التوبة:٤٩] تاب وحسنت توبته .
بنو عوف	عبد الله بن أبي وديعة رجل من بني أبو عامر الراهب	وهو مشهور وما قيل فيه . عوف مالك بن أبي قوتل ، سويد ، داعس من رهط عبد الله بن أبي كانوا يدسون إلى بني النضير عند حصارهم ما دخل في الإسلام وغنما كفر وأصر على كفره حارب المسلمين في أحد وله كان مسجد الضرار وقلب قريشًا وبعدهم الروم على المسلمين .	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ﴾ [الحشر:١١]

(٣) موقف الأنصار وبقية الصحابة من المنافقين

تفاوتت مواقف الصحابة ـ وخاصة الأنصار ـ من المنافقين للعديد من الأسباب منها :

١ـ إن المنافقين أبناء وإخوة وآباء وأبناء عشيرة وأقارب الصحابة من الأنصار.

٢ـ الوضع السياسي الذي سبق وصول الرسول ﷺ إلى المدينة .

٣ ـ انتشار النفاق في بطون من الأوس والخزرج ـ أكثر من بطن، وبذلك فقد كان كل عشير يريد أن يحمي نفسه .

٤ ـ الكثير من المنافقين بدرت منهم بوادر نفاق ، ثم عادوا وتابوا ، وكثير منهم أصر على نفاقه وضلاله .

٥ ـ موقف الرسول ﷺ من بعض المنافقين ، كان ينعكس بالطبيعة على الأنصار رضوان الله عليهم . أما بالنسبة للمهاجرين ، فإن موقفهم كان واحداً من المنافقين ، وهذا الموقف هو أخذهم بالشدة ، ومحاولة إنهاء هذه الظاهرة ـ على الرغم ـ من أن كثيراً من الأحداث لم تورد في كتب السيرة ، لكن المهاجرين كانوا يرون ظاهرة النفاق عبارة عن خلل كبير في بنيان الدولة وجسم الجماعة ، ويرون أن خير عمل هو القضاء عليهم . وهذه بعض الشواهد .

لقد أحصت كتب السيرة أعمال المنافقين البارزة ، وما نزل فيهم من القرآن الكريم ، وذكرمن تاب وحسن إسلامه والجدول في الصفحة السابقة يلخص هؤلاء المنافقين وأعمالهم وتوزعهم على الأوس والخزرج[١] وباستذكار بعض الأحداث والمواقف للصحابة من الأنصار يمكن تصنيف مواقفهم على النحو التالي :

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٦٦ – ١٧٤

١ـ كان فريق من الأنصار شديدًا على المنافقين وبشكل ملحوظ ، لا يقبل منهم انحيازا أو ميلًا أو نفاقا ، وكانوا كلما بدرت بادرة من المنافقين جاؤوا رسول الله يستأذنونه لقتل هؤلاء ، وإيقافهم عند حدهم والتخلص منهم وكان بنو عبد الأشهل من الأوس أشد هؤلاء على الإطلاق ، وكانت مواقفهم صلبة قوية لا شك فيها ولا رياء .

وكان سعد بن معاذ ﷺ قبل استشهاده في مقدمة هؤلاء فقد كان شديداً على المنافقين ، شديداً على اليهود على عكس عبد الله بن أبي الذي (أهلكه حب يهود) كما قال ﷺ . وظهرت مواقفه في غزوة أحد وفي غزوة الخندق ، وكان على رأس قائمة المتشددين حتى من قبيلة الأوس قبل الخزرج . وكان تشدده في بعض الأحيان يثير حفيظة الخزرج ؛ لاعتقاد المدافعين عن منافقيهم بأن المنافقين لو كانوا من الأوس لما وقف سعد منهم هذا الموقف .

والواقع أن مستوى الإيمان الذي وصله سعد بن معاذ يأتي أيضًا في رأس قائمة المؤمنين الصادقين الذين تمثلوا الإسلام أروع تمثيل ، فعندما تفاوض الرسول ﷺ مع غطفان لسحبها من الحصار ، رفض سعد بن معاذ ذلك بإصرار ـ بالرغم من استشراء النفاق وتحول الكثير من المنافقين إلى اليهود ، أو إلى المحاصرين من قريش في هواهم ورأيهم . وأخبر الرسول ﷺ بأن الذين يقولون: بيوتنا عورة من المنافقين، قال سعد إنما هم كاذبون ؛ لأنها الحيلة القديمة الجديدة التي يلجأ إليها أولئك عندما يشعرون بخطر يداهمهم ، وبقيت هذه الصفة من جاهليتهم إلى إسلامهم ، وكذلك رفضه شفاعة قومه ـ الأوس ـ ببني قريظة ورده القوى بأنه آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم ومواقفه الخالدة الأخرى التي كانت سداً قوياً في وجه المنافقين والمشركين حتى قضى شهيدًا ـ رحمه الله ـ فبكته الملائكة واهتز له العرش . قال شاعرهم :

وما اهتز عرش الله من موت هالك   سمعنا به إلا لسعد بن عمرو

(سعد بن معاذ).

وردت هذه الصفات كلها عند أسيد بن حضير ، فقد قال لرسول الله ﷺ عندما استشرى النفاق وترددت كلمة ابن أبي في غزوة بني المصطلق : لئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال أسيد : يا رسول الله آمر بني فلان من قومه بقتله ، وآمر بني فلان بقتل فلان لنفاقه ، ونحن نكفيك قومنا من بني النبيت ـ إن أردت : إلا أن عطف الرسول ﷺ وحبه وسماحته حالتا دون تنفيذ مثل هذه المقترحات . كما طلب نفس الطلب من الرسول عندما أخبره بنية المنافقين اغتياله ، عندما كان عائدًا من تبوك ، فإنه قال للرسول ﷺ بعد أن كشف هوية المحاولين ليقتل كل منافق من قبل قومه ـ مهما كان مستواه أو عظم شأنه

وقد لعن الأوسِيُّون أبا عامر عندما ناداهم في أحد وشتموه، وليس الخزرج بأقل من الأوس في هذا المضمار فعبد الله بن عبد الله بن أبي طلب قتل أبيه لكن الرسول لم يقبل منه ذلك . وقد وقف له في الطريق ليظهر له مقامه وبأنه هو الذليل أمام رسول الله ﷺ العزيز . ومن الأشداء أيضاً، ومن ضمن هذه القائمة ، عبد الله ابن رواحة ، وكان يقف في وجه المنافقين مواقف صلبة وكذلك أبو أيوب الأنصاري.

كان المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ، ويسخرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يومًا في المسجد منهم ناس، فرآهم رسول الله يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله فأخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا ، فقام أبو أيوب ـ خالد بن زيد بن كليب ـ إلى عمرو بن قيس أحد بني غنم بن مالك بن النجار ـ وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية ـ فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد ، وهو يقول أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة .. ؟

ثم أقبل أبو أيوب أيضًا إلى رافع بن وديعة ـ أحد بني النجار ـ فلببه بردائه ، ثم نتره نترًا شديدًا ولطم وجهه ، ثم أخرجه من المسجد وأبو أيوب يقول له : أفٍ لك منافقًا خبيثًا .. أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله .

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو وكان رجلًا طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده بها قودًا عنيفًا حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع عمارة يديه فلدمه بهما في صدره لدمة خرَّ منها . قال : يقول : خدشتنى يا عمارة . قال عمارة : أبعدك الله عنا يا منافق فما أعدَّ الله لك من العذاب أشد من ذلك ، فلا تقربنَّ مسجد رسول الله .

وقام أبو محمد مسعود بن أوس وكان بدريًا إلى قيس بن عمرو بن سهل ، وكان شابًا لا يعرف غيره فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد .

وقام عبد الله بن الحارث إلى رجل يقال له : الحارث بن عمرو وكان ذا جمة فأخذ بجمته فسحبه بها سحبًا عنيفًا على ما مر به من الأرض ، حتى أخرجه من المسجد . قال المنافق : لقد أغلظت يا بن الحارث . فقال له : إنك أهل لذلك ـ أي عدو الله ـ لما أنزل الله فيك . فلا تقربن مسجد رسول الله .

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه ـ زوي بن الحارث ـ فأخرجه إخراجاً عنيفاً من المسجد وأنف منه وقال : غلب عليك شيطانك وأمره .

فهؤلاء من حضر المسجد ـ يؤمئذ من المنافقين ـ وأمر رسول الله بإخراجهم وقد وردت أسماؤهم في الجدول السابق[١]

٢ـ ومن الصحابة الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ كان سعد بن عبادة ، فقد كان معتدلاً مع المنافقين يطلب من رسول الله الرحمة بهم في كل وقت ـ وخاصة مع عبد الله بن أبي ـ الذي كان يدافع عن موقفه ، عندما يذكر الرسول أمام سعد موقفًا لابن أبي إلا وقال سعد يا رسول الله ترفق به ، واصفح عنه فإنه عندما أعزنا الله بالإسلام وقدمت بالخير إلينا كان أهل هذه البحيرة يعدون له التاج ليتوجوه . وما يراك إلا استلبته ملكًا .

ومواقف سعد هذه أثارت حفيظة المتشددين من الأنصار ، وهذا ما جرى عندما

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٧٦ ، والسيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٣٥٠

استشار الرسول ﷺ الأنصار في حديث الإفك فطلب أسيد بن حضير أن يقوم كل فريق بقتل من هو من أهله . ثار سعد بن عبادة وقال : والله لو كانوا من قومك ما قلت هذا .. وكاد أن يكون بين الحيين ـ الأوس والخزرج ـ أمر إلا أن الرسول ﷺ تلافى الموضوع وأنهاه . وكان كلما تحزب واحد من الأنصار أو المهاجرين لقومه كان رسول الله ﷺ يقول :« **أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم** » ، فيقف كل واحد عند حده .

وموقف سعد بن عبادة هذا لم يكن يؤخذ في مأخذ نفاق بالدفاع عنهم في بعض المواقف ، وإنما كان يخفف من شدة المتشددين ، ويسير على منهج الرسول ﷺ الذي يرى أن الرأفة بهم أفضل حرب لهم . وكما قال رسول الله لعمر بن الخطاب ، عندما و أشار عليه بقتل المنافقين فأجابه الرسول بأنه يتلطف بهم ويدعو لهم ، وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي يستأذن الرسول بقتل أبيه ، قال رسول الله لعمر :«**كيف ترى ذلك يا عمر ..؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لب ، لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم لقتلته**» .فقال عمر : قد والله علمت .. لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري[(١)]

وبين هذين الموقفين كان الأنصار جميعًا ـ ﷺ ـ هم الذين يؤنبون المنافقين إن أحدثوا حدثًا ، وهم الذين يزجرونهم إن عملوا عملًا أو قالوا قولًا دل على نفاق . فقد كانوا عليهم عيونًا وشرطة ودروعًا متطوعين ، وكثيرًا ما كانوا يتولون هم تأديبهم ونقل أخبارهم للرسول ، كما فعل عمير وغيره ممن سمعوا ووعوا، وعرفوا أن هذه الدعوة لا يمكن أن تثبت أو تستمر ، والمنافقون يهدمون بنيانها ، ويقفون حجر عثرة في طريقها .

كما أن الصحابة من الأنصار قد كشفوا خبايا المنافقين وقاطعوهم في كثير من الموقف حتى يرتدعوا عن غيهم وكانوا يذكرونهم بالإسلام وبمعجزات الرسول ـ كما سبق الحديث ـ والكثير منهم ارتدعوا وعادوا إلى جادة الصواب .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ٣٠١

وأيدت آيات القرآن الكريم صدق الأنصار وكذب المنافقين وضلالهم .

أما المهاجرون فإن عمر بن الخطاب كان على رأس قائمة المتشددين ، وكان عمر لا يستطيع أن يرى منافقًا في الإسلام يحيا تحت ظله ويؤدي شعائره ويقوم بواجباته ، ومن ثم ينطلق ليتآمر مع أعدائه ، ويجمع الجموع ويظهر حقده الباطنى لهذا الدين.

ومن المواقف الصلبة التي وقفها عمر بن الخطاب اعتراضه الرسول ﷺ عندما وقف ليصلي على عبد الله بن أبي ، وذكره بالآية الكريمة ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ﴾ [التوبة:٨٠] وقام الرسول مصليًا وقال :«**سأستغفر له سبعين وسبعين وسبعين**» كما قال .

كما أن أبا بكر ﷺ كان على خط عمر شديدًا على المنافقين في كل المواضع ، ويندرج على هذا الاتجاه مواقف بقية الصحابة . فالمهاجرون لا يرتبطون بالمنافقين برباط، بل روابطهم كلها قائمة مع إخوانهم الأنصار، بدأت ببدء الدعوة واستمرت قوية متينة لا ضلال فيها ولا نفاق ولا تبديل أو تغيير .

كما أن المهاجرين كانوا يتجنبون أن يكون بينهم وبين المنافقين تماس؛لأن المنافقين يرون في المهاجرين منافسين لهم في دورهم وفي أرضهم وبالقدر الذي أكرمهم به الأنصار وتسامحوا معهم بقدر ما كان المنافقون يرون بهم منافسين لهم سالبيهم حقًا .. وهذا ما جعل ابن أبي يقول : سمِّن كلبك يأكلك ، وكان بذلك يود أ ن يثير حفيظة الأوس والخزرج ليثوروا على المهاجرين وينحازوا إليه ضدهم ، حيث جاؤوا إليهم ضعفاء ، ثم سادوا عليهم .

وبذلك فقد كانت قضايا المنافقين تناط عادة بالخلص من الأنصار ليتولوا دحضها ودفعها عن جماعة المسلمين الذين كانوا جادين تماماً بإتمام بناء دولتهم على أسس العدل والحق والسلام .

(٤) انتهاء ظاهرة النفاق

إن استشراء النفاق في الأوس والخزرج في المدينة كان نتيجة لظروف وأحوال سياسية ودينية واجتماعية ، مرتبطة بتطور الحياة القبلية ووصولها إلى مرحلة متقدمة من الوعي السياسى القادر على الانتقال إلى مرحلة متطورة ، وكانت الملكية هى المحطة التالية التي توجه إليها اليثربيون لولا أن عاجلهم الإسلام والظروف الدينية هى وجود بعض المفكرين الذين وصلوا إلى مرحلة متطورة من التفكير الوثنى متأثرين ببعض تعاليم النصرانية أو اليهودية .

هاتان الظاهرتان كان يمكن أن تمرا بفترة ثبات لمدة محددة أو تزولا ، لولا أن جاء الإسلام الحنيف ليتحول إليه أهل يثرب بكل عزيمة وصدق وإيمان ، وبذلك فقد استشرى النفاق طالما أنه كانت هنالك عوامل تحميه وتقويه .

١ـ وجود الزعامات القبلية التي اتخذت اتجاها سياسيا ، وما فتئ الكثير من الأوس والخزرج يرتبطون بها على حداثة الانتقال من الوثنية إلى الإسلام وحكمه . وكانت هذه الزعامات قد كسبت من الجاهلية بعض الأتباع سواء منهم أصحاب النسب ، أو أصحاب المصلحة ، أو الذين أغلق الله قلوبهم عن ذكره . وبذلك فقد وجدت لها تجمعات وأتباعاً ومؤيدين .

٢ـ وجود الزعامات الدينية التي استغلت سماحة الإسلام،وانضوت تحت لوائه ـ على الرغم من الردة الظاهرة لهذه الزعامات، والتجائها إلى بؤرة الوثنية ومركزها؛ في محاولة يائسة لتثبيت الاعتقاد المنحرف وتدعيمه .

٣ ـ وجود اليهود في المدينة والذين كانوا ينفخون في رؤوس المنافقين ويمدونهم بالحيل والأفكار وحتى بالقوة إن اقتضى الأمر فتحالف اليهود والمنافقين كان ـ دائـمًا ـ مستمرًا ولم يتوقف ساعة من نهار ، وعادة ما عادوا ليجددوا هذه الأحلاف ؛

وأعادوها لتكون في مقدمة أهدافهم وتوجهاتهم ، ووجد اليهود في المنافقين مناخًا حسنًا لبث أفكارهم وأحقادهم .

٤ ـ اعتماد القوى الخارجية على المنافقين في المدينة ، وكثرة أعداء الإسلام في الجزيرة العربية وخارجها ، ولم تعدم الاتصالات إطلاقًا بين الروم والغساسنة من جهة، وبينهم وبين المنافقين من جهة أخرى وكان الذين ينقلون أخبار المسلمين للروم، وهم المولدون الذين كانوا يجرون اتصالاتهم بالمنافقين ويأخذون الأخبار منهم ثم ينقلونها إلى الرومان والغساسنة أو العكس .

إن حكمة الرسول ﷺ وضبطه أعصاب الصحابة ، قد أضعف النفاق كثيراً وفي الجانب الآخر كانت آيات القرآن الكريم تتنزل على قلب رسول الله ، لتكون كالصواعق الماحقة لهؤلاء المنافقين تدك حصونهم وتسفه أحلامهم وتفضح خططهم كما أن الناس قد انحازوا للإسلام بعد أن ثبت لديهم صدق نبوة محمد ﷺ ، والانتصارات المتلاحقة التي حققها المسلمون في زمن قصير جدًا في خلال تسع سنوات من بعد الهجرة ركز الإسلام راياته الخفاقة في اليمن ، وفي تخوم الشام ، وفي حدود العراق ، وفي الحدود البحرية والبرية للجزيرة العربية كلها . وأكدت الوفود التي وصلت المدينة فيما عرف بعام الوفود هذه السيطرة الكاملة والاعتراف بالسلطان السياسي والديني للإسلام على سكان الجزيرة ، هذه الانتصارات جعلت الكثير من المنافقين إما أن يفروا تاركين جزيرة العرب وأماكن نشاطهم وقبائلهم إلى مناطق أخرى ، وجدوا فيها المعونة والمساعدة ، أو أنهم انضموا إلى المسلمين وعملوا من خلال الجماعة الإسلامية ، وآخرون وجدوا في هذا الدين دين الحق والهدى فأسلموا وتركوا هذه الظاهرة

تأتي بالدرجة الأولى أسباب ضعف هذه الظاهرة بين الأوس والخزرج ، تخلي الأتباع عن زعماء النفاق ، فقد ترك الناس أبا عامر ليذهب إلى الروم على أمل أن يعطوه جيوشاً يعود بها إلى المدينة ، وموت عبد الله بن أبي أيضًا جعل الكثيرين ينفضون من حوله ، فلم يعد لهم زعامات تحركهم ، أو أهداف يسعون لتحقيقها من

وراء هذه الزعامات ، ومن ثم تحديد العلاقة بينهم وبين المسلمين ، وانكشاف كل خططهم وأعمالهم وفضح خباياهم بآيات القرآن الكريم التي عرَّت كل ما لديهم من أهداف ، وكل ما كانوا يقومون به من أعمال .

هدم مسجدهم ـ مسجد الضرار ـ وحرق ، وفشلت جميع مؤامراتهم التي قاموا بها من خذلان للمسلمين في معاركهم ، وفي خلق الفتن والأباطيل ، ومحاولتهم قتل الرسول ، كل هذا جعل هذه الظاهرة تنحسر تمامًا ـ خاصة في الأوس والخزرج ، وغلب عليهم العقل والنصرة .

خروج اليهود من المدينة،وكان المنافقون يجدون فيهم الحلف والنصرة والمساعدة ، ويتلقون منهم بعض ما عندهم من ترتيبات اليهود المعروفة ونزوات الشيطان . هذا أيضا أضعفهم ـ وخاصة ما حل ببني قريظة من قتل وسبى وتنكيل.

لم يعد يجد أعداء الإسلام في المدينة من يستمع إليهم ، أو يأخذ برأيهم بعد أن تمكن الإسلام من نفوس الناس ، وأصبح الأعداء والمنافقون قلة لا يحسب لها حساب، وربما بلغ نشاط المنافقين ذروته في غزوة تبوك ، حيث تمكن عبد الله بن أبي أن يجمع جموعه والمنصاعين لأمره ـ فكان عددهم كبيرًا إلى درجة أن ما جمعه ابن أبي ـ كما قالت كتب السيرة ـ ليس بأقل من جيش رسول الله ﷺ والذي قدر بين ثلاثين أو أربعين ألفا قد يكون عدد المنافقين مبالغا فيه ولو كان هذا العدد صحيحاً ، لتمكن ابن أبي أن يحتل المدينة ويمنع الرسول والمسلمين من الدخول إليها .

والمصادر تشير إلى أن أهل المدينة خرجوا لاستقبال الرسول إلى ثنية الوداع عند عودته من تبوك ونسب الكثيرون نشيد :«طلع البدر علينا» الذي تردد أنه تغنى به المسلمون عند مقدم الرسول إلى المدينة من مكة إنما هو مغناة لقدومه من تبوك ، حيث ثنية الوداع في شمال المدينة باتجاه الشام ، وليست باتجاه قباء ومكة لكن نستطيع أن نؤكد بأن العدد لم يكن سهلاً وقد انضم إلى ابن أبي كل الأعراب الذين وصفهم الله ـ تعالى ـ في هذه الغزوة وكذلك المنافقون واليهود وفلولهم في الجزيرة.

بعد تبوك خبا نجم المنافقين كثيرًا ، كشف عنهم رسول الله ـ فشلت مؤامراتهم ـ حرق مسجدهم ، وأخيرًا مات عبد الله بن أبي الذي كان مأوى المنافقين وسيدهم والمدافع عنهم .

إلا أن أمر النفاق لم ينته تمامًا ، فقد انتقل هذه المرة وبعد وفاة الرسول ﷺ إلى القبائل الكثيرة من الأعراب والحواضر الذين وفدوا على رسول الله يعلنون إسلامهم، وموالاتهم لهذا الدين،نتيجة قوته وثباته وانتصاراته المذهلة،وقضائه على الطواغيت في كل مكان، والتي كانت قد أخذت لها مواقع وموانع في كثير من الأماكن ، وجاء الأبطال والعظماء ـ والذين انهزموا أمام الإسلام ـ لتقديم الطاعة والرضا بالدين الجديد وبالواقع الجديد .

وما إن أشيع عن وفاة الرسول ﷺ في الجزيرة حتى استشرى النفاق ثانية في حركة تمرد هائلة، شملت أكثر أنحاء الجزيرة العربية ، وهى ظاهرة الردة ـ التي تعتبر أكبر أنواع النفاق ، وقد ثبت الإسلام على المدينة ومكة والطائف ، والجميع بعد ذلك دخلوا تحت مسميات كثيرة ناقصين عهد الإسلام ، متمردين على جماعة المسلمين . ظانين أن الأمر قد انتهى بوفاة الرسول ﷺ .

القسم الرابع

اليـــــــهـــــود

مدخل :

سبق الحديث عن اليهود في هذا البحث ، وعن تاريخهم وأحوالهم الاجتماعية ، والسياسية ، والأدبية ، والفكرية ، والدينية والاقتصادية واقتضى استكمال الموضوع دراسة أحوال اليهود في ظل الدولة الإسلامية ـ خاصة وأنه كان لهم في تاريخ الإسلام مواقف وأحوال وصلت إلى حد الحرب بينهم وبين المسلمين ـ وإلى مصادمات ومواقف أملتها تصرفاتهم وردود الفعل التي عبأت نفوسهم حقداً وحسداً على الإسلام والمسلمين ، ولقد تحدثنا بشيء من التفصيل بعد ذلك عن العلاقات المتغيرة بينهم وبين الأوس والخزرج ، كما أشرنا إلى علاقاتهم الداخلية والخارجية في الفترة التي سبقت دخول الإسلام إلى يثرب .

ونشير إلى موقف اليهود من الدعوة الإسلامية في مكة ـ باختصار ـ لندخل بشيء من التفصيل بعد ذلك عن مواقفهم بعد دخول الإسلام إلى يثرب .

ـ من المؤكد أن اليهود قد سمعوا بالدعوة الإسلامية ، فأخبار مكة في المدينة تصل يوميًا والعكس صحيح ، فالصلة بين المدينتين صلة قربى ومصالح لا تنتهي ، ولم يثبت أن اليهود قد دخلوا مكة لغير مصلحة تجارية: إما للحلف أو لدعوة أو لغير ذلك ، فإن هذا لم يرد في الأخبار . وقد أوضح الحبر لتبع عندما سألهم عن عدم دخولهم إلى مكة ، وأوصوه بأن يأتي الكعبة ويكسوها قالوا : أنهم لا يدخلون مكة لتكدس الأصنام فيها ، وأفادوا بأنهم يقدسون الكعبة ـ بيت أبيهم إبراهيم ـ إلا أن العرب حالوا بينهم وبينها بالأوثان التي يضعونها في كل مكان ، وقد لا يكون السبب مقنعًا تمامًا فقد عايش اليهود أهل يثرب وهم مع أصنامهم ومعبوداتهم

الوثنية ونتيجة لهذا، فإن اليهود كانوا لا يتشجعون للذهاب إلى مكة من منطلق عقدي بحت ، لكنهم لم ينقطعوا عن مكة بالتجارة وبالمصالح .

لكن أخبار النبي المرتقب عندهم سابقة لظهوره ، هذا ما أكدته كل المراجع التاريخية ولم ينكره اليهود،بل ثبتوه وأكدوه،وبأنهم مقتنعون بأن هذا النبي قد قارب زمانه وظهوره ، والبعض أكد باستعدادات نفسية ومادية لاستقبال هذا النبي .

سمع اليهود في المدينة عن ظهور الإسلام ـ على الأقل ـ من أحلافهم الذين عادوا من مكة من الأوس ، بعد أن التقى بهم رسول الله وعرض عليهم الإسلام (بعثة إياس بن معاذ) ، ومما لا شك فيه أنهم أخذوا يقارنون المعلومات التي تصلهم عن النبي وما عندهم عنه ، لكن المراجع ـ مع الأسف ـ لم تتطرق إطلاقًا ـ لا من قريب ولا من بعيد ـ إلى أي ردة فعل عندهم حول ظهور النبي المرتقب ، ولم نقع إطلاقًا على خططهم ، وما يمكن أن يفعلوه تجاه هذه الدعوة ، وهم ـ حسب روايات المؤرخين ـ مؤمنون بها سلفًا ، ولم يذكر لنا أحد من الصحابة أو من اليهود الذين أسلموا ، ماذا كان حال اليهود خلال ثلاث عشرة سنة عمر الدعوة في مكة ، والتي أصبح لها دوي كبير في مختلف أنحاء الجزيرة العربية ، ووصلت إلى أبعد من ذلك وصلت إلى أرض الحبشة ، ولم يبق وفد من وفود العرب إلى الحج أو التجارة إلا وسمع بمحمد .

وقد شرحنا تفصيلًا ردود الفعل لدى هذه الوفود إلا أن مؤرخًا ما لم يذكر لنا أن هؤلاء اليهود قد ساروا خطوة واحدة باتجاه هذا النبي الذي أقاموا الدنيا ولم يقعدوها ، بأنه سيظهر وينتصرون معه ، ولم يرد قول أو رأي فيه من أي مؤرخ خلال بعده عنهم في مكة .

ونقف حائرين في الواقع أمام هذا الحال ، كيف أن تجمعا كبيرًا مثل يهود المدينة، ويهود خيبر ، ويهود فدك وأم القرى ، وتيماء ، وهم ممتلئون شعورًا بالمذلة التي يعانونها من جراء مجاورتهم للأوس والخزرج ، ولولا الحروب المستمرة بين الحيين

من العرب لما تركوا في المدينة يهوديًا على ما أعتقد ، واعتقاداتهم ـ أي اليهود ـ أن وقت نصرتهم قد آن وحان بظهور النبي ، لم يفعلوا شيئًا حيال هذا النبي ، ولو من باب اختبار صدق الدعوة من عدمه لم يكتب لنا السابقون شيئًا عن وفد أو وفود يهودية قدمت إلى مكة تستطلع أخبار هذا النبي عن قرب وتسمع منه ، وترى مبلغ تطابق وصفه على ما عندهم من أخبار ..؟ كل هذا لم يرد ، وبدأ التاريخ يتكلم عن هذه العلاقة بعد الهجرة فقط ـ على الرغم من أنه لا أحد في جزيرة العرب يهمه أمر هذا النبي مثل اليهود ؛ لأنهم أصحاب كتاب ، ولأنهم يتحدثون ويأملون ويهددون بهذا النبي وعنه .

أما أن يقف اليهود جامدين دون حراك ومكة تغلي ، ويثرب تغلي ، والطائف كذلك ، وكل من يفد إلى مكة وهم جامدون فهذا ما أهمله التاريخ تمامًا . ولم يعطنا عنه خبرًا واحدًا .

سمع اليهود ـ ولا شك ـ بآيات القرآن الكريم المكية التي تتحدث عما في كتبهم من أخبار عن الأنبياء ، وعن الأقوام البائدة ، وعن موسى عليه السلام على الأقل ، فقد ورد خبره في كثير من الآيات المكية[1] .فكيف بهؤلاء لم يتحركوا ليستطلعوا خبر هذا الذي يذكر أنبياءهم: موسى وهارون وسليمان وكل أنبياء بني إسرائيل ، ويستفيض في بعض المواطن ويذكر أحداثًا خطيرة في حياة بني إسرائيل ، ومع هذا فإن اليهود لم يتحركوا وكأن الأمر لا يعنيهم إطلاقًا .

هل من المعقول أن يكون أحبار يهود وقتها قد صمتوا صمتًا مطبقًا ولم يتحدثوا إلى أتباع ديانتهم ليحصنوهم ضد هذا الدين على الأقل إن لم يعجبهم ، أو يهيئوهم لتقبله إن كان يطابق ما عندهم ؟ هل صحيح أن القرشيين لم يأتوا اليهود ، ويذكروا خبر هذا النبي ويسألونهم عنه وعن حاله وعن صدقه وعن كذبه ؟ هل يمكن لنا أن

---

(١) سورة الأعلى آية ١٨ ، ١٩ ، سورة الفجر : آية ١٠ ، سورة الأنعام : آية ٨٤ ، سورة الأعراف ذكر فيها موسى ٢١ مرة وهي من السور المكية ، وفي سورة يونس ثمان مرات وهي مكية وغير ذلك كثير: المعجم المفهرس : عبد الباقي من ٦٨٠ – ٦٨٢

نقتنع الآن بأنه لم يشعر اليهود إلا ومحمد بين ظهرانيهم ؟ هذه أسئلة محيرة في الواقع نحتاج للإجابة عليها إلى الاطلاع على الكثير من الحقائق والتي لا نملك ـ مع الأسف ـ منها شيئًا الآن .

سمع النجاشي ويهود الحبشة ـ رغم سيطرة النصرانية هناك ـ وسمع هرقل بالشام عن هذا النبي ، وتحدث التجار عنه وحجب الخبر عن يهود يثرب؟ أعتقد أن أمورا مهمة لم يعرها المؤرخون اهتمامهم ، وهو ذكر حال اليهود وردود أفعالهم عن هذا الدين طيلة الفترة المكية .

تحدثت كتب السيرة أن القرشيين ربما أعادوا التأكيد على اليهود ؛ ليعطوهم الرأي في محمد ﷺ بعد معركة بدر ، فأكد اليهود لهم أن دينهم الوثنى خير من دين محمد ؟ لكن ماذا كان جواب اليهود لقريش لو سألوهم ومحمد بين ظهراني قريش ـ هذا ما لم نقف له على ذكر ؛ لأن اليهود وقتها لم يكن بينهم وبين محمد أي احتكاك أو تصادم مصالح ، أو تسفيه أحلام ، أو كشف كذب ، أو رد شبهات ، وبذلك فهم لم يعطوا ردًا، ولم يقدموا مشورة .. وتبقى القضية غامضة دون جواب .

أفرد ابن هشام بحثا عن التباشير التي سبقت البعثة المحمدية ، وأورد أسماء بعض اليهود ممن كان عندهم خبر محمد ﷺ ومنهم ابن الهيبان الذي جاء المدينة يتلمس مبعثه ، ومات قبل البعثة ، والذين سمعوه أجلوا إسلامهم إلى السنة الخامسة للهجرة وأسلموا،وكان المسلمون يحاصرون بني قريظة وهم ثعلبة وأسيد ابنا سعية، وأسد بن عبيد .

وفي نهاية الحديث يقول ابن إسحاق : فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود .

وفي السيرة النبوية لابن هشام أيضًا[١] : فلما انتشر أمر رسول الله ﷺ في الغرب وبلغ البلدان ذكره بالمدينة ، ولم يكن حى من العرب أعلم بأمر رسول الله حين ذكر، وقبل أن يذكر من هذا الحي من الأوس والخزرج ؛ وذلك لما كانوا يسمعون من

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ١ / ٢٢٦ وما بعدها و ٣٠٢

أحبار يهود ، وكانوا لهم حلفاء معهم في بلادهم . فلما وقع ذكره في المدينة ، وتحدثوا بما بينه وبين قريش من الاختلاف قال أبو قبيس بن الأسلت أخو بني واقف وكان يحب قريشًا ، وكان لهم صهرًا، يأمرهم بالكف عن رسول الله... إلخ .

ونقف هنيهة عند خبر وفد قريش الذي أرسلوه إلى يهود المدينة يسألونه عن نبوة محمد ﷺ ، وهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط . وكان هدفهما سؤال أحبار يهود عن رسول الله بعد أن يصفا لهم أمره ، وينقلا لهم بعض قوله . وقالا للأحبار من يهود عند وصولهما : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما يهود سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، انظروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ؛ فإنه قد كان لهم حديث عجب . واسألوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه ؟ وسلوه عن الروح ما هي ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

وعاد الوفد ، وسألوا الرسول ﷺ فقال «أخبركم بما سألتم عنه غدًا»، ولم يستثن ، فانصرفوا عنه، ومكثوا ليالي وأيامًا بلغت خمس عشرة ليلة والوحي محبوس عن الرسول حتى تقول الناس ، وضاقت بالرسول الأحوال ، فأتاه بعد ذلك جبريل بسورة الكهف ـ ردًا على ما سأله القرشيون إلخ القصة [(١)]، وفي قوله ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء] تذكر كتب السيرة سؤال اليهود عن هذه الآية بعد ان هاجر إلى المدينة وليس قبلها عن المقصود بقوله تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء] . إيانا تريد أم قومك؟ قال :«كُلاً» . قالوا : تتلو فيما جاءك إنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء . فقال رسول الله :«إنها في علم الله قليل وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه» فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ١ / ٣٢٢

وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان] أي ان التوراة في علم الله قليل[1]

ويبقى التساؤل قائمًا . ماذا فعل اليهود إزاء دعوة محمد ﷺ وهو في مكة ؟

والجواب غير واضح سوى أنهم قالوا لقريش : إن أجابكم على ما سألتموه فهو نبي فاتبعوه ؟ كيف يطلبون من قريش اتباعه ويُخرجون أنفسهم من الموضوع ، وهم الذين وعدوا وتواعدوا بأنهم سيتبعون هذا النبي ، وهم لم يفعلوا .. ولن يفعلوا .

في تتبعي لأخبار إسلام عبد الله بن سلام أوقفني هذا الخبر .

وفي الخصائص الكبرى للجلال السيوطي عن تاريخ الشام لابن عساكر أن ابن سلام اجتمع بالنبي ﷺ بمكة قبل أن يهاجر فقال النبي :«**أنت ابن سلام عِلْمُ أهل يهود**» قال نعم قال :« نشدتك بالذي أنزل التوراة على موسى هل في كتاب الله» يعنى «التوراة ـ صفتي» ؟ قال: انسب ربك يا محمد ؟ فتوقف ﷺ . فقال جبريل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص][2]

فقال ابن سلام أشهد أنك رسول الله، والله مظهرك، ومظهر دينك على الأديان، وإني لأجد صفتك في كتاب الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب] أنت عبدي ورسولي إلى آخر ما تقدم عن التوراة، وهذا يدل على أن ابن سلام أسلم بمكة وكتم إسلامه ، ولكن يقال : كيف قال : فلما رأيت وجهه عرفت أنه غير وجه كذاب ؟ وكيف قال عرفت صفته واسمه وكيف أسلم ثانيًا؟ (وهذا كله قاله وهو في يثرب) .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٣٣٠

(٢) لم أقف على هذه القصة في أسباب نزول سورة الإخلاص . انظر:ابن كثير : تفسير ٤ / ٦٠٤، في ظلال القرآن:سيد قطب ٦ / ٤٠٠٢، والطبرسي: تفسير ١٠ / ٥٦٠،والقرطبي: تفسير٢٠/ ٢٤٤ السيرة الحلبية : على الحلبي ٢ / ١١٨ و ١٢٠

وأجيب بأنه فعل ذلك ثانيًا بالمدينة،إقامة للحجة على اليهود (السيرة الحلبية :على الحلبي) (٢ / ١١٩) ـ والسيرة النبوية : دحلان (٢ / ٣٤١).

إلى هنا والخبر مصدره ومكانه واحد ، ولم يتردد إلا هنا ، وشكوك المؤلفين ـ الشارح والمؤلف ـ قائمة ، ونضيف إلى شكوكهما شكنا أيضا في أن ابن سلام أسلم بمكة وإن كان ـ والله أعلم ـ فليس هو حجة على تقصير اليهود بالسعى إلى الرسول في مكة ـ والذي تقدم شرحه .

(١) مواقف اليهود من الدولة الإسلامية

كان الذي بشر بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة يهوديا .. بعد أن اشتد الحر على الناس ، فعادوا إلى دورهم ، فلما رآه صاح : يا أهل يثرب قد جاء صاحبكم .. من اللحظة الأولى كما نرى ، أخرج اليهود أنفسهم من أن يكونوا أصحابًا لمحمد ، ومنذ اللحظة الأولى اتخذ اليهود موقف الجار البعيد الذي لا يهمه من أمر جاره شيء ، لكن كان العكس تمامًا فإنه ـ هذا الجار ـ كان يعد نفسه لحرب هذا الجار وإزعاجه ما أمكنه ذلك .

ودخل الرسول ﷺ المدينة بين أصحابه ـ الأوس والخزرج ـ الأنصار ـ وانخذل المنافقون ، وبدأ تأسيس وتشكيل وتكوين الجماعة المسلمة من المهاجرين والأنصار .

لم يبد اليهود أية عداوة تذكر في المراحل الأولى ؛ لأنهم لم يعرفوا بعد ماذا عند الطرف الآخر ، سوى أنهم يودون أن لو كان هذا النبي منهم ، وبعثته في سواهم جعلتهم ينكمشون على أنفسهم ، يردون كل ما قالوه إلى قلوبهم ، وينسحبون من أقوالهم شيئًا فشيئًا . من البشارة إلى الرؤيا إلى الانتظار .. إلى العداوة .. هذه هى مراحل علاقة اليهود برسول الله ﷺ .

فقد وقف اليهود في الأيام الأولى موقف المنتظر،المتفحص،لكنهم أعدوا أنفسهم لأمر خطير وهو أن يوقعوا الرسول ﷺ في حرج أدبي بكثرة الأسئلة عليه ، وإحراجه وإظهاره بمظهر الأقل علماً منهم ، وبأن ما عندهم من العلم أكثر وأوسع.

إلا أن التغيرات التي حصلت في المدينة لابد من التفاعل معها ، فقد قدم المدينة أقوام جدد ، وأقاموا فيها ، وانتقل الرسول أيضا ليقيم بصورة دائمة في المدينة .

المسلمون من الأوس والخزرج في ازدياد مضطرد ، توحد كلمة الأوس والخزرج ، وطرح العداوة فيما بينهم ، بقاء بعض الأوس والخزرج على صلة باليهود ، كل هذه

الأمور أحدثت تغيرات جذرية في بنية المجتمع اليثربى ، وتغيرت الحياة ، وماتت الرتابة التي سيطرت على نفوس الناس فترات طويلة وعلى حياتهم أيضًا .

١ـ ولقد كانت أول صلة بين المسلمين واليهود هو التحالف الذي جرى بينهم، والذي ينص في جملة ما ينص على حماية المدينة من المغيرين عليها ، كما ورد ذلك في الصحيفة التي شملت مختلف الفئات في يثرب تقريبًا ، واليهود أحد هذه الأطراف ، واعتبروا كلهم فئة واحدة ما ينطبق على بني النضير ينطبق على بني هذيل وعلى قريظة وبني الحارث وقينقاع وكل بطون اليهود . الصلة الأولى هي إذاً الصحيفة ، والتي تركت لكل فئة حرية التصرف بشؤونها الداخلية والدينية فكان التحالف للدفاع ، أما الشؤون الخارجية فقد كانت من اختصاص الرسول ﷺ .

٢ ـ بعد توقيع الصحيفة وسريان مفعولها ، حدث تحرك جديد من الجماعة المسلمة،وهو القيام بالسرايا وهذا من شؤون الدفاع،وكذلك المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي من أهم الشؤون الداخلية ، وترتيب أمور الجماعة المسلمة ، وبدأت تتنزل الآيات المدنية التي تنظم التشريع وشؤون الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية ، والتي شملت أمور الناس من أعظم أمورهم إلى أدق القضايا والمشكلات .

نتيجة لذلك أخذ اليهود يعيدون حساباتهم ، يراجعون شؤونهم ، يدققون النظر في الآراء التي صدرت منهم قبل أن يأتي رسول الله إليهم ، واشتدت المناقشات في مدراسهم ومجتمعاتهم ، وبدا الجدل قويًا هذه المرة ، فلم يكن مطلوبًا منهم قبل هذا أن يدرسوا ويتفحصوا ويستعيدوا معلوماتهم ، باعتبار أنه لا خصم لديهم يحتاجون لجداله ، بل على العكس كان كل العرب يقرون بعلم اليهود ، وبأنهم أصحاب الكتاب الأول ، ويستفتيهم العرب ويسألونهم عن كثير من القضايا التي تتطلب علمًا منهم لكن الآن أصبح العلم اليقيني عند المسلمين ، وبدأت أفكار الإسلام تتنزل تباعًا تسفه آراء اليهود ـ وخاصة فيما جعلوه حقائق في أذهان الناس ـ والذي كشف القرآن زيفه وكذبه ، فاقتضى منهم ذلك الاستعداد الفكرى لمقابلة هذا التحدي الجديد ، الذي تنزل من السماء على قلب محمد ﷺ ، وجاء مطابقًا لأساس

أخبارهم مناقضًا لانحرافاتهم وتجاوزاتهم وتخرصاتهم . ولكن لم يصل هذا إلى حد التحدى السافر وذلك خلال السنتين الأوليين من تواجد الرسول ﷺ في المدينة .

٣ ـ قبل أن نحصي الفئات اليهودية ومواقفها المتباينة ، نقف على بعض المناظرات التي قامت بين الرسول ﷺ وبين اليهود ، وقد أعدوا كل ما أمكنهم من جهد وعلم حتى يمكن أن يدافعوا عما بين أيديهم من ضلالات . وقد كان هدف الرسول ﷺ منذ أن وطئت قدماه أرض المدينة أن يتفاهم مع اليهود ويدعوهم إلى كلمة سواء . يدعوهم إلى الإسلام، ويظهر لهم ما في كتبهم من الحديث عن صفته، وصدق نبوته، وهم يتهربون من ذلك ويتباعدون ، ويوقعون الرسول في مواقف حرجة ؛ وذلك تحقيقًا لما في نفوسهم تجاهه ﷺ من حقد وخبث .

ولقد التقى الرسول ﷺ ـ وقبل أن يدخل دار أبي أيوب وبوقت مبكر جدًا مع وفد من يهود ، ويتوافق ذلك مع إسلام عبد الله بن سلام ، ومنه نستشف أن اليهود قد أضمروا العداوة والبغضاء منذ اللحظات الأولى لوصول الرسول إلى المدينة .

قلت : وأسلم عبد الله بن سلام في أول قدومه ﷺ ، ففي البخاري من حديث عائشة التصريح بأنه جاء قبل دخوله ﷺ دار أبي أيوب لما سمع بقدومه ﷺ ، ثم رجع إلى أهله ثم قال ﷺ لأبي أيوب :**«اذهب فهيئ لنا مقيلا»** فقال قوما على بركة الله ـ أي هو وأبو بكر ـ قالت : فلما جاء النبي ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فاسألهم قبل أن يعلموا أني قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا في ما ليس في.فأرسل رسول الله ﷺ إليهم فدخلوا عليه. فقال :**« يا معشر يهود ويلكم اتقوا الله ، فو الله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقًا، وأنني جئتكم بحق، فأسلموا»**، قالوا ما نعلمه قال : **« فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ »** قالوا ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا

قال :«أفرأيتم إن أسلم .. ؟» قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم .. كرر عليهم ثلاثا فيقولون ذلك قال :« **يا بن سلام اخرج عليهم**» . فخرج عليهم فقال : يا معشر يهود اتقوا الله فو الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ﷺ ، وأنه جاء بالحق . فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله .

وفي رواية أن عبد الله بن سلام ، سأل رسول الله عن أشياء فلما أعلمه بها أسلم. وفي هذه الرواية ذكر قصة اليهود المتقدمة ، وأن عبد الله لما خرج إليهم وتشهد قالوا: شرنا وابن شرنا وتنقصوه فقال : هذا كنت أخاف يا رسول الله

ونصبت أحبار يهود العداوة للنبى ﷺ بغيًا وحسدًا [(١)]

وأضاف ابن هشام أن أهل بيت عبد الله بن سلام قد أسلموا معه بعد إعلان إسلامه ، وذكر أيضا كيف أنه كبَّر عندما وصل رسول الله إلى المدينة ، وكان في رأس نخلة فقالت له عمته ويلك والله لو كان موسى بن عمران القادم ما زدت عن ذلك . فقال لها : أي عمة والله هو أخو موسى بن عمران بعث بها بعث به . فقالت : أي ابن أخي أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟

قال : نعم ، قالت : فذاك إذًا ثم مضى وأعلن إسلامه كما سبق[(٢)]

وقد وقع لميمون بن يامين ـ مكان رأس اليهود ـ مثل ما وقع لابن سلام ، فإنه جاء إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ابعث إليهم ـ يعني اليهود ـ واجعلني حكمًا فإنهم يرجعون إلي . فأدخله وخبأه ، وأرسل إليهم فجاؤوه . فقال لهم :« اختاروا رجلًا يكون حكمًا بيني وبينكم».

قالوا : قد رضينا ميمون بن يامين . فقال :« **اخرج إليهم**» فخرج وقال: أشهد أنه رسول الله ، فأبوا أن يصدقوه وقد أشار إلى إنكارهم نبوته ﷺ مع معرفتهم لها صاحب الهمزية بقولة :

---

(١) وفاء الوفا : السمهودى ١ / ٢٧٤ ، والإصابة : العسقلانى ٢ / ٣٢٠ رقم ٤٧٢٥

(٢) السيرة النبوية ابن هشام ٢ / ١٦٣، والسيرة الحلبية على الحلبى ٢ / ١١٨ ،والسيرة النبوية:دحلان ١ / ٣٤٠

عرفـــوه وأنكـــروه وظلـــما كتمـــة الـــشهادة الـــشهداء

أو نـــور الإلـــه تطفئـــه الأفـــواه وهـــو الـــذي بـــه ستـــضاء

كيـــف يهـــدي الإلـــه مـــنهم قلوبًـــا حـــشوها مـــن جيبـــه البغـــضاء[١]

إلا أن الملاحظ ـ إذا تركنا هذه الحادثة النادرة ونعود للإشارة إليها ـ أن اليهود قد أعلنوا العداوة على رسول الله ، ومجمل الحوادث التي سجلها المؤرخون تشير إلى ذلك ، ولكن مع هذا فإننا يمكن أن نلخص مواقف اليهود من الدولة الإسلامية بالنقاط التالية :

١ـ منهم من صدق ولم يخادع نفسه وعرف أنه النبي المنتظر فأسلم ، وسقنا على ذلك مثال عبد الله بن سلام وميمون بن يامين بالإضافة إلى مخيريق .

قال ابن إسحاق وكان ممن قتل يوم أحد مخيريق وكان أحد بني ثعلبة بن الفطيون ، فلما كان يوم أحد قال يا معشر يهود والله قد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليوم يوم سبت .. قال : لا سبت لكم .فأخذ سيفه وعدته وقال : إن أصبت فما لي لمحمد يصنع فيه ما يشاء . ثم غدا إلى رسول الله فقاتل معه حتى قتل . فقال ﷺ :« مخيريق خير يهود»

قال السهيلي فجعل رسول الله أموال مخيريق (وكانت سبعة حوائط أوقافاً في المدينة لله) قال محمد بن كعب القرظى : وكانت أول وقف في المدينة[٢]

وقد أضاف ابن هشام: أن مخيريق كان حبرًا عالـمًا،وكان رجلًا غنيًا كثير الأموال من النخل . وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه . وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد[٣] وأسلم في غزوة بني قريظة ثعلبة وأخوه أسيد ابنا سعية وأسد بن عبيد ، كما سبقت الإشارة إليهم .

---

(١) السيرة الحلبية : على الحلبي ٢ / ١٢٠ ، والسيرة النبوية : دحلان ١ / ٣٤١

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٣ / ٧٢

(٣) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٦٤

وهم نفر من بني هديل ليسوا من قريظة ولا النضير ، نسبهم فوق ذلك هم بنوعم القوم أسلموا في تلك الليلة التي نزلت فيها قريظة على حكم رسول الله وخرج في تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظى ، فمر بحرس رسول الله وعليهم محمد بن مسلمة تلك الليلة فلما رآه قال من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سعدي . وكان عمرو قد أبي أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله وقال لا أغدر بمحمدٍ أبدا فقال محمد بن مسلمة حين عرفه اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام ، ثم خلى سبيله ، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله تلك الليلة ثم ذهب لم يدر أحد أين توجه من الأرض . فذكر شأنه لرسول الله ﷺ فقال : « ذاك رجل نجاه الله بوفائه»[١]

وكان ممن أسلم من نساء اليهود أم المؤمنين صفية بنت حيى زوج رسول الله من بني النضير وكان قد اصطفاها رسول الله من صفايا خيبر ، وعرض عليها أن يعتقها إن اختارت الله ورسوله، فاختارت الله ورسوله، فأسلمت فأعتقها وتزوجها وجعل عتقها مهرها. ورأى بوجهها أثر خضرة قريبًا من عينيها.فقال :«**ما هذا ..؟**» قالت : يا رسول الله رأيت في المنام قمرا أقبل من يثرب حتى وقع في حجري ، فذكرت ذلك لزوجي كنانة فقال تحبين أن تكوني تحت هذا الملك الذي يأتي من المدينة فضرب وجهي ... إلخ القصة[٢]

كما أن ريحانة بنت عمرو من بني النضير وكانت متزوجة رجلًا من بني قريظة يقال له : (الحلم) ، فنسبها بعض الرواة إلى بني قريظة . كانت من سبى قريظة ومن صفايا رسول الله فعرض عليها الإسلام والعتق والزواج منه فقبلت ، فأعتقها ﷺ وتزوجها وضرب عليها الحجاب[٣]

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٣ / ٢٣٢

(٢) الطبقات : ابن سعد ٨ / ١٢٠

(٣) الطبقات : ابن سعد ٨ / ١٢٩

وقد أسلم آخرون في توالي الأيام وحسن إسلامهم . مع أن الكثير من المؤرخين يجعلون إسلام اليهود من باب النفاق ، لكن آخرين فرقوا تمامًا بين من أسلم صادقًا وحسن إسلامه وبين من أسلم منافقًا من يهود .

٢ـ من اليهود من أسلم نفاقًا من أحبارهم على سبيل التقية ، كانوا كفارًا في الباطن فألحقهم بصنف المنافقين من بني قينقاع سعد بن حنيف ، ونعمان بن أوفي بن عمرو ، وعثمان بن أوفي ، وزيد بن اللصيت الذي قاتل عمر بن الخطاب ﷺ بسوق بني قينقاع ، وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ؟ وكان جواب رسول الله حين جاءه الخبر قال:«**وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله . وقد دلني الله عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها**» فذهب رجال من المسلمين فوجدوها . ورافع بن حريملة : وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ ـ فيما بلغني ـ حين مات «**قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين**»

ورفاعة بن زيد بن التابوت وهو الذي قال رسول الله ﷺ حين هبت الريح العاتية وهو قافل من غزوة بني المصطلق ، فاشتدت عليه حتى أشفق المسلمون منها. فقال لهم رسول الله :« **لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار**» فلما قدم رسول الله المدينة وجد رفاعة بن زيد بن التابوت مات اليوم الذي هبت فيه الريح

وسلسلة بن برصام ، وكنانة بن صوريا[(١)]

ـ كما أن عددًا من اليهود دخلوا في الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ وخربّوا فيه وكذبوا على رسول الله واختلقوا أحاديث عنه ، ولا مجال للخوض في تفصيلات أحداث هؤلاء الذين جاؤوا بعد ذلك .

٣ ـ الفريق الثالث من اليهود ـ وهم الغالبية العظمى ـ لم يكونوا إلا تبعًا لساداتهم وكبرائهم وأحبارهم ، وهؤلاء جرت عليهم أخطاء السادة والأحبار من القتال

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٧٤،والسيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٣٤٩

والإخراج والقتل . ولكنا نحب أن نضع حقيقة لابد منها وهي أن اليهود ـ بعامتهم دون خاصتهم ـ يحملون من الحقد والضغينة على من سواهم الكثير ، وتاريخهم ملئ بالدسائس والحروب والفتن ، وهم لا يتورعون إطلاقًا عن الإتيان بأي عمل من شأنه تحقيق مصالحهم والإضرار بالآخرين ـ واليهود جميعًا وبدون استثناء ـ منغلقون على أنفسهم لا ينظرون إلا من نوافذ عقائدهم ومصالحهم ، ولا يخرجون خارج الدوائر التي ترسم لهم ، ويعتقدون أن الناس ـ كل الناس ـ أقل منهم منزلة في الدنيا وعند الله ـ ﷻ ـ والناس ـ كل الناس ـ من مرتبة حيوانية لا ترقي إليهم .

هذه الخصائص التي يختص بها اليهود على مر الأزمان قد لازمتهم ـ دائما ، ولم يكن معاصرو الرسول ﷺ بأقل من هؤلاء فهما لعقيدتهم والالتزام بها ، واعتبار أن كل ما في الدنيا مسخر لهم ، وأن الخارجين عليهم إنما يخرجون على ذات الله فيهرق دمهم ، ومن هنا فإن اليهود لا يقبلون بحال مبدأ التعددية الدينية أو المذهبية ، فإما أن يكونوا حاكمين ظالمين قاهرين، أو محكومين متآمرين منافقين، ويسعون للوصول إلى كل خيرات العالم بكل الوسائل الغير مشروعة .

٤ ـ إن الفئة الحاقدة من اليهود هم الشريحة الكبيرة في المجتمع اليهودي ، فقد نصبوا للمسلمين العداء تجاوزًا لمعرفتهم بنبوة محمد وبأن دعواه الحق ، ونصبت أحبار اليهود للمسلمين وللإسلام العداوة والبغضاء والدس والافتراء لما خص الله ـ تعالى ـ به العرب بأن أرسل رسولًا منهم وهو خاتم الرسالات ومجمع النبوات والداعي إلى الهدى ودين الحق وللعالم كافة وانحاز إلى جانبهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عمي (بقى) على جاهليته فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث . إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام واتخذوه جُنة من القتل ، ونافقوا في السر ، وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبي ﷺ وجحود هم الإسلام وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله و يشقون عليه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه إلا قليلًا من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها .

- **الأعداء من بني النضير :** منهم حيي بن أخطب وأخوه أبو ياسر بن أخطب وجدي بن أخطب[(١)]

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : حدثت عن صفية بنت أخطب (أم المؤمنين) أنها قالت كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه قالت فلما قدم رسول الله المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين قالت فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني .

قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلى واحد منهما مع ما بهما من الغم .

قالت:وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي ـ حيي بن أخطب:أهو هو؟ قال : نعم والله .

قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت[(٢)]

ومنهم أيضًا سلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وسلام بن أبي الحقيق أبو رافع الأعور ـ وهو الذي قتله أصحاب رسول الله بخيبر ـ والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق وعمرو بن جحاش ، وكعب بن الأشرف وهو من طيئ ثم أحد بني نبهان وأمه من بني النضير والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، وكروم بن قيس حليف كعب بن الأشرف فهؤلاء من النضير .

- **ومن بني ثعلبة بن الفطيون** : عبد الله بن صوريا الأعور ، ولم يكن في الحجاز بزمامه أحد أعلم بالتوراة منه ، وابن صلوبا ـ ومخيريق وكان حبرهم وأسلم .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٦٠

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٦٦ . السيرة الحلبية : على الحلبي ٢ / ١١٢

- **ومن بني قينقاع** : زيد بن اللصيت ، وسعد بن حنيف ، ومحمود بن سيحان ، وعزيز أبو عزيز وعبد الله بن صيف .

قال ابن إسحاق : وسويد بن الحارث ، ورفاعة بن قيس ، وفنحاص ، وأشيع ، ونعمان بن أضأ ، ومجرى بن عمرو ، وشاش بن عدى ، وشباش بن قيس ، وزيد بن الحارث ونعمان بن عمرو، وسكين بن أبي سكين ، وعدى بن زيد ، ونعمان بن أبي أوفي ، ومحمود بن دحية ، ومالك بن صيف .

قال ابن إسحاق وكعب بن راشد ، وعازر ، ورافع بن أبي رافع ، وخالد ، وأزار ابن أبي أزار ، قال ابن إسحاق : ورافع بن حارثة ، ورافع بن حريملة ، ورافع ابن خارجة ، ومالك بن عوف ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وعبد الله بن سلام وكان حبرهم وأعلمهم ، وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله عبد الله فهؤلاء من بني قينقاع

من بني قريظة : الزبير بن باطا بن دهب ، وعزآل بن شمويل ، وكعب بن أسيد وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب ، وشمويل بن زيد ، وجبل ابن عمرو بن سكينة النحام بن زيد ، وقردم بن كعب ، ووهب بن زيد ، ونافع بن أبي نافع ، وأبو نافع وعدى بن زيد ، والحارث بن عوف ، وكروم بن زيد ، وأسامة ابن حبيب ، ورافع بن حريملة ، وجبل بن قشير ، ودهب بن يهوذا .

ومن بني زريق لبيد بن أعصم وهو الذي حاول أن يسحر الرسول (حاشية،ص ١٦٢) .

من بني حارثة : كنانة بن صوريا .

من بني عمرو بن عوف : قردم بن عمرو.

من بني النجار : سلسلة بن برهام .

فهؤلاء أحبار اليهود وأهل الشر والعداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه وأصحاب

المسألة والنصب لأمر الإسلام الشرور ليطفئوه ـ إلا ما كان من عبد الله بن سلام ومخيريق[(١)]

لقد أحصينا في السابق أسماء يهود على اختلاف اتجاهاتهم ومواقفهم من الدولة الإسلامية ، ونورد بعضاً من الدسائس التي حاولوا أن يوقعوا بها المسلمين .

وممن كان حريصا على رد الناس عن الإسلام أيضًا (شاس بن قيس) كان شديد الطعن على المسلمين ، شديد الحسد لهم .

مر يومًا على الأنصار ـ الأوس الخزرج ـ وهم مجتمعون يتحدثون ، فغاظه ما رأى من ألفتهم بعدما كان بينهم من العداوة . فقال : قد اجتمع بنو قيلة ، والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر فتى شابًا من يهود فقال له اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث ـ أي يوم الحرب الذي كان بينهم ـ وما كان فيه ، وأنشدهم ما كانوا يتقاولون به من الأشعار ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك .. ، أي قال أحد الحيين قد قال شاعرنا كذا .. وقال الآخر قال شاعرنا كذا ، وتنازعوا وتواعدوا على المقاتلة، أي قالوا: تعالوا نرد الحرب جذعةً كما كانت، فنادى هؤلاء : يا للاوس ونادى هؤلاء يا للخزرج ، ثم خرجوا إليهم وقد أخذو السلاح واصطفوا للقتال . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم . فقال :« يا معشر المسلمين الله .. الله ـ أي اتقوا الله ـ أبدعوى الجاهلية ـ أي يا للخزرج يا للأوس ـ وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ونعمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم»فعرف القوم أنها نزغة الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس الرجال من الخزرج ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ ، فأنزل الله في شاس بن قيس :

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٩﴾ [آل عمران][(٢)]

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ١٦٠ – ١٦٣ . السيرة النبوية: ابن كثير ٢ / ٣٤٣ – ٣٤٦ وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٧٤

(٢) السيرة الحلبية : علي الحلبي ٢ / ١١٥

ومن مواقفهم أنهم كانوا قد اتخذوا طريقًا هو سؤال النبي ﷺ يعتقدون أنه لا يعلم بها يسألون أحدًا سواهم ؛ وذلك ليحرجوه ، وليظهروا أنهم هم أصحاب الكتاب والديانة ومع أن الرسول ﷺ كان يجيبهم بعد أن يأخذ عليهم المواثيق والعهود إن هو أجابهم ، فإنهم ما يلبثوا أن يرتدوا حاقدين .

ومن هذا ما روته كتب السيرة عن محاولتهم أن يبينوا أنهم هم أصحاب الكتاب الأول والعلم ولا أحد سواهم . فقد سألوا الرسول ﷺ عن أربع وقالوا : إن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك وآمنا بك ، فقال لهم رسول الله ﷺ :« **عليكم عهد الله وميثاقه لئن انا أخبرتكم بذلك لتصدقني ..**» قالوا : نعم ، فسألوه ما أرادوا وأجابهم ـ محلفًا إياهم ـ بما عندهم من كتاب عن صدق ما يقول فيصدقوه ثم يرتدوا(١) . وقد ألفوا كثيرا عندما تحولت القبلة إلى مكة وأنزل الله بها قرآنا(٢) . وكانوا يكتمون ما في التوراة من حقائق .

سأل معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وخارجة بن زيد نفراً من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة فكتموهم إياه ، وأبوا أن يخبروهم عنه ، فأنزل الله ـ تعالى ـ فيهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (١٥٩) ﴾ [البقرة].

وكان الرسول ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ، ويذكرهم بعهدهم ، ويظهر لهم خبايا كتبهم وعقائدهم ، ولكنهم استمروا على كفرهم وعلى ضلالتهم مما سيأتي تفصيله لاحقًا

لقد كان همهم الأول الصد عن ذكر الله وتشكيك الناس بالإسلام ، والجهر بالعداوة وإنكار كل ما ينزل من حقائق ، ويمالئون المنافقين ويمدونهم ، ويتجرؤون على ذات الله تعالى ويدسون الدسائس بين الناس ـ وخاصة الأوس والخزرج

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ١ / ١٩١ – ١٩٨

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ١ / ٢٠٠

وكان حيي بن أخطب وأخوه أبو ياسر من أشد يهود العرب حسدًا ، إذ خصهم الله ـ تعالى ـ برسوله ﷺ . وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا . فأنزل الله فيهما : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة] (١)

ومع هذا فإن الرسول ﷺ عاملهم بالحسنى كثيرا ، إلا أنهم اشتطوا واستمرؤوا العداوة ، ووصل بهم الحال أن يجيشوا الجيوش ، ويتحالفوا مع أعداء الإسلام ولكن الله ـ تعالى ـ قد هزمهم دون أن يحققوا أي نصر يذكر.

---

(١) ابن هشام ١ / ١٩٦

(٢) مؤامرات اليهود وتحالفاتهم ضد الدولة الإسلامية

لقد عبَّر شاس بن قيس عن حقد اليهود على الإسلام بقوله : قد اجتمع بنو قيلة والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار هذه المقولة جاءت عبارة عن خبرة وتجربة الأعوام السابقة التي كانت بين الأوس والخزرج واليهود ؛ ولذلك فإنه رأي أن إعادة الوفاق والوحدة بين أبناء قيلة (الأوس والخزرج) يكفي ؛ لأنه ينالهم منها الذل والهوان ، فكيف إذا تدعم هذا الاتفاق بدعوة دين جديد أصبحوا هم فتوته وأصبحوا إخوة في الله جدداً ويقودهم نبى مرسل يوحي إليه من السماء .

لابد إذًا أن يعود اليهود إلى طبيعتهم العدوانية التآمرية ضد الإسلام وأهله ومعتنقيه ، وهو الدين الذي يسفه أحلامهم ويخطئ علومهم ويكشف أسرارهم ، وادعاءاتهم وتحريفاتهم ، وما كتبوه بأيديهم ونسبوه إلى توراة موسى عليه السلام ، وأخبار أنبيائهم الذين أنزلوهم فيما كتبوه إلى مراتب دنيا لا تليق بإنسان عادى فكيف بنبيٍ مرسل؟ أو رسول يوحى إليه؟ ولم يخل نبى من إلصاق بعض التهم اللاأخلاقية فيه. إن هذا الواقع الجديد الذي ذكر الأنبياء بمقامهم كرسلِ الله والصالحين من عباده هم فوق كل البشر معصومون من الله ـ تعالى ـ وما اختارهم إلا وأيدهم بملائكته وكتبه وخبره الذي أراده لهم ، ولذلك فقد كانت ردة الفعل قوية عندهم ، اختاروا لها أقسى أسلحتهم من المكر والخيانة والدسائس والتآمر .

لقد قبل اليهود ـ ممثلين بقبائلهم الكبيرة الثلاث : بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع المعاهدة مع الرسول والتي عرفت بالصحيفة ، وانطبقت بنود هذه الصحيفة على المنافقين وعلى بقية قبائل يهود الصغيرة ولم يكن لدى الفريقين من غير المسلمين معرفة بمدى قوة الإسلام ومدى مصداقية الدعوة ، وما ظنوها إلا طفرة بين العرب تنتهي بانتهاء قادتها والقائمين عليها أما أن تكون طليعة بناء دولة وتكوين أمة ذات خصائص متميزة أما أن يكون حقًا ظاهرًا يفند باطلًا ضالًا ؟ أما

أن يكون دينًا ودنيا ورسالة يكشف كذبًا وتلفيقًا وتأويلًا ، فإن هذه الأمور كلها لم تكن بالحسبان ، وبذلك فقد بدأت الأمور صغيرة وكبرت ، وكبرت إلى أن وقعت الواقعة على من أثارها وحركها وكانت راية الإسلام بعد ذلك هى الخفاقة المنتصرة بوعد الله الذي وعد عباده المتقين .

بدأت مؤامرات اليهود منذ أن عاد المسلمون من بدر منتصرين ، وما كانوا يتصورون أن الجماعة الجديدة قد حطمت هيكل قوة كانت قد فرضت سلطانها على الحجاز ـ سياسيًا ودينيًا وعسكريًا ـ في بعض الأحيان أخذت إتاوات وأعطت رشاوى ، ووصلت إلى مصاف الحكومات الحضرية ذات النفوذ مثل غسان ولخم وكندة . تُهزم بكل بساطة وتسقط هيبتها من عيون كل الذين لها في نفوسهم رهبة أو بعض الإجلال .

فتحرك اليهود بكل قواهم وكانت ردة فعلهم الأولى في سوق بني قينقاع كما سيرد تفصيل ذلك ، أما مؤامراتهم الكبرى في بني النضير فقد كانت أعظم وأكبر وغير ذلك من أحداث[1] لم يكتف اليهود بأفعالهم ، فقد قاموا بسحر الرسول ، سحره لبيد بن الأعصم اليهودى في مشط له ـ أي للرسول[2] ـ ولما لم تنجح هذه المحاولة حاولوا قتل الرسول بالسم في غزوة خيبر .

وفي هذه الغزوة سم رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية ـ امرأة سلام بن مشكم ـ شاة مشوية قد سمتها ، وسألت أي اللحم أحب إليه..؟ فقالوا : الذراع ، فكثرت من السم في الذراع ، فلما انتهش من ذراعها أخبره الذراع بأنه مسموم ، فلفظ الأكلة ثم قال :«**اجمعوا لي من ها هنا من يهود**» ، فجمعوا له . فقال لهم :«**إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي فيه ؟**» قالوا : نعم يا أبا القاسم. فقال لهم :« **من أبوكم ..؟** »قالوا أبونا فلان قال :« **كذبتم أبوكم فلان**» قالوا صدقت وبررت .

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ١٧٨

(٢) السيرة الحلبية : على الحلبي ٢ / ١١٣ ، صحيح البخاري بحاشية السندي ٤ / ٢٠

قال :« **هل أنتم صادقي في شيء إن سألتكم عنه ..** » ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا : فقال رسول الله :« **من أهل النار ..؟** » فقالوا : نكون فيها يسيرًا ثم تخلفوننا فيها . فقال لهم رسول الله :« **اخسؤوا فيها فوا الله لا نخلفكم فيها أبدًا** » ثم قال :« **هل أنتم صادقي في شيء سألتكم عنه ..؟** » قالوا : نعم . قال :« **أجعلتم في هذه الشاة سمًا؟** » قالوا : نعم ، قال :« **فما حملكم على ذلك ؟** » قالوا : أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيًا لم يضرك .. [(١)]

وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت:أردت قتلك .فقال:« **ما كان الله ليسلطك علي** » واختلف في قتلها فقيل إن رسول الله قتلها بعد موت بشر بن البراء بن معرور[(٢)] كما اختلف هل أكل النبي منها أو لم يأكل ؟ وأكثر الرواة أنه أكل منها ، وبقي بعد ذلك ثلاث سنين حتى قال في وجعه الذي مات فيه :« **ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة في خيبر، فهذا أوان انقطاع الأبهر مني** »[(٣)]

قال الزهري : توفى رسول الله ﷺ شهيدًا

وهكذا أضاف اليهود إلى جرائم ماضيهم جرائم جديدة منها قتل الصحابي بالسم ، وكانت المحاولة قتل النبي ، وإن كان قد سرى هذا السم في جسده كما قال ﷺ ، فإنهم بذلك قد أضافوا إلى قائمة الأنبياء الذين قتلوهم نبى الإنسانية رسول الله ﷺ . وصدق الله العظيم : ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾**﴾ [البقرة] .

---

(١) أخرجه البخاري ١٠ / ٢٠٩ ، ٢١٠ في الطب ٤ / ٢٢ ، ٢٣ باب : ما يذكر في سم النبي ، وفي الجهاد باب : إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفي عنهم ، وفي المغازي باب : الشاة المسمومة . وأبو داود (٤٥٠٩)، والدارمي ١ / ٤٢٣ . وأحمد ٢ / ٤٥ من حديث أبي هريرة ، إمتاع الأسماع ١/ ٣٣٥

(٢) أخرجه أبو داود ٤٥٠١ في : الديات ـ باب : فيمن سقى رجلا سما .

(٣) أخرجه البخاري ٤٤٢٨ في المغازي ـ باب : مرض النبي ووفاته .

ولم ينقض يوم إلا ويخرج من يهود مؤامرة ، ويخرج منهم شر ، ويخرج منهم ما يسئ إلى الله ورسوله . أما تحالفاتهم فقد ورد بعض الحديث عنها وهي أنهم اتجهوا لاتجاهين فضلًا عن اتصالاتهم أنفسهم :

الاتجاه الأول تقوية التحالفات مع المنافقين في المدينة ، فقد استعانوا بعبد الله ابن أبي ـ رأس النفاق ـ في غزوتي بني قينقاع والنضير ، وظنوا أن سعد بن معاذ مثله مثل عبد الله بن أبي فاستعانوا به ليحكم بينهم وبين رسول الله ﷺ في غزوة بني قريظة وظنوا ـ وخاب ظنهم ـ بأن سعدًا رأس المؤمنين من الأنصار ، وعبد الله بن أبي رأس المنافقين يستويان حكمًا ، وحكم سعد بن معاذ بحكم الله من فوق سبع سموات .

كما أنهم استعانوا بالمنافقين ليأخذوا منهم أخبار المسلمين.ودسوهم في كل مكان ، خاصة وأن صلة المنافقين بالأوس والخزرج صلة قربى .

أما تحالفهم في الخارج بالمنافقين فقد تحالفوا مع قريش بعد أحد وشهدوا بأن وثنية قريش خير من دين الإسلام عندما وجدها القرشيون فرصة سانحة لينالوا حجة من أهل الكتاب على المسلمين فكان جوابهم : بل دينكم خير من دينهم .

كما أن حيى بن أخطب قد جمع الجموع كلها في غزوة الأحزاب ، واتصل بكل القبائل العربية التي وجد أن لها مصلحة قد أصيبت من جراء قيام دولة الإسلام . فجند الأحزاب وجاء بهم إلى المدينة،فخرج من المدينة مع قومه بني النضير إلى خيبر، وهناك جعلها مركزاً للوصول إلى كل القبائل العربية الوثنية ، فجيَّش الجيوش وجمع القبائل واستطاع أن يساهم بجمع عشرة آلاف مقاتل حول المدينة .

وشجعه هذا بالدخول إلى المدينة والاتصال ببني قريظة ، والأحزاب تحاصر المدينة ، ويقول لكعب بن أسد ـ وكان صاحب عقد بني قريظة وعهدها لقد جئتكم والله بعز الدهر جيوش الأحزاب ، فقال له عزال بن سموأل والله لقد جئتنا بذل الدهر ـ وما زال بقريظة حتى أدخلها في حلف الأحزاب لقد أقدم اليهود في خيبر على فعلة قبيحة .

قال الواقدي وجلس محمود بن مسلمة الأنصاري تحت حصن ناعم يقع فيئه وقد قاتل ـ يومئذ ، وكان يومًا صائفًا فدله عليه مرحب اليهودي رحي فتهشمت البيضة وسقطت جلدة جبينه على وجهه وندرت عنه فأتى به إلى رسول الله فرد الجلدة كما كانت وعصبها بثوب لكنه استشهد بعد ذلك .

يعتبر تاريخ اليهود في ظل دولة الإسلام في المدينة سلسلة من المؤامرات والتحالفات ضد المسلمين وإثارة النعرات ، وشق الصفوف ، والهزء بالمسلمين وإسقاط هيبتهم ، وتكبير مشكلاتهم ولقد عادت إليهم أحقادهم الماضية ، ووجهوا سهامهم هذه المرة تجاه الجماعة الإسلامية متناسين أن بينهم وبين هذه الجماعة أحلافًا وعهودًا ومواثيق ، قبلوها عند وصول الرسول إلى المدينة .

(٢) اليهود ونقض العهود والمواثيق

كان نقض اليهود للمواثيق والعهود التي أبرموها مع الرسول ﷺ السبب المباشر لكل الحروب التي جرت بين المسلمين واليهود . وشملت هذه الحروب كل قبائلهم ولم يستثن منها أي قبيلة ، فجميعهم كانوا على طريق واحدة لكن كل قبيلة استغلت ظرفاً معيناً رأت فيه الوقت المناسب للانقضاض على المسلمين ومحاولة القضاء عليهم . وظن هؤلاء أن بمقدورهم أن يفعلوا ذلك ويكونوا هم البديل عن المسلمين في مجال العقيدة والدين .

خرج المسلمون من بدر منتصرين وغاظ هذا نفوس يهود بشكل لم يسبق له مثيل . فلم يكن في حسبانهم أن يتمكن القلة من المسلمين أن ينتصروا بهذا الشكل ، ويعلمون ـ لعنهم الله ـ أن قوله ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]. نزل فيهم وفي الفئة المؤمنة التي لم تخش جنود جالوت وبطشه .

كان من المفروض أن يؤكد انتصار المؤمنين في بدر ـ وهم الفئة القليلة ـ اليقين في نفوسهم بأن هؤلاء المؤمنين الذين ينطبق عليهم منطوق الآية إلا أنهم بدلًا من ذلك شهقوا واغتاظوا ، وملأت قلوبهم الأحقاد والضغائن فأخذوا يبحثون عن سبب ينقضون به ميثاقهم مع الرسول ﷺ .

وكان بنو قينقاع أكبر هذه القبائل من يهود وأغناها وأقواها شكيمة هي البادئة بهذا وكان سببها أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة مهاجرًا ، وادعته يهود كلها وكتب بينه وبينهم كتابا وألحق كل قوم بحلفائهم ، وجعل بينه وبينهم أمانا ، وشرط

عليهم شروطًا منها ألا يظاهروا عليه عدوًا . فلما قدم من بدر بغت يهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد[١] . ظنًا منها أنها هي أقوى من قريش وإن لقيها محمد ـ كما قالوا ـ فسيرى محاربين أشداء ـ كما سيرد تفصيل ذلك ـ وأدى هذا إلى حربهم وإخراجهم .

ثم بدأ الباقون من يهود يتحينون فرصة أفضل من فرصة بني قينقاع ؛ فإن هؤلاء قد غرتهم قوتهم وجاؤوا محمدًا بعد نصر مؤزر، فليكن سبيل الآخرين غير ذلك وهذا ما كان فعلا فبعد أن عاد الرسول ﷺ من أحد وقد أصابت منه ومن أصحابه قريش غرة ، وجد بنو النضير أن حالة الضعف هذه فرصة سانحة لنقض العهد والميثاق ، وأن محمدًا غير قادر على أن يفعل معهم شيئًا، وفعل حلفاؤهم من المنافقين فعلًا رديئًا مع محمد بانخذالهم عن المسلمين قبل المسير إلى أحد وفي الساعات الحرجة . ورفض الرسول أن يستعين بهؤلاء الحلفاء ليدخلوا معركة أحد معه .

كل هذه الأسباب كانت كافية لأن ينال اليهود ـ أيضًا ـ من المسلمين غرة وفرصة مواتية لنقض عهدهم مع الرسول وكانت الفرصة المواتية هذه عندما ذهب الرسول ﷺ إليهم يطلب منهم المشاركة المادية في دفع دية رجلين قتلا خطأً ، فوجد اليهود أن الوقت قد حان لقتل محمد والتخلص منه ومن دعوته ، وفعلًا تدبروا أمرهم ، وأرسلوا من يفعل ذلك إلا أن الله تعالى ـ قد أذهب كيدهم ، وأعلم الرسول بالأمر وأخبرهم بذلك، وكان ما كان من سبب مباشر لإجلاء بني النضير .

كان بنو قريظة أضعف يهود ، ومن مرتبة أقل من الباقين ، ولذلك فقد ثبتوا على عهدهم ولم ينقضوه فلعل ساعتهم لم تحن بعد وكان رسول الله حين قدم المدينة صالح قريظة والنضير ومن معهم من يهود ألا يكونوا معه ولا يكونوا عليه . ويقال: إنه صالحهم على أن ينصروه ممن دهمه ، ويقيموا على معاقلهم الأولى التي بين

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ١٠٤

الأوس والخزرج[١] لكن حيي بن أخطب ـ الذي خرج طريدًا ـ من المدينة ، عاد مع الأحزاب ودخل على كعب بن أسد القرظي ، وحاول أن يثنيه عن الاستمرار في عهده مع رسول الله ، واعترف كعب بأن ما بينه وبين محمد لم تشبه شائبة وقال ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم ، وإني قد عاهدت محمدًا فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا ، لكن حييًا دخل مداخل يعرفها في نفس يهود حتى تمكن من كعب ، فأخذ كعب الصحيفة ومزقها .

ولما جاءه سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة يسألانه عن الحقيقة قال ـ ضاحكًا ومستهزءًا مستكبرًا من رسول الله ..؟ لا عهد بيني وبين محمد ولا عقد[٢] ، وهكذا بدت البغضاء في نفوسهم ، وما تخفي صدورهم أكبر ومع ما أصاب هؤلاء من هزائم تتلوها هزائم ، فإنهم نقلوا مركز حربهم على الإسلام إلى خيبر وإلى فدك . وقد تركوا عيونًا لهم في المدينة اظهرت الإسلام نفاقاً ، كما وجدوا في المنافقين مدخلًا طيبًا يعتمدون عليه في الإيقاع بين المسلمين إن استطاعوا.وكل ما فعلوه ارتد عليهم وما في نفوسهم من الحقد والكره أكبر وأعظم.

ولقد كانت أكبر خيانة لهم في بني قريظة ـ في غزوة الأحزاب ـ إذ إن ما أصاب المسلمين من الخوف بنقضهم عهدهم كان أكبر من خوفهم من تحزيب الأحزاب ؛ لأن اليهود في هذه الغزوة كانوا قد نشروا عيوناً على المسلمين ، وبدؤوا يتحسسون مواقع الضعف فيهم ليضربوا ضربتهم فيها ، وجهروا بالعداوة واقتسموا غنائمهم قبل أن يدخلوا حربًا ، واقتسموا نساء النبي وأموال المسلمين وأبناءهم . وهمت بنو قريظة أن يغيروا على المدينة ليلًا وبعث حيي بن أخطب إلى قريش أن يأتيه منهم ألف رجل ومن غطفان ألف فيغير بهم ، فجاء الخبر بذلك إلى رسول الله ﷺ فعظم البلاء، وكان الخوف على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان، إلا أن الله رد بني قريظة عن المدينة بأنها كانت تحرس[٣] ، وهكذا

---

(١) إمتاع الأسماع ١ / ٢٢٩

(٢) إمتاع الأسماع ١ / ٢٢٩ ، السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٥٣١ .

(٣) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٢٢٨

أسقط اليهود عهودهم بأيديهم وخرقوها وخرجوا منها خاسرين فيها كلها، وخاب ظنهم ولم يتمكنوا أن ينالوا من المسلمين شيئًا .

قال مالك بن الصيف حين بعثه رسول الله ﷺ وذكر لهم ما أخذ عليهم من ميثاق ، وما عهد الله إليهم فيه: والله ما عهد إلينا في محمد عهدًا، وما أخذ له علينا من ميثاق، فأنزل الله فيهم : ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة].

(٤) حروب اليهود على الإسلام والمسلمين

جهر اليهود بالعداوة والبغضاء لله وللرسول وللمؤمنين ، وما وجدوا في دولة الإسلام إلا عدوًا يريد أن يكشف أسرارهم ويسفه أحلامهم ويظهر خباياهم ووجدوا في هذه الدولة الحق وفي رسولها الصدق ، واعترفوا بذلك رغم أنوفهم ، إلا أن مصالحهم وما جبلوا عليه من الغدر والخيانة أبت عليهم إلا أن يصفوا في مصاف الأعداء ، وإعلان الحرب على الإسلام والمسلمين ، ولم يتركوا بابا مفتوحاً إلا وولجوه بأضاليل وأباطيل وأسئلة ـ ظنًا منهم أنهم يعجزون الرسول ويحرجونه ـ وما وجدوا بابًا مغلقًا إلا وطرقوه حتى يسيؤوا لكل ما يقع تحت أيديهم. واحتمل المسلمون كثيرًا منهم ، واحتمل الرسول أكثر .

فإذا كان الكفار قد أنكروا ذات الله ـ تعالى ـ وأشركوا معه ما لا يضر ولا ينفع، فإن اليهود عرفوه وانتقصوا من قدرته وعظمته ، وأشركوا معه أنفسهم في تصريف شؤون ملكه . ولقد صبر الرسول ﷺ لعل الله يجعل في نفوسهم خيرًا فيسلموا ، إلا أنهم استكبروا وعتوا عتوًا كبيرًا ، وضلوا وأشركوا وتأولوا على الله بهتانًا وكذبًا .

كان هذا مقدمة لأن يصطدم المسلمون معهم وقتها وتبقى القضية ـ قضية اليهود من قديم وبعد هذه الحوادث وحتى اليوم ـ قضية تشغل بال العالم كله فما إن يجدوا في أنفسهم قوة حتى يأخذوا أعداءهم بأشد وأنكل ما يخطر على بال البشر ، وهذا تاريخهم الحديث شاهد صدق على ما نقول .

لقد وجدوا في رسول الله ﷺ القوة والمنعة والجهر بالحق ، ووجدوا في الصحابة جندا لا تأخذهم في الله لومة لائم ، فما استطاعوا أن يفعلوا في بناء الإسلام ـ وقتها ـ شيئاً ، وتحول كيدهم إلى نحورهم فذاقوا وبال أمرهم ، وتجرعوا مرارة فعلتهم ، لكنهم اليوم وجدوا في المسلمين الفرقة والضعف ، ووجدوا فيهم المهانة والمذلة فاستأسدوا وسادوا وحكموا ، وامتدت أيديهم ـ رغم صغر حجمهم ـ إلى أبعد المسافات ، حيث لا يصل إليها عادة أيدى الجبابرة . وما هذا الرد إلا رجاء العبرة

لمن أراد أن يعتبر ، أو يأخذ من التاريخ درسًا .

يمكن لنا أن نجعل بعض الملاحظات فيما وقع بين الرسول ﷺ واليهود :

١ـ لم يحصل أن اجتمع اليهود على حرب رسول الله ـ كقوة موحدة ـ بل حاربوه متفرقين ، وأعلنوا العصيان كل قبيل على حدة ، إلا ما كان من تجمع بعض أهل النضير مع بني قريظة وهم عدد ليس بكثير ، وكذلك تجمع أهل النضير مع أهل خيبر في خيبر .

٢ـ لم يصطدم الرسول ﷺ مع اليهود في حرب مكشوفة في لقاء مصادفة حتى تظهر بطولاتهم بل كانت الحروب معهم حصارًا ينتهي بأمر ما .

٣ ـ ساند المنافقون اليهود في مواقفهم المنفردة ، وسكت اليهود الآخرون عما أصاب إخوانهم .

٤ ـ لم يكن اليهود على قلب رجل واحد ـ لا فكرًا ولا سياسة ولا وحدة ولا قوة ـ وهذه الأمور أسقطتهم قبيلاً بعد قبيل حتى انتهوا عن آخرهم .

٥ ـ لقد تزوج الرسول ﷺ يهوديتين ـ كما سبق القول ـ ولم يتزوج أنصارية واحدة ، وطبعًا بعد إسلامهما .

٦ـ لوحظ اللقاء الفكري والسياسي بين اليهود والمنافقين بشكل واضح ، إلا أن اليهود مع هذا لم يطلعوا المنافقين على عقائدهم أو يطلبوا أن يتحولوا إلى دينهم، ومن هنا فإننا سنختصر تمامًا ما جرى من أحداث في هذه الغزوات :

١ ـ غزوة بني قينقاع[1] :

بعد عودة الرسول ﷺ من بدر ، بدأ يسمع الحسد من بني قينقاع ويسمع ما

---

(١) السيرة النبوية ابن كثير ٣ / ٥ ، والسيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ٥٠ ، و زاد المعاد : ابن القيم ٣/ ١٩٠ إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ١٠٣ ، و تاريخ الأمم الإسلامية : الخضري ١ / ١٠٩، ومن معين السيرة: الشامي ، ص ٢٢٢ ، والتاريخ الإسلامي : أحمد شلبي ١ / ٤٣٣ ، و المنهج الحركي : غضبان ١ / ٢٨٣

يشعر بنقض العهد . فلما كثرت ذلك منهم جمعهم في سوق بني قينقاع ، ثم قال :« **يا معشر يهود احذروا الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم ، وعهد الله إليكم**»

قالوا يا محمد إنك ترى أنا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، وقد أغلظوا في الجواب .

وكان ذلك إعلانًا منهم لنقض العهد ، فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله وقد كانوا حلفاء لعبد الله بن أبي ابن سلول ولعبادة بن الصامت . ونتيجة لنقضهم العهد[١] حاصرهم الرسول في حصنهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه فكتفهم وهو يريد قتلهم ، فقام إليه عبد الله بن أبي ـ حين أمكنه الله منهم ـ فقال أحسن في موالى ، فأبطأ عليه رسول الله فقال يا محمد أحسن في موالى ، فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله فقال له :«أرسلني» وغضب حتى رأوا لوجهه ظللًا ثم قال :«ويحك أرسلنى» . قال لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة . إني والله امروء أخشى الدوائر . فقال ﷺ :« **هم لك** ..».

أما عبادة بن الصامت فمشى إلى رسول الله فخلعهم وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم .

وبهذه الحادثة نزلت الآيات من سورة المائدة ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

---

(١) يشكك مؤلف كتاب : من معين السيرة النبوية الشامي ، حاشية ، ص (٢٢٣) في قصة المرأة المسلمة في سوق بني قينقاع التي كانت سببًا لقتالهم ؛ إذ عمد يهودي إلى رفع ثوبها فبانت عورتها فصاحت ، فأقدم مسلم على قتل اليهودي ، وأقدم اليهود على قتل المسلم ، وذلك من عدة أسباب أهمها : أن ابن إسحاق والطبري وابن سعد لم يذكروا الحادثة ، ثم أغمض اسم الثلاثة الذين كانوا سببا للحرب اليهودي والمرأة المسلمة والمسلم الغيور .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة]. وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة]

إشارة إلى عبادة بن الصامت وتبرئته من حلفهم ، ثم أمر بإجلائهم ، وغنم المسلمون أموالهم وقد استغرق خروجهم ثلاثة أيام وذهبوا إلى أذرعات في الشام [١]

٢- بنو النضير :

خرج رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه إلى يهود بني النضير وكانت حصونهم على ميلين من المدينة يستعينهم في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى حينما رجع من بئر معونة . فلما أتاهم قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم تجدون الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم ، فمن يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ليطرح عليه الصخرة . فأتى جبريل رسول الله وأخبره بما أراد القوم ، فقام ﷺ مظهرًا أنه يقضي حاجته وترك أصحابه ، ورجع إلى المدينة مسرعًا وفي رواية وأصح منه ما رواه ابن مردويه بسند صحيح ، أنهم أجمعوا على الغدر فبعثوا إلى النبي ﷺ أن اخرج إلينا مع ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار - مسلم - تخبره بأمر بني النضير ، فأخبر أخوها النبي ﷺ فرجع وصحبهم بالكتاب فحصرهم يومه ، ثم غدا على بني

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ٣ / ١٩٩ . من معين السيرة : الشامي ٢٦ . السيرة النبوية : ابن كثير ٣/ ١٤٥ .إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ١٧٨. تاريخ الأمم الإسلامية محمد الخضري ١ / ١١٧ التاريخ الإسلامي : أحمد شلبي ١ / ٤٣٤ . التاريخ الإسلامي : محمود شاكر (٢ / ٢٦٤). المنهج الحركي : غضبان (١/ ٢٨٨).

قريظة فحاصرهم فعاهدوه فانصرف عنهم إلى بني النضير[١] ثم فلما استبطأ أصحابه قال لهم حيي لقد عجل أبو القاسم كنا نريد أن نقضي حاجته ونقر به ، وخرج الصحابة في طلبه فعلموا بعد ذلك خبر ما أرادت يهود من الغدر .

وأمر الرسول لحربهم والسير إليهم وبعث عبد الله بن أبي إليهم ، أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . وفي رواية : إن قريشًا ـ أيضًا ـ شجعتهم على الثبات .

وهناك شعر لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قبل أن يسلم يذكر ذلك ولكن ابن أبي أبطأ عنهم وتخاذل . وحاصرهم الرسول أياماً ينتظرون ما وعدهم ابن أبي من النصرة . وأمر الرسول الله بقطع النخل والتحريق فيها إرهاباً لهم ، فلم يروا مؤازرة أحد ـ وحكمة الرسول ﷺ أنه عاهد بني قريظة وهم لا يعلمون عن أمر بني النضير شيئًا ـ سألوا رسول الله أن يجلبهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح . ففعلوا وحملوا أموالهم .

وكان الرجل يهدم بيته ليأخذ ما حسن من خشبه أو أبوابه فخرج بعضهم إلى خيبر وسار بعضهم إلى الشام . وذلك في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة . وقد نزلت فيهم سورة الحشر كاملة وبمن وعدهم بالنصرة والمساعدة من المنافقين ، وفي تصوير فئات الجماعة المسلمة من المهاجرين والأنصار والتابعين ، وقد وزع الفيء على المستحقين من المهاجرين والمحتاجين من الأنصار بعد أن أذن الأنصار بذلك .

٣ـ غزوة بني قريظة [٢] :

لم يبق في السنة الخامسة للهجرة بعد إجلاء بني النضير في المدينة إلا يهود بني

---

(١) وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢٩٨

(٢) تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم ١ / ١٢٠ ، و التاريخ الإسلامي : محمود شاكر ٢ / ٢٨٩ ، وتاريخ الأمم الإسلامية ١ / ١٢٢ ، ومن معين السيرة : الشامي ، ص ٢٩٥ ، و السيرة النبوية : ابن هشام ٣/ ٢٤٤ . السيرة النبوية : ابن كثير ٣ / ٢٢٣ ، إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٢٤١ . وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٣٠٥ ، و التاريخ الإسلامي : أحمد شلبي ١ / ٤٣٦ ، والمنهج الحركي غضبان ١/ ٢٩٥ ، و السيرة النبوية : الندوي ٢٠٩ – ٢٢١ ، و حدائق الأنوار : الشيباني (٢ / ٥٩٣)، وغير ذلك .

قريظة . وحكمة الرسول ـ كما سبق القول ، أنه عرَّج عليهم فقوى معهم الحلف قبل أن يضرب الحصار على بني النضير ولم يمض كبير وقت حتى خرج يهود بني النضير الذين رحلوا إلى خيبر باستثارة المشركين والوثنيين على الرسول واستطاعوا أن يجمعوا عشرة آلاف من المشركين ، حيث كان ذلك أضخم وآخر تجمع وثني بهذا العدد في جزيرة العرب وسبق الحديث عن هذا التجمع وهذه الأحزاب ودور اليهود في تجميعه . ولم يبق أمام هذا التجمع ليقوم بهجومه الأخير والحاسم على المسلمين سوى استمالة بني قريظة المتواجدين في المدينة فإن ظفروا بموافقتهم فسيكون مصير المسلمين إلى زوال ، فالأعداء من خلفهم ومن أمامهم وفي وسطهم ويخرجون إليهم من كل فج .

وعميل آخر في المدينة كان له دوره الفاعل في هذه الحرب وهم المنافقون الذين يؤثرون السلامة ولا مصلحة لهم في الحرب بجانب الرسول ، ولا يمكن لهم أن يقوموا بالانضمام إلى أعدائه . يمكن خذلانه لكن تكون النتيجة الوقوف على الحياد وقلوبهم مع المشركين . لكن لهم دور كبير في هذا المقام فهم مثبطون ومتخاذلون ، ومخذلون ، وخائفون من هذا الجمع الكبير والحشد الهائل من الأعداء ، والمسلمون لم يصلوا بعد إلى ثلاثة آلاف ، وعليهم أن يجابهوا هذا الجيش الكبير وفي كل الجبهات الأخرى في الليل وفي النهار وفي المنشط وفي المكره ، وهذا هو الحال الذي أوصل القلوب إلى الحناجر .

ومن محطات الأمل كان المسلمون يبحثون عن نصير ـ ولا نصير إلا الله . تكلمنا عن مخازي المنافقين ـ وقتها ، وحديثنا الآن عن اليهود مع ورود إشارات واضحة لبعض المواقف في هذه الغزوة نظرًا لتداخل أحداثها وأبطالها. بنو قريظة بينهم وبين الرسول عهود ولم يتدخل هؤلاء في إخراج بني قينقاع أو إجلاء بني النضير ، وليس لهم مصلحة واضحة مع المشركين ؛ لأنهم بجوار المسلمين ويعلمون إلى أي حد وصلت حدود قوة المسلمين وقتها، فلا طاقة لهم مع المسلمين منفردين .

حسب بنو قريظة كل هذه الحسابات واستمروا مبدئيا على عهودهم . لكن ما أن

وصلت الجيوش وضربت عساكرها حول المدينة وعشرة آلاف مقاتل بكامل عددهم وعدتهم ، وقادة حاقدون أصابهم من الإسلام الكثير وفي مقتل ، والمدينة أضحت جاهزة الآن لأن تهدم فوق رؤوس أصحابها وأوقدت النيران لإطعام الجنود،وبرزت الكتائب والرايات، وانقلب ليل المدينة نهارًا لنيران القوم . وأظلمت طرقاتها ـ خوفًا وهلعًا ـ وأغلقت الآطام والحصون . ووزع الحراس في كل مكان وواصل المسلمون السهر في الليل والنهار متتالين خوفًا من غرة ينالها المحاصرون ، ومع كل هذا فقد خرج من المدينة العدو الأكثر تأثيرًا وهم بنو قريظة .

ومن تكرار القول الإعادة بأن حيي بن أخطب ما زال بكعب بن أسد حتى غير موقفه من المسلمين والمشركين ، ومزق صحيفة العهد بينه وبين الرسول ، وأقنعه بأن نهاية محمد قد آذنت ، وعليه أن ينال ثأره وغنيمته ويشيع أحقادًا دفينة في نفسه . ومع تردد كعب بن أسد وشهادته بأن محمدًا قد وفي لهم بعهدهم ولم يجدوا به إلا وفاء . وقال القرظيون لحيي في هذا الموقف : إنك امرؤ مشؤوم وقد شأمت قومك حتى أهلكتهم فارجع عنا . لكنهم مع هذا أطاعوه ونقضوا العهد واستدعى رؤساءهم وهم الزبير باطا ، ونباش بن قيس ، وعزال بن السموأل ، وعقبة بن زيد وكعب بن زيد وأعلمهم بما صنع من نقض العهد فَلَحَمَهُ الأمر لما أراد الله من هلاكهم .

ووصل الخبر إلى الرسول ﷺ أعلمه بذلك عمر بن الخطاب ، فأرسل الرسول الزبير بن العوام يستطلع الخبر ، فوجد أن القرظيين قد أخذوا يحصنون حصونهم ويجمعون عدد الحرب ويدربون جنودهم ، وقد جمعوا ماشيتهم ، ويهيئون أنفسهم لحرب محمد وأصحابه كان هذا من الخارج أما وإن أصحاب الحلف من الأنصار فقد أرسل رسول الله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير لينظروا أمرهم . وأن يلحنوا له لحنا يعرفونه إن هم نقضوا العهد ، وليكبروا إن كان غير ذلك .

وعاد هؤلاء من لقاء سيىء مع اليهود أظهر به هؤلاء كل ما في نفوسهم من حقد تجاه الرسول والمسلمين ، وأنكروا أي عهدٍ أو ميثاقٍ مع محمد .. بل قالوا: ليس هذا

رسول الله ؟ ومن هؤلاء المسلمون؟ . وكانت حكمة سعد بن معاذ لسعد بن عبادة ، وأن ما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة : دعهم يا سعد ، وأخبروا رسول الله بغدرهم تشبيهاً بأصحاب الرجيع (عضل والقارة) وانتهى الخبر للمسلمين فاشتد الخوف ، وعظم البلاء ، ونجم النفاق ، وفشل الناس وكانوا كما ـ قال تعالى : ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].وهمت بنو قريظة أن يغيروا على المدينة ليلًا وبعث حيي لقريش أن يأتيه ألف رجل منهم وألف من غطفان وليتقوموا بالغارة على المسلمين فبلغ رسول الله ذلك وعظم البلاء ، فبعث رسول الله سلمة بن أسلم الأنصاري في مائتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير ، ومعهم خيل المسلمين ، وكان الخوف على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان ، ورد الله بني قريظة عن المدينة لأنها كانت تحرس .

وتجري أحداث الحصار المحيط بالمدينة ، وتخرج في كل لحظة من لحظات هذا الحصار قصص وأخبار ، والجيش يضيق الخناق على المدينة ، وبنو قريظة يضيقون أكثر ، والأيام تمضي لا يعرف ليلها من نهارها . حتى جاء فرج الله ـ تعالى ـ بإسلام نعيم بن مسعود ، فاستطاع أن يزرع الشك في نفوس قريش وبني قريظة وعدم الثقة بينهم وأرسل الله ـ تعالى ـ الريح تعصف في هذا الجيش حتى اقتلعته عن آخره وأصبح كل جندى ينشد راحلته ليذهب إلى أهله ، وقلع الله بهذه الريح كل جذورهم ، وقلع خيامهم فكان معجزة من المعجزات التي أيد الله بها رسوله في يوم عسرة .

خرجت الأحزاب وتركوا حلفاءهم ـ بني قريظة ـ في مواقعهم ؛ ليكون يوم الحساب . وكان رسول الله ﷺ يدعو عليهم بقوله :«اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ـ اللهم اهزمهم» فاستجاب الله دعاءه ، وصرف عن المسلمين بلاءهم وأبقى الخونة في مساكنهم .

وانتهى الحصار وجاء الفرج من الله الواحد القهار ، وأمد الله المسلمين بجنود لم يروها وصرف الأحزاب عنهم فعاد رسول الله إلى بيته منهكًا بعد هذا الحصار الطويل ، فاغتسل وجاء بالمجمرة ليتجمر وقد صلى الظهر ، فأتاه جبريل عليه السلام وقت الظهر ـ على بغلة عليها رحاله عليها قطيفة ، وعلى ثناياها النقع ـ فوقف عند موضع الجنائز فنادى : عذيرك من محارب ، فخرج رسول الله فزعًا ، فقال له جبريل: أراك وضعت اللأمة ولم تضعها الملائكة بعد .. لقد طاردناهم إلى حمراء الأسد إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة فإني عامد لهم فمزلزل بهم حصونهم .

وبعث رسول الله بلالًا فأذن في الناس : إن الله يأمركم ألا تصلوا العصر إلا في بني قريظة ، فدعا رسول الله عليًا فدفع إليه لواءه ، وبعث منادياً يقول : يا خيل الله اركبي ، ولبس عدة قتاله ، وركب فرسه ، وركب أصحابه خيولهم ، وكانوا ستا وثلاثين فرسًا . ومر بنفر من بني النجار قد وضعوا عليهم السلاح فقال :«هل مر بكم أحد ؟» فقالوا : نعم دحية الكلبي أمرنا أن نلبس السلاح . وقال : يطلع عليكم رسول الله الآن . فقال :«هذا جبريل»

وانتهى إلى بني قريظة وقد سبق على في نفر من المهاجرين والأنصار وغرز الراية عند الحصن، فاستقبلهم اليهود يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه فسكت المسلمون وقالوا : السيف بيننا وبينكم .

وسار رسول الله حتى وصل إلى يهود ، وتقدمه أسيد بن حضير فقال : يا أعداء الله لا نبرح حصنكم حتى تموتوا جوعًا ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب من جحر. قالوا يابن الحضير نحن مواليك دون الخزرج وفازوا فقال : لا عهد بيني وبينكم ولا إِلْ : (العهد والحلف والقرابة والجوار) .

ودنا ﷺ منهم وقد ترس عنه أصحابه فقال :« يا إخوة الخنازير والقردة وعبدة الطواغيت أتشتمونني ؟» فجعلوا يحلفون ما فعلنا ويقولون : يا أبا القاسم ما كنت جهولًا

واشتد عليهم الحصار فنزل نباش بن قيس وكلم رسول الله على أن ينزلوا على ما

نزلت عليه بنو النضير له الأموال والحلقة ويحقن دماءهم ويخرجون من المدينة بالنساء والذراري ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على حكمه ، وعاد نباش بذلك إليهم، فأشار أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يخرجوا فيقاتلوا حتى يقتلوا أو يظفروا؛ فأبوا ذلك فأشار عليهم أن يخرجوا ليلة السبت والمسلمون آمنون فيأتونهم فقالوا : لا نحل السبت ، واختلفوا وندموا على ذلك .

واشتد على يهود الحصار فطلبوا أبا لبابة بن عبد المنذر بالقصة المشهورة ، حيث أشار إلى حلقه عند ذكر حكم رسول الله وكان على الجند فذهب ندمًا بعد هذا وارتبط بالمسجد خمسة عشر يومًا حتى عذره الله ـ تعالى واستعمل الرسول على الجند أسيد بن حضير .

ونزل بنو قريظة على حكم رسول الله فأخذ مقاتليهم وكتفهم وجعل على أكتافهم محمد بن مسلمة ونحوا ناحية ، وأخرج النساء والذرية والأموال والسلاح والثياب وما شابه ووضعهم في ناحية واستعمل عليهم عبد الله بن سلام .

وطلبت الأوس من رسول الله أن يهب لهم بني قريظة فإنهم حلفاؤهم ، كما وهب لابن أبي بني قينقاع حلفاءه. فقال :« **ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟**» قالوا : بلى . قال :« **فذلك إلى سعد بن معاذ**»

وسعد ـ يومئذ ـ جريح في المسجد في خيمة رفيدة فخرجت الأوس فحملوه على حمار ، وجعلوا ـ وهم حوله ـ يقولون يا أبا عمرو، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحسن فيهم ، فأحسن فقد رأيت ابن أبي ماذا صنع في حلفائه ، وأكثروا في هذا وشبهه وهو لا يتكلم ، ثم قال : آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

وكان سعد عندما أصيب بالخندق قد دعا الله بقوله : اللهم إن أبقيت من حرب قريش فلا تمتني حتى أقر نفسي في بني قريظة ، ثم اجعلها لى شهادة .

وما أن وصل إلى رسول الله والناس حوله قال :« **قوموا لسيدكم**» فقاموا على أرجلهم صفين يحميه كل منهم .

وقالت الأوس الذين حضروا يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك الحكم فأحسن فيهم ، واذكر بلاءهم عندك .

فقال سعد لبني قريظة : أترضون بحكمي ؟ قالوا نعم فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم . ثم أمال برأسه إلى رسول الله وقال ومن هنا أيقبل حكمي؟ قال رسول الله :« **نعم**» فقال سعد : فإني أحكم فيهم أن يقتل من جرت عليه المواسي ، وتسبى النساء والذرية وتقسم الأموال .

فقال رسول الله ﷺ :«**لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع أرقعة - سبع سموات**» كان هذا هو جزاء بني قريظة وقتل مقاتلوهم وكانوا حوالي ٤٠٠ أربعمائة مقاتل وسبيت النساء والذرية . وجاء دور حيى بن أخطب - رأس اليهود وصاحب حلفهم ورأس حقدهم - مر أمام رسول الله ﷺ فقال له :« **ألم يمكن الله منك يا عدو الله ؟**» فقال حيى : بلى والله . ما لمت نفسي في عداوتك ، ولقد التمست العز في مظانه فأبى الله إلا أن يمكنك مني ولقد قلقلت كل مقلقل ، ولكنه من يخذل الله يخذل ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس لا بأس بأمر الله قدر وكتاب ، ملحمة كتبت على بني إسرائيل . فأمر بضرب عنقه .. وقتل الآخرين من طواغيت اليهود وتحكى كتب السيرة ما آل إليه مصير هؤلاء الرجال والنساء والذراري والأموال . وقتل مع المقتولين امرأة واحدة وهى التي ألقت الرحى على خلاد بن سويد فقتل تحت الحصن . وهى بنانة امرأة الحكم القرظى وهى من السبى .

وهكذا انتهى أمر بني قريظة إلا من أسلم منهم وهم ثلاثة ، والرابع خرج ولم يعلم مكانه بعد أن رفض أن يدخل في حصنهم وانتهى بانتهاء بني قريظة أمر اليهود في المدينة وذلك في السنة الخامسة للهجرة . وتزوج رسول الله ﷺ بريحانة بنت زيد بعد أن أسلمت فأعتقها وتزوجها

واستشهد سعد بن معاذ ﷺ . انفجر عليه جرحه فمات ، وكان من الإعجاز في موته الشيء الكثير . وسار حسيل بن نويرة الأشجعي يومين حتى قدم خيبر وأعلم

سلام بن مشكم وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ويهود بني النضير ويهود خيبر بنهاية بني قريظة . فقال سلام بن مشكم وكانت له رياسة بني النضير يوم بعاث : هذا كله عمل حيى بن أخطب لا إقامة يهودية بالحجاز أبدا ، وصاحت نساؤهم وأقمن المآتم وفزعت اليهود إلى سلام ليروا رأيه ، فأشار عليهم أن يسيروا معه ويهود تيماء ووادى القرى ولا يجلبوا أحدًا من العرب حتى يغزوا محمدًا في عقر داره فوافقوه على ذلك[1]

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٢١٥ – ٢٣٥ خبر الخندق وقريظة بتصرف .

(٥) سرايا المسلمين ضد اليهود

انتهت المدينة - كمركز مهم جدًا ـ لتجمعات اليهود. وخرج أو قتل من كان فيها نتيجة المؤامرات والخيانات التي ارتكبوها وانتهى توجه اليهود وبشراهم بالرسول المرتقب . جاء الرسول وكفر المبشرون به وخانوه وغدروا به ، وبذلك فقد انتقل الثقل اليهودي في الحجاز إلى خيبر ، ولم تكن خيبر بأهمية المدينة ؛ وذلك تأكيدا لما قاله سلام بن مشكم بأن قتل بني قريظة وخروج اليهود من المدينة لقد انتهت اليهودية في الحجاز .

فالمدينة من أهم الحصون التي كانت لهم واكتسب أهلها شهرة وقدمًا وقوة حلف وأملاكًا وآطاما، لكنها انهارت كلها خلال ثلاث سنوات تقريبًا من ٢ـ ٥هـ . فهل ارتدع اليهود وأعادوا حساباتهم؟وصدقوا توراتهم وكتبهم وأسفارهم؟هذا لم يحصل بالطبع فقد استمروا على تعنتهم وجبروتهم وطغيانهم ، وكان رد الفعل الأول لهم هو أن يجتمع يهود الجزيرة ومن دون العرب ويهاجموا المدينة وينتقموا لليهود فيها

واكتملت الصورة تمامًا من جراء هذا التفكير ، ولقد تمكن المسلمون من دخول خيبر وقتل سلام بن أبي الحقيق ، وكان رأس العناد والكفر والجبروت والعداوة للمسلمين

انتقلت زعامة اليهود إلى «أسير بن رزام» فبدأت خطته التي رددها سلام بن مشكم ، واقتنع أسير هذا بأن محمدًا ما سار إلى أحد من يهود ، ولا بعث أحدا من أصحابه إلا أصاب منهم ما أراد ، فيجب أن تتغير الخطة القديمة وبديل تلك الخطة خطة أسير الجديدة ، سئل عنها فأفاد : أسير في غطفان فأجمعهم ، ونسير إلى محمد في عقر داره ؛ فإنه لم يغز أحد في عقر داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد .

فأجاب اليهود بالموافقة ، وبدأ تنفيذ الخطة ، وسار أسير على خطى حيى بن

أخطب إلى غطفان ، ليجمعهم على حرب محمد ﷺ ، وبلغ ذلك رسول الله ، فبعث عيناً له يأتيه بالخبر اليقين .

وجه عبد الله بن رواحة الأنصارى في ثلاثة نفر في شهر رمضان سراً ليكتشف له الخبر ، فسأل عنه وعن خبره وغرته ـ أي غفلته ـ فأخبر بذلك ، وتفرق الجمع في حصون خيبر وسمعوا وتأكدوا وعادوا ولم يبق من رمضان إلا أياما ثلاثة ، كما تأكد الخبر بخبر آخر من خارجة بن حسيل الذي قال بأنه ترك أسير بن رزام بكتائب يهود متوجهًا إلى يثرب انتدب رسول الله ﷺ الناس فخرج ثلاثون رجلًا بعث عليهم عبد الله بن رواحة ، فذهبوا واجتمعوا مع أسير هذا وقالوا إن رسول الله بعثنا إليك لتخرج إليه ليستعملك على خيبر ، ويحسن إليك فطمع أسير بذلك وهو أن يصبح ملكا معترفا به على خيبر من أكبر قوة في جزيرة العرب ـ من محمد .

شاور اليهود فخالفوه وقالوا: ما كان محمد يستعمل رجلًا من بني إسرائيل. قال: بلى قد ملك الحرب وخرج ، وما زال ابن رواحة يقنع أسيرًا حتى خرج معه ثلاثون رجلاً مع كل من المسلمين رديف من اليهود ولما أن وصلوا إلى قرقر موضع ستة أميال على خيبر ندم أسير على مسيره إلى رسول الله ، وأراد الفتك بعبد الله ففطن له وهو يريد السيف ، فاقتحم به عبد الله ثم ضربه .

وفي رواية عن ابن رواحة قال : وأهوى أسير بيده إلى سيفي ففطنت له ، فدفعته بيدى وقلت : غدرًا أي عدو الله مرتين ، فنزلت فسقت في القوم حتى بقى لى أسير فقتلته ومال أصحاب النبي على أصحاب أسير فقتلوهم غير رجل واحد أعجز القوم وفر هاربا وقدموا إلى رسول الله ، وكان قد خرج ﷺ ليستطلع خبرهم ، فلما أخبروه قال : نجاكم الله من القوم الظالمين .

وأخذ رسول الله ﷺ عصاه وأعطاها عبد الله بن رواحة وقال أمسك هذه علامة بيني وبينك يوم القيامة أعرفك بها ؛ فإنك تأتي يوم القيامة متحضرًا فلما دفن عبد الله جعلت معه بين كفنه وجلده[1]

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ٢ / ١٦٨ ، والتاريخ الإسلامى : محمود شاكر ٢ / ٣٠٠

غزوة خيبر[1] :

اشتد تآمر اليهود بعد مقتل أسير وقبله ابن أبي الحقيق . وبات مؤكدا أن اليهود يبحثون عن فرصتهم الأخيرة للهجوم على المدينة فكثفوا اتصالاتهم بيهود تيماء وفدك ووادى القرى ، وجمعوا جموعهم ، واستعدوا ليوم لابد منه ، واتصلوا بكل القوى المناوئة للمسلمين شمال المدينة حتى يهاجموا المسلمين في عقر دارهم على حين غرة .

والأخبار تترى على رسول الله ﷺ مما يعده اليهود ، وما أن انتهى من توقيع صلح الحديبية وأمن قريشًا من الجنوب وأمن غيرها من القبائل شرقًا وغربًا حتى تجهز لخيبر .

خرج رسول الله ﷺ بنية الـمُحرِم سنة سبع إلى خيبر ، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة وسار حتى نزل في واد يقال له :« الرجيع» فنزل بين أهل خيبر وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر .

فلما سمعت غطفان بمنازل رسول الله جمعوا جموعهم ثم خرجوا ليظاهروا يهود، حتى إذا ساروا قليلاً سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسا ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأتوا في أهلهم وأموالهم وخلَّوا بين رسول الله وخيبر .

وبدأ رسول الله بالأموال يأخذها مالًا مالًا والحصون يفتحها حصنًا حصنًا، وكان أولها حصن ناعم وقتل عنده محمود بن مسلمة ألقيت عليه الرحي وهو حصن

---

(١) السيرة النبوية : دحلان ٢ / ٢٠٤ ، و من معين السيرة : الشامي ، ص ٣٤٥ ، و موسوعة التاريخ الإسلامي: أحمد شلبي ١ / ٤٣٨ ، و التاريخ الإسلامي: محمود شاكر ٢ / ٣١١ ،و تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم ١ / ١٣٣ ، و إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٣١٠ ، وزاد المعاد : ابن القيم ٣ / ٣١٦ ، و السيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ٣٤٢، والسيرة الحلبية على الحلبي ٣ / ٣٦، و السيرة النبوية : الندوي ٢٥٥ ، ٢٥٦،و الطبري : تاريخ ٣ / ٩، والسيرة النبوية : ابن كثير ٣ / ٣٤٤، وحدائق الأنوار : الشيباني ٢ / ٦٤١، البداية والنهاية ٤ / ١٨١، الكامل : ابن الأثير ٢ / ١٤٧

ابن أبي الحقيق ، وأصاب منه الرسول صفية بنت حيي بن أخطب ، ثم أخذ رسول الله يتدنى الحصون والأموال (أي يأخذ الأدنى فالأدنى) .

وجاء بنو سَهْم من أسلم ، أتوا رسول الله يسألونه الجهد والفقر فلم يجدوا عنده ما يعطيهم إياه فدعا ربه وقال :«**اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدى شيء أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها ، أكثرها طعامًا وودكًا**» فغدا الناس ، ففتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر كان أكثر طعامًا وودكًا منه .

وانتهى رسول الله إلى حصني الوطيح والسلاسل ، وكان آخر الحصون افتتح ، حاصرهم الرسول بضع عشرة ليلة ؛ وقد خرج مرحب اليهودي من حصنهم فبارزه محمد بن مسلمة وقال للرسول : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر قتلوا أخى بالأمس ، قال :« فقم إليه» .. فبارزه فقتله .

حصل اشتباك بين المسلمين واليهود عند هذا الحصن وقبل أن يقتل محمود ابن مسلمة ، أصيب رسول الله بالشقيقة . فخرج بالراية أبو بكر فقاتل قتالًا شديدًا ثم عاد . وفي اليوم التالى خرج بها عمر بن الخطاب ، فقاتل قتالًا شديدًا ثم عاد ، فأخذ الراية رسول الله وقال :«سأدفعها غدًا إلى رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله» . فتطاول في اليوم التالى أبو بكر وعمر وكبار الصحابة علهم أن يكونوا أصحابها ، فدفع الراية لعلي بن أبي طالب ، وكان أرمد فتفل في عينيه فشفي وذهب وقاتل قتالًا شديدًا .

واستمر حصار رسول الله لحصنى (الوطيح والسلاسل) حتى فتحا ، وقد سألوا رسول الله بعد أن أيقنوا بالهزيمة ، سألوه أن يسيرهم ويحقن لهم دماءهم ففعل ، وصالح أهل فدك لما علموا بما حل في خيبر على ما صالح به أهل خيبر .

فكانت خيبر فيئًا للمسلمين ، وكانت فدك خالصة لرسول الله . وكان رسول الله قد سأل كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق عن كنز بني النضير فأبي أن يدله عليه، فأخبره

أحد يهود بأن كنانة يطوف في مكان معين في كل يوم ، فأتى به رسول الله وقال «أرأيت إن وجدناه عندك ..؟ أأقتلك ؟» قال نعم ، فلما كشف بعضًا منه المسلمون أخذ به واعترف عن الباقي فأخذه ودفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة[1]

وقدمت زينب بنت الحارث بن سلام شاتها المسمومة للرسول ـ كما سبق الحديث .

وهكذا سقط آخر معقل من معاقل اليهود في الجزيرة وصالحت المواقع الأخرى على صلح خيبر .

---

(١) الطبري : تاريخ ٣ / ٩-١٦ بتصرف ، و فتوح البلدان: البلاذري ٣٦ – ٤٢

القسم الخامس

موقف الإسلام من اليهود

إذا كانت هذه حال اليهود ومواقفهم من الدولة الإسلامية ، فما هو رد الفعل الذي كان عند المسلمين ، وما هو موقف الإسلام من هؤلاء الملعونين على لسان داود وعيسى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة] .

لقد وقف الإسلام من اليهود موقف الناصح أولا المذكر بالله ، الداعى إلى الخير والسلام والهداية ، المنذر لهم بسوء عاقبة من سبقهم من اليهود الذين نقضوا العهود والمواثيق مع أنبيائهم ، ومعيداً لأذهانهم النكبات والبلايا التي جاءتهم نتيجة كفرهم وضلالهم ، ثم كانت الحرب آخر المطاف معهم حتى هزمهم الله ـ تعالى ـ وأجلاهم الرسول وكسر شوكتهم .

(١) القرآن الكريم

أنزل الله ـ تعالى ـ خبر يهود وبني إسرائيل وأنبيائهم على مرحلتين :

ففي المرحلة المكية : ووردت أخبارهم متتابعة في أكثر سور القرآن الكريم ووردت أخبار سيدنا إبراهيم عليه السلام في كثير من السور ونزلت سورة خاصة باسمه (سورة إبراهيم رقم ١٤) وما لاقى في سبيل الله منذ طفولته حتى كهولته ، وعن رحلته الطويلة التي استقر بها بالخليل.

وانفرد القرآن الكريم بآيات عن إسماعيل عليه السلام وبناء الكعبة [١] وهذا الفرع الذي

---

(١) بدائع الزهور ابن إياس (١٣٢)، قصص الأنبياء : النيسابورى ، ص ٧٩، وقصص الأنبياء : ابن كثير ، ص (٢٠١) .

لا يخص بني إسرائيل ، كما أورد القرآن الكريم الآيات الكثيرة عن حياة إبراهيم وزوجته سارة، ومن ثم حملها المتأخر وولادة ابنها إسحاق عليه السلام [١] وابنه يعقوب - إسرائيل - في آيات متفرقات من القرآن الكريم ، ثم جاءت سورة كاملة عن قصة يوسف عليه السلام وأبيه يعقوب وإخوته الاثنى عشر ، وهى أول تفصيل عن بني إسرائيل قبل أن تأتي اليهودية ، وهذه السورة تحكي قصة أولئك الذين تركهم سيدنا إبراهيم من بعده وخاصة حفيده يعقوب وأبناءه وما جرى بينهم[٢] وخروج فرع إبراهيم من إسحاق والذي يمثله يعقوب إلى مصر واستقرارهم فيها أمدًا طويلًا .وورد بعد ذلك عن غيبة هؤلاء في المجتمع المصري ، ومن ثم انهزامهم واتخاذهم عبيدًا وذكر بعض أخبار المؤمنين منهم مثل (آسيا امرأة فرعون) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم].

وجاء الحديث بعد ذلك عن نبي الله موسى وأخيه هارونْ من ولادته،إلى طفولته ، إلى شبابه ، إلى بعثته لفرعون وما حصل معه مع فرعون ، وخروجه من مصر وعودته إليها نبيًا ، ثم خروجه ثانية ودخوله مع قومه التيه في سور مكية كثيرة [٣] ولم يترك القرآن جزئية من حياة موسى إلا وأشار إليها في سوره المكية ، ثم ما أصاب قومه والذين عرفوا باليهود بعد ذلك في التيه ، وأخبار سلمهم وملوكهم . وظهور طالوت بعد التيه ملكاً عليهم وظهور داود عليه السلام نبيًا ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة:٢٥١]. وانتصار

---

(١) سورة إبراهيم :[آية : ٣٨ ، ٣٩] .

(٢) سورة يوسف : [١٢] .

(٣) وردت أخبار سيدنا موسى عليه السلام في السور المكية : الأنعام : ٣ مرات ، الأعراف : ٢١ مرة ، يونس : ٨ مرات، هود: آية مدنية وآيتان مكيتان ، إبراهيم : ٣ مرات ، الإسراء :٣ مرات . الكهف : مرتان . مريم : مرة واحدة . طه : ١٧ مرة . العنكبوت : مرة واحدة ، السجدة : مرة واحدة . الصافات: مرتان ، غافر :٥ مرات ، فصلت مرة واحدة . الشورى : مرة واحدة الزخرف : مرة واحدة ، الأحقاق : مرتان ، الذاريات مرة واحدة النجم: مرة واحدة . النازعات والأعلى مرة واحدة في كل منهما بمجموع ١١١آية .

اليهود على أعدائهم وقيام مملكة داود وابنه سليمان، وأفرد القرآن الكريم لسليمان أخبارًا طويلة في سورتي سبأ والنمل وانتهاء مملكة سليمان وانقسامها ، ثم مجمل سورة الإسراءآيات ٢ـ٨ .

هذا الحجم العظيم من ذكر بني إسرائيل واليهود كله نزل في مكة ، وكان ذكره عبرة وأخبارًا لمن عصى الله ورسوله بأن الله بالغ أمره ، ناصر عبده ، جاعل الغلبة للمؤمنين بشرط أن يثبتوا على إيمانهم ويستقروا على دينهم واتباع رسلهم والدعوة للاعتبار والاتعاظ بما أعطى الله هؤلاء المؤمنين من الحسنيين ـ النصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة ـ وصور ـ أيضا ـ من ضل وكفر منهم وما كان جزاؤه وعقابه .

وفي المرحلة المدنية[1] :وردت أخبار بني إسرائيل مع اليهود ومع أنبيائهم مفندا مزاعمهم عن كتاب ربهم ودعوات أنبيائهم ، مظهرًا مفاسدهم وقتلهم أنبياءهم وإضافة شطحائهم إلى كتابهم (التوراة) قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة] .وحذف ما لا يريدون ، واتخاذهم جبريل عدوا لهم ؛ لأنه نزل بهذه الأخبار على أنبيائهم وبالآيات على رسول الله ﷺ .

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة].

وعلى الرغم من أنه قل ذكر نبيهم موسى ونبينا عليهما السلام في السور المدنية ، وانتقل السياق إلى ذكر الأنبياء الآخرين داود وسليمان وأيوب وإلياس واليسع وزكريا ويونس ويحيى ، وما كفروا به من خبر مريم العذراء وابنها عيسى عليهم السلام أجمعين والتي تواترت وازدادت في السور المدنية لتبين لليهود كل ما خفي من

---

(١) وردت أخبار سيدنا موسى عليه السلام في السور المدنية : البقرة :١٣ مرة ، آل عمران : مرة واحدة . النساء: ٣ مرات ، المائدة : ٣ مرات ، هود: مرة واحدة ، الحج : مرة واحدة ، الأحزاب : مرتان ، والصف : مرة واحدة مجموعها ٢٩ مرة . المعجم المفهرس ، عبد الباقي (٦٨٠ - ٦٨٢) .

أفكارهم وما وعته عقولهم وما أعدوه من شرور يطرحونها لأعدائهم ، والمتتبع لهذه الآيات يقف مشدوهًا أمام هذا الزخم الكبير من أخبار جرائمهم مع أنبيائهم وتحولهم في كثير من الأحيان إلى الوثنية والضلال ، فلعنوا وغضب الله عليهم وأصابهم بما كسبت أيديهم شرًا كبيرًا ، علَّهم أن يعودوا إلى ما نهوا عنه ويقفوا مع - الحق ولو مرة واحدة - ويعودوا إلى التباشير التي ملأت كتبهم ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة].وتتحدث هذه التباشير كلها عن محمد ﷺ ودعوته ورسالته، وكيف أن هذا الخبر كان مبرر وجودهم وبقائهم بالمدينة ولم يغادروها لسواها ؛ لأنهم ينتظرون قدومه في حديث أحبارهم (حبر تبع) و (حبر بني قريظة) ولم يبق واحد من علمائهم إلا بشر بهذه البشرى ثم يكفرون ، ويتخذون العداوة لله وللرسول ما داموا أحياء

قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

لقد أفرد ابن هشام[١] صفحات طوالًا عن ذكر ما نزل من البقرة في منافقي اليهود وكذلك في آل عمران . ولقد جمعت أخبارهم مع النصارى أو خصت بهم في سورتي النساء والمائدة ، ونزلت سورة الحشر أكثر آياتها في بني النضير وما نزل في اليهود في سورة الأحزاب أولئك الذين جندوا الجنود وجيشوا الجيوش ونقضوا العهود . ولو أردنا أن ندرج ما ورد في القرآن الكريم وتفسيره ومناسبة نزوله عن اليهود وقبلهم بني إسرائيل لملأنا أسفاراً كثيرة ، وكتاب الله أمام أعين المسلمين في كل لحظة يقرأ عن خبر هؤلاء ويتابع ذلك حتى الذين لم يحفظوا من كتاب الله إلا فاتحة الكتاب

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام (١ / ١٧٧ - ٢٢٠)

داعين الله ـ تعالى ـ بقوله ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة] والمغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى .

لقد أرادوا تزوير التاريخ ليضلوا الناس ويقدموا لهم أنفسهم بأنهم أتباع إبراهيم وكان هو نفسه يهود يا فَدَ حَضَ القرآن الكريم دعواهم وإفكهم : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عمران] .

ـ لقد كان ديدنهم النفاق والخبث والضلال،وقد أظهر الله ـ تعالى ـ هذه الصفات بقوله ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٧١ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝٧٣﴾ [آل عمران].

ـ وتتوالى الآيات القرآنية في هؤلاء الذين أظهروا العداوة والنفاق للرسول ﷺ ، ولكن الله ـ تعالى ـ قد خيَّب فألهم وكشف سرهم ، وأظهر زيفهم ، وهزمهم في معاركهم ورد كيدهم في نحورهم ـ على الرغم من الأعمال التي قاموا بها ضد المسلمين والإسلام بعامة .

ونستطيع القول إن اليهود هم وحدهم الذين شنوا حربًا دعائية وفكرية على الإسلام ، إذ إن قريشًا تهيبت مرة واحدة من سماعها القرآن الكريم ، واعترفوا بأن هذا ليس من قول البشر ، وليس بسحر ولا كهانة ، ولا قول جان ، فلم يستطع

القرشيون ـ رغم ما أتوا من بيان وفصاحة ـ أن يفعلوا شيئاً أمام هذا التنزيل الذي ألجمهم بلاغة وخبرًا وسردًا وتوجيهًا فلم يتمكنوا من الصمود أمام بلاغته فقالوا: هذا سحر ، وكانوا ينبهون كل من يلقونه بأن هذا سحر فلا تقربوه.

لقد تحداهم في كل شيء فلم يستطيعوا أن يقولوا عنه غير هذا .

أما اليهود فقد كانت حربهم فكرية ، إذ إن لديهم الخبر عن الماضين ـ الأمم والشعوب والأنبياء حتى بعض الأنساب ، وقد سخروها كما يريدون ، إلا أنهم حاولوا أن يلغوا في القرآن وأن يكذبوا مقاصده وتنزيله مظهرين أن لديهم خبر الصدق عما نزل ، لكن التحدي الذي جابه به القرآن الكريم كفار قريش ببيانهم ، جدد التحدى لليهود أن يعرضوا كتبهم التي بين أيديهم إن كانوا صادقين . كما أن هذا التحدي امتد إلى كثير من الإجابات التي حاول اليهود أن يوقعوا فيها الرسول ﷺ بمواقف حرجة ، فرد عليهم القرآن الكريم بما عندهم وبين زيادة على ادعاءاتهم أكثر مما يعلمون ، وقد استجاب كفار قريش لبيان القرآن وبلاغته وسحره وعظمته فأسلموا على مراحل . لكن اليهود الذين قابلهم متحديا بكل ما لديهم دون تمييز ، أصروا على كفرهم وضلالهم وحربهم للإسلام ، واستمروا بقلوبهم القاسية التي هى كالحجارة أو أشد قسوة .

قال ـ تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة] وقال : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة] إلخ الآية .

وقال : ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا

فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة] عدا الآية ٧٧.

فهؤلاء اليهود في كل باب من أبواب الضلال سلكوا ، وفي كل طريق من طرق الغواية ساروا وفي كل واد من أودية الحقد عبروا ، وفي كل موقف من مواقف الحسد تجرؤوا ، وفي كل جمع من الأعداء انخرطوا وأيدوا ، ليضلوا الناس بضلالاتهم ، وليقضوا على هذا الدين فكرياً وعقديًا وسياسيًا فخسروا بذلك خسرانًا مبينًا .

ولا يفوتنا في النهاية أن نذكر ذلك الكم الكبير من الإسرائيليات الذي دخل في تراث المسلمين في الأحقاب التالية عندما اندس في الإسلام بعضهم ليكذبوا على الله ورسوله، وبعضهم أعطى أخبارًا ضالة مضللة عندما سألهم المسلمون عن بعض الأخبار عندهم . وهذا الكم من الاسرائيليات عرفه الباحثون وأحصوه وميزوه عن بقية التراث مستغلين أولئك ذكر القرآن والحديث لأخبارهم فزادوا فيها وأكثروا من خبثهم وضلالهم .

(٢) موقف الرسول ﷺ من اليهود

يمكن لنا أن نجمل مواقف الرسول ﷺ من اليهود ابتداء من يوم هجرته إلى المدينة وحتى انتهاء تواجدهم في المدينة وبعد وفاته ﷺ في تسلسل زمني على النحو التالي :

١ـ منذ اللحظات الأولى لقدوم الرسول ﷺ كان يطمع أن يدخل اليهود في الإسلام باعتبارهم أهل الكتاب ، ويرون صفته بكتبهم ، ويعلمون أنه الحق من الله ـ ﷻ ـ جاءهم مصدقا لما بين أيديهم ، وبذلك فقد كانت رغبته منذ الأيام الأولى لوجوده في المدينة أن يتودد إليهم ، ويتقرب إليهم،ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويذكرهم بما عندهم ، ويدعوهم إلى الله تعالى الذي عرفوه وما أنزل من الحق على رسله وأنبيائه .

فقد وقَّع الرسول ﷺ المواثيق السياسية والإدارية معهم[(١)]، وقد خصص قسمًا كبيرًا من الصحيفة لهم ، مبينًا في كل بند من بنودها النواحي الاجتماعية والعسكرية والإدارية ، وحتى العقدية ، فلم يتخذ معهم أي شيء يسئ إليهم أو يجبرهم على شيء يخرج بهم عن ديانتهم .

ولذلك فقد أجملت الصحيفة الكثير من التوجهات التي أبداها الرسول ﷺ بينه وبين هؤلاء اليهود وقد قبل اليهود هذه المعاهدات والتحالفات على أنها تعد امتدادً للأحلاف بينهم وبين الأوس والخزرج ، لكن الشئ الجديد في هذه التحالفات أنها وجهت الأنظار إلى العدو الخارجي الذي قد يداهم المدينة ويهاجمها ، فكانت البنود تتوجه إلى التكاتف بين المسلمين واليهود لرد المعتدي سواء على اليهود أو على المسلمين،وكذلك المشاركة في المغانم والمغارم في الحروب وغير ذلك .

---

(١) المنهج الحركي : غضبان ١ / ٢٠٩

ولم يمض كبير وقت على وصول الرسول إلى المدينة ، حتى بدأت جماعة المسلمين تتميز عن المنافقين والمشركين بمهاجريها وأنصارها الذين تآخوا وأصبحوا كتلة واحدة .. ولم يكتف الرسول بهذا الموقف النبيل العظيم ـ على الرغم من معرفته المسبقة بموقع اليهود ومستواهم السياسي في المدينة ـ فقد أبقاهم كما كانوا وأخرج التحالفات بالداخل ليصبح أهل المدينة في موقف واحد أمام العدو الخارجي ، ثم كل فريق يبقى على ملفه واعتقاده .

وباعتبار أن الإسلام دين الإنسانية جاء خاتمًا للرسالات ومكملًا لما جاء به الأنبياء ومطهرًا ومنزها هذه الرسالات مما أصابها من الانحرافات والخبث والضلال، فقد كان أولى الناس بهذا الدين واتباع رسول الله اليهود الذين عرفوه وانتظروه ومن هذا المنطلق فإن الرسول ﷺ قد دخل بيت المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله فقال له النعمان بن عمرو والحارث بن زيد على أي دين أنت يا محمد ؟ قال : «**على ملة إبراهيم ودينه**» . قالا : فإن إبراهيم كان يهوديًا .. فقال لهما رسول الله :« فهلما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه ..» فأنزل الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا﴾ [آل عمران:٢٣] إلخ الآية[١] وكما سبق ذكرنا لإسلام عبد الله بن سلام وميمون بن يامين كيف أن الرسول ﷺ لم يدعها فرصة وجادل اليهود بشهادة هؤلاء لكنهم أصروا واستكبروا .

وفي حديث ابن إسحاق عندما أوكل اليهود أمر الزاني والزانية يحكم فيهما رسول الله ﷺ وقد قالوا: إن حكم بغير الرجم فهو ملك،وإن كان حكمه بالرجم فهو نبي، فاحذروه ما في أيديكم أن يسلبكموه.فمشى رسول الله إليهم في بيت المدراس وقال: « **يا معشر يهود : أخرجوا إلى علماءكم**»، فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا ـ وفي رواية: أخرجوا معه أبا ياسر بن أخطب ووهب بن يهوذا فحاجهم حتى خرجوا وأوكلوا الأمر لابن صوريا وهو أعلم من بقي بالتوراة ، فخلا به رسول الله وكان

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٢٠١

غلامًا شابًا من أحدثهم ، فألظ (ألح) به رسول الله ﷺ المسألة يقول له :« **يابن صوريا، أنشدك الله وأذكرك بأيامه عند بني إسرائيل ، هل تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم بالتوراة ؟**» قال : اللهم نعم ، وأما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك لنبي مرسل ولكنهم يحسدونك .

قال : فخرج رسول الله فأمر بهما فرجما عند باب مسجده ، ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا وجحد نبوة رسول الله ﷺ[(١)]

ولم يكتف رسول الله بهذه السياسة مع يهود المدينة ، بل راسل يهود خيبر وسواهم قبل أن تبدأ مرحلة الصدام المسلح معهم .

كتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر فيما حدثني مولى لآل زيد بن ثابت عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى ، ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم :** ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح] **وإني أنشدكم بالله وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذي أطعم من قبلكم المن والسلوى ، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله إلا أخبرتموني هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؛ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم :** ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦]. **فادعوكم إلى الله وإلى نبيه**[(٢)]

ولم يترك الرسول ﷺ مناسبة تمر دون أن يعظ اليهود ويذكرهم بما عندهم وما في

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٢١٤

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ١ / ١٩٣

كتبهم ، ولكن لقاءه في سوق بني قينقاع مع اليهود قد غير هذا الاتجاه تماما ، وتحولت القضية من الجدل بالتي هي أحسن وتحمل الرسول كل ما عندهم من كذب وافتراء إلى بدء صفحة جديدة قوامها التحدي والسلاح والحرب .

٢ـ هذه المرحلة الصعبة من العلاقات بين الرسول والمسلمين واليهود ، كان سببها اليهود أنفسهم ، فبعد أن عاد رسول الله من بدر منتصرًا وقد أصاب من قريش ما أصاب بغت اليهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من عهد ، فجمعهم بسوق بني قينقاع وقال :« **يا معشر يهود أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله** » .

وهنا ظهرت خبايا نفوسهم وأحقاد قلوبهم فقالوا يا محمد لا يغرنك أنك قهرت قومًا أغمارًا(١) وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا إنك لم تقاتل مثلنا(٢)

قال ابن إسحاق : وإن هذه الآيات قد نزلت في بني قينقاع : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران].

قال ابن إسحاق : إن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوه فيما بين بدر وأحد(٣)

تعتبر هذه الحادثة طريق التحول الكبير في العلاقة بين المسلمين واليهود ، ولم يتخذ الرسول ﷺ موقفًا كما فعل مع كل الوثنيين وقريش ، ولكنه اكتفى بإجلائهم عن المدينة ، وفقدت الثقة تمامًا بين الرسول وبين اليهود . وفي هذا المقام نذكر مقتل كعب بن الأشرف .

---

(١) لغمر : الجاهل الغر الذي لا غناء عنده ولا رأي ولا تجربة ولا علم له بحرب ولا أمر .
(٢) إمتاع الأسماع : المقريزي (١ / ١٠٤) .
(٣) السيرة النبوية : ابن هشام (٣ / ٥٠) .

والقصة كما اتفقت على روايتها كتب السيرة أن الرجل قد غاظه كثيرًا بشرى المنادين في المدينة بنصر المسلمين في بدر ، وقال : إن كان ما قاله هذان الرجلان (زيد ابن حارثة وعبد الله بن رواحة) صحيحاً فهؤلاء (القرشيون أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

وسبق الحديث عن كعب هذا فهو من طيئ وكانت أمه من بني النضير فلما تأكد الخبر ذهب إلى مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة بن خبرة السهمي ، وجعل يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر ، ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فانتدب رسول الله ﷺ من يقتله . وكان أن تطوع لذلك فتية من الأنصار من الأوس ومن بني عبد الأشهل وهم محمد بن مسلمة ، وسلطان بن سلامة ابن وقش (أبو نائلة) ، وكان أخا لكعب من الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش ، والحارث بن أوس بن معاذ ، وأبو عبس بن جبر ، وجاء سلطان (أبو نائلة) إلى كعب ودخل معه حديثاً حول حاجتهم إلى استقراض بعض المال فطلب كعب رهناً النساء أو الأولاد فقال أبو نائلة كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم؟ قال كعب أترهنونى أبناءكم ؟ فلم يقبلوا ، وقالوا : نرهنك سلاحنا . وكان قد أخبره قبل ذلك بقوله : ويحك يا بن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني . قال: أفعل ، قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء . عادتنا العرب ورمتنا من قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول ، وما زال به حتى اطمئن وطلب منه حطامًا مقابل أن يرهن عنده سلاحه هو وأصحابه.ثم عادوا واجتمعوا عند رسول الله وانطلقوا بعد ذلك، وخرج رسول الله ﷺ مودعًا لهم حتى وصل إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم فقال : «**انطلقوا على اسم الله .. اللهم أعنهم**» ، ورجع رسول الله إلى بيته . وتمكن الفدائيون

من استدراج كعب بن الأشرف والإجهاز عليه وقتله ، وعادوا إلى بيوتهم وقد جرح منهم الحارث بن أوس بن معاذ ، فحمله أصحابه إلى بيت رسول الله حيث كان قائما يصلي فأخبروه وأصبح الناس وقد خافت يهود عند علمها بمقتل ابن الأشرف فليس بها يهودى إلا ويخاف على نفسه .

وتردت العلاقات بين المسلمين واليهود ، حتى إن رسول الله ﷺ لم يقبل أن يشارك اليهود معه في غزوة أحد بعد أن اقترح أحد الصحابة بالاستعانة بحلفاء المسلمين من اليهود .

حتى إذا كان الرسول ﷺ والمسلمون يوم أحد بالشيخين التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجل (صوت وجلبة فقال :« ما هذه »؟ فقالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول من يهود . فقال :« لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك» . ومضى فعسكر بالشيخين (وهما أطمان) والمشركون بحيث يرونه فاستعدوا للحرب . وهم بنو سلمة وبنو حارثة ألا يخرجوا إلى أحد ثم خرجا[١]

وبالقدر الذي اغتاظ المشركون من يهود لنصر الله ـ تعالى ـ للمسلمين في بدر بقدر فرحهم لإصابة قريش من المسلمين غرة يوم أحد ، وقد جهروا بالعداوة بعدها تماما وحاولوا ـ كما سبق القول ـ قتل الرسول في بني النضير وأدى ذلك للاصطدام معهم وإخراجهم ، وكان عقاب بني قريظة أشد حكم تلقوه لخيانتهم .

كل هذا والرسول يتلو آيات القرآن الكريم علَّهم يرتدعون . حتى جاءت غزوة خيبر وهزيمتهم وهي المعركة الوحيدة التي تصادم فيها المسلمون مباشرة بحرب مكشوفة مع اليهود ، ومع هذا فإنها لم تكن كالحروب التقليدية عند العرب ، ولكنها كانت حرب آطام تمكن المسلمون من فتحها الواحد تلو الآخر . وقبل هذه الحرب وعلى طريقة قتل كعب بن الأشرف .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، عن عبد الله بن كعب بن مالك ، وكان مما صنع الله به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي (١/ ١١٨) .

(الأوس والخزرج) كانا يتصاولان (يتفاخران إذا فعل أحدهما شيئا فعل الآخر مثله) مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله غناء (منفعة) ، إلا قالت الخزرج : والله لا تذهبون بهذه فضلًا علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام قال فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك . ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله قالت الخزرج: والله لا تذهبون به فضلاً علينا أبدا قال فتذكروا من رجل لرسول الله في العداوة كابن الأشرف ؟ فذكروا سلام بن أبي الحقيق ، وهو بخيبر فاستأذنوا رسول الله في قتله فأذن لهم .

فخرج إليه من الخزرج من بني سلمة خمسة نفر عبد الله بن عتيك ، ومسعود ابن سنان ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة الحارث بن ربعي ، وخزاعي بن أسود حليف لهم من أسلم ، فخرجوا وأمَّر عليهم رسول الله عبد الله بن عتيك فذهبوا إلى خيبر ودخلوا عليه بعد أن تسلقوا نخلة قرب أطمه ، وشاهدتهم امرأة ، وكانت تصيح ، فكانوا يهددونها بالسيف لوصية رسول الله ﷺ بألا يقتلوا امرأة أو ولدا .

وأجهزوا على سلام بن أبي الحقيق وهو في أطمه وخرجوا ، وكان أحدهم وهو عبد الله بن عتيك سيئ البصر فوقع وانجرح ، ولكنهم تمكنوا من حمله والاختفاء عن الأنظار وعاد أحدهم ليتأكد من قتله ، فلما صاح اليهود يندبونه عاد إليهم وأخبرهم ، وعادوا إلى المدينة يحملون جريحهم حتى وصلوا إلى رسول الله ، فاختلفوا في قتله فأخذ رسول الله أسيافهم وقال قاتله عبد الله بن أنيس أرى في سيفه أثر طعام .

قال حسان بن ثابت يذكر قتل هذين الطاغيتين من يهود ؛ كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق :

لله دَرّ عصابة لا قيتهم ... يابنَ الحقيقِ وأنت يابْنَ الأشرف

يَسْرُوْن بالبيض الخِفَاف إليكم ... مرحًا كأسد في عَرينٍ مُغرف

حتى أَتوكم في مَحَلِّ بلادكم ... فَسَقُوكُمْ حَتْفًا ببيض ذُفَّف

مستبــصرين لنــصر دِيــن نَبِـيِّهِمْ   مُسْتَـصْغِرِينَ لِكُــلِّ أمَـرٍ مُجْحَــفِ[(١)]

هذا مجمل سريع لموقف الرسول ﷺ من يهود ومواقفهم المعادية له وللإسلام .

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٣ / ٢٨٦ – ٢٨٩ بتصرف، و التاريخ الإسلامي : محمود شاكر ٢٩٤ ، والمنهج الحركي : غضبان (٣٥٤) ، و تاريخ المدينة : ابن شبة (٢ / ٤٦٢) .

(٢) موقف الأنصار والصحابة

من المعلوم أن الأنصار كانوا حلفاء لليهود في جاهليتهم ، وأيا كان هذا الحلف الذي استفضنا بالحديث عنه؛ فإن هؤلاء الأنصار قد أصبحوا جزءا من أمة الإسلام في الحلف الجديد بين الرسول ﷺ وبين اليهود ، والأنصار أعلم الناس بهؤلاء ما ظهر من أمرهم وما خفي منه ، وهم الذين كانوا يتلقون التهديد ـ دائـمًا ـ من قبل اليهود ، وهم الذين عايشوهم أحقابًا وسنين طويلة ، وتحاربوا معهم وتصالحوا معهم ، وتعاهدوا معهم ، ومنهم من دخل دينهم كما سبق الحديث .

فلما فشى الإسلام في المدينة وبدأت دعائم دولة الإسلام تقام وتنهض ؟ برز اليهود أعداء لها ووقفوا في صف الوثنيين والمشركين في الداخل والخارج ولقد فرقنا بين موقفين متباينين لحليف من الجاهلية «عبد الله بن أبي» ودفاعه المستميت عن اليهود ، وموقف سعد بن معاذ حليف في الجاهلية ومقولته الخالدة : آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم .

ولذلك فإن الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يتسابقون في تقديم ما يرونه خيراً للإسلام ويرضى رسول الله ﷺ ، ولقد عادوا إلى اليهود يذكرونهم بما كانوا يستفتحون عليهم قبل ظهور الإسلام ، وسبق الحديث عن بعض زعماء الأنصار ليهود يذكرونهم بأيامهم ، وبما كانوا يقولون ، ولكن هؤلاء أنكروا ذلك .

قال ابن إسحاق : ودعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام ورغبهم فيه ، وحذرهم بطش الله وعقوبته فأبوا عليه ، وكفروا بما جاءهم به فقال لهم معاذ ابن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب : يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهوذا ما قلنا لكم قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ،

ولا أرسل بشيرًا ولا نذيرًا بعده ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾ [المائدة][1]

وكان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا فكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ [المائدة] .

ومع كل هذه الحوادث التي يذكر بها الأنصار اليهود بالله ومواعيدهم السابقة، فقد بقي اليهود على موقفهم وتعنتهم وتشددهم ، وهذا ما جعل قلوب المسلمين تتحول عنهم ، وخاصة الأنصار الذين وقفوا بصف الرسول ﷺ ينفذون أوامره ويتبارون في فعل أمر يرغبه ينتظرون منه إشارة واحدة ليكونوا رهن إشارته .

ومع تشويه اليهود للحقائق واستغلال المواقف ، فكان ما حدث في أحد فرصة استغلها اليهود لتضخيم انتصار قريش ، وإظهار المسلمين بمظهر الضعف والوهن. وقالوا ما محمد إلا طالب ملك ما أصيب هكذا نبي قط في بدنه وفي أصحابه[2] وكانت أقوالهم هذه قد أحدثت في نفوس أصحاب رسول الله الكثير من ردود الفعل تجاههم حتى إنهم أصبحوا منهم في مواجهة العداوة والحرب والبغضاء .

وأمر الأخوين محيصة وحويصة ؛ فإنه بعد أن نقض عهد بني قريظة ، قال رسول الله ﷺ :« من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه» ، فوثب محيصة بن مسعود على (ابن سبنية) رجل من تجار يهود فقتله وكان ابن سبنية يلابس بني مسعود ويبايعهم فلما قتله محيصة جعل أخوه حويصة ـ وكان إذ ذاك لم يسلم ـ وكان أسن من محيصة ـ يضربه ويقول أي عدو الله ، أقتلته .. ؟ أما والله لرب شحم في بطنك من ماله

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام (٢/ ٢١٢) .

(٢) من معين السيرة : الشامي ، ص (٢٥١) .

قال محيصة : والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك ، قال : آلله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني ؟ قال : نعم والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها . قال : والله إن دينا بلغ بك هذا لعجيب ، فأسلم حويصة[(١)]

ولكن موقف سعد بن معاذ كان الحد الفيصل في هذه المواقف فكان معبرًا عن نفوس المسلمين من الأنصار جزاء يقع على أولئك الذين خانوا الله في ساعات العسرة . فكان حكمه بعد أن أيس منهم ومن الاستمرار في تذكيرهم .

لقد احتك الصحابة من المهاجرين ـ رضوان الله عليهم ـ احتكاكا مباشرًا معهم وبخاصة أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهم من المهاجرين وكان لهما أبعد الأثر في اللقاءات التي تمت بين اليهود والمسلمين وشبيه بهذا موقف سبق الإشارة إليه لعبادة بن الصامت رضي الله عنه ففي الوقت الذي كان عبد الله بن أبي يلح ويشدد على رسول الله في بني قينقاع ويقف أمامه يمنعه منهم ويدخل يده في جيب درعه والرسول يأمره أن يتركه ، مشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ فخلعهم وتبرأ منهم إلى الله ورسوله ومن حلفهم نتيجة خيانتهم وغدرهم[(٢)]

وشاهد الرسول ﷺ عمر بن الخطاب يحمل صحيفة من التوراة فأخذها منه وقال :« يا عمر والله لو كان موسى بينكم لوجب عليه أن يتبعنى» مبينًا بذلك نسخ ديانة يهود وانتهاء أجلها بظهور الإسلام ، وهذا ما كان يؤكد عليه الرسول ﷺ من دعوته لليهود ، حتى عندما كانوا يأتونه ليحكم لهم أو بهم ، أو من القضايا التي طرحها أولئك على الصحابة أو على الرسول نفسه . ولم تخل العلاقة في هذه الفترة من لقاءات كثيرة غير أحوال الحرب ومجادلات ومناقشات كان يثيرها اليهود في نفوس المسلمين حتى يشككوهم في دينهم وفي رسالتهم وفي رسولهم .

دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس على يهود ، فوجد منهم ناسا كثيرين قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم وكان

---

(١) المصدر السابق ، ص (٣٠٠ ، ٣٠١) ، والمنهج الحركي : غضبان (١ / ٣٤٩)
(٢) من معين السيرة : الشامي ، ص (٢٢٤) .

معه حبر من أحبارهم يقال له أشيع ، فقال أبو بكر لفنحاص : ويلك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل فقال فنحاص لأبي بكر والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كم يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغني ، ولو كان عنا غنيًا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنيًا ما أعطانا الربا قال فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا قال والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله .

قال:فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال:يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله لأبي بكر: «**ما حملك على ما صنعت** » ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله إن عدو الله قال قولًا عظيمًا ؛ إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ولم يكن أبو بكر سهل الغضب ـ لكن.إن غضب فإنه شديد ـ وضربت وجهه .

فجحد ذلك فنحاص وقال: ما قلت ذلك .. فأنزل الله ـ تعالى ـ فيما قال فنحاص ردًا عليه وتصديقًا لأبي بكر : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران] ونزل في أبي بكر الصديق ﷺ وما بلغه ذلك من الغضب : ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران].

ثم أنزل فيما قال فنحاص والأحبار من يهود: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران].

يعني فنحاص وأشيع وأشباهما من اليهود .

قال ابن إسحاق : وكان كردم بن قيس حليف كعب بن الأشرف ، وأسامة بن حبيب ، ونافع بن أبي نافع ، وبحرى بن عمرو ، وحيى بن أخطب ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، يأتون رجالاً من الأنصار كانوا يخالطونهم ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله فيقولون لهم لا تنفقوا أموالكم ، فإنا نخشى عليكم الفقر ، ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون علام يكون ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ [النساء:٣٧][1]

ووقف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مهاجريهم وأنصارهم صفًا واحدًا وراء رسول الله في التعامل مع اليهود ضمن سلوكهم الذي سلكوه مع المسلمين منذ أن بدأت الدعوة تثبت أركانها في يثرب .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام (٢ / ٢٠٧ – ٢٠٨) .

(٤) نهاية اليهود في الجزيرة العربية

ابتداء من العام السابع للهجرة بدأت الآمال تتطلع إلى نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية ، وبدأت وفود المسلمين تحمل رسائل الرسول إلى أصحاب النفوذ في الجزيرة وخارجها ـ ملوكًا وأمراء وشيوخ قبائل ـ تحمل دعوة الإسلام إليهم في مختلف الاتجاهات، وأصبح واضحاً أن بقاء اليهود خلف هذه الوفود لا يؤمن ظهرها ولذلك فقد روى عن رسول الله ﷺ قوله :« **لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلما**» .

وفي عهد الخليفة عمر امتد الإسلام وتجاوز أرض خيبر في طريقه إلى فارس والروم ، وأصبح يهود خيبر في ظهر المسلمين ، فخاف عمر خطرهم وخشى أن يضربوا المسلمين من الخلف كما فعلوا من قبل ، ورأي ضرورة ضمان السلامة والوحدة في الجزيرة العربية قبل أن تتعمق جيوشه خارج الجزيرة العربية ، وزيادة على ذلك يروي البلاذري[(١)]: أن يهود خيبر عاقوا المسلمين ، فألقوا ابن عمر من فوق بيت وفدغوا يديه ، لكل ذلك استقر رأي عمر على إجلائهم .

وقد عاملهم عمر طبقًا للشروط التي كانت بينهم وبين المسلمين ، فأهل فدك كان لهم نصف الأرض فاشتراها عمر منهم . وفي رواية أخرى أن الرسول ﷺ هو الذي اشتراها منهم في حياته ليكونوا على قدم المساواة مع اليهود في الجزيرة ، وأذن لهم عمر ببيع ما يريدون ، وقدم ما كان لهم من متاع لم يستطيعوا حمله ، دفع ثمنه لهم وأجلاهم[(٢)]

وخرج اليهود من الجزيرة العربية بعد قرون طويلة قضوها في هذا الخط الممتد من المدينة إلى الشام . وقد كان تاريخهم في هذه الفترة كله يتصف بالرعونة والخبث

(١) فتوح البلدان : البلاذري ، ص (٣٦-٤٢) .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي: أحمد شلبي (١ / ٤٤٠) .

والأحقاد ، ولم يستطيعوا ـ رغم كل الأحقاب التي عاشوها بين العرب الوثنيين أن يتخلوا عن أحقادهم ، ولم يستطيعوا بالطبع أن يقنعوا أحداً لأن يكون مثلهم لا في جاهلية ولا في إسلام وانكمشوا على أنفسهم في مواقع وحصون وآطام يتعاملون بالربا ويكنزون الكنوز والأموال ، ولم يبق لديهم بعد خيبر وفدك أية قوة أو سلطان، وتحولوا مرة ثانية إلى عمال في الأراضي الزراعية التي بقيت تحت أيديهم وانتهى تجمعهم السياسي والحربي ، مثلهم مثل كل التجمعات القبلية أو الحضرية التي وقفت في وجه الإسلام ، فقد انهاروا وانتهوا إلى غير رجعة . وخرجوا من جزيرة العرب وقال عمر مقولته المشهورة ـ استنادا إلى ما سمعه من رسول الله :« لا يجتمع في جزيرة العرب دينان»

وتحولت بذلك جزيرة العرب مسلمة كاملة ومركزا للإشعاع الفكري والسياسي والحضاري والديني للإسلام ، وانتهت أسطورة اليهود في شبه جزيرة العرب والتي دخلوها مغلوبين وخرجوا منها أيضاً مغلوبين .

والذي أجلى المشركين من جزيرة العرب عمر بن الخطاب ﷺ ففي الصحيح من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز. وظاهر هذا أن عمر ﷺ إنما استند في إجلائهم إلى هذه القصة؛ وهي أن عمر اشترى منهم ما أقرهم عليه رسول الله وأخرجهم من الجزيرة العربية .

وروى ابن زبالة، عن مالك، عن ابن شهاب، أن رسول الله ﷺ قال :« **لا يجتمع في جزيرة العرب دينان**»

قال ابن شهاب: ففحص عن ذلك عمر بن الخطاب حتى أتاه الثلج (الاطمئنان) واليقين أن رسول الله ﷺ قال :« **لا يبقى دينان في جزيرة العرب**» فأجلى يهود خيبر ، ويهود نجران وفدك .

وروى البيهقي من حديث عمر مرفوعًا لئن عشت إلى قابل الآخر لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب رواه مسلم بدون: «لئن عشت».

وكان آخر ما تكلم به رسول الله :« **أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب**» الحديث، وحكى أن بعض اليهود أظهر كتابًا ، وادعى أنه كتاب النبي ﷺ ، بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة الصحابة ، فعرض على أبي بكر الخطيب البغدادي فقال هذا مزور لأن فيه شهادة معاوية وهو قد أسلم عام الفتح فلم يحضر ما جرى وفيه شهادة سعد بن معاذ وقد مات في بني قريظة بعد إصابته في الخندق ، وذلك قبل خيبر بسنتين ، وذلك من فوائد علم التاريخ، والله أعلم[1]

---

(١) وفاء الوفا : السمهودي (١ / ٣٢١) .

الفصل السادس
وفاة الرسول ﷺ
وموقف الأنصار من الخلافة الراشدة

القسم الأول : وفاة الرسول ﷺ

القسم الثاني : مواقف الأنصار السياسية من الخلفاء الراشدين

القسم الثالث : صياغة النظرية السياسية عند الأنصار

الفصل السادس

وفاة الرسول ﷺ وموقف الأنصار من الخلافة الإسلامية

القسم الأول: وفاة الرسول ﷺ

تمهيد :

عاش الأنصار فترتهم الذهبية في عهد الرسول ﷺ وتحت قيادته ، يتدافعون بين يديه لتقديم كل ما يمكن تقديمه من مال أو جهد أو نفس ، وهم رهن إشارته يتراكضون ليحققوا رغباته في حرب أو سلم ـ تضحية وإيثارًا ـ وفي سبيل الله ومرضاته ، ولتقر عينا رسوله ﷺ .

يبكون فرحًا بين يديه ﷺ إذا آثروا آثر إخوانهم المهاجرين عليهم بالعطاء ، ويفرحون فرحًا لا حدود له وهم يرون إخوانهم المهاجرين وقد كفاهم الله من فضله من غنيمة أو فيء أو تجارة أو ربح مادى أو معنوى ، ويغضون أبصارهم بين يدى رسول الله وبناء على توجيهاته عن أية غنيمة أو فيء .

آذانهم مصغية لدعوات الرسول لهم ولأولادهم ، ولما كتب الله ـ تعالى ـ لهم في الدنيا والآخرة من فضل كبير ، وما كتب لهم في الآخرة من ثواب الشهداء والصديقين والمخلصين والباذلين في سبيل الله،ولم أستطع ـ كما لم تستطع كل الأقلام التي تطرقت في السابق إلى حياة الأنصار أو في اللاحق ـ أن تعطى هؤلاء القوم حقهم من الفضل الكبير ، وتتضاءل الأقلام مهما بلغت من حسن الأدب وروعة التعبير أمام قول الله ـ تعالى ـ عنهم ، وأقوال رسول الله فيهم وتتساقط الكلمات الحيرى بأي شيء يمكن أن تصف هؤلاء القوم الذين نصروا الله نصرًا مؤزرًا ، وخرج كمال الصدق وكمال العطاء منهم ، وبلغوا من السمو شأنا لم يبلغه إلا أتباع الأنبياء .

إن أمثلة كثيرة جرت في التاريخ شابهت سلوك هؤلاء الناس لكنها، وبالتأكيد لم تصل إلى الحد الذي وصل إليه الأنصار من التضحية والبذل والعطاء والإيثار، فأكثر شهداء الدعوة الإسلامية رسول الله منهم ، وأكثر جند الغزوات والسرايا منهم ، وأكثر المصابين في عهد سبيل الله منهم ، وهم يقفزون قفز الباذل نفسه وروحه بين يدى رسول الله ، ينظرون عينيه إن لم ينطق لسانه ، مجيبين في ساعة العسرة نداءه ، رخيصة أرواحهم بإشارة من بنانه .

فكان التلاحم بينه وبينهم كبيرًا ، فلولا الهجرة لكان منهم ـ كما قال ـ لقد سرى في نفوسهم خوف وهم يسمعون الرسول ﷺ يصف معركة مؤتة ، يتحدث عن حاملي اللواء وتضحياتهم واستشهادهم من زيد إلى جعفر ، ويتوقف قليلاً عند صاحبهم ابن رواحة ، فسرت في أجسادهم قشعريرة عجيبة لم تدع واحدًا منهم .. خوفًا أن يكون هناك تقصير ـ لا سمح الله ـ هل تلكأ؟ هل تخاذل؟هل .. وهل ..؟ ومئات الأسئلة قفزت لأذهانهم فوقفوا وقفة رجل واحد وماذا بعد .. ؟ ولم تمضِ لحظات حرجات على قوم كما مرت عليهم وقال رسول الله :« **وحمل الراية عبد الله بن رواحة وقاتل دونها حتى قتل شهيدًا** ». وسرت قشعريرة باردة في نفوسهم وبأجسادهم وجلسوا مطمئنين وهدأت ثائرتهم، فلم يحد عن الدرب الذي ساروا به واحد منهم .

ووصل العائدون من مؤتة، فذهبوا ليحثوا في وجوههم التراب ، ويؤنبوهم ، ويوبخوهم وينادوهم أيها الفُرّار في سبيل الله ، ويأتي الرسول مطمئنًا الناس ـ وعلى رأسهم الأنصار .. إنهم الكُرّار بإذن الله .

هذا موقف وذاك موقف ، ومنه موقف وألف موقف ما سجل منها وما لم يسجل كانت سعادة الأنصار بين يدى الله فهم للملمات الجسام ، ثم للقضايا المصيرية ، هم في نحور أعداء الله ورسوله، هم للتضحيات بالنفس والمال ، وهم .. وهم رضوان الله عليهم راضون مطمئنون ، لا يرغبون من الدنيا إلا أن يكونوا الملبين في سبيل الله ـ تعالى ـ في كل ظرف وزمان وآنٍ .

عشر سنوات ورسول الله ﷺ بينهم ، وهو مطمئن إلى أنه بين يدي قوم هم يده وهم عينه وهم أذنه وهم قدمه ، وهم كل حاله ، وهم القادرون على أن يحفظوا ما يعجز عنه البشر عادة ، ذهب بهم الرسول المذاهب الصعبة ، واقتحم بهم القفار الواسعة ، وقابل بهم طواغيت الأرض من المشركين واليهود ، وغيرهم من الروم والعرب الآخرين ، وتصدوا للمنافقين في كل موضع وحجمّوهم وأوقفوهم عند حدودهم ، وما منعهم عن قتلهم إلّا أوامر رسول الله ﷺ .لكنهم قاتلوا اليهود الذين كانوا أهل الفساد فأفسدوا وفسدوا .

الأنصار بين يدي الله ذاقوا طعم المعارك ، وطلبوا الشهادة ورسول الله يقول: **«اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ، والله لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار»**. ولا يعني بحال ذكر فضلهم وفضائلهم إبخاس إخوانهم المهاجرين فضلهم ، فقد كانوا فرسي رهان في جماعة المسلمين ، لقد أصبحوا ذاتًا واحدة في كل ما قدموا وما أعطوا ، ورضي الله عنهم عندما ألف بين قلوبهم مرتين؛ مرة عندما كانوا أعداء في الجاهلية (الأوس والخزرج) ، ومرة عندما أصبحوا إخوان المهاجرين في الميراث وفي التملك وفي العطاء وفي كل شيء .

وهكذا استمرت العلاقة الخالدة بين القائد وجنده ـ جناحيه القويين اللذين طار بهما ـ فاجتاز الصحارى والقفار بأسرع من حركة البشر، وبهذين الجناحين ـ الأنصار والمهاجرين ـ طار الرسول ليظل بظله جزيرة العرب وينشر بركته عليها من أقصاها إلى أقصاها بأوامر الله ـ تعالى ـ وقيادته لمن توسم بهم الخير والبركة فكانوا خيرًا من خير .

ولقد أفردت كتب السيرة والتاريخ والحديث والتفسير فصولًا طويلة تمهد للحديث عن وفاة الرسول ﷺ ، ولم يقدم أحد من المؤرخين أو المحدثين أو كتاب المغازى على الدخول مباشرة في هذا الموضوع ؛ لأنه موضوع مؤلم محزن فما دامت الدنيا لأحد .﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزُّمَر] . ولطالما أن السبيل كله في الدنيا إلى الموت، فإن عقل الإنسان يصاب بالإحباط في مثل هذه المواقف ـ خاصة لمن فاق فضله خلق الله كلهم أجمعين .

قال تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء] . وهذا عام في المطيعين لله من أصحاب رسول الله ومن بعدهم وسبب نزول هذه الآية أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله قليل الصبر عنه ، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ، ونحل جسمه ، وعرف الحزن في وجهه ، فسأله رسول الله عن حاله فقال يا رسول الله ما بى وجع ، غير أنى إذا لم أرك اشتقتك ، واستوحشت وحشة عظيمة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأنى إن دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين فلا أراك، فنزلت هذه الآية . وروى أيضاً عن عكرمة مرسلاً قال : أتى فتى إلى النبي ﷺ فقال يا نبي الله، إن لنا منك نظرة في الدنيا ويوم القيامة لا نراك ، فإنك في الجنة في الدرجات العلا، فأنزل الله هذه الآية . فقال له رسول الله ﷺ :« **أنت معى في الجنة**»[1]

وهذه المقدمة ما هي إلّا تسهيل للدخول في مجرى الأحداث التي أصابت المسلمين عامة بوفاة الرسول ﷺ ، وما حل بهم بعد ذلك .

وهذا الباب مضمونه يسكب المدامع من الأجفان ، ويجلب الفجائع لإثارة الأحزان ، ويلهب نيران الموجدة على أكباد ذوى الإيمان . ولما كان الموت مكروهاً بالطبع لما فيه من الشدة والمشقة العظيمة ، لم يمت نبى من الأنبياء حتى يخير . وقد عرف الله النبي اقتراب أجله بنزول سورة : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾﴾ [النصر] فإن المراد من هذه السورة أنك يا محمد إذا فتح الله عليك البلاد ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجًا فقد اقترب أجلك ، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار ؛ فإنه قد حصل مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة والتبليغ ، وما عندنا لك خير من الدنيا فاستعد للنقلة إلينا .

(١) السيرة النبوية : دحلان (٣/ ٢٩٥)

وروى الطبراني عن جابر ـ ﷺ ـ قال لما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ لجبريل : « نعيت إلى نفسي» . فقال جبريل : وللآخرة خير لك وأبقى[(١)]

أورد صاحب الإحياء موعظة طيبة بمناسبة ذكر وفاة الرسول ﷺ قال[(٢)] : اعلم أن لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ـ حيًا وميتًا ، وفعلًا وقولًا ـ وجميع أحواله عبرة للناظرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه ، وكان صفيه ورسوله ونبيه وهل أمهله ساعة عند انقضاء مدته، وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ، لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ؛ ليوصلوها من جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك في النزع كربه ، وظهر أنينه ، وترادف قلقه ، وارتفع حنينه ، وتغير لونه ، وعرق جبينه ، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره ، فهل رأيت منصب النبوة دافعًا عنه مقدورًا ؟ وهل راقب الملك فيه أهلًا وعشيرًا ، وهل سامحه إذ كان للحق نصيرًا وللخلق بشيرًا ونذيرًا ؟ هيهات ؟ بل امتثل لما كان به مأموراً ، واتبع ما وجده في اللوح مسطورًا ... إلخ انتهى .

وبعد هذا يمكن أن نجمل ما أوردته كتب السيرة من وقائع عن وفاته ﷺ .

١ـ انتقل الرسول إلى بيت عائشة في مرضه الذي قبض فيه ، وتم تمريضه فيه ، وقد أدخله محمولاً إليه الفضل بن العباس وعلى بن أبي طالب وهما ابنا عمه .

٢ـ خرج الرسول ﷺ عاصبًا رأسه في بداية مرضه ، ونعى نفسه إلى الناس فلم يفقه قوله إلا أبو بكر . إذ جلس على المنبر وكان أول ما تكلم أنه صلى على أصحاب أُحُد ، واستغفر لهم ـ ومن المعلوم أن شهداء أحد أربعة من المهاجرين وبقية السبعين

---

(١) السيرة النبوية : دحلان (٣/ ٣١٧) .

(٢) إحياء علوم الدين : الغزالي (٤ / ٤٦٨) فما بعدها .

من الأنصار ـ فأكثر الصلاة عليهم ثم قال :« **إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله**»

قال ففهمها أبو بكر وعرف أن نفسه يريد ، فبكى وقال بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا ؟ فقال :« **على رسلك يا أبا بكر**» ثم قال :« **انظروا هذه الأبواب اللافظة في المسجد فسدُّوها إلا بيت أبي بكر ، فإني لا أعلم أحدا كان أفضل في الصحبة عندي يدًا منه**»

وقال «فإني لو كنت متخذًا من العباد خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده»

٣ ـ كان الرسول ﷺ يؤكد على إنفاذ جيش أسامة ، وقد تحدث الناس بأنه فتى حدث يقود كبار رجال الإسلام من المهاجرين والأنصار فقال رسول الله «**فلعمري لئن قلتم في إمارته ، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله**» ، وفعلا تحرك جيش أسامة ونزل بالجرف .

٤ ـ أكد الرسول ﷺ في مقالته التي دعا بها لشهداء أحد قال:«يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرًا ؛ فإن الناس يزيدون ، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت اليها فأحسنوا إلى مُحسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»

٥ ـ التأكيد على أن يؤم الناس أبو بكر الصديق مع قول عائشة بأنه رجل رقيق ، لكن الرسول جدد التأكيد على أن يصلي أبو بكر بالناس ، ولما أفاق رسول الله من مرضه قليلًا ودخل المسجد فتن الناس به ، وتأخر أبو بكر عن إمامة الناس إلّا أن الرسول ثبته ودخل الصلاة عن يمينه .

٦ ـ ولما كان يوم الاثنين وفيه قبض ﷺ قال حتى علا صوته خارج المسجد يقول: «**يا أيها الناس سُعِّرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وإني والله ما تَمَسَّكون عليَّ بشيء إني لم أُحِلَّ إلّا ما أحل القرآن ، ولم أُحُرِّم إلّا ما حرَّم القرآن**» واستأذن أبو بكر الرسول بالذهاب إلى أهله بعد أن رآه بخير .

٧ ـ جلس الرسول ﷺ على المنبر وطلب من كان له حق أن يظهره على رسول الله وطلب أن ينصفه الناس في الدنيا ، ومن له حق عليه فليطالب به ماديًا وجسديًا فقام أحدهم وطالبه بثلاثة دراهم ، وقام آخر واعترف بسرقة دراهم . وقام آخر واعترف بكذبه فدعا له وقام رجل آخر واعترف بنفاقه فدعا له بخير ـ وكانت جلسة مصارحة عظيمة بدأها بنفسه وتبعه الكثيرون .

٨ ـ تؤكد رواية عبد الله بن عباس ما جرى بين علي ـ رضوان الله عليه ـ وعمه العباس ، إذ خرج على من عند رسول الله فسأله الناس : يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ؟ قال أصبح بحمد الله بارئًا . قال : فأخذ العباس بيده ثم قال : يا علي أنت والله عبد العصا بعد ثلاث . احلف بالله لقد عرفت الموت في وجه رسول الله ، كما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب . فانطلق بنا إلى رسول الله، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه ، وإن كان في غيرنا طلبنا منه فأوصى بنا الناس فقال علي : إني والله لا أفعل ، والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحد بعده .

٩ـ ودخل عليه أسامة وقادة جيشه ، فكان رسول الله ﷺ يدعو له بخير ، ثم خرج وتقول عائشة ـ رضي الله عنها [١] : إن رسول الله مات بين سحري ونحري وفي دولتي ، ولم أظلم فيه أحدًا فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري ، ثم وضعت رأسه على وسادة ،وقمت ألتدم (أضرب صدري مع النساء وأضرب وجهي) .

وهكذا قبض رسول الله ﷺ في ضحى الاثنين لأيام خلت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة[٢] صلى الله عليك يا حبيبي يا رسول الله .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٤ / ٢٩٨، السيرة النبوية : دحلان ٣ / ٣١٧ . تاريخ الطبري: ٣/ ١٩٩، الكامل : ابن الأثير ٢ / ٢١٥ ، إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٥٤٠ ، السيرة الحلبية : على الحلبي ٣/ ٣٨١ ، البداية والنهاية : ابن كثير ٥ / ٢٢٣ ، السيرة النبوية : ابن كثير ٤ / ٤٢٧ ، حدائق الأنوار : الشيباني ٢ / ٧٤٨ ، الطبقات الكبرى : ابن سعد ١ / ٢٣١ ، تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم ١ / ١٤٩ ، نور اليقين : محمد الخضري ، ص ٢٨٠

(٢) الطبري :تاريخ ٣/ ٢١٧

(١) الآثار السياسية الناتجة عن وفاة الرسول ﷺ

أ ـ في الداخل :

إن موت العظماء في التاريخ قد أوجد بعد رحيلهم فراغًا كبيرًا وخللًا واضحًا في أممهم ـ هذا بالنسبة للبشر العاديين، فكيف برسول الله ﷺ الذي انقطع بموته خبر السماء إلى الأرض ،وانتهت بموته الرسالات لنبي البشر من لدن الله تعالى ، وهو الرسول الأمي الأمين الذي قاد المسلمين باختيار الله تعالى لهم من أمة العرب إلى آفاق وأبعاد لم يكونوا بالغيها بغيره وبدون رسالته ، بل على العكس فإنهم كانوا نائمين يجترون أحقادهم ويمضغونها وينقصون يومًا بعد يوم .كيف لا يكون لرحيل رسول الله ﷺ عن أحبابه وأصحابه والمؤمنين به من آلاف الآثار الخطيرة التي تعصف بأقوى الحكومات وأعظمها

كان محمد يتحدث بأوامر الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ﴾ [النجم] وقد أكد ﷺ هذا في لحظاته الأخيرة فقال: «ماحرمت عليكم إلا ما حرمه القرآن، ولا أحللت لكم إلا ما أحله القرآن . هذا الذي بني أمة وشعبا ودولة بتوجيهات الله تعالى وأوامره»

كيف لا تنقلب الموازين كلها من أعلاها إلى أسفلها بعد هذا الرحيل المفاجئ الذي كتب أصلًا على كل بني البشر .لكن وفاة الرسول ﷺ غيرت كثيرًا في جميع الاتجاهات وعلى جميع المستويات ،وعلى كل الأصعدة .ولم يبق أحد لم يتأثر بهذا الحدث ،سواء في المدينة حيث يتركز الجهد الأكبر والقوة العظمى للمسلمين من المهاجرين والأنصار ،أو في جزيرة العرب ، وقد تنبه الناس إلى التعامل السياسى في هذه المرة والعسكرى مع المسلمين الذين تمكنوا أن يرضوا كل العرب تقريبًا ويجعلوا منهم كتلة واحدة في وقت قصير، أو ما يحيط بالجزيرة بعد أن هزَّ محمد بيمينه أرجاء

الجزيرة وأطراف الإمبراطوريات العظيمة ، وحرك القائمين على تخومها والذين رسموا ردحًا طويلًا من الزمن سياستها ومصيرها .

كانت وفاة الرسول ﷺ تحولًا خطيرًا في مجرى الأحداث والأفكار والخطط، وأدت الوفاة إلى انقلاب موازين القوى ، وتحركت في النفوس عوامل شتى عند المؤمنين وغير المؤمنين .

ويمكن لنا أن نجمل هذه الأحداث في الداخل (داخل المدينة) والخارج في الدولة الإسلامية .

ومحيطها على النحو التالى :

١ـ قضية الوفاة نفسها .

٢ـ قضيه الخلافة والحكم ، وهذا ما سنأتيه بالتفصيل في القسم الثانى من هذا الفصل .

٣ـ جيش ـ أسامة بن زيد .

٤ ـ العلاقة بين الصحابة ورضوان الله عليهم .

٥ ـ القضايا الأخرى التي ترتبت على الوفاة .

أما في الخارج فيمكن حصرها بالتالى :

١ـ مانعو الزكاة .

٢ـ المتنبئون .

٣ـ المرتدون .

٤ ـ تحرك القوى الخارجية ضد الدولة الإسلامية .

ونلقي نظرة سريعة على كل واحدة من هذه :

١ـ قضية وفاة الرسول ﷺ :

روت كتب السيرة أن نبأ وفاة الرسول ﷺ نزل على المسلمين كالصاعقة فألجمهم ، وأسكت أفواههم ، وأبطل عمل حواسهم ، وجمد حركتهم ولم يعد أحد يدرى ماذا يفعل،إذ عقدت الدهشة ألسنتهم ، ومع ما أحاط بيت الرسول من حشد هائل من الناس،وسماعهم عويل النساء وندبهم وبكائهم،فإن أحدًا منهم لم يدر ماذا يفعل وما عليه أن يقول ، وما هي الخطوة التالية ..؟وما هي النظرة للمستقبل ..؟ وإلى أي طريق سيسلك هؤلاء القوم ،وماذا عن هذا المجد العظيم الذي حققه الرسول ﷺ كل هذه الأمور تسبقها وتلحقها إشارات استفهام تتدافع الواحدة تلو الأخرى ، وتزيدها بعدًا وإعراقًا في التساؤل .

في هذه اللحظات لابد من مواقف ،وقد كانت هذه المواقف كل حسب منبته، وحسب قوته وقدرته .

قال أبو جعفر : توفى رسول الله ﷺ وأبو بكر بالسنح، وعمر حاضر، فحدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال :لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي ، وإن رسول الله والله.ما مات ،لكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع بعد أن قيل قد مات والله ليرجعن رسول الله فليقطّعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات[(١)]

وعلى نفس الشاكلة في رواية جاء عمر بن الخطاب والمغيرة بن شعبة فاستأذنا فأذنت لهما (الحديث للسيدة عائشة) وجذبت إلى الحجاب، فنظر عمر إليه، فقال : واغشياه ما أشد ما غشى رسول الله ثم قاما ، فلما دنوا من الباب، قال المغيرة ياعمر، مات رسول الله ﷺ .

---

(١) الطبري : تاريخ ٣/ ٢٠٠ـ٢٠٥ ، السيرة النبوية ـ ابن هشام ٤/ ٣٠٥،٣٠٦

فقال عمر :كذبت، بل أنت رجل نحوسك فتنة إن رسول الله لا موت حتى يفني الله المنافقين(١)

لقد ربط عمر بين أعمال المنافقين وشائعاتهم وموت الرسول ﷺ ، وأنكر ذلك واعتبره من أعمالهم ، وهدد بأن الرسول سيعود بعد أربعين ليلة ويقطع الأيدى والأرجل ولن يموت حتى يفنى الله المنافقين ....؟ وأخذ عمر يردد ذلك في الناس، والناس ينظرون مندهشين لما يسمعون .

قال وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ورسول الله مُسَجَّى (مغطي) في ناحية البيت عليه بردة (حبرة) فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : بأبي أنت وأمي .. أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن يصيبك بعدها موتة أبداً ثم رد الثوب على وجهه.

ثم خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك يا عمر . فأنصت ، فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس .. فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

قالوا : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر يومئذ .

قال : وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم .

---

(١) السيرة النبوية: ابن كثير ٤/ ٤٧٨

قال أبو هريرة قال عمر والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها، فعقرت (دهشت) حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلأي، وعرفت أن رسول الله قد مات[١]

وهكذا أخرج أبو بكر الناس من موقف الحيرة والدهشة والانبهار والذي كان سيؤدى إلى مواقف تؤدي إلى فتنة تعصف بالمؤمنين يقودها عمر بن الخطاب مهددًا متوعدًا بأن الموت غير حال برسول الله ، وبشجاعة وصلابة أبي بكر هدأ الناس، وأخذوا يرددون الآية السابقة، وكأنها نزلت عليهم الساعة ـ كما قالوا ـ وتحولت الجماعة المسلمة بعد هذا الموقف العبقرى الشجاع إلى التسليم بقدر الله وقضائه المقدر على جميع مخلوقاته ، لايستثنى منه نبيًا أو ملكًا أو سلطانًا أو كبيرًا أو صغيرا والتحول إلى مواجهة المشاكل التالية الواحدة تلو الأخرى .

٢ـ تنتقل المصادر كلها بعد قضية وفاة الرسول إلى مشكلة الخلافة والحكم مباشرة ونحن وضعناها في مكانها، ونتوسع بها تاليا بإذن الله تعالى .

٣ـ جيش أسامة بن زيد [٢] :

أفرد ابن كثير في تاريخه[٣] فصلا عن إنفاذ جيش أسامة بن زيد ، لما له من أهمية في اللحظات الأولى التي فارق بها الرسول ﷺ الحياة الدنيا الذين كانوا قد أمرهم الرسول ﷺ بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام حيث قتل زيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة، فيغيروا على تلك الأراضى ، فخرجوا إلى الجرف ، فخيموا به ، وكان بينهم عمر بن الخطاب ، ويقالوا أبو بكر ، فاستثناه رسول الله منهم للصلاة ، فلما ثقل رسول الله أقاموا هنالك ، فلما مات عظم الخطب واشتد الحال ونجم النفاق في المدينه ، وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق ، ولم يبق للجمعة مقام في بلد سوى مكة والمدينة ، وكانت جواثا

---

(١) الطبري : تاريخ ٣/ ٢٠٥، السيرة النبوية: ابن هشام ٤/ ٣٠٦.
(٢) حياة الصحابة : الكاندهلوي١/ ٤٠٦ فما بعدها .
(٣) البداية والنهاية : ابن كثير ٦/ ٤٠٣ ، خطط الشام : كرد على ١/ ٧٦

من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق ، وكانت ثقيف بالطائف ثبتوا على الاسلام ولم يفروا ولم يرتدوا .

عندما وقعت كل هذه الأمور أشار الناس على الصديق ألا ينفذ جيش أسامة لاحتياجه إليه فيما هو أهم؛ لأن ما جهز بسببه في حال السلامة، وكان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب، فامتنع الصديق من ذلك، وأبي أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة

ولما صمم أبو بكر على تجهيز الجيش قال بعض الأنصار لعمر قل له فليؤمر علينا غير أسامة فذكر عمر ذلك فيقال إنه أخذ بلحيته وقال: ثكلتك أمك يابن الخطاب ، والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولا أؤمر غير أمير رسول الله ، ولو أن الطير تخطفنا ، والسباع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة، وأمر الحرس أن يكونوا حول المدينة ثم نهض بنفسه إلى الجرف، فاستعرض جيش أسامة وأمرهم بالمسير ،وسار معهم ماشيًا ، وعبد الرحمن بن عوف يقود براحلة الصديق، فقال أسامة : ياخليفة رسول الله، إما أن تركب وإما أن أنزل ؟ فقال والله لست بنازل ولست براكب ، ثم استطلق الصديق من أسامة عمر بن الخطاب وكان مكتتبا في جيشه فأطلقه له (فلهذا كان عمر لايلقاه بعد ذلك إلّا قال السلام عليك أيها الأمير) ، وكان خروج جيش أسامة من أكبر المصالح والحالة تلك .

فساروا لا يمرون على حى من أحياء العرب إلا أرهبوهم وأرعبوا منهم ، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة . فقاموا أربعين يومًا ، ويقال: سبعون يومًا ثم، أتوا سالمين غانمين .

هكذا وردت قصة إنفاذ الجيش ونتائجه ، وقد وصف المؤلف حال المسلمين عند ما أنفذ هذا الجيش .

قال سيف بن عمر عن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما بويع أبو بكر وجميع

الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه قال ليتم بعث أسامة وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة ، في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، والمسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ ، وقلتهم وكثرة عدوهم . فقال له الناس إن هؤلاء - جل المسلمين والعرب على ماترى قد انتصفت بك ، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فقال : والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ، ولو لم يبق في القرى غيرى لأنفذته ، وقالت عائشة تصف حال المسلمين الذي وصلوا إليه وتضيف: والله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بخطلها وعنانها وفصلها

وعن أبي هريرة قال والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله ، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة فقيل له : مه يا أبا هريرة ، فأورد حديث جيش أسامة والنتائج التي حصل عليها ومقالة أبي بكر عن إنفاذه .

لقد أقر كل من له عقل أبي بأن من الحكمة البالغة المواقف الخالدة للصديق في أشد الأزمات والتي سنتحدث عن بعض تفصيلاتها . وكان إنفاذ جيش أسامة من أعظم الفتوح على المسلمين وقتها .

٤ ـ العلاقة بين الصحابة رضوان الله عليهم :

لا ندخل في تفصيلات كثيرة حول هذا الموضوع فقد أدلى الكثيرون بدلوهم في هذا المجال خاصة أصحاب الأهواء والمصالح ، والمنافقين من العرب ومن اليهود حول هذه العلاقة التي تزعزعت بين الصحابة رضوان الله عليهم . وقام كل واحد منهم بطلب المغنم لنفسه ، ويتوجه إلى الحكم وإلى القوة متجاوزاً حقوق الآخرين.. وأكثر من ألف في هذا المقام بعض الشيعة وبعض متطرفي الباطنية والخوارج .

ولو تجردنا من كل الأهواء والغايات والميول حتى التي نكنها في قلوبنا، وصدورنا لصحابة رسول الله ﷺ فإن الترتيب الذي جرى بعون الله وتوفيقه للصحابة في تسلم مناصب الخلافة كان فتحًا عظيمًا للإسلام والمسلمين ، فلولا هذا الترتيب لما

كان لدينا اليوم هذا الدين وتراثه الخالد، وثبت عظيم من أسماء أولئك الخالدين من التابعين وتابعيهم إلى يوم الدين . ولو قدر لهذا الترتيب أن يختل فلربما ـ والله أعلم ـ كانت الأمور غير ما هي سواء من المورثين أو الوارثين ،لكن هدى الله تعالى قد أعطى هذه الأمة أيضًا فتحًا في القلوب وفتحًا في النفوس والعقول ، وفتحًا للبلاد والعباد .

لا نريد أن نحلل ماجرى وما كان يجرى ، ولكن نحب أن نقر أن جميع الصحابة رضوان الله عليهم كانوا كتلة واحدة في وجه الطغيان الذي استشرى بعد وفاة الرسول ﷺ ،عندما يذكر المؤرخون أن جزيرة العرب كانت بين مرتد ومتنبئ ومانع زكاة ومنافق ، وذمي، ولم يثبت على الإسلام إلا المدينة ومكة والطائف ليعلم أن كل هذه القوى قامت تريد القضاء على الإسلام والمسلمين لتثبيت ادعاءاتها وكذبها ودجلها .

وكل هذه القوى توجهت بأنظارها إلى المدينة ـ أولًا ـ حيث مركز القوة والحكم والجمع الأكبر للصحابة وإلى بقية المراكز الثابتة على الإسلام في الدرجة الثانية ، وحسمت أمور المسلمين كلها بلحظات سريعة قدر الله تعالى أن تكون على أيدى هؤلاء الرجال .

ولعل ماحصل أقل ما يمكن أن يحصل في أي بقعة من بقاع الأرض وفي أية جماعة تابعة لنبي سبق محمدًا ﷺ . كما أن الفترة التي قضاها الرسول بين المسلمين مبعوثًا ربما لم تكن غير كافية لمحو كل الآثار التي في نفوسهم ؟، فبعضهم آمن قبل وفاته بأيام وبعضهم بأشهر والبعض بسنة وبعضهم شاهده وأكثرهم لم يشاهدوه وإنما اكتفوا بالسماع ، ومن المعلوم أن عدد الصحابة في بدايات الدعوة، كانوا لايتجاوزون عدد أصابع اليدين وهم الذين قطعوا الرحلة كلها من بدء الدعوة إلى وفاته ﷺ وحملوا معه كل الصعاب والمشاكل التي لاقتها هذه الدعوة ،ويأتى على رأس هؤلاء أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وعثمان وطلحة والزبير وغيرهم من المهاجرين .

وجاء الأنصار في المرحلة التالية ،ولكنهم قدموا وضحوا حتى وازوا إخوانهم المهاجرين في السابق إلى الإسلام ، وغزوة بدر كانت الفيصل في هذا المجال إذ جمعت كل المخلصين حتى يومها من المهاجرين والأنصار ، فكانت مقياسًا حتى للأعطيات التي دونها عمر بعد الفتوح .

هذا التفاوت الكبير في غسل قلوب المؤمنين كان له ما يبرره؛ اذ حصل بعض مخالفات وهي أيضاً من طبيعة البشر . أما أن يتمكن أبو بكر وبأشهر قلائل أن يعيد الصواب إلى عقول المتمردين والمرتدين والمتنبئين والخارجين على دولة الإسلام ، فإن هذا لم يتحقق إلَّا بمعجزة مستمرة من طيف الرسول ﷺ ومن لمسات يده .

وأن تعود للجماعة وحدتها في أيدي الصادقين وفي ساعات قليلة ، فإن هذا أمر عجيب إذا أردنا أن ندخل في متاهات دراسة النفوس البشرية .

ولقد قدمنا أن المواقف ترتبط بأصحابها وطباعهم ، وما جبلوا عليه ، فكانت مواقف أبي بكر الرقيق أشد صلابة وقوة وحزمًا، وحكمة ومواقف شجاعة ، وعمر الخشن الصلب يتردد في مثل ذلك، لكنه في هذة المواقف كان يريد من يعيد له رشده ففعل أبو بكر ، فسقط عمر على الأرض غير قادرة قدماه على حمله لهول المصاب وفداحة الخطب . وخرج أبو بكر الرقيق حاضر الدمعة من خشية الله بعد أن فارقه أحب حبيب له في مقاييس حب البشر قاطبة ، خرج بشجاعة متماسكًا قادرًا على حسم الموقف في القضية الأولى وفي القضايا التالية لذلك .

إن مواقف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ المتماسكة القوية بعد وفاة الرسول قد أعادت للإسلام هيبته ومجده ، وإعادت للدولة الإسلامية عظمتها وكبرياءها ، وأرست هذه المواقف معالم هذه الدولة، وهذه الدعوة إلى يوم الدين بعون الله وتوفيقه .

وإنني لأعجب من الذين يخوضون في استنباط واستنتاج مواقف حصلت أو لم تحصل ، كيف يقومون على إبرازها والحوم حولها والحديث عنها ويتمنون لو حصل

غيرها وهم يعلمون قبل غيرهم أن ما تحدثوا به إنما هو من شيطان أراد أن يدخل في أفكارهم ليميت في نفوس المسلمين الآثار الخالدة التي نجمت عن هذه المواقف ونحن نضع بعض الأسئلة التي لابد منها هنا .

هل كان أي خلل في نفوس الصحابة يعطى ما أعطاه من النتائج في حروب الردة والفتح ..؟!

هل كان أي مشكل داخل الجماعة يعطيها هذا الزخم وهذه القوة لتخرج من محنتها كأقوى ما تكون، ولولا إلهام الله لهم ودعوة رسول الله لهم لانتهوا بعد أيام من وفاة الرسول كما يتصور هؤلاء المغرضون ..؟!

هل تستطيع جماعة أن تتحدى الدنيا في أشهر معدودات وقد تهافت أصحابها على كرسي الحكم والرئاسة وحسد الواحد الآخر على ما أصابه ؟!

هل تستطيع أية قوة في العالم أن تصل إلى أقصى ما وصل المسلمون وقدمها مقيدة بآراء واجتهادات وتحميلات ما لا يحتمل..؟

إن فلانًا تجاوز فلانًا،وفلانًا أخذ حق فلان ، وفلانًا تحدث عن فلان ، وفلانًا منع هذا وأعطى هذا كما هي محشوة كتب الباطنية والمذاهب المتطرفة ما كانت تستطيع أن تجعل المسلمين يقاومون الأعراب الذين أغاروا على المدينة وما حولها فكيف بجيوش جرارة لم يوقفها إلا مئات الشهداء والمجاهدين الذين ما عرفوا بحال أنهم تشيعوا لفلان وتركوا فلانا وخطؤوا هذا وصوبوا ذاك .

نعم إن الفترة التي تلت وفاة الرسول بكل ماقيل فيها فهي بركة الله وبركة رسوله ونفحة الإيمان الصادق في نفوس صحابة رسول الله وما جرى في عهود متأخرة له حكم آخر ..

لقد كان هدى الرسول ﷺ منارة للجميع يسكت كل من يذكر به حتى ولو على رأس المناوئين وقوتهم يهتدون بهديه ﷺ في كل خطوة من خطواتهم ، ولم ينقضوا

عهدًا ، ولم يحلوا حرامًا ولم يحرموا حلالًا، ولم يغيروا من ترتيب رسول الله لم يحلوا جيشاً وراية عقدها رسول الله ، وأنفذوها إلى مكانها، ونفذوا كل شيء بوقته وساعته غير آبهين إلا لعز هذا الدين وسيادة مجده .

لقد أوردت كتب التاريخ والسير بعض الحوادث التي دارت بين الصحابة ، وانتهت بوقتها ، لكن أصحاب الهوى أبرزوها وحاموا حولها كما تحوم الفراشات حول النار ، ووجدها فرصة سانحة حتى يدخلوا في مجال طعن الدين ويشهروا به ويعتبروا أن خلفاء الرسول قد غيروه وبدلوه والمدافعين عنهم أحد أركانه ، بل ورأس الاستشارة فيه ، ويمكن أن نلخص بعض هذه الحوادث بإشارات سريعة .

١ـ حديث العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليهما ـ حول الاستخلاف وقد أبى علي أن يسأل الرسول حتى لا تبقي سنة من بعده سواء أعطاهم أو منعهم .

ومن المستحسن أن نذكر أيضًا موقف أبي سفيان من هذا الأمر .. قال أبو سفيان لما بويع أبو بكر وقام علي بمبايعته : مابال هذا الأمر في أقل حي من قريش...؟ ولله لئن شئت ـ الحديث لعلي ـ لأملأنها عليه خيلًا ورجالًا

فقال علي ﷺ يا أبا سفيان طالما ما عاديت الإسلام وأهله ، فلم تضره بذلك شيئًا إنا وجدنا أبا بكر لها أهلًا [(١)]

٢ـ لم يذكر أحد من المؤرخين ، أو كتاب السير أوالمحدثون العدول أن رسول الله ﷺ قد أوصى لأحد بشيء ، سواء بخلافة ، أو بمال ، أو بأعطيات ، أو بمتاع ، وأسر لابنته فاطمة بأنها أول اللاحقين به من أهله ، ولم يزد على ذلك إلا أن أصحاب الهوى والأحقاد يقولون ويتقولون بأنه قد يكون قد أوصى لعلي أو سواه .

٣ـ قضية الخلافة وسنأتي على تفصيلاتها .

---

(١) علي : محمد رضا ص ٣٦

٤ ـ قضية ميراث الرسول ﷺ في فدك ، فإن ، أبا بكر لم يعط أحدًا مهما كان ؛ لأن الرسول ﷺ قال :«نحن الأنبياء لا نورث ماتركناه صدقة» ، ولقد استغل هذه الحادثة أصحاب الأهواء وولغوا فيها للنيل من أبي بكر ، فلو كان أبو بكر ﷺ متملقًا أحدًا أو متألفًا قلب أحد من المسلمين لكان أولى الناس بهذا فاطمة بنت رسول الله ، لكن أبا بكر أقر مبدءاً شرعيًا ، ولم يسأل عن علاقات الدنيا مهما كانت .

٥ ـ قضية تجاوزعلى بالخلافة وإعطائها لأبي بكر . الخلافة لم تنزع من علي وتعطي لأبي بكر لكنه تم تجاوز سعد بن عبادة من الأنصار ، وتحمل المسلمون مفارقته للجماعة ولم يجد من يقف في جانبه إلّا العدد القليل جدًا من عشيرته المقربين. فكيف لايدافع المدافعون عن سعد ويتقولون على على رضي الله عنهم أجمعين .

عن أبي سعيد الخدري في حديث طويل ، أن أبا بكر ﷺ صعد المنبر بعد أن بايعه الناس فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير .. قال : فدعا بالزبير بن العوام فجاء فقال : قلت ابن عمة رسول لله ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين ..فقال : لاتثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه .

ثم نظر في وجوه القوم فلم يرعليًا فدعا بعلي بن أبي طالب فجاءه فقال قلت: ابن عم رسول الله وختنه على ابنته..أردت أن تشق عصا المسلمين ..؟قال:لا تثريب يا خليفة رسول الله وختنك على ابنته ..أردت أن تشق عصا المسلمين ..؟ قال : لا تثريب يا خليفة رسول الله فبايعه ..هذا أو معناه .

وقد روى الحديث بعدة وجوه كلها تؤدي إلى أن عليًا بايع في اليوم الأول أو الثاني وبعضها قال : بأن عليا جاء حاسر الرأس حافي القدمين مفتوح الثوب عند ما علم بلفظ الناس عنه فبايع،وأمر بأرديته فجيء له بها ولبسها وجلس مع المسلمين.. وعلي بن أبي طالب لم ينقطع عن صلاة خلف أبي بكر ، فكيف هذا المغتصب حقه يفعل هذا ..؟هذا بهتان عظيم تقول به من لا يخافون الله ولا يرجون لقاءه ..؟ ثم إن عليًا خرج مع أبي بكر إلى ذى القصة لما خرج الصديق شاهرا سيفه يريد قتال أهل

الردة . وقد تكفل بالرد الموسع الموثق أهل الحديث والسير من السابقين وصدقهم اللاحقون فجزاهم عنا جميعا خير الجزاء[(١)]

وليس بعد هذه المغالطات من شيء يمكن سياقه في هذا الأمر، فقد عادت وحدة الجماعة قوية كما كانت بفضل صدق الصديق والصحابة وأهل بدر والمهاجرين والأنصار وحَّدهُم الله تعالى تحت قيادة الخلفاء الراشدين وسواهم ، كما نصرهم وهم تحت راية رسول الله ودال الله لهم الدنيا فأضحت بين أيديهم يقلبونها كيف شاؤوا فقد أصدق القوم الإيمان فأصدقهم الله الوعد .

٦ ـ ولقد ترتب على وفاة الرسول ﷺ قضايا كثيرة وسئل عنها ﷺ قبل وفاته وتتعلق أكثر ما تتعلق بمن يغسله ومن يكفنه ومن يلحده ، ومن ينزل قبره وقد أفردت كتب السير أبوابًا واسعة لهذا . وكان أهله من بني هاشم هم القائمين على ذلك وبخاصة العباس وأولاده،وعلي بن أبي طالب،وبقية الصحابة وممثلو الأنصار، وقد برزاسم قثم بن العباس كثيرًا في هذا المقام ، وكان هو أكثر شبهًا برسول الله من بني عبد المطلب ثم إنه أوصى بدفنه حيث قبض ، ونهيه أن يتخذ المسلمون قبره مسجدا كما فعلت اليهود والنصارى . ونفذ الناس هذه الأمور بلا خلاف كما نفذت سنته في الناس بلا خلاف، إلا من غضب الله عليهم وأوردهم موارد الهلكة من التجنى على رسول الله وأصحاب رسول الله[(٢)]

٧ ـ لقد توحدت الجماعة المسلمة من الأنصار والمهاجرين (الأوس والخزرج بمبايعة أبي بكر) ، وقبائل قريش كلها وبقية القبائل العربية الأخرى وسقطت آراء الذين شككوا في خلافة أبي بكر مثل أبي سفيان وغيره ، وتحولت الجماعة المسلمة إلى موقع التحدي وصد الهجمة الشرسة التي جاءتها من الخارج ، والتي لو قدر لأي خلاف أن يستشري أو ينشب بين المسلمين أن تعصف بها ، وتقتلعها من

---

(١) البداية والنهاية ٥/ ٢٤٩ – ٢٥٣، أبو بكر ـ محمد رضا ٢٦٠ ، علي ـ محمد رضا ٧٧

(٢) السيرة النبوية ابن هشام٤/ ٣١٢فما بعدها، البداية والنهاية ابن كثير ٥/ ٢٦٠ فما بعدها، والطبرى: تاريخ ٣/ ٢١٠ فما بعدها ، إمتاع الأسماع : المقريزى ص ٥٤٨ فما بعدها .

جذورها ، لكن حكمة الله ـ تعالى ـ قضت غير ذلك ، وهيأت من الرجال الذين تحملوا عبء المرحلة بشجاعة الرجال ، وقوة الإيمان ، ومتانة الإسلام ، وصدق التسليم ، فكان لهذا الأمر أن هَزَمُوا كل التجمعات من هذه الهجمة الجاهلية ومن أي اتجاه جاءت بتماسك القوة في الداخل (الأنصار والمهاجرون) كان الفضل الآتى من الله تعالى تكريمًا لنبيه بعد موته؛ إذ خلَّف رسول الله ﷺ رجالًا حملوا رسالته وأدوا أمانته وصدقوا وعدهم معه ، فكان الله تعالى قد أراهم معجزته بأن أنزل عليهم نصره وجمع شملهم على عبادته ، وأعزهم بجنده ، وهزم جمع المرتدين وحده .

ب ـ في الخارج :

ويعني خارج المدينة المنورة مركز الدولة ومقر الخلافة .

القضية الأولى: مانعوا الزكاة :

فقد ثبت مع جماعة المسلمين في المدينة أهل مكة وأهل الطائف ، وانتقض كل مكان في جزيرة العرب بعد ذلك على حكومة المدينة ، ومن ثبت من المسلمين بأعداد متفرقة منهم من قتل ومنهم من تمكن من الثبات مع القليل بمن بقى متمسكًا بدينه إلى أن جاء الفرج من المدينة .

إن ملحمة الردة في تاريخ الإسلام ملحمة واسعة أفرد لها المؤرخون الكثير والكثير من الصفحات وتحدثوا عن أدق جزئياتها؛ لأنها بالفعل كانت معجزة للإسلام من جديد بعد غيبة الرسول ﷺ وانتقاله للرفيق الأعلى ، وأثبتت أن الإسلام الذي اكتمل تنزيله على لسان الرسول ثابت بعده ، ثابت بالمبدأ و العقيدة والقرآن وسيرة النبي والتي أرادها الله تعالى في المسلمين ، وما الرسول إلا مبلغ ولقد أدى دوره، وانتهي عن الحياة الدنيا بجسده ، ولو كان وجوده الدائم ضروريًا لكان من المنطقى استمرار وجوده ، وهذا مخالف لنواميس الحياة ، وأساس خلق البشر ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزُّمَر] ولذلك فإن ما أصاب دولة الإسلام

بعد وفاة الرسول ﷺ يعتبر من أكبر التحديات في تاريخ البشر

لم يكن الخط المتبع في الردة واحدًا، بل تفاوت تفاوتًا كبيرًا جدًا حسب كل قبيلة ، أو جماعة أو عشيرة وكانت أخف ردة من هؤلاء ردة مانعي الزكاة .

ومانعو الزكاة أرسلوا للخليفة أنهم مقيمون على حدود الإسلام يؤدون فرائضه وسننه وينضمون تحت لواء الجماعة ، وهم على إسلامهم باقون إلا واحدة أنهم لن يدفعوا الزكاة وهو أمر بسيط للمتتبع لأحوال الجماعة المسلمة وهو أخف الأضرار كما يقول خبراء السياسة والاجتماع فهؤلاء يؤجل النظر في قضيتهم إلى ما بعد التسوية النهائية، فإن كانت على المسلمين، فقد ذهب أولئك معهم وإن كانت لهم استدرك الأمر وتمت التسوية معهم . ومن هذا المنطق قابل بعض الصحابة مشكلة مانعى الزكاة ، وطلب الكثيرون تأجيل قضيتهم لحاجة الجماعة إلى الزخم الكبير من الرجال والمقاتلين لأولئك الذين وصلت جحافلهم إلى مشارف المدينه يريدون غزوها والقضاء على هذه الدولة والجماعة .

ومن منظور آخر فإن قضية هؤلاء تعتبر أيضا لك لا عليك ، فمن الممكن أن يقاتلوا مع المسلمين ، ويقدموا تضحيات كثيرة بجانبهم لكن القضية في ذهن الخليفة غير واردة إطلاقا ، وحسب الأولويات الضرورية للتصدى للتحديات التي واجهتها الجماعة المسلمة فإن هذه القضية يمكن أن تكون في أواخر سلم الأولويات. خاصة وأن الإسلام قد أكد أن رأس الإيمان به الشهادتان فمن أداهما فقد حصن ماله ودمه ومانعو فإن الزكاة ساروا أبعد من الشهادتين بكثير مع الصلاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك .. لكن الزكاة ..لا ؟

وهنا تظهر الملامح الواضحة لتطور الدعوة الإسلامية ومدى تعمقها في النفوس. تظهر التفاعلات مع النفس البشرية،وإلى أي مدى عرف الناس هذا الدين، وعرفوا حدوده، وعرفوا أبعاده وأهدافه، وعرفوا توجهاته . وإلى هذا الموقف تتطلع العيون، وإلى مدى تماسك أجزاء هذه العقيدة وتلاحمها ، وهل انفصام عقدة منها ينقضها أو ينهيها على المدى البعيد وفعلا فقد كانت الأنظار متوجهة إلى أبي بكر ﷺ فهو

الأعلم بلا شك بحدود هذا الدين ومبادئه وتوجهاته، وينتظر الناس ماذا سيكون من هذا الرجل المؤمن الذي قدر له أن يكون في موقع خلافة النبوة والقيادة ، وهو الذي استوعب الإسلام من رسول الله دقيقة بدقيقة ، وساعة بساعة ، ويومًا بيوم . ولم يفته من صحبه الرسول ساعة .

البعض إن لم نقل ـ الكل ـ قد أقر مبدأ الأولويات من صحابة رسول ، وهو تأجيل مانعي الزكاة إلى مابعد التسوية الكبرى في جزيرة العرب ، وبعدها تجرى المحادثات والإقناع .

لكن أبا بكر ﷺ قفز إلى أول الأولويات وجعلها من أعظم المصائب ، وأدهى النوازل ، وهيأ للرد عليها القوى الكبيرة ، واعتبرها خروجًا عامًا على الدين كالذين أنكروه جملة وتفصيلًا فأعلن على الفور والله سأقاتلهم مادامو يمنعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله . ولم يتمكن بالطبع أن يقف الأشداء في وجه هذا القرار لا بالامتناع ولا بالقوة . فكان هو النافذ،وكان هو المطبق،واتخذت كافة الإجراءت للقضاء على هذه الظاهرة ولعودة أولئك المناقضين لعروة من عرى الإسلام .. وبعدها عروة عروة إلى رشدهم وإلى قناعتهم .

والقضية الثانية: المتنبئون :

وهؤلاء أكثر على ما يبدو إذا ظهر عادة زعيم ،أو قائد ، أو عبقرى من بني البشر على قدره وارتفع صيته وانتشر ، كثر مقلدوه كما يكثر الآخذون منه حتى تصل الأمور إلى ترديد أقواله ، ولبس لباسه ، والعيش كما يعيش وهذا من طبائع البشر

لقد كانت النبوة في العرب قليلة ـ وإن كانت فهي على فترة من الزمن متباعدة ـ فإسماعيل ﷺ قد ملك على الناس مشاعرهم فما زالوا يتحركون ضمن حدود مبادئه حتى ظهور رسالة الإسلام، والمعنى أنهم في الإطار العام سلكوا الدرب والخط المناقض ، فأصبحت الوثنية تعبيرًا عن التعبد على طريقة إبراهيم وإسماعيل

إلى آخر أيام وثنيتهم هذا حال العرب حاضرهم وباديهم ، قريبهم وبعيدهم وإكراما لهذه الرابطة الواهيةلم يعتنق العرب ما جاءهم من الديانات الأخرى كاليهودية والمسيحية ، وإن حصل فهو في القليل النادر بالنسبة للسواد الأعظم، ولذلك عندما انتشر خبر رسول الله ﷺ في أنحاء جزيرة العرب ، ونصره الله في مواطن كثيرة ، وهزم أعداءه على اختلاف اتجاهاتهم وتوزعاتهم وأشكالهم ، والمبعوثون منه إلى العرب والعجم والروم والحبشة تحمل الدعوة إليهم ، ووفدت إليه وفودهم تضع بين يديه صدقاتها ،وتؤمن به ، وتحطم أوثانها بيدها ، وكان عام الوفود عاما حافلاً باستقبال هؤلاء الوافدين يعلنون إسلامهم ،وإقرارهم بنبوة محمد ﷺ وسيادة الإسلام ، ثم كانت حجة الوداع وقد وقف أكبر حشد عرفته الجزيرة العربية حتى ذلك التاريخ في مكة ، حيث وقف الرسول يخطب خطبته العصماء المعروفة في التاريخ الإسلامى بحجة الوداع .

كل هذه القضايا حولت الأنظار إلى رسول الله محمد ﷺ ، ووجد الطامعون والطامحون ، والراغبون بالزعامة أن هذا الطريق سهل ومضمون النتائج ، والولوج به من أحسن مايمكن من مردود ، خاصة وأن الطاعة للزعماء والشيوخ وللقادة شيء ، والطاعة للرسول شيء آخر . وقد أدهش كل الناظرين منظر المؤمنين حول رسول الله ، ومبلغ طاعتهم وحبهم وانقيادهم له وقد عبر عنها الكثيرون عند ماقالوا بأنهم جاؤوا كسرى وقيصر وجاؤوا ملوك غسان والحيرة لكنهم لم يروا إطلاقا طاعة قوم وحبهم لقائدهم كما وجدوه عند محمد ﷺ والمسلمين وهذه الحكايات الحكايات يتناقلها الرواة والتجار ، والمظعنون مع أغنامهم والحداة مع إبلهم. فوجدت قضية النبوة في نفوس راغبى الزعامة هوى ، ووجد أن ولوجها سهلاً وهم قادرون على أن يأتيهم وحيهم ، وغالبًا ماكانوا يسمونه شيطانهم، وبذلك فقد برزت ظاهرة النبوة بين العرب في هذه الفترة وبشكل ملحوظ وقد ظهر في أواخر حياة الرسول ﷺ اثنان هما الأسود العنسي في اليمن ، ومسيلمة الكذاب في اليمامة ، وأعلنوا دعوتهم في ذلك الوقت ، ولم تكن دعوتهم رفضاً

خالصاً للإسلام ، بل على العكس أخذوا يزيدون وينقصون حسب الحاجة والهوى، ضمن الإطار العام لدعوة محمد ﷺ وهم ـ أي هؤلاء - ما كانوا ليخرجوا بهذه ـ الخزعبلات ـ لولا أن قريشا قوم لايعدلون، وحاول مسيلمة اقتسام الأرض بينه وبين محمد ﷺ إلا أن الرسول رفضه ورفض دعوته ولعنه وتمكن العدد القليل من المسلمين في اليمن أن يجمعوا جموعهم ، ويتحدوا هذا الواقع الذي فرضه الأسود العنسى هناك في ظل عمل صحابي جليل هو معاذ بن جبل الأنصارى ؟ والعمل الدؤوب والمرتب أن يوحدوا قواهم ، ويتمكنوا من هذا النبي الكذاب بقتله في عقر داره ، وقد أقر الله عين رسول الله بموته قبل أن يلقى وجه ربه ﷺ .

وعاد الإسلام إلى اليمن في فترة مبكرة ، لكنه لم يستقر تماما حتى تم القضاء على ظاهرة الردة؛ إذ ارتد قوم من اليمن بعد الأسود العنسي ، حتى تم القضاء عليهم .

وأما مسيلمة فقد جاهده المسلمون جهادا عظيما ، استشهد في حربه أعداد مضاعفة لكل ما استشهد من المسلمين في غزوات الرسول أو سراياه إلى أن قام الخلص من المسلمين وحشى وأيمن بن أم أيمن وغيرهما من القضاء على هذا المتنبئ الكذاب بعد أشهر من خلافة أبي بكر، أما سجاح المتنبئة الوحيدة من النساء، وطليحة الأسدى فقد وجدوا في استغلال الفرص مدخلاً لتثبيت زعاماتهم، وقد تمكنوا من السيطرة على قبائلهم ، فسجاح جاءت بني تغلب والذين كانوا نصارى . وقامت طيئ وجديلة ، وعبس وذبيان ، وأسد وفزارة قد تابعوا طليحة الأسدى وأخاه سلمة ، وعيينة بن حصن ومتنبئهم طليحة .

وعادت طيئ كلها عند وصول جيش المسلمين ، وانضمت إليهم ، وقاتلت فزارة حتى انهزمت مع طليحة الذي فر إلى الشام ،ولما لم يجد أحدا حوله من هذه القبائل ، أسلم مع عيينة بن حصن ، وجاء مكة معتمرا ماراً بجنب المدينة ، وأخبر أبو بكر به فقال ماذا أصنع فيه ..؟ لقد أسلم وآمن بعودته من العمرة . وكان قد قضى أبو بكر ﵁ ،فدخل المدينة مبايعًا عمر، فقال له عمر:أنت قاتل عكاشة وثابتا ؟ والله لا أحبك أبدًا. فقال يا أمير المؤمنين ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بيدي ،

ولم يهني بأيديها . فبايعه عمر ثم قال : ياخدع .. ما بقى من كهانتك ..؟ قال : نفخة أو نفختان بالكير ، ثم رجع إلى دار قومه فأقام بها حتى خرج إلى العراق[١]

وأما سجاح مع أنها قد التقت بمسيلمة الكذاب وتزوجته على صداق إسقاط صلاتي الفجر والعشاء الآخرة عن قومها ، وانتهت هذه الظاهرة بموت بعضهم وإسلام الآخرين ، وسجاح هُزِمت أمام جموع المسلمين ، ثم عادت وأسلمت وحسن إسلامها[٢]

أما القضية الثالثة فهي المرتدون :

والمرتدون هم الذين نبذوا الإسلام وتركوه جملة وتفصيلًا ، وعادوا إلى وثنيتهم وإلى ديانة آبائهم وأجدادهم وتمسكوا بآلهتهم التي كانوا عليها . لم تكن لهم قيادات محددة مع أنهم كانوا أكثر الأعراب ، والبعض منهم ساروا وراء المتنبئين ليساعدوهم على التخلص من الإسلام .

ولقد شن المرتدون الحرب على الإسلام إلا أنهم تساقطوا بسرعة عجيبة عند ما وجدوا العزم والقوة والثبات من المسلمين ، فجيش أسامة بن زيد قد أعاد القبائل المرتدة عن الإسلام في شمال المدينة حيث سار هذا الجيش ، ولما عاد أسامة من بعثه الذي ذهب فيه ، وقد فتح الله عليه فتوحًا كثيرة قام الصديق بمسح الجزيرة العربية وتوجيه القلة من المؤمنين الصادقين من الأنصار والمهاجرين الذين خرجوا دفاعاً عن دينهم وإسلامهم ، وقدموا التضحيات الجسام أضعاف أضعاف ماقدموه بين يدي رسول الله ، وقد تمكن أبو بكر وبسرعة خاطفة جدًا أن يعيد هذه الجماعات المختلفة إلى حظيرة الإسلام .

بقى علينا موقف القوى العظمى التي تحيط بجزيرة العرب ، قد بدأت تحسب

---

(١) فتوح البلدان : البلاذري ص ١٠٦ .

(٢) الطبرى : تاريخ ٣/ ٢٢٤ وما بعدها عن أخبار المتنبئين، وكذلك البداية والنهاية : ابن كثير ٦/ ٣٠٠ فما بعدها ، الكامل فى التاريخ : ابن الأثير ٢/ ٢٨٨ فما بعدها .

حساب هذه القوة المتنامية في الجزيرة وقد اتخذت من ذلك موقفين .

١ـ موقف المراقب للحرب الأهلية بين العرب المؤمنين المسلمين وبين وبين المرتدين ومن نحا نحوهم ، وهذا أمر يفيدها في تثبيت دعائم وجودها في الرافدين والشام ومصر وشمال إفريقيا ، ولذلك فإن الحرب الأهلية أو حروب المرتدين قد خففت عنها عبء تجييش الجيوش وإرسالها لحرب المسلمين .

٢ـ موقف آخر وهو الأشد ، فقد ساعدت كثيرا بعض القبائل المرتدة أو المتنبئين وأوعزت إلى الغساسنة واللخميين، بتقديم يد المساعدة وكل عون ممكن وفعلًا فقد انضوت الكثير من القبائل التي تخضع لسلطان هؤلاء أولئك وراء المرتدين أملاً بأن يكفوها أمر محمد ﷺ وأصحابه ودينه .

هذه نظرة سريعة لما أصاب المسلمين من بلاء فوق بلائهم بفقدهم نبيهم عليه السلام وفوق مصابهم فقد نزلت عليهم آلاف المصائب الأخرى ، لكنهم تحملوا المصيبة الأولى بصبر وعزم وإيمان ، فكان أولى أن يتحملوا ما جاء بعدها من تبعات أو مصائب بإيمان أقوى وعزيمة أشد ، وصبر عظيم .

فحقق الله على أيديهم النصر المبين ، وأورثهم أرضًا لم يطؤوها ، وأذل أعدائهم، ونصرهم على من عاداهم فكانت المعجزة الثانية للنبوة تطهير جزيرة العرب ثانية مما أصابها من داء ، وتحول الجميع بعد ذلك إلى الفتوح الكبرى باللقاء مع القوتين العظميين الروم والفرس .

ونحب أن نضع في هذا المقام رأيا ساقه المؤرخون بين الأحداث فما أثار انتباه الكثيرين ، وهو أن كل الذين خرجوا على الطاعة من مانعي الزكاة أو المتنبئين ، أو المرتدين ماباغتهم المسلمون أو جاؤوهم مفاجأة لقتالهم ، فقد حفظت كتب التاريخ وثائق أبدية عن مراسلة أبي بكر لهم وأخذهم بالشدة حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال : أخبرنا سفيان الثوري عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : قدم وفد بزاخة على أبي بكر فخيرهم بين الحرب

المجلية والسلم المخزية . فقالوا :قد عرفنا الحرب المجلية فما السلم المخزية ..؟

قال أن ننزع منكم الحلقة والكراع ونغنم ما أصبنا منكم، وتردوا إلينا ما أصبتم منا وتدوا قتلانا ويكون قتلاكم في النار[(١)]

لكن بعض القبائل الأخرى لم يأذنهم بقتال حتى يكاتبهم ، وأوصى قادته على ألا يبدؤوا قبل أن يستتيبوا الناس ، ويأخذوا منهم العهد والصدقة ، ويشهدوا عليهم الشهادة ، وألا يبادروهم بحرب ، ولا يتخذوا أي إجراء ضدهم إلا بعد أن يصبروا عليهم ثلاثاً ، فإن عادوا فنعم ذلك ، وإلا فالحرب .

ومن المعلوم أيضًا أن كل الحروب قد بدأها المرتدون من قتل العمال والرسل والإغارة على من بقى على إسلامه ، ونهب المسلمين وقتلهم ، وغير ذلك مما أوحى لهم شيطانهم . وكان أبو بكر ﷺ يؤكد في حروبه الحقيقة الخالدة ، فلم يأذن لقائد من قواده أن يخطو الخطوة التالية إلا بمشورته ، وبعد أن يعرف نتيجة المقصد السابق ، وهذه السياسة سار عليها الخلفاء بعد ذلك .

أخرج الطبراني عن المقداد وأخرج عبد الرزاق عن أنس ﷺ قال بعثني أبو موسى ﷺ بفتح تستر إلى عمر بن الخطاب . فسألني عمر ـ وكان ستة نفر من بكر ابن وائل قد ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بالمشركين ـ فقال: ما فعل النفر من بكر وائل ..؟ قلت: يا أمير المؤمنين قوم قد ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بالمشركين ماسبيلهم إلا القتل ..؟ فقال عمر لأن أكون أخذتهم سلماً أحب إلى مما طلعت عليه الشمس من صفراء وبيضاء.قلت:يأمير المؤمنين،وما كنت صانعًا بهم لو أخذتهم ؟ قال لي : كنت عارضا عليهم الباب الذي خرجوا منه أن يدخلوا فيه ، فإن فعلوا ذلك قبلت منهم وإلّا أستودعهم السجن (كذا في كنز العمال ١/ ٧٩).

قدم على عمر ﷺ رجل من قبل أبي موسى الأشعري فسأله عمر عن الناس

---

(١) فتوح البلدان : البلاذري ص ١٠٤

فأخبره ، ثم قال هل كان فيكم من مغربة خبر فقال نعم رجل كفر بعد إسلامه..قال: فما فعلتم به ؟

قال قربناه فضربنا عنقه قال عمر : فهلا حبستموه ثلاثًا ، وأطعمتوه كل يوم رغيفاً ، واستتبتموه ؟لعله يتوب ويراجع أمر الله ، اللهم إنى لم أحضر ولم آمر، ولم أرض إذ بلغني[1]

(١) حياة الصحابة : الكاندهلوي ١/ ٣٦.

(٢) الموقف السياسي للأنصار بعد وفاة الرسول ﷺ

المصاب جلل ما في ذلك شك ولا ريب ، وكانت مصيبة الأنصار برسول الله كبيرة إلى حد أفقدهم التفكير بموضوع آخر سواه . تلقى الأنصار نبأ الوفاة كما تلقاه «المسلمون بكل الآلام والأحزان ، فقد كانوا هم عنترة رسول الله «جماعته وحراسه »، والمدافعين عنه والذائدين عنه ، والمقيمين حوله ترعاه عيونهم في كل لحظة وكل موقف .

قبض الرسول بين الأنصار في بلدهم على تراب أرضهم ، وهم إذا ضمنوا أن الرسول قد نفذ وعده لهم بالوفاء والصدق وأنه منهم وهم منه ، فمن يضمن بعد ذلك هذا العهد إن لم يكن الأمر بالأنصار أنفسهم ؟ قدم الأنصار في حياة الرسول أكثر التضحيات، كان عددهم الأكثر في جيشه وغزواته ، والعدد الأكثر من الشهداء منهم، وكان الغانمون من غيرهم، وكان حبهم وطاعتهم له والذود عن دينه فوق الوصف، تكالبت عليهم العرب من كل صوب فثبتوا ثباتاً نادراً وفريداً لم يبق بيت من بيوتهم إلا وأكرم الله أحد أفراده بالشهادة ، لقد ودعت أم سعد أن معاذ ابنها إياس في بعاث وتسلى نفسها بأن من شهده قد مات مسلماً ، وابنها الحارث أحد الفدائيين في مقتل كعب بن الأشرف اليهودى ، واستشهد ولدها عمرو بن معاذ في أحد ، واستشهد ولدها سعد في بني قريظة متأثرا بسهمه في الخندق بيوت وأفراد وأسر كل هؤلاء قدموا الشهداء تلو الشهداء ، وهم على استعداد لتقديم المزيد .

نحن الآن في موقف دقيق جدًا للحديث عن الحال الذي آل إليه الأنصار بعد وفاة الرسول ﷺ لا لأن الأنصار لم يحكموا بعده ، أو على الأقل لم يكن منهم ولا خليفة ، ولا لأن المهاجرين استاثروا بأمر الخلافة ، ولالأن بعض الأنصار قام يسعى وراء الخلافة . كل هذه المواقف كانت بغاية الدقة والحساسية ؛ لأننا لم نقف

في سيرة الصحابة تحت ظل رسول الله أن الأنصار استأثروا بأمر على إخوانهم المهاجرين ، بل على العكس فإنهم كانوا يؤثرونهم بكل غال وثمين ،والآن جاء دور المحك الأعظم لهذا الإيثار في قضية لاتتعلق بمأوى أو بزاد أو بكساء أوبمال، ولكنها تتعلق بمصير الأمة كلها في موضوع خلافة الرسول ﷺ .

ولعل ماورد على لسان رسول الله بأكثر من مناسبة بأن الأنصار يقلون ويبقون على عددهم والناس يزيدون ، وبأن الرسول قد أمرهم في حياته على قدم المساواة مع المهاجرين، قادوا السرايا وقاموا بالمهام الصعبة ، وكانوا يدى الرسول وعينيه وكل حواسه ، وقد التبس الأمر على بعض المؤرخين من موقف الأنصار من الخلافة، وقد يلتبس علينا نحن أيضًا لكن الأنصار كانوا غير مافي ذهن المؤرخين وأذهاننا وفاء مثمرا للإسلام، وعطاءً دائـمًا من الفضل والخير ، وإخلاصاً نادراً لدولة الإسلام، تجاوزوا قضية الخلافة بلحظات لم تدم كثيرا ، نعم لقريش الفضل، وهذا ما تقره لهم جميع بطون العرب لموقع بلدهم وموقعهم عند البيت الحرام ومكة بلدهم محج العرب قبل الإسلام وبعده ، والرسول ﷺ منهم . ومع أنهم وقفوا في أول الأمر موقف العداوة من الدين إلا أنهم أصبحوا حماته وجنده وهم جل المهاجرين .

الأوس والخزرج أيضًا كانوا ندًا مساويًا لقريش مع بعض الفوارق . لم تكن في الجاهلية أي عداوة بين البلدين ، بل وجدت أحلاف وصلات قرابة وتزاوج لكن اليثربيين من العرب كانت لهم استقلالية خالصة حتى عن طقوس حج الوثنيين ، فقد كان اليثربيون يحلون ويحلقون عند مناة على البحر وكل الحجاج يحلون ويحلقون في مكة ، لم يكونوا تبعًا لقريش أو لغير قريش في يوم من الأيام .

لم يثبت أن وقعت في الجاهلية أية حروب بين الفريقين (قريش والأوس والخزرج) ولكنها كانت قوية واستمرت ردحا طويلا من الزمن بعد الإسلام وحاربت قريش أهل يثرب وفتح أهل يثرب مكة ـ وكانوا هم أكثر أعداد جيش الفتح ـ ولكن الميزان في هذه الحروب مختلف تمامًا ، فهناك صف الإيمان وصف

الكفر حوى الأول قرشيًا وأوسيًا وخزرجيًا وحوى الآخر نفس الناس وقد يكونون إخوة وأبناء وأبناء عمومة ، ولا نستطيع أن نقول أن قريشًا حاربت الأوس والخزرج ونسكت ..لأن الاعتبارات والمفاهيم مختلفة تماماً في الإسلام وتساوى هؤلاء في صف الإيمان وتآخوا وافترقوا عن أهلهم في مكة وأهلهم في يثرب .

فقد طرح الجانبان ارتباطاتها السابقة ـ ومع هذا بقيت الكثرة من قريش ـ فقاتل الكثرة من الأوس والخزرج حتى فتح مكة فانضووا جميعا تحت لواء الإسلام. إن قريشاً كانت حاضرة في المدينة بشخص الرسول ورهط المهاجرين . وقد فرق الناس بين المؤمنين المهاجرين والصادين عن ذكر الله المشركين في مكة، كما فرق الناس بين الأنصار من الأوس والخزرج ، والمنافقين من الأوس والخزرج .

يقال: إن حسان بن ثابت هجا قريشًا فقال له الرسول ﷺ بأنه منهم فقال سأخرجك يا رسول الله منهم كما تخرج الشعرة من العجين ، ويمكن أن نلخص مواقف الأنصار من خلال ما بين أيدينا من مراجع في المواقف التالية :

١ ـ المطالبون بالخلافة : يعتبر هؤلاء أن خلافة الرسول ﷺ يجب أن تؤول إليهم وهذا أمر طبيعي ولا مجال للمناقشة فيه أو الإغفاء عنه ، فالرسول كما قال فيما معناه: «لولا الهجرة لكان من الأنصار» وقد جاء الرسول إليهم طريداً فآووه ومُكَذَّبا فصدقوه ، وقليل الأتباع فأيدوه ونصروه وقد قدموا من التضحيات مالا يستطيع أن يرقى إلى فعله سواهم فقال الله ـ تعالى ـ عنهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر:٩] وبذلك فإنهم يرون أنهم أحق الناس بالخلافة، فالناس في بلدهم والمهاجرون عندهم وإليهم تتوجه الأنظار لخلافة هذا الدين .

قام هؤلاء بالدعوة لسعد بن عبادة الذي كان المقدم في الخزرج وفي الأنصار كلهم ليكون خليفة رسول الله، وجلس لينال البيعة فلم ينلها كما سيرد تفصيل الحديث . وقد يكون من مؤيديه أنصار الملكية في يثرب ويرون أن خلافة الرسول تعتبر تحقيقًا لحلم سابق غفا مؤقتًا في حياة الرسول ﷺ .

بالطبع لم يكن في أذهان الناس شكل الحكم الذي سيكون بعد الرسول ، وهو قطعاً يختلف عن كل أشكال الحكم المعروفة ـ آنذاك ـ وليس لديهم التصور عن الصلاحيات التي ستكون لرئيس الدولة ، فالرسول كان يوحي له ، ومن خلال التنزيل يحكم بين الناس ويحدد العلاقات الداخلية والخارجية ويحل الحلال ويحرم الحرام وأوامره فيها ثواب وعقاب ، وطاعته من طاعة الله، والتنزيل هو الذي يرسم حدود الدلوة بدقة متناهية وتأكيدًا، فإن الرسول ﷺ لم يوصِ بها لأحد من الناس رغم كل الترهات التي وردت في بعض المراجع المنحرفة منها خاصة، فكيف سيكون حال خليفته وما هي الحدود التي سيحكم من خلالها، فليس من المؤكد أن كل التفاصيل في ذهن سعد بن عبادة عندما طالب بمنصب الخلافة له وللأنصار .

٢ ـ الرأي الثاني : برز الرأي الثاني فجأة في سقيفة بني ساعدة، وكان هذا الرأي حلًا وسطًا بين المهاجرين والأنصار،وهو أن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير . وهذا الرأي للتوفيق بين الطرفين إذا احتدم النقاش ، وقد اعتبر سعد ابن عبادة هذا الرأي أول الوهن ، وعندما سمع بهذا الرأي علم بأنه لن يكون للأنصار يومًا منصب الخلافة في هذه الدولة .

صاحب هذا الرأي الحباب بن المنذر ومع وجود معارضة لهذا الرأي من سعد ابن عبادة واعتباره أول الوهن وكان سعد مريضًا فلم يتمكن من القدرة على الكلام ، والمدافع عن الرأي هو الحباب بن المنذر ولم يجد هذا الرأي قبولا ـ لا لدى الأنصار ولا لدى المهاجرين ـ فبقى رأيًا في ساعة غضب قاله صاحبه وهو يدافع عن حق قومه في تسلم منصب الخلافة .

٣ ـ الرأي الثالث : وهو الذي اتجهت إليه الجماعة أو أكثرها، هوأن يكون منصب الخلافة في المهاجرين والوزارة في الأنصار باعتبار السابقة بالإسلام للمهاجرين ، لكون الرسول منهم وهم أهله وعشيرته وقومه. واعتبر أن منازعة المهاجرين في هذا الأمر يعتبر خروجًا عن الحق والشرع، ولا يجوز أن ينازع قريشًا في هذا الأمر أحد ،

والأنصار أعوان ووزراء وكان صاحب هذا الرأي أبا بكر الصديق وأيده به الأوس كلهم وكثير من الخزرج ومن معه من المهاجرين .

هذه الآراء تداولها القوم في لحظات قد تكون مدتها ساعات قليلة ومن فضل الله وكرمه ـ ومع خطورة القضية وامتدادها وتفرعها ـ فإن الجدل لها لم يدم طويلاً وانتهى في وقته وأصبح الجميع على رأي رجل واحد .

لابد من وجود المعارضة واستمرارها ،ولكن الساعات الحرجة التي كانت بها السيوف رديف المتكلمين قد سقطت من عنفوان المعارضة، فسيف الحباب بن المنذر كسر عندما ما أراد أن تكون لغة السيف هي الفيصل والحكم في موقف عسير مثل هذا،ورحمة الله أن أُطْفِئَتْ هذه النار في مهدها والتي كانت ستقرر مصير الدولة. لكن رحمة الله هي أعم وأشمل .

(٢) سقيفة بني ساعدة

في هذا المكان ـ سقيفة بني ساعدة ـ كان المحك الكبير الذي واجهه المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ وكانت الأحداث التي ارتبطت باسم هذا المكان من الخطورة ، بحيث كادت أن تعصف بكل البنيان الذي بناه الرسول ﷺ وأصحابه لولا تدارك الناس فضل الله وبركة رسوله ﷺ لعباده المؤمنين .

المؤاخاة جمعت الأنصار والمهاجرين في جماعة المسلمين وكونت منهم كتلة واحدة أبعدت من أفكارهم كل تعابير وتوجهات الجاهلية ، ولا في هؤلاء أو هؤلاء من الآخرين حباً سما إلى حب الملائكة ، ولم يعد يخدش هذا التكتل شيء حتى إذا وجدت سقطات في بعض المواقف من تحريض اليهود أو استغلال المنافقين ، كان الرسول ﷺ لها بالمرصاد ليمحو أثرها ويزيل أسبابها وينظف الأذهان من هذه الرواسب ، ويعيد الأخوة بين المؤمنين أشد تمتيناً وأقوى وثاقًا

بوفاة الرسول ﷺ غلبت على الجميع الدهشة والحزن والأسى ، ولم يفكر أحد من الناس في موضوع الخلافة ، أو أي أمر أقل أو أكثر أهمية منه ، والجميع شغلوا بموت الرسول وكان أكثرهم انشغالاً عشيرته والمهاجرون ، وتمكن أبو بكر ﷺ بخطبته التي سبق إيرادها من خلق جو من الإيمان بقضاء الله وقدره وصبَّر الناس على مصابهم وتحولوا إلى حل مشكلاتهم، وما انتاب الجماعة من أحداث .

ولندع للطبرى الحديث عن هذه السقيفة[١]

---

(١) الطبرى : تاريخ ٣/ ٢١٨ فما بعدها السيرة النبوية ابن هشام ٤/ ٢٩٨،و السيرة النبوية: الندوي ٣٤٧؛ البداية والنهاية : ابن كثير ٥/ ٢٤٥، والكامل : ابن الأثير ٢/ ٢٢٠، وتاريخ الإسلام : حسن إبراهيم ١/ ٢٠٤، والسيرة النبوية ابن كثير ٤/ ٤٨٦ ، والسيرة: علي الحلبي ٣/ ٣٤٩، وحدائق الأنوار : الشيباني ٢/ ٧٥٩، وتاريخ الأمم الإسلامية : الخضري / ٨٦ ، و علي بن أبي طالب : محمد رضا ٣٤ ، أبو بكر :محمد رضا ١٩

المرحلة الأولى : عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري قال إن النبي ﷺ لما قبض اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة . فقالوا : نولى هذا الأمر بعد محمد ﷺ سعد بن عبادة ، وأخرجوا سعدًا إليهم وهو مريض ، فلما اجتمعوا قال لابنه ـ أو بعض بني عمه: إنى لا أقدر لشكوأي أن أسمع القوم كلهم كلامى ، ولكن تلق منى قولى فأسمعوه فكان يتكلم ويحفض الرجل قوله ، فيرتفع صوته فيسمع أصحابه .

١ـ مقالة سعد بن عبادة : قال سعد بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب إن محمدًا ﷺ لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يُعِزُّوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدَّ الناس على عدوه منكم، وأثقله على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعًا وكرهًا ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً ، حتى أثخن الله عزوجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت يأسيافكم له العرب . وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ ، وبكم قرير عين استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس .

أبدى سعد بن عبادة رأيه واضحاً في أحقية هذا الأمر للأنصار ، والحديث والاجتماع كان فيما بينهم فقط ليس هناك مهاجر واحد ، فالمهاجرون وغير المهاجرين مشغولون بوفاة الرسول ﷺ ولم يتحدثوا بالأمر أو يحدثوا فيه بعد ، فليس من المعقول أن يخرج هؤلاء لأمر كهذا،وجثمان الرسول مسجى بين أظهرهم، فلم يكن في السقيفة في ذلك الوقت أي منهم.

٢ـ قالت الأنصار فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت في الرأي وأصبت في القول ، ولن نعد مارأيت ونوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضا .

وبدأت الأصوات تهمس في الأنصار ـ الحاضرين على الأقل ـ رغم اتفاقهم على المبدأ أن يكون الأمر فيهم وسعد بن عبادة خليفة .

٣ ـ قال أحدهم أو بعضهم : فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه فعلى أي شيء تنازعوننا هذا الأمر بعده !

وهنا انقسمت آراء الأنصار .

٤ ـ قالت طائفة : فإنا نقول إذا منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدًا وشعر سعد بن عبادة أن القوم ليسوا على رأي واحد، فقال : هذا أول الوهن .

نحن في مداولات الأنصار ، وقد اتفق الناس على إمارة الأنصار والأمير سعد ابن عبادة ، ولكن حتى يكون هناك عدل بين المهاجرين والأنصار فأمير من هؤلاء وأمير من أولئك .

المرحلة الثانية :

علم عمر بن الخطاب بما فعلت الأنصار ، فأراد أبا بكر وطلبه من بيت عائشة وقربه من جثمان رسول الله ، فأبي أن يخرج ، لكن عمر ألح وأرسل له بأن خروجه ضرورة لمنع حرب بين المسلمين فخرج وأخبره عمر بالأمر . فأسرعا معا ، ولقيا أبا عبيدة بن الجراح فأخذاه معهما فكانوا ثلاثة من أكابر صحابة رسول الله ﷺ والمقدمين منهم ولكنهم فقط ثلاثة .. ولا أحد سواهم .

تقول كتب السيرة : إن عشيرة رسول الله ﷺ وأقاربه المقربين وأهل بيته كانوا في بيت فاطمة أو حول جثمان رسول الله ﷺ مشغولين ببلواهم ، والمقدمون فيهم هم على بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وأولاده ، والزبير بن العوام ، وطلحة ابن عبيد الله والمقداد بن عمرو وجمع من بني هاشم .

وفي الطريق إلى سقيفة بني ساعدة التقى الثلاثة أبو بكر وعمر و أبو عبيدة

برجلين من الأنصار هما عويم بن ساعدة[١] ومعن بن عدي[٢] وقالا لهم : ارجعوا فإنه لايكون ما تريدون . فقالوا : لا نفعل فجاؤوهم وكانوا مجتمعين .

يقول عمر أتيناهم وقد كنت زورت كلامًا أردت أن أقوم به فيهم ، فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدى المنطق ، فقال لى أبو بكر : رويداً حتى أتكلم ، ثم انطق بعد بما أحببت ، فنطق فقال عمر : فوالله فما شيء كنت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أو زاد عليه .

١- مقالة أبي بكر فبدأ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن الله بعث محمدًا رسولًا إلى خلقه وشهيدًا على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة وإنما هي من حجر منحوت ، وخشب منجور، ثم قرأ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[يونس:١٨] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزُّمَر:٣] .

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له ، والصبر على شدة أذى قومهم لهم ، وتكفيرهم إياهم . وكل الناس لهم مخالف ، زارٍ عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وشغف الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله

---

(١) عويم بن ساعدة من الأوس . قال رسول الله :بانأس نزل قول الله تعالى ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة] وقال العسقلاني: نعم المرء منهم «عويم بن ساعدة» السيرة النبوية: ابن هشام ٤/ ٣١٠.الاصابة : العسقلاني ٣/ ٤٤ (٦١١٢).

(٢) معن بن معدي من قضاعة موالى الأوس ـ عقبى ـ بدري ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله آخى الرسول بينه وبين زيد بن الخطاب وهو القائل عند ما بكى الناس رسول الله وتمنوا لو ماتوا قبله لكني والله ما أحب أني مت قبله حتى أصدقه ميتًا كما صدقته حيًا . استشهد باليمامة (السيرة النبوية) ابن هشام ٤/ ٣١٠ الطبقات الكبرى : ابن سعد ٣/ ٤٦٥ الإصابة : العسقلاني ورد فى الطبري اسم أخيه عاصم بدلا عنه ٣/ ٢١٩

ورد السيرةالحلبية ٣/ ٣٩٥ (عويمر بن ساعدة ، ومعدة بن عدى وهو خطأ مطبعي. ثم الكامل ابن الأثير ٢/ ٢٢١.

وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

وأنتم يا معشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، ولا تفتاتون بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور.

أظهر الصديق رضوان الله عليه رأي المهاجرين في هذا الأمر وهوأن الإمارة في المهاجرين والوزارة في الأنصار .

وتشير كتب السيرة إلى اعتراف سعد بن عبادة نفسه في هذا الرأي فبعد أن أثنى أبو بكر على الأنصار قال ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال: وأنت قاعد: قريش ؟؟ ولاة هذا الأمر فَبِرُّ الناس تبع لبرهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم فقال سعد : صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء[1]

٢ـ مقولة الحباب بن المنذر[2] بن الجموح من الأنصار : يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم، فإن الناس في فيئكم (وفي ظلكم) ولن يجترئ مجترئ على خلافكم، ولن يصدر الناس إلاّ عن رأيكم، أنتم أهل العز والثروة وأُولُو العدد والمنعة والتجربة ، ذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم فإن أبي هؤلاء إلّا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير .

---

(١) البداية والنهاية ابن كثير ٥/ ٢٤٧ ، السيرة النبوية ابن كثير ٤/ ٤٩١ ، حياة الصحابة الكاندهلوي ١/ ٣٩٤

(٢) الحباب بن المنذر : بدري وهو الذي أشار على الرسول ﷺ بالمكان الذى يعسكر فيه فقال الرسول ﷺ : «الرأي ما أشار به الحباب (يا حباب أشرت بالرأي)» ، وله خبرة كبيرة فى الحرب والقتال ، وحمل لواء الخزرج يوم بدر وكان عمره ثلاثًا وثلاثين سنة ثبت مع الرسول ﷺ يوم أحد وبايعه على الموت ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ، مات بخلافة عمر: (الطبقات ٣/ ٥٦٧) .

تنازل الحباب بن المنذر إلى الرأي الوسط ، وهذا الرأي لم يلق قبولا لا من سعد ابن عبادة ولا من المهاجرين .

٣ - رد عمر بن الخطاب : قال عمر : هيهات .. لا يجتمع اثنان في قرن ! .. والله لا ترضى العرب أن يأمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين ، من ذا ينا زعنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته إلاّ مدلٍ بباطل . أو متجانفٍ لإثم ، ومتورط في هلكة .

٤ - رد الحباب بن المنذر ولما رأى الحباب أن رأيه الوسط لم يلق قبولًا من المهاجرين ، وبأنهم ما زالوا مصرين على أن تكون الإمارة فيهم والوزارة في الأنصار قال يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم في هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد . وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جذيلها المحكك وعذيقها المُرَجَّب ، أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة (فتية) .

قال عمر : إذًا يقتلك الله .

قال الحباب : بل إياك يقتل .

٥ - مقالة أبي عبيدة : قال أبو عبيدة : يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدَّل وغيَّر .

إلى هنا والقضية قائمة بين المهاجرين والأنصار ، الآراء تطرح والناس تسمع ، والكل يدلى بحجته وليس من المهاجرين إلا ثلاثة، والأنصار بأكثر جمعهم هناك ، ولم يتنازل من الطرفين أحد عن رأيه ، إلا أن الأنصار قد قبلوا مبدأ تناوب الإمارة ، والمهاجرون رفضوا هذا المبدأ

٦ـ بدأ التحول في القضية : برأي من الأنصار ومن الخزرج بالذات هذه المرة ـ والكلام لبشير بن سعد ـ قال : يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أُولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضًا ، فإن الله وليُّ المنة علينا بذلك ، ألا إنَّ محمدًا ﷺ من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدًا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

المرحلة الثالثة :

١ـ بعد هذه المداولات مالت الكفة للمهاجرين الثلاثة بين جمع الأنصار الكبير، وتحولت الأنظار إلى واحد من هؤلاء الثلاثة ، ووجدها أبو بكر قد اكتملت فقال : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا ويجدر بنا أن نسوق بعض الرأي المتأخر في هذا الموضوع .

وإنما خص الرسول قريشًا بخلافته اعتبارًا للعصبية التي تكون بها الحماية ، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب ، فتسكن إليه الملة وأهلها ، وينتظم حبل الألفة فيها ، ولا شك أن قريشًا كان لهم العز والشرف على سائر مضر، يعترف لهم بذلك سائر العرب ، فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم ، وعدم انقيادهم ، فتفترق الجماعة ، وتختلف الكلمة ، وهذا ما حذر منه الشرع ، أما إذا جعل فيهم فلا يحصل شيء من ذلك ؛ لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب لما يراد منهم، فلا يخشى من أحد اختلاف عليهم ولا فرقة؛ لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها

قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه بعد كلام لا يخرج عما ذكرناه: فإذا ثبت اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب ، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل، ولا عصر ، ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهو وجود العصبية ،

فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستبقوا من سواهم ... إلخ الحديث[(١)]

وما إن قال أبو بكر مقالته بأنه يختار للمسلمين أحد الرجلين أبا عبيدة أو عمر ابن الخطاب . قال عمر : وأخذ بيدى وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا ولم أكره شيئا مما قال غيرها . كان أن أُقدَّم فتضرب عنقى ، لا يقربنى ذلك إلى إثم أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر[(٢)]

إلا أن الرجلين خرجا منها ، وقالا لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا الذي ينبغى له أن يتقدمك ..؟ أو يتولى هذا الأمر عليك ..؟

فتقدم عمر بن الخطاب وأبو عبيدة لمبايعته ، وإذ أسرع قبلهما بشير بن سعد وبايعه فكان أول من بايع أبو بكر من المسلمين بشير بن سعد الأنصاري ، ثم عمر، ثم أبو عبيدة ، وما إن بايع بشير بن سعد حتى صاح الحباب بن المنذر : يا بشير بن سعد عقتك عقاق ما أحوجك إلى ما صنعت أنفست على ابن عمك الإمارة..؟

فقال بشير : لا والله ، ولكني كرهت أن أنازع قومًا حقًا جعله الله لهم .

٢ـ ولما رأت الأوس أن بشير بن سعد كان أول من بايع أبا بكر وتبنى الرأي الذي يدعو له ، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وكان فيهم أسيد بن حضير[(٣)] قال ـ ولعله يخطب قومه الأوس وكان هو المقدم فيهم وقتها والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا ، فقوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ماكانوا أجمعوا له من أمرهم .

(١) إتمام الوفا : الخضري ص ٩ ، الأحكام السلطانية : الماوردي ص ٦
(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٤/ ٣١٠
(٣) الطبقات الكبرى : ابن سعد ٣/ ٦٠٣

٣ ـ أقبلت قبيلة (أسلم) من الأنصار برمتها ، حتى تضايقت بها السكك فبايعوا أبا بكر . فكان عمر يقول : ما هو إلا أن رأيت أسلم فأيقنت أنه النصر.

٤ ـ ومن الذين بايعوا أبا بكر في هذا الموقف زيد بن ثابت الأنصاري وهو من الخزرج أيضا إذ وقف خطيبًا فقال : أيها الناس إن رسول الله كان من المهاجرين ، ونحن أنصاره ، وإنما يكون الإمام من المهاجرين ونحن أنصاره .

فقال أبو بكر : جزاكم الله خيرًا يا معشر الأنصار وثبت قائلكم ، ولو قلتم غير هذا ما صالحناكم[1]

المرحلة الرابعة والأخيرة: في سقيفة بني ساعدة :

١ـ تدافع الناس للبيعة وكادوا يطؤون سعد بن عبادة متجاوزين إياه ليصافحوا أبا بكر فقال ناس من أصحابه : اتقوا سعدًا لا تطؤوه . فقال عمر : اقتلوه قتله الله ، ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك .. فأخذ سعد بلحية عمر فقال : والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة (أسنان) .

٢ـ فقال أبو بكر : مهلا يا عمر ! الرفق هاهنا أبلغ ، فأعرض عنه عمر

قال سعد أما والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيرًا يحجزك وأصحابك (أي يدخلكم المضايق) أما والله لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعًا غير متبوع ، احملوني من هذا المكان فحملوه فادخلوه داره .

٣ ـ وتتابع القوم على البيعة ـ وبايع سعد ـ وكانت فلتة كفلتات الجاهلية ، قام أبو بكر دونها

عن مبشر عن جابر قال : قال سعد بن عبادة ـ يومئذ ـ لأبي بكر : إنكم يا معشر المهاجرين، حسدتموني على الإمارة ، وإنك وقومى أجبرتمونى على البيعة ، فقالوا إنا لو أجبرناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سعة ، ولكنا أجبرنا على

(١) أنصار رسول الله : الهاشمي ، ص ١٢٢

الجماعة فلا إقالة فيها ، لئن نزعت يدًا من طاعة ، أو فرقت جماعة لنضربن الذي فيه عيناك .

وهكذا انتهت هذه المشكلة العويصة التي قدر الله ـ تعالى ـ أن تحل أيضًا على يدي أبي بكر، مثلها كمثل كل المسائل الكبيرة التي واجهت الجماعة المسلمة بعد وفاة الرسول ﷺ وكانت هذه من أعقدها فلما حلت وآل الأمر لأبي بكر بدأ يتخذ القرارات السريعة التي تحفظ للجماعة هيبتها ، وتعيد المتطاولين إلى رشدهم .

ونحب أن نقف على بعض الملاحظات :

١ـ لقد كان موقف الأنصار ضعيفًا جدًا لثبوت ما أثر عن الرسول ﷺ أن الحق في ذلك للمهاجرين دون الأنصار ، ولعدم اجتماع رأيهم على شيء واحد ، ورغم أن المهاجرين كانوا ثلاثة فقط في محيط الأنصار ، فقد نالوا البيعة من أكثر الجماعة ، ولم يعط سعد بن عبادة البيعة أحد .

٢ـ لقد كان رأى أسيد بن حضير ألا يكون هذا الأمر في الخزرج ، حتى لا يستأثروا بالحكم دون بقية الجماعات المسلمة ، ومنهم الأوس ، فآثر أن تكون في المهاجرين .

٣ـ لقد أبعدت في هذا الموقف الإمارة عن الأنصار نهائيا ، وهذا ما حول التاريخ تقريبا باتجاه المهاجرين الذين أصبحوا هم الأمراء والقادة العظماء ، وبقى ذكر الأنصار للتبرك بهم .

٤ ـ لم يعد للأنصار تجمع واحد ، أو رأى واحد ، أو اتجاه واحد ، وإنما انخرطوا في جماعة المسلمين ، وأصبح بعد هذا الموقف تأثير الأنصار ـ كجماعة ـ مفقود تمامًا إلا في المعارك بأنهم إذا دعوا أجابوا . أو في بعض المواقف المتنافرة في التاريخ حيث أصبح رأيهم كأفراد أكثر منه كجماعات وهذا ينطبق أيضا على المهاجرين .

٥ ـ قضى نهائيا على حلم من يحلم من بني الخزرج أن يكون لهم أى نوع من الحكم بعد أن تجاوزهم الناس في ملكية عبد الله بن أبي، وفي رغبة خلافة سعد بن عبادة .

(٤) موقف الأنصار من خلافة أبي بكر ﷺ

حددت سقيفة بني ساعدة والأحداث التي جرت بها المواقف المتباينة للأنصار، فالذين طالبوا بالحكم والخلافة ـ وهم رهط سعد بن عبادة ـ والمدافع الأول عنه (الحباب بن المنذر) قد اعتزلوا الحياة السياسية ، لكن المتتبع للأحداث يرى أن سعد ابن عبادة فقط هو الذي اعتزل الجماعة إن صح خبر الطبري عنه إذ إن الخليفة لم يسكت عن تأخره عن البيعة ـ وذلك إذا كان خبر مبايعته مكرهًا غير صحيح ـ كما ورد سابقا ـ .

وترك ـ أي سعد ـ أيامًا ثم بعث إليه أن أقبل فبايع فقد بايع الناس،وبايع قومك، فقال:أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي،وأخضب سنان رمحي ، وأضربكم بسيفي ، ما ملكته يدي وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعني من قومي ، فلا أفعل وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي، وأعلم ما حسابي.

فلما أتى أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تدعه حتى يبايع، فقال له بشير بن سعد: إنه قد لج وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته، وطائفة من عشيرته ، فاتركوه فليس تركه بضاركم. إنما هو رجل واحد ، فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد ، واستنصحوه لما بدا لهم منه .

فكان سعد لا يصلي بصلاتهم ، ولا يجمع معهم ، ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم ، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر ﷺ [(١)]

إذا استثنينا هذا التصرف من سعد بن عبادة ، ولعل في نفسه شيئًا من قريش ، إذا استعرضنا ثانية خط إسلامه ، فقد أهانه القرشيون وربطوه إلى عمود بعد أن أدركوه

---

(١) الطبري : تاريخ ٢/ ٢٢٢

في اليوم التالي لبيعة العقبة حتى أجاره بعضهم . ووقف في وجه قريش مع الرسول ﷺ المواقف كلها وأعلن عن رغبته بالانتقام عند فتح مكة ، فأخذ الرسول الراية منه وأعطاها ابنه قيسا . وفي الجاهلية لم يكن كل ما يجرى في مكة مطاعًا عند الخزرج حتى في حجهم ، فكان اليثربيون يتحللون عند مناة بعد حجهم، ولا يتحللون مع الناس في منى . فكانت هنالك أمور لابد وأن تكون قد تركت في نفس الرجل شيئًا ما تجاه قريش، ثم جاء القرشيون ليأخذوا الحكم والإمارة منه ويتركوا للأنصار الوزارة والمشورة، فلابد من ردة فعل من أحدهم وكانت من سعد بن عبادة .

وإني أميل إلى الرأي الآخر الذي يقول : بأن سعد بن عبادة قد بايع في السقيفة مكرهًا ، وهذا أقرب للصواب لنفسية الرجل وغيره من الأنصار وكان حماس الحباب بن المنذر أقوى في هذا الموقف؛ إذ إنه انتضى سيفه وقال أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، أنا أبو شبل في عرينة الأسد ، يعزى إلى الأسد فحامله عمر فضرب يده فندر السيف فأخذه ثم وثب على سعد ، ووثبوا على سعد وتتابع القوم . وبايع سعد[1] كما سبق الحديث .

هذه الحادثة المستثناة تمامًا من الأنصار ، أما البقية فقد بايعوا أبا بكر ، وكان أول المبايعين من المسلمين عامة بشير بن سعد . ولم يكن بشير بأقل من سعد بن عبادة فهو زوج أخت عبد الله بن رواحة، وكان كاتبًا في الجاهلية وأمره رسول الله في سريتين ؛ إحداهما بثلاثين رجلاً، والأخرى بثلاثمائة واستعمل الرسول بشير بن سعد على السلاح في عمرة القضية ، وكان من المقدمين من الأنصار، ولذلك فإن رأيه هو الذي غير اتجاه الأنصار إلى صف أبي بكر . وقال في خطبته في السقيفة: إنه لا ينافس قومًا أعطاهم الله هذا الحق ، فهو على قناعة أيضًا بأن الحق مقدم وليس القرابة . ولا يدخل في جدل لإثباته وهذا ما اعترف به سعد بن عبادة أيضًا .

ومع سعد وقف بعض قومه ـ نساء ورجالا ـ لما بايع الناس أبا بكر قسم بين

---

(١) الطبري : تاريخ ٢/ ٢٢٣

الناس قسمًا ، فبعث إلى عجوز من بني عدي بن النجار ـ قوم سعد ـ قسمها مع زيد ابن ثابت ﷺ ، فقالت ما هذا ؟ قال قسم قسمه أبو بكر للنساء فقالت أتراشوني على ديني ؟ فقالوا : لا

فقالت : أتخافون أن أدع ما أنا عليه ..؟ فقالوا : لا . فقالت : لا والله لا آخذ منها شيئًا أبدًا ، فرجع زيد إلى أبي بكر فأخبره بما قالت ، فقال أبو بكر: ونحن لا نأخذ مما أعطيناها شيئًا أبدًا (كذا في كنز العمال ج٣ ص١٢٠) [1]

إذا كان سعد والحباب وهذه المرأة على رأس المخالفة ويلحق بهم بعض منهم ، فإن أمر الأنصار قد استقام لأبي بكر ﷺ .

وصدق الصديق ﷺ في تعامله معهم ، فكانوا مستشاريه في كل موطن من مواطن الحرب والقتال وفي الأمور الداخلية والخارجية والاجتماعية ، فقد سار من كان في جيش أسامة تحت إمرته رغم صغر سنه وهو من المهاجرين دون تردد أو تأخر . وصدقوا مع الصديق كما صدقوا رسول الله ﷺ .

صحيح أن جمع الأنصار بعد وفاة رسول الله ﷺ لم يعد كما كان فقد انفرط عقدهم كقوة خاصة واحدة بعد السقيفة ، لكنهم ما زالوا تحت لواء هذه الراية وهذا الاسم يعملون ، وبقى من برز منهم في زمن الرسول في ذات مقامه عند أبي بكر إلا من أبى ذلك ، وهم أصحاب سعد بن عبادة ، ولم يتأخر الأنصار كعادتهم عن أي شيء أراده أبو بكر فقد كانوا جنود جيش أسامة ، ولما عاد أسامة بن زيد ووزع أبو بكر الجيوش كان الأنصار طليعة هذه الجيوش وعددها الأكبر وكانوا جند الردة والفتوح ، وكانوا حول أبي بكر دائمًا يمدونه بالمشورة ويقومون بالأعمال العظيمة التي امتلأت بها بطون كتب التاريخ ، وحتى نستطيع أن نعلم مدى قوة الأنصار وفاعليتهم في جيوش حروب الردة نسوق بعضًا من المواقف :

(١) حياة الصحابة : الكاندهلوي ١/ ٣٩٥ - ٣٩٦

١ـ كان عدد الأنصار كبيرًا في جيش خالد بن الوليد في مسيره الذي سيره أبو بكر له سار خالد بن الوليد يريد البطاح دون الحزن وعليها (مالك بن نويرة) وقد تردد عليه أمره ، وقد ترددت الأنصار على خالد وتخلفت عنه . وقالوا : ما هذا بعهد الخليفة إلينا . إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من البُزاخة ، واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا .

فقال خالد إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إلى أن أمضى ، وأنا الأمير ، وإلى تنتهي الأخبار ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها ، كذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه ، لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ، ثم نعمل به ، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا ، وأنا قاصد إليه ومن معى من المهاجرين والتابعين بإحسان ، ولست أكرهكم ومضى خالد .

وندمت الأنصار ، وتذامروا (حض بعضهم بعضًا) وقالوا إن أصاب القوم خيرًا إنه لخير حرمتموه ، وإن أصابهم مصيبة ليجتنبكم الناس ، فأجمعوا اللحاق بخالد ، وجردوا إليه رسولًا فأقام عليهم حتى لحقوا به ، ثم سار حتى قدم البطاح فلم يجد به أحدًا [(١)]

وإن دل هذا الحادث على شيءٍ فإنما يدل على مدى التزام الأنصار بأوامر الخليفة ، وعدم رغبتهم في مخالفتها حتى ولو كان بعيدًا عنهم ، لكن حجة خالد أقنعتهم بأن طاعة أميرهم أيضا أمر مفروض وعدم موافقة الجماعة أمر واجب وباعتبار أنهم كانوا محور عدة المسلمين في حروب الردة .

لما رجع أسامة ومن كان معه من الجيش جدَّ أبو بكر في حرب أهل الردة ، وخرج الناس وهو فيهم حتى نزل بذي القصة . فنزل منزلا من المدينة على بريد من نحو نجد ، فعبأ جنوده هناك ، ثم بعث خالد بن الوليد على الناس ، وجعل على الأنصار ثابت بن قيس ، وأمره إلى خالد ، وأمره أن يصمد لطليحة وعيينة بن

---

(١) الطبري : تاريخ ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧

حصن وهما على بزاخة (ماء من مياه بني أسد) [(١)]

وقد سبق القول بأن عدد الذين استشهدوا من الأنصار وحدهم يوم اليمامة في حرب مسيلمة سبعون شهيدًا ، وهم عدد شهداء بئر معونة وعدد شهداء بدر وأحد وجميعهم من الأنصار .

وتروى كتب السيرة بطولات خارقة للأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ بقيادة ثابت ابن قيس الذي كان على رايتهم ، وكلما خطر أمامنا اسم من أسماء الرجال الأعلام من بقى بعد وفاة الرسول ﷺ تشير المصادر إلى أنه استشهد في اليمامة فكانوا كما قالوا ثبت في اللقاء صبر عند القتال ، وقد صبروا وطلبوا الشهادة في سبيل الله وتحت راية خليفة رسول الله .

عندما التقى المسلمون بقوم مسيلمة (بنو حنيفة) انكشف المسلمون ، وخلص المشركون إلى فسطاط خالد وفيه زوجته أم تميم ، ومجاعة أحد قادتهم مكبلاً أسيرًا عندها ، فأراد بنو حنيفة أن يقتلوها فأجارها مجاعة وقال : فنعمت الحرة ! عليكم بالرجال ، فمزقوا فسطاط خالد .

ثم إن المسلمين تداعوا ، فقال ثابت بن قيس حامل راية الأنصار ، وقائدهم في هذه الحرب بئسما عودتم أنفسكم .. يا معشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء، يعنى أهل اليمامة وأبدأ إليك مما يصنع هؤلاء يعني المسلمين ! يا معشر المسلمين أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان ، والعزة لله ولرسوله وأحزابه أروني كما أريكم ، ثم جازهم حتى جالدهم[(٢)]

وقال زيد بن الخطاب حين انكشف الناس عن رحالهم : لا تحوز بعد الرحال ثم قاتل حتى قتل ، ثم قام البراء بن مالك الأنصاري أخو أنس بن مالك ـ وكان إذا حضر الحرب أخذته (العُرَواء) رعدة تصيب الإنسان وهي في الأصل برد الحمى)

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٥٤

(٢) البداية والنهاية : ابن كثير ٦/ ٣٣٤

حتى يقعد عليه الرجال ، ثم ينتفض تحتهم حتى يبول في سراويله ، فإذا بال ثار كما يثور الأسد، فلما رأى ما صنع الناس أخذه الذي كان يأخذه حتى قعد عليه الرجال، فلما بال وثب فقال : يا معشر المسلمين أنا البراء بن مالك ، هلم إلى، وفاءت فئة من الناس فقاتلوا القوم حتى قتلهم الله ، وخلصوا إلى محكم اليمامة (هو محكم بن الطفيل) ، فقال حين بلغه القتال : يا معشر بني حنيفة الآن والله تستحقب الكرائم غير رضيات وينكحن غير خطيبات ، فما عندكم من حسب فأخرجوه ، فقاتل قتالاً شديدًا ، ورماه عبد الرحمن بن أبى بكر بسهم فوضعه في نحره[1]

وهكذا فإنه لم يتغير من اندفاع الأنصار لنصرة الإسلام تحت قيادة أبى بكر ما كان من اندفاعهم ونصرتهم تحت قيادة الرسول ﷺ ، ولم يغيروا أو يتغيروا ، أو يتقاعسوا أو يتخلفوا عن أمر ربهم وعن قضية فيها نفع للمسلمين وصالحهم .

أفرد الطبري فصلا عن أسماء قضاة وكتاب وعمال أبى بكر على الصدقات فأورد اسم زيد بن ثابت الأنصاري كاتبه ، وعامله على الجند معاذ بن جبل الأنصاري .

وقد أفرد ابن كثير في البداية والنهاية فصلا أيضًا فيمن قضى في السنة الحادية عشرة للهجرة ذكر منهم أولئك الشهداء الأفذاذ الذين استشهدوا يوم اليمامة من الأنصار، ومنهم: ثابت بن أقرم بن عدي بن العجلان حليف الأنصار، وثابت بن قيس بن شماس قائد الأنصار وأبو دجانة وأبو جانة سماك بن خرشة بطل أحد وصاحب العصبة الحمراء ، وعباد بن بشر الذي شارك في قتل كعب بن الأشرف اليهودى، وعبد الله بن عبد الله بن أبى الذي طلب قتل أبيه رأس النفاق عبد الله بن أبي ، ومعن بن عدي وهو الذي لقيه أبو بكر وعمر وهم في طريقهم إلى سقيفة بنى ساعدة .

كما أنه في (٦ / ٣٤٠) أورد أسماء كل الأنصار الذين استشهدوا في هذا اليوم ، ومن المعلوم أن يوم اليمامة كان من أقسى أيام المسلمين في حروب الردة في عهد

---

(١) الطبري : تاريخ ٣ / ٢٨٩ – ٢٩٠

الخليفة أبى بكر الصديق . ويعنى هذا أن إقدام الأنصار في سبيل الله للذود عن دولة الإسلام ومحاربة الشرك كانت في تصاعد وتنام كبيرين ، ولا يهم بعد طالما أن العمل لله وفي سبيله ولنيل الشهادة في هذا السبيل .

القسم الثاني

مواقف الأنصار السياسية من الخلفاء الراشدين

تمهيد :

إن حديثنا يطول إذا نقلنا ما في بطون الكتب والمراجع عن الأنصار بعد خروجهم من المدينة أو من بقى منهم فيها ، وباعتبار أنهم كانوا لحمة هذا الدين وجنده وعساكره فقد خرجوا بأعداد كثيرة جدًا إلى أنحاء الجزيرة أولًا حيث تمكنوا بفضل الله ونصره وإخلاصهم اللامحدود مع إخوانهم المهاجرين من القضاء تماما على ظاهرة الردة التي أكلت جل زمن خلافة أبي بكر ﷺ وردحًا من خلافة عمر ، وقد قضى الكثيرون منهم شهداء في المعارك التي خاضها المسلمون في أنحاء الجزيرة، ومنهم من استقر في إمارة أو قضاء أو جباية أو عمل موكل له من قبل الخلفاء الراشدين ، فقد بقى معاذ بن جبل بعد أن تمكن من جمع المسلمين وقتل الأسود العنسي في اليمن، كل خلافة أبى بكر وعمر قاضيا لهم ، ومن الأنصار من سار غازيًا في سبيل الله واستقر في الأماكن التي وصلت إليها جيوش المسلمين ، وليس معنى الاستقرار أنهم انجذبوا إلى الأرض فشادوا البناء ورفعوا العمد وألقوا عن كاهلهم فرض الجهاد ولكنهم لم يرفعوا عن أجسادهم لأمة الحرب ولم يلقوا إلى الأرض سلاحهم؛ فانتهوا واستشهدوا هناك ومنهم من أقام وتزوج وتكاثر نسله وانتهى أيضًا حيث وصل، وطيلة خلافة الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ والأنصار يخرجون من المدينة إلى جيوش الفتح غازين إلى مراكز قيادية في الدولة مكلفين .

وتحوي هذه الكتب والمراجع أخبارًا رائعة عن جهادهم وعن ثباتهم وعن قوتهم وعن تضحياتهم ، فلا أحد يفكر في إمارة ، أو رياسة أو منصب في دنيا يصيبها فقد كانت هجرتهم لله من بلدهم ـ مهاجر رسول الله ـ إلى العالم الواسع مهاجرين في

سبيل الله ، وقد حوت الكتب أخبارهم المتفرقة ويحتاج الباحث إلى أعمار وسنين حتى يعيد لملمة هذه الأخبار المتناثرة التي توزعت مثل انتشارهم وتباعدهم .

وحتى في خلافة على فمنهم والغالبية الغالبة تقريبًا انحازت لعلي والبعض سار مع معاوية ولعل سبب الالتحاق بعلى قرابة وأحقية، ومن ثم فإن عليًّا جاءهم وهو شاب يافع قفز قليلا عن العقد الأول من عمره فقد قضى جلَّ حياته في المدينة بين الأنصار وكان رفيقهم في صحبة الرسول دائما وأبدًا ومنهم من امتد به العمر فعمل مع الأمويين ، منهم النعمان بن بشير بن سعد الذي كان أبوه أول من بايع بالخلافة لأبى بكر فعمل لمعاوية ويزيد ، ثم انحاز إلى عبد الله بن الزبير فقتله مروان ابن الحكم في أول عمل عمله بعد توليه الخلافة .

وعمل قيس بن سعد بن عبادة واليًا لعلى على مصر وغيرهم مما سيرد في بعض تفصيلات عنهم .

وبقى الخلفاء الراشدون ـ رضوان الله عليهم ـ يعرفون مقام الأنصار ويقدرونهم ويتبعون وصية رسول الله التي أوصاهم بها عن الأنصار وهناك أمورًا لابد من إيجازها في هذا المقام :

١ـ إن قيام الإمارة (الخلافة) في المهاجرين أو في قريش على التأكيد ، قد وجه أنظار المؤرخين إليهم ، فهم أصحاب السلطان والإمرة والقيادة، ويتناقل الناس عادة، وفي الأعراف السياسية خاصة ـ أخبار القادة في الصف الأول، حيث إن الأعمال العظيمة الطيبة وغير الطيبة تعزي إليهم، أما أخبار القياديين الآخرين فهى في سجلات الدولة والأخبار الاجتماعية والداخلية، وكل عمل مهم يعزي عادة إلى الحكام.

٢ـ إن موقع الأنصار في الوزارة والشورى قد قلل الحديث عنهم كثيرا، وضاعت أمور كثيرة متعلقة بهم ؛ من تضحيات وأعمال عظيمة لم يذكر المؤرخون إلا البارز منها، وقد تفرقت لذلك هنا وهناك في بطون الكتب والمراجع .

٣ ـ الأنصار على حالتهم أو يقلون.. ولذلك فإن أخبار الآخرين قد تجاوزتهم بعيدًا، وأضحى الأنصار طبقة من أوائل المسلمين مباركة محبوبة تهفوا إليها القلوب وتتآلفها القيادات، وتسأل عنها في الملمات وللنصرة دون التكلفة، ولذلك فإن مجرد الانتساب والانتماء إلى الأنصار أصبح مفخرة مرفوعة محترمة .

٤ـ ازدياد عدد الداخلين في الإسلام طغى كثيرًا على دور الأنصار البارز المتميز في حياة الرسول والخليفتين ـ عمر وأبي بكر ـ بحيث أصبح الآخرون محور الحركة وتعداد الجيوش وأبطال الفتوح وحكام الأقاليم والأمصار والعساكر .

٥ ـ الكثير من الأنصار قد تجنبوا الفتنة بين علي ومعاوية ، فعادوا إلى المدينة يعيشون ماضيهم مع رسول ﷺ وأمجادهم في ظل قيادته، يحدثون علمًا أو فقهًا أو غير ذلك.

(١) موقف الأنصار من السياسة الداخلية

من الممكن أن تحدد مظاهر السياسة الداخلية للخلفاء الراشدين من خطاب أبى بكر ﷺ بعد أن بويع بالخلافة، فقد حدد ـ رضوان الله عليه ـ هذه السياسة بوضوح فقام فقال: بعد أن حمد الله وأثنى عليه أما بعد: أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أرجع إليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

وهذا إسناد صحيح، وقد اتفق الصحابة ـ ﷺ ـ على بيعة الصديق في ذلك الوقت بما فيهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ـ ﷺ [١]

وكانت وصية أبي بكر لعمر حين استخلافة أوصيك بتقوى الله ، ثم قال : «يا عمر إن الله حقًا بالليل لا يقبله في النهار ، وحقًا في النهار لا يقبله في الليل ، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، ألم تر يا عمر أنها ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق ، وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غدًا إلا حق أن يكون ثقيلًا ، ألم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلَّا الباطل أن يكون خفيفا ، ألم تر يا عمر أنها نزلت آية الرخاء مع آية الشدة ، وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغبًا راهبًا لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه ، ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم ؛ فإذا ذكرتهم

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير ٦/ ٣٠٦

قلت إني لأرجو ألا أكون منهم ؟ وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سيئ فإذا ذكرتهم قلت أين عملي من أعمالهم ؟ فإن حفظن وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت وليست بمعجزة[1] ، وتوفى أبو بكر واستلم الخلافة عمر

فجمع الناس وصعد المنبر وخطب بهم وقال إنما مثل العرب مثل جمل أنف (الأنف الذي يأبى أن يضرب) اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق .

وهذا مجمل سريع للسياسة التي حددها الخليفتان أبو بكر وعمر ، أما عثمان فقد بايع على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر ، وأما علي ـ وهو ما أخر بيعته فقد قال عندما عرضت عليه الخلافة بعد عمر وقبل عثمان أبايع على كتاب الله وسنة رسوله وأجتهد ما استطعت .

ومجمل السياسة المتبعة في زمن الخلفاء هي :

١ ـ التمسك بكتاب الله وسنة رسوله .

٢ ـ إحقاق الحق والعدل بين الناس ، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم .

٣ ـ متابعة الفتوح بالجهاد في سبيل الله والجهاد قائم دائم .

٤ ـ الدعوة للإسلام ، وترغيب الناس فيه ، ونشره بكل الوسائل المتاحة .

٥ ـ التقشف في الحياة وكان الخلفاء ـ رضوان الله عليهم ـ القدوة في هذا الموضوع حتى عندما فتح الله على الناس الدنيا وجاءت إليهم الخيرات .

٦ ـ نشر المحبة بين المؤمنين والأخذ على يد الظالم ، ولقد كان الخلفاء على التوالى قضاة عند بعضهم البعض ، ولم يأت في فترات طويلة إلى القضاة متخاصمان .

---

(١) محمد رضا : أبو بكر الصديق ، ص ١١٧ .

٧ ـ محاربة المرتدين والكافرين والقضاء عليهم ، وعلى الوثنية العربية وإخراج أصحاب الديانات من جزيرة العرب .

٨ ـ تولية أصحاب الكفاءة وأصحاب الرأي كل فيما هو أهل له .

٩ـ بقيت المدينة عاصمة الخلافة الراشدة إلى أن انتقل الخليفة على بن أبي طالب إلى الكوفة ؛ ليكون قريبًا من مناطق توسع المسلمين ، ومن ثم نقل معاوية العاصمة إلى دمشق .

أما بالنسبة للأنصار فإنهم كانوا جند تطبيق السياسات الداخلية التي مارسها الخلفاء الراشدون . منهم ـ أي الأنصار ـ كانوا يجسدون صفات المسلم الصادق في تنفيذ هذه السياسات وبشكل دائم ومستمر ويمكن أن نحدد بعض المواقف المهمة لهم في هذه السياسة :

١ـ زهد الأنصار بالدنيا كثيرًا ، وثبت عنهم ذلك حتى إنهم زهدوا بالحكم والرياسة والولاية .

٢ـ كانوا الأداة الطيبة في يد الخلفاء الراشدين ـ كُتّابًا وقُضاةً وحكامًا وأمراءً ـ وارتضوا سياسة الخلفاء فأسهموا في تنفيذها وتثبيتها .

٣ ـ وكانوا الجنود الأوفياء في معارك الردة ومعارك الفتوح ، ولم يتركوا الجهاد ساعة واحدة حتى إن الكثير منهم قد استشهدوا في مناطق لم يسمعوا بها قبلاً لاهم ولا من هم أعلم منهم ، فقد دفن أبو أيوب الأنصاري على أسوار القسطنطينية والبراء بن مالك في نهاوند وغيرهم في أقاصي الدنيا ودانيها .

٤ ـ لم يذكر عن الأنصار بعد سقيفة بني ساعدة أي اعتراض أو تذمر إلّا ما كان من سعد بن عبادة عندما دعا عمر بن الخطاب للبيعة .

لما ولى عمر الخلافة لقيه ذات يوم في طريق المدينة فقال عمر : إيه يا سعد .. فقال سعد : إيه يا عمر

فقال عمر : أنت صاحب ما أنت صاحبه .

قال سعد نعم أنا ذاك وقد أفضى إليك هذا الأمر ، كان والله صاحبك أحب إلينا منك وقد والله أصبحت كارهًا لجوارك .

قال عمر : إنه من كره جوار جاره تحول عنه .

قال سعد أما إني غير مستنسئ بذلك وأنا متحول إلى جوار هو خير منك ولم يلبث إلّا قليلًا حتى خرج مهاجرًا إلى الشام في أول خلافة عمر بن الخطاب فمات بحوران[1] سنة خمس وعشرين للهجرة وقيل دفن في قرية المليحة في غوطة دمشق ، وقد روى عنه أولاده وأحفاده[2]

ويعتبر ﷺ المعارض الوحيد لسياسة الخليفتين أبي بكر وعمر ، لا من حيث كونها سياسة عامة ، ولكن لكونها تجاوزاه في الخلافة وسبقاه إلى حق يعتبر نفسه هو صاحبه .

٥ ـ ولقد كانت المدينة بلدة الأنصار بمثابة أمن واستقرار كبيرين للخلفاء الراشدين ، وكان الأنصار ومن بقى منهم أو من ارتحل إلى البلاد الأخرى ـ على قدر خلق المسلم الذي تربوا عليه وقد أشار أبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ بأن بلدهم فيهما جل نساء رسول الله وأهله ولم يعاود المهاجرون العودة إلى مكة بعد فتحها واستقروا جميعًا فيها هم أهلوهم واعتبروا أيضًا أنهم أصحابها .

٦ـ لقد كان الأنصار محط استشارة الخلفاء في سياستهم عامة وفي القضايا الداخلية خاصة فيما يتعلق بكل الأمور التي صادفت الخلفاء فحذيفة بن اليمان الذي أسرَّ له رسول الله بأسماء المنافقين كان هو الذي يحدد العلاقة بين الخليفة ومن مات من الناس فإن صلى عليه حذيفة يصلي عليه عمر والمسلمون وإلَّا فلا

وهو الذي أشار على عثمان بجمع القرآن عندما سمع أناسًا في الكوفة يتعصبون

(١) الطبقات : ابن سعد ٣ / ٦١٧ – ٣١٧

(٢) الإصابة : العسقلاني ٢ / ٠٣٠ ، الاستيعاب : ٢ / ٤٠

لقراءة عبد الله بن مسعود ، وآخرين لقراءة أبي موسى الأشعري ، وأخبر عثمان بما رأي وبما سمع وحذره وقال له : أنا النذير العريان فأدركوا الأمة .

رافقه عثمان ﷺ ، واستشار بذلك أصحابه فوافقوه على رأي حذيفة ، عند ذلك قرر جمع القرآن ، وكلف جماعة بجمعه كان منهم خمسون من الأنصار[١]

(١) أنصار رسول الله: الهاشمي ص٢١٢

(٢) موقف الأنصار من السياسة الخارجية

كما حدد أبو بكر ﷺ سياسة الدولة في خطبته بعد توليته الخلافة ، وتذكيره لعمر بموعظته له عندما استخلفه ، فقد حدد أيضا السياسة الخارجية للدولة في وصيته لأسامة بن زيد ، وهذا العمل الذي عمله فور مبايعته ـ كما أنه لم يكن واضحًا في ذلك الوقت ما ستؤول إليه أحوال المسلمين بعد الردة الكبيرة في الجزيرة العربية ، لكن أبا بكر الذي وعى من الرسول كل شيء لم يفته أن يحفظ مبادئ وخطط وقيم الرسول ﷺ ـ والتي لو كان حيًا لنفذها ـ فلم يكن أبو بكر أكثر من منفذ لسياسة الرسول وتحقيقا بالحرف الواحد .

قال أبو بكر يوصي أسامة بن زيد ويوصي جيشه بوصية له ـ وكان قد أصبح أميراً للمؤمنين منذ لحظات ـ قال لا تخونوا ، ولاتغدروا ، ولا تغلوا (أخذ شيء من الغنيمة قبل القسمة)، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا ، ولا شيخًا كبيرًا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلًا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرًا إلَّا لمأكلة، سوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له[(١)] وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب[(٢)] فأخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله أفناهم الله بالطعن والطاعون[(٣)]

فالمسلمون في حروبهم رسل خير وسلام قبل أن يكونوا مقاتلين محاربين ، وفعلا هذا فقد كانوا في تطبيقاتهم العملية أصحاب هذه السياسة ومنفذيها .

---

(١) وهم النصارى المقيمون فى الأديرة والكنائس .

(٢) وهم اليهود .

(٣) الكامل : ابن الأثير ٢ / ٢٢٦

وأثبت الأنصار أنهم جزء من منفذي هذه السياسة والقائمون على مراعاة أصولها وأسسها سواء في حروبهم ، أو في علاقاتهم الخارجية ، أو في أي أمرٍ انتدبهم الخلفاء له .

في حروب الردة ظهر البراء بن مالك أحد الأبطال الأفذاذ من الأنصار وهو الذي طلب من أبي دجانة أن يقذف به المسلمون من فوق سور الحديقة في حرب مسيلمة ووجد به المسلمون وقتها بضعة وثمانين جرحا ، ولذلك فقد أقام خالد بن الوليد شهراً بعدها يداوى جراحه . وطالما أن حرب المسلمين هي دعوة للإسلام قبل الحرب ودعوة للسلام قبل اللقاء ، وتهاون قبل القتال ، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الجيش (أي جيش فيه البراء بن مالك الأنصاري قال لا تستعملوا البراء على جيش فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم ؛ أي أنه يقود الجيش إلى المهالك[١]

ومن المعلوم أن الغساسنة قد انحازوا بعد اليرموك بقيادة جبلة بن الأيهم إلى إخوانهم الأنصار قال : وعقد أبو عبيدة لحبيب بن مسلمة الفهري على خيل الطلب فجعل يقتل من أدرك ، وانحاز جبلة بن الأيهم إلى الأنصار فقال : أنتم إخواننا وبنو أبينا وأظهر الإسلام .

فلما قدم عمر بن الخطاب ﷺ الشام سنة سبع عشرة للهجرة لاحى جبلة رجلا من مزينة فلطم عينه ، فأمره عمر بالاقتصاص منه فقال جبلة أو عينه مثل عيني..؟ والله لا أقيم ببلد عليَّ به سلطان ، فدخل بلاد الروم مرتداً ، وكان جبلة بن الأيهم ملك غسان بعد الحارث بن أبي شمر وروى أيضًا أن جبلة أتى عمر بن الخطاب وهو على نصرانيته فعرض عليه عمر الإسلام وأداء الصدقة فأبي ، وقال أقيم على ديني وأؤدي الصدقة .

فقال عمر إن أقمت على دينك فأد الجزية ، فأنف منها . فقال عمر : ما عندنا

(١) سير أعلام النبلاء : الذهبي ١ / ١٩٦

لك إلّا واحدة من ثلاث ؛ إما الإسلام ، وإما أداء الجزية ؛ وإما الذهاب إلى حيث شئت . فدخل بلاد الروم في ثلاثين ألفًا فلما بلغ ذلك عمر ندم كثيرًا .

وجاء هنا دور الأنصار في إبداء رأيهم في السياسة الخارجية للدولة وفي العلاقات الخارجية ـ خاصة في أمر لهم فيه قربى أو نسب .

فعاتب عبادة بن الصامت الأنصاري عمر بن الخطاب وقال : يا أمير المؤمنين لو قبلت منه الصدقة ، ثم تألفته لأسلم ؛ ونتيجة لهذا فقد استعان عمر بالأنصار ثانية في هذا الموضوع، فقد وجه في سنة إحدى وعشرين عمير بن سعد الأنصاري إلى بلاد الروم في جيش عظيم وولاه الصائفة ـ وهي أول صائفة كانت ـ وأمره أن يتلطف لجبلة بن الأيهم ويستعطفه بالقرابة بينهما ويدعوه إلى الرجوع إلى بلاد الإسلام على أن يؤدي ما كان بذل من صدقة ويقيم على دينه .

فسار عمير حتى دخل بلاد الروم ، وعرض على جبلة ما أمره عمر بعرضه عليه، فأبى إلَّا المقام في بلاد الروم ، وانتهى عمير إلى موضع يعرف بالحمار ، وهو واد فأوقع بأهله وأخرجه، فقيل : أخرب من جوف حمار[(١)]

وفي طاعون عمواس سنة ١٨ هـ وقد أصاب من المسلمين حوالى ٢٥٠٠٠ مسلم منه خلف أبو عبيدة ﷺ عندما ما أصيب معاذ بن جبل الأنصاري فقام معاذ خطيبًا في الناس وقال :« أيها الناس إن هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم ، وإن معاذاً يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظهم » فطعن ابنه عبد الرحمن بن معاذ فمات ، ثم قام فدعا به لنفسه فطعن في راحته ، فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص[(٢)]

وكان معاذ بن جبل كما قال ﷺ أعلم المسلمين بالحلال والحرام .

---

(١) فتوح البلدان : البلاذري ١٤١ – ١٤٢

(٢) عمر : محمد رضا ١٨٣ – ١٨٤ – و ١٧٨

وكان عمر قد استشار معاذ بن جبل ﷺ ـ وهو الأعلم بالحلال والحرام ـ فأشار على عمر بترك بلاد الشام مادة للمسلمين وإن عمر قبل منه ذلك .

وكان معاذ مستشار أمير المؤمنين ومستشار قواده في القضايا المهمة التي اعترضت سبيل المسلمين ، وكان له الرأي الفصل في المواضيع التي تعرض عليه .

في حصار الرها الذي كان قائده عياض بن غنم لما يئس سكانها من الحصار خرج قائدها وعسكره من باب خلفي من المدينة ، ولم يبق فيها إلّا الأنباط وهم كثير وقليل من الروم ، فأرسلوا إلى عياض بن غنم يسألونه الصلح على شيء سموه ، فكتب عياض إلى أبي عبيدة بن الجراح فلما أتاه الكاتب بعث به إلى معاذ بن جبل فأقرأه إياه ، فقال له معاذ : إنك إن أعطيتهم الصلح على شيء مسمى فعجزوا عنه لم يكن لك أن تقتلهم ، ولم تجد بدًا من إبطال ما اشترطت عليهم من التسمية ، وإن أيسروا أدوه على غير الصغار الذي أمر الله به فيهم ، فاقبل منهم الصلح وأعطهم إياه على أن يؤدوا الطاقة ، فإن أيسروا أو أعسروا لم يكن لك عليهم إلا ما يطيقون وتم لك شرطك ولم يبطل . فقبل ذلك أبو عبيدة وكتب به إلى عياض[(١)]

كما أن معاذ بن جبل دخل على أبي موسى الأشعري وعنده يهودي فقال:ما هذا ؟ قال يهودي أسلم ، ثم ارتد وقد استتبناه منذ شهرين فلم يتب فقال معاذ لا أجلس حتى أضرب عنقه قضاء الله وقضاء رسول الله[(٢)]

في الوفود والرسل التي قامت بين عمرو بن العاص والمقوقس ملك مصر ، بعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت الأنصاري[(٣)] وكان طوله عشرة أشبار وأمره أن يكون متكلم القوم ولا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال : الدخول في الإسلام ، أو الجزية ، أو الجهاد فإن أمير المؤمنين قد تقدم

---

(١) الخراج – أبو يوسف ، ص ٤٠

(٢) الخراج أبو يوسف ، ص ١٨٠

(٣) الإصابة : العسقلاني ٢ / ٢٦٨ – (٤٤٩٧) .

إلى في ذلك ، وأمرني ألا أقبل شيئًا سوى خصلة من هذه الثلاث خصال وكان عبادة أسود ، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه فقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده وقال نحوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني ، فقالوا جميعًا هذا الأسود أفضلنا رأيًاوعلمًا ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ، وقد أمرَّه الأمير دوننا ، بل أمرَّه وأمرنا ألا نخالف قوله ورأيه ، قال: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون هو دونكم . قالوا : كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى ، فإنه أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة ورأياً ، وليس ينكر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود كلمني برفق فإني أهاب سوادك ، وإذا اشتد كلامك على ازددت هيبة فتقدم عليه عبادة فقال سمعت مقالتك ، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سوادًا مني ، وأفظع منظرًا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لى وأنا قد وليت وأدبر شبابي وإني بحمد الله مع ذلك ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعا وكذلك أصحابي . وذلك أنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في سبيل الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا طلبًا للاستكثار منها ، إلا أن الله ـ ﷻ ـ قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالًا وما يبالى أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره، وشملة يلتحفها فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذي بيده ، ويبلغه ما كان في الدنيا ؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء وإنما النعيم والرخاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟

لقد هبت منظره وإن كلامه لأهيب عندي من منظره[1] ..إلخ القصة .. وقصص أخرى لا تنتهي عن تمسك الأنصار بالسياسة العامة الخارجية للدولة الإسلامية وتطبيقها وتمثلها والدفاع عنها ، أمام كل الذين تاخمت دولة الإسلام بلادهم وأرضهم وكانوا جنوداً أوفياء في كل خطوة خطوها من المدينة إلى بقعة الأرض الواسعة التي وصلوها ، والأمثلة في ذلك أكثر من أن تحصى أو تجمع .

---

(١) عمر : محمد رضا ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦

(٢) موقف الأنصار من سياسة الفتوح

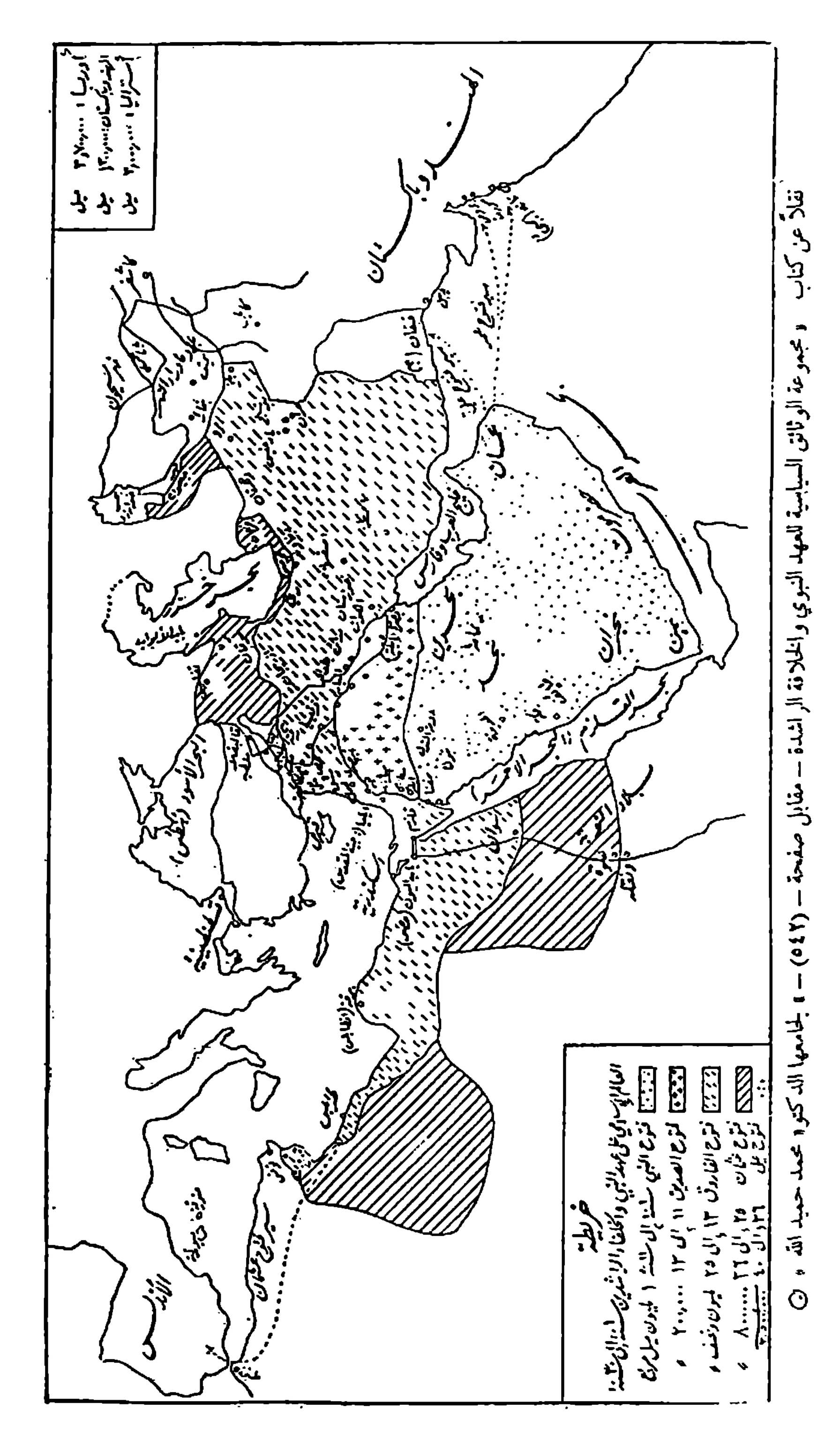
لقد جند الأنصار أنفسهم جنودًا أوفياء لسياسة الفتوح ؛ كانوا جنوداً وكانوا قادة ، وكانوا مستشارين ، وكانوا محتسبين بأنفسهم عند الله ـ ﷻ ـ في الغزو والفتح والجهاد في سبيل الله ، لقد انتهوا من حروب الردة ، وسقط الكثير منهم شهداء ، ودونت كتب التاريخ أسماء المئات من هؤلاء الشهداء . ثم بدأت الفتوح .

لم يعين أبو بكر قائدًا عامًا منهم؛ لأنه يعلم مبلغ زهد الأنصار بالإمارة وبأن جهادهم كان أكبر كثيرًا من الإمارة وأن الإمارة لو جاءتهم لرفضوها خرجوا رجالًا وشبابًا وشيبًا ، ولم يتخلف أحد منهم في معصية أو في عذر أو في إيثار سلامة. وكانت أنفسهم توجه للجهاد وحده تمامًا كما لو كانوا في ظل رسول الله ﷺ وتحت لوائه وقيادته .

ولما توجهت الجيوش وقابل المسلمون هذه المرة الجيوش الجرَّارة من الفرس والروم ؛ فإن الأنصار قد فعلوا الأعاجيب ، فعلوا أفعالاً عظيمة جليلة خالدة ، وجاهدوا جهاداً صادقاً خالصاً لله ، ولم يكن المهاجرون الأولون بأقل من الأنصار تضحية وفداء ، ولم تكن تضحيات أولئك بأقل من تضحيات هؤلاء ، لكن تحول المهاجرون والأنصار إلى بركات الجيوش ، نظراً لازدياد عدد الجيوش وقلة الأنصار والمهاجرين ، فإذا وجد في الجيش كوكبة من الأنصار أو كوكبة من المهاجرين الأولين ، استأسد الجند واستماتوا في سبيل الله ، وتكفي صيحة واحدة تذكر الأنصار بفعالهم ، وتذكر المهاجرين بفعالهم بين يدى رسول الله ﷺ حتى يتحقق النصر ويصبح الجيش شعلة عطاء وقوة وأكبر من عدد جنده بكثير .

لقد أبلى الأنصار في معارك الفتوح بلاء ملأ صفحات الكتب وأصبحت فعالهم أحاديث يتناقلها الأولاد والأحفاد عن الآباء والأجداد ، وفي ضمير المسلمين كلمة

الأنصار وفعالهم تاريخ ثابت قائم عندما انتشر المسلمون في العالم فاتحين ، كان الأنصار ولاة وقوادًا ورسلًا وجنودًا للفتح وقد أوردنا بعضًا من هذه الحوادث وسنورد بعضًا آخر منها لاحقًا .



نقلاً عن كتاب « مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة – مقابل صفحة – (٥٤٢) – « لجامعها الدكتور محمد حميد الله »

لقد أبلى المجاهدون المسلمون بلاء تمكن معه هؤلاء أن يزيلوا القوتين العظميين في وقت قصير جدًا .

يعتبر فتح (رامهرمز) و (تستر) و (أسر الهرمزان) من الأعمال الكثيرة العطاء لجند الإسلام ، وقد تم فتح البلدين في سنة سبع عشرة للهجرة ، وقيل تسع عشرة، وقيل : عشرين .

وسبب فتحها أن يزد جرد ـ لم يزل وهو بمرو ـ يثير أهل فارس أسفًا على ما خرج منهم (أي بسبب الهزائم الشديدة التي ألحقها بهم المسلمون) . أمر عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص ـ قائد جبهة فارس ـ أن ابعث إلى الأهواز جندًا كثيفًا مع النعمان بن مقرن الأنصاري وعجل، فلينزلوا بإزاء الهرمزان ، ويتحققوا أمره . وكتب إلى أبي موسى الأشعرى أ ن يرسل إلى الأهواز جنداً كثيفاً عليهم سهل بن عدى وبعث معه البراء بن مالك الأنصاري ـ وكان عمر لا يؤمر البراء كما سبق أنه يؤدى إلى الهلكة ـ ولكن كان مباركًا في الحروب مستجاب الدعاء .

وتجمعت جموع المسلمين من كل مكان وتوجهت هذه الجموع إلى (تستر) بعد أن هرب الهرمزان والتجأ إلى (تستر) وشدد المسلمون الحصار على المدينة وأكثروا بأعدائهم القتل وقتل البراء بن مالك وهو أخو أنس بن مالك في ذلك الحصار ، إلى أن فتح المدينة مائة مبارزة سوى من قتل في غير ذلك ..وقتل مثله مجزأة بن ثور وكعب بن ثور وعدة من أهل البصرة وأهل الكوفة .

وزاحفهم المشركون أيام تستر ثمانين زحفًا يكون للمسلمين مرة ومرة عليهم فلما كانوا آخر زحف منها واشتد القتال قال المسلمون يا براء أقسم على ربك ليهزمنهم لنا . قال : اللهم اهزمهم لنا واستشهدني ، وكان مجاب الدعوة . فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم ، ثم افتتحوها عليهم ، ثم دخلوا مدينتهم ، فدلهم أحد الجند من الأعداء على ثغرة يمكن الدخول منها .

وفعلًا تمكن عدد من المسلمين من الدخول وكبروا وفتحوا الباب ، فالتجأ

الهرمزان إلى القلعة ، وقاتل الناس كثيرًا حتى إن الهرمزان نفسه قتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك ، ولكن تمت محاصرته وأخذه أسيرًا ، وأرسله أبو سبرة مع الصحابيين الأنصاريين أنس بن مالك والأحنف بن قيس إلى عمر بن الخطاب ليرى فيه رأيه ، فألبساه كل زينته ولباسه ، ولما وصلوا المدينة طلبوا عمر فلم يجدوه فسألوا عنه .. فقيل : جلس في المسجد لوفد من الكوفة فوجدوه في المسجد متوسدًا برنسه ، وكان قد لبسه للوفد فلما قام الوفد عنه توسده (أي خلعه ووضعه تحت رأسه) ونام ، فجلسوا دونه وهو نائم والدرة في يده .

قال الهرمزان أين عمر ؟ قالوا : هو ذا .. قال : أين حراسه .. أين حجابه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب . قال : ينبغي أن يكون نبيًا .. قالوا بل يعمل بعمل الأنبياء .

وتصف كتب التاريخ هذه المقابلة التي نقتطف بعضا منها :

استيقظ عمر على جلبة الناس فنظر فإذا الهرمزان أمامه . قال: الهرمزان ..؟ قال : نعم .فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال : أعوذ بالله من النار وأستعين به ، الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأمثاله ، فأمر بنزع ما عليه من حلي وديباج وألبسه ثوبًا صفيقا فقال له عمر هيه يا هرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر ، وعاقبة أمر الله قال : يا عمر إنّا وإياكم في الجاهلية قد خلى الله بيننا وبينكم فغلبناكم ، إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان الآن معكم غلبتمونا .

قال عمر إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ، ثم سأله .. ما حجتك وما عذرك في انتقاضتك مرة بعد مرة .

قال : أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك .

قال عمر : لا تخف .

واستسقى الهرمزان ماء وتحايل على عمر حتى تمكن أن يأخذ الأمان حتى يشرب الماء ، فأكفأ الماء وقال : لا حاجة لي به ، لكني أردت ان أستأمن وقد أمنتني .

قال عمر : كذبت .. وهنا تدخل الأنصار في موضوعين مهمين :

أولهما : قال أنس بن مالك يا أمير المؤمنين لقد أمنته قال عمر ويحك يا أنس أنا أؤمن قاتل مجزأة بن ثور وأخيك البراء بن مالك ؟ والله لتأتين بمخرج يا أنس أو لأعاقبنك .

قال أنس : قلت له : لا بأس عليك حتى تخبرني ، ولا بأس عليك حتى تشربه . وأيد هذا الرأي كل الموجودين من المجلس ، وهكذا نفذ رأي أنس بن مالك وكان الرأي وجيهًا وصريحًا في قضية علاقة أمير المؤمنين مع مسؤول كبير أسير من دولة معادية .

قال عمر بن الخطاب للهرمزان : خدعتني ، والله لا أنخدع إلا أن تسلم ، فأسلم الهرمزان ففرض له عمر فرائض وأنزله المدينة .

ثانيهما : الرأي الثاني في هذا المجال قاله الأحنف بن قيس الأنصاري ﷺ ، وأحد قادة فتح فارس لعمر بن الخطاب يبين له عدم صواب رأي عمر فيما سيعرض له .

قال الأحنف يا أمير المؤمنين إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد ، وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا ، وإن ملك فارس حي بين أظهرهم ـ أهل فارس ـ ، ولا يزالون يقاتلوننا ما دام . ملكهم فيهم ، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه ، وقد رأيت أنّا لم نأخذ شيئًا بعد شيء إلا بانبعاثهم وعذرهم ، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح فنسيح في بلادهم ، ونزيل ملكهم فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ، ويضربوا جأشا .

فقال عمر صدقتني والله ، ونظر في حوائجهم وسرجهم ، وأتى عمر الكتب باجتماع أهل نهاوند فأذن بالانسياح في بلاد الفرس[1]

وهكذا فقد كسب الأنصار من خبرتهم بالقتال ، وتعاملهم مع شعوب وحكام

---

(١) الكامل : ابن الأثير ٢ / ٣٨٥ – ٣٨٦

البلاد المفتوحة الكثير من الحنكة والدراية والخبرة ، فتعاملوا معها بكل وعي وصدق وأمان . ولما أوقع الله أعداء الإسلام بأيدى المسلمين . وانتهت دولة الفرس التي خاض المسلمون معها حروبًا قاسية انتهت بعد نهاوند ، وانحسرت جيوش البيزنطيين عن الشام ومصر وشمال إفريقيا ، كان الأنصار عنوانًا بارزًا في هذا النصر المؤزر ، وكانوا الأثبت والأقوم في جميع الخطوات التي خطاها المسلمون وكانوا أصحاب الرأي السديد والإقدام المجيد .

ولقد امتلأت بطون الكتب بمثل هذه الأخبار الموثقة مما يصعب إحصاء هذه الأخبار أو الإحاطة بها في هذا المقام .

(٤) موقف الأنصار من سياسة الإصلاح في الدولة

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وبعض المشكلات قد أطلت بقرنيها وبخاصة المتنبئون مثل الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب ، وترددت بعض القبائل عن طاعتها أو حلفها مع المسلمين وآلت قيادة الدولة إلى أبي بكر ﷺ مع ازدياد المشكلات وكثرة الفتن اشرأب النفاق وكثر . وتراجع الناس عن الإسلام إلى حالهم الذي كانوا عليه وكانت مدة حكم الخليفة أبي بكر قصيرة فلم تصل إلى ثلاث سنوات .

ثم انتقل أبو بكر إلى الرفيق الأعلى ليلقى محمدًا وصحبه وكان ﷺ قد قضى في هذه المدة القصيرة على أكثر الفتن في الداخل والخارج وأشدها بروزًا وظهورًا وأعاد الرشد إلى عقول كثيرة ، وفصل عن الأجساد رؤوساً ليس لها دواء إلا هذا ، وانطلق الصحابة رضوان الله عليهم حوله أسودًا في القتال رهبانًا في الليل فرساناً في النهار هدفهم نصر دينهم ، ورفع ظلم الإنسان عن بني الإنسان ، وتهدمت أماكن طواغيت الأرض الذين استعبدوا البشر وابتعدوا بهم عن معرفة الله وطاعته وعبادته ، وبذلك فقد طهر قبل وفاته جزيرة العرب من كل الذين خرجوا على الإسلام فمنهم من آمن وقبلت توبته ، ومنهم من انهزم ومنهم من لج وكفر وقتل ، وكانت تضحية المسلمين أنصارهم ومهاجريهم سابقة في سبيل الله لم يكن لها مثيل.

وجاء الخليفة عمر بن الخطاب ليختصر المقولة على الناس ، فقد كان العرب في بدء ولايته قد استقاموا على الدرب تقريبا ، لكنهم مع هذا فغير موثوق تماما بما يخبئ المستقبل فشبه العرب بالجمل الآنف الذي يقوده صاحبه ، وقرر أن يقودهم إلى حيث رضا الله ـ تعالى ـ فأدخلهم في باب الفتوح بعد أن طرقوا بابه في زمن أبي بكر

ومهما كان عدد الأنصار كبيرًا في السابق، فإنهم قد أصبحوا قلة متميزين بين الجند هم والمهاجرون الأولون يقودون الجيوش ويتساقطون شهداء في المعارك .

ويدكون الحصون والقلاع والأسوار وتدول لهم الدول ، ويتساقط أمامهم الجبابرة قتلى أو أسرى ووصل نداء الله أكبر بعد سنوات قليلة إلى أماكن ما كانوا بالغيها إلا بشق الأنفس وتوسعت المدينة وضاقت بساكنيها ليس بكثرة أهلها والمهاجرين الأولين إليها ، ولكن بالعرب جميعًا الذين وفدوا إليها دعما للمقاتلين ومددًا ، أو عائدين من معارك وانتصارات إلى معارك وانتصارات أخرى .

تفرق الناس وتباعدوا ونظر عمر إلى هذا التوسع وإلى هذه الأعداد المتزايدة ، وهذه النفرة البعيدة التي نقلت الناس بعيداً بعيداً ، وكذلك الزحف القادم إلى العاصمة الإسلامية ليخرج منها إلى مواقع القتال والصدام . وتأتى الوفود والرسل والأمراء والأسرى والملوك والجيوش والجنود وكلهم أصبح محط أنظارهم المدينة . وبذلك وأمام هذه التغيرات الكثيرة الجذرية في حياة الناس بدأ عمر بن الخطاب عملية إصلاح كبيرة جدًا تضبط هذه الحركة المتنامية وتحدد أسسها وقواعدها . وقد أُخضعت هذه الإصلاحات ـ جملة وتفصيلًا ـ إلى الدراسة والتمحيص والتدقيق ، وظهرت كتب كثيرة اختصت كل واحدة منها بباب من أبواب هذه الإصلاحات أو الاجتهادات التي رافقت هذا التغيير وهذا التوسع الناس تفرقوا وأصحاب رسول الله لم يعد يطولهم طائل ، لكنهم مع البعد الشاسع البعيد تحت إمرة الخليفة في كل لحظة .

وبرز الأنصار كقوة هائلة في تدعيم هذا الإصلاح بمقتضى معرفتهم وصلتهم برسول الله . ومن طرائف الحديث في هذا مشروع توسيع حرم مسجد رسول الله ، وهو من أول الإصلاحات الداخلية التي قام بها الخليفة عمر بن الخطاب .

اشترى عمر ما حول المسجد من دور إلا دار العباس بن عبد المطلب ودور أمهات المؤمنين قال عمر للعباس يا أبا الفضل ، إن المسجد قد ضاق بأهله (بالمسلمين) ، وقد ابتعت ما حوله من المنازل نوسع به على المسلمين في مسجدهم إلا دارك وحجر أمهات المؤمنين ، فأما حجر أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها ، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين أوسع بها مسجدهم .

فقال العباس: ما كنت لأفعل . قال عمر: اختر مني إحدى ثلاث : إما أن تبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين ، وإما ان أخطك حيث شئت بالمدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين ، وإما أن تتصدق بها على المسلمين فتوسع في مسجدهم . فقال : لا ولا واحدة منها . فقال عمر : اجعل بيني وبينك من شئت .

فقال : أبي بن كعب الأنصاري[1] فانطلقا إلى أبي فقصا عليه القصة . فقال أبي: إذا شئتما حدثتكما بحديث سمعته من رسول الله ، سمعت رسول الله ﷺ يقول:« إن الله أوحى إلى داود أن ابن لى بيتا أذكر فيه . فخط له هذه الخطة ـ خطة بيت المقدس ـ فإذا تربيعها بزاوية بيت رجل من بني إسرائيل ، فسأله داد أن يبيعه إياها فأبي ، فحدَّث داود نفسه أن يأخذه منه ، فأوحى الله إليه : أن يا داود أمرتك أن تبني لي بيتًا أذكر فيه فأردت أن تدخل في بيتي الغصب ، وليس من شأني الغصب ، وإن عقوبتك ألا تبنيه . قال : يا رب فمن ولدي ..؟ قال : فمن ولدك»

فأخذ عمر بمجامع أبي بن كعب فقال جئتك بشيء فجئتني بما هو أشد منه لتخرجن مما قلت ، فجاء يقوده حتى دخل المسجد ، فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله ﷺ يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره . فقال أبو ذر: سمعته من رسول الله . وقال آخر : سمعته من رسول الله . فأرسل أبيًا فأقبل أبي على عمر فقال : يا عمر، أتتهمني على حديث رسول الله ؟ فقال عمر : يا أبا المنذر ما اتهمتك عليه،ولكن أردت أن يكون الحديث عن رسول الله ﷺ ظاهرًا وقال عمر للعباس : اذهب فلا أعرض لك في دارك . فقال العباس : أما إذ قلت ، فإنني قد تصدقت بها على المسلمين أوسع عليهم في مسجدهم فأما وأنت تخاصمنى فلا .. فخط له عمر داره بالزوراء وبناها من بيت مال المسلمين[2]

وبذلك فقد كان الأنصار الحد الفصل في كثير من الأمور التي اعترضت هذه الإصلاحات .

---

(١) سير أعلام النبلاء : الذهبي ١ / ٣٩٠ . أنصار رسول الله : الهاشمي . وقال الرسول لأبي بن كعب: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن» ، وفى رواية :« أمرنى أن أقرئك القرآن»

(٢) عمر : محمد رضا ، ص ٣٠

وعندما دون عمر الدواوين . وكانت في المحرم سنة عشرين للهجرة ، بدأ ببني هاشم ثم الأقرب فالأقرب برسول الله فكان القوم إذا استووا في القرابة برسول الله ، قدم أهل السابقة حتى انتهى إلى الأنصار فقالوا بمن نبدأ ؟ فقال عمر ابدؤوا برهط سعد بن معاذ الأشهلى ، ثم الأقرب فالأقرب بسعد بن معاذ . وهكذا عرف فضل أهل الفضل من الأنصار فقدمهم .

عن عبد الرحمن بن ثابت الأنصاري ، عن عباد بن بشر ، أن النبي ﷺ قال :« **يا معشر الأنصار،أنتم الشعار والناس الدثار، فلا أوتين من قبلكم** » (صحيح ورواته ثقات)

لقد كان من الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ أمناء ومستشارون مخلصون في كل المواقع والمرافق ، وساهموا مساهمة كبيرة في كل مجال ـ وخاصة موضوع الإصلاح ـ فقد كانوا عتاده وجنده والمجتهدين فيه .

ومن المواقف التي واجهت الخليفة عمر ﷺ قضية قسمة السواد بعد أن فتحه الله ـ تعالى ـ على المسلمين (والسواد في العراق من أخصب المناطق المفتوحة) وكان قائدهم ـ نذاك ـ النعمان بن مقرن الأنصاري الذي قضى شهيدًا في أول لقاء مع الفرس . وقف عدد من القادة العسكريين وعلى رأسهم بلال بن رباح يطالبون عمر بقسمة السواد باعتباره من الأراضى المفتوحة ، ومن جملة الغنائم التي غنمها المسلمون بخيلهم وركابهم . فأبى عمر قسمتها ، وكان يقول :« اللهم اكفني بلالا وأصحابه». وكان بلال يلح في هذا الموضوع ، فاستشار عمر وعثمان وطلحة وعلياً فأشاروا برأي عمر .

أما عبد الرحمن بن عوف والقادة العسكريون فكان رأيهم قسمته إلى أن اهتدى إلى قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الحشر:١٠] ، فقال كيف أقسمه لكم وأدع من يأتي بغير قسم فأجمع على تركه وجمع خراجه وإقراره في أيدي أهله ووضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم[1]

(١) الخراج : أبو يوسف ، ص ٣٥ ، ٣٧

حدثني الأعمش عن إبراهيم بن المهاجر ، عن عمرو بن ميمون قال : بعث عمر ﷺ حذيفة بن اليمان الأنصارى على ما وراء دجلة ، وبعث عثمان بن حنيف على مادونه ، فأتياه فسألهما كيف وضعتما على الأرض ؟ لعلكما كلفتما أهل عملكما ما لا يطيقون ؟ فقال حذيفة: لقد تركت فضلًا ، وقال عثمان لقد تركت الضعف ولو شئت لأخذته فقال عمر عند ذلك أما والله لئن بقيت أرامل أهل العراق لأدعنهم لا يفتقرون إلى أمير بعدي(١)

وقد أيد الأنصار عمر ﷺ بمواقفهم تجاه من تحداهم أو خالف رأيهم ، ثم سار عبادة بن الصامت إلى فلسطين، وكان معاوية خالفه في شيء أنكره عبادة فأغلظ له معاوية في القول : فقال عبادة : لا أساكنك بأرض واحدة أبداً ورحل إلى المدينة .

فقال عمر : ما أقدمك ..؟ فأخبره . فقال : ارجع إلى مكانك قبح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك ..؟ وكتب إلى معاوية : لا إمرة لك عليه(٢)

ونقول : إن دور الأنصار في أمور الدولة وسياستها في الداخل وفي الخارج وفي إصلاح شؤون الرعية كان واضحًا . والأهم في هذا أن الأنصار كانوا محط احترام الجميع ، وإذا وجدوا في مكان فهم البركة . حتى أصبح اسم الأنصار علماً على الخير والتفاؤل ، ويتفق مع اسم الأنصار صفات الطيب الكثيرة . ويكفي أن في المعركة أنصاريا واحدًا حتى يغير مجراها ويتحقق النصر المنزل بمشيئة الله ، وفي المدينة أنصاريًا ، حتى يكون بيته مزارًا لأهل المدينة كلها يتبركون به وبأهله ، رضوان الله عليهم أجمعين .

---

(١) الخراج : أبو يوسف ، ص ٣٥ ، ٣٧

(٢) عثمان : محمد رضا ١١٥ – ١١٦

القسم الثالث

صياغة النظرية السياسية عند الأنصار

تمهيد :

تحت هذ العنوان يطلب أن يكون هناك تفاصيل وافية عن نظام سياسي متميز، أو على الأقل صيغة نظرية سياسية التزم بها قوم من الأقوام ، وعلموا بها وسارت بعدهم سنة في الأرض ، يأخذ بها البعض ويتركها آخرون ، كل حسب ميوله وأهوائه ، وتقديرات وتعقيدات حياته أو بساطتها .

ومن خلال ما قدمنا من أحداث مغرقة في القدم يحوطها ـ على الأقل ـ مائتا عام قبل البعثة المحمدية عن قبيلتي الأوس والخزرج وتاريخهم الفكري والسياسي ، وعن تقلبات نواحي حياتهم .

هل يمكن لنا بعدُ أن نقول إن هؤلاء قد أوجدوا واتبعوا نظرية سياسية معينة..؟ نحن مع الأوس والخزرج إلى ظهور الإسلام على أنهم إخوة جاهلية حكم تفكيرهما ميزان الجاهلية ، وأعراف الجاهلية وأعطوا من حياتهم طواعية لهذه الأعراف والموازين كل ما يملكون ، فانكفؤوا على أنفسهم في محيط، تحكم جوانبه هذه الأعراف والموازين ، إلى درجة أنهم لم يتمكنوا أن يخرجوا منه إلاّ في أواخر أيامهم ، ليدخلوا في متاهة أخرى ، ونوع آخر من الظلمات في تحكيم شخص قد يأخذ بأردافهم وأحوالهم إلى متاهات جديدة .

فقد كانت الملكية حتى عند العرب البسطاء عبارة عن تسليم مطلق ، وانطواء تحت ظل قيادة كل رجل قوي قادر على أن يماحك الحياة ويداورها بما اكتسب من صفات شخصية بارزة ، فيكون له الرأي والمشورة والسلطان ، والقيادة في الحرب والسلم ، والتدخل الدقيق في شؤون الناس حتى بأدق دقائق حياتهم: بزواجهم وطلاقهم وجمعهم وفرقتهم ، ووفودهم وشاعرهم وخطيبهم .

وبقدر ما أوتي من فطنة وقدرة على إعطاء الرأي الواضح في كل أمر يعرض عليه . هذه صفات يجب أن تتوفر في الملك حتى يكون ملكاً ، بل يجب أن تتوفر بأقل من الملك بشيخ القبيلة ورئيسها على صغرها أو كبرها حتى يمكن أن تكون السيادة والحكم له .

والتقت الأوس والخزرج في هذه النقطة لفترة لا تزيد عن سنة أو سنتين ، وتأخرت خرزة تاج عبد الله بن أبي عند اليهودي ، وتأخرت فترة تتويجه ليتحول الأوس والخزرج إلى طريقين متباينين ـ طريق الإسلام ـ الأنصار ، وبعضهم تاه في طريق النفاق عندما اتفق القوم على ملكية ابن أبي كانت في أذهانهم ـ أو على الأقل ـ في أذهان قادتهم كل التصورات لنظام الملكية المقبل في يثرب .

ولم يكن لديهم فكرة عن التوسع أو الانكماش ـ وعلى الأقل ـ كانت فكرة الملكية مقبولة لديهم ومفروضة على مواليهم اليهود ، ثم تبدأ العلاقات الخارجية تتحدد : الانطواء ، التوسع ، الاندماج ، الأحلاف ، الحرب ، السلم ، المعاهدات... إلى آخر ما يربط أو المفروض ان يرتبط بهذا النظام من حدود وأهداف وأبعاد وجد مثلها في ممالك ومدنٍ أخرى ، وكان شعراؤهم قد شاهدوا في بلاط أصحاب الجاه الكثير من مظاهر الأبهة والرخاء ، والجند ، والتحف والفرش والديباج ؛ الذي حوته قصور متعددة المداخل بعضها سرى وبعضها معروف وقلاع وحماية .. إلخ ما هنالك .

عندما بدأت المفاوضات ـ ولنقل عنها هكذا ـ مع الرسول ﷺ كان قد سرى في نفوس القلة من الناس أمر مختلف ، والأمر الجديد به بعض التناقض بارتباطاتهم وبحياتهم .

ثم إن الذين بايعوا رسول الله في العقبة الأولى ـ على قلتهم ـ لم يكن يعنيهم كثيرًا شأن ابن أبي مع أنهم كانوا فوق عامة الناس بمرتبة قليلة ، فإما صاحب مشورة أو نقيبا في قومه . وأصبح في ذهنهم شيء جديد عن هذا الدين وهو أنه ينكر المدنية في التفكير ويرتفع بالفكر التعبدى إلى ملكوت بعيد .. إلى خالق هذا الملكوت. فآمنوا وصدقوا ونصروا ، ثم إن خروجهم من تبعية الاعتقاد الأدنى ـ الوثنية والجهل

والتخلف الفكري ـ إلى صفاء العقيدة والاتصال بملكوت الله ، والانقياد لنبى الله محمد ﷺ ، واستيعاب آيات التنزيل ـ والتي سبق ونزلت في مكة ـ ثم تيقنهم أن ما سينزل من آيات اليوم أو غدًا على امتداد حياة الرسول ، إنما هي الخلاص الأبدى من التبعية الدنيا ، والانقياد إلى الأوامر الإلهية ، وبذلك فقد خرج قسم من الأوس والخزرج إلى رحابة هذا الاعتقاد واعتناق الإسلام ، والانسلاخ عن الجاهلية مهما كانت ومهما كان فيها من أعراف سياسية أو عقدية لا تعدو أن تكون ترهات من ضلالات الجاهلية ، ويثبت التنزيل أن فيه للمستقبل أكثر ما فيه للحاضر

وذكر الماضي إنما هو تذكير بصراع الخير المتمثل بالأنبياء وأتباعهم وسمو مبادئهم ومعتقداتهم وبين الجاهلية التي كان يقوم على حمايتها في الغالب ملوك وأباطرة وطواغيت وقوى كبيرة وعظيمة، وتذكير أيضا بسمو توجيه الله ـ تعالى ـ لخلقه لسلوك درب الخلاص وإعطاء التفسيرات الكاملة المقنعة لكل ما يحيط بالكون من أسرار وطرح الأفكار والمعتقدات التي كانت تسيطر على الفكر الإنساني ويحتكرها كهنة أو كاهنات ، ساحرة أو ساحر وليصبح الخلق توافه ولتصبح أفكارهم ومعتقداتهم آثامًا لا أساس لها من منطق أو علم ؛ وإنما هم لعبة الأقوياء بعقول السادة الضعفاء ، يستخدمها الأولون عادة لإذلال الآخرين .

جاء الإسلام بهذا السمو وهذا الوضوح،وهذا الجلال،وهذا النور، وهذا الأمان فانخرط في ظله هؤلاء الذين توسعنا بالحديث عنهم وسميناهم الأنصار، وميزناهم عن أبناء جلدتهم من المنافقين ، وميزناهم عن جوارهم من اليهود ، ودمجناهم في مجموعة أخرى من الناس وهم المهاجرون ، حيث كونوا جماعة المسلمين ، وهي الصيغة المثلى التي كان يؤكد عليها التنزيل المحكم بخطابه للمؤمنين وللمسلمين .. يا أيها الذين آمنوا ، وأولئك هم المسلمون .

ويضع القرآن لهم صفاتهم ، ويحدد لهم حدودهم ، ويدفعهم للأخذ بها وتطبيقها بين ثواب وعقاب ، فهم حملة الرسالة إلى العالم تحت ظل الرسول وبعد أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى ويكون قد أدى مهمته بإفهامهم وإبلاغهم وقيادتهم في الطريق الذي

اختاره الله لهم . فكانت جماعة المسلمين وقوامها المؤمنون هم المميزون بالاصطفاء من خلق الله . أما الباقون من الناس فقد انخرطوا أيضاً تحت مسميات كثيرة منها : المشركون، والكافرون، والفاسقون، والمنافقون، واليهود، والنصارى، والصابئة، والضالون ، والمغضوب عليهم ، وعبدة الطاغوت ، وجند الشيطان .

وكثرت صفات أهل الضلال وقلت عند المسلمين والمؤمنين ، لكنهم لم يحرموا من صفات أهل الخير ما يغنيهم عن كل صفة فهم الصادقون ، التائبون ، الحامدون، العابدون ، الأوابون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والفاعلون للخير والشهداء ، والصالحون ، وأعطوا مراتب في الدنيا والآخرة يتبارون إيمانًا وإسلامًا للوصول إليها ، دخل الأنصار تحت ظل فكر الإسلام فكانوا أتباعه . وكانت لهم بعض مظاهر التمييز برأي لم يرد فيه نص ، أو باجتهاد ليس فيه تنزيل ، أو بحكمة مستلهمة من خير الإسلام ؛ فإن هذا عبارة عن تمثل للخير ، وتبارٍ في سبيل تمثله في نفوسهم ، وتطويع أخلاقهم البشرية لتكون أخلاق الإسلام .

هذه هي حدود نظرية الأنصار عامة في السياسة وفي الحكم ، وفي الاقتصاد والمعاش ، وفي السلم والحرب ، وفي المنشط وفي المكره ، وفي المرض وفي الصحة ، وفي الفقر وفي الغنى ، والحاكمية أولا وأخيراً في الإسلام لله تعالى ؛ فهو صاحب التشريع الذي نزله على قلب محمد ﷺ ، والذي لم يكن هو أيضًا إلّا مبلغًا متمثلًا لآيات الله ولهدى الله ولأوامر الله وأول من يلتزم بها ويعمل بها .

ولم يصل ولن يصل مخلوق آخر إلى إمكان تمثلها تمثلَ الكمال وإبلاغها إبلاغ الأمانة إلّا هو ﷺ ، ثم إن الأتباع بعد ذلك كل حسب قدراته ، وكل حسب طاقاته وما خلق له .

بعد أن سقنا كل ما سقنا من تاريخ ، ومن أحداث ، ومن أخبار ، ومن تعليقات تتلخص بعد ذلك توجهات الأنصار بأمور جد بسيطة ، وهي أنهم كانوا جند هذا الدين وحملة أفكاره طبقوها ونفذوها بدقة متناهية وإخلاص عجيب وهم دعاتها وحملتها

لم يخطر ببالهم شكل حكم معين عندما أسلموا وبذلك فقد أسلموا فقط .

لم يخطر ببالهم بأن هذا الدين سيكون له دولة وسلطان ، كما لم يخطر ببالهم وظائف ينالونها في هذه الدولة ومناصب يتقلدونها عند قيام دولتها .

ولم يخطر ببالهم أيضًا أية اتجاهات ومبادئ معينة سوى الإسلام عندما استشهدوا في سبيله ، ولم يخطر ببالهم أيضاً النكوص عن هذا المبدأ والتحول إلى غيره إذا لم يمتعهم بدنياهم .

وعندما ما ضاقت بهم السبل ووصلت القلوب إلى الحناجر وظنوا بالله الظنون انحصر تفكيرهم في عظمة هذا الدين، فبلواهم أن أصيبوا بها تعتبر رحمة من الله ورضوانا، عذابهم في الدنيا مهما كان شكله مغفرة من الله تعالى، وتضحياتهم مهما بلغت من الدرهم إلى النفس طلبًا لرضوان الله تعالى، أخُوهم من آمن وعدوُّهم من كفر، ومهما كانت الروابط في السابق واللاحق ولقد سقنا لذلك من الأمثلة الكثير .

جل حبهم مُنْصَبٌّ على رسول الله مما جعلهم يموتون حوله غير منهزمين ولا فارين ، بل على الإيمان ثابتون قائمون ، يقاتلون ويدافعون ويحرسون رسول الله في أشد ساعات العسرة والأيام الحالكة المظلمة .

ولذلك فإن نظريتهم السياسية تتلخص بأن :

مرادهم الإسلام وهدفهم الإسلام ومحياهم الإسلام ومماتهم الإسلام .

خرجت من نفوسهم ملاذ الدنيا وشهواتها ، حتى تلك التي أغرت كل عباد الله ومخلوقاته من البشر فدخلوا لأجلها الحروب وسقط عند قدميها الآلاف والآلاف على مدار التاريخ ، وهو الحكم والسلطان (وهذه الشهوة المتأصلة في النفوس قد سقطت من نفوس الأنصار ، وتركوها راضين لقناعة لديهم بأنهم ليسوا أصحابها ولا ينازعون إخوانهم المستحقين لها هذا الحق) .

لقد أخلصوا للإسلام وليس للخلفاء والوزراء وإخلاصهم للآخرين مستمد من الالتزام بمبدأهم ، كانوا جند الإسلام ويعلمون أنهم وإخوانهم حكاما

ومحكومين جميعًا في صف التنفيذ فمن أحسن منهم معه ؛ ومن أساء منم عليه وسبحان الله العظيم أن هذه الصفة قد أحلت عليهم البركات وعلى أبنائهم وعلى أبناء أبنائهم تحقيقاً لدعاء الرسول ﷺ الذي شملهم وشمل أبناءهم وأحفادهم فكانت بركات هذا الدعاء ملازمة إياهم ملازمة الظل .

وإذا كانت الجماعات من الناس تفرح لوجود خير واحد فيها ، فإن الجماعات والأحياء تطير فرحاً إذا سكن بها أنصارى أو ينتمى بنسبه إلى الأنصار ، فمعنى ذلك أن بركة دعاء رسول الله قائمة واستمر ذلك إلى أجيال وأجيال .

قال الشيخ جمال الدين أبو زكريا ، يحيى بن يوسف بن منصور بن عمر الأنصاري الصرصري ، الماهر الحافظ للأحاديث واللغة ذو المحبة الصادقة لرسول الله ﷺ فلذلك يشبه في عصره بحسان بن ثابت ﷺ ، وفي ديوانه المكتوب عنه في مديح الرسول وقد كان ضرير البصر بصير البصيرة ، وكانت وفاته في بغداد سنة ست وخمسين وستمائة على يد المغول عند سقوط بغداد بعد ستة قرون ونصف يظهر من أحفاد الأنصار من يحمل جرثومة الأجداد قتلة التتار في (كل نبه) ، ثم يذكر المؤلف قصيدة (خائية) بمدح المصطفي الذي اعتنق الأنصار حبه وتوارثوا هذا الحب ـ كابرًا عن كابر ـ فكان عندهم مبدأ وعقيدة[1].هذا تحديد لمبدأ الأنصار الذين خلصوا من الأوس والخزرج فكانوا هداة البشرية في جماعة المسلمين ، وكانوا جند الإسلام في دولة المسلمين : وكانوا أحباب محمد ﷺ في حياة محمد ﷺ ولنا في الأمثلة القادمة ما يوضح بعضا من هذا الاختصار ويخصص لنا بعضاً مما كان في هذا التعميم .

---

(١) البداية والنهاية : ابن كثير ٦ / ٢٩٩

(١) جند الدعوة ـ مواقف وأحداث القيادات العسكرية

اختصر سعد بن معاذ آراء الأنصار في الحرب بكلمات خالدات ، سواء في معركة بدر ، أو في سواها ، وليس من تكرار القول إعادة ذكر مقولته في هذا المقام ، فإنها عنوان رئيسى لفقرتنا هذه .

فقام سعد بن معاذ ﷺ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا ؟ قال :« أجل ..» قال : إنك عسى أن تكون قد خرجت عن أمرٍ قد أوحى إليك في غيره ، فإنا قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به حق فأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة ، فامض يا نبى الله لما أردت فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك،ما بقى منا رجل، وصل من شئت، واقطع من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت ، والذي نفسى بيده ما سلكت هذا الطريق قط ، وما بى بها علم ، وما نكره أن تلقى عدونا ، إنا صبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عينك[١]

وأضاف لهذا الرأي في غزوة الخندق :

تفاوض رسول الله ﷺ مع عيينة بن حصن والحارث بن عوف ، وهما سيدا غطفان على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة مقابل الانسحاب من الحصار . قال سعد بن معاذ ـ وبمسمع من سعد بن عبادة يا رسول الله إن كان هذا الأمر من السماء فامض له ، وإن كان أمراً لم تؤمر فيه ولك فيه هوى فسمعًا وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأي فمالهم عندنا إلا السيف فقال رسول الله :« **إني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم**».فقال:يا رسول الله والله إن كانوا ليأكلون

---

(١) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٧٤ – ٧٥

(العلهز)[1] في الجاهلية من الجهد ما طمعوا بهذا منا قط بأن يأخذوا ثمرة إلا بشراء أو قرى فحين أتانا الله بك وأكرمنا بك ، وهدانا بك ، نعطى الدَّنية ، لا نعطيهم أبدًا إلا السيف . فقال ﷺ :«**شق الكتاب**» ، فشقه سعد ، فقام عيينة والحارث فقال ﷺ : « **بيننا السيف** » رافعًا صوته[2]

وتزداد الأحداث في زمن الرسول ﷺ ، ويكثر المخلصون يومًا بعد يوم ؛ فإن سقط شهيد انضم للدعوة عشرات ، وكان الأنصار من بين هؤلاء وفي كل موقف خلصًا بأدائهم إلى أبعد الحدود بين يدى رسول الله ؛ حراسة، حملة لوائه ، المدافعين عنه ، نساء ورجالا وأطفالا ، ولو سقت جل تفاصيل غزوة أحد وحدها لما أعطيت هؤلاء حقهم بالشرح والتطويل .

سبعون شهيدًا منهم كلهم قضوا حول رسول الله يدافعون عنه . يتلقون السهام والطعنات وضربات السيوف وهم صامدون .

أبو دجانة يُعطي سيف رسول الله حقه فيميل هنا ويميل هناك ويجندل الناس ، ويقضي على الأبطال وغيره كثيرون ، ويمكن لنا أن نخص بعضًا من هؤلاء القادة في زمن الرسول ، ومن امتد به الأجل فكان قد وفي في حياة الرسول وخلفائه ، متجاوزين ذكر الشهداء الكثر رحمهم تعالى ، وعن الجرحى الأكثر ، ومن الذين سقطوا ولم يرد لهم اسم .

فقد وردت أسماء الكثيرين زمن الرسول وتم حصر أصحابها ، لكن لم يعد ممكنا في حروب الردة والفتوح لكثرة الشهداء وكثرة الجنود وكثرة الجيوش :

١ ـ سعد بن معاذ يعتبر سعد بن معاذ بعرف الجميع على رأس القادة الأنصار سياسة وقيادة وشجاعة وإقدامًا وتضحية، ومواقفه منارات خالدات في تاريخ الأنصار وتاريخ الإسلام بصورة عامة ولقد وردت أخبار كثيرة متفرقة في كل

---

(١) طعام فى الجاهلية من وبر يخلط بدماء اللحم والفراء والإبل ويشوي ويؤكل فى سنين القحط .

(٢) إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٢٣٦

مكان عن هذا الصحابي وأعماله الجليلة، فهو حامل راية الأنصار طيلة حياته ـ رضوان الله عليه ـ وهو الذي كان يعبر عن روح الإسلام ليس رأيًا بنصوص معاهدة أو موقف ، بل بنبرات الإيمان التي كان يطلقها ، واليقين العجيب بالله تعالى، وهو المستشار الأمين لرسول الله ﷺ في كل لحظة ، وهو المخلص الصادق الإيمان والذي كان فضله على قبيلته لا يوصف . أسلم فأسلموا جميعا ، وما أسلموا إلا بعد أن وقف وقفة شجاعة منهم بقطعه كل حبال الجاهلية ورفضه الكلام مع أي منهم حتى يسلموا.

قبيلته لم يخرج منها منافق، أو يظهر فيها ضعيف قتل أخوه إياس يوم بعاث واستشهد أخوه عمرو يوم أحد ، واستشهد هو في بني قريظة ، وهو الوحيد بين المسلمين دعى ليحكم في أمر والرسول قائم وهو فيه طرف قابلاً لحكمه الذي طابق حكم الله من فوق سبع سموات ، وهو الذي اهتز العرش لموته ، وحملته الملائكة ، وحضر وفاته سبعون ألف ملك لم يطؤوا الأرض قبلها ، وهو الذي قبض عليه القبر وانفرج عنه ومناديله في الجنة أحلى من لباس الملوك ومطرزاتهم . وكل نائحة على غال لديها تكذب إلا أم سعد بن معاذ .

ولقد حدد أعداءه بموقعين كبيرين ، قريش وبني قريظة ، ودعا الله ألا يموت حتى تقر نفسه بهم واستجاب الله دعاءه فحكم فيهم ، وكانت آخر هجمة لقريش على المدينة حملة الأحزاب ، وتحول المسلمون مهاجمين ، ويعتبر بحق بمقام أبي بكر في المهاجرين ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ وهو سيد الأوس وسيد الأنصار ، لم يذكر التاريخ موقفًا إلّا وسعد بن معاذ مقدما فيه سيدًا قويًا شجاعًا لا يدانيه إلا القليل .

٢ ـ سعد بن عبادة : سيد الخزرج، وقائدها وحامل راية رسول الله وأحد النقباء ، حضر المواقع كلها مع الرسول ﷺ عدا بدر وضُرب له سهم فيها كان المستشار الأمين للرسول ﷺ ، وهو ثاني السعدين إن أسلما فلن يكون لمحمد مخالف لم يتخلف عن موقف شجاعة وقيادة ورأي وكان في مواقفه نعم الرجل القائد ، ونعم المستشار، حمل راية الفتح عن الأنصار ، وأخذت منه وأعطيت لابنه قيس لخوف

الرسول أن يتحول الفتح إلى ثأر وهو رأس الأنصار في كل موقف، وقد بقى يقدم للرسول طعامه منذ أن دخل المدينة كان يستضيفه وبساط طعامه لم يرتفع يومًا ولقد أثبت أنه الصحابي الجليل في السلم وفي الحرب طالب بالخلافة واعتزل الجماعة ومات بالشام .

٣ - أسيد بن حضير : في مقام سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، وبعد موت سعد ابن معاذ آلت زعامة الأوس إليه ، كبير الشأن ، أحد النقباء ، صادق الإيمان ، المتبوع في الإسلام ، وهو الذي تنزلت السكينة لقراءته ورآها عيانا[1] ، حامل راية الأنصار بعد سعد بن معاذ ، وكان صورة عنه في خلقه وعلمه وفضله أسلما معا على يد مصعب بن عمير ، أخرج الترمذي عن أبي هريرة قول رسول الله :« **نعم الرجل أبو بكر ، نعم الرجل عمر ، نعم الرجل أسيد بن حضير**»

كان من أحسن الناس صوتا بالقرآن ، وكان أحد ثلاثة يعتد بفضلهم في بني عبد الأشهل هو وسعد بن معاذ وعباد بن بشر ، وكان فيه مزاح وأخلاق ، مات سنة عشرين للهجرة وحمله عمر بين العمودين والسرير حتى وضعه بالبقيع ثم صلى عليه وفيه أرَّخ الواقدى وأبو عبيد شهد المشاهد كلها عدا بدر وقد ندم كثيرًا لذلك . أصيب بأحد بسبع جراحات وهو سيد المواقف كلها .

٤ - عبد الله بن رواحة : فارس وشاعر رسول الله ، منذ آمن لم يعدل إيمانه شيء. عقبي بدري مقاتل قاد عدة سرايا والعديد من الكتائب ، من كتاب الأنصار، استخلفه النبي على المدينة في غزوة بدر الموعد وكان هو وأبو الدرداء أخوين لأم .

قال عنه الرسول ﷺ :« رحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة». قال أبو الدرداء : إن كنا لنكون مع رسول الله ﷺ في السفر في اليوم الحار ما في القوم أحد صائم إلا رسول الله وعبد الله بن رواحة . كان القائد الثالث المعين في غزوة مؤتة ، أخذ الراية بعد جعفر واستشهد فيها كان في الغزوات أول خارج

---

(١) الرياض المستطابة : العامري ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

وآخر قادم . روى أنه خرج بغزوة مؤته بزيد بن أرقم وكان مردفه خلفه وكان يتيمًا في حجره ، فسمعه زيد وهو ينشد أشعارا يتمنى فيها الشهادة ، وعلم أنه مقتول . فبكى زيد فخفقه عبد الله بالدرة وقال له : اسكت يا لكع ، ما عليك أن يرزقنى الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل(١)

٥ـ **أبو دجانة** صاحب العصبة الحمراء المقاتل الجسور العظيم ؛ الذي عمل أعمالا في المعارك مع رسول الله ندر من عمل مثلها . أخذ سيف رسول الله في أحد وأعطاه حقه كان من الأشداء على الكفار، رحيمًا بالمؤمنين ، بايع الرسول على الموت يوم أحد كان يعف لسانه عن أي شيء لا يعنيه حمل صفتين نادرتين ، الأولى: أنه لا يتكلم فيما لا يعنيه ، والثانية: كان قلبه للمسلمين سليما . بقدر ما يحفظ التاريخ عنه يوم أحد يحفظ له يوم اليمامة عندما ألقى هو والبراء بن مالك من فوق السور فكسرت قدمه ، وتقدم وفتح باب الحديقة ودخل المسلمون وقاتل دون ذلك المشركين وحده ، حتى تمكن من الوصول إلى الباب وفتحه ونال الشهادة بعد أن حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

٦ـ **أبو أيوب الأنصاري** : استضاف رسول الله في بيته ، وكان يحب رسول الله حبًا لا يدانيه حب أحد أول المبايعين لرسول الله، مضيافًا كريمًا ، صاحب رأي وخلق، سأل زوجته بحادث الإفك عن عائشة ﵂ فقالت والله إني لا أعلم عنها إلاّ خيرًا فقال : هي أفضل منك .

صادق الإيمان ثابت اليقين ، وهو الذي طرد المنافقين من المسجد لزم الجهاد حتى مات مجاهدًا ودفن عند أسوار القسطنطينية ، وعند مرضه في الحصار قال لأصحابه أيها الناس إذا قبضت فلتركب الخيل ، ثم سيروا حتى تلقوا العدو فيردوكم ، فاحفروا لي فادفنوني ثم سووا قبري ، فلتطأ الخيل والرجال عليه حتى لا يعرف مكان القبر ، فإذا رجعتم فأخبروا الناس أن رسول الله أخبرني : «لا يدخل النار أحد يقول: لا إله إلا الله»

٧ـ محمد بن مسلمة : كان يقوم بين يدى رسول الله ـ كصا حب شرطته ـ أشرف على إجلاء بني قينقاع عن المدينة ، قاد عملية قتل كعب بن الأشرف بعد مشاورة سعد بن معاذ حسبما أمر رسول الله .استلم قيادة الحرس ليلة أحد مع خمسين يطوف حول المعسكر . من القلائل الذين ثبتوا يوم أحد .

وكان بجانب الرسول ﷺ دائما . عطش الرسول عطشًا شديدًا يوم أحد فذهب محمد بن مسلمة إلى النساء فلم يجد ماء ، فأسرع إلى نبع ماءٍ وأحضر منه للرسول فشرب ودعا له . كان رسول رسول الله إلى بني النضير يأمرهم بالخروج من المدينة ، وتولى إخراجهم بعد حصار دام خمس عشرة ليلة   كان أحد قيادة الحراسة يوم الخندق وقال   كان ليلنا بالخندق نهارًا   قام بعملية تكتيف بني قريظة قاد سرية القرطاء ، وغاب فيها تسع عشرة ليلة ، قاد سرية ذى القصة مع عشرة رجال . جرح في هذه الغزوة وحمل إلى المدينة .

كان أحد حراس ثلاثة للمسلمين في الحديبية، قتل أخوه محمود في خيبر ، ألقى عليه رحي فمات فما زال محمد بن مسلمة حتى نال ثأر أخيه من مرحب اليهودي ، كما قتل ابن أبي الحقيق بأخيه أيضًا عندما دفعه له (رسول الله.ولما طاف رسول الله حول الكعبة بناقته يوم الفتح كان محمد بن مسلمة آخذا بزمامها ، وهو ممن تطوع لجيش العسرة ، وقيل : إن الرسول استخلفه على المدينة في غزوة تبوك .كان رجل المهام الجسام العظام ، وصحاب شرطة رسول الله .

كان يقول : يا بني سلوني عن مشاهد النبي ومواطنه ؛ فإني لم أتخلف عنه في غزوة قط إلا واحدة في تبوك خلفني على المدينة ، وسلوني عن سراياه ، فإنه ليس منها سرية تخفي على إما أن أكون فيها ، أو أن أعلمها حين خرجت . مات بالمدينة سنة ٤٦ للهجرة ومن القادة الذين عملوا بين يدى رسول الله ﷺ .

٨ـ ٩ـ قيس بن أبي صعصعة وأبو سلحة (زيد بن سهل بن الأسود) : وكان يرمي بين يدي رسول الله يوم أحد ، وعندما يرفع الرسول رأسه ليرى محط السهم ، كان

أبو طلحة يرفع رأسه أمامه ويقول : نحري دون نحرك يا رسول الله . بقي مجاهدا حتى أيام أبي بكر وعمر.ويقول:يا بني جهزوني عندما قرا قوله تعالى:﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة:٤١] حتى يقال بأنه غزا في البحر ومات هناك وبقى المسلمون سبعة أيام في البحر حتى وجدوا جزيرة فدفنوه فيها .

١٠- أما سعد بن الربيع فقصته في أحد مشهورة عندما قال رسول الله :« من يأتيني بأخبار سعد بن الربيع» فذهب رجل يبحث عنه وأخبره أن رسول الله يقرئه السلام فقال : وعلى رسول الله السلام ، وأخبر قومك يا هذا أن لا عذر لهم عند الله إن قتل رسول الله وهو بينهم ، قال رسول الله :« **وجدت في.سعد بن الربيع يوم أحد اثنى عشر سنانا** ».

١١- بشير بن سعد : حضر المشاهد كلها مع رسول الله وشهد العقبة ، قاد سريتين إلى فدك في ثلاثين رجلا ، وسرية بثلاثمائة رجل إلى يمن وجبار . وشهد عين التمر مع خالد وقتل شهيدًا .

ولا يقف الحديث عند واحد من الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ فجميعهم قاتلوا ومنهم من ينتظر،وأدّوا ما عليهم من واجبات حتى استقام الناس على ملة الإسلام، وانتصر دين الله ونشر ظله على الجزيرة ، ولكن برز بعد ذلك قادة عظام برزوا بعد وفاة الرسول ﷺ في حروب الردة وفي الفتوح ، وكانوا نعم القادة ونعم المجاهدين منهم :

١- حذيفة بن اليمان(١) : من حلفاء بني عبد الأشهل كان أمينًا للرسول ، قتل والده في أحد خطأ، آخى الرسول بينه وبين عمار بن ياسر . دخل معسكر المشركين في الخندق يتحسس أخبارهم عندما اختاره الرسول دون غيره من المسلمين . أمين سر رسول الله ، كما كان موضع سره وأعلم الناس بالأمور المستقبلية .

قال : حدثني رسول الله ما كان ومما سيكون كان أحد قادة الفتوح في العراق .

---

(١) الرياض المستطابة : العامري ، ص ٢٤٩، ٢٥٠

شارك في معارك الإسلام في ظل الخلفاء الراشدين ، كان أحد القادة العظام في نهاوند ، استلم قيادة الجيش بعد النعمان بن مقرن ، قاتل وأكمل مهمة الفتح ، وكان المسلمون يقاتلون في الليل والنهار بعد أن فتح نهاوند تابع فتح أذربيجان ، وخرج من الكوفة غازيًا عدة مرات قضى أواخر أيامه واليًا على اليمامة ، ومات بعد عثمان بفترة بسيطة .

٢ـ معاذ بن جبل كان من أعيان الصحابة وأفرادهم وإليه المنتهي في العلم والفتوى والحفظ والقرآن ، قال ابن مسعود كنا نشبهه بإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمة قانتًا لله حنيفًا[١]

الفقيه القائد المجاهد ، شهد بدرًا وكان عمره عشرين عامًا وشهد العقبة مع السبعين ـ حسب رواية ابن سعد ـ قال عمر عند وفاته : لو أدركت معاذًا لوليته ، ثم لقيت ربى فقال : من استخلفت على أمة محمد ؟ لقلت : سمعت نبيك يقول « **يأتي معاذ بن جبل بين يدي العلماء برتوة**» (أي رمية سهم أو مد البصر) أرسله الرسول ﷺ إلى اليمن وأوصاه :«**لا تصيبن شيئًا بغير علم فإنه غلول**» .

وكان صاحب رأي في الدين كما سيأتي ، ودعا له الرسول ﷺ عند وداعه إلى اليمن :« يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بجسدي وقبري »، فبكى معاذ لفراق رسول الله ، ثم دعا له رسول الله فقال :« **حفظك الله بين يديك ومن خلفك ودرأ عنك شر الإنس والجن**»، ثم توفي الرسول وهو على الجند عاملًا لرسول الله ، وعلى عمله جرت سنة اللحاق بالصلاة لمن تأخر عن الإمام ، فتح اليمن وساعد على تثبيت أمر المسلمين ، وفيها تمكن من القضاء على الأسود العنسى واشتهر بفقهه أكثر من قيادته .

خرج معاذ إلى الشام غازيًا في خلافة أبي بكر ، وكان عمر قد اقترح حبسه في المدينة لفقهه وعلمه . لكن أبا بكر رفض ذلك ، توفي بقصير خالد بالأردن سنة سبع

---

(١) الرياض المستطابة : العامري ، ص ٢٤٩، ٢٥٠

عشرة للهجرة رحمه الله ورضي عنه .

٣ ـ النعمان بن مقرن :أحد أبطال نهاوند ـ كتب له عمر بن الخطاب وأمَّره هناك. وفي أخبار معركة نهاوند يظهر دور النعمان عندما ولاه عمر الجيوش ، وكانت أصلًا تحت إمرته ، وقد أوصاه عمر كما أوصى الذين وجههم إليه بكلام طيب يحدد سياسة المسلمين في الفتوح . وقد طلب عمر بن الخطاب إلى واليه عبد الله بن عبد الله أن يمده بحذيفه بن اليمان ، وقائد الجند النعمان فإن مات ، فالقائد حذيفة ، وإن مات فالنعمان بن مقرن ، وقد استشهد رحمه الله في هذه المعركة .

٤ ـ ثابت بن قيس : محارب شجاع حضر مع الرسول ﷺ المشاهد كلها تنازل للرسول عن جويرية بنت الحارث من مغنمه ، فأطلقها الرسول وتزوجها وكان خطيب رسول الله وأحد المقدمين في الحروب دعاه رسول الله ليرد على خطيب بني تميم (عطارد بن حاجب) ، ولم يكن يعلم قبل الدعوة شيئا خطب خطبته المشهورة التي أسكت بها خطيب بني تميم، قاد ثابت بن قيس الأنصار في أول لواء عقده أبو بكر بعد عودة جيش أسامة في إمرة خالد بن الوليد ، ولقد أبلى بلاء حسنا في حروب الردة ، وثبت ثباتًا راسخًا عندما انهزم الناس في أول المعركة ، ولبس كفنين وحارب بهما وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، وأعتذر من صنع هؤلاء... إلخ، وقاتل حتى قتل في اليمامة وبعده ابنه محمد بن ثابت الذي استشهد يوم الحرة .

٥ ـ البراء بن مالك : مقاتل عظيم يعتبر أكثر الناس شجاعة وإقداما وتضحية أبلى في كل المعارك ، حتى إنه قيل : قتل أكثر من مائة من الكفار . شهد أحدا وبايع تحت الشجرة، حمله المسلمون على رماحهم وألقوه في الحديقة هو وأبا دجانة ، فاقتحم على المشركين وفتح الباب للمسلمين، وهو الذي قال عنه رسول الله :« لو أقسم على الله لأبره» .

في حصار تستر دخل مع المجزأة بن ثور من سرداب إلى المدينة ، وتمكن أن يدفع

الفرس عن الباب ويفتحه للمسلمين ويدخلون المدينة . عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك وهو يتغنى . قال : تتغنى ؟! وفي رواية تتغنى بالشعر وقد أبدلك الله به القرآن ؟ قال البراء : أتخشى عليَّ أن أموت على فراش وقد قتلت تسعة وتسعين نفسًا من المشركين مبارزة سوى ما شاركت فيه المسلمين .

٦ ـ النعمان بن بشير : أول مولود ولد بعد الهجرة وهو ابن القائد المجاهد بشير ابن سعد ، وابن أخت الشاعر القائد المجاهد عبد الله بن رواحة . شارك في معارك الفتوح وشهد صفين مع معاوية ، وولى اليمن لمعاوية ، والكوفة ليزيد ، وحمص لابن الزبير ، قتله مروان بن الحكم في أول يوم ولى الحكم وسيق إليه رأسه في حمص ﷺ ولا رضى عن قاتله .

ـ ثم إن هذا مقال وليس حصرًا .. ـ فالأنصار كل الأنصار ـ قد غلب عليهم أنهم مقاتلون مجاهدون بين يدى رسول الله وخلفائه الراشدين .

٧ ـ عباد بن بشر : شهد المشاهد كلها مع رسول الله ، وبعثه الرسول إلى بني سليم ومزينة ، جعله رسول الله على حرسه بتبوك ، شهد اليمامة . عن أبي سعيد الخدري ، عن أبيه ، عن جده قال سمعت عباد بن بشر يقول : يا أبا سعيد رأيت الليلة كان السماء قد فرجت لي ، ثم أطبقت على ؛ فهي إن شاء الله الشهادة . قال : قلت: خيرًا والله رأيت قال فانظر إلى يوم اليمامة وإنه ليصبح بالأنصار أحطموا جفون السيوف وتميزوا من الناس ، وجعل يقول أخلصونا أخلصونا ، فأخلصوا أربعمائة رجل من الأنصار ما يخالطهم أحد ، يتقدمهم عباد بن بشر وأبو دجانة والبراء بن مالك حتى انتهوا إلى باب الحديقة فقاتلوا أشد قتال ، وقتل عباد بن بشر رحمه الله فرأيت بوجهه ضربًا كثيرا ما عرفته إلا بعلامة كانت بجسده .

٨ ـ أبو عقيل (عبد الرحمن الإراشي) [1] : كان اسمه عبد العزي ، فسماه الرسول عبد الرحمن عدو الأوثان ، شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ، ولما كان يوم

---

(١) الطبقات: ابن سعد ٣/ ٤٧٣

اليمامة ، واصطف الناس للقتال كان أول الناس خرج أبو عقيل الأنيقى رمى بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده ، فشطب في غير مقتل فأخرج السهم ، ووهن له شقه الأيسر لما كان فيه وهذا أول النهار ، وجر إلى الرحل فلما حمى القتال وانهزم المسلمون ، وجاوزوا رحالهم ، وأبو عقيل واهن من جرحه . سمع معن بن عدي يصيح بالأنصار أخلصونا .. أخلصونا ، فأخلصوا رجلًا رجلًا يميزون ، فنهض أبو عقيل يريد قومه . فقال له عبد الله بن عمر بن الخطاب : ما تريد يا أبا عقيل ..؟ ما فيك قتال ..قال : قَدنَوَّه المنادى باسمي .. قال ابن عمر : إنما يقول: يا للأنصار .. لا يعني الجرحى

قال أبو عقيل أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوًا .. فتحزم أبو عقيل ، وأخذ السيف بيده اليمنى مجردًا ثم جعل ينادى يا للأنصار كرة كيوم حنين ، فاجتمعوا ـ رحمهم الله ـ جميعا يقدمون المسلمين دربه دون عددهم حتى أقحموا عدوهم الحديقة ، فاختلطوا ، واختلطت السيوف بيننا وبينهم .

قال ابن عمر فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت على الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحًا ، كلها قد خلصت إلى مقتل . قال ابن عمر ، فوقفت عليه وهو صريع بآخر رمق ، فقلت : أبا عقيل . فقال : لبيك بلسان ملتاث .. لمن الدبرة ؟ قلت : أبشر ورفعت صوتي ، قد قتل عدو الله . فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله فلما علم عمر قال رحمه الله ما زال يسأل الشهادة ويطلبها وإن كان ممن علمت من خيار أصحاب نبينا وقديم إسلام .

٩ ـ عبد الله بن جبير : قائد الرماة يوم أحد ، وهو الذي ثبت عندما ترك الرماة الجبل ، وقاتل عن موقعه حتى استشهد .

(٢) آراء المفكرين الأنصار السياسية

مواقف وأحداث

سبق أن أشرنا إلى آراء الأنصار في سياسة الدولة الإسلامية ، وما كان منهم من مواقف في القضايا المصيرية بين يدى رسول الله ﷺ ، وماذا قدموا لهذه الدولة من خدمات .

إن مقالة الأنصار في بيعة العقبة الثانية هو الدستور الذي وضعوه لأنفسهم ، وقبل أن يعرفوا توجهات وإمكانات وحدود هذه الدولة قد قال عبادة بن الصامت وهو أحد النقباء . . نص البيعة: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا . ومنشطنا ومكرهنا ، وإيثاره علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم[1]

وبدأ الأنصار ببناء الدولة الإسلامية قبل أن يصل الرسول إلى المدينة ، فقد نشروا الدعوة وأقاموا الجماعة ، وصلوا إلى بيت المقدس وبعضهم صلى إلى الكعبة .. وقد روى ذلك عن البراء بن معرور الذي كان أول من بايع يوم العقبة الأخيرة وقال لأصحابه : قد رأيت ألا أدع هذه البنية مني بظهر - يعني الكعبة وأصلي عليها.

وبدؤوا يتميزون عن المجتمع الجاهلي تمامًا بنصرة المهاجرين إلى أن جاء الرسول ﷺ مهاجرا ، فأصبح تميز الجماعة المسلمة واضحًا تمامًا ، والعلاقة بينهم وبين الآخرين وجاء بناء المسجد والمؤاخاة والصحيفة كلها أعمالًا سياسية مهمة ، ظهرت فيها دولة الإسلام التي قامت على أكتافهم بأوضح صورها وأحسنها ، ثم فرض الجهاد الذي اقتصر على المهاجرين في السرايا الأولى ، ثم قدم الأنصار رأيهم بصراحة في هذا الباب في غزوة بدر أنهم جند الدعوة الأوفياء لهذه الدولة يحمونها

(١) التاريخ الإسلامي : أحمد شلبي ١ / ٢٥٣

بأجسادهم وبأيديهم، ويقدمون من أجلها الغالي والرخيص . وظهرت آراء الأنصار السياسية واضحة في غزوة بدر،ولقد قدمنا الأمثلة التي وفقنا الله إليها

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد بلغت سمعة الدولة الخارجية حدًا لم يكن يتوقعه القائمون عليها إلى أن صدقهم الله ما وعدهم لقاء إخلاصهم وتفانيهم فبدأت القوى المحيطة بهذه الدولة تحسب لها ألف حساب وتتحسب لها وبعض القبائل أُكُلها الحسد على الجماعة المسلمة والدولة المسلمة التي أبعدت مملكة ابن أبي ، وهدمت مركز قريش السياسي في الجزيرة العربية ، وحجمت دور اليهود بطرد بني قينقاع ، وشنت القوى الخارجية مجتمعة الغارة الجديدة للقضاء على هذه الدولة والتي كان موقف الأنصار فيها الموقف المرافق للتضحيات الجسام، فقد عرف في ذلك الوقت سبعون شهيدًا عدا الجرحى والمصابين ، لكنهم تمكنوا أن يحطموا أطماع الطامعين في هذه الدولة ، ويلحقوا بهم في اليوم التالي (يوم حمراء الأسد) لمن حضر أحد فقط فضلاً سياسيًا ماهرًا في إثبات الوجود ، وبأن ما حصل في أحد شيء عابر تمامًا

لقى الشهداء ربهم وهذا أعز أمانيهم ، وما طمع به الطامعون لم يتحقق ؛ لأن مقاتلي الأمس الذين ظن بهم الوهن والهزيمة خرجوا اليوم أكثر قوة وشجاعة ، يحملون جراحهم ويتحاملون على آلامهم لم يتخلف عن حمراء الأسد إلا العاجز تمامًا .

وكانت لحمة هذا الجيش من الأنصار فقد كان في جملة أهدافهم ترسيخ فكرة قوة الإسلام وهيمنته السياسية على القوى الخارجية ، وقد توج هذا الأمر بضربة أخرى وهي جلاء يهود بني النضير ، وكانت غزوة الخندق الفيصل بين ماضٍ تحركت به قريش إلى المدينة قبلها وقريش تركن في مكة تحاول أن تصد القادمين إليها من صلح الحديبية وعمرة القضاء ، وجاء بعد ذلك يوم الفتح العظيم لقد أعطى الأنصار في هذا المسار الرأي الصائب في الحرب ، وفي السلم أعطوه عن ثقة وعن خبرة ومقدرة ، وصدقوا الله في الرأي وفي الحرب وفي المشورة ، صدقوا الله تماما فأصدقهم الله بأن ثبت دينهم وأقام دولة الإسلام وأيدهم بنصره العظيم .

في العلاقات الخارجية حدد رسول الله هذه السياسة بعد عمرة القضاء التي صُدَّ عنها يوم الحديبية .

قال رسول الله :« **أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة وكافة ، فلا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم**». قال أصحابه وكيف اختلفت الحواريون يا رسول الله ؟

قال :« **دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه ، فأما من بعثه مبعثًا قريبًا فرضي وسلم ، وأما من بعثه مبعثًا بعيدًا فكره وجهه وتثاقل ، فشكا ذلك عيسى إلى الله ، فأصبح المتثاقلون ، وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث بها**» .

هذه الخطبة قد حددت الهدف والغاية في القريب والبعيد وفي القاصي والداني ، وربط الجميع برباط الالتزام بأصل الدعوة . ولقد استجاب الجميع بفضل الله لهذه الدعوة ، فعندما سمع حذيفة بن اليمان اختلاف الناس في البصرة بالتفضيل بين قراءة فلان وقراءة آخر ، أسرع إلى الخليفة عثمان يعلمه الأمر وقال له أنا النذير العريان فأدركوا الأمة وافقه عثمان ﷺ واستشار الصحابة فوافقوه على رأي حذيفة، عند ذلك قرر جمع القرآن الكريم .

تقلد الأنصار الكثير من المناصب المهمة في الدولة الإسلامية ، زمن الرسول ﷺ وفي زمن خلفائه ؛ فمنهم من عينه الرسول واليًا على المدينة عندما يغادرها الرسول في إحدى غزواته ، ومنهم من كلفه بأعمال عسكرية وسياسية معا ، فقد استخلف أبا لبابة بن عبد المنذر على المدينة في غزوة بدر وضرب له بسهمه ، وفي غزوة بني قينقاع، وغزوة السويق ، وهو الذي استشاره بنو قريظة عندما كانوا محاصرين وسألوه ما الرسول فاعل بهم ؟ فأشار إلى رقبته ـ معناه القتل وكانت هفوة سياسية ذهب على أثرها وربط نفسه في أسطوانة المسجد مدة خمسة عشر يوما حتى عفا الله عنه، كما استخلف الرسول محمد بن مسلمة على المدينة في غزوة تبوك .

وهذه أمثلة قليلة لما قام به الأنصار من أعمال سياسية مهمة زمن الرسول ـ

والذين برزت شخصياتهم واحتلوا مواقع سياسية بارزة منهم ، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وهو الذي دعا بالخلافة لنفسه في سقيفة بني ساعدة ، والحباب بن المنذر الذي أيد سعدًا ودافع عن حقه ، وأسيد بن حضير ومحمد بن مسلمة وأسعد ابن زرارة الذي عاجله القدر ، فكان أول من توفى من المسلمين بعد هجرة الرسول إلى المدينة وغيرهم الكثير الذين وردت أخبارهم فيما سبق . ونذكر على سبيل المثال:

١ـ عمير بن سعد الأنصاري : كان فارسًا شجاعًا ، أسهم في الحياة السياسية بعد رسول الله ﷺ ولاه عمر بن الخطاب على حمص ، فقبل ولايته عليها كارهًا للحكم والسلطان،كان له دور بارز في فتح البلاد ونشر الإسلام،وإخضاع القبائل المتمردة، كان مجاهدًا فذًا زاهدًا في الدنيا ، لما وصل إلى حمص قام فصلى وخطب في الناس ، حيث قال لهم: ألا وإن الإسلام حائط منيع ، وباب وثيق ، فحائط الإسلام العدل ، وبابه الحق ، فإذا نقض الحائط ، وحطم الباب استفتح الإسلام ، فلا يزال الإسلام منيعا ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذًا بالعدل .

هذا هو رأيه في الحكم ، وقد سار في أهل حمص بالعدل ، وبقى عامًا لم يكتب لعمر ، فارتاب عمر بأمره فأمره أن يحضر إليه ، ويحضر ما جمعه من خراج ، فجاء سائرًا على قدميه حتى وصل المدينة هزيلًا ، وحاسبه عمر فما وجد عنده شيئًا . سأله عمر ما معك ؟ قال معي جرابي أجعل فيه زادي (طعامي) وقصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثيابي وأدواتي ، وأحمل فيها وضوئي وشرابي ، وعصاي أتوكأ عليها ، وأجاهد بها عدوًا إن عرض ، فو الله ما الدنيا إلّا تبع لمتاعي ، وسأله المال فقال : وضعته في مواضعه ، فجدد له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الولاية فرفض وذهب إلى بيته خارج المدينة ، فأرسل عمر وراءه رجلًا يعلم حاله ، فمكث عنده ثلاثة أيام يطعمه الشعير ، ثم سأله حاجته فقال جئتك بمائة دينار من عمر ، فأخذها ووزعها على مستحقيها ، ثم دعاه عمر إليه فأعطاه طعامًا وثوبين ، فرفض الطعام وأخذ الثوبين ، ومات عمير بالمدينة ـ رحمه الله فقد احتذى حذو أنصار

رسول الله ، فكان مخلصًا كإخلاص أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله وتبقى كلمات عمر بن الخطاب :

وددت لو أن لي رجلا مثل عمير بن سعد أستعين به في أعمال المسلمين(١)

٢ ـ **عبادة بن الصامت** : وقد كان مقدمًا في جيش عمرو بن العاص ، والمفاوض الأول للمقوقس ملك مصر عندما أرسله أميرًا على وفد المفاوضة ، ليتحدث باسم الإسلام ودولة الإسلام وسياسة الإسلام .

٣ ـ **قيس بن سعد بن عبادة** : إن قيسًا من القادة العظام في حياة الرسول ﷺ ، وكان من الساسة الدهاة بين المسلمين، أعطاه الرسول ﷺ راية الأنصار في فتح مكة عوضًا عن أبيه ، لم يظهر له موقف عندما طلب أبوه الخلافة في سقيفة بني ساعدة ، لكنه لم يعتزل جماعة المسلمين كأبيه ؛ أسهم في الحياة السياسية بشكل واسع ، عمل مع علي رضي الله عنه حيث ولاه مصر بدلًا من عبد الله بن سعد بن أبي سرح عندما ولى الخلافة ، وكان قد شارك في فتحها مع عمرو بن العاص واختط بيتًا فيها، كان قيس ابن سعد مع النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة ، كان ضخم الجثة ، طويل القدمين ، كريمًا جدًا ، وكان أمرد البشرة حتى إن الأنصار قالوا : وددنا لو نشتري لقيس بن سعد لحية .

قال أبو عمر : كان أحد الفضلاء الجلة من دهاة العرب ، من أهل الرأي والمكيدة في الحرب مع النجدة والشجاعة . وكان شريفًا في قومه . شهد مع الرسول المشاهد كلها ، وصحب عليًا وكان معه ، ومع أنه استبدله بمحمد بن أبي بكر إلا أنه حضر موقعة صفين معه ، ولما مات على رافق الحسن بن علي ، وأراد معاوية التحايل عليه فلم يفلح ، واعتزل بعد موت الحسن وأقام بالمدينة .

---

(١) أنصار رسول الله : الهاشمي ، ٥٧ – ٦٦ خلط صاحب كتاب (أنصار رسول الله) بين عمير بن سعد ـ موضوع بحثنا ـ وهو : عمير بن سعد بن عبيد بن قيس بن عمرو بن زيد . وبين عمير بن سعد ابن امرأة الجلاس ـ صاحب قصة تبوك . طبقات ابن سعد : ٤ / ٣٧٤ فما بعدها . خطط الشام : كرد على ١ / ١٠٠ ، ١٠١

قال قيس : لولا الإسلام لمكرت مكرًا لا تطيقه العرب . مات في خلافة معاوية، ويقال : في خلافة عبد الملك بن مروان[(١)]

٤ ـ أبو الهيثم بن التيهان هو أطول أنصاري مسيرًا في الإسلام ، أول من تعرَّف على رسول الله ﷺ ، وحضر العقبة الأولى والثانية . وكان أحد النقباء الإثنى عشر . من حلفاء الأوس ـ بني عبد الأشهل ـ وآخرون ينسبون إليهم ، كان حاضرًا في كل مراحل مسيرة الأنصار من البيعة إلى الهجرة وحضر المشاهد كلها مع رسول الله ، وكلفه رسول الله أن يخرص النخل بخيبر[(٢)] تابع مسيرته في عهد الصحابة جنديًا في سبيل الله ويقال ـ وهو الأصح إنه حضر موقعة صفين مع على وقتل يومئذ .

٥ ـ عويم بن ساعدة : من الثمانية نفر الذين لقوا الرسول في أول لقاء في العقبة وشهد البيعتين ، بعدها آخى الرسول بينه وبين عمر بن الخطاب ، وهو الذي لقيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وهم ذاهبون إلى سقيفة بني ساعدة ونصحهم ألا يقربوهم ويقضوا أمرهم بينهم وفيه نزلت ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[التوبة]. وقال عنه رسول الله :«**نعم العبد عويم بن ساعدة**» وقد توفى في خلافة عمر

٦ ـ سهل بن حنيف : آخى رسول الله بينه وبين علي بن أبي طالب، وثبت يوم أحد عندما انكشف الناس،وكان يرمي بالنبل،فقال رسول الله :« **نبِّلوا سهلا فإنه سهل**» (أي قدموا له النبال) .

شهد مع الرسول المشاهد كلها ، وقد انخرط في العمل السياسي بعد وفاة الرسول مع أبي بكر وعمر ، وكان عمر يقول : ادعوا لي سهلا غير حزن . التحق مع على وشهد معه موقعة صفين ، وقد كان أحد قواده في هذه المعركة وقد قال : أيها

---

(١)الإصابة : العسقلاني ٣/ ٥٤٩ .

(٢) خرص النخل : حزر ثمره .

الناس اتهموا رأيكم فإنا والله ما وضعنا سيوفنا عن عواتقنا مع رسول الله ﷺ يفظعنا إلّا أسهل إلى أمر نعرفه إلا أمرنا هذا

مات سهل في الكوفة ، وصلى عليه على بن أبي طالب وكبر عليه ست تكبيرات، فلما سئل قال : لأعلمكم فضل أهل بدر .

٧ـ زياد بن لبيد : توفى رسول الله وعامله على حضرموت زياد بن لبيد ، وكان زياد بن لبيد من السبعين الذين شهدوا العقبة الثانية ، ولما أسلم كان يكسر أصنام بني بياضة ، وخرج زياد وأقام مع رسول الله في مكة حتى هاجر منها معه ، فكان يقال عنه مهاجرى وأنصارى . شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله . تولى قتال أهل الردة باليمن حين ارتد أهل النجير مع الأشعث بن قيس حتى ظفر بهم ، فقتل منهم من قتل وأسر من أسر وأرسل الأشعث بن قيس إلى أبي بكر بوثاق .

هذه أمثلة من الأنصار والذين أسهموا في المجال السياسي وأثروا في مجرى الأحداث، والباقون لم يكونوا بأقل من هذه الأمثلة عملًا ودفاعًا وخدمةً وجهادًا .

(٢) آراء الأنصار واجتهاداتهم الدينية

مواقف وأحداث

لقد حدد الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ أهدافهم مع رسول الله في العقبة الثانية بأنهم سيقاتلون الأسود والأحمر ، ولا ينازعون الأمر أهله .

ويمكن لنا بهذا أن نحدد مسار الأنصار منذ بيعة الحرب إلى أن مضي خبرهم في التاريخ بأنهم اتخذوا الخط التالي :

١ ـ الجهاد في سبيل الله دون النظر إلى مواقعهم ـ جنودًا أو قادة ـ والكثير منهم قد تركوا الإمرة والإمارة في سبيل الجهاد   قال عمر بن الخطاب للنعمان بن مقرن سأوليك قال له   الخراج لا أريد، أما الغزو في سبيل الله فإنى فاعل ، فولاه القيادة والجهاد وكان بطل نهاوند وغير نهاوند ، ولقد سقنا من الأمثلة الكثير وبقى الكثير لم نأت على ذكره ، رغم أن الصفحات مليئة بالبطولات الخارقة التي سطرت تحت راية الجهاد ، منذ أول شهيد من الأنصار ومن أول نقطة دم روت أرض الإسلام في المدينة إلى آخر نقطة دم منهم ، والله وحده الأعلم أين كانت وأين سقطت ، والله أعلم ـ أيضًا ـ أي تراب ضم تلك الأجساد الطاهرة من أبنائهم وأحفادهم والذين توزعوا في مشارق الأرض ومغاربها

٢ـ وباعتبار أن بيعتهم كانت على ألا ينازعوا الأمر أهله ، فقد وفوا أيضًا وانسحبوا من المطالبة بالخلافة عدا سعد بن عبادة ومؤيديه ولم يكونوا إلاّ أعدادًا قليلة جدًا . وأكثر الأنصار لم ينخرطوا في الأعمال السياسية بعد وفاة الرسول إلا من ولى أمرًا للخليفة أو تحيز بالفتنة لأحد الطرفين ، وأكثرهم اعتزل كما سيرد لاحقا .

٣ ـ الفئة الثالثة من الأنصار. وربما يكونوا الفئة الغالبة يوازون المجاهدين أو جمعوا بين الحسنيين الجهاد والعلم والاجتهاد ، ولقد برز من الأنصار رجال كان لهم

في مجال الاجتهاد الباع الطويل في الفتيا والرأي ، والفقه والحديث ، والتفسير والأحكام ويحفظ لنا التاريخ أسماء الكثير من هؤلاء الذين برعوا في علمهم وارتادوا هذا الطريق الذي وجدوا فيه استكمالًا لجهادهم الجسدي ، فنالوا بذلك ثواب الشهيد وثواب العالم لإخلاصهم في دربيهما .

والقضايا السياسية قد تنحرف بصاحبها ، ويشهد أعدل العدول بعد رسول الله عمر بن الخطاب عندما منع الخلافة عن ابنه قائلا : يكفي نار جهنم واحدًا من آل الخطاب ، ظانا أنه لن يبلغ الهدف المنشود من تحقيق العدل المطلق بالحكم ، ومع هذا فلم يمنع الكثير من الأنصار أن يزاولوا أعمالًا سياسية ـ كسفارة ، أو قيادة ، أو ولاية، أو وزارة أو غير ذلك ـ لكن كان هدفهم الأسمى من هذه السياسة تسخيرها لمرضاة الله ـ تعالى ـ والفوز برضوانه في الشهادة ، والتي كانت من نصيب الكثيرين من الأنصار .

وانخرط الكثيرون أيضا بالتزود بالعلم ونشره والحفاظ على تراث الأمة الخالد ـ القرآن الكريم ، وحديث النبي المصطفى ﷺ ، وولج الأنصار هذ االمجال من أوسع أبوابه ، وبرز عدد كبير منهم ، يذكر ابن قيم الجوزية بعضًا من مقتطفات العلماء ـ وخاصة من نحن بصدد الحديث عنهم من كبار المجتهدين ـ يقول ولما كانت الدعوة إلى الله والتبليغ عن رسول الله شعار حزب المفلحين وأتباعه من العالمين كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف] [1]، كان التبليغ عنه من عين تبليغ ألفاظه وما جاء به، وتبليغ معانيه ، كان العلماء من أمته منحصرين في قسمين :

أحدهما حفاظ الحديث وجهابذته ، والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام ... إلى أن يقول : فكم من مقبل لإبليس أحيوه ، وكم من ضال تائه هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وما أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الضالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

---

(١) إعلام الموقعين : ابن القيم ، ١ / ٨ – ٩

والثاني : فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام ، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء .. إلخ(١)

وقد أفرد المؤلف بابًا عن صحابة رسول الله من أهل العلم من المهاجرين والأنصار ، ووضعهم في فئات ثلاث وعددهم مائة ونيف وثلاثون نفسا ما بين رجل وامرأة(٢)

١ـ المكثرون سبعة من المهاجرين : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعائشة أم المؤمنين ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، والأنصاري زيد بن ثابت .

قال ابن حزم : ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم قال وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فتيا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما في عشرين كتابًا ، وأبو بكر ـ محمد هذا ـ أحد أئمة المسلمين بالعلم والحديث .

٢ـ المتوسطون في الفتيا قال أبو محمد : والمتوسطون منهم فيما روى عنهم من الفتيا من المهاجرين: أبو بكر الصديق ، وأبو هريرة ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو موسى الأشعري ، وسعد بن أبي وقاص ، وسلمان الفارسي ، وأم سلمة ، ومن الأنصار: أنس بن مالك ، وأبو سعيد الخدري ، وجابر بن عبد الله ، ومعاذ بن جبل ، فهؤلاء ثلاثة عشر يمكن أن يجمع عن فتيا كل واحد منهم جزء صغير ، ويضاف إليهم طلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وعمران بن حصين ، وأبو بكرة ، وعبادة بن الصامت ، ومعاوية .

٣ ـ المقلون بالفتيا والباقون منهم مقلون بالفتيا ، لا يروي عن الواحد إلا المسألة أو المسألتان ، والزيادة اليسيرة على ذلك يمكن أن يجمع من فتيا جميعهم جزء

(١، ٢) الرياض المستطابة : يحيى العامري ، مكتبة المعارف .

صغير فقط بعد التقصي والبحث وذكرهم جميعا ، ومن الأنصار منهم: أبو الدرداء ، والنعمان بن بشير ، وأبي بن كعب ، وأبو أيوب، وأبو طلحة ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن حضير ، والضحاك بن قيس ، وحبيب بن مسلمة ، وعبد الله بن أنيس ، وحذيفة بن اليمان ، وأم الدرداء الكبرى ، و (عبد الله بن سلام من يهود المدينة) ، وعبد الله بن رواحة ، وعائذ بن عمرو الأنصاري ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وقيس بن سعد ، وسمرة بن جندب ، وسهل بن سعد ، وعمرو بن مقرن ، وسويد بن مقرن ، وحسان بن ثابت ، وحبيب بن عدي ، ومحمد بن مسلمة ، وخباب بن الأرت ، ومسعود بن أوس الأنصاري ، والباقي من المهاجرين ، أو من الخلفاء ، أو من القبائل الأخرى .

وكما أن الصحابة سادة الأمة وأئمتها وقاداتها ، فهم سادات المفتين والعلماء وقال الليث عن مجاهد : العلماء أصحاب محمد ﷺ . وقال سعيد ، عن قتادة في قوله تعالى ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ:٦] قال: أصحاب محمد ﷺ .

وقال يزيد لما حضر معاذ بن جبل الموت قيل : يا أبا عبد الرحمن أوصنا قال أجلسوني ، فلما أجلسوه ، قال : إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما يقول ذلك ثلاث مرات: التمس العلم عند أربعة رهط: عند عويمر بن أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي ، وعند عبد الله بن مسعود ، وعند عبد الله بن سلام.

قال أبو بكر عياش ، عن الأعمش ، عن أبي إسحاق قال : قال عبد الله : علماء الأرض ثلاثة: فرجل بالشام ، وآخر بالكوفة ، وآخر بالمدينة ، فأما هذان فيسألان الذي بالمدينة، والذي بالمدينة لا يسألهما عن شيء .

وقال الشعبي : ثلاثة يستفتي بعضهم من بعض ، فكان عمر وعبد الله ، وزيد ابن ثابت يستفتى بعضهم من بعض ، وكان على وأبي بن كعب وأبو موسى الأشعري يستفتي بعضهم من بعض .

قال الشيباني : فقلت للشعبي : وكان أبو موسى بذاك . فقال : ما كان أعلمه.

قلت : فأين معاذ ؟ فقال: هلك قبل ذلك .

وقال مسلم ، عن مسروق قال شاممت (بحثت) عن أصحاب رسول الله ، فوجدت علمهم ينتهي إلى ستة إلى : علي ، وعبد الله ، وعمر ، وزيد بن ثابت ، وأبي الدرداء ، وأبي بن كعب .

وشهد رسول الله لعبد الله بن مسعود بأنه عليم معلم وبدأ بقوله :«**خذوا القرآن من أربعة : من ابن أم عبد ، ومن أبي بن كعب ، ومن سالم مولى أبي حذيفة ، ومن معاذ بن جبل**»[(١)]

بعد هذا السرد الموجز نجد أن الأنصار قد أخذوا حظهم من علوم الإسلام والحديث والفتيا وعلوم القرآن ، وكانوا في مصاف كبار الصحابة في هذا المجال ، ولو أن التقصي لم يكن دقيقًا تمامًا ، وحسب اختيار ابن القيم فلا بد من ذكر بعض الأمثلة فقط وليس كل الخبر عن هؤلاء ، حتى نستطيع أن نضع أيدينا على بعض ما عندهم من فضل وعلم :

١ ـ زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان : من الراسخين في العلم ، وهو يوز أي الطبقة الأولى من فقهاء هذه الأمة ، أكثر الناس علمًا بفرض الله (الميراث) ، عاش يتيمًا ، مات أبوه في بعاث في الجاهلية ، التقى برسول الله وعمره عشر سنين ، حيث قدمه قومه وهو يحفظ سبع عشرة سورة من سور القرآن الكريم على يد مصعب بن عمير . كلفه رسول الله بحفظ لغة اليهود . وقال :« **لا آمنهم على كتابي**» فتعلمها في نصف شهر والغالب في نصف سنة ـ ومع تقدمه بالعمر كان يزداد إيمانا وترسيخ علم ، وتحمل كثيرًا من المهام والعقبات الجسام . تحول بعد ذلك إلى كاتب للوحى ، حفظ القرآن الكريم وأتقنه في حياة الرسول الكريم ﷺ .

وبعد وفاة الرسول ﷺ قال أبو بكر لزيد بعد أن كثر القتل في القراء المسلمين :

---

(١) إعلام الموقعين : ابن القيم ، ١٠-١٩ بتصرف .

إنك رجل شاب ، عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ، فتتبع القرآن فاجمعه ، واعترض زيد على القيام بأمر لم يفعله رسول الله ، لكن أبا بكر قال : هو والله خير ، فانشرح صدري ـ كما يقول زيد ـ فكنت أتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال . وقد شارك معه أربعة من الأنصار أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل وأبو زيد ابنه ، واجتمع القرآن فكان عند أبي بكر ، ثم عند عمر ، ثم عند ابنته حفصة ، حتى جاء عثمان وكلف عثمان زيدا ، وجماعة من المهاجرين والأنصار إلى كتابة هذ االمصحف العثماني .

من مواقفه السياسة : عارض سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة وقد قال : إن رسول الله كان من المهاجرين ونحن أنصاره ، وإنما يكون الإمام من المهاجرين ونحن أنصاره . ومن المواقف الرائعة بين العلماء ؛ أن عبد الله بن عباس رأي زيد بن ثابت قد همَّ بركوب ناقته ، فوقف أمامه وأمسك بركاب الناقة وأخذ بزمامها . قال زيد : خلِّ عنك يا بن عباس ، قال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا يا زيد ، فأمسك زيد بن ثابت بيد ابن عباس فقبلها وقال له : هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا محمد ﷺ .

قال عنه عمر : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت زيد بن ثابت . شهد المشاهد كلها مع رسول الله وثبت عدا بدر وأحد ، وحيث رد من أحد مع عبد الله بن عمر وآخرين ، لصغر سنهم وأجيز بالخندق وما بعدها ، أصيب باليمامة بسهم لكن الله سلمه ، وقد مات عدد كبير يومها من القراء كان في اليرموك مقاتلا شجاعًا وقاضيًا حصيفًا ، وحكمًا أمينًا ، وقد كلف بتوزيع الغنائم بعد انتصار المسلمين .

قال ابن عباس علم الحافظون من أصحاب محمد أن زيد بن ثابت من الراسخين في العلم ، استخلفه عمر على المدينة بغيابه عنها ، روى عددًا كبيرًا من الأحاديث ، وحدث عنه أبو هريرة ، وابن عباس ، وابن عمر وأنس بن مالك ، وقال حسان بن ثابت يرثيه :

مـــن للقـــوافي بعـــد حـــسان وابنـــه ومن للمقـاني بعـد زيـد بـن ثابـت[١]

قول زيد بن ثابت بذم الرأي : عن الشعبي قال : أتى زيد بن ثابت قوم فسألوه عن أشياء فأخبرهم بها فكتبوها ، قالوا لو أخبرناه ، فأتوه فأخبروه فقال : اعذرا لكل شيء حدثتكم خطأ ، إنما اجتهدت لكم برأي[٢]

٢- أنس بن مالك : خادم رسول الله ﷺ ـ حضرًا وسفرًا ـ منذ قدم المدينة إلى أن توفى. جاءت به أمه أم سليم إلى الرسول ﷺ وقالت: خويدمك يا رسول الله أنيس .. فدعا رسول الله ﷺ له كثيرًا . اصطحب الرسول طيلة حياته ﷺ .

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضله للبخاري قال: دخل النبي ﷺ على أم سليم، فأتته بتمر وسمن فقال :« **أعيدوا سمنكم في سقائه ، وتمركم في وعائه ؛ فإني صائم**» ثم قام ناحية من البيت فصلى غير المكتوبة ، فدعا لأم سليم وأهل بيتها، فقالت: يا رسول الله إن لي خويصة .. قال:« **وما هي**»؟ قالت: خادمك أنس، قال : فما ترك لي خير دنيا ولا آخرة إلا دعا لي به :« **اللهم ارزقه مالا وولدًا وبارك له**». فإني لمن أكثر الأنصار مالًا ، وحدثتني ابنتي أمينة أنه وقف لصلبي إلى مقدم الحجاج البصرة بضع وعشرون ومائة .

وفي رواية أخرى فوالله إن مالي لكثير ، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون على نحو المائة اليوم .

في الترمذي : حدثنا ثابت البناني ـ رحمه الله ـ أن أنسا قال له : خدعني ، فإنك لن تأخذ عن أحدٍ أوثق مني .. أخذته عن رسول الله ﷺ ،وأخذه الرسول عن جبريل، وأخذه جبريل عن رب العالمين .

وفي الترمذي : سمع أنس من رسول الله قال: خدمه عشر سنين ، ودعا له النبي عليه السلام شارك في غزوات الرسول عدا بدر وأحد ؛ لأنه كان صغيرًا شارك في

---

(١) أنصار رسول الله : الهاشمي ، ١٢٠ – ١٢٨ باختصار .

(٢) إعلام الموقعين : ابن القيم ، ١ / ٦٠

الفتوح كما شارك مع الإمام على وأمَّ الناس بالصلاة سنة ٦٥ هـ بالبصرة من قبل عبد الله بن الزبير ، وانضم إلى الثائر عبد الله الأشعث ، لامه الحجاج وهدده إلا أن ابن مروان اعتذر له عما بدر من الحجاج توفى بين عامي ٩١ ـ ٩٤ هـ ويعد من أعظم المحدثين[١]

٢ ـ معاذ بن جبل بن عائذ : من الخزرج ، شهد العقبة شابًا ، أفرد له البخاري عدة أحاديث ، روى عنه كبار الصحابة والتابعين ، شهد بدرًا وله عشرون سنة ، كان طويلاً مسنا جميلاً ، جمع القرآن مع الأربعة الأنصار ، وعنه وعن آخرين ، قال رسول الله ﷺ :« **خذو القرآن عن أربعة ، عن ابن مسعود، معاذ ، وأبي بن كعب ، وسالم مولي أبي حذيفة**» كان أعلم أمة محمد بالحلال والحرام ، قال رسول الله:«**معاذ بن جبل أعلم الناس بحرام الله وحلاله** ». وقال :« **ويجيء معاذ يوم القيامة إمام العلماء بين يدي العلماء**»

لما فتح المسلمون مكة خلف رسول الله عليها عتاب بن أسيد يصلى بهم ومعاذًا يقرئهم ويفقههم . عن معاذ قال : لقينى الرسول ﷺ فقال :«**يا معاذ إني لأحبك في الله** »، قلت : وأنا والله يا رسول الله أحبك في الله . قال : «**ألا أعلمك كلمات تقولهن دبر كل صلاة ؛ رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»

عن محمد بن سهل بن أبي خيثمة ، عن أبيه قال كان الذين يفتون على عهد رسول الله ﷺ ثلاثة من المهاجرين وهم عمر ، وعثمان ، وعلى ، وثلاثة من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ ، وزيد .

روى الأعمش ، عن أبي سفيان قال : حدثنا أشياخ منا أن رجلًا غاب عن امرأته سنتين فجاءها وهي حبلى . فأتى عمر فهم برجمها . فقال له معاذ : إن يك لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل ، فتركها فوضعت غلامًا بان أنه يشبه أباه قد خرجت ثنيتاه فقال الرجل: هذا ابني فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ .

(١) دائرة المعارف الإسلامية : خورشيد ٣ / ٤٨

قال أيوب بن سيار عن يعقوب بن زيد ، عن أبي بحرية (عبد الله بن قيس) قال: دخلت مسجد حمص فإذا بفتى حوله الناس جعد قطط ، إذا تكلم كأنما يخرج منه نور ولؤلؤ فقلت من هذا ؟ قالوا : معاذ بن جبل(١)

قول معاذ في ذم الرأي : قال حماد بن سلمة : عن معاذ بن جبل قال : تكون فتن فيكثر فيها المال ، ويفتح القرآن حتى يقرأه الرجل والمرأة ، والصغير والكبير ، فيقرأه الرجل فلا يتبع فيقول والله لأقرأنه علانية فيقرأه علانية ، فلا يتبع ، فيتخذ مسجدًا ويبتدع كلامًا ليس من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ، فإياكم وإياه ، فإنه بدعة وضلالة . قاله معاذ ثلاثا(٢) وقد سبق الحديث عن معاذ المحارب القائد .

٤ـ أبو الدرداء : عويمر بن عامر الأنصاري الخزرجي ، قاضي دمشق وصاحب رسول الله ﷺ قال أبو الدرداء أعوذ بالله من تفرقة القلوب قيل وما تفرقة القلوب ؟ قال: أن يجعل لى في كل واد مال . وقال : ثلاثة أحبهن ويكرههن الناس ؛ الفقر والمرض والموت أحب الفقر تواضعًا لربي ، والموت اشتياقًا لربي ، والمرض تكفيرًا لخطيئتي . وقال: لولا ثلاثة ما أحببت البقاء ساعة : ظمأ الهواجر ، والسجود في الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما ينتقي أطايب التمر وقال: من أكثر ذكر الموت قل فرحه ، وقل حسده .

وقال كنت تاجرًا قبل البعثة ، فلما جاء الإسلام جمعت التجارة والعبادة فلم يجتمعا ، فتركت التجارة ولزمت العبادة ، لقد كان أبو الدرداء آخر من دخل الإسلام من الأنصار ، فأصبح بعد إسلامه حكيم هذه الأمة ، وسيد القراء . وهو صديق لعبد الله بن رواحة في الجاهلية والإسلام آخى الرسول بينه وبين سلمان الفارسي .

عندما أراد الإسلام قال لزوجته أعدى لي ماء من المغتسل ، فاغتسل ولبس

(١) سير أعلام النبلاء : الذهبي ١ / ٤٤٣

(٢) إعلام الموقعين : ابن القيم ١ / ٦٠

ملابس نظيفة جيدة ، ثم ذهب إلى رسول الله ، فنظر إليه ابن رواحة مقبلا فتبسم وقال يا رسول الله هذا أبو الدرداء ، ما أراه إلا جاء في طلبنا فقال ﷺ : «**إنما جاء ليسلم ، إن ربي وعدني بأبي الدرداء أن يسلم**» . وجاء إسلامه قويا بعد انتظار. قام عبد الله بن رواحه بتحطيم صنمه الذي اتخذه في بيته ، وعاد أبو الدرداء ووقف متأملا حال هذا الصنم المحطم ، والذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، وبدأ يتساءل .. أليس عبد الله بن رواحة أفضل مني فيما ذهب إليه ؟

وبعد إسلامه عكف يتعبد ويبتهل إلى أن يغفر الله طول انتظاره على ذلك الصنم الذي كان في بيته .

أسلم أبو الدرداء يوم بدر وشهد أحدًا ، ولما قتل رماة الجبل أمر رسول الله أبا الدرداء أن يدفع المشركين عن الجبل ، وقال ﷺ :« **اللهم ليس لهم أن يعلونا**» ، فانطلق أبو الدرداء وجماعة من الأنصار يدفعون المشركين حتى ردوهم وطردوهم من مكانهم شر طردة ، فقال عنه رسول الله :« **نعم الفارس عويمر** ». وشهد المشاهد مع رسول الله وكان زاهدًا تقيًا

قال عمر : يا أبا الدرداء أريدك واليًا على مدينة في الشام . فقال : إذا رضيت منى أن أذهب إلى القوم لأعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم وأصلي بهم ذهبت مطيعًا راضيًا ، أما ولاية أو إمارة فدعني وإياها .

وفي دمشق وجد الحال غير الحال عما في المدينة ، فخطب الناس وكان مما قال : ما لي أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ، ما لي أراكم تجمعون ما لا تأكلون وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تبغون ، لقد جمعت الأقوام ...إلخ الخطبة وبكى الناس وتحول المسجد إلى نحيب ودموع من كثرة بكاء الناس ولقد تعبد فزهد ، فقال له رسول الله :« **يا أبا الدرداء إن لجسدك عليك حقا مثل ما قال لك سلمان** ». توفى سنة اثنتين وثلاثين للهجرة في المدينة ، وكانت حلقة درسه تربو على ألف لكل عشرة منهم ملقن . رحمه الله وغفر له وللمهاجرين وللأنصار جميعا[1]

---

(١) أنصار رسول الله : الهاشمي بتصرف ٣٨ - ٤٨

٥ ـ أبي بن كعب [(١)] **بن قيس بن عبيد** : من بني النجار ، سيد القراء ـ البدري ـ ويكنى أبا الطفيل ، شهد العقبة وبدرًا وجمع القرآن في حياة الرسول ﷺ ، وعرض على النبي ﷺ وحفظ عنه علمًا مباركًا ، وكان رأسا في العلم والعمل ﷺ . حدث عنه كبار الصحابة والتابعين . قال أنس بن مالك : قال النبي ﷺ لأبي بن كعب :« **إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن** »، وفي لفظ آخر «**أمرني أن اقرئك القرآن** ». قال : الله سماني لك ؟ قال :« **نعم**» قال وذكرت عند رب العالمين ؟ قال :« **نعم**» فذرفت عيناه .

سأل النبي أُبيًا عن أي آية في القرآن أعظم ؟ قال ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة:٢٥٥] ضرب النبي في صدره وقال :« **لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر**» . وكان ممن جمع القرآن مع الأنصار الأربعة قال رسول الله :«**اقرأ أمتي (أبي)**» .

عن أبي سعيد قال قال أبي يا رسول الله ما جزاء الحمى ؟ قال :« **تجري الحسنات على صاحبها**» فقال: اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني من الخروج في سبيلك ، فلم يُمس أبي قط إلا وبه حمى . وملازمته الحمى حرَّفت خلقه يسيرًا ومن ثم يقول زر بن جيش : كان أبي به شراسة .

قال أبي بن كعب لعمر ﷺ : ما لك لا تستعملني ؟ قال أكره أن يدنس دينك.
عن محمد بن سيرين ، أن عثمان جمع اثنى عشر رجلا من قريش ، والأنصار فيهم أبي ابن كعب وزيد بن ثابت في جمع القرآن . طلب رجل صاحبه إلى عمر ، وإلى جنبه رجل أبيض الثياب والشعر فقال إن الدنيا فيها بلاغنا وزادنا في الآخرة ، وفيها أعمالنا التي نجزى بها في الآخرة . فقلت : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا سيد المسلمين أبي بن كعب .

روى الإمام مسلم له حديثًا: «يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب » إلخ الحديث خطب عمر بالجابية فقال : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبيًا

---

(١) سير أعلام النبلاء : الذهبي ١ / ٣٨٩ . الرياض المستطابة : العامري، ص ٢٧

(أبي بن كعب) ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيدًا (زيد بن ثابت) ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذًا (معاذ بن جبل) ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ؛ فإن الله قد جعلني خازنًا وقاسمًا .

قال عتبة بن عبد الله بن عمرو بن العاص : حدثني أبي ، عن جدي قال : كنت عند رسول الله في يوم عيد فقال :« **ادعوا لي سيد الأنصار** » فدعوا أبي بن كعب . فقال : «**يا أبي ائت بقيع المصلي فأمر بكنسه**» ، فلما بلغ الباب رجع قال : يا رسول الله والنساء ؟ فقال :« **والعواتق والحُيّض يكن في الناس يشهدن الدعوة**» .

تربى وعاش في المدينة في كنف والديه ، وتعلم القراءة والكتابة ، لم يذكر أنه شارك في ظلم أوجور قبل الإسلام ، فأحبه الناس وجعلوه سيدًا بينهم . كان واحدًا من أهل العقبة وكان في طليعة المبايعين . آخى الرسول بينه وبين طلحة بن عبد الله .

روى أبي بن كعب مائة وأربعة وستين حديثا منهم في صحيح البخاري ثلاثة وفي مسلم سبعة توفي في المدينة ، وكان يوم وفاته يومًا مشهودًا فيها ـ رحمه الله وغفر له.

٦ ـ حذيفة بن اليمان سبق الحديث عنه ـ قائدًا سياسيًا مجاهدًا ـ حدَّث عن رسول الله كثيرًا فروى عنه في صحيح البخاري ثمانية أحاديث ، وفي صحيح مسلم سبعة عشر حديثًا؛ وسمي الناس أباه باليمان لأنه حالف بني عبد الأشهل (اليمانية)، كان كاتم أسرار رسول الله ، ولم يبح رسول الله لغيره بأسرار خطيرة . في الترمذي عن حذيفة بن اليمان قال : قالوا : يا رسول الله لو استخلفت ؟ قال :« **إن استخلفت فعصيتم خليفتي عذبتم ، ولكن ما حدثكم به حذيفة فصدقوه ، وما أقرأكم عبد الله ابن مسعود فاقرؤوه**» وفي الترمذي أيضًا أن حذيفة جاء رسول الله بعد أن أرسلته أمه فصلى معه المغرب والعشاء وتبعته فسمع صوتي فقال :« من هذا.. حذيفه ..» قلت نعم ، قال : «**ما حاجتك غفر الله لك ولأمك**» .قال :« **إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة ، استأذن ربه أن يسلم على ويبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**»(١)

(١) جامع الأصول : ابن الأثير ١٠ / ٤٠

٧ـ **أبو أيوب الأنصاري** : الذي مر ذكره ـ كريمًا مقاتلًا شهيدًا محدثا ـ روى عنه مائة وخمسة وخمسون حديثا جاء بعضها في صحيح البخاري ، فقد روى عن رسول الله ﷺ :« **من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة**»، وعلمه دعاء الاستخارة ، وظل على العهد بعد رسول الله كان يعيش عيشة المجاهدين ، ولكنها كانت حياة هادئة ساكنة سكون الزمن . لم يشارك في فتنة بلسانه ، ولم يكن طامعًا في منصب أو جاه كان دائم الوداع للحياة ، شاهرًا سيفه ، يصلي صلاة مودع، ولا يتكلم بحديث يعتذر منه .

٨ ـ **ومن المحدثين أبو سعيد الخدري** روى الكثير من أحاديث رسول الله وبعضها في البخارى وبعضها في مسلم وفي كتب الصحاح وروى الكثير من الأحاديث عن النعمان بن بشير الأنصاري ﷺ ، كما ولى القضاء بالشام بعد فضالة ابن عبيد ، وكان فضالة قد وليه بعد أبي الدرداء ، ومما روى عن النعمان ـ كما سبق ـ قوله عن رسول الله :« **إن للشيطان مصالي وفخوخا ؛ وإن من مصاليه وفخوخة البطر بنعم الله ، والفخر بعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى في غير ذات الله** ».

ومن أحاديثه الحسان الصحاح ما سمعه من رسول الله : « **إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام . كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا إن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإن فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب، رواه البخاري ومسلم**»[(١)]

شارك الصحابة من الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ بجمع القرآن في زمن عثمان بإشارة حذيفة بن اليمان الذي خاف اختلاف الأمة ، وقد كان الذين كلفوا بالمشروع أربعين من المهاجرين وخمسين من الأنصار فإذا اختلفوا في كتابة شيء كتب بلغة

(١) البداية والنهاية : ابن كثير ٨/ ٣٤٥

قريش . وكان دور الأنصار كبيرًا جدًا كما سبق كما أن طباع الأنصار قد أبعدتهم عن فتن السياسة وأوردتهم موارد الجهاد والعلم .

وفي مجال الشعر :كان شعراؤهم الأفذاذ، حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك[١] قد أدوا دورًا سياسيًا وفكريًا خطيرًا في مقابلة أعدائهم، وقدموا بعض الآراء الفقهية التي تعلموها من رسول الله للرد على الأعداء ، وفيها الفكر والسياسة وخاصة أنهم مضطرون للرد على أفكار وقضايا طرحت لأول مرة في مجال الشعر والشعراء .

---

(١) الأغاني : ١٥ / ٢٦

(٤) رأي الأنصار في سياسة الفتوح والشعوب المحاربة

لم يفرق الأنصار في حربهم وجهادهم في سبيل الله بين قرشي وغساني ، وبين غطفاني وثقفي، فقد انتدبوا أنفسهم لحرب كل هؤلاء ما داموا على شركهم وكفرهم عند مبايعتهم للرسول ﷺ على حرب الأسود والأحمر ، وعلى قطع الأحلاف والصلات التي كانت بينهم أنفسهم وبين القبائل والشعوب قبل الإسلام. وتجاوزوا تعاهدهم بالحرب داخل المدينة في مهمة دفاعية عن الرسول ﷺ إلى أن وصلوا إلى أقاصي الدنيا المعروفة ـ آنذاك .

لم يترددوا لحظة واحدة عندما ساروا إلى بدر ، وقدموا كل ما لديهم من طاقات، ومع أن قريشًا كانت هدفهم في كل تحالف أرادوه في الجاهلية ، فإنهم لما انتدبوا لقتال قريش كانوا صُبرًا عند اللقاء ؛ ولأن قريشا أصبحت شركة الشرك والوثنية ومعقل الكفر والضلال ، ولكنهم وبعد ثمان سنوات تحديدًا بعد وفاة الرسول مباشرة لم يجدوا غضاضة من الخضوع لقريش وتسليمها قيادة الدولة عندما أصبحت قريش قلعة الإسلام

سياسة الأنصار في هذا نصرة الإسلام ، والدفاع عن الإسلام ، وحماية الرسول وأصحابه حتى يبلغ الرسول رسالة ربه بمساعدة هؤلاء الأصحاب .

حاربت الأنصار قريشًا واليهود في آن واحد ، وكلاهما كان أقرب إليها من حبل الوريد ، فاليهود أحلاف محليون ، وقريش أحلاف خارجية ، وعندما التقت مصالح اليهود مع قريش في ظل الضلال والشرك والطاغوت ضد الإسلام ، جرد الأنصار سلاحهم ضد هاتين القوتين ولخمس سنوات تقريبًا بعد الهجرة ، ومن عجيب المفارقات أن كليهما انتهي في وقت واحد فقريش كان آخر حملاتها في الخندق، وقريظة كانوا آخر يهود في المدينة وما بين الفصلين سوى فترة حصار بني

قريظة ، وحتى تلك الفترة لم يكن سلاح المسلمين مجردًا إلّا ضد هاتين القوتين ومع أن سرايا سيَّرها الرسول وغزوات قد سيرت آخرين من قبائل العرب ، فقد كان الأنصار جنودها .

في السنة الخامسة للهجرة شاركت قبائل أخرى مع قريش الأحابيش ومن تبعهم من بني سليم وغطفان بقيادة عيينة بن حصن ، ويقال له : ابن اللقيطة ، وبنو أسد ، وبنو فزارة ، وأشجع وبنو مرة وسواهم ، كل هؤلاء من الأسود والأحمر الذين تكاثروا على محمد ﷺ وصحبه من المهاجرين والأنصار وأيدتهم اليهود ، فلم يكن لدى المسلمين فروق بين هذه وتلك، حتى عندما أراد الرسول ﷺ أن يُـخَزِّلَ عنهم ولو ساعة ـ محادثاته مع غطفان ـ رفض زعماء الأنصار هذه الاتفاقية مع غطفان، وأن يتنازلوا لها عن شيء مهما كان لم يسمع من الأنصار قولاً بأن هؤلاء معنا وهؤلاء ضدنا،وهؤلاء أصحابنا وهؤلاء أهلينا،بل اعتبروا هذا منطق هذه الدعوة ، أن كل من سار تحت شعار الشرك فهو عدو حتى يحكم الله فيه ـ إيمانًا أو سلامًا أو جزية أو حربًا ـ ووصل هذا ذروته بحكم سعد بن معاذ في بني قريظة .

وبعد تحرك الأنصار ـ هذه المرة إلى مسافة أبعد إلى الاحتكاك المباشر مع أبناء عمومتهم من الغساسنة الذين بدؤوا بالتحرك بأوامر أسيادهم في شمال الجزيرة العربية للضغط على الدولة الإسلامية وكان قائد المسلمين عبد الله بن رواحة واحدا من ثلاثة قادة قضوا في مؤتة في حرب مباشرة مع الغساسنة ، ثم تحملوا كل المشاق والجهد والحر والتعب لحرب أبناء جلدتهم من الغساسنة أيضًا والقبائل المنضوية تحت لوائهم لم يفرقوا بينهم وبين من كل قبلهم أو من سيأتى بعدهم ؛ لأنهم عندما نصروا هذا الدين أخرجوا من حساباتهم أية صلة مسبقة أو سابقة لذلك فقد كانوا أنصار رسول الله وأنصار خلفائه .

ـ سبق لنا الحديث بأن الأنصار كانوا الكثرة الغالبة من جند المسلمين لحرب المرتدين ، وقدموا أعلامهم شهداء في هذه المعارك لم يفرقوا بين تميم وبني حنيفة وسليم وسكان اليمن أجدادهم ، بل جميعهم مرتدون عن الإسلام يجب أن يؤدبوا

وأن يعودوا إلى رشدهم، فقد تلاقوا لذلك مع قريش وثقيف في صف واحد بعد أن كانوا في صفوف مختلفة ، حاربوا قريشًا وحاربوا ثقيفًا لكنهم الآن جند الإسلام ضد مرتدة العرب باديها وحاضرها، حتى تمكنوا وخلال فترة بسيطة جدًا أن يسيحوا في أنحاء الجزيرة ، ويصلوا إلى مريض ومسكن كل واحد حدثته نفسه بالردة أو الخروج عن دين الله أو اتباع الهوى واللحاق بالمتنبئين .

ثم جاءت قضية الفتوح في الواقع امتدادًا لحروب الردة؛ لأنها كانت رديفًا لها ، ولأنها كانت هي صاحبة السند البعيد للردة في إمدادها وتقويتها ، لم يقف الأنصار عند حد بلغه رسول الله، وقالوا: هذا عهدنا معه ﷺ وتمردوا بعد ذلك ، وأرادوا أن يعيدوا الأمر إلى نصابه ، بل انطلقوا من تطبيق فريضة الجهاد الماضية إلى يوم الدين . وهم نصرة الإسلام وعترة النبي وكرشه ، فهل يقبل أحدهم أن يلقى سلاحه جانبًا بعد أن أودعوا في كل ناحية من أرض الجزيرة شهداء ؟ ورووا كل تربة فيها بدمائهم منهم ومن حفاظهم ومن قريش المهاجرين والمؤمنين ومن ثبت على دين الإسلام .

تقدم الأنصار جنودًا أوفياء إلى قوى العالم القوية الجبارة مباشرة ـ الروم والفرس ـ وهي ما كانت لتخطر ببال أحدهم ، وكل ما كان يمكن أن يفكر فيه أحدهم رؤية الجندي النظامي عند جيوش الدولتين وهو مدجج بالسلاح والعتاد ، والأعرابي الغنى من يحافظ على نعليه ، أما أن يدوس هؤلاء على بساط الملوك وفرشهم ويتلاعبوا بأسنتهم بديباجهم وفرشهم،ويحملوهم جميعا وبكامل زينتهم إلى الخليفة في المدينة، وأن يجابهوهم بقوة الحق العظيم الذي بدأه جعفر بحديثه للنجاشي .

جاء الجنود والقادة من الأنصار ليرددوا مقالتهم أمام جبابرة العالم : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ولو طلبنا العزة بغير الإسلام أذلنا الله . جاءنا نبى منا نعرف نسبه ونعرف مكانته ، فدعانا إلى الله بعد أن كنا نعبد الأوثان والطواغيت ، فعبدنا الله الواحد القهار ... إلخ .

المقالات التي حفظها الصغار قبل الكبار ، ورددتها كتب السيرة والتاريخ على مر العصور ، وهي التي حددت أهداف المسلمين في كل مكان الإسلام ، الجزية ، الحرب ؛ هذه أهداف الفاتحين وهم قادرون بكل يسر وسهولة على تحقيق أي واحدة منها بمنتهي القوة وبمنتهي القدرة ، وبمنتهي العدل المطلق ، فلم يكن للمسلمين ـ ومنهم الأنصار فرادى أو جماعات ـ إلا تحقيق أهداف الإسلام الذين امتازوا على من سواهم بحمل هذا الدين مع إخوانهم الآخرين .

عندما حاقت الهزيمة بالمسلمين في اليمامة نادى منادٍ: أين الأنصار ؟ امتازوا أين الأنصار ، فخرج الأصحاء والمصابون والمعوقون من كل حدب وصوب وتميزوا بالفداء يوم كيوم حنين ، وهذا التميز مع العدد القليل الذي لبى النداء أمام كثرة المشركين كان كفيلاً وحده بعمل إبداعات عسكرية عجيبة تمكن بها هؤلاء القلة أن يوقفوا الزحف ويقتلوا مسيلمة ، ويفتحوا الحصون والمدن ، وسقط أكثرهم وبدون تردد ، بل برغبة شديدة شهداء في سبيل الله .

ـ لم يفرق الأنصار بين بني قريظة والروم ، كما لم يفرقوا بين قريش والفرس منذ بداية جهادهم وحتى آخر مكان وصلوا إليه مجاهدين في سبيل الله ، وبذلك فقد كانت فترة الفتوح من أبي بكر إلى علي من أحلى صور التضحيات عند هؤلاء الأنصار .

وقد تتبعنا خبر بعضهم في الوقت الذي كان فيه علماؤهم في مقدمة الصفوف ، وسقطوا في كل ناحية ، وحفظة القرآن منهم خاصة في مواجهة العدو، ودفنوا في جميع الأصقاع والمناطق، ويحفظ التاريخ لنا أسماء وأماكن دفن بعض هؤلاء الذين تركوا المدينة المباركة فاتحين ولو ساروا على أحداث مخترعات ذاك الزمان لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه .

هذا شرح مبسط لسياسة الأنصار في الفتوح ، وعلاقتهم بالشعوب المجاورة ، تفاعل الإسلام في نفوسهم فأصبحوا أداته وأنصاره وجنده لنصر الله لهم

واستخلصهم شهداء له ليلقوا محمدًا ﷺ في العليين فكان جواب مناديهم في أحد عندما انتشر خبر مقتل الرسول   موتوا على ما مات محمد عليه فما هناءة العيش بعده حتى حققوا كل ما حققوه من نصر وشهادة .

(٥) رأي الأنصار في الخلافة الراشدة

أجمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة وبعدها على تأييد الخلفاء من قريش دون أن يعرفوا بعد من هم هؤلاء الخلفاء. وربما تأكد لديهم أن الفضل بين أصحابه، وعندما أشير إلى بيعة أبي بكر قام بشير بن سعد الأنصاري ليكون أول المبايعين وأول يد امتدت إلى أبي بكر ﷺ وعدا المعارضة التي تبناها سعد بن عبادة ، ودافع عنها الحباب بن المنذر وبعض أهل بيتهم ، فإن الأمر قد استقام لأبي بكر ، وتقدمت بنو أسلم متدافعة للبيعة حتى ضاقت بها دروب المدينة وقام أسيد بن حضير عن بني عبد الأشهل والأوس كلها وبايع ، وتقدم زيد بن ثابت وغيره وغيرهم من الأنصار وبايعوا ، فكانت الجماعة وكانت الوحدة في هذا المقام ورسول الله ﷺ في حجرة عائشة لم يدفن بعد .

هذا هو رأي الأنصار في الخليفة الأول واضحًا مؤيدًا مبايعًا مع معارضة بسيطة انتهت في وقتها ، والمعارضة كانت لأبي بكر والمهاجرين بصورة عامة ، ولكنها لم تكن معارضة للمبدأ وللإسلام ، وقد أقر المعارضون أنفسهم بأنهم ما خالفوا أساس المبدأ بدعوتهم هذه ، واعتبروا فقط أنهم يجب أن يقطفوا ثمرة جهودهم وتضحياتهم ودماء شهدائهم في سبيل هذا الدين بأن يؤول الأمر إليهم وانتهت القضية في نفس أصحابها ، ووقف الأنصار ليكونوا أنصار خلفاء رسول الله كما كانوا أنصار رسول الله تمامًا .

واهتم المسلمون بأمرين مهمين:الحروب في الخارج،والمرتدون والفتوح وترسيخ أركان الدولة على الأسس التي وردت في القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ ، وكان الأنصار في الأمرين أنصارًا وبناة حضارة ، إن بدا منهم رأي أو اجتهاد أو اعتراض، ففي سبيل تثبيت وتطوير هذين المبدأين . واقتضت أحداث الزمن ذاك الانسياح في الأرض فساح الأنصار ، وكانوا عيون مراقبة دقيقة لأي خلل يمكن أن يكون في

هذه الدولة أو أي انحراف أو أي انقسام ، بل على العكس كانوا رواد وحدة ورواد نهضة ورواد التزام في كل مجالات الدعوة .

أقر الله ـ تعالى ـ عين نبيه بالأنصار وأقر عين خلفاء النبي بهم ـ أيضا ـ وقد وردت أخبار الأنصار في هذه الحقبة وساروا ـ كما سبق الحديث ـ في طريقين طيبين ؛ طريق الجهاد وطريق العلم .

لم يذكر التاريخ أن الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ قد أتوا أمرًا يخرج عن حدود الطاعة والالتزام بأوامر الله ورسوله ، وما قدموه بين يدي الخلفاء الراشدين لم يكن جديدًا في سلوكهم، فقد قدموه بين يدى رسول الله ﷺ شبرًا بشبر وذراعًا بذراع ، وأضحت كلمتهم المسموعة ورأيهم المطاع . فكثر منهم الفقهاء والمحدثون والقضاة والمجاهدون في سبيل الله تعالى حتى جاءت الفتنة التي قتل بها الخليفة عثمان بن عفان ﷺ .

تروي كتب التاريخ أن الأنصار قد استكبروا كثيرًا إقدام رهط من الناس على قتل عثمان بن عفان ﷺ ، وقد وقفوا من هذه الحادثة ، موقفا عظيمًا ومشرفًا ، فقد سعوا إلى كل صاحب قوة ومنعة أن يقف للدفاع عن عثمان ، ولمنع هؤلاء الذين يحاولون قتل الخليفة أو الاعتداء عليه .

حدثنا على بن محمد ، عن شيخ من بني حنظلة عن قيس بن رافع قال : قال زيد ابن ثابت: رأيت عليًّا ﷺ مضطجعًا في المسجد فقلت يا أبا الحسن إنهم يزعمون أنك لو شئت رددت عن عثمان ﷺ . فجلس وقال والله ما أمرت بشيء ، ولا دخلت في شيء من شأنهم قال فأتيت عثمان ﷺ فأخبرته فقال مزمل وفي الأصل مسبق بياض كلمة مزمل ولعله استشهد ببيت لامرئ القيس :

كـــأنّ ثبـــيرًا في عـــرانين وبلـــه كبـــيرُ أنـــاس في بجـــاد مزمـــل[1]

(١، ٢) تاريخ المدينة : ابن شبة ٤/ ١٢٠٥ ، ١٢٠٨

قال سعيد وحدثني صخر ، عن سعيد بن أبي عروبة قال جاءت الأنصار فقالوا : يا أمير المؤمنين دعنا نكن أنصار الله مرتين ، فأمرهم أن يرجعوا .

وفي رواية أخرى دخل زيد بن ثابت على عثمان ﷺ فقال هؤلاء الأنصار يقولون دعنا نكن أنصار الله مرتين قال عزمت عليكم لما رجعتم قال فرجعوا [(١)]

من هذا نرى أن الأنصار قد رغبوا في الذود عن عثمان ـ طاعة لله وطاعة لخليفة رسول الله ـ وأرادوا أن يدفعوا عنه المحاصرين الذين جاؤوا لقتله ، لكنه ﷺ رفض ذلك كما رفض مثل هذا العرض من غير الأنصار .

ولما قتل عثمان ﷺ صائمًا شهيدًا محتسبًا توزعت الأنصار على فئات ثلاث :

١ـ الفئة الأولى : بايعوا عليًّا وأخلصوا له تمام الإخلاص ، وساروا معه إلى أبعد الحدود ، حاربوا معه وقاتلوا وذادوا عنه ودافعوا عن حقه بخلافة المسلمين كما كان منهم الكثير من الولاة على الأمصار أو قواد الجيش ، ولم يكن هناك اتجاه معين حول هذا الموضوع فقد حضرت الأنصار بيعة على بن أبي طالب ، باعتباره أحق الناس وأعلمهم في ذلك الحين .

عن محمد ابن الحنفية قال كنت مع أبي حين قتل عثمان ﷺ فدخل منزله فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا إن هذا الرجل قد قتل ، ولابد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحدًا أحق بهذا الأمر منك ، ولا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله ﷺ فقال : لا تفعلوا ، فإني لكم وزير خير من أمير فقالوا : لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك قال : ففي المسجد فإن بيعتي لا تكونْ خفيًا ولا تكون إلا عن رضا المسلمين .

فقال عبد الله بن عباس فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يشغب عليه ، وأبي هؤلاء إلا في المسجد ، فلما دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه ، ثم بايعه

الناس، لم يكن في المسلمين من هو أحق وأليق من على بالخلافة وقتئذٍ[(١)]

وقد تعامل الأنصار مع علي ـ رضوان الله عليه ـ على أنه صاحب السلطان الحق خليفة رسول الله المبايع بيعة عامة وخاصة ، وأن أهل الحل والعقد قد قاموا بذلك وهم الأنصار والمهاجرون ، وقد نفذوا أوامره وتآمروا له ، وقد قام علي بعد ذلك بتعيين أمرائه على الأنصار فكان منهم ثلاثة من خمسة من الأنصار وهم :

١ـ عثمان بن حنيف : ولاه عَلِـيّ على البصرة وهو أنصاري من قبيلة الأوس شهد يوم أحد والمشاهد كلها بعدها واستعمله عمر بن الخطاب ﷺ على مساحة سواد العراق فمسحه ومشط خراجه .

٢ ـ أخوه قيس بن حنيف : ولاه علي على الشام وهو أنصاري أوسي شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وثبت يوم أحد وكان قد بايع الرسول يومئذ على الموت ، وكان يرمي النبل عن رسول الله ، وكان رجلًا حسن الجسم توفى في الكوفة سنة ٣٨ هـ وأخوهما سهل بن حنيف وهو الذي آخى رسول الله بينه وبين علي شهد المشاهد كلها مع رسول الله وثبت يوم أحد ، وكان رسول الله يقول :« **نبلوا سهلًا فإنه سهل**» . وقف مع علي بن أبي طالب وكان من أشد مؤيديه هو وإخوته ؛ ولاه على المدينة وكان أول الأمراء فيها حين خرج إلى البصرة لقتال أصحاب الجمل، وولايته على المدينة حمت أخاه عثمان من القتل عندما قتل حكيم بن جبلة وأريد قتل عثمان فيه فقال لهم إن أخى سهلاً والى علي على المدينة فلو قتلتمونى لانتصر من ذريتكم فخلوا سبيله[(٢)] وهو الذي كبر عليه على عندما مات في الكوفة ست تكبيرات .

٣ ـ قيس بن سعد بن عبادة : ولاه على على مصر أنصاري خزرجي ؛ كان من فضلاء الصحابة ومن ذوي الرأي الصائب والمكيدة في الحرب مع النجدة والشجاعة، وكان شريف قومه ومن بيت سيادتهم ، وكان يحمل راية الأنصار مع النبي ﷺ

---

(١) علي : محمد رضا ، ص ٦٠

(٢) الأوائل : أبو هلال العسكري ٢٨٧

ولجوده أخبار طويلة توفي سنة تسع وخمسين للهجرة ، وقد حاول معاوية إغراء قيس بن سعد بأن يترك عليا ، ويعيب عليه بعض أعمال أبيه سعد بن عبادة ، وكيف خذله قومه عندما خرج يطالب بالخلافة في سقيفة بني ساعدة ، فرد عليه قيس بكتاب بين له حاله ، وكان مما قال : دخلت الإسلام كرهًا وخرجت طوعًا ويذكره بتأخر إسلامه وإسلام أبيه وكان قيس موصوفًا بحسنه مع جماعة قد بزوا الناس طولا وجمالا ، منهم العباس بن عبد المطلب وولده وآخرون ، وكان يقال للواحد منهم : مقبل الظعن[(١)]

أما الواليان الآخران لعلي ﷺ فهما عبيد الله بن عباس ولاه على اليمن ، وعمارة ابن شهاب على الكوفة ، ومن الذين أخلصوا لعلي ﷺ أنس بن مالك وأبو أيوب الأنصارى ، وقد زار أبو أيوب معاوية في الشام فجافاه فذهب إلى البصرة فاستقبله عبد الله بن عباس ، وأعطاه داره وقال أعطيت دارك لرسول الله ونحن نعطيك دارنا وفاء لك ، وأعطاه أربعين ألفًا وأجرى له أعطيات كثيرة وأكرمه غاية الإكرام .

ومع هذا فقد انخرط أبو أيوب ﷺ جنديا تحت إمرة يزيد في خلافة أبيه معاوية في حصار القسطنطينية وتوفي هناك .

ويعتبر المبايعون لعلي رضوان الله عليه جل الأنصار تقريبا ، ويدل اختيار الولاة منهم بهذه النسبة أن غالبية مؤيديه منهم . وكان عمر قد ولى على حمص في سنة وفاته واليًا من الأنصار والباقي من المهاجرين أما على فقد اعتمد عليهم اعتمادًا كبيرًا ، وكان الأنصار بهذا التصرف قد خافوا من الفتنة بين جماعة المسلمين ، وكانوا مع الجماعة ومع الإمام خوفا من تفرق كلمة المسلمين وتشتت الجماعة ، ولذلك فقد أسهموا مساهمة كبيرة في خلافة الإمام على وابنه الحسن رضوان الله عليهم أجمعين .

٢ـ القسم الثاني من الأنصار : وهم المتريثون والذين اعتزلوا الفتنة ، فمنهم من كان مع عثمان وظن أن مبايعة على هي الضد لقتل عثمان ومنهم من ارتأى أن

---

(١) الكامل : المبرد ١/ ٤١٩

يعتزل كما فعل عدد كبير من الصحابة ومنهم سعد بن أبي وقاص ، ويمكن أن نقسم هؤلاء إلى قسمين :

أ ـ الذين اعتزلوا الناس ، والغالب أنهم لم يبايعوا عليا ومنهم :

محمد بن مسلمة : أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن ، أن رسول الله ﷺ أعطى محمد بن مسلمة سيفًا فقال له : « **قاتل به المشركين ما قوتلوا ، فإذا رأيت المسلمين قد أقبل بعضهم على بعض ، فاضرب الحجر به حتى تكسره ، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة ، أو منية قاضية** ».

أخبرنا عفان بن مسلم قال: أخبرنا أبو عوامة،عن أشعث بن سليم عن أبي بردة ، عن ضبيعة بن حصين الثعلبي قال كنا جلوسا مع حذيفة بن اليمان فقال إني لأعلم رجلًا لا تنقصه الفتنة شيئا. فقلنا: من هو؟ قال:محمد بن مسلمة الأنصاري ، فلما مات حذيفة وكانت الفتنة خرجت فيمن خرج من الناس فأتيت أهل ماء ، فإذا أنا بفسطاط مضروب تنحي تضربه الرياح .

فقلت لمن هذا الفسطاط ؟ قالوا لمحمد بن مسلمة ، فأتيته فإذا هو شيخ. فقلت له يرحمك الله أراك رجلًا من خيار المسلمين تركت بلدك ودارك وأهلك وجيرتك. قال : تركته كراهية الشر ، ما في نفسي أن تشتمل على مصر من أمصارهم حتى تنجلي عما انجلت .

أخبرنا سعيد بن محمد الثقفي قال أخبرنا إسماعيل بن رافع قال : أخبرنا زيد ابن أسلم عن محمد بن مسلمة قال أعطاني رسول الله ﷺ سيفًا : « **يا محمد بن مسلمة جاهد بهذا السيف في سبيل الله ، حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان ، فاضرب الحجر به حتى تكسره ، ثم كف لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية أو يد خاطئة** » فلما قتل عثمان وكان من أَمْرِ الناس ما كان خرج إلى صخرة في فنائه فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره وكان يقال له: فارس النبي صنع سيفًا من خشب وعلقه في بيته حتى يخيف من يريد به شرًا توفي بالمدينة سنة ٤٦ هـ . وصلى عليه مروان بن الحكم .

والذين يقولون بامتداد عمر أبي بن كعب إلى ما بعد مقتل عثمان يقولون:إنه اعتزل الفتنة ـ أيضًا ـ ولم يشأ الدخول فيها .

وأما حذيفة بن اليمان فقد وردت له أقوال كثيرة في هذه الفتنة وقد وردت في إسنادها [(١)]

ـ لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم،ويرث دنياكم شراركم .

ـ وذكر عثمان ﷺ فقال : ما أدرى أي الأمرين أردتم ؟ أردتم تناول سلطان قوم ليس لكم ، أم أردتم رد هذه الفتنة حين أطلعت خطمها فاستوت ؛ فإنها مرسلة من الله ترعى في الأرض حتى تطأ خطامها ، ليس أحد رادها ولا مانعها ، وليس أحد متروكًا أن يقول : الله الله إلا قتل ؛ فإن فعل ذلك ابتعث الله فزعا كفزع الجريف.

قال حذيفة : ما تعدون قتل عثمان ﷺ فيكم ؟ أتعدونه فتنة ؟ قلنا : نعم قال : هي والله أول الفتن وآخرها الدجال .

قال حذيفة عندما سمع بموت عثمان ﷺ اللهم لم أقر ، ولم أرض ولم أشهد (رويت بعدة أشكال)

وقال اللهم أنت تعلم إن كان قتل عثمان خيرًا ؛ فإنه ليس لي منه نصيب ، وإن كان شرا فإني منه بريء . وقال في مرضه : أي ساعة هذه ؟ قلنا : سحر . قال : اللهم إني أعوذ بك من صباح إلى النار ومسائها ، إني أبرأ إليك من قتل عثمان ﷺ اللهم اشهد لم آمر ولم أمالئ ، ثم أضجعناه فمات وكثيرون غير هؤلاء من الأنصار قد تجنبوا الفتنة وابتعدوا عنها

ب ـ القسم الثاني : ومن الذين لم يبايعوا عليا وكانوا عثمانيين وليسوا أمويين ـ على الغالب ، عن عبد الله بن الحسن قال : لما قتل عثمان ﷺ بايعت الأنصار عليًا إلا أن نفرًا يسيرا منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك ، ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن ثابت .

(١) تاريخ المدينة : ابن شبة ٤ / ١٢٤٦ وما بعدها .

وآخرون من المهاجرين أسامة بن زيد ، ورافع بن خديج ، وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عجرة كانوا عثمانية . فقال رجل لعبد الله بن حسن . كيف أبي هؤلاء بيعة علي وكانوا عثمانية . قال : أما حسان بن ثابت فكان شاعرا لا يبالى بها يصنع : وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال ، فلما حضر عثمان قال يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين ، فقال له أبو أيوب ـ وقد أيد عليا: ما تنصره إلاّ أنه أكثر لك من العضدان .

وأما كعب بن مالك : فقد استعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له، وقد رثى عثمان بأحسن ما قيل قال :

وكفُ يديه ثم أغلق بابه	وأيقنَ أنَ اللهَ ليس بغافلِ
وقال لمن في داره لا تقاتلوا	عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل
فكيف رأيت الله صبَّ عليهم الـ	ـعدواة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر عنهم	وولى كإدبار النعام الجوافل
وقال:من مبلغ الأنصار عني آية	رسلا تقص عليهم التبيانا
أن قد فعلتم فعلة فصلة مذكورة	كست الفضوح وأبدت الشنآنا
بقصودكم في داركم وأميركم	يغشى ضواحي داره النيرانا
بينا يرجى دفعكم عن داره	ملئت حريقا كابيًا ودخانا
حتى إذا خلصوا إلى أبوابه	دخلوا عليه صائمًا عطشانا
يعلون قلته السيوف وأنتم	متلبثون مكانكم رضوانا
الله يعلم أنني لم أرضه	لكم ضنيعًا يوم ذاك وشانا
يا لهف نفسي إذ يقول ألا أرى	نفرًا من الأنصار لى أعوانا
والله لو شهد ابن قيس ثابت	ومعاشر كانوا له إخوانا

وأبـو دجانـه وابـن أقـرم ثابـت   وأخـو المـشاهد مـن بنـي عجلانـا
ورفاعـة العمـري وابـن معـاذهم   وآخـر معـاوي لم يخـف خـذلانا
قـوم يـرون الحـق نـصر أمـيرهم   ويـرون طاعـة أمـره إيمانـا

أبو دجانة ـ سماك بن خرشة : وابن أقرم : ثابت البلوي . وأخو المشاهد من بني عجلان معن بن عدى . ورفاعة بن عبد المنذر العمرى . وابن معاذ : سعد بن معاذ ، وأخو معاوية المنذر بن عمرو الساعدي ـ (عقبي ـ بدري) [(١)]

وهؤلاء من الذين استفادوا من عهد عثمان، او كانوا له ولاة، أو أصحاب إمارة، ومما يلاحظ أن أحد الأنصار شارك الثوار في مقتل عثمان وهو رفاعة بن عمرو الأنصاري[(٢)] أحرق باب عثمان ودخل عليه وهو الذي أصاب مروان بن الحكم فتظاهر بالموت حتى نجا منه .

٣ ـ أما الفتنة الثالثة : فهم العثمانيون والذين التحقوا بمعاوية طلبًا لثأر عثمان ووقفوا ضد علي ﷺ واعتبروه مسؤولا عن دم عثمان ، أو على الأقل لم يقتص من قتلته . ومن هؤلاء بعد مقتل عثمان هرب قوم من المدينة إلى الشام ، ولم يبايعوا عليا، لم يبايعه قدامه بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وصهيب أم الوليد وسعيد ومروان فخرجوا إلى مكة .

إلا أن الأنصاري الكبير النعمان بن بشير بن سعد فإنه أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التي قطعت وقميص عثمان الذي قتل فيه وهرب به فلحق بالشام فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع ، فإذا رأي أهل الشام ازدادوا غيظا وجدًّا في أمرهم . ثم رفعه ، فإذا أحس منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص حرك لها حوارها تحن[(٣)]

---

(١) الأغاني : ١٥ / ٣٦ ـ ٢٧

(٢) ورد عنه في الطبقات ٣ / ٥٤٤ أنه ممن شهد العقبة ومعركتي بدر وأحد وقتل في أحد شهيدا . ولعل هذا غير ذلك ـ تاريخ المدينة : ابن شبه ٤ / ١٢٧٩

(٣) علي : محمد رضا ، ص ٦١ ـ ٦٢

ومن المعلوم أن النعمان بن بشير الأنصاري الذي حمل قميص عثمان وأصابع زوجته قد عمل واليًا لمعاوية ثم واليًا ليزيد ، ونال حظوة عندهم لكنه تحول إلى عبد الله بن الزبير عندما نادى بالخلافة لنفسه في مكة فقد جعل الأمويون ينقمون عليه ، وقد استفتح مروان بن الحكم حكمه بعد القضاء على ابن الزبير بمقتل النعمان بن بشير كما ورد سابقا

هذه صورة مجملة لموقف الأنصار من الفتنة بعد مقتل عثمان ﷺ وموقف الأنصار من على ومعاوية ..

وهكذا تفرقت جماعة الأنصار كما تفرقت الجماعة الإسلامية كلها بعد هذا الحدث الجلل ، إلاّ أن عام ٤٠ للهجرة وهو العام الذي اجتمعت فيه الأمة على معاوية عاد الأنصار إلى سابق عهدهم مجاهدين علماء رضي الله عنهم وأرضاهم .

المصادر والمراجع

١ـ إبراهيم بن عبد الله الأنصاري إرشاد الحيران لمعرفة أي القرآن ، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاري ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م .

٢ـ إبراهيم على سعوط ـ دكتور ـ : أباطيل يجب أن تمحي من التاريخ ، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، دمشق، سوريا، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م .

٣ ـ إبراهيم مصطفي وآخرون : المعجم الوسيط، دار الدعوة، إستامبول، تركيا، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م .

٤ ـ إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين ، دار المعرفة بيروت ، لبنان .

٥ ـ إبراهيم زكي خورشيد وآخرون دائرة المعارف الإسلامية إصدار دار الشعب ، القاهرة وطبعة أخرى إصدار دار المعارف ، لبنان ، بيروت .

٦ـ ابن الأثير ، علي بن أحمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير ، ٦٣٠ هـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان (د . ت) .

٧ ـ ابن الأثير ، أبي الحسن علي بن أحمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب بعز الدين ، م ٦٣٠ هـ : الكامل في التاريخ ، ١٠ أجزاء ، لجنة من العلماء ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م .

٨ ـ ابن الأثير ، أبو السعادات مبارك بن الأثير الجزرى ٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ ، أشرف على طبعه الشيخ عبد المجيد سليم ـ شيخ الجامع الأزهر ، حققه محمد حامد الفقي ـ رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية، ١٢ مجلدًا، ط ٤، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م . أعادت طبعه : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٩ـ ابن حبيب أبو جعفر محمد بن حبيب : مختلف القبائل ومؤتلفها ، تحقيق: إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب الإسلامي ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني .

١٠ـ ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، الطبعة الخامسة .

١١ـ ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد قلائد الذهب في جمهرة أنساب العرب ، تقديم وتعليق وتسخير : كامل سليمان الجبوري ، المكتبة العلمية ، بغداد ، العراق ، ط ١ ، ١٩٨٧م .

١٢ـ ابن دريد ، محمد بن الحسن بن دريد بن عتاتبة الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٧٩م مجلدان ، ط٢

١٣ـ ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري ، المكني بأبي عبد الله: الطبقات الكبرى ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م .

١٤ـ ابن سيد الناس ، فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله ابن محمد لحي بن سيد الناس الشافعي: عيون الأثر في فنون المغازي والسير، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

١٥ـ ابن عبد ربه ، شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي العقد الفريد : تقديم الأستاذ خليل شرف الدين ، منشورات دار مكتبة الهلال ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م، بيروت ، لبنان .

١٦ـ ابن القيم ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد محمد خاتم النبيين ﷺ ،

حقق نصوصه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، مؤسسة المنار الإسلامية ، ط ٢ ، ١٩٨٥م .

١٧ ـ ابن القيم ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم : أعلام الموقعين عن رب العالمين ، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجبل للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٣م .

١٨ ـ ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي : تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٨٦ ، ٤أجزاء + جزء فهارس .

١٩ ـ ابن كثير ، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير : السيرة النبوية ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ، ٤ أجزاء .

٢٠ ـ ابن كثير ، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير : الفصول في اختصار سيرة الرسول ، تحقيق محمد العيد الخطراوى ، محيي الدين مستو ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، بيروت ، دار العلم ، دمشق ، بيروت .

٢١ ـ ابن كثير ، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، ٧٧٤هـ : البداية والنهاية ، ضبط وتصحيح : مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان ، ط٦ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

٢٢ ـ ابن كثير ، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، ٧٠٠ ـ ٧٧٤ : قصص الأنبياء، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٨٥م.

٢٣ ـ ابن النديم ، محمد بن إسحاق الوراق المعروف بابن النديم : الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٨م.

٢٤ ـ ابن هشام السيرة النبوية ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها : مصطفي السقا ، إبراهيم الإبيارى ، عبد الحفيظ شلبي ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ٤أجزاء .

٢٥ ـ أبو الحسن على الحسيني ، الندوي : السيرة النبوية ، إصدار دار الشروق ، جدة ، السعودية .

٢٦ ـ أبو زيد ، عمر بن شبة النميري البصري : تاريخ المدينة المنورة ، تم طبعه ونشره على نفقة السيد حبيب محمود أحمد ، تحقيق : فهيم شلتوت ، دار الأصفهاني للطباعة والنشر ، وضع فهارسه : د. بكري شيخ أمين .

٢٧ ـ أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم المعروف بأبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة: الخراج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٢٨ ـ أحمد بن حنبل ـ الإمام ـ : المسند ، وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، دار صادر ، بيروت ، لبنان والمكتب الإسلامي .

٢٩ ـ أحمد شلبي ، دكتور ـ : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة ، مصر ، القاهرة ، ١٩٨٤م ، الطبعة الحادية عشرة .

٣٠ ـ أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي ، مكتبة النهضة الإسلامية ، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م .

٣١ ـ أحمد أبو الفضل عوض الله : مكة في عصر ما قبل الإسلام ، مطبوعات دار الملك عبد العزيز ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨م ـ ١٣٩٨هـ .

٣٢ ـ ادوارد عطية : العرب ، ترجمة : محمد قنديل البقلى ، مراجعة : محمد مأمون نجا ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر .

٣٣ ـ إسرائيل ولفنستون تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، طبع مصر ، ١٩٢٧م.

٣٤ ـ الأصبهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني : (كتاب) دلائل النبوة ، عالم الكتب ، بيروت .

٣٥ ـ الأصبهاني ، أبو الفرج الأصبهانى الأغاني ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ٢١ جزءًا ، ٧ مجلدات .

٣٦ ـ أمين مدني : التاريخ العربي مصادره : (العرب في أحقاب التاريخ) ، نشر دار المعارف ، مصر ، القاهرة .

٣٧ ـ أ.ي ، ونسنك ، وي ب منسنج المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، أتبع نشره (ي ـ بروخمان) ، دار الدعوة ، إستامبول ، تركيا ، ١٩٨٦م .

٣٨ ـ البخاري ، العلامة أبو محمد بن إسماعيل البحاري صحيح البخاري بحاشية السندي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

٣٩ ـ البسنوي ، العلامة الشيخ علاء الدين علي دده.السكتواري البسنوي محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ، دار الكتب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٧٨م .

٤٠ ـ بطرس البستاني ـ المعلم كتاب (دائرة المعارف) ، مطبعة المعارف ، بيروت ، ١٨٨٠م .

٤١ ـ بطرس البستاني ـ المعلم : أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، طبع دار مارون عبود ، إصدار ديار العرب ، ١٩٧٩م .

٤٢ ـ البغدادي ، محمد بن حبيب بن أمين بن عمرو المعروف بابن حبيب البغدادي : مختلف القبائل ومؤتلفها ، بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٨٥٠

٤٣ ـ البكرى ، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد المعروف بأبي عبيد البكي معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق : مصطفى السقا ، ط٣ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٣م .

٤٤ ـ البلاذري ، الإمام أبو الحسن البلاذري ، راجعه وعلق عليه : رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٤٥ ـ أحمد بهجت : أنبياء الله ، دار الشروق ، ط١١ ، ١٩٨١م .

٤٦ ـ التبريزي ، يحيى بن على بن محمد بن الحسن المعروف بالخطيب التبريزي : شرح المفضليات ، تحقيق على محمد البجاوي ، القاهرة ، مصر ، دار نهضة مصر (د.ت) .

٤٧ ـ جرجي زيدان : تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار الحياة ، بيروت .

٤٨ ـ الجمحي ، محمد بن سلام الجمحي طبقات فحول الشعراء ، قدَّم له وعلق عليه واختار نصوصه علي أبو زيد ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، سوريا ، ١٩٨٥م .

٤٩ ـ الجوهري ، إسماعيل بن حماد الجوهري صحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور ـ عطار ، ط٢ ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٩م ، بيروت .

٥٠ ـ جواد علي ـ دكتور المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ومكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٧٦م .

٥١ ـ حسن إبراهيم حسن ـ دكتور ـ : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، مصر ، ط٧ ، ١٩٦٤م إصدار ، إحياء التراث العربي بيروت ، لبنان .

٥٢ ـ حسنين محمد مخلوف ـ الشيخ ـ مفتي الديار المصرية سابقا : صفوة البيان لمعاني القرآن ، طبع على نفقة لجنة الاحتفالات بمقدم القرن الخامس عشر الهجري ١٤٠٠هـ .

٥٣ ـ الحسن بن أحمد بن يعقوب المعروف بأبي الحانك الهمداني : صفة جزيرة العرب ، تحقيق : محمد بن على الألوع الرياض ، السعودية ، دار اليمامة ، ١٩٧٤م .

٥٤ ـ الحموي ، الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله

الحموي الرومي البغدادي:معجم البلدان،دار صادر،دار بيروت، ١٣٩٩/ ١٩٧٩م ، من معجم البلدان ، اختيار عبد الإله نبهان ، إصدار وزارة الثقافة ، دمشق ، سوريا .

٥٥ ـ خليل إبراهيم السامرائي : المظاهر الحضرية المدينة المنورة في عصر النبوة ، ١٠ ـ ١١هـ ، ٦٢٢ ـ ٦٣٢م ـ ، ثائر حامد محمد ، الموصل ، العراق ، ١٩٨٤م .

٥٦ ـ خليل ياسين : محمد عند علماء الغرب، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط٣ ، (١٩٤٨) .

٥٧ ـ دحلان ، أحمد بن زيني دحلان : السيرة النبوية ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م .

ـ دحلان ، أحمد زيني دحلان ـ مفتي السادة الشافعية بمكة المكرمة السيرة النبوية والآثار المحمدية ، هامش على السيرة الحلبية ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٦٢م ـ ١٣٨٢هـ .

٥٨ ـ داود سلوم ـ دكتور ـ ونوري حمودى القيسي (دكتور) : شخصيات كتاب الأغاني ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

٥٩ ـ الذهبي ، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبس ، م ٧٤٨هـ ـ ١٣٧٤م .

ـ سيرة أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد ، نشر مؤسسة دار الرسالة ، لبنان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٦٠ ـ الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : مختار الصحاح ، مكتبة النوري ، دمشق ، سوريا .

٦١ ـ رشيد الجبيلي ـ دكتور ـ :تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدولة الإسلامية ، طبعة أولى ، ١٩٧٦م .

٦٢ ـ الزبيدي ، محمد مرتضى بن محمد بن الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٠٦هـ .

٦٣ ـ الزمخشري ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري أساس البلاغة ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٦٤ ـ الزنجاني ، محمد بن أحمد الزنجاني : تهذيب الصحاح ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون وأحمد عبد الغفور ، نشر : محمد سرور الصبان ، إصدار : دار المعارف بمصر .

٦٥ ـ السخاوى ، شمس الدين السخاوي التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، نشر : أسعد طرابزوني ، ١٣٩٩/ ١٩٧٩

٦٦ ـ سليمان سليم البواب : مئة أوائل من النساء ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، دمشق ، سوريا ، طبعة أولى ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٤م .

٦٧ ـ السمهودي ، نور الدين على بن أحمد السمهودي وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، مجلدان ، ٤أجزاء ، دار إحياء التراث العربي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٤/ ١٩٨٤م .

٦٨ ـ السمهودي ، على بن عفيف الدين بن علي بن أحمد السمهودي : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ، دار الطباعة العامرة ، ١٢٨٥هـ .

٦٩ ـ السهيلى ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي (٥٠٨ ـ ٥٨١)هـ : الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، ومعه السيرة النبوية للإمام أبي محمد بن عبد الملك بن هشام ، تقديم : طه عبد الرؤوف ، ٤أجزاء ، دار المعرفة ، لبنان ، بيروت .

٧٠ ـ سيد عبد العزيز سالم ـ دكتور ، أستاذ التاريخ الإسلامي ، جامعة القاهرة. تاريخ العرب قبل الإسلام ، الناشر : مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، مصر .

٧١ ـ سيد قطب : في ظلال القرآن ، ط٩ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٠م .

٧٢ ـ شوقي ضيف ـ دكتور ـ تاريخ الأدب العربى والعصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة العاشرة ، ١٩٧٧م .

٧٣ ـ الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني ـ ٥٤٨هـ : موسوعة الملل والنحل ، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، لبنان ، ١٩٨٠م .

٧٤ ـ الشيباني مجيد الدين عبد الرحمن بن على بن محمد (ابن الربيع الشيباني): حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ، حققه : عبد الله إبراهيم الأنصاري ، أشرف على طبعه : يحيى عمارة ، ٢ جزء ، طبع دمشق ، سوريا

٧٥ ـ صالح أحمد الشامي: من معين السيرة ، نشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق .

٧٦ ـ الصحاري ، مسلمة بن مسلم العويتي الصحاري الأنساب ، إصدار وزارة التراث القومي والثقافة ، مسقط ، عمان .

٧٧ ـ الطاهر أحمد الزاوي ـ مفتى ليبيا ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ، إصدار عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، توزيع : دار الباز ، مكة المكرمة .

٧٨ ـ الطبرسي ، الشيخ أبو على الفضل بن الحسن الطبرسي مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٠ أجزاء ، ٥ مجلدات ، دار إحياء التراث العربي ، وقف على تصحيحه وتحقيقه والتعليق عليه : السيد هاشم الرسولى المحلاني .

٧٩ ـ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ، بيروت ، لبنان .

٨٠ ـ الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ٣١٠هـ: جامع البيان عن تأويل القرآن، في تفسير القرآن مكتبة مصطفي البابي الحلبي،القاهرة ط٣، ١٩٦٨م .

٨١ ـ ظافر القاسمي نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (الحياة الدستورية) ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، ط٥ ، ١٤٠٥ـ ١٩٨٥م .

٨٢ ـ العامري ، الإمام يحيى بن أبي بكر العامري اليمني : الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة ، أشرف على ضبطه : عمر الديراوى أبو حجلة ، نشر : مكتبة العارف ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٧٩م .

٨٣ ـ عباس محمود العقاد : مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، صيدا ، لبنان .

٨٤ ـ عبد الرحمن أبو الفرج بن أحمد بن رجب الحنبلي م ٧٩٥هـ : الاستخراج لأحاكم الخراج ، صححه عبد الله الصديق ، نشر دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٨٥ ـ عبد الرزاق محمد الأسود ـ العميد ـ حياة الرسول المصطفى ، الدار العربية للموسوعات ، دار المسيرة ، بيروت ، لبنان .

٨٦ ـ عبد الرازق محمد الأسود ـ العميد ـ : المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، الدار العربية للموسوعات، ط١ ـ ١٩٨١م ـ ١٤٠١هـ، بيروت ، لبنان .

٨٧ ـ عبد المنعم الهاشمي أنصار رسول الله ، دار الحكمة ، دمشق ، سوريا ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٨٨ ـ العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلاني ، ٨٥٣ هـ : الإصابة في تمييز الصحابة ، وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب : (ابن عبر البر السخري القطرجي) م ٤٦٣ هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٣٢٨ هـ .

٨٩ ـ العسكري ، أبو هلال العسكري : من كتاب (الأوائل) . اختيار وتقديم: محمد المصرى ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ١٩٨٤م .

٩٠ ـ على برهان الدين الحلبى الشافعى إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية ، وبهامشها السيرة النبوية والآثار المحمدية أحمد زيني

المشهور بدحلان المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢م .

٩١ ـ عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان / ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٦٧٩م .

٩٢ ـ عمر فروخ ـ دكتور: تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، مارس ١٩٨٤

٩٣ ـ الغزالي ، للإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي إحياء علوم الدين ، وبذيله المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم الحسين العراقي ملحق به تعريف الأحياء بفضائل الإحياء والإملاء من إشكالات الإحياء ، عوارف المعارف ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٩٨٢م/ ١٤٠٢هـ .

٩٤ ـ فرانز روزنتال علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة / بيروت ، لبنان ، د ت .

٩٥ ـ فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، ترجمة الدكتور : محمود محمد فهمس حجازى ، مراجعة الدكتور عرفة مصطفى ، الدكتور : سعيد عبد الرحيم نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ، السعودية ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .

٩٦ ـ الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي القاموس المحيط ، دار الجيل ، ٤ أجزاء .

٩٧ ـ فيليب حتى الإسلام منهج الحياة ، ترجمة الدكتور عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ، مارس ١٩٨٣م .

٩٨ ـ القرطبي ، عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي م ٦٧١ هـ : الجامع لأحكام القرآن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ١٩٦٧م .

٩٩ ـ القرماني ، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقي (الشهير بالقرماني) (كتاب) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، إصدار عالم الكتاب ، بيروت ، مكتبة المثنى ، بغداد ، مكتية سعد الدين ، دمشق

١٠٠ ـ القفطي ، علي بن يوسف القفطي : إنباه الرواة على أبناء النحاة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٧٣م.

١٠١ ـ القلقشندي ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله القلقشندي سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، المكتبة العلمية، ط١ ، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م.

١٠٢ ـ القلقشندي ، أحمد بن على بن أحمد الفزارى القلقشندي ٧٥٦ ـ ٨٢١ هـ: من كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، سلسلة المختار من التراث العربي ، اختيار النصوص عبد القادر زكار ، منشورات وزارة لثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، سوريا .

١٠٣ ـ القلقشندي : شهاب الدين أبو العباس بن أحمد بن عبد الله القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب تحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني .

١٠٤ ـ ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب المعروف بابن الكلبي : الأصنام ، تحقيق : أحمد زكي ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ، نسخة مصورة عن دار الكتب ، ١٩٢٤

١٠٥ ـ الكتاب المقدس : دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط بالعربية .

١٠٦ ـ لبيب عبد الساتر : الحضارات، دار الشروق ، بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٨٣

١٠٧ ـ الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م .

١٠٨ ـ المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي م ٢٨٥ هـ : الكامل في اللغة والأدب ، كتب هوامشه نعيم زرزور وتفاريد بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م .

١٠٩ ـ محمد أحمد باشميل : العرب في الشام قبل الإسلام ، نشر : دار الفكر ، ط١ ، ١٩٧٣

١١٠ ـ محمد أحمد جاد المولى بك : أيام العرب في الجاهلية .

١١١ ـ محمد بن أحمد بن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، نشر دار العلوم الحديثة ، بيروت ، مكتبة الشرق الجديد ، بغدتد ١٩٨٣

١١٢ ـ محمد عبد الله الزركشى إعلام الساجد بأحكام المساجد ، تحقيق : أبو الوفا مصطفي المراغى ، إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف ، دولة الإمارات ، أبو ظبى ١٣٩٧ هـ .

١١٣ ـ محمد بيومى مهران ـ دكتور : دراسات في تاريخ العرب القديم ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م .

١١٤ ـ محمد جلال شرف ـ دكتور ، وعلى عبد المعطي محمد ـ دكتور الفكر السياسي في الإسلام (شخصيات ومذاهب) ، دار الجامعات المصرية ، الإسكندرية، مصر ، ١٩٧٨

١١٥ ـ محمد الخضري بك ـ شيخ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .

١١٦ ـ محمد الخضري بك ـ شيخ : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ، تحقيق : الشيخ نايف العباسي ، محيي الدين مستو ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٠م .

١١٧ ـ محمد الخضري بك ـ شيخ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، المكتبة

التجارية الكبرى ، القاهرة ، مصر ، ١٩٦٩م .

١١٨ ـ محمد رضا أبو بكر الصديق (أول الخلفاء الراشدين) ، ضبطه وعلق عليه ووضع فهارسه (سليمان سليم البواب) ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، دمشق، بيروت .

١١٩ ـ محمد رضا ذو النورين (عثمان بن عفان) ، جمع وإعداد الفهارس سليمان سليم البواب ، دار الحكمة ، دمشق ، بيروت .

١٢٠ ـ محمد رضا : الإمام على (علي بن أبي طالب) ، جمع وإعداد : سليمان سليم البواب ، دار الحكمة ، دمشق ، بيروت .

١٢١ ـ محمد رضا :الفاروق (عمر بن الخطاب)، جمع وتعليق وإعداد الفهارس : سليمان سليم البواب ، دار الحكمة ، دمشق ، بيروت .

١٢٢ـ محمد رواس قلعجى : التفسير السياسي للسيرة على ضوء اقتصار تهذيب السيرة لابن هشام ، دار السلام للنشر ، بيروت ، حلب ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .

١٢٣ ـ محمد السيد الوكيل ـ دكتور : موسوعة المدينة التاريخية : ١ ـ يثرب قبل الإسلام ، ٢ ـ المدينة المنصورة عاصمة الإسلام الأولى ، ٣ ـ الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، جدة ، السعودية ، ط١ ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م .

١٢٤ ـ محمد الصادق عرجون : محمد رسول الله (منهج ورسالة) ، دار القلم ، دمشف ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

١٢٥ ـ محمد العيد الخطراوي ـ دكتور : المدينة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والعهد الأموي، مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، ومؤسسة علوم القرآن، دمشق ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م .

١٢٦ ـ محمد العيد الخطراوي ـ دكتور شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس

والخزرج ، مؤسسة علوم القرآن ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م .

١٢٧ ـ محمد الغزالي فقه السيرة ، نشر : الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، دار القرآن الكريم ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م .

١٢٨ ـ محمد فؤاد عبد الباقي المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

١٢٩ ـ محمد كرد علي خطط الشام ، مكتبة النووي ، دمشق ، سوريا ، ط٢ ، ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣م .

١٣٠ ـ محمد يوسف الكاندهلوي : حياة الصحابة ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ٣ مجلدات .

١٣١ ـ محمود شاكر موسوعة التاريخ الإسلامي ـ السيرة النبوية ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ، ط٣ ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .

١٣٢ ـ محيي الدين الدرويش : إعراب القرآن الكريم وبيانه ، ١٠ مجلدات ، دار اليمامة ، دمشق ، بيروت ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت دار الإرشاد للشؤون الجامعية ، حمص ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م .

١٣٣ ـ المسعودي ، الحسن بن علي بن الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، ط ١ ، ١٩٨٢م ـ ١٤٠٢ هـ .

١٣٤ ـ مسلم ، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري : صحيح مسلم بشرى النووي ، ومحيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحوارني (النووي) الشافعي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

١٣٥ ـ مصطفي السباعي ـ دكتور السيرة النبوية ـ دروس وعبر ، المكتب الإسلامي ، ط٨ ، ١٩٨٥

١٣٦ـ المعري ، أحمد بن عبد الله بن سليمان أبو العلاء المعري : رسالة الغفران تحقيق : بنت الشاطئ ، ط ٧ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧

١٣٧ـ معن شناع العجلي الحكامي : بلوجستان ـ ديار العرب ، ط١ ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٨م .

١٣٨ـ المقدسي ، محمد بن أحمد المقدسي من كتاب : (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ، اختيار النصوص والتعليق عليها (غازي طليمات) ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق ، سوريا ، ١٩٨٠م .

١٣٩ ـ المقريزي ، تقي الدين أحمد بن على المقريزي : إمتاع الأسماع نشر عبد الله الأنصارى ، طبع على نفقة وزارة الشؤون الدينية ، الدوحة ، دولة قطر ، صححه: محمود محمد شاكر ، ط ٢

١٤٠ـ منصور على ناصف ـ الشيخ : التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ وعليه : غاية المأمول ـ شرح التاج الجامع للأصول ، ط٢ ، ١٩٨١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

١٤١ـ منير محمد نجيب غضبان : المنهج الحركي للسيرة النبوية ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ -١٩٨٦م .

١٤٢ـ موريس كروزية ـ مفتى المعارف العام بفرسا : تاريخ الحضارات ، ترجمة : فريد داغر ـ فؤاد أبو ريحان ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس .

١٤٣ـ نبيه عاقل ـ دكتور : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، نشر دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ١٩٧٥م .

١٤٤ـ نجيب العقيقي : المستشرقون ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ، ١٩٧٩م .

١٤٥ـ النسفي ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي : تفسير القرآن الجليل (المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

١٤٦ـ النصري ، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري : تاريخ أبي زرعة الدمشقي ، م ٢٨١ هـ ، تحقيق : شكر الله نعمة الله التوجاني ، مطبوعات : مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨٠م .

١٤٧ـ نور الدين القاري الهرزي الحنفي المشهور ملا علي قاري : شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا ، تحقيق : حسنين مخلوف ـ مفتي الديار المصرية ، مطبعة المدني ٦٨ شارع العباسية ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ .

١٤٨ـ النووي ، أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي المتوفي ٦٧٦ هـ المجموع شرح المهذب ، ويليه فتح العجيز (شرح الوجيز) لأبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي المتوفي ٦٢٣ هـ ، التلخيص الحبير في تخريج الرافعى الكبير: لأبي الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلاني ، متوفى ٨٥٢ هـ ، دار الفكر، بيروت ، لبنان ، ٣٢ مجلدًا .

١٤٩ـ النيسابوري،الشيخ الإمام أبي الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول ، ويليه الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامي أبي النصر ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .

١٥٠ـ النيسابوري ، أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم النيسابوري الثعلبي قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ٤ ، ١٩٨٥م .

١٥١ـ نينا فكتور قنا بيغوليفسكيا : العرب على حدود بيزنطية وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، ترجمة عن الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم ، أشرف على طبعة : قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

١٥٢ـ الهمداني ، حسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف الهمداني الإكليلي من أخبار اليمن وأنساب حمير التاب العاشر في معارف همدان وأنسابها ، وعيون أخبارها ، تحقيق : محمد الدين الخطيب ، بيروت ، الدار اليمنية ، ١٩٨٧م .

١٥٣ـ الهندي ، على بن حسام الدين بن عبد الملك الهندي : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تحقيق صفوة السقا ، ط٥ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨١، ويلحق به المرشد إلى كنز العمال ، تصنيف نديم وأسامة مرعشلي ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧ ـ ١٩٨٦م .

١٥٤ـ الوزير ، الحسين بن علي بن الحسين بن على بن محمد المعروف بالوزير الإيناس بعلم الأنساب ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط٢ ، بيروت ، لبنان ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٠م .

١٥٥ـ الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد المعروف بالواقدي كتاب المغازي تحقيق الدكتور : مارسون جنز ، عالم الكتاب ، بيروت ، ط ٣

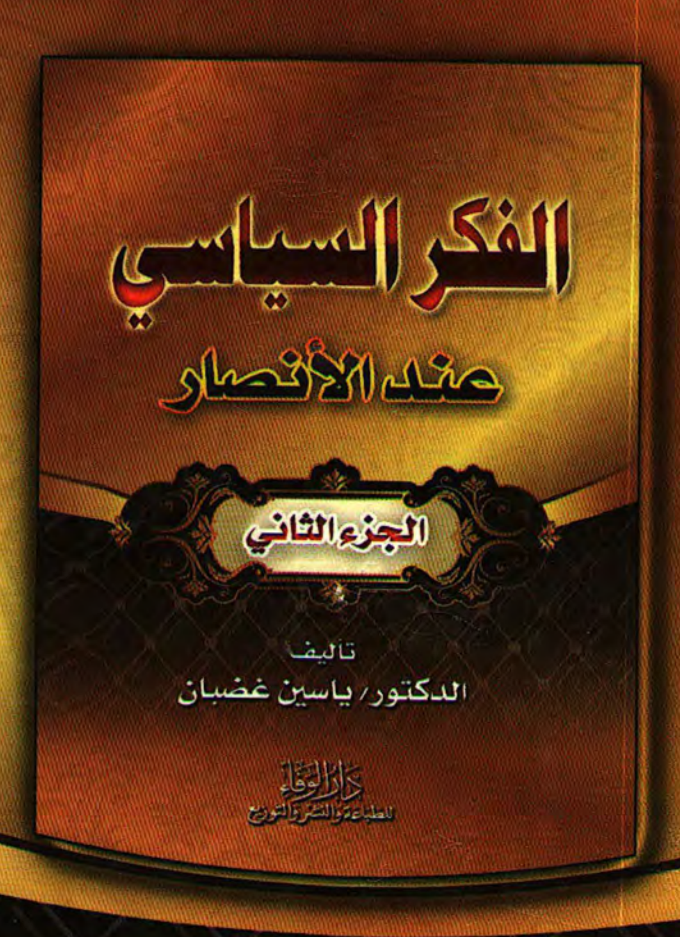
١٥٦ـ يحيى بن آدم : (كتاب) الخراج ، صححه وشرحه : أحمد محمد شاكر ، دار المعرفة ، بيروت .

١٥٧ ـ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٠م .

فهـــــــرس الموضوعات

رقم الإيداع: ١٣٩٩٦/ ٢٠١٣

I.S.B.N: 978 -977-15 -0670 -6



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
الإدارة والمكتبة: 5 شارع هجرس - أمام كلية طب المنصورة - ص.ب: 230
ت: 20502370863+ فاكس: 20502370863+
E.mail: darelwafa2005@yahoo.com & darelwafa@hotmail.com
www.darelwafaa.com

